مرآة الحرمين

**

إبراهيم رفعت

**

الجزء الأوّل

مرآة الحرمين

أو

الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية

محلاة

بمئات الصور الشمسية

تأليف ورسم

اللواء

ابراهيم رفعت باشا

قومندان حرس المحمل فى سنة ١٣١٨ / ١٩٠١ وأمير الحج فى سنة ١٣٢٠ / ١٩٠٣ وسنة ١٣٢١ / ١٩٠٤ وسنة ١٣٢٥ / ١٩٠٨ هـ / م

الجزء الأول

(الطبعـــة الأولى)

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٤٤ هـ — ١٩٢٥ م

(أنظر الفهرس الهجائى فى آخر الجزء)

محتويات الجزء الأوّل

المسجد الحرام

فهرس رسوم الجزء الأوّل



Sa Majesté Fouad I.
Roi d'Egypte

تصوير المستر هنزلمان بمصر

تقـديم الكتاب

الى حضرة صاحب الجلالة ملك مصر المعظم فـؤاد الأوّل

أيد الله ملكه

مـولاى

لقد تسامى عصركم على الأعصار . وزهت مصر فى عهدكم على الأقطار فهذه نهضة العلوم والمعارف قد استوت . وتلك أفنانها قد اهتزت وربت . وأكمامها قد تفتحت فآتت أكلها ضعفين . بهمة مليكها . شبل اسماعيل ومحيي مجد وادى النيل .

وتلك مكة أم القرى . وطيبـة مقرّ الهـدى . والبيت المعمور وما اليها من معاهد . بارك الله حولهـا . وشاد فى القرآن بذكرها . بجعلها مثابة للناس وأمنا . تلك المعاهد . تسـدى اليك يا أبا الفاروق : شكران من حباها جلالته وآباؤه الغر الميامن بفيض كرمهم وأسـبغوا عليها وفير نعمهم . ونفروا خفافا لنصرتها فلما جار الحجاز : رب أنى مسنى الضر . كان أسرع الأقطار لتأييده واعزازه مصر وما مصر إلا مآثر آبائك الصـيد ومكارم كل غضنفر كبير القلب حديد قد اشـترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الذكر الحميد فى اعلاء شأن الاسلام والمسلمين .

فقـديمـا حمى جدّكم الأعلى حمى الحرمين . وعنى بقداسـة القبلتين ثم درج على سنته أبوكم ابراهيم فاذا بتلك الأقطار وقد أمنت مسالكـها وسهلت مباركها ومهايعـــها .

وجاءت رعايتكم السامية فى أزمانكم الزاهيـة مصدقة لمـا بين يديها من عطف سام على الحرم الأقدس وعناية ملكية بالأثر الأشرف :

منن لكم ولآبائكم خالدات * وأياد على الدهر باقيات

يحفظها لجلالتكم المسلمون بين طيات قلوبهـم . ويرددها الحجيج فى عرفة يوم الحج الأكبر . وينقشها الزمان على جبين الكعبة تفيض نورا وتحـدث عن مآثركم أصائل وبكورا .

وهذا كتاب حملنى على تأليفه حب شغف به قلبى لتلك البقعة المباركة التى أنزل الله فيها على عبده الكتاب فدرج فيها الدين وأشرقت منها شمس الهداية على العالمين جمعته وأنا أتشرف كل عام بايصال رفد بيتكم بيت اسماعيل وابراهيم الى بيت رفع قواعده ابراهيم واسماعيل ، وبالسفارة بين موالى وملوكى الأخيار وبين ساكن الروضة الشريفة المعطار .

وليس فيـه إلا كل نقيبة من نقائب المجد لديكم ومحمدة تنطق بالثناء عليكم فهو منكم واليكم والحمد لله ان جاء مرآة صادقة للمشاعر الطاهرة وصورة حقيقية برسومه الوافــرة .

وإنى أرفعـه لسدّتكم العلية وأنزله بساحتكم السنية كلأ الله ذاتكم وحاط باليمن أيامكم ورعى بتوفيقه سموّ ولى العهد المحروس آمين ٥

العبـد المخلص المطيع لجلالتـكم

(اللواء) ابراهيم باشـا رفعت

مرآة الحرمين

أو

الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية

الجــــزء الأوّل



LEWA IBRAHIM REFAAT PACHA

EX O. C. H. H. BODY GUARD
EMIR EL HAGG, YEAR 1325 H.

بسم الله الرحمن الرحيم

وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم (١٢٧)[(١)] ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم (١٢٨) ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم (١٢٩) (البقرة)

وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد[(٢)] آمنا واجنبني[(٣)] وبني أن نعبد الأصنام (٣٥) رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم (٣٦) ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون (٣٧) (إبراهيم)

وإذ بوأنا[(٤)] لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئا وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود (٢٦) وأذن[(٥)] في الناس بالحج يأتوك رجالا[(٦)] وعلى كل ضامر[(٧)] يأتين من كل فج عميق[(٨)] (٢٧) ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير (٢٨)

---

(١) أرقام الآيات حسب ما جاء في المصحف الذي تم طبعه في عهد صاحب الجلالة فؤاد الاول ملك مصر (٢) مكة المكرمة . (٣) أبعدني . (٤) جعلنا مكانه مباءة لابراهيم ومرجعا يرجع اليه . (٥) وأعلم الناس بالحج . (٦) مشاة جمع راجل . (٧) بعير مهزول اتعبه بعد السفر فهزله . (٨) طريق بعيد .

ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ(١) وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ... ﴿٣٠﴾ (الحج)

لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ(٢) فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ (الحج)

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ(٣) مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ(٤) إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا . وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا . وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾ آل عمران . (قرآن كريم).

الحمد لله على ما هدى إليه من شعائر الدين، وسنه من شرائع لإحياء العالمين ومناسك يصمد(٥) إليها الدانون والقاصون ويتداعى إليها الموحدون، نحمده على بيت جعله مثابة للناس وأمنا، وملاذا للاسلام وحصنا، حييت به الأمة العربية وذاع صيتها فى الأقطار العجمية، وطهرت به النفوس من أوزارها وضرعت فيه إلى ربها؛ فأفاض عليها من الهدايات الروحية والكمالات الخلقية والمنافع الدنيوية والأخرويه، ما لا يدخل تحت الضبط ولا يحصره العد . والصلاة والسلام على هادى الأمم من غوايتها، ومنقذها من ضلالتها، والآخذ بها عن اللمم(٦) إلى السبيل الأمم(٧) "محمد بن عبدالله" مطهر البيت من الأوثان، والناشر على ربوعه راية السلام الذى وحد بين المسلمين فى المنسك وسنّ لهم سنة التعارف على اختلاف أجناسهم، وتباين لغاتهم وتباعد أقطارهم، فكانت بذلك وحدة لاتنفصم العرا، وألفة لايدركها البلى، مادام المسلمون.

(١) أى ليزيلوا وسخهم بقص الشارب والأظفار وتطهير النفوس من أدران المعاصى .
(٢) مبتعدا يقصدون اليه . (٣) مكة . (٤) موضع قيامه وهو يبنى البيت .
(٥) يقصد . (٦) الذنوب . (٧) الوسط .

بما هداهم إليه متمسكين، وبحبل الله معتصمين وبسنة رسوله مؤتسين، وعلى آله وصحبه الذين سلكوا سبيله وارتسموا طريقه . (وبعد) فيقول «اللواء إبراهيم باشا رفعت» (فى الرسم ١) : كنت ولوعا بالحج شغوفا بأداء هذا الفرض متضرعا إلى الله أن يوفقنى لرؤية بيته الحرام وما اكتنفه من المناسك، فمنّ على بالإجابة بعد الإهابة[(١)] وبارك فى دعوتى كما بارك لإبراهيم فى دعوته الطيبة التى أحيت أمة إلى يوم القيامة وعمرت قطرها الجدب ونشرت فيه المدنية الصادقة والشرعة القائمة، فعينت فى سنة ١٣١٨ هـ (١٩٠١ م) رئيس حرس المحمل (قومندانه) فرأيت أن نعمة الله على لا يفى بشكرها إلا تدوين رحلتى من أوّل خطوة فيها إلى آخر خطوة وإخراجها للناس لينتفعوا بها وليستضيئوا بنورها إذا حجوا إلى البيت الحرام أو قصدوا الجزيرة فلم أدع صغيرة ولا كبيرة مما رأيت أو سمعت إلا قيدتها، غير أنى كنت أرى مناظر جميلة وآثارا ثمينة ومشاهد مهما دققت فى وصفها لا أصل بك إلى الحقيقة ولا أدخل من الروعة فى نفسك ما تدخله المشاهدة والرؤية. وكنت أتمنى مصوّرا ماهرا يحبس ما نرى من المناظر وكنت أودّ أن أكون ذلك المصوّر فلما رجعت من حجتى الأولى تعلمت فن التصوير وجعلته مسلاتى فى وقت فراغى ونزعت نفسى إلى حجة أخرى أقيد فيها الصور فأنالنى الله بغيتى ومنّ على منة أخرى فى سنة ١٣٢٠ هـ (١٩٠٣ م) إذ عينت أميرا للحج فكتبت على نفسى أن أسلك سبيلى الأوّل فى تقييد كل ما أجد وتصوير كل ما يقع عليه النظر حتى أضيف إلى إخبارك — أرشدك الله — المشاهدة فيتمتع السمع والبصر كأنك تشاهد الأماكن المقدّسة عن كثب[(٢)] . ومنّ علىّ بحجة ثالثة فى سنة ١٣٢١ هـ (١٩٠٤م) فكنت فيها أميرا للحج . وغمرنى بعد ذلك بحجة رابعة عينت فيها أيضا أميرا للحج سنة ١٣٢٥ هـ (١٩٠٨ م) فتلك حجات أربع

(١) النداء . (٢) قرب .

وإنها لنفحة كبيرة ومنحة جليلة تستدعى شكرا جزيلا وثناء عريضا وما ذلك الا بسط ما رأت عينى وسمعت أذنى للناس فى ثوب قشيب[١] ومنظر بهيج فتقدّمت الى المسلمين بهذه الرحلات المصوّرة التى حوى كل منها ما لا يغنى عن الأخرى إذ كان من حسن حظى أنى سلكت كل مرة من مكة إلى المدينة طريقا غير التى كنت أسلكها من قبل فظفرت بمعلومات قيمة عن أرض الحجاز لا أظنك تظفر بجملتها فى كتاب آخر .

ولقد كان من أكبر البواعث على إخراج هذه الرحلات وتكلف النفقات الباهظة فى سبيلها أنها أبين شرح لفرض من فروض الدين وأصدق لسان يصف مهد النبوّة ومبعث التشريع وأنها لتكشف لك عن سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم والأماكن التى شرفت به حتى كأنك تراها رأى العين .

وقد رأيت أن أذكر الرحل الأربع حسب ترتيبها فى الموضوع ولما كانت السنة الأولى خالية من المناظر رأيت أن أضيف إليها من مناظر السنين الأخرى إذ هى أوّل ما تقرأ وأوسع ما خط كما رأيت أن أشبع الكلام على كل مكان شهير أو أثر عظيم أو أمر خطير يأتى ذكره فى الرحلة فى فصول مستقلة .

وأسأل الله سبحانه أن يجعل عملى خالصا من الرياء وأن ينفع به المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ﴿هُوَ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ .

(١) أبيض نظيف .

الرحلة الاولى

سنة ١٣١٨ هـ - ١٩٠١ م

الأعمال التمهيدية قبل سفر المحمل

أمير الحج وقوة المحمل العسكرية — صدرت إرادة سنية بتاريخ ٤ رمضان سنة ١٣١٨ (٢٦ ديسمبر سنة ١٩٠٠) بتعيين إسماعيل صبرى باشا الطوبجى أميراً للحج وصدر أمر عسكرى بتاريخ ٥ ذى القعدة بتعيينى رئيسا (قومندان) لحرس المحمل وأمر آخر فى التاريخ نفسه بتعيين ١٨٠ ضابط وصف ضابط وعسكرى حرساً للمحمل وكان الضباط ستة، هم رئيس المائة (اليوزباشى) عبد الوهاب حبيب افندى من المشاة (البيادة) ورئيس المائة سليمان كامل افندى الطبيب، والملازم الأول ابراهيم أحمد افندى من المشاة، والملازم الأول اسماعيل كامل افندى من المدفعية (الطوبجية) والملازم الأول أحمد كامل افندى من الخيالة ، والملازم الثانى محمد كامل افندى من المشاة ومن ضمن العسكر ١٤ موسيقيا .

ركب المحمل — صدرت إرادة سنية بتاريخ ٤ رمضان سنة ١٣١٨ بتعيين محمد سليمان بك أمينا للصرة وقررت وزارة المالية تعيين الشيخ يوسف المرجاوى إماما للمحمل، وحسن حلمى افندى كاتبا أول للصرة، وسعيد أحمد افندى كاتبا ثانيا وحسن قاسم افندى كاتبا للقسم العسكرى و إمارة الحج، ومحمود يوسف افندى صرافا للصرة ، والسيدة صالحة افندى طبيبة، وجملة من كان فى خدمة المحمل فى هذه السنة ٤٧٣ ما بين ضباط وعسكر وموظفين وتوابعهم وقادة الجمال والخيول وحاملى المصابيح (المشاعل) والسقائين والفراشين والزامرين (الفريحية) ولم يكن مع المحمل أحد من الأهالى غير عماله وأتباعهم .

صرة المحمل — كانت النقود التى أودعت صرة المحمل فى سنة ١٣١٨ ه وسلمت لأمين الصرة بمقتضى إشهاد شرعى رسمى عمل بمحضر ناظر المالية وأمير الحج وأمين الصرة وصرافها وصراف من المالية ومندوب من قبل حضرة صاحب الفضيلة قاضى قضاة مصر كما يأتى :

مليم	جنيه مصرى	وينتو	جنيه مجيدى	ريال بطاقه	ريال مصرى	قرش	مليم
٥٠٠	١٤٢٧٦	٤٩	٣٥	٣٩٠٠٠	٢٩٧٢	٥٣٢٥	¼ ٥٩٦

وجملة ذلك بالجنيه المصرى والمليم ما يأتى :

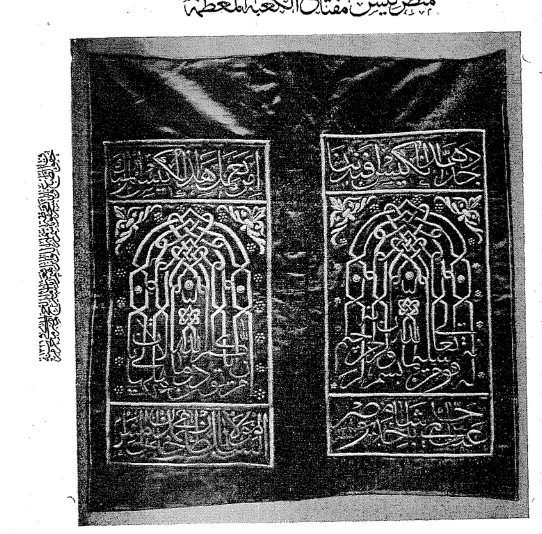
جنيه	مليم	
١٨٨٩٣	¼ ٢٦٢	أى ربع مليم واثنان وستون ومائتا مليم وثلاثة وتسعون وثمانمائة وثمانية عشر ألفا من الجنيهات المصرية .

والمبالغ المذكورة تشمل مرتبات رجال المحمل جميعهم مدة ثلاثة شهور وهى المدة المقدرة لسفر المحمل ومرتب أمير مكة والمقدر لأشرافها وللعربان ولتكيتى مكة والمدينة وجميع النفقات الأخرى اللازمة من أجرة جمال وثمن علف للدواب الخ — أنظر مالية المحمل فى آخر الكتاب .

الكسوة ووصفها — جرت العادة أن يكتب إشهاد شرعى بتسليم الكسوة من مأمور تشغيلها الى المحملى (من فى عهدته المحمل والكسوة) ليوصلها الى البيت الحرام ويذكر فى هذا الإشهاد أجزاء الكسوة وأوصافها وقد رأينا أن نثبت هنا نص الإشهاد الشرعى الذى حرر فى سنة ١٣٢١ اذ هو أثر تاريخى يعرف منه القارئ تفاصيل الكسوة ومادتها وهى لا تختلف فى سنة عنها فى أخرى الا فى جودة ما تصنع منه واليك نص الإشهاد ،

بمحكمة مصر الكبرى الشرعية فى يوم الثلاثاء خامس عشر القعدة سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة وألف الموافق ثانى فبراير سنة أربع وتسعمائة وألف أذن فضيلتلو قاضى افندى مصر حالا لحضرة العلامة الشيخ محمد ناجى أحد أعضاء المحكمة المذكورة بسماع ما يأتى ذكره فيه ولكاتبيه هما الشيخ محمد سعيد ومحمد مصطفى افندى

منظر كيس مفتاح الكعبة المعظمة



2. The bag containing the key of the Kaaba.

جزء من كسوة الكعبة فيه البسملة والصمدية

3. A view of a part of the carpet of El Kaaba containing a story from the Koran.

الكاتب كلاهما بالمحكمة المذكورة بكتابة ما يأتى ذكره فيه فلدى حضرة العضو الموصى اليه بحضور الكاتبين المذكورين بالمجلس المنعقد بمسجد سيدنا ومولانا الامام أبى عبد الله الحسين رضى الله تعالى عنه الكائن بمصر المحروسة بالقرب من خان الخليلى والجامع الأزهر بقسم الجمالية فى الساعة العاشرة صباحا من اليوم المرقوم أشهد على نفسه الحاج محمد أحمد المحاملى الساكن بالدرب الأصفر بالقسم المذكور ابن المرحوم أحمد مصطفى بن مصطفى شهوده الإشهاد الشرعى وهو بأكمل الأوصاف المعتبرة شرعا أنه قبض واستلم واستوفى ووصل اليه من حضرة عبد الله فائق بك مأمور تشغيل الكسوة الشريفة حالا الساكن بشارع المحجر بقسم الخليفة بمصر ابن المرحوم اسماعيل بك ابن المرحوم ابراهيم الحاضر هو معه بهذا المجلس جميع كسوة بيت الله الحرام المشتملة على ثمانية أحزمه وأربعة رنوكه — أى دوائر — مركبة على حملين من الثمانية أحمال الآتى ذكرها فيه، مزركشة الثمانية أحزمة والأربعة رنوكه المذكورات بالمخيش الأبيض والأصفر المطلى بالبندقى الأحمر على الحرير الأسود والأطلس الحرير الأخضر المبطن بالبفت الأبيض والنوار القطن المركبات الثمانية أحزمة المذكورة على ثمانية أحمال حرير أسود مكتوب ومبطن بالبفت الأبيض والنوار القطن، اثنان من الثمانية أحمال المذكورة كل منهما تسعة أثواب كل ثوب منها طوله ستة وعشرون ذراعا بالذراع البلدى طول كل ذراع منهما سبعة وخمسون سانتى متر وكسور من السانتى، واثنان من الثمانية أحمال المذكورة كل منهما ثمانية أثواب من الأثواب المذكورة، والأربعة أحمال باقى الثمانية أحمال المذكورة اثنان منها سبعة أثواب ونصف من الأثواب المذكورة والاثنان الباقيان كل منهما ستة أثواب ونصف من الأثواب المذكورة. وستارة بيت الله الحرام المعبر عنها بالبرقع المزركشة بالمخيش الأبيض والأصفر المطلى بالبندقى الأحمر على الحرير الأسود والأطلس الحرير الأخضر والأحمر المبطنة بالبفت الأبيض والنوار القطن والأطلس الحرير الأخضر بها خمسة شراريب حرير أسود وقصب وكنتير ومخيش وستة أذررة (كذا) فضة مطلية بالبندقى الأحمر، واثنتى عشرة شرابة صغيرة حرير أحمر وقصب وكنتير واثنتى عشرة شمسية

مزركشة على الحرير الأحمر . وكسوة مقام سيدنا ومولانا ابراهيم خليل الرحمن عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم المبطنة بالبفت الأبيض المزركشة بالمخيش الأبيض والأصفر المطلى بالبندقى الأحمر على الحرير الأسود والأطلس الحرير الأخضر والأحمر، بها أربعة شراريب حرير أسود وقصب وكنتير ومخيش وعشر شمسيات مزركشة بالمخيش الأبيض والأصفر المطلى بالبندقى الأحمر على الحرير الأحمر وعشرة شراريب صغيرة حرير أحمر وقصب وخمسة أذررة فضة مطلية بالبندقى الأحمر بها سجق قطن شبكة بقيطان قطن وأذررة شراريب من قطن هندى أحمر وأصفر وبها ترتر أحمر . وكيس مفتاح بيت الله الحرام المزركش بالمخيش الأصفر المطلى بالبندقى الأحمر على الأطلس الحرير الأخضر به ترترملون وكنتير أصفر مبطن بالأطلس الحرير الأخضر به شرابتان قصب وكنتير وقيطان قصب . وستارة باب سطح بيت الله الحرام المعروف بباب التوبة داخل بيت الله الحرام المزركشة بالمخيش الأبيض والأصفر المطلى بالبندقى الأحمر على الحرير الأسود والأطلس الأخضر والأحمر المبطنة بالبفت الأبيض والنوار القطن والأطلس الحرير الأخضر بها ترتر . وستارة باب مقصورة سيدنا ومولانا ابراهيم الخليل المشار اليه المزركشة بالمخيش الأبيض والأصفر المطلى بالبندقى الأحمر على الحرير الأسود والأخضر والأحمر، بها خمسة أذررة فضة مطلية بالبندقى الأحمر وعشر شمسيات مزركشة بالمخيش الأبيض والأصفر على الأطلس الحرير الأحمر، بها عشرة شراريب صغيرة حرير وقصب المبطنة بالبفت الأبيض والأطلس الحرير الأخضر . وستارة باب منبر الحرم الشريف المكى المزركشة بالمخيش الأبيض والأصفر المطلى بالبندقى الأحمر على الحرير الأسود والأخضر المبطنة بالبفت الأبيض والنوار القطن والأطلس الحرير الأخضر وثلاثة مجاديل — أى حبال قطن — احتياج تعليق الكسوة الشريفة على بيت الله الحرام وإحدى وأربعين عصفورة — أى حبل قطن مجدول — احتياج الحلق وغلايتين من النحاس مغطاتين مملوءتين بماء الورد الباش احتياج غسيل بيت الله الحرام حسب المعتاد قبضا وتسلما واستيفاء ووصولا شرعيات حسب اعتراف المشهد المذكور بذلك يوم تاريخه بهذا المجلس

بحضور كل من سعادة إبراهيم رفعت باشا أمير الحج الشريف الساكن بالدويدارى بقسم الدرب الأحمر ابن المرحوم سويفى بن المرحوم عبد الجواد ، وحضرة أحمد زكى بك مدير الأموال المقررة بنظارة المالية المصرية حالا وأمين الصرة الشريفة فى هذا العام الساكن بشارع الظاهر بقسم الأزبكية ابن المرحوم السيد يوسف الحلبى ابن المرحوم السيد عثمان الحلبى، وحضرة السيد محمود الببلاوى شيخ مسجد ومقام سيدنا ومولانا أبى عبد الله الحسين رضى الله تبارك وتعالى عنه الساكن بحارة المناصرة بقسم الموسكى ابن حضرة العلامة الهمام السيد الشريف على الببلاوى شيخ الجامع الأزهر الشريف حالا نجل المرحوم السيد محمد الببلاوى ومحمد عمر افندى الكاتب وأمين مخزن مصلحة الكسوة الشريفة الساكن بشارع مصر القديمة ابن عمر ابن محمد العارف كل منهم للمشهد المذكور عينا واسما ونسبا وأنه الحاضر بهذا المجلس واتصافه بالأوصاف المعتبرة شرعا وعلى المشهد المذكور الخروج من عهدة ذلك جميعه وتسليمه لمن له ولاية تسلم ذلك بمكة المشرفة حسب المعتاد فى ذلك ، صدر ذلك بحضور وشهادة من ذكر أعلاه تحريرا فى يوم الأربعاء سادس عشر القعدة المذكور الموافق ثالث فبراير المرقوم . اه .

ويعطى لمحرر الاشهاد الذى ينتدبه قاضى قضاة مصر ٣ جنيهات و ٢٨٠ مليم منها ٨٨٠ مليم نقدية و ١٤٠ قرش ثمن فروة و ١٠٠ قرش ثمن فرجية جوخ .

الاحتفال بالكسوة

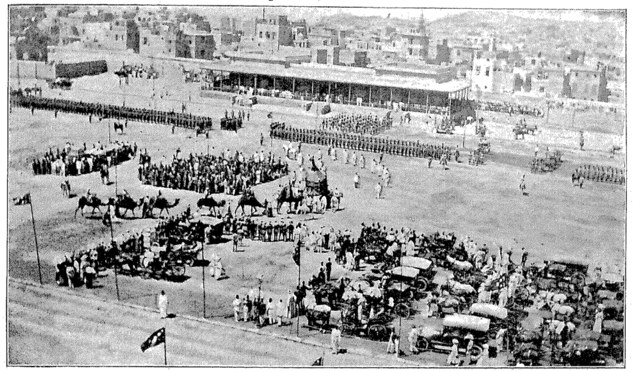
فى يوم ٢٧ شوّال سنة ١٣١٨ (١٦ فبراير سنة ١٩٠١) احتفل فى القاهرة بكسوة الكعبة المشرّفة بالطريقة الآتية :

فى يوم ٢٦ شوّال أتى بالمحمل من مقره بوزارة المالية ونقل داخل صناديق على عجلة الى «وكالة الست» بالجمالية حسب المعتاد من قديم ونقل جزء من كسوة الكعبة مع أحزمتها الحريرية المزركشة بالقصب[1] من مصنعها بالخرنفش الى

(١) خيوط من الفضة طليت بالذهب .

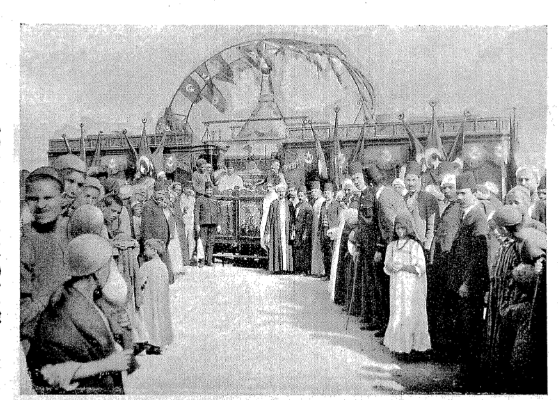
المصطبة بميدان صلاح الدين المعروف بميدان القلعة أو ميدان محمد على وفى عصر هذا اليوم احتفل رسميا بنقل كسوة مقام الخليل إبراهيم عليه السلام، والجزء الباقى من كسوة الكعبة من مصنعها بالخرنفش الى ميدان صلاح الدين السابق ، وكان نقل الكسوة على أكتاف الحمالين يحيط بها رجال الشرطة ويتقدمها قسم من الجيش مابين راجل وراكب معهم الموسيقى تصدح بالأنغام المطربة ويصحبه أرباب المزمار البلدى المعينون للسفر بصحبة المحمل، وكذلك تقدم الكسوة مدير مصنعها — مأمور الكسوة — ممتطيا جواده مرتديا لباسه الرسمى — بذلة التشريفة الكبرى — وعلى يديه مبسوطتين كيس مفتاح الكعبة (فى الرسم ٢) . ويتلو كسوة الكعبة كسوة مقام الخليل محمولة على الأكتاف أيضا، وسار الموكب بهذا النظام من المصنع الى «سبيل كتخدا» القريب من النحاسين حيث التقى به المحمل بكسوته الخضراء المعتادة آتيا من «وكالة الست» بالجمالية على ظهر جمل، فسار وراء كسوة المقام وسار الموكب كله الى النحاسين فالغورية فباب زويلة (بوابة المتولى) فالدرب الأحمر فالتبانه فالمحجر فميدان صلاح الدين حيث أقيم هناك الاحتفال فوضع المحمل مع الكسوة فى المحل المقابل لردهة (لصالة) الاستقبال حتى الصباح ووضعت كسوة المقام وسط الردهة المذكورة التى زينت جدرها بقطع من كسوة الكعبة وأحزمتها القصبية وكيس مفتاح الكعبة وستارة بابها وباب التوبة ، ووضع حول كسوة المقام أربع ماثلات (شمعدانات) من الفضة أحضرت من جامع القلعة ، ووضع بحجرة المحافظ التى بالجهة الغربية من ردهة الاستقبال أربع قطع يقال لها (كرداشيات) (فى الرسم ٣) زينت بها جدر الحجرة ، وقد أحييت المحافظة الليلة المعقبة لهذا اليوم بتلاوة آى القرآن الكريم وانشاد المنشدين فى مكان شرقى مكان الاحتفال ودعت العلماء والكبراء والأعيان لمشاركتها فى إحياء الليلة ، ومنهم من دعته لتناول طعام العشاء قبل الغروب، ومنهم من دعى للاحياء بعد صلاة العشاء فحسب كما أنها دعت مشايخ الطرق من الرفاعية والسعدية والأحمدية والإبراهيمية والبيومية والقادرية والشاذلية

حفلة توديع المحمل بميدان القلعة بمصر



4. The farewell of the Mahmal at Citadel Square in Cairo.

المحمل بالسكة الحديد بمحطة الإسماعيلية



5. The Mahmal in the Railway Station of the Ismailia.

للسير أمام المحمل والكسوتين وللمشاركة فى إحياء هذه الليلة التى أنفق فيها مائة جنيه مصرى ، واستمرت الحفلة الى ما بعد نصف الليل حيث جمعت قطع الكسوة التى فى الردهة وفى حجرة المحافظ مع كسوة المقام ، ووضع كل ذلك مع المحمل فى المكان المقابل لردهة الاستقبال .

وفى صباح هذه الليلة احتفل بالكسوة والمحمل إحتفالا فخما فى ميدان صلاح الدين حضره سمو الخديو والوزراء والعلماء والأعيان ، وأطلق للخديو ساعة حضوره واحد وعشرون مدفعا وصدحت الموسيقى بسلامه ثلاثا أعقبها الضباط والعساكر والحضور فى كل مرة بالهتاف لسموه (افندمز چوق يشا) (يعيش افندينا طويلا) وكان الخديو والحضور ساعة ذلك رافعى أيديهم الى جباههم بالسلام ثم استراح جنابه مع الحضور قليلا فى بهو (صالة) الاستقبال مشاهدا دورات المحمل السبع المعتادة فى الفناء الواسع الذى أمام البهو وكان يقود جمل المحمل مدير مصنع الكسوة الذى قدّم المقود الى سموّ الخديو فقبله وناوله قاضى القضاة فقبله أيضا مع بعض الحضور ثم أعاده الى المأمور الذى ينتظر بالمحمل قُبالة الجامع المعروف بالمحمودية بالميدان ريثما يتم استعراض الكسوة ، ثم عرضت الكسوة يحملها الخفراء على سموه وقد وقف خارج الردهة مع الوزراء والحضور ، والخفراء يمرون بها من أمامهم حتى إذا ما انتهت استعرض الجيش ثم أطلق واحد وعشرون مدفعا إيذانا بانتهاء الحفلة (فى الرسم ٤) وانصرف الخديو والحضور ثم سير بالكسوتين والمحمل الى مسجد الحسين رضى الله عنه يصحبها رجال الجيش والشرطة وأرباب الطرق وفى المسجد استقبل الكسوتين أمير الحج وأمين الصرة وكانا قد سبقا الناس الى المسجد وهنالك ضمت بالخياطة قطع الكسوة بعضها الى بعض ثم نقلت الى العباسية مع كسوة المقام فى صناديقها المعدة لها استعداد السفر بهما الى الحجاز بعد . أما المحمل فسير به من المسجد الحسينى الى مصنع الكسوة بالخرنفش[1] وبقى هنالك الى صبيحة يوم الاحتفال

(١) لا يخفى عليك أن هذه الأعمال ليست من الدين فى شىء وربما كان مبررا لها أنها تهيج النفوس الى أداء الحج .

بخروج المحمل الى الأقطار الحجازية، ففى صبيحة هذا اليوم احتفل بنقله من المصنع الى ميدان صلاح الدين ولكن من طريق سوق السلاح، وفى ضحوة ذلك اليوم ١٣ ذى القعدة سنة ١٣١٨ (٤ مارس سنة ١٩٠١) عمل احتفال بالميدان المذكور كالاحتفال السابق وسلم فيه عبد الله فائق بك مدير مصنع الكسوة زمام المحمل الى سمو الخديو وسموه سلمه لأمير الحج حيث قاده محفوفا برجال الشرطة والجيش وأرباب الطرق الى العباسية ليسافر من هنالك الى السويس فمكة مع الكسوتين والروائح العطرية والخرق الجديدة التى تغسل بها الكعبة .

سفر المحمل وركبه من القاهرة الى جدة

قبل سفر المحمل من القاهرة ببضعة أيام دعت مصلحة السكة الحديدية سعادة أمير الحج اسماعيل صبرى باشا الطوبجى لتتعرف منه العربات اللازمة فى قطارى البضاعة والركاب اللذين يقلان المحمل وركبه وأمتعته من القاهرة الى السويس فاتفق معها على أن يكون قطار الأمتعة مؤلفا من ثمان عربات مغطاة وثلاث مسطحة وخمس مجنبة وسبع للحيوانات وقطار الركاب منظوما من مركبتين للدرجة الأولى وأخريين للثانية وثمان للثالثة وثنتين للحيوانات .

وفى ليلة الخامس عشر من ذى القعدة سافر قطار البضاعة من العباسية يحمل الكسوتين وما يتبعهما وأمتعة المسافرين بصحبة المحمل من خدم وعسكر وقادة إبل وضوئية وفراشين وسقائين . وقد انتقدت الشحن بأن خدم المحمل أسرعوا بشحن أمتعتهم حينما وصل القطار وشغلوا بها أكثر العربات فلما حضر العسكر لشحن أمتعتهم وجدوا أكثر العربات مشغولا فاضطروا الى إخراج بعض أمتعة الخدم حتى يخلوا لأمتعتهم عربات خاصة وفى ذلك من المشقة ما لا يخفى فلو أن (القومندان) عين ضابطا ذا مقدرة ونباهة وفطنة وكياسة لتقسيم العربات بين الخدم والحرس وتمييز عربات كل فريق وتنفيذ ذلك بالدقة لما هرول أولئك الخدم المتمرنون على الشحن

وشغلوا معظم العربات بأمتعتهم ، وكذلك ينبغى أن يعمل هذا النظام بالباخرة البحرية فيعين لكل طائفة أماكن خاصة ويراقب الرئيس تنفيذ ذلك فلا يعتدى قوى على ضعيف ولا يسبق المتمرّن غيره الى خير الأماكن بل تكون سواسية بين الجميع .
وفى صبيحة يوم ١٥ ذى القعدة (٦ مارس) سافر قطار الركاب فى منتصف الساعة الأولى العربية من العباسية يقل المحمل والأمير والموظفين وبقية الحرس وأتباعهم من الأهالى ، وقد وقف القطار بمحطات القاهرة وطوخ وبنها والزقازيق وأبى حماد ونفيشة والاسماعلية وفايد ، وقد كان الأهالى ومشايخ الطرق وطلبة المدارس بنين وبنات ينتظرون المحمل فى محطات الوقوف ومعهم الموسيقى والمزمار البلدى . ومما رأيناه من عادات الأهالى إحضارهم أولادهم الرضع ليروا المحمل ويلمسوه فيبارك لهم فى ذريتهم وكانوا اذا لم يستطيعوا لمسه قذفوا بمناديلهم الى خدام المحمل بعد أن يضعوا فيها شيئا من النقود أو يملؤوها بالحوم البيضاء أو الفطير فيأخذ الخدم ذلك منها ويردونها الى أربابها بعد إمرارها على المحمل ، والذى دعا العامة الى ذلك ما يعلمونه من أن المحمل يوضع داخل المسجد الحرام كما يوضع فى المقصورة النحاسية التى حول قبر الرسول صلوات الله وسلامه عليه ما دام بالمدينة فيريدون التبرك بمحمل يزور الأماكن المقدّسة ، ولما كان التمسح بالقبور منهيا عنه فى الشرع كان الاجدر بالناس أن لا يتمسحوا بما يوضع على الأضرحة من باب أولى وخليق بالمسلمين خاصتهم وعامتهم أن تتفق عاداتهم مع آداب دينهم وهاك المحمل فى عربته بالاسماعيلية (فى الرسم ٥) .

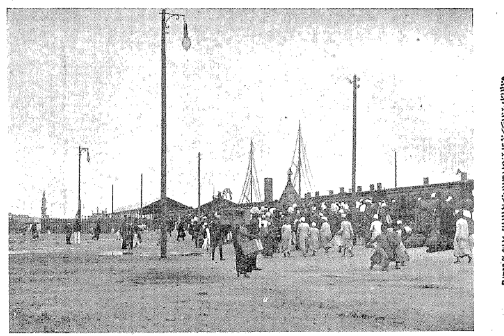
وقد وصلنا السويس فى اليوم نفسه فى الساعة السابعة العربية والدقيقة ٤٥ وكانت المحطة غاصة بالنظارة (المتفرّجين) ورجال الشرطة مصطفين على الافريز وفى مقدّمة الجميع سعادة المحافظ والموظفون وقد أطلق ساعة وصول القطار ٢١ مدفعا من قلعة السويس وصدحت الموسيقى بالسلام الخديوى وهتف الحضور بالدعاء المعتاد لولى النعم (افندمز چوق يشا) وتقدّم سعادة المحافظ الى أمير الحج وأمين الصرة مهنئا لهما بالوصول ثم تقرر أن يكون الاحتفال بموكب المحمل فى منتصف

الساعة الحادية عشرة العربية من اليوم نفسه. ولما حان هذا الموعد اصطف حرس المحمل ورجال الشرطة صفين متقابلين بالقرب من المحطة وكذلك العساكر القائمون بمنع تجارة الرقيق اصطفوا بهجانهم صفين وجعل المحمل بينهما ثم سار الموكب بهذا النظام يتقدمه أمير الحج وعلى يمينه المحافظ وعلى يساره أمين الصرة، والعامة، وأرباب الطرق من دون ذلك، وبعد أن طاف بشوارع المدينة كالمعتاد وقف حيث بدأ وإذ ذاك أطلق حرس المحمل ٢١ مدفعا ردّا لتحية القدوم، وبعد السلام الخديوى انفرط عقد الحفلة وشحن المحمل بقطار السكة الحديدية الى محطة حوض السويس التى بتنا بها الى الصباح وباتت أسر موظفى المحمل بحجر الباخرة .

وفى صباح يوم الخميس ١٦ ذى القعدة سنة ١٣١٨ (٧ مارس سنة ١٩٠١) أنزلت الأمتعة والكسا والمحمل (فى الرسم ٦) الى باخرة النجيلة المخصصة لنقل المحمل وركبه الى جُدّة وقد قام بتفتيش الباخرة سعادة المحافظ ومندوب من شركة البواخر الخديوية ورئيس الحرس ولما تيقنوا بخلوها من مختبئين لايحملون جواز سفر صرح للحجاج والحرس بالنزول اليها . ومما لاحظته على الباخرة أن أماكن الدرجة الثالثة بها كانت دون حاجة المسافرين فكان الزحام فيها شديدا ومحل الحيوانات كان رديئا جدا فان طوله لايزيد على ١٥ مترا فى عرض الباخرة، وارتفاعه متران تقريبا ولايوجد به من النوافذ التى لا يزيد قطرها عن ٢٠ سنتيمترا إلا نافذتان فى كل جهة، وكان به ٤٠ حيوانا بين خيل وبغال وقد بلغ من ازدحام الحيوانات به أن العساكر ما كانت تتمكن من وضع العلف لها إلا بالسير من تحتها وأنها كانت تتصبب عرقا بل تتساقط على الأرض من شدة الحرارة بالرغم من أننا وضعنا مروحة بحرية (منيجة) لجلب الهواء لها، وقد تسبب عن ذلك ضعف الخيل وهزالها مع أنها مستريحة غير عاملة . وقد أخذ من كل حاج بالسويس ٣٢ مليما ضريبة الحجر الصحى بها وقد استنفد ذلك كثيرا من وقت الحجاج، فلو أن الحكومة أخذت هذه الضريبة مع ضريبة محجر الطور لأراحت الحجاج ووفرت عليهم وقتا ضيعوه فى الدفع وتسلم الصكوك به . وفى منتصف الساعة التاسعة العربية من يوم الخميس أقلعت الباخرة (بسم الله مجريها

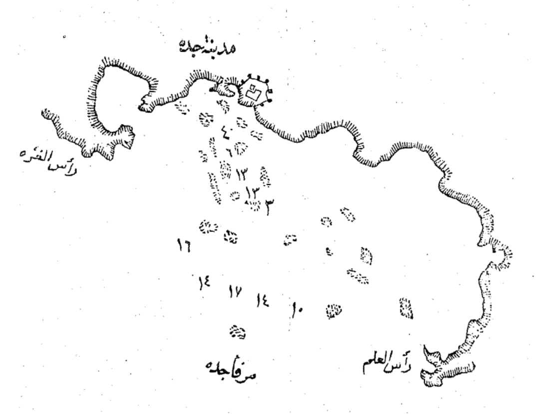
صحيفة ١٤

منظر نزول المحمل الى البحر بالسويس



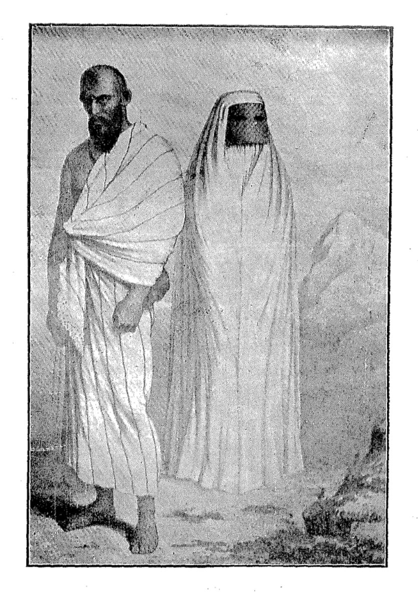
(6). A view of the Mahmal coming down the Sea in Suez

صحيفة ١٦



7. The Port of Gedda.

رجل وامرأة هنديان محرمان



69. An Indian man and an Indian woman in pilgrimage (Ihram) Clothes.

ومرساها) ميممة جدّة فوصلتها فى صبيحة ١٩ ذى القعدة (١٠ مارس) فى الساعة الثانية العربية فنكون قد قطعنا المسافة بين السويس وجُدّة فى ست وستين ساعة وهى ٦٤٦ ميلا. وقد كان البحر هادئا من وقت القيام الى مساء اليوم التالى ثم اشتدّت الرياح وهاج البحر واستمر ذلك حتى جُدّة وقبل الوصول اليها بما يقرب من ست ساعات مررنا برابغ على الشاطئ الشرقى للبحر الأحمر وهنالك أحرم المسافرون بعد أن اغتسلوا وحلقوا وقصوا الأظفار ولبسوا لباس المحرمين (الرسم ٦٩) فرفعوا أصواتهم بالتلبية « لبيك[1] اللهم لبيك . لبيك لا شريك لك لبيك . إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك » .

تجرّدت لما أن وصلت لرابغ * ولبّيت للمولى كما حصل الندا

وقلت إلهى عندك الفوز بالمنى * وإنى فقير قد أتيت مجردا

والتلبية مطلوبة عند الاحرام بحج أو عمرة، وكلما علا مرتفعا أو نزل منخفضا وكذلك عند تلاقى الركبان ثم من الناس من أحرم بالحج ومنهم من أحرم بالعمرة وهم جميع الركب خلا أربعة وانما آثرنا العمرة لنتحلل منها اذا وصلنا الى مكة وطفنا وسعينا بين الصفا والمروة فيحل لنا ما حرم علينا بالاحرام من لبس المخيط وكشف الرأس للرجال وتغطية الوجه للنساء والتطيب والحلق الخ ، وقد جرت العادة بأن السقائين والعكامة والفراشين والضوئية لا يحرمون ولا يؤدّون شيئا من مناسك الحج فأمرهم الأمير بالاحرام، فأطاعوا مرغمين وأخذوا مما عندنا من « البفتة » ما يرتدون به للأحرام وكانوا قد خرجوا من مصر غير متأهبين له دأبهم فى كل مرة وكذلك اشتريت للحرس (بفتة) من القاهرة بنقود دفعوها[2] فاتخذوا منها ملابس الاحرام فكنت ترى ركب المحمل من كبيره الى صغيره محرما خلاف ما تعوّدوه فى السنين الخالية ، ولهذا كان الناس معجبين بنا هذه المرة إذ رأوا فينا خطة جديدة هى عين ما رسمه الشرع الشريف وندب اليه .

(١) لبيك معناها إجابة بعد إجابة . (٢) طلبت فى سنة ١٣٢٠ من المالية أن تشترى للعسكر ملابس الإحرام من مالها الخاص فأجابت .

وصول المحمل الى ميناء جُدّة

لمـا وصلت الباخرة مرفأ جُدّة لم يحضر الحاكم ولا أحد من قبله لتهنئة الأمير بالوصول حسب العادات المتبعة ولا سيما أن الباخرة بهـا أمير الحج وقسم عسكرى ينبغى احترامه ومساعدته فى نقل أمتعته وإرشاده الى المعسكر الذى ينزل به، إنمـا حضر طبيب الحجر الصحى للكشف على راكبى الباخرة وأصحاب السفن الشراعيـة (السنابك) لينقلوا المسافرين وأمتعتهم الى البر، وعند رسو الباخرة أطلقنا سبعة مدافع إيذانا بالوصول ولم تردّ علينا التحيـة الباخرة العثمانية الحربية الراسية بالميناء باطلاق المدافع كما هو المعتاد ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّـةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ فكررنا التحية باطلاق ٢١ مدفعـا وعزفت الموسيقى بسـلام جلالة السلطان وأعقبته بالدعاء له ثلاثا ثم بسـلام الخديو والدعاء له كذلك وبعد تلكؤ ردّت التحيـة باطلاق المدافع من قلعة جُدّة .

نقل الأمتعة من الباخرة إلى ساحل جُدّة ــ الباخرة ترسو بعيدا عن الساحل بنحو ميلين لكثرة الشعب بالمرفأ كما ترى فى (الرسم ٧) وتقوم بنقل الحجاج وأمتعتهم إلى البر سفن شراعية تسمى (السنابك أو القطائر) والأجرة المقدّرة للسفن التى تحمل موظفى المحمل وأمتعته خمســة جنيهات مصرية وللنجليين (النوتية) الذين يتزلون الأمتعة الى السفن ويخرجونها منها الى البر جنيهان ومثلهما للحمالين الذين ينقلون الأمتعة من الساحل الى المعسكر «نصيبا مفروضا» أما الحجاج التابعون للمحمل فنفقات النقل عليهم (انظر الميناء والقوارب فى الرسم ٨) .

عوائد الحجر الصحى وإجازة السفر ــ قضت قوانين الدولة العلية فى جُدة بأن يؤخذ من كل حاج ثمـانية قروش رسم الحجر الصحى (أنظر ديوان الكورنتينا فى الرسم ٩) وقرشان رسم إجازة السـفر (فى سنة ١٣٤٢ هـ كانت الرسوم على كل حاج ٨٩ قرشا ــ الله يرحم المعداوى القديم) ويعطى لكل حاج صكان بمـا دفع

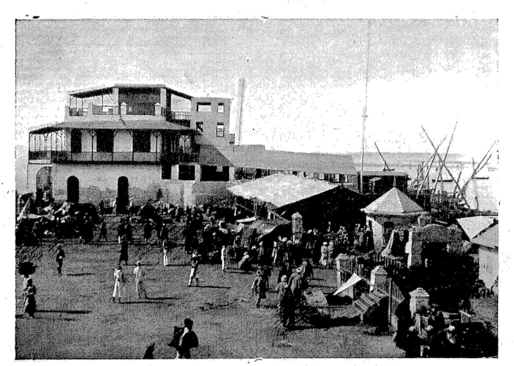
منظر مدينة جدّه وميناها



(8) Geddah and Harbour.

صحيفة ١٦

ديوان الكورنتينا بجدة سنة ١٣٢١

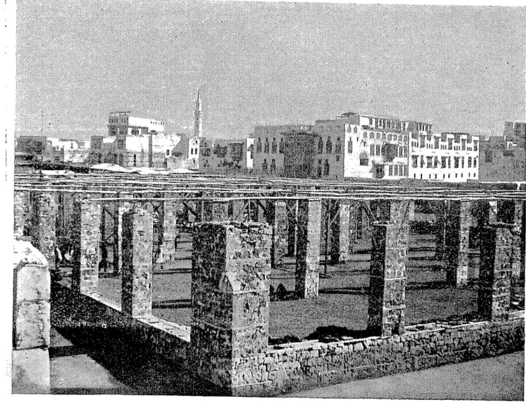


حقوق الطبع والنشر محفوظة باسم امير اللواء ابراهيم رفعت باشا امير الحج المصري في محرم سنة ١٣٢٦

(9) A view of the quarantine disinfection in Gedda in 1321.

صحيفة ١٧

مَنظر ساحل جدّة وبه الجمرك

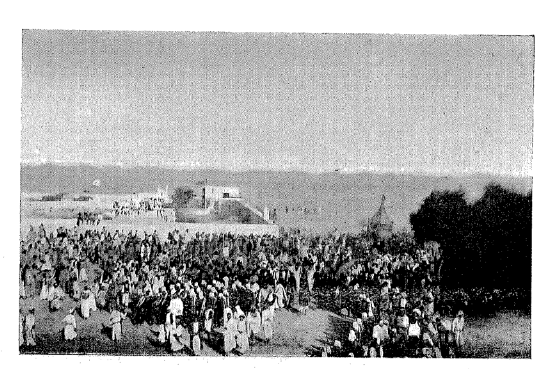


11. Geddah and Customs House



صحيفة ٢٠

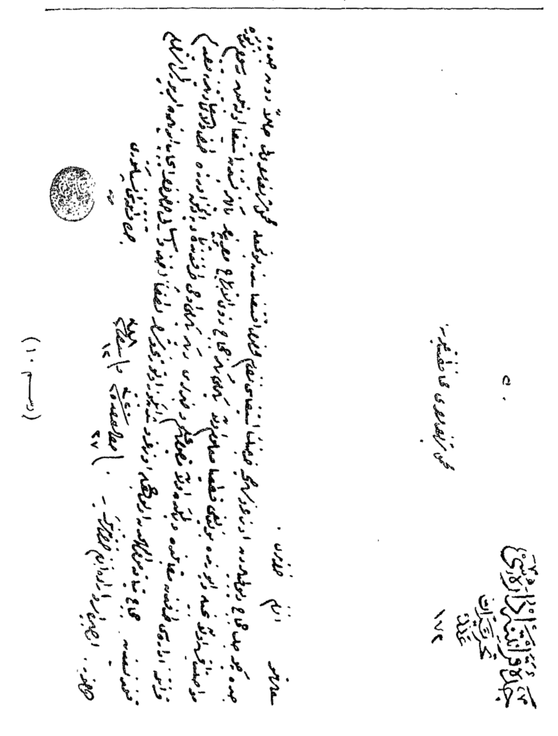
احتفال أهل جدة بموكب المحمل الشريف



12. Procession of the Mahmal at Jeddah & the (falsely ascribed) mausoleum of Hawa (Eve).

وان أخذ الرسوم يستغرق زمنا طويلا ولذلك اضطر الحجاج الى افتراش الأرض الرطبة ليلتهم حتى انتهت مهمة التحصيل التى تستنفد من كل حاج نحو خمس دقائق، وفى الباخرة ما لا يقل عن ستمائة حاج — وكان خيرا من هذا أن تسلم الرسوم كلها من أمير الحج الى المحافظ دفعة واحدة وتحصل من الحجاج مع رسوم إجازات السفر من مصر كما يؤخذ مع هـذه الرسوم أيضا أجرة نقـل أمتعة الحجاج من الباخرة الى الساحل ويتولى الأمير دفعها الى رئيس المنجلين (الحمالين) وأرباب السفن حتى لا توجد منازعات ما بينهم وبين الحجيج، وقد كتبت الى الحكومة بهذا مقترحا تنفيذه فأجابت، ولما عينت أميرا للحج فى سنة ١٣٢٠ وبلغت جُدّة كلمت محافظها سعادة على يمنى بك أن يأذن لمرافقى المحمل بالخروج من الميناء قبل دفع الرسوم وتعهدت بدفعها له مرة واحدة فأذن بذلك وكنت طبعت بطاقات بأرقام متتابعة كتب على كل منها «حاج مرافق للمحمل المصرى» وأعطى لكل حاج واحدة منها وكانت تؤخذ منـه ساعة خروجه وتضم الى غيرها ودفعت الرسوم الى المحافظ بعددها بعد أن أرسل لى مأمور "الكورنتينه" الكاتب التركى الذى تراه فى (الرسم ١٠)، وبهذا تمكنا من إراحة الحج ومنع التزاحم وإنقاذهم من المكث زمنا طويلا على أرض رطبة فى جوّ رطب، وكذلك اتفقت فى هذه السنة مع أرباب السفن والمنجلين، وبهذا انقطعت المنازعات والاختلافات .

نقل الأمتعة من الساحل الى المعسكر — نقلت الأمتعة من الباخرة الى البر ووضعت فى الطريق أمام بناء الجمرك (أنظر الرسم ١١ وترى فيـه أعمدة البناء فوقها قوائم الخشب بدون سقف) وأحيطت بسور من عساكرنا ثم أخذ الحمالون فى نقلها الى المعسكر بجوار القبر المكذوب على أمنا حوّاء على مسـافة ميل تقريبا . ولما كان نقل المتاع على ظهورهم يستنفد يومين أو ثلاثة قصـدت رئيس البلدية فى مكانه القريب منا ورجوته مساعدتنا فى نقل الأشـياء الثقيلة التى منهـا كسوة الكعبة وساعتئذ حضر "القائمقام" خالد بك (قومنـدان) العساكر فرجوته



إدارة المحجر الصحى بجدّة . مكتوب رقم ١٧٢ . الى محافظ المحمل المصرى الشريف .

صاحب السعادة . قضى النظام المتبع بأن يؤخذ من كل حاج يقدم الى مكة عشرة قروش للادارة الصحية . وقد حضرت بالأمس الى جدّة باخرة النجيلة فيها ٢٨ حاجا تحت رعايتكم دفع خمسة منهم الرسوم و ٢٣ لم يدفعوا فنرجو أخذ ٢٣٠ قرشا منهم وارسالها الينا والأمر لكم .

٢٧ ذى القعدة سنة ١٣٢٠هـ (١٢ شباط سنة ٣١٨)

أيضا فبعثنا مندوبين من قبلهما للتجار أصحاب العربات ، وبعد ساعة أحضروا سبع عربات صغيرة أشبه بعربات نقل الرمل عندنا ولكنها دونها فساعدتنا كثيرا ، ولما جنّ الليل واقترب غلق أبواب الجمرك وخفت أن يبيت بعض الأمتعة بالميناء ويتعطل لديها قسم من العساكر لحراسته — رجوت رئيس الشرطة (الحكيمدار) فى تأخير الغلق مدة وجيزة فلبى الرجاء ووقتئذ أمرت بحمل الأشياء الخفيفة وعلف الدواب على ظهور الخيل والبغال وأمرت العساكر أن يحملوا ما استطاعوا حمله فلم تأت الساعة الثالثة ليلا إلا وقد تم نقل جميع الأمتعة الى المعسكر، ومع أن النقل كان فى الظلام الحالك والزحام بالغ أشدّه والمسافة بعيدة — لم يفقد شىء ما ، وان هذا لدليل قاطع على همة الحراس بجدة وكمال يقظتهم وتنبه رجالنا ، على أنه — والحمد لله — تكاد السرقات بجدة تكون معدومة مع شدة الزحام بها فى موسم الحج ولكن هذا لا يمنع من التيقظ والاحتياط " اعقلها وتوكل " .

الاقامة فى جُدة

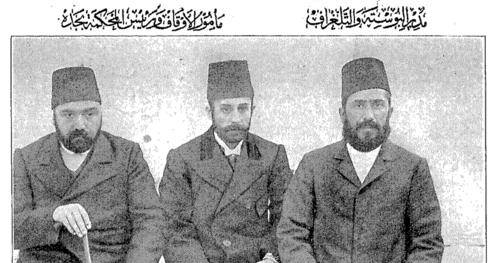
أقمنا بجدة من الساعة الثانية العربية من يوم الأحد ١٩ ذى القعدة سنة ١٣١٨ الى الساعة الحادية عشرة نهارا من يوم الخميس ٢٣ منه وذلك لفقدان الجمال التى تقلنا الى مكة . وقد احتفل بالمحمل فى جدّة فى اليوم الثانى احتفالا رسميا فتراصت عساكر الدولة العلية صفين متقابلين معهم الموسيقى — وكان عددهم ٤٠٠ من العساكر النظامية ، و ٢٠٠ من غير النظامية — وكان ذلك خلف الجمرك وجىء بالمحمل فى الساعة الأولى العربية الى مجتمعهم يتقدّمه الأمير وأمين الصرة ويحيط به حرسه وتضامّ الكل وسار المحمل بين الصفوف يجوب شوارع المدينة جريا على سنته الماضية وكان يوما مشهودا إذ كان جميع الضباط والموظفين بلباسهم الرسمى وموسيقى الدولة — وعدد رجالها ثمانون — تصدح مع موسيقانا بالأنغام الشجية ، وكنت ترى الوجوه ضاحكة مستبشرة لا تقرأ عليها الا آيات الفرح والسرور واذا أضفت الى ذلك منع الزحام بفضل النظام الذى وضعه القائد خالد بك أدركت أن الناس قد

بلغ الفرح من نفوسهم مبلغا عظيما، وقد انتهت الحفلة برجوع المحمل حيث بدأ سيره بعد أن صدحت الموسيقى بالسلام السلطانى فالسلام الخديوى وبعد الهتاف لهما بالعز والبقاء. (أنظر الرسم ١٢).

تبادل الزيارات بجدّة — قد زار حاكمُ جدّة الملكى وحاكمها العسكرى بملابسهما الرسمية أميرَ الحج وأمين الصرّة ورئيس الحرس كلا فى خيمته وقدّمنا لهما القهوة والشراب الحلو ورددنا لهما الزيارة فى اليوم التالى، وكذلك زار رئيس تجار جدّة سعادة عمر نصيف باشا الأمير والأمين. ولم يتمكنا من ردّ الزيارة له لضيق الوقت وقد بلغنى وأنا بمكة امتعاضه من تركهما لزيارته فأخبرته بأنا رددنا له الزيارة بمحله بمكة لِيُسَرِّى عن نفسه، وقد كان أهالى جدّة صغيرهم وكبيرهم يتواردون علينا عصر كل يوم لمشاهدة المحمل وسماع الموسيقى والمزمار البلدى حتى مغرب الشمس، ومن بعد العشاء الى الساعة الثالثة بعد الغروب، وأيام وجود المحمل بجدة تعتبر عند أهاليها مواسم فرح وسرور وإنهم ليحبون سماع الألحان حبا جما؛ وكأن ذلك مركوز فى طبيعتهم مفطورة عليه نفوسهم.

معارفنا بجدّة — قد تعرفنا برئيس المحكمة الأهلية ومأمور الأوقاف، وكان صلة التعارف بيننا مدير البريد والإشارات البرقية عبد الرحيم محب افندى التقى الورع الصالح الأمين الذى سبق أن تعرفنا به بسواكن منذ كان هناك مدير البرق (التلغراف) للدولة العلية وكنت بها أركان حرب فى سنة ١٨٩٦، وتاليتهما (ورسم الثلاثة كما فى اللوحة ١٣). وتعرفنا أيضا بالشيخ سليمان بن عبد الله البسام وكيل أمير نجد والتاجر ذى الخلق الطيب والمروءة والشهامة، وقد دعانى مع حضرة صهرى العلامة الكامل التقى الشيخ محمد طموم الى منزله فأكرمنا وأتحفنا بلذيذ حديثه وشعره وقد حضر الى مصر فى نحو سنة ١٩١٢ م وارتسمنا معا ونحن نشرب القهوة كما ترى فى (الشكل ١٤).

مدير البوستة والتلغراف — مأمور الأوقاف ورئيس المحكمة بجدة



حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف اللواء ابراهيم رفعت باشا

13. The Director of Post and Telegraph.—The Director of Wakfs.—The Chief of Court at Geddah.

سليمان بن عبد الله البسام وامير الحج

حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف اللواء ابراهيم رفعت باشا

14. Soliman ibn Abdulla el Bassam and Amir el Hag.

وكذلك تعرفنا بالطبيب محمد حسين افندى نائب " قنصل " انجلترا للرعايا الهنود (أنظر الرسم[1] ١٥) .

ما يلزم الحاج بجدة — يلزمه شراء النعال المشروعة للحرم وشراء الشقادف التى توضع على ظهر الجمال ويركب عليها شخصان كل فى عدل منها وثمن الشقدف من ١٢٠ قرشا مصريا الى ٥٠٠ قرش ، والاختلاف فى الثمن من الدقة فى الصناعة أو الزخرفة ، ولهذه الشقادف أعمدة توضع عليها الأغطية من طنافس (أبسطة) عجمية أو ملاءات مصرية أو أخيشة كتانية يشترى كل ما يناسب ثروته وثمن (الكليم) العجمى من ١٣٠ الى ٣٠٠ قرش حسب الاختلاف فى الشكل والصنعة .

وصف جدّة بشكلها الحاضر — جدة (بضم الجيم وتشديد الدال المفتوحة) بلدة كبيرة وميناء مكة العظيمة على الشاطئ الشرقى للبحر الأحمر واقعة على الدرجة ٦ والدقيقة ٣٩ من خطوط الطول الشرقية وعلى الدرجة ١٤ والدقيقة ٣٣ من خطوط

(١) لما كان لهذا الطبيب مآثر جمة على الهنود الذين يحجون الى البيت الحرام رأينا أن نذكر فى رحلتنا كلمة عن حياته إنصافا للعاملين وتخليدا لذكرى المخلصين فنقول : هو محمد حسين ابن الشيخ عبد الله الطبيب الذى تنتهى سلسلة نسبه الى سيدنا أبى بكر الصديق ولد بمدينة " الله آباد " فى سنة ١٨٦٣ وتلقى علومه الأولية بين أسرته ، وحفظ القرآن وتعلم اللغة الأُردية والفارسية والانجليزية وبرع فى ثلاثتها ونال درجة فى علم الطب والجراحة من كلية بنجاب فى سنة ١٨٩٠ وعين مساعد جراحة فى الحكومة الهندية وأدار عدة مستشفيات ثم عين نائبا لقنصل بريطانيا بجدة فأزال ما كان من سوء التفاهم بين البدو والقناصل ومنحته حكومة الهند لقب " خان بهادر " سنة ١٨٩٨ ومن حسن سياسته اكتسب رضا عون الرفيق باشا أمير مكة وأحمد باشا راتب واليها ، ولكنهما نقما عليه لما أن غرمهما ١٠٠٠٠ جنيه انجليزى عوضا عن السرقات التى حلت بحجاج الهنود وعن الخسارة التى لحقت التجارة الهندية ولكن ما لبث أن استمالها نحوه حتى كان طبيب الشريف من داء السُّكَّر الذى أصابه فى مرضه الأخير ، وقد طاف أنحاء أوربا خمس مرات وكل جهات آسيا عدا التبت والأفغانستان وبعض بلاد الغربيين وطاف فى بعض جهات أفريقيا ، وقد برح جُدّة فى ابريل سنة ١٩٠٩ لاعتلال صحته فمكث بانجلترا سنة وبمصر أخرى ثم استقال فى سنة ١٩١١ وأقام فى (بالله آباد) منشئه وأسس فيها مدبغا على الطراز الحديث كلفه ما ينوف على ٢٠ ألف جنيه — ملخص عن كتاب بعث به إلينا فى ٢٥ مارس سنة ١٩١٤

العرض الشمالية يحيط بها سور ذو خمسة أضلاع يقطعها راكب الحصان بالسير المعتاد فى ٤٥ دقيقة وارتفاع السور ٤ أمتار وبه تسعة أبواب، ستة فى الجهة البحرية وثلاثة فى الجهات الأخرى وأول من بناه السلطان الغورى من ملوك مصر فى سنة ٩١٥هـ.

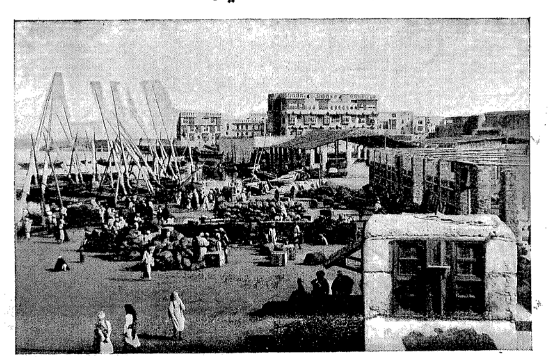
وبها حوالى ٣٣٠٠ منزل مبنية بالحجر الأبيض المستخرج من البحر، ويتكوّن المنزل من طبقتين الى خمس — والوجهات الامامية من البيوت بها الرواشن [الخارجات المسقوفة] المصنوعة من الخشب الهندى الأحمر المخروط (الرسم ١٦) . والبيوت العالية ذات الموقع الجميل والمنظر البهيج يسكنها أكابر البلد ووكلاء الدول التجاريون (القناصل) من روس وإنجليز وفرنسيين ونمساويين وإسوجيين ونروجيين، ومن أفخم بيوتها بيت السيد عمر السقاف الشريف السرى (الرسم ١٧) . ومنزل المحافظ الذى تراه (فى الرسم ١٨) وانه لآية فى الإبداع وبه حديقة غنـاء . وبجدّة محـل للحكومة وثكنات للعساكر (الرسم ١٩) . ومكتب للإشارات البرقية وبناء فخم للمجلس البلدى والحجر الصحى (الرسم ٩ السابق) كما تجد بالساحل بناء الجمرك (فى الرسم ١١ السابق) . وبها خمسة جوامع وثلاثون مسجدا مفروشة بالحصر الناعمة الجميلة النظيفة إلا أنها تكون مبللة عند رطوبة الجوّ وهى مرتفعة عن مستوى الشوارع بنحو ثلاثة أمتار، يصعد إليها بدرج منتظم من الحجر وليس بها بيوت خلاء ولا ميضأت، وبها حمام واحد ونزلان (لوكاندتان) وأربعون قهوة وصيدلية ومكتب تعليم راق وتسعة للصبيان ومستشفى ومصنع للجـير ومذبح وأربعون مخزنا تجاريا وتسعمائة دكان وآلة بخارية لطحن الحبوب وسبع وأربعون طاحونة ومثلها مخابز وعشرة مطابخ وسوق لبيع السمك وآخر للصدف ومكاتب للبريد وبها جبانة قريبة من ثكنات العسكر، يحيط بها سور يبلغ طول ضلعه الشمالية ١٦٠ مترا، وفى وسط الجبانة قبر أمنا حواء (المكذوب) طوله نحو ١٥٠ مترا وعرضه أربعة أمتار وارتفاعه متر، عليه ثلاث قباب على الرأس والسرة والرجلين كما يزعمون (الرسم ٢٠) .

وبجانبه كثير من الشحاذات يلتمسن الصدقات على خرق بسطنها أمامهن .

10. Doctor Mohammed Hussein, the British Vice-Consulat Geddah.

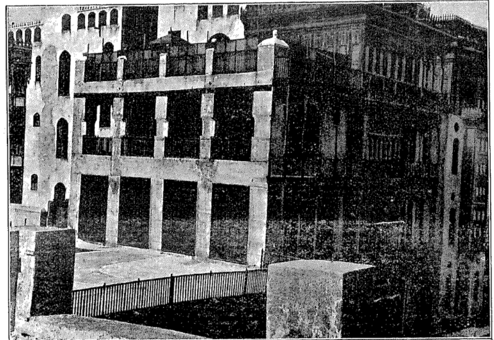
صحيفة ٢٢

رسم منازل جدة المشيدة الرفيعة



16. Geddah with its splendid buildings and magnificent houses.

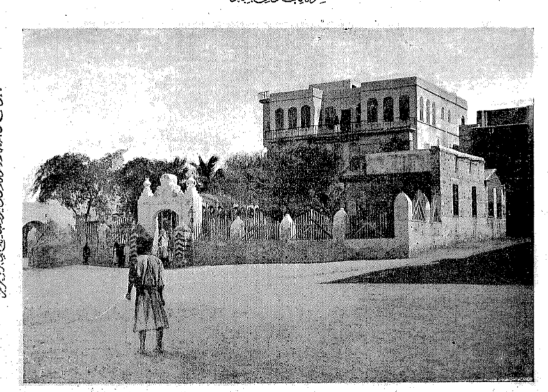
منزل السيد عمر السقاف بجدة



17. The house of El Sayed Omar el Sakaf in Gedda.

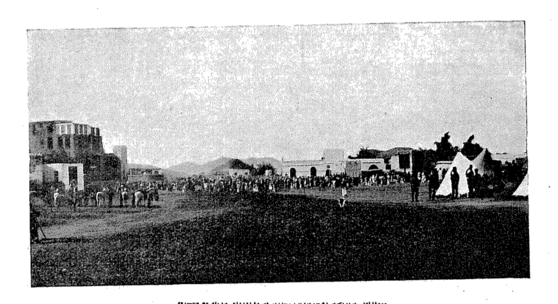
صحيفة ٢٢

سراي نائب الوالي بجدة



18. Palace of the Deputy Waly at Geddah.

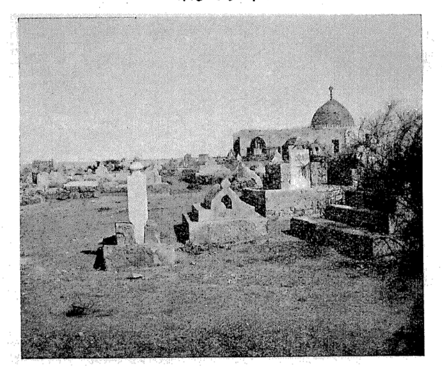
﴿ قشلاق العساكر الشاهانيه بجده ﴾



حقوق الطبع والنشر محفوظة باسم ميرالوا ابراهيم رفعت باشا امير الحج المصري في مكة المكرمة سنة ١٣٢٦

19. A view of the Turkish Barracks at Gedda.

قبة امنا حواء بجدة



حقوق الطبع والنشر محفوظة باسم ميرالوا ابراهيم رفعت باشا امير الحج المصري في مكة المكرمة سنة ١٣٢٦

20. The view of Hawa (our mother) in Gedda in 1321,

وشوارعها مختلفة السعة من ٨ أمتار الى ١٥ مترا وحاراتها ضيقة وغير منتظمة .
وبجدّة مجارٍ لتصريف مياه المطر الى البحر كما بها ٨٠٠ صهريج داخل البلد وخارجها — معدّة لخزن مياه المطر وبيعها فى موسم الحج ولكنها الآن معطلة إذ ترد المياه الى جدّة من عين تبعد عنها مسيرة ساعتين ونصف وتسير فى مجار مبنية تحت الأرض حفرها المصلح عثمان نورى باشا والى مكة سابقا ، وخارج البلد أيضا آبار محفورة وأنابيب فى الأرض مركوزة تخرج منها المياه بالآلات الماصة (آبار ارتوازية) وبعض المياه عذب وبعضها به يسير الملوحة .

والمحمل يستورد مياه الشرب من أعذب الآبار بواسطة سقائين من جدّة يتقاضون أجرة وبقرب معسكره صهاريج مفعمة بالمياه يؤخذ منها عند الحاجة .
وبالمدينة مجلس بلدى أعضاؤه من الأهالى ومجلس للأحكام وقاض شرعى . وجميع الأهالى مغرمون بشرب التبغ و (التنباك) والشاى والقهوة وبها كثير من الصبار يوضع على القبور استرحاما للموتى .

سكان جدّة — أهالى جدّة خليط من أجناس شتى مكيين ويمنيين وحضرميين (من حضرموت) وهنود وترك وشوام ومصريين وقصيريين (من القصير) وعددهم حوالى ٢٥ ألف نسمة ويبلغ من فيها فى موسم الحج خمسين ألفا الى ستين ويمرّ بها من الحجاج كل عام نحو ١٢٠ ألف حاج .

تجارتها — جدة مرفأ مكة التجارى بل هى مرفأ الحجاز المهم لذلك ترى ميناءها مملوءا بالسفن التجارية كما تراه (فى الرسم ٨ السابق) .

ويرجع اتخاذها مرفأ تجاريا لمكة الى عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضى الله عنه فانه فى سنة ٢٦هـ اعتمر من المدينة وأتى مكة فسأله أهلها أن ينقل ساحل مكة القديم من الشعيبية (جنوبى جدّة الآن) الى جدّة لقربها من مكة ، فخرج بنفسه الى جدة ورآها واغتسل من البحر وقال : إنه مبارك وقال لمن معه : ادخلوا البحر مغتسلين (١)

(١) فليس الاستحمام فى البحر الملح ومعرفة فوائده من مبتكرات أوربا وانما سبقهم الى ذلك ثالث الخلفاء عثمان بن عفان رضى الله عنه .

ولتكونوا مؤتزرين، ومن ذلك الوقت استمرت جدّة ميناء مكة الى اليوم، وتأتى اليها التجارة من مصر وسواكن وزنجبار والصومال والهنـد وجاوة والروملى والأناضول وسوريا وبلاد المغرب والعراق والبحرين ومسقط واليمن وأوربا وآسيا وغيرها، ومن أصناف التجارة البن والصمغ العربى وأنواع الروائح وريش النعام واللؤلؤ والصدف والمرجان ودهن البلسان ودهن الورد، وترد اليها الحنطة والأرز والصابون والسكر من مصر وسن الفيل والأرز الهندى وعدد الجمال من الهند، وقد بلغت رسوم الواردات فى سنة ١٣٠٢هـ ٦٣٧٩١٦ قرش عثمانى و٣٦ باره .

السفر من جدّه الى مكة

قبل المغرب بساعة من يوم ٢٣ ذى القعدة سنة ١٣١٨ (١٤ مارس سنة ١٩٠١) تحرّك ركب المحمل من جدّة ميمما مكة وقد حيته فرقة من الجند العثمانى برآسة « القائمقام » خالد بك وشيعه أهل جُدّة الى أبعد من ميل، وقد جدّ بنا السير حتى بلغنا بَحْرة لتمام الساعة العاشرة العربية ليلا وبتنا بها على مقربة من قلعتها التى يرابط بها بعض الجنود، وفى منتصف الساعة التاسعة من يوم ٢٤ تابع المحمل سيره الى أن وصلنا الى قهوة البوغاز أو البستان فى الساعة السابعة ليلا فاسترحنا بها الى منتصف الساعة الثانية عشرة ثم ارتحلنا فوصلنا مكة لتمام الساعة الأولى من صباح يوم ٢٥ ذى القعدة .

والطريق بين جدّة ومكة واد رملى إلا فى موضعين منـه حيث يوجد حصا صغير الحجم وكبيره ولكن ذلك لايشغل من الطريق إلا حوالى نصف ميـل، وقبيل مكة بنحو أربعة أميال تجد مدرجا حجريا مرتفعا قليلا ثم بعده يستوى الطريق وإن كان حجريا تكثر فيه التعريجات حتى يخيل الى الرائى أن الطريق سدّ لاقتراب الجبال المواجهة وهو صالح لمدّ القضبان الحديدية به والوادى يحفه من الجانبين الجبال والتلال المتشابهة الضارب لونها الى السواد والنابتـة فيها الأشجار وهى تارة تتقارب فيضيق الوادى وتارة تتباعد فيتسع، وبالطريق بضع عشرة قهوة لراحة الحجاج وتقديم الشاى

والقهوة لهم ، وبه جملة قلاع ذات اليمين وذات الشمال يقيم بها جنود أتراك ، وبه أماكن أخرى يقطنها عساكر الشريف غير النظامية وهؤلاء الحراس وجدوا للمحافظة على الأمن بالطريق ولكنهم كما سمعت لا يفارقون أماكنهم لرد الغارات والضرب على أيدى اللصوص وقطاع الطريق ولو كان ذلك بمرآى منهم ومسمع إلا اذا أمرهم الوالى وأين هو منهم . وكثيرا ما سلب الحجاج أمتعتهم إذا تأخروا عن القافلة لإصلاح الأحمال أو قضاء بعض الضرورات ، واذا ما سئل هؤلاء الحراس لماذا لا تقومون بالواجب قالوا (أمر يوك) أى ليس عندنا أمر — فما أقبح العذر . وقد كانت العساكر تؤدّى للمحمل التحية العسكرية عند مروره بها وتنير له الطريق بحرق كومات من الأخشاب تباعا وضعت فوق آكام مرتفعة وجمعت لهذا الغرض وكنا نسير على ضوئها نحو ألف متر .

وقد رأينا أن نصف لك بالتفصيل الطريق من مكة الى جدّة وما فيه من القلاع والقهاوى والانحراف والاستقامة حسب ما جاء فى رحلة سنة ١٣٢٠ إذ هو أوفى وأبين فنقول :

فى يوم الجمعة ٣٠ ذى القعدة سنة ١٣٢٠ فى الساعة الثانية العربية نهارا بدأنا السير من جدّة على أرض سهلة بين نشوز رملية ناحين نحو الجنوب الشرقى على ١١٠° مدّة ٢٠ دقيقة وإذ ذاك تباعدت التلال واتسع الوادى وما زال السفر يجد بنا الى أن وصلنا الى « رأس القائم » فى س ٥ وق ٢٥ وهنالك وجدنا مخفرا به جملة عساكر نظامية مع بعض الضباط كما وجدنا قهوة يباع بها الشاى والقهوة فى زمن الحج ، كسائر القهاوى التى على هذا الطريق وتابعنا السير فوصلنا الى «الرغامة» بعد س ٦ وهنالك على نشز من الأرض قلعة بها بعض الجنود وقهوة ، وقد وقفنا بالرغامة لحظة قدّم لنا فيها الماء البارد تحية مباركة ، ومن هذه القلعة تغير اتجاهنا فسرنا مشرقين على ٩٠° وإذ ذاك أخذت الجبال تقترب منا تارة وتبتعد أخرى فيضيق الوادى ويتسع ما بين ١٨٠ مترا الى ٣٦٠ بالتقريب ثم تغير الاتجاه الى الجنوب الشرقى فسرنا على ١١٠° الى أن وصلنا الى موضع يدعى « جرادة » فى س ٧ وق ٤٥

وبه قهوة متسعة مبنية بالحجر ومسقوفة، وعلى نحو ١٠٠ متر منها يوجد بئران ماؤهما فيه شيء من الملوحة — سقينا منهما الخيل والبغال وآسترحنا ٥٥ ق وواصلنا السير في س ٨ و ق ٤٠، وعلى نحو ١٠٠٠ متر وجدنا على اليسار «قلعة الكنانة» على مرتفع من الأرض كسائر القلاع في الطريق وبها ضابط وعشرون جنديا، ومن هذه القلعة كانت الأرض محصبة مسافة ميل بالتقريب . وفي الساعة ٩ والدقيقة ٢٠ تغير اتجاهنا الى الشمال الشرقي فسرنا على ٧٥° ووصلنا الى « قلعة الكنانة » الثانية في س ٩ وق ٣٠ وبها ضابطان وخمسون جنديا والماء بعيد عنها بمسافة تستغرق ساعة ونصفا بل الماء بعيد عن كل القلاع إلا ما ندر ويوجد بها قهوة، ومن هذه القلعة تغير اتجاهنا الى الجنوب الشرقي على ١٤٠° ولتمام الساعة العاشرة مررنا ببرج «القلعة البيضاء» وهو على اليسار به رئيس العشرين (جاويش) و ٢٥ جنديا وفي س ١٠ و ق ١٠ آجتزنا برجا صغيرا على اليمين به بعض العساكر، وفي س ١٠ و ق ٤٥ وصلنا الى « قلعة العبد أو قلعة سالم » وهي على اليمين وبها أربعون جنديا وقهوة وعلى مقربة منها بئر تسمى بئر البجادية ، ومن هذه القلعة آنفسح الوادي وتغير الاتجاه الى ١٠٠° وقد وصلنا الى قلعة « الثديين » س ١١ و ق ٣٠ وبها ١٥ جنديا و «جاويش» وهي على اليسار على أكمة مرتفعة وهناك الأراضي رملية صالحة للزراعة وفيها مراعي ومن هذه القلعة تغير الاتجاه الى ٧٠° وبلغنا قرية « بحرة » في س ١٢ أي وقت المغرب وإذ ذاك أخذت منظر المعسكر كما تراه (في الرسم ٢١). وبحرة وتسمى بحرة الرُّغاء على يسار الميمم مكة وبها أكواخ حقيرة وحظائر للابل وقهاوي ومسجد صغير بمئذنة بنى أصله النبي صلى الله عليه وسلم منصرفه من غزوة الطائف سنة ثمان وصلى فيه كما جاء في سيرة آبن هشام وفيها عقب ذلك . قال ابن اسحاق : فحدثني عمرو آبن شعيب أنه أقاد يومئذ بحرة الرغاء حين نزلها بدم، وهو أول دم أقيد به في الاسلام : رجل من بني ليث قتل رجلا من هذيل فقتله به . اهـ . ولكن في زاد المعاد في هدي خير العباد في غزوة الطائف ما يأتي :

منظر ركب المحمل بمحطة بحره

امير الحج محرم وجالس فوق اجولة البقسماط وعلى يساره الضوئى حاملا الآلة الفتوغرافية جاثا على ركبتيه والواقفون الحرس



21. The Mahmal at Bahrah, the first station between Geddah and Mecca

صحيفة ٢٦

منظر محطة بحره وبها مسجد صلى فيه النبى صلى الله عليه وسلم

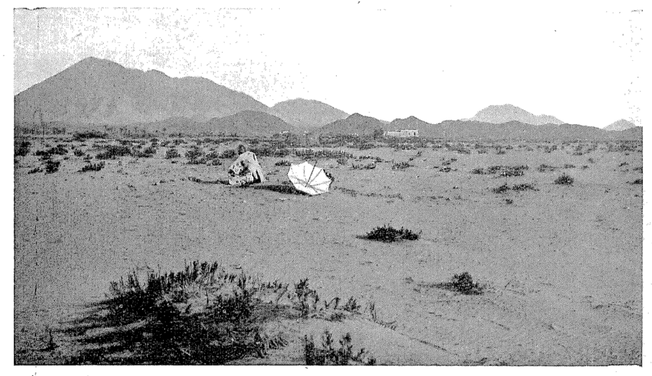
البناء المرتفع قلعة بحره وهى اكبر القلاع واقواها قوة بين جده ومكه وهى على يمين الناظر الى الرسم وما بأسفله زريبة من عيدان الاشجار



22. Bahrah and mosque where the Prophet M

منظر حده وبه مسجد قديم

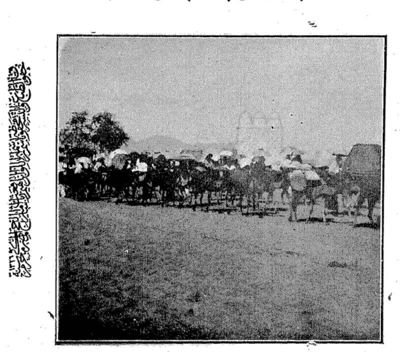
امير الحج محرم وخلفه مظلة بيضاء والشجر الاسود شجر الحرمل



23. Heddah and an old Mosque.



العلمين بالشميسى بالقرب من الحديبية



25. Two landmarks at the outskirts of the Haram at Shumaisi.

ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من الطائف الى الجِعْرانة ثم دخل منها محرما بعمرة فقضى عمرته ثم رجع الى المدينة . اه .

والطائف فى الجنوب الشرقى لمكة والجعرانة بينهما لكنها أقرب الى مكة فكيف يتفق مع ذلك أنه مرّ ببحرة منصرفه من غزوة الطائف مع أنها غربى مكة ولا تقل المسافة بينهما عن ثلاثين ميلا ، وبين الجعرانة ومكة حوالى عشرة أميال ، إنا لذلك نقف موقف الشك فيما رواه ابن هشام ونقله عنه كثير من المؤرخين حتى يأتينا اليقين . ويتفرّع من بحرة طريق آخر الى مكة يسير نحو الجنوب الشرقى ويقول الخبيرون : إنه أقرب اليها وأسهل من طريقنا لقلة التعاريج به . وبحرة جملة قهاو وقد بتنا بها ليلة السبت غرة ذى الحجة سنة ١٣٢٠ وارتحلنا منها فى س ١٢ آخر الليل ورأينا على يسارنا قلعة بحرة على نحو ميل من القرية وهى أكبر القلاع وأمتنها وبها ثلاثة ضباط و ١٠٠ جندى ، ولتمام الساعة الثانية العربية نهارا مررنا «ببئر أم القرون» وهى على اليسار مبنية بالحجارة وعمقها ١٠ أمتار لها أربعة أعمدة تدور عليها أقطاب البكر التى ترفع بها الدلاء ، وماء هذه البئر عذب فرات ، وفى منتصف الساعة الثالثة وصلنا «حدّة»(١) (بالحاء المهملة) وهى بلدة صغيرة على اليسار بها حصن ومسجد ذو مئذنة وعين ماء حلوة وبئران على يسار الطريق وبها نحو ٦٠٠ نخلة يملكها عون الرفيق باشا شريف مكة كما قيل لنا ، ورسم حدّة تراه فى (الشكل ٢٣) وفيه تجد بالأرض شجر الحرمل وأشجارا أخرى صغيره مختلفة الأجناس وترى أمير الحج جالسا على مقربة من شمسية ألقت بها الرياح . وكان المحمل يبيت أوّلا بحدّة ثم عدل عنها الى بحرة لما أن تعدّى أهلها عليه . وفى ختام الساعة الرابعة مررنا ببرجين على اليمين فوق جبل هنالك بينهما نحو ٣٠٠ متر وبهما ضابط و ٤٠ عسكريا ، والقوّة بالبرجين مؤقتة تحضر وقت مرور القوافل فقط ثم ترجع الى مستقرّها بقلعة الشميسى ومن هذين البرجين تغير الاتجاه الى ١٤٥° وضاق الطريق وعند الساعة الرابعة والثلث بلغنا قلعة الشميسى وهى شامخة البناء وبها

(١) ويسمونها قديما حداء — قال أبو جُندَب الهذلى :

بغيتهم ما بين حداء والحشا * وأوردتهم ماء الاثيل فعاصما

ضابطان و ٥٠ جنديا ، والطريق لديها متسع وسهل غير أن الجبال اليمنى قريبة منه وإن كانت تنأى بعد ذلك ، و بقرب القلعة قهوة و بعض أكواخ و بالشميسى مسجد يسمى (مسجد الشميسى أو مسجد البيعة) وهو على اليسار مربع الشكل طول ضلعه ١٥ مترا ومبنى بالحجر الأزرق بناء متينا ومجصص و به ثلاثة أروقة (بواكى) وقبلته مكتوب فيها : هذا مسجد بيعة الرضوان مأثرة من مآثر حبيب المنان عمره المليك الى رحمة الرحمن : المغفور له السلطان محمود خان سنة ١٢٥٤ هـ . وهذا المسجد موضع الشجرة التى بايع عندها الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة الرضوان عام الحديبية وأنزل الله تعالى فى تلك البيعة (لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة) و بالشميسى بئر عمقها ١٠ أمتار بالتقريب مبنية بالحجر وماؤها مقبول . ومنها تغير الاتجاه الى ١١٠° وفى الساعة الخامسة نهارا وصلنا الى العلمين ومنهما يبتدئ الحرم من الجهة الغربية وهما عمودان مبنيان بالحجر ومجصصان مربعا الشكل سمك كل منهما متر وارتفاعه أربعة أمتار و بين العلمين مسافة ٥٠ مترا و بجوار العلم الشمالى بئر مبنية بالحجر سمك حائطها ١,١٠ متر وقطرها أربعة أمتار وعمقها نحو ١٥ مترا و بجوارها مشرب (سبيل) مبنى بالحجر بناء متينا ومكتوب عليه أبيات باللغة التركية بخط جميل وتاريخ بنائه سنة ١٢٦٣ و بجانبه شجرة من السدر (النبق) ، و يجاور العلمين تلال رملية وتجد (فى الرسم ٢٤) أمير الحج مرتديا لباس الإحرام على يمينه مسجد الحديبية وتجد فى الرسم ٢٥ أحد العلمين واضحا تمام الوضوح . وفى الساعة السادسة رأينا الجبال تتدانى وتغير الاتجاه الى ٧٥° أى الى الشمال الشرقى ، و بعد ثلث ساعة وصلنا الى قهوة العبد (أو البزم أو سالم أو البوغاز) واسترحنا بها ثلثى الساعة ثم سرنا وتغير اتجاهنا عند الساعة ٨ الى ٩٠° ومررنا بعد ١٠ دقائق «بقلعة المقتلة» وهى على اليمين بها حراس نظاميون وتحتها بئر مطوية بالحجر وعمقها حوالى ٢٠ مترا وعليها دعامتان لوضع محور البكرة عليهما ، ولها ثلاث درجات يقف عليها من يخرج الماء منها وماؤها عذب غزير ، وعند س ٨ و ق ٢٥ تغير الاتجاه الى ٥٠°

24. The Mahmal and the Director of the Pilgrimage caravan in his Ihram dress.



وبعد ثلث ساعة تغير الى ٧٠° ، وفى س ٩ مررنا بقلعة (أم الدود) على يميننا وأمامها بئر كسابقتها . وعند الساعة ٩ و ق ١٠ تغير الاتجاه الى ٩٠° وأدركنا «قهوة البستان» فى س ٩ و ق ٢٥ ولديها شجرة سدر . وبعد ربع ساعة مررنا ببلدة الشريف حسين على يميننا وإذ ذاك أخذ الاتجاه ١٣٥° وبعد خمس دقائق اجتزنا بيت السيد بن اسحاق شيخ السادة سابقا وهو على اليسار يبعد عن جادّة الطريق حوالى ١٤٠ مترا ومن خلفه بمائة متر قبور الشهداء ، وفيها قبر عبد الله بن عمر الفقيه الكبير والمحدّث الجليل والأثرى العظيم رضى الله عنه وعن أبيه أمير المؤمنين ولكن فى كتاب أسد الغابة فى معرفة الصحابة أن عبد الله بن عمر دفن بالمحصب ، وقيل : بذى طوى ، وقيل : بفخ ، وقيل : بسرف ؛ وفى كتاب شفاء الغرام فى أخبار البلد الحرام للتقى الفاسى أنه دفن فى مقبرة صديقه عبد الله بن خالد بن أسد عند ثَنِيَّة أذاخر وهى فى الطرف الشرقى للمحصب ، وذلك حسب وصيته لصديقه وكل هذه الأماكن بعيدة عن مقبرة الشهداء التى زعموا أنه دفن فيها . وعند س ١٠ أخذ الاتجاه ٩٠° ودخلنا مضيقا يسع قطارين أو ثلاثة من الجمال قطعناه فى دقيقة ثم انفرج الطريق . وفى س ١٠ و ق ١٥ أخذ الاتجاه ١٥٠° مسافة قليلة وأدركنا «قهوة المعلم» ولديها وقف الركب أمام المضيفة «المسافرخانة» التى بناها السلطان عبد الحميد للفقراء وتبعد عن مكة بنحو ميل . ومن هنا نرجع بك الى حج سنة ١٣١٨

قلنا فيما سبق : أن المحمل وصل الى المضيفة فى الساعة ١ صباحا من يوم ٢٥ ذى العقدة سنة ١٣١٨ وهناك وجدنا المطوّفين ينتظروننا وقدّموا لنا هدايا من البطيخ والرمان وماء زمزم ، فأكلنا وشربنا حامدين الله شاكرين ووجدنا على مقربة من المضيفة مندوبين من قبل الشريف والوالى أحدهما ضابط والآخر ملكى حضرا لتهنئة الأمير وركبه بالقدوم من السفر وكان يصحبهما شرذمة من الجنود ، وقد تحرّك المحمل من هذا المكان بعد أن خلع لباس السفر وارتدى حلته القصبية يتقدّمه ثلة من الفرسان والموسيقى والمزمار البلدى يطربان بنغمهما الحضور والمستقبلين الى أن

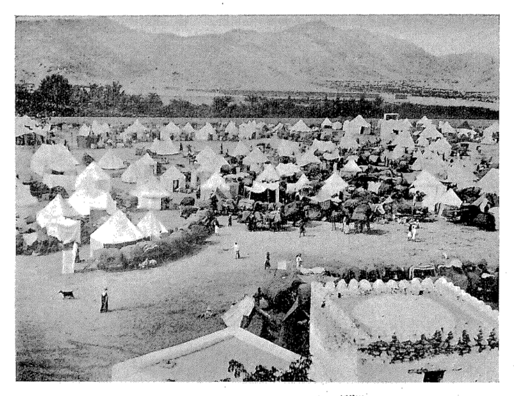
وصل الى مقامه المعتاد بجهة جرول أو الشيخ محمود المجاور لحديقة عون الرفيق باشا ، وهنالك نصبت الخيام بعد إزالة ما بالأرض من حجر ومدر وعرف كل مكانه وعين الجنود الذين يقومون بالحراسة .

دخول مكة

بعد أن ألقينا عصا التسيار بجهة جرول غربى مكة واتخذنا منها مقاما محمودا أمنا فيه على أمتعتنا هممنا بدخول مكة لأداء طواف القدوم تحية البيت الحرام فاغتسلنا جميعا من بئر ذى طوى اقتداء بالنبى صلى الله عليه وسلم فانه نزل فى حجة الوداع بذى طوى المعروفة بآبار الزاهر وبات بها ليلة الأحد لأربع خلون من ذى الحجة سنة ١٠ وصلى بها الصبح ثم اغتسل من يومه ونهض الى مكة كما سيأتى ان شاء الله تعالى فى سياق حجته (أنظر المعسكر فى الرسم ٢٦) ترى به سطح المكان القائم على البئر، وبعد اغتسالنا دخلنا مكة من الطريق المعروف بطريق الحجون(١) وهو طريق ثنية كداء التى دخل منها النبى صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع (أنظر الثنية فى الرسم ٢٧) والثنية كما تراها فى الرسم طريق حجرى مرتقع الوسط فى شمال مكة واقع بين جبلين على كل منهما برج بناه الشريف غالب فى سنة ١٢١٤ اتقاء لسعود بن عبد العزيز الوهابى الذى جاء للحج فى تلك السنة ومعه من قومه أمثال الرمال ومن الثنية يهبط المرء الى المعلاة مقبرة أهل مكة ويشقها الطريق شقين عن اليمين وعن الشمال ويحيط بالمقبرة سور قديم مبنى بالحجارة وبها قبور كثير من الصحابة ، وبالشق الأيسر قبة شاهقة

(١) قد جاء فى كتاب منتخب شفاء الغرام طبع أوربا أنه فى سنة ٨١١ سهل بعض المجاورين موضعا مستصعبا فى رأس الطريق وسهل أيضا بعض مجاورى مكة فى النصف الثانى من سنة ٨١٧ طريقا فى هذه الثنية غير الطريق المعتادة بل على يسار الهابط منها الى المقبرة والأبطح كانت ضيقة جدا فنحت ما يليها من الجبل بالمعاول حتى اتسعت فصارت تسع أربع قطائر من الجمال المحملة وكانت قبل ذلك لاتسع إلا واحدة وسهلت أرضها بتراب ألقى فيها حتى استوت ورغب الناس فى سلوكها عن الطريق المعتادة وجعل بينهما حاجز من الحجارة المرصوصة ثم جعل سودون المحمدى رئيس العمائر بالمسجد الحرام سنة ٨٣٧ هذين الطريقين طريقا واحدا فردم الطريق الجديدة المنخفضة عن القديمة بنحو قامة حتى سوّاها بالأولى وجعلهما طريقا واحدا يسع عدة قطائر، والحجون هو الجبل الذى فيه الثنية وهو المذكور فى شعر مضاض بن عمرو الجرهمى .

بئر طوى بالشيخ محمود

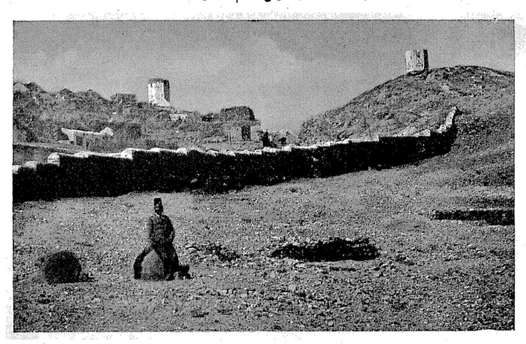


حقوق الطبع والتصوير محفوظة باسم اللواء ابراهيم رفعت باشا امير الحج المصري في محرم سنة ١٣٢٦

26. A view of the well of Towa in El Shaikh Mahmoud in 1325.

صحيفة ٣٠

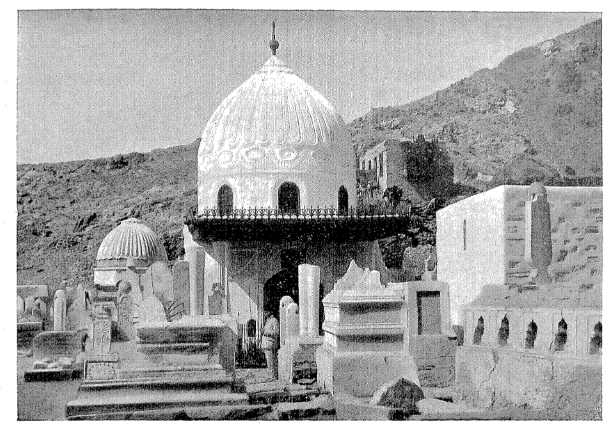
طريق ثنية كدا الذي مشى فيه النبي صلى الله عليه وسلم ودخل مكة في حجة الوداع سنة ١٠



حقوق الطبع والتصوير محفوظة باسم اللواء ابراهيم رفعت باشا امير الحج المصري في محرم سنة ١٣٢٦

27. The route on the plateau of Thannitte Kada by which the Prophet Mohammed proceeded to Mecca for his last pilgrimage (Al Wida'a - the "farewell") in the year 10 of El Hegra.

قبة السيدة خديجة بالمعلى بمكة المكرمة



28. The dome of El Sayyida Khadija in El Maalla at Mecca,

قباب جدي النبي عبد المطلب وعبد مناف وعمه أبي طالب

29. A view of the domes of the grandfathers of the Prophet, Abdel Motaleb Abd Manaf, and his uncle Abu Taleb

على قبر السيدة خديجه[1] أم المؤمنين رضى الله عنها كما ترى فى الرسم ٢٨ وبه أيضا قبر زعموا أنه لآمنة أم الرسول صلى الله عليه وسلم وهذا افتراء والحقيقة أنها مدفونة بالأبواء بين المدينة ومكة على نحو ١٣ ميلا من رابغ . وبه أيضا جملة قباب[2] قيل لنا : إنها على مقابر عبد مناف وعبد المطلب وهاشم أجداد النبى صلى الله عليه وسلم.

(١) وهى زوج الرسول صلى الله عليه وسلم وأول من آمن به وقد واسته بمالها ونفسها وتزوجها صلى الله عليه وسلم وسنها ٤٠ سنة وسنه ٢٥ ولم يتزوّج عليها غيرها حتى توفيت قبل الهجرة بثلاث سنين وهذه القبة بنيت فى سنة ٩٥٠ بالحجر الشميسى بمعرفة الأمير الشهيد محمد بن سليمان الجركسى أمين الدفاتر (دفتردار) بمصر فى ولاية داود باشا نائب السلطان سليمان القانونى ، وكان على القبر قبل القبة تابوت خشبى وقد جعل محمد ابن سليمان المذكور لخادم القبر مرتبا من صدقات السلطان سليمان ولكننى رأيت على القبة تاريخ سنة ١٢٩٨ فيظهر أنها جدّدت بعد سنة ٩٥٠

(٢) مما لا ريب فيه فى شرعتنا الاسلامية أن إقامة القباب على القبور محرمة بل ما هو دون القباب. فقد ثبت أن النبى صلى الله عليه وسلم أمر عليا رضى الله عنه أن لا يدع قبرا مشرفا إلا سواه بالأرض. ولا تمثالا إلا طمسه — رواه النسائى — ومع هذا الحظر القطعى أكثر المسلمون من إقامة القباب فوق قبور من اعتقدوا فيهم الصلاح تقربا اليهم وإعظاما لهم وإشادة بذكرهم ويعلم الله أن الذكرى إنما هى بالأعمال الطيبة لا بالأبنية المشيدة وأن هؤلاء الموتى أحب الأشياء اليهم أن يؤتسى بهم فى أعمالهم وأخلاقهم فإن ذلك ينفعهم فى أجداثهم إذ لهم مثل أجر من عمل بعملهم ثم اذا كان الباعث على إقامة القباب ما ذكرنا من اعتقاد الصلاح والتقوى فلماذا نقيمها على قبر أبى طالب عم الرسول صلى الله عليه وسلم وقد دعاه الى الاسلام فأبى حتى لفظ نفسه الأخير وفيه يقول الرسول صلى الله عليه وسلم (لعله تنفعه شفاعتى فيوضع فى ضحضاح من نار) — الضحضاح — اليسير .

اللهم إنى لا أظن سببا لاقامة القباب فوق قبور هؤلاء إلا قرابتهم من الرسول صلى الله عليه وسلم ولكن القرابة وحدها غير منجية إذ لو أنجى قريب قريبه لنجى نوح ابنه ، وابراهيم أباه ، ولوط زوجه ، وآسية فرعون ومحمد صلى الله عليه وسلم عمه أبا طالب ولكن لم ينفع هؤلاء أولئك لأن الانسان بأعماله لا بأعمال غيره (وأن ليس للانسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى) والتفاضل إنما هو بالتقوى لا بالقرابة (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) فمتى يتفقه المسلمون فى دينهم ويأتسون بنبيهم ويدعون هذه الخزعبلات وتلك الترهات التى أخرت بديننا وأمتنا وتركتنا مثلا سيئا فى الآخرين فاللهم اهد قومنا الى سواء السبيل .

وكذلك قبة على قبر عمه أبى طالب تراها فى (الرسم ٢٩) وفى (الرسم ٣٠) صورة عامة لمقبرة[(١)] المعلاة وكذلك فى (الرسم ٣١) .

وقد زرنا هـذه المقابر وقت مرورنا بها ثم سرنا الى سوق البـلد ثم الى المسجد الحرام وهو على مسير نصف ساعة من معسكرنا وقد دخلنا المسجد من باب بنى شيبة المعروف بباب السـلام وهو فى الجهة الشمالية الشرقية ، وعنـد رؤية الكعبة رفعنا الأيدى متضرعين الى الله وكبرنا وقلنا : اللهم أنت السلام ومنك السلام حينا ربنا بالسلام ، اللهم زد هذا البيت تشريفا وتعظيما وتكريما ومهابة وزد من حجه أو اعتمره تكريمـا وتشريفا وتعظيما وبرا — وقد سمع هـذا الدعاء سعيد بن المسيب عن عمر رضى الله عنه يقوله ، ثم اتجهنا الى باب بنى شيبة الذى بداخل المسجد عنـد مقام ابراهيم وهو باب المسجد الأصلى فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ويعرف بباب بنى عبد مناف ومنه دخل فى حجة الوداع وقد دخلنا منه اقتداء برسولنا عليه الصلاة والسلام وقلنا ساعة الدخول كما قال : ﴿رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا . وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ وإن ذلك لمكتوب فى أعلى الباب بالخط الجميل المذهب ، والباب عبارة

---

(١) وتسمى أيضا مقبرة الحجون وفيها يقول كثير بن كثير السهمى :

عينى جودى بعـبرة أسراب ❊ من دموع كثيرة التسكاب
إن أهل الحصاب قد تركونى ❊ موزعا مولعا بأهل الحصاب
كم بذاك الحجون من حىّ صدق ❊ وكهول أعفـة وشـباب
فارقونى وقـد علمت يقينـا ❊ ما لمن ذاق ميتـة من إياب

والحصاب : المراد به المحصب وهو موضع الجمارة بمنى — وفى يوم الأربعاء ٢٩ ربيع الثانى سنة ١٠٨٦ شرع الشيخ محمد على بن سليمان الوزير الذى حضر من اليمن فى هدم قبور المعلاة وبنى مقبرة خاصة ذات جدر أربع وقسمها تقسيم الشطرنج وجعلها ذات بابين وهتك بذلك حرمة الأموات . وفى هذا يقول الشاعر :

تكفل ابن سليمان أذية من ❊ قد وحد الله ممن حل فى الحرم
فحين عم الأذى الأحياء منه غدا ❊ مفتشا لأولى التوحيد فى الرمم
طريقـة من شقاء ما تناقلها ❊ أهل التواريخ من عرب ومن عجم

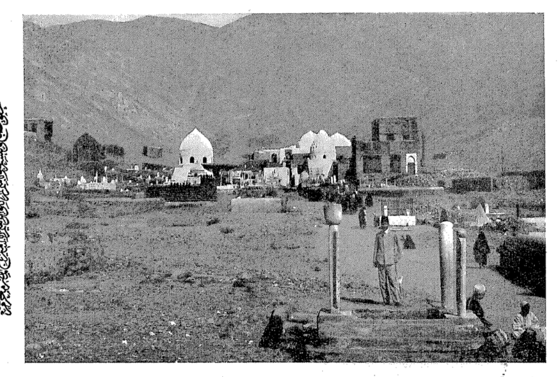
وكان محمد هذا ممن أولع بتنظيم مكة ومناسك الحج .

مقبرة المعلى بمكة المكرمة



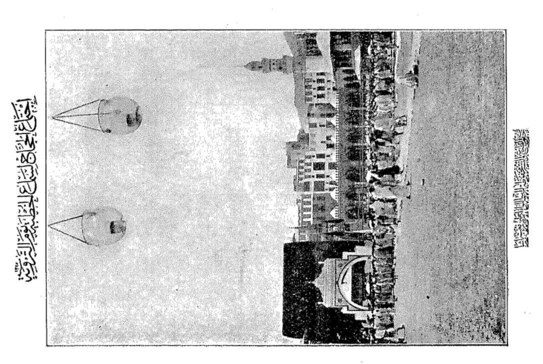
30. A view of the Tomb El Maalla in Mecca.

المعلى وفيها السيدة خديجة الكبرى والسيدة آمنة وأجداد النبي عبد المطلب وعبد مناف

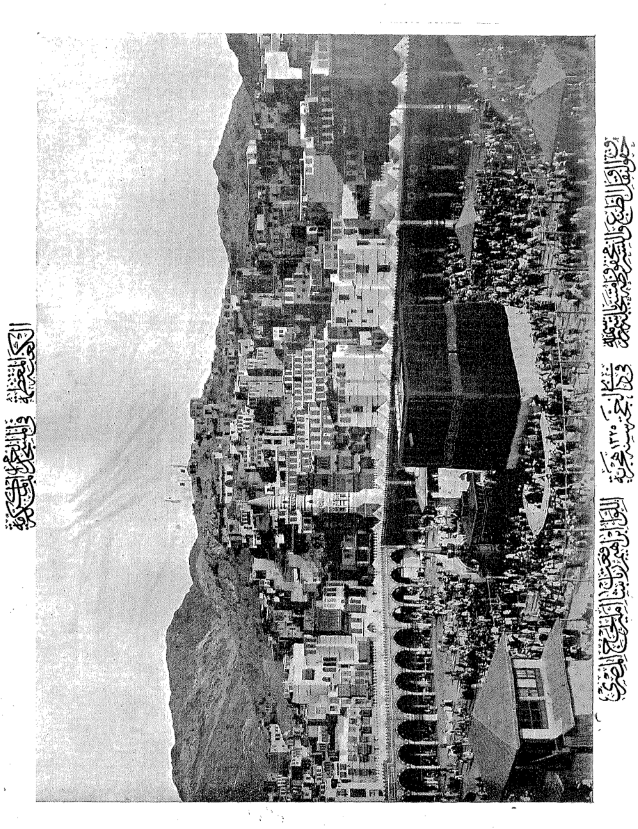


31. The Maalla showing the domes of El Sayyida Khadijah, El Sayyida Amnah, and the ancestors of the Prophet, Abdel-Mottalib and Abd Manaf.

اجتماع الحجاج لسماع الخطبة يوم التروية



32. The meeting of the Pilgrims to attend the speech of the day of El-Tarweya



33. The Kaaba in the Mecca Mosque.

عن قائمين يعلوهما عقد مستدير أتقن صنعه، وعرضه أربعة أمتار. أنظر (الرسم ٣٢) الذى أخذت صورته فى يوم التروية ثامن ذى الحجة سنة ١٣٢٥، وقد آجتمع الحجاج بالمسجد الحرام لسماع خطبة المناسك. ثم وقفنا متجهين الى ناحية الكعبة الجنوبية التى فى ركنها الشرقى الحجر الأسود وفى طرفها الغربى الركن اليمانى، وبدأنا من عند الحَجَر بطواف القدوم (طواف التحية) بعد أن قبله من قدر ولمسه من لم يقدر وأشار اليه من لم يتمكن من أحدهما، وقال الجميع : بسم الله والله أكبر، وقد جعلنا البيت عن يسارنا فى الطواف حوله، وكان طوافنا من وراء الحِجر (الحطيم) وكان سبعة أشواط رملنا (أسرعنا) فى الثلاثة الأولى منها وسرنا فى الباقى سيرنا المعتاد آقتداء بالنبىّ صلى الله عليه وسلم، اذ روى أبو داود والنسائى عن آبن عباس رضى الله عنهما. قال : قدم النبى صلى الله عليه وسلم مكةَ فى عُمرة القَضيَّة فقال المشركون : إنه يَقْدَم عليكم قوم قد أوهنتهم — أضعفتهم — حمى يثرب — المدينة — ولقوا فيها شرا فأطلع الله نبيه صلى الله عليه وسلم على ذلك فأمر أصحابه أن يرمُلوا الأشواط الثلاثة الأول، ولم يمنعه أن يلزمهم أن يرمُلوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم، فلما رأوهم قالوا : هؤلاء الذين ذكرتم أن الحمى قد أنهكتهم، هؤلاء أجلد منا وكذلك فعل هو وأصحابه فى حجة الوداع فكان ذلك سنة، وترى فى (الرسم ٣٣) الحجاج وهم يطوفون حول الكعبة وقد لبست كسوتها السوداء وأتزرت بإزارها الأبيض والواجهتان الظاهرتان بالرسم من الكعبة الواجهة الشمالية التى فى أعلاها ميزاب الرحمة الأبيض وأمامها حِجر اسماعيل على شكل نصف دائرة، والواجهة الغربية وترى على يمين الكعبة فى الرسم مصلى إمام المالكية، ومصلى إمام الحنبلية على شكل مظلة قائمة على أربعة أعمدة وعلى يسارها مقام ابراهيم من خلفه باب بنى شيبة، والجزء الأبيض الذى بين المقام وزمزم جزء من بناء زمزم الذى يصلى عليه إمام الشافعية، والمظلة ذات الطبقتين التى على اليسار مصلى إمام الحنفية وترى فى الرسم أعمدة المطاف على شكل دائرة كما ترى أعمدة الأروقة بعقودها وقبابها وكذلك به بيوت الأشراف الفخمة، والجبل

الذى على اليسار جبل الخندمة والذى على اليمين جبل أبى قبيس فوقه مسجد إبراهيم القبيسى . وبعد الطواف أتينا الملتزم وهو ما بين باب الكعبة والحجر الأسود فى الجهة الشرقية ووضعنا عليه صدورنا وتعلقنا بأستار الكعبة وابتهلنا الى الله أن يعافينا فى ديننا ودنيانا وقلنا ماخطر بنفوسنا من الرغبات الصالحة والأمانى المشروعة ثم ركعنا ركعتين خلف مقام إبراهيم عليه السلام عملا بقوله تعالى ﴿ وَٱتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ ثم أتينا زمزم فى الجنوب الغربى لباب بنى شيبة بداخل المسجد وشربنا منها وتضلعنا ، ثم خرجنا من المسجد من باب الصفا فى الجنوب وقصدنا الصفا وهو مكان مرتفع نحو مترين طوله ٦ أمتار فى عرض ٣ وصعدنا اليه بدرج منتظم وهناك استقبلنا البيت وهللنا وكبرنا ودعونا ثم نزلنا منه الى شارع السعى شرقى المسجد فسرنا فيه نحو ٧٠ مترا واذا بالميلين الأخضرين (العلمين) أحدهما على اليمين بحائط بيت وثانيهما على الشمال بجوار باب المسجد الحرام المسمى (باب بازان) ومنهما هرولنا واضعين أيدينا على صدورنا الى الجانبين الى أن قطعنا ٧٥ مترا واذا بالميلين الآخرين أحدهما فى الميمنة فى حائط والآخر فى الميسرة بحذائه أمام باب المسجد الحرام المسمى بباب على ، ومن هذين العلمين مشينا مشينا المعتاد ٢٤٠ مترا فوصلنا الى المروة وهى أشبه بالصفا (سيأتى الكلام مفصلا على الصفا والمروة) وقد صعدنا اليها وهللنا وكبرنا فكان ذلك شوطا ثم نزلنا من المروة الى الصفا وفعلنا فى الثانية ما فعلنا فى الأولى فكان ذلك شوطا آخر وهكذا أتممنا سبعة أشواط (إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم) ويلاحظ أن النساء لا تهرول فى السعى ولا ترمل فى الطواف ولا ترفع الصوت بالتلبية خشية الفتنة وبعد السعى تحلل المعتمر منا بالحلق أو التقصير وحل له كل شىء . وفى يوم التروية (ثامن ذى الحجة) يحرم بالحج ، أما المحرم بالحج فقط أو به مع العمرة فانه لا يتحلل بل يستمر فى إحرامه حتى يأتى بأعمال الحج من وقوف ورمى وحلق وطواف الخ ، ويتحلل بعدئذ التحلل كله .

ولا بأس من أن نذكر لك فى هذا الموطن ما يصدر من العربان ونسائهم وقت الطواف فان فيه تفكهة : إحرام العربان عبارة عن كشف أذرعهم ورءوسهم، وباقى جسدهم مستور وشعرهم منثور غير منتظم وأكثرهم طويل الشعر مضفوره أشبه بشعور النساء عندنا، أما نساؤهم فمحتجبات لا يكاد يبدو منهن شيء والرجل يقول فى طوافه : يارب البيت اشهد أنى جيت لا تقول ما جيت اغفر لى ولوالدى وإلا تغفرلى غصبا تغفرلى ترانى جيت يقول ذلك بصوت جهورى مزعج ويسرع فى مشيه فى الطواف والسعى ويأخذ الرجل بيد زوجه أو أخته أو أمه ويسرع بها فى السير وعند ما يصل بها الى الحجر الأسود يرفعها ويضع رأسها فى تجويف الحجر واذ ذاك تمسح وجهها وشعرها ويقول لها (حجى يامره حجى) وتقبيل الحجر عندهم فريضة لازبة لا يتركونه ولو ماتوا دونه ومن كثرة زحام هؤلاء العربان على الحجر وإدخالهم الرءوس فى تجويفه حصل به خدش أصلح فيما بعد، ومات أحد الحجاج أثناء الطواف من شدّة الزحام، ومما سمعته محاورة بين اثنتين من نساء العربان قالت إحداهما للكعبة : (ياست ليلة [لعل تسميتها ليلة لأنها سوداء وكسوتها سوداء] إن كان جاتنا المطر فى ديارنا وجانا الخير أجيب لك عكية سمن (قربة صغيرة) تدهنى بها شوشتك، لأن العربان يزعمون أن الكعبة امرأة تدهن رأسها — فقالت الثانية : حقيقة تجيبى لها فقالت لها : آسكتى أنا عمال أكذب عليها اذا جاتنا المطر ما أجيب) فانظر كيف بلغ أدب العربان فى خطاب الرب حدّا سيئا وكيف بلغت من نفوسهم الاعتقادات الفاسدة. ما ذلك إلا من فرط جهلهم بالدين فهل لأولئك من مرشدين .

وفى يوم السبت ٢ ذى الحجة (٢٣ مارس) قدم من جدّة الى مكة ١٥٠٠ حاج سائرين على الأقدام بعد أن تركوا جميع أمتعتهم بجدّة وانما قدموا رجّالة لقلة الجمال وكثرة الحجاج فخافوا إن انتظروا أن تفوتهم الفريضة فأسرعوا بالحضور .

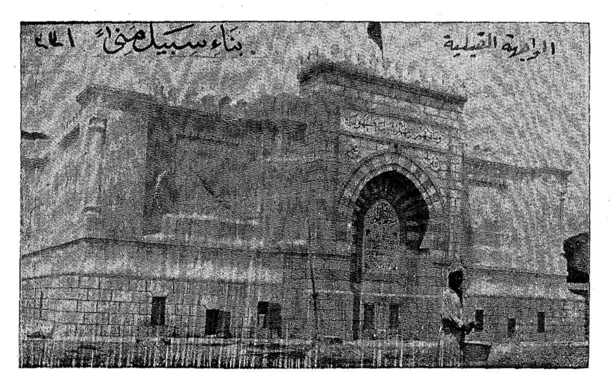
التزاور بمكة

زيارة أمير الحج وأمين الصرة لصاحبي الدولة شريف مكة وواليها

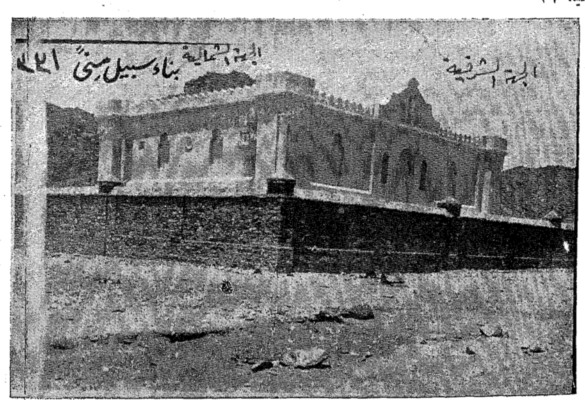
فى اليوم الذى وصلنا فيه إلى مكة (٢٥ ذى القعدة سنة ١٣١٨) بعد أن زرنا البيت الحرام وطفنا وسعينا وتحللنا زار أمير الحج وأمين الصرة دولة الشريف بعد الاستئذان منه وساعة اللقاء لثما يده وسلم له الأمير مكتوبين أحدهما من المعية السنية والآخر من نظارة الداخلية وكلاهما يتضمن التحية والتماس مساعدة أمير الحج على أداء عمله والقيام براحة الحجيج وقد قدّم الشريف لهما القهوة والشاى ومكثا بمجلسه فترة طويلة كانا فيها موضع تجلته ثم انصرفا شاكرين، ولم أتمكن من التوجه معهما اذ شغلنى تنظيم المعسكر وإعداد ما يلزم لرجال المحمل وشراء العلف للدواب، وفى اليوم التالى زرته مع الضباط وقد وقف لنا ساعة دنونا منه وقبلنا يده وأذن لنا بالجلوس وبلغته سلام الجناب العالى الخديو فشكر له ودعا وأظهر شوقه لرؤيته فنبأته بأن سموّه تواق إلى الحج ، فقال : متى تمت السكة الحديدية توافرت سبل الراحة ، ولبثنا فى حضرته زهاء ساعة ونصف كنا فيها موضع رعايته ، وقدّم لنا فى خلالها الشاى والقهوة ثم خرجنا شاكرين .

وفى اليوم نفسه زار الأمير والأمين وأنا ثالثهم دولة الوالى بمقر الحكومة المسمى « الحميدية » فقابلنا بالبشر والترحاب وسلم الأمير اليه كتابا من نظارة الداخلية توصية بركب المحمل فبعد تلاوته سأل عن حال العساكر والحجاج وعرّفنا بأنه مستعد لعمل كل شيء يوفر على الحجاج راحتهم وطمأنينتهم فدعونا لدولته وشكرنا وبعد تناول القهوة رجعنا شاكرين .

زيارات مختلفة — فى الفترة التى أقمناها بمكة زرت رئيس الجند العثمانى (القومندان) ولديه رتبة لواء كما زرت وكيل الوالى ويسمى « المحاسبجى » وسعادة اللواء صادق باشا العظم المدير العام للإشارات البرقية الحجازية وكذلك زرت الشريف



صحيفة ٣٧



حقوق الطبع والنشر محفوظة باسم اللواء ابراهيم رفعت باشا امير الحج المصري في محرم سنة ١٣٢٦

331. Fountain (Sibil) of drinking water at Mena for Pilgrims in the year 1340 H., East and South sides.

على[1] باشا وكيل الأشغال لأمير مكة والشيخ الشيبى (من بنى شيبة) السيد محمد صالح أمين مفتاح الكعبة ، وممن زرتهم ناصر باشا ابن الشريف عبد المطلب أمير مكة سابقا وقد طلب الىّ أن أرفع الى الأعتاب الخديوية ما يأتى :

(أولا) يود أن تكون مرتبات الأشراف التى تصرف اليهم من المالية والأوقاف بحساب الريال المصرى لا الحجازى (أبو طاقه) الذى قيمته عشرة قروش وقتئذ .

(ثانيا) انتقد ما عمله بعض نظار (التكية) المصرية من تحويل نوافذها الى أبواب لحوانيت اقتضبت من التكية ويرى أن ذلك غير مناسب للطعم .

(ثالثا) انه قد صدر الأمر الكريم بإنفاق ٨٠٠٠ جنيه مصرى لتشييد مخزن كبير فى منًى يملأ بالماء لشرب الحاجين وأبناء السبيل فيرجو انجاز هذا الأمر الجليل الذى يعدّ أثرا خالدا لسمو الخديو يستحق به عظيم المثوبة من الله لأن بعد الماء رفع قيمته حتى إن القربة التى تسع قدما مكعبة من الماء يبلغ ثمنها ٣٫٥ قروش بل فى هذا العام كان ثمنها ٥ قروش وإنى أعضده فى فكرته هذه فان ذلك عظيم النفع للحجاج خصوصا الفقراء الذين لا يجدون ما ينفقون وتضطرهم الفاقة الى جلب المياه من الأماكن النازحة سيرا على أقدامهم ، بل وفرة الماء تقطع دابر الأشرار من الأعراب الذين يتربصون من يبتعد عن منًى لإحضار المياه فيسلبونه ماله ولا مغيث فان المياه تبعد عنها بأكثر من ثلاثة أميال أضف الى ذلك أن كثرة المياه تساعد على نظافة البدن والملبس وذلك أحفظ للصحة وأرعى لها فإنجاز هذا المشروع يعود بالخير العميم على الناس وعلى من يقوم به .

وقد كلمت سموّ الخديو فى هذا الاقتراح فقال : لا مانع على أن يتولى الانفاق على المشروع موظف مصرى ، ولما عرضت ذلك على الشريف عون فى حجتى الثانية وافق على المشروع ولكن اشترط أن يتولى هو الانفاق ، فكان شرطه هذا داعيا لوقف المشروع الى أن نفذ فى السنين الأخيرة — فى عهد مليكنا فؤاد الأول .

(١) يقيم الآن فى مصر بمحطة سراى القبة .

وممن زرتهم محسن بك وعبد الله بك ولدا المرحوم الشريف محمد باشا ابن الشريف عبد الله باشا أمير مكة سابقا وهما شابان لا يتجاوز عمرهما الثامنة عشرة لم يتعلما إلا المبادئ الأولية لإهمال التعليم بمكة وقلة المدارس بها وذلك ما يرغب فيه الشريف عون الرفيق باشا لأنه يرى فى العلم تنويرا للأفكار ومطالبة بالحقوق وضربا على أيدى الظالمين وجهادا للتخلص من المستبدين وهو عليم بنفسه خبير بسيرته ، وترى فى (الرسم ٣٤) الأخوين بلباسهما العربى وفى (الرسم ٣٥) بلباسهما المكىّ خلفهما محمد بن سعيد الزمزمى وفى (الرسم ٣٦) بلباس مختلف والواقفون وراءهما ابراهيم بك مصطفى المعمم ناظر دار العلوم سابقا فأنا فأحمد بك زكى أمين الصرة فى سنة ١٣٢١

وقد زرت كثيرا غير هؤلاء من الأشراف والسّراة وكانوا يقابلوننا أجمل مقابلة ويردون الزيارة الينا فى المعسكر، فكنت أكرمهم غاية الإكرام وكان ضباط الحرس يعطفون عليهم ويتحدّثون معهم وكانوا ولعين بسماع الآلات المطربة فكنت استحضر لهم الموسيق والمزمار البلدى فيتناوبان الألحان مما يزيد فى ابتهاجهم وانشراح صدرهم ،وكانت الموسيق تعزف كل يوم من بعد صلاة العصر حتى تتوارى الشمس بالحجاب وكان الناس يجتمعون على السماع ترويضا للأفكار وتهذيبا للنفوس فكان لنا الدين والدنيا جميعا .

زيارة أمير مكة وواليها وقائد جندها للمحمل — فى الساعة الثانية العربية نهارا من يوم ٧ ذى الحجة سنة ١٣١٨ زار صاحب الدولة الشريف عون الرفيق باشا أمير مكة معسكر المحمل فى موكب حافل وكان راكبا عربة يجرها جوادان وكان على يساره وكيله الشريف على باشا وكان أمام العربة ٥٠ فارسا ، و ١٥٠ هجانا و ٢٥٠ راجلا و١٢ موسيقيا وزمارا وكلهم من أهالى مكة إلا القليل — سودانيين — وكانوا بلباس عادى يحملون أسلحة من الطرز القديم وكان خلف العربة حوالى ١٥ جوادا يقودها سواسها وكان عليها السروج المذهبة المسبل عليها القطيفة المزركشة بالقصب — منظر يسرّ الناظرين — (انظر الرسم ٢٦٧) أما نحن فلدى قرب مجيئه اصطفت عساكرنا

عبدالله باشا ومحسن باشا ولدا اخي الشريف على





34 & 35. Photos of Abdulla Pacha and Mohsin Pacha the sons of El Sherrif Aly Pacha's brother.

عبد الله باشا و محسن باشا ولدا اخي الشريف علي



محمد علي سعودي بمصر

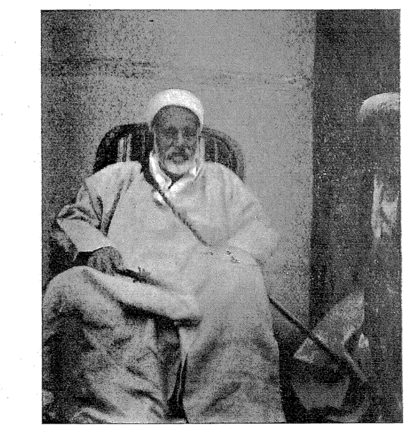
36. The photo of Abdulla Pacha and Mohsen Pacha.

جنائب أمير مكة في الركائب بالشيخ محمود



267. A view of the Horses of Amir Mecca in Sheikh Mahmoud.

الشريف عون الرفيق باشا وجليسه



37. A photo of El Sheriff Own El Rafik Pacha and his companion

صفين متقابلين الموسيقيون أولا فالفرسان فالمشاة ، واتخذ رجال المدفعية مكانا مناسبا لإطلاق المدافع ووقف أمير الحج والأمين وموظفوا المحمل فى ميمنة العسكر وعند وصول الشريف تقدم اليه الأمير والأمين وقبلا يده وطرف السترة (الأتك) وتبعاه راكبا عربته يسير الهوينا بين الصفين متأملا زى العساكر معجبا بشهامتهم وثباتهم مسلما عليهم بالإشارة ، وعند سرادق الأمير نزل من العربة وجلس على أريكة فى صدر السرادق وساعتئذ قدّم له الأمير موظفى المحمل فلثموا يده ثم أمرهم بالجلوس وبعد زمن يسير قلت للعسكر «صفا» أى راحة ، وتوجهت بالضباط الى السرادق حيث قبلنا يد الأمير و « أتكه » كمن سبقنا ، وبعد تناول الشاى والقهوة همّ بالعودة فرجعت بالضباط حيث كانوا أوّلا وساعة مروره حيي التحية العسكرية وصدحت الموسيقى بسلام جلالة السلطان وأطلق المدفعية ٢١ مدفعا كما حصل مثل ذلك عند القدوم ، وقد أعجب الأمير بكل ما رأى خصوصا زى الضباط والعسكر وكان يرتدى ملابسه العادية العمامة والقَباء (القفطان) الأبيض والفرجية ذات اللون الرملى ، ومما حادث به أمير الحج أنه سأله عن عمر كسوة المحمل القصبية إذ رآها غير زاهية فأجابه بأنها صنعت فى عهد الخديو السابق توفيق باشا (انظر الشريف فى الرسم ٣٧) الذى أخذته فى بيت الشريف بعد المغرب وترى بجانبه جليسه الذى يعرف بالبوّ وللشريف كبير ثقة به وحسن اعتقاد فيه جعله يؤثره بالهدايا النفيسة التى كانت ترد اليه فابتنى منها البيوت الفاخرة المشابهة لبيوت مصر وقد بلغنى أن سبب ذلك الإكبار أنه جاء الى الشريف وقد جلس تحت سقيفة فأشار اليه بالانصراف وقال له « جم جم » فلم يكد يبرح السقيفة حتى سقط عرشها ، ومما آثره به من الهدايا فى سنة ١٣٢٠ سيف مذهب وسكينة مذهبة أهداهما الى الشريف سلطان زنجبار .

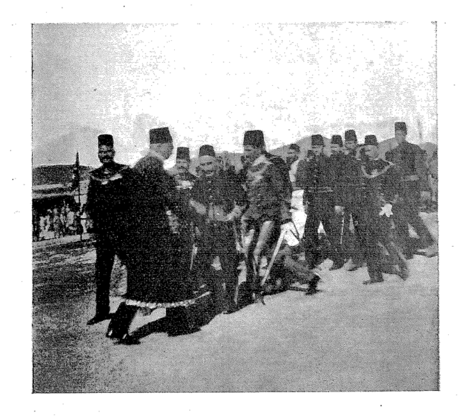
وفى الساعة الثالثة من اليوم نفسه أقبل دولة الوالى المشير أحمد راتب باشا لزيارة الأمير وركبه وكان يركب عربة كعربة الشريف وكان عن يساره فيها سعادة اللواء صادق باشا مدير الاشارات البرقية الحجازية ويتقدّم العربة حوالى ٥٠ فارسا تركيا

من غير النظاميين وكان منهم ستة يحملون على أكتافهم العصى الفضية الطويلة، ودولة الوالى كان يرتدى ملابس التشريفة الكبرى البحرية وهى عبارة عن(بنطلون) أبيض طويل فوقه معطف طويل أسود عليه سمة مشير بحرى وبصدر المعطف خيوط غليظة مثبتة به من طرفيها (كردون) وفوق ذلك جبة سوداء طويلة تمتد الى ماتحت الركب ومزركشة بالخيوط القصبية على طوقها وكميها ومن أمامها وخلفها وجانبيها وذيلها وهى خاصة بمن يشغل منصب الولاية على مكة وكان من فوق الجبة الوسام (النيشان) المجيدى من الدرجة الأولى، وقد استقبلنا الوالى بمثل ما استقبلنا به الشريف غير أن الوالى نزل من عربته حينما وصل الى أوّل المعسكر ومر بين الصفين وكلما حاذى ضابطا صافحه وكان شديد التأمل فى الضباط والعساكر مسرورا من زيهم معجبا بجميل نظامهم وكان ذلك باديا على محياه ولا سيما عند ما أدّيت له التحية العسكرية بقوّة وشهامة، وقبل أن يبرح دولته سرادق الأمير قام الشيخ محمد السنباطى (موزع الكساوى على العربان والقائم بالأدعية وقت تسليم الخديو المحمل الى أمير الحج الخ) وتلا خطبة امتدح فيها الوالى ودعا لجلالة السلطان فكافأه على ذلك بخمسة جنيهات كما كافأ الموسيقيين والزمارين بثلاثة أخرى وتلك له عادة سنوية (أنظر الرسمين ٣٨ و ٣٩) . هذا وقد كانت زيارة الشريف والوالى لمحملنا بعد عودتهما من زيارة المحمل الشامى فى اليوم التالى لوصوله .

غسل الكعبة

فى يوم الاثنين ٥ ذى الحجة دعيت مع أمير الحج وأمين الصرة وبعض الموظفين لغسل الكعبة حسب المعتاد سنويا فلبينا الدعوة وذهبنا الى المسجد الحرام وفى الساعة الأولى العربية حضر دولة الوالى وأمين الدفاتر (الدفتردار) واللواء (قومندان) الجند المكى وبعض العظماء من الحجاج ودخلنا الكعبة وصلينا فى كل من جهاتها الأربع ركعتين ودعونا الله بما أحببنا ودعوت للخديو كما دعا له الأمير والأمين ثم أخذنا جميعا فى غسل أرض الكعبة من الداخل بماء زمزم وكان ذلك بمقشات

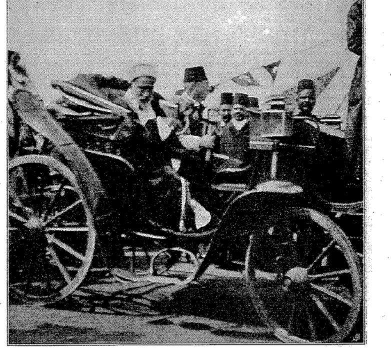
مصافحة والى الحجاز لضباط المحمل عند استقباله رسمياً



38. A photo of the Wali of El Hejaz shaking hands with the officers of the Mahmal on meeting officially.

الشريف والـــــوالى فى العربه بالشيخ محمود

أمير مكة والوالى فى الشيخ محمود سنة ١٣٢١



محمد على سعودى بمصر

39. The Sherif and the Wali in carriage at a place called Sheikh Mahmoud



صغيرة صنعت من خوص النخيل ثم وزعت علينا خرق بيضاء مبللة بماء الورد والروائح العطرية وأخذنا نمسح بها جدر الكعبة ، وقد اشتد الزحام أمام بابها لأخذ مياه الغسل للتبرك بها ، والمطوّفون يأخذونها فى دلاء ويضعونها فى قوارير يهادون بها أتباعهم من الحجاج وكذلك يتخاطف الناس مقشات الغسل بل يتضاربون عليها وعلى الماء، ولدى نزولى عن الكعبة وضعت ما معى من المقشات فى منشفة كبيرة (بشكير) استحضرتها معى لغسل الكعبة بها ولأحفظها بعد تبركا ، وقد زاحمنى الحجاج وعصر بعضهم المنشفة لعله يجد بها قطرة ماء ومنهم من مسح بها وجهه ومنهم من مسها ومسح على عينه وجسمه .

هذا والكعبة تفتح فى موسم الحج لمن يريد الزيارة بعد أن يدفع ريالا (برم) قيمته عشرة قروش مصرية لمن يتولى فتح الباب من قبل السيد محمد صالح الشيبى أمين المفتاح واذا كان الزائر غنيا أخذوا منه بضعة جنيهات ، وبعض الناس ينتهز فرصة غسل الكعبة ويدخل مع الغاسلين . وتفتح الكعبة للزائرين فى ١٠ المحرم للرجال وفى ليلة ١١ منه للنساء ، وتفتح فى ليلة ١٢ ربيع الأوّل للدعاء للسلطان ولا يدخلها الزوّار ولكن يدخلها الرجال فى صبيحة تلك الليلة ، وفى ليلة ١٣ منه للنساء، وتفتح فى يوم ٢٠ ربيع الأوّل لغسلها ، وفى أوّل جمعة من رجب للرجال وفى اليوم التالى للنساء وفى ليلة ٢٧ رجب تفتح للدعاء للسلطان وفى صباحها يزور الرجال وفى المساء يزور النساء، وتفتح فى ليلة نصف شعبان للدعاء وفى صباحها للرجال وفى مسائها للنساء وتفتح يوم الجمعة الأولى من رمضان للرجال وفى تاليه للنساء وفى ليلة ١٧ منه للدعاء للسلطان وآخر جمعة كذلك ، وتفتح فى نصف ذى القعدة للرجال وفى تاليه للنساء وفى ٢٠ منه لغسلها وتفتح على سبيل الخصوصية لبعض الأعيان .

وفى يوم ٢٨ ذى القعدة تحرم الكعبة أى يوضع لها إزار أبيض أسفل الكسوة .

الى عرفات ومنى

قد ورد لنا كتاب من دولة الوالى بأن قاضى مكة أثبت هلال ذى الحجة ليلة الخميس وعليه يكون الوقوف بعرفة فى يوم الجمعة تاسع ذى الحجة وترى فى (الرسم ٤٠) مثيله فى سنة ١٣٢٥.

ولما كانت ليلة الثامن من ذى الحجة تحرك لتمام الساعة الحادية عشرة العربية ركب المحمل من معسكره بمكة ميمما عرفة فسار من حارة الباب الى الشبيكة فالسوق الصغير فجياد — وفيه المطعم المصرى (التكية) ودار الحكومة العثمانية المسماة بالحميدية — فجزء من شارع المسعى فالقشاشية فسوق الليل فالغزة، وقد مررنا ببيت الشريف الذى شيده محمد على باشا جد الأسرة الخديوية وهناك وقف الركب وصدحت الموسيقى بالسلام الملكى وهتف الجميع « پاد چاهمز چوق يشا » « يعيش الملك طويلا » ثم سرنا الى الشمال ومررنا بالبياضية على اليسار وفيها بيت بحديقة للشيخ الشيبى أمين المفتاح ثم شبرقنا الى منى ووصلنا الى أوّل مدرّج فى س ١١ و ق ٤٠، والمدرّج جزء من الطريق مرصوف بالحجارة يشبه درجة السلم لكن عرضه ٢٠ مترا وطوله ٥٠ وارتفاعه عشر المتر ووصلنا المدرّج الثانى بعد ربع ساعة وقد تابعنا السير حتى بلغنا منى فى س ١ و ق ٤٥، وبها استراح المحمل ربع ساعة بالقرب من المكان المعدّ لنصب سرادق الشريف بعد رجوعه من عرفة ثم سرنا فوصلنا المزدلفة فى س ٢ و ق ٣٥، ثم عرفة فى س ٤ و ق ٣٥، فنكون قد قطعنا الطريق بين المعسكر وعرفة فى ٥ س و٣٥ ق استرحنا فيها ١٥ ق، والطريق رملى لا تغور فيه الأقدام وتكتنفه من الجانبين الجبال الشامخة التى تتباعد بمنى ومزدلفة، وفى منتصف البعد بين مزدلفة وعرفة وبالطريق كل ما يحتاج اليه الانسان من ماء وقهوة وشاى ومأكولات من لحوم وأرز وعدس مطبوخة وغير مطبوخة وسكر وحلاوة وملبس الخ . وحينما وصلنا الى عرفة نزل الركب فى محله المعدّ له سنويا وكانت الخيام والأمتعة والمؤن قد سبقتنا الى هنالك فانها أرسلت ليلا بصحبة بعض

(الرســـم ٤٠)

ولاية الحجاز — قلم المكاتبات رقم ٢٠٠٠ الى جناب محافظ المحمل الشريف المصرى العالى

صاحب السعادة إن ابتداء ذى الحجة الشريف فى هذه السنة المباركة ثبت أنه يوم الأحد حسب الإعلام الوارد الينا من قاضى مكة وعلى ذلك فوقفة عرفات ستكون يوم الاثنين المبارك ولذا بادرت بإخباركم بذلك .

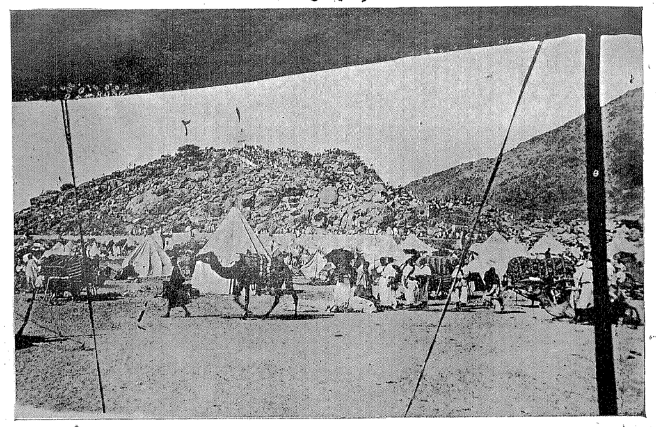
٧ ذى الحجة سنة ١٣٢٥ هـ ٢٩ كانون الأول سنة ١٣٢٣ «الياور» الأكرم والى الحجاز و«قومندانه»

العساكر والفراشين ومعهم ضابط ، فأعدّت قبل وصولنا وبعد أن عرف كل منا محله أسرعنا جميعا الى جبل الرحمة المعروف بعرفات حيث وقفنا هنالك على سبيل الاحتياط لجواز أن يكون هذا اليوم يوم عرفة مع أنه ثامن ذى الحجة — ولا محل لهذا الاحتياط بعد التثبت فى معرفة أوّل الشهر، ونَهْى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صوم يوم الشك — يرشدنا الى ترك الوقوف فى يوم توهمناه التاسع من ذى الحجة والظن بل اليقين بخلافه — وقد نزل علينا مطر خفيف أثناء الوقوف ورجعنا الى خيامنا بعد الغروب .

جبل عرفات وميدانه الفسيح — جبل عرفات على شكل قوس كبير يحيط بواد متسع يسمى «عرفة» وتبلغ مساحته نحو ميلين مربعين وعلى طرف القوس من جهة الجنوب الطريق الى الطائف وفى طرفه من جهة الشمال لسان يبرز الى الغرب يسمى «جبل الرحمة» (الرسم ٤١ وفيه ترى العلم الذى فى أعلى جبل الرحمة تحت رقم ١ وتحت رقم ٢ شجرة فوق الجبل) وهو جبل صغير بالنسبة لما حوله من الجبال ارتفاعه قريب من ٣٠ مترا وطوله ٣٠٠ متر ويصعد اليه بمدارج كبيرة على شكل سلم غير منتظم، به ٩١ درجة يختلف ارتفاع الواحدة منها من عشر المتر الى ثلاثة أعشاره ، وعلى يمين الصاعد على الجبل قريبا من منتصفه مستو طوله ١٥ مترا فى عرض ١٠ أمتار وبه مصلى ذو قبلة يسمى مسجد إبراهيم عليه السلام ويقال : إن النبى صلى الله عليه وسلم صلى فيه ، وهذا غير صحيح فان هذا المسجد والدرج الذى وصفناه بناهما الوزير محمد بن على بن المنصور المعروف بالجواد الأصفهانى فى سنة ٥٥٩ (أنظر كتاب منائح الكرم) وفى أعلى الجبل مستو مبلط مربع ضلعه ٥٠ مترا وفى وسط المستوى مَسْطبة مربعة ضلعها ٧ أمتار وارتفاعها متر ونصف ، وعند الركن الغربى منها عمود مربع مبنى بالحجر الأصم ومجصص ارتفاعه نحو أربعة أمتار وعرض كل جانب من جوانبه الأربعة متر، وهذا العمود علم على جبل الرحمة وتعلق به مصابيح ليلة عرفة إرشادا للحاجين والسالكين ، وحول العمود حائط به محراب يصلى اليه الناس

منظر جبل عرفات

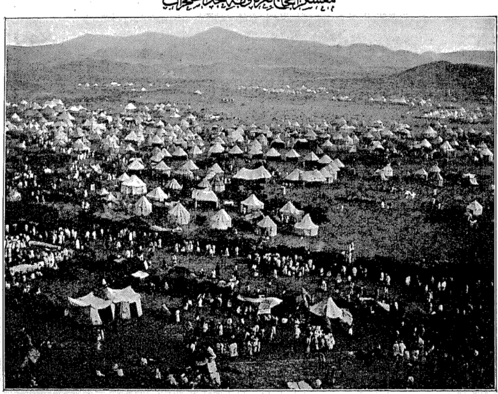
(١) منارة بها مصابيح (٢) شجرة



41. A view of Gebel Rahma, known by Gebel Arafat,

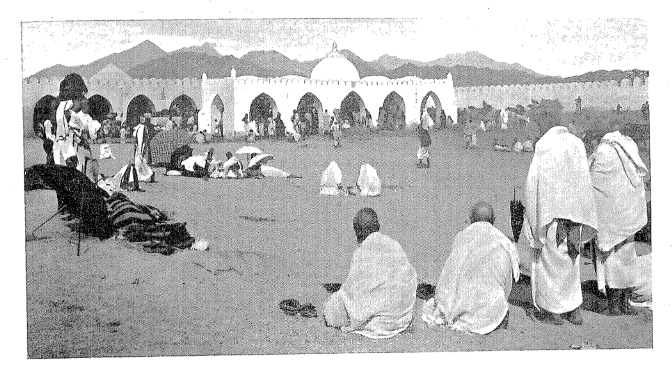
صحيفة ٤٤

معسكر الحجاج بعرفات وبه مسجد الصخرات



42. The camp of the pilgrims in Arafat, and El Sakharat Mosque in 1321.

مسجد نمرة في الحد الغربي لعرفات وقد صلى به النبي صلى الله عليه وسلم الظهر والعصر يوم حجة الوداع سنة عشرة من الهجرة



43. Namerah Mosque where the Prophet performed the midday and the afternoon prayers together.



44. A photo of the pilgrims at Arafat on 9th of El Hegga in 1321

وبأسفل الجبل مسجد صغير يسمى «مسجد الصخرات» يزعمون أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى فيه ولم يثبت ، وسمى بذلك لأن فى أرضه صخورا كبيرة بعضها الى جانب بعض (أنظر الرسم ٤٢) والمسجد واطئ فى جانبه الغربى ، وبجوار جبل الرحمة ثمانية أحواض مبنية بناء متينا تملأ بالماء من مجرى عين زبيدة بواسطة مجار تحت الأرض وذلك فى زمن الحج فقط وترمم وتنظف كل سنة قبل أوانه ، وفى جنوب الميدان على طريق الطائف جامع عتيق اسمه جامع «نَمِرَة» أو مسجد إبراهيم أو مصلى عرفة وهذا المسجد يجمع فيه الحجاج يوم عرفة بين الظهر والعصر جمع تقديم مع الامام الذى يخطب فيه قبل الصلاة خطبة يعلم الناس فيها آداب الوقوف وأنه ممتد الى الغروب (أنظر مسجد نمرة فى الرسم ٤٣) .

ويحيط بوادى عرفة من جهته الشمالية والجنوبية والغربية مجرى عين زبيدة (وسنوافيك قريبا بالكلام عليها تفصيلا وصفا وتاريخا) . وعرفة كلها موقف الا وادى عرنة .

قد نبأناك بأن ركب المحمل نزل من عرفة مكانه المعتاد وسط الوادى وقد بتنا بها ليلة التاسع من ذى الحجة ، وقبل المغرب بساعة من يوم عرفة تحرك المحملان المصرى والشامى أوّلها يسار ثانيهما يتقدّمهما أميراهما وأمين الصرة ، والجند يحيطون بهما حتى وصلا الى سفح جبل الرحمة فى مكان صلب مرتفع قليلا عن سطح الأرض ووقف الخطيب على جمل بجبل الرحمة قريبا من سفحه يحيط به العساكر لمنع التزاحم عليه ، ووقف بجواره مبلغان مصرى وشامى بيد كلّ منديل يلوّح به للحجاج كلما سكت الخطيب ، وساعة يلوحان ترى الآلاف المؤلفة من الأجناس المختلفة وقد كشفت منهم الرءوس وعريت منهم الأقدام الا القليل وارتدوا ملابس الإحرام تراهم يستغيثون ومما أسلفوا يستغفرون رافعين عقيرتهم بالتلبية (لبيك اللهم لبيك . لبيك لا شريك لك لبيك . أن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك) .

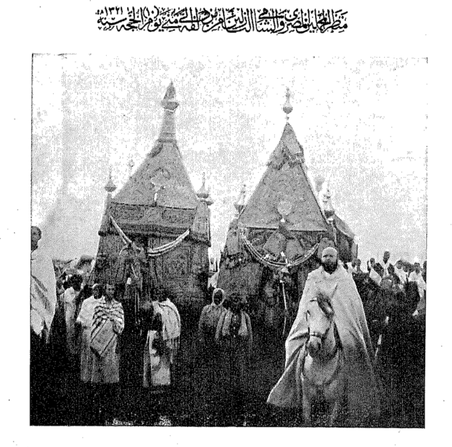
ألسنة مختلفة من أجناس متباينة جأرت الى الله بالدعاء فشق صوتها أجواز الفضاء، فاهت بكلمات انبعثت عن قلوب مخلصة وأفئدة طاهرة ونفوس نسيت كل شيء الا ربها إنها وأيم الله لتترك فى النفس أثرا لا يحيط به الوصف ولا تحدّده العبارة بل لا يعرفه الا من سمع وأبصر « ولا ينبئك مثل خبير » .

وما أظرف ما قاله أبو نوّاس فى التلبية .

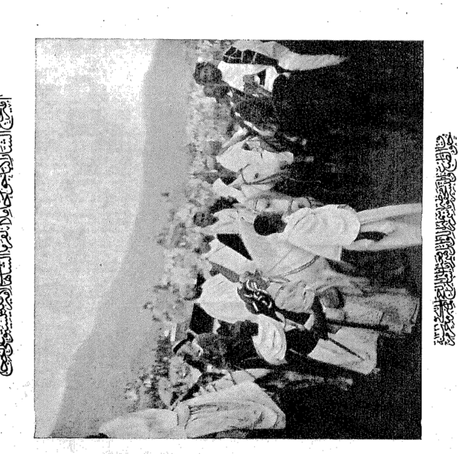
إلهنا ما أعدلك * مليك كل من ملك
لبيك قد لبيت لك * لبيك أن الحمد لك
والملك لاشريك لك * ما خاب عبد سألك
أنت له حيث سلك * لولاك يارب هلك
لبيك أن الحمد لك * والملك لاشريك لك
والليل لما أن حلك * والسابحات فى الفلك
على مجارى المنسلك * كل نبي وملك
وكل من أهل لك * سبح أو لبى فلك
يا مخطئا ما أغفلك * عجل وبادر أجلك
اختم بخير عملك * لبيك أن الحمد لك
والملك لا شريك لك * والحمد والنعمة لك

وإنك لترى جبل الرحمة قد ملأه الحجاج حتى لم يبق به موضع لقدم، وكأنك اذا نظرته لا تنظر الا أكداسا من الناس رافعين أيديهم الى قبلة الدعاء شاخصة أبصارهم نحو السماء (أنظر الرسم ٤٤ وفيه ترى بيرق المحمل فى أعلاه كأنه رجل والوجه الكبير وجه الشيخ محمد أبى النور نجل صهرنا الشيخ طموم) وأن أغلب هؤلاء من السودانيين واليمنيين والمغاربة وأنهم ليتخذون الجبل مسكنا لهم ويؤدون به جميع أعمالهم من طهى وغيره مدّة لبثهم بعرفة . ويظنون أن الوقوف بجبل الرحمة فضيلة كبرى مع أن ذلك بدعة، فقد جاء فى كتاب منائح الكرم ما نصه . قال الشيخ تقى الدين

منظر المحملين المصري والشامي الذين قاما من مزدلفة الى منى يوم (١٠) الحجة سنة ١٣٢١



45. The Egyptian and Syrian Mahmals on their departure from Muzdalifa to Mina on the 10th. of Zu El-Hegga 1321.



46. The Ameer of the Syrian Pilgrimage caravan riding his horse and carrying a Firman addressed to the Ameer of Mecca entrusting to him the care of the pilgrims

ولا نعلم فى فضل هـذا الجبل الذى يصعد اليه الناس بعرفة خبرا ثابتا ولا غير ثابت وما يخص الناس به هذا الجبل من الحرص على الوقوف عليه دون موقفه صلى الله عليه وسلم ودون مواقف عرفه قبل وقت الوقوف ، وإيقادهم عليه النيران فبـدع تستلزم محظورات من اختلاط النساء بالرجال وغير ذلك، وإنما حدث ذلك عنـد انقراض العلماء الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر واستيلاء الجهل على النـاس وأخذهم الأمور بالقياس اه بلفظـه فليحفظ ذلك . هكذا جاء بالكتاب المذكور تحت حوادث سنة ٥٥٩

وقد استمر الخطيب يخطب والناس وقوف حتى مغرب الشمس وإذ ذاك أشعل أحد رجال المدفعيـة من المحملين شهبا (صواريخ) إيذانا بالانصراف من الموقف ، فأفاض النـاس مهللين ومكبرين ورحل المحملان المصرى فى ميمنة الشامى (أنظـر الرسم ٤٥) والجند يسيرون صفين ومن بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمـانهم وعن شمائلهم الحجاج والموسيقى والمزمار يعزفان بالألحان المشجية، وأخذت مدافع الشريف والوالى والمحملين تتناوب طلقات البشر والسرور، وقد سرنا نحو المزدلفة من حيث أتينا فبلغناها بعد ساعتين ووقت الوصول ضرب ٢١ مدفعا إعلاما ببلوغ القصد ونزل كل محمل فى مكانه المعتاد وجمع كل حاج ٤٩ أو ٧٠ حصاة صغيرة قدر الفولة أو البندقة ونظفها بالمـاء استعدادا لرمى الجمرات بمنى، وبتنا ليلتنا بالمزدلفة اقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم ولنقف فى الصباح عند المشعر الحرام أمتثالا لقوله تعالى ﴿ فَإِذَا أَفَضْتُم مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴾ وقد استيقظنا حوالى الفجر وأدينا صلاته فى أول وقتـه وارتحل المحملان إلى موضع مسجد قـديم ارتفاعه متران وبجنبه سلم وقف عليـه الخطيب والتف الحجيج حوله ركبانا ومشاة وأخذ الخطيب يخطب من الساعة الحادية عشرة حتى قرب مطلع الشمس فى منتصـف الساعة الثانية عشرة ، وقد كان الناس فى خلال ذلك يدعون ويلبون كلمـا دعا الخطيب ولبى، وموقفنا هـذا كان بجوار « المشعر الحرام » وهو جبل بالمزدلفة يسمى بذلك لأن الجاهلية كانت تُشعِر عنـده

هداياها (والإشعار ضرب الإبل فى صفحة سنامها حتى يسيل منها الدم) ووصف بالحرام لحرمة الصيد فيه لأنه من جملة أراضى الحرم التى يحرم فيها الاصطياد .

وقد ارتحل المحملان الى مِنًى قبيل طلوع الشمس فى منتصف الساعة الأولى من صباح يوم العيد الأكبر من سنة ١٣١٨ واقتفاهما الحجيج ووصلنا مِنى بعد ساعة فتوجه الناس لرمى الجمرة الأولى «جمرة العقبة» وهى بأوّل منى من جهة مكة على يمين القاصد لها ، وهذه الجمرة حائط مبنى بالحجر عال من وسطه وقد أخذ كل حاج يرميه بحصياته السبع واحدة بعد أخرى مع التكبير فى كل مرة ، قال المحب الطبرى : وليس للرمى حدّ معلوم غير أن كل جمرة عليها علم وهو عمود معلق هناك فيرمى تحته وحوله ولا يبعد عنه احتياطا ، وحدّه بعض المتأخرين بثلاثة أذرع من سائر الجوانب إلا فى جمرة العقبة فليس لها إلا وجه واحد لأنها تحت جبل . وبعد رمى الجمرة المذكورة ذهبنا الى مواطننا ، ونحر الهدى[1] من كان معه هدى وحلق من حلق وقصّر من قصر والنساء قصرن ولم يحلقن .

وبعد ذلك أفاض الحجاج من منى الى مكة ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ مرتدين لباس الإحرام وطافوا طواف الإفاضة وسعى من عليه سعى وحلق أو قصر، ثم انقلبوا الى مِنى فباتوا بها ليلة الحادى عشر وبعد الزوال من صباحه رموا الجمار الثلاث كل جمرة بسبع حصيات بادئين بالجمرة الصغرى التى تلى (مسجد الخيف) من ناحية مِنى ثم بالجمرة الوسطى ثم بجمرة العقبة، والرامى يقف عقب رمى الجمرتين الأوليين يدعو الله بما شاء ولا يقف عقب الأخيرة لضيق مكانها ، وقد بتنا بِمِنى ليلة الثانى عشر ورمينا بعد ظهره الجمرات كسابقه ثم منا من سافر الى مكة قبل الغروب ومنا من بات ليلة الثالث عشر ليرمى الجمرات الثلاث فيه ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى﴾ وبذلك تمت أعمال الحج وحل للمحرم كل شىء كان محرّما عليه بالإحرام (أنظر الجمرات والحجاج يرمونها فى الرسوم ١٢٥ و ١٢٦ و ١٢٧) .

(١) الهدى ما يهدى الى الحرم من الابل والبقر والغنم .

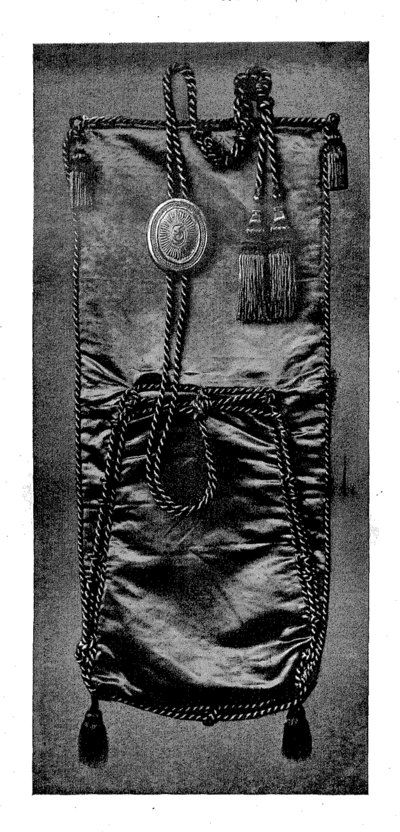
ومن فكاهات الحجاج عنـد رمى الجمرات أن بعضهم كان يرمى الحصيات السبع دفعة واحدة ويخاطب إبليس بلفظة «يلعن دينك» وبعضهم كان يرمى حصاة حصاة ويقول العبارة السابقة عقب كل واحدة أو يقول « فى عين دينك » وبعض الحجاج لا يكتفى بالحصيات الصغيرة بل يأتى بأحجار كبيرة ويرمى بها الجمرة (العمود القائم) بل لا يرتاح له بال إلا اذا هدم جزءا من البناء، ومنهم من يقف على البناء ويرمى ومنهم من يلصق به جسده ويرمى؛ وقد كان من الضباط الذين معنا «اليوزباشى» عبد الوهاب حبيب افندى فلما جاء وقت رمى جمرة العقبة أخذ عساكر الحرس ورجموا إبليس (الجمرة) دفعة واحدة بهيئة هجوم على عدو وانتقام منه .

الاحتفال بتلاوة الفرمان السلطانى

فى يوم ١١ ذى الحجة ونحن بمنى احتفل بتلاوة الفرمان السلطانى ودعا الشريف لذلك أميرى المحملين المصرى والشامى وأمين الصرة والضباط وكبار رجال الدولة والحجاج، وكان الاحتفال بسرادق الشريف الذى اصطفت أمامه حرس كل من الشريف والوالى بموسيقاهم وموسيقى محملنا شاركتهم، وانتشرت الجموع الكثيرة من الحجاج المختلفى الأجناس حول السرادق وكان يتقدّم الحرس على جواد حاملُ الفرمان السلطانى وآخرون يحملون خِلعا معتادا حضورها من الإستانة سنويا (الرسم ٤٦) وكان للشريف فى وسط السرادق مكان خاص وعلى يمينه : (١) فرمان فرما ابن عمّ شاه العجم وصهره؛ (٢) الشريف على باشا؛ (٣) الشريف محمد ناصر غالب باشا؛ (٤) بقية الأشراف؛ (٥) قاضى مكة والعلماء والأعيان؛ (٦) ضباط المحمل المصرى وعلى يسار الشريف : (١) المشير أحمد باشا راتب والى الحجاز وكان بحالة خضوع وخنوع لا تليق برتبة مشير؛ (٢) سلطان المكلة والشّحْر عوض بن عمر القعيطى؛ (٣) نجله عمر بن عوض القعيطى؛ (٤) حفيده محمد بن غالب؛ (٥) أمير وأمين وموظفو المحمل الشامى؛ (٦) أمير وأمين وموظفو المحمل المصرى؛ (٧) موظفو مكة وكبار الضباط . وبعد جلوس هؤلاء بالترتيب السابق خرج عليهم الشريف فى زينته

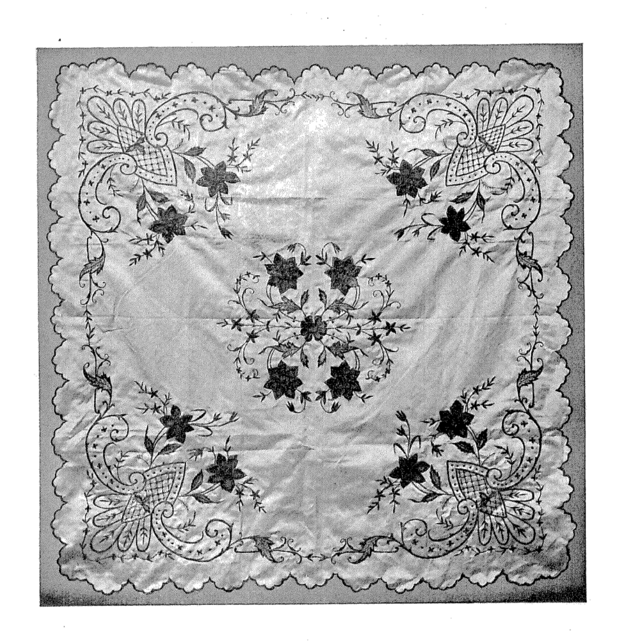
من مكان خاص به وحوله بعض خواصه من الأشراف فقام الجميع وقبلوا يده وقبل دولته رأس صهر شاه العجم وسلطان المكلا والشحر حينما انحنيا لتقبيل يده ثم تقدّم الى الأمام وتسلم المكتوب السلطانى (الفرمان) من يد حامله وقبله وكان داخل كيس من الأطلس الجميل (الرسم ٤٧) موضوع فى وقاية (بقجة) من الحرير الأطلس الأخضر موشاة بالقصب المنسوج (المخيش) ذى الرسوم البديعة (الرسم ٤٨) ثم رجع إلى محله فجلس على أريكة وسط السرادق ووضع الفرمان عن يمينه ثم لم يلبث أن وقف هو والحضور وأمر بتلاوة الفرمان فتلاه كاتبه الخاص محمد على افندى تلا أوّلا صورته التركية ثم تلا ثانيا صورته العربية، ولكنه أسرع فى تلاوته بالعربية إذ قال له الشريف: «جوام جوام» وبعد التلاوة صدحت الموسيقى السلطانية بالسلام الملكى وكذلك هتف العساكر والجموع بالدعاء للخليفة الأعظم، ثم تقدّم أمين الصرة الشامى بخلعة للشريف وألبسه إياها فوق الخلعة التى يلبسها من قبل وهى التى أهديت له فى العام الماضى — وهذه عادة سنوية — ثم قدّم له خلعة أخرى من قبل جلالة السلطان فلبسها أيضا وكانت صغيرة خفيفة من الجوخ الأسود ومطوّقة بالقصب، وكان دولة الشريف يقبل كل خلعة قبل لبسها وكان على رأسه عمامة عليها أشرطة من القصب الجميل ثم وزعت خلع أخرى على بعض الموظفين وقارئ الفرمان وغيرهم، ولثقل الخلع الثلاث كان يرفع الخلعتين الجديدتين شخصان تخفيفا عن الشريف ثم أديرت كؤوس المشروبات الحلوة على الحاضرين والموسيقى المصرية والشاهانية يتناوبان الألحان وكذلك أخذ جماعة من أهل مكة يسمون « أهل النوبة » يضربون على النقارات ومعهم آلات أشبه بالرّباب يغنون عليها بالأناشيد العربية الجميلة، فكانت الوجوه فرحة مستبشرة ثم قبل الجميع يد الشريف ومنهم من قبل مع ذلك ذيل الفرجية (الأتك) وانصرفوا، وإذ ذاك نزع الشريف الخلعتين عن جسمه ووضعتا فى الوقايات الحريرية التى أرسلت فيها من الإستانة، وهكذا فى كل عام تجدد الخلعتان والفرمانان العربى والتركى، ولا بأس من أن نصف لك الخلعة الأولى التى قدّمت للشريف أوّلا وصفا مقرّبا: الخلعة عبارة عن فرجية — كفرجية العلماء — من الجوخ الأسود القيم مطرّزة

كيس الفرمان الشاهاني



47. A view of a bag used for keeping the Faraman.

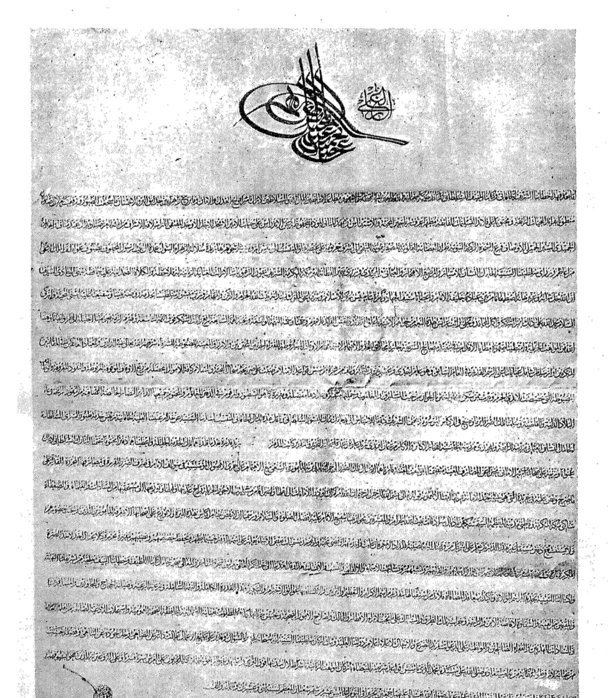
بقجة الفرمان الشاهاني



48. A view of a cloth bag used for keeping the Faraman.

تراه واضحاً فى صحيفة ١٩١ جزء ثان

ترجمة الفرمان الشاهانى بالعربية



حقوق الطبع والترجمة محفوظة باسم اللواء ابراهيم رفعت باشا امير الحج المصرى فى محرم سنة ١٣٢٦

49. A copy of the Turkish Faraman, in Arabic, to the Amir of Mecca.

عنوان الفرمان الشاهاني بالعربية

مقدمة الفرمان الشاهاني بالعربية

عنوان الفرمان الشاهاني بالتركية

50. The title of the Faraman in Arabic language.

50. A copy of the introduction of the Faraman in Arabic language.

50. The title of the Faraman in Turkish language.

الفرمان الشاهاني بالتركية لأمير مكة



51. A copy of the Turkish Faraman to the Amir of Mecca.

بالقصب المنسوج (المخيش) ذى الأشكال البديعة والتقاسيم الهندسية العجيبة وقد كاد القصب يشغل كل سطحها فلا ترى به إلا اليسير من الجوخ وهى مرصعة باللؤلؤ الحرّ ولها مشابك من الألماس البرلنتى الذى يكاد سنا ضوئه يخطف بالأبصار وبالخلعة جميع وسامات (نياشين) الدولة إلا «خاندان آل عثمان» الذى لا يعطى إلا لأفراد الأسرة المالكة وعدد الوسامات ٢١ وساما منها المرصع وغير المرصع . أما المكتوب السلطانى (الفرمان) فيشمل قرطاسين كبيرين من الورق أحدهما مكتوب باللغة العربية والآخر باللغة التركية وطول العربى متر و ٤١ سنتيا وعرضه ٧٩,٥ سنتيا وفيه طرّة عثمانيــة باسم جلالة السلطان محلاة بماء الذهب تحتها ٢١ سطرا وفوقها ١٤ سطرا وطول السطر ٧٠ سنتيا وعرضه ١,٤ سنتى وبين السطر والآخر سنتيان أنظر المكتوب العربى فى الرسم ٤٩ وعنوانه ومقدّمته فى الرسم ٥٠ ، أما المكتوب التركى (الفرمان) فطوله ١,٤٢٥ متر وعرضه ٧٨,٥ سنتيا وبه ثمانية أسطر وثلث طول السطر ٦٩ سنتيا وعرضه ٢٦ مليمترا وبين السطرين فضاء ٥,٥ سنتيات وتراه فى (الرسم ٥١) وعنوانه فى (الرسم ٥٠) وقد بلغنى أن من يخط الفرمان يتناول مرتبا شهريا قدره ٤٠٠ جنيه عثمانى وإن من يتأمل الخط ووضعه وحسن تنسيقه يرى أن كاتبه يستحق مكافأة جزيلة ولكن لا ينبغى أن تكون لهذا القدر ٤٨٠٠ جنيه فى السنة بل يكفى مرتب مناسب على أنه لو عمل له طابع (إكلشيه) لوفر هذا المقدار وصرف فى وجوه الإصلاح الأخرى ، وما على الكاتب اذا تغير أمير مكة إلا أن يكتب اسم الأمير الجديد بخطه فقط إذ عبارة المكتوب السلطانى لا تغير ، وهذان المكتوبان سطرا بأجمل خط عربى ويتضمنان الثناء على الشريف والخليفة ونصح الأوّل بمساعدة الحجاج وكف أذى العربان عنهم وصرف المرتبات لأربابها وفيهما كثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التى تأخذ بمجامع القلوب ولكنها مواعظ لم تصادف الأذن الصاغية والقلوب الواعية فانك تسمع عقب تلاوته دوى الرصاص يرمى به الأعراب حجاج البيت الحرام وترى دولة الشريف يقول «سيبوهم» فما أرق الموعظة وما أقسى القلوب .

التهنئة بالعيد فى منى

شغل الناس عن التهنئة بالعيد فى يومه لأنهم ذهبوا الى مكة لأداء طواف الإفاضة بعد رميهم جمرة العقبة فى صباح العيد، وفى اليوم الثانى أخذوا يتزاورون مهنئا بعضهم بعضا بالعيد الأكبر . بعد أن انتهت الحفلة بتلاوة الفرمان زرت مع الأمير والأمين الوالى والأشراف ورئيس العسكر السلطانى ورئيس المالية « المحاسبجى » وأمير المحمل الشامى وأمينه وهنأناهم بالعيد وقدّمت لنا المشروبات الحلوة وأطلق أمير الحج الشامى ١١ مدفعا تحية لأمير الحج المصرى ثم رجعنا الى أما كننا انتظارا للزائرين كما هى العادة فى الأعياد .

وفى الساعة ١١ العربية تفضل دولة المشير أحمد باشا راتب بزيارتنا فزار الأمير والأمين ورئيس الحرس كلا فى مكانه وكان يرتدى ملابس التشريفة الكبرى، وكان بصحبته صاحب السعادة اللواء صادق باشا العظم المدير العام للاشارات البرقية الحجازية وقد احتفينا بهما الاحتفاء المناسب لمقامهما وأطلقنا لقدومهما وترحالهما ٢١ مدفعا وسرهما حسن النظام العسكرى، وكانت الجنود قد اصطفت صفين سارا بينهما وقد قدّمت لدولة الوالى ضباط الحرس فوقف وصافحهم وأثنى عليهم، وبعد تناول القهوة والأشربة الحلوة انصرف مودعا بمثل ماقوبل به فصدحت الموسيقى بالسلام العظيم ولا أنسى الثناء على حضرات الضباط فى هذا الموطن فانهم أحضروا جميع ما لديهم من السجاجيد والكراسى ووضعوها فى سرادقى مما جعل منظره حسنا بهيجا وإن ذلك منهم لآية على حسن طويتهم وحبهم لما يعلى رئيسهم، وكذلك زار كلا منا فى سرادقه أمير المحمل الشامى وأمينه فاحتفينا بهما وأطلقنا لقدومهما ١١ مدفعا وقد كانا بملابسهما الرسمية وعلى كل وسام (نيشان) عثمانى من الدرجة الأولى، وبعد تناول القهوة والشاى عادا بسلام شاكرين حسن اللقاء ودماثة الأخلاق، وممن زارنا الشريف على باشا ومحمد ناصر غالب باشا وقد لبثا عندنا زهاء ساعة مسرورين من قيامنا لهم بالواجب، وزارنا أيضا الشيخ الشيبى ووكيل الشيخ السنوسى وابن الشيخ الفاسى

وكثير من الضباط العثمانيين والحجاج وخدام المسجد الحرم (الأغوات) وقد استمرت تلك الزيارات حتى الساعة السادسة ليلا ، وكان الضباط يحتفلون بالزائرين ويعنون براحتهم .

الزينات بمنى — هذا وقد أقيمت فى مساء ١١ ذى الحجة الزينات بمنى عند خيم الشريف والوالى وأميرى المحملين وأطلقت « الصواريخ » بعد العشاء، وقد هرع الناس الى زينة المحمل المصرى لجمالها وحسن تنسيقها وليسمعوا الموسيقى والمزمار البلدى، وكان الزحام شديدا خصوصا فى سرادقى إذ رأوا فينا أكنافا موطأة وصدورا رحبة ووجوها باشة .

ذبائح منى وسوقها — كان الحجاج فى هذا العام يقاربون مائة وخمسين ألفا وكان أكثرهم ينحر الهدايا بمنى فى ساعة واحدة من يوم النحر، وكان الناس فى الأعوام السالفة ينحرون بالقرب من منازل الحجاج وفى ذلك تلويث الأماكن بالدماء وإثارة الروائح الكريهة التى تجعل الهواء موبوءا والأجسام معتلة ولكن فى هذا العام عملت حفر كثيرة بعيدة عن منازل الحجاج بألف متر أريقت فيها الدماء فلم يلوث الهواء بمنى ولم نشم الروائح البشعة وكان الجو معتدلا — ولكنه بالليل بارد — من أجل هذا كانت صحة الحجاج حسنة ولم يمرض أحد منا . وكان ثمن الشاة من ريالين ونصف الى ثلاثة ونصف وكان يؤخذ للشريف على كل رأس من الغنم تباع للحجاج خمسة قروش من البائع .

وبمنى سوق تجد بها ما يلزم من سلاح وملابس وسجاجيد وطنافس (أكلمة) ومرجان وخرز، والمبيعات معظمها بالطريق وقليل بالحوانيت، والعربى يشترى من هذه السوق ما يلزمه طول السنة .

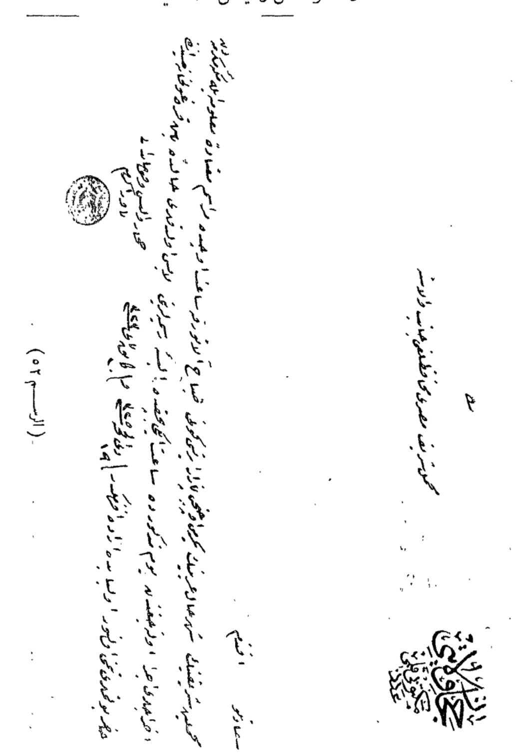
الرجوع من منى الى مكة

فى الساعة الثامنة العربية من يوم ١٢ ذى الحجة سنة ١٣١٨ رحل ركب المحمل ورمى الجمار الثلاث فى زحام شديد لم نر له مثيلا إذ قطع المحمل المسافة بين الجمرة

الصغرى وجمرة العقبة فى ساعة بينما هى لا تزيد على ٣٠٠ متر ثم تابعنا السير فوصلنا مكة فى منتصف س ١١ وأدخلنا المحمل الى فناء المسجد الحرام من باب النبى صلى الله عليه وسلم حسب المعتاد وتركنا لحراسته بعض الجنود وبقى بالمسجد حتى يوم الاثنين ٢٥ ذى الحجة حيث احتفل بسفره من مكة الى المدينة بعد أن ورد لنا كتاب تركى من دولة الوالى بتعيين موعد الاحتفال وترى الكتاب بنصه فى (الرسم٥٢) وهو وإن كان فى سنة ١٣٢٥ فان نصه لا يتغير .

الاحتفال بفتح «المسافرخانة» السلطانية

فى يوم الخميس ١٥ ذى الحجة احتفل بفتح المضيفة (المسافرخانة) التى شيدها لفقراء الحجاج جلالة السلطان عبد الحميد من ماله الخاص وقد أقيم بناؤها فى فضاء واسع جنوبى مكة الغربى وقد حضرت مع ضباط المحمل وحرسه هذا الاحتفال بدعوة من الوالى ، وفى الساعة الأولى العربية اصطفت عساكرنا بالفضاء الواسع أمامها فى الجهة الغربية والعساكر العثمانية فى الجهتين الشرقية والبحرية ومع كل قسم موسيقاه وقد ازدحم باب المضيفة بأكابر مكة وأشرافها ومعهم أميرا المحملين وأميناهما ، وفى منتصف الساعة الثانية حضر دولة الوالى فحيته الجنود بهتافهم وموسيقاهم وصافح الحاضرين ثم صعد الى الطبقة العليا منها فرأى حجراتها وطرقاتها فأعجب بنظامها ثم نزل الى الطبقة الأولى ولم تمض عشرون دقيقة حتى شرف أمير مكة وحاكمها الحقيقى فحيته الجنود والموسيقى بالسلام السلطانى وقبل يده جميع الحاضرين ثم أمر بقراءة خطبة كلها دعاء وثناء وتعديد لمآثر السلطان ، وبعد قراءتها صدحت الموسيقى بالسلام الملكى معقبا بالهتاف لجلالة السلطان ، وقد بدأ القسم المصرى بالسلام أولا فالقسم العثمانى الشرقى فالقسم البحرى ثم دخل الشريف المضيفة وجلس فى حجرة من طبقتها الأولى ومعه الوالى والمدعوون — ويقال : أنه أمر بالوسام (النيشان) المجيدى الثانى لأمير الحج المصرى وبالمجيدى الثالث لأمين الصرة ولكنه شىء سمعناه ولم نره — والظاهر أنه قصد بتلك الاشاعة أن يتساهلا



(الرسم ٥٢)

إلى جناب محافظ المحمل المصرى صاحب السعادة

سيحتفل فى الساعة الثالثة العربية من اليوم الثالث والعشرين من ذى الحجة سنة ١٣٢٥ بسفر المحملين الشريفين من مكة المكرمة الى المدينة المنورة حسب المعتاد ويكون حضور المحمل وموظفيه بالكسا الرسمية ويحضرون فى منتصف الساعة الثالثة من اليوم المذكور بميدان المخفر الكبير والأمر لمن له الأمر

والى الحجاز ورئيسه العسكرى «ياور أكرم» أحمد راتب

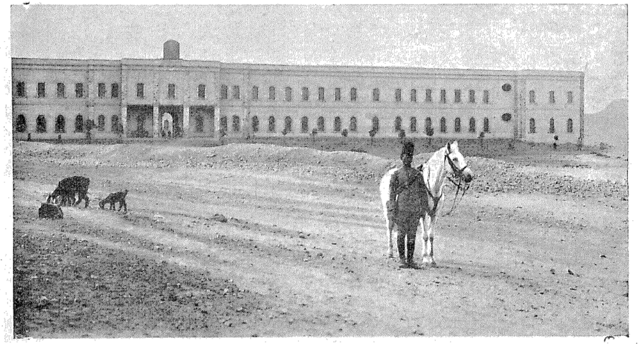
مع الشريف فى تقدير أجر الجمال ولا يتشددا ولكن هيهات أن تجوز عليهما الحيلة
ثم صعد الى الطبقة الثانية ووقف بطنف (تراسينة) فيها ليشاهد العساكر حين انصرافها
الى ثكناتها وقد سر كثيرا من نظام القسم المصرى وجميل شكله ، وبعد فراغنا من
التحيات العسكرية دخلت المضيفة وتفقدتها فاذا هى بناء فخم محكم البناء جميل النظام
يحتوى على طبقتين مسقوفتين بالحديد الذى يتخلله عقود بالآجر الأحمر الافرنكى
والبياض متقن جدا فى نعومة وهو من المواد العادية ومسحوق الرخام ، والأرض
مرصوفة بالبلاط ، والجهتان البحرية والشرقية تم بناؤهما وبياضهما ورصف أرضهما
أما الجهتان الأخريان فلمّا يتم تجصيصهما وتبليطهما ، وللمضيفة فناء واسع كانت به حفر
كثيرة خلفتها الأتربة التى أخذت للبناء ، وطول الضلع البحرية من هذه السراى
١٥٠ مترا فى منتصفها الباب العام تعلوه « الأرمة » العثمانية المذهبة وضلعها الشرقية
٩٠ مترا بالتقريب والقبلى مثل البحرى والغربى كالشرقى وجميع أبوابها ومنافذها
مصنوعة من الخشب المتين الذى طلى بطلاء جوزى ، ومفاصل الأبواب والنوافذ
ومقابضها وزواياها مصنوعة من النحاس صنعا متقنا ، وبيوت الخلاء بعيدة عن مبانى
الحجرات حتى لا تؤثر فى الجدران بالترشيح ولا تشم روائحها الكريهة ، ولم تكن
الأنابيب والصنابير (الحنفيات) قد وضعت بها وإن يعجبك هذا النظام فاعجب
لهذه السراى التى بها ناظر وخدم وطباخون يأخذون مرتبهم من ثلاث سنين خلت
فى حين أنه لا توجد حجرة من حجراتها مفروشة ولا يوجد بها فقير واحد . وقد
بلغنى أن جلالة السلطان أنفق على إقامتها ٩٠٠٠٠ جنيه مجيدى (الجنيه المجيدى
٨٧٫٧٥ قرشا مصريا) وقد أخذت رسم المضيفة فى سنة ١٣٢٥ وهو كما تراه
فى (الشكل ٥٣) .

زيارة غار حراء (جبل النور)

روى البخارى فى صحيحه عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها أنها قالت :
أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم

صحيفة ٥٦

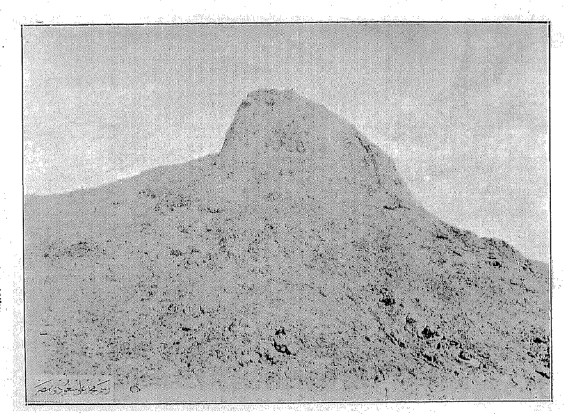
منظر المسافرخانة بمكة المكرمة



53. The Rest House at Mecca.

صحيفة ٥٨

جبـل غار حـراء



54. The Mount of the Cave of Hera at Mecca.

فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح[١] ثم حبب اليه الخلاء فكان يخلو « بغار حراء » فيتحنث فيه — وهو التعبد — الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع الى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع الى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق[٢] وهو فى «غارحراء» فجاءه الملك فقال : اقرأ قال : ما أنا بقارئ قال : فأخذنى فغطنى[٣] حتى بلغ منى الجهد[٤]. ثم أرسلنى فقال اقرأ : قلت : ما أنا بقارئ ، فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال : اقرأ . فقلت : ما أنا بقارئ، فأخذنى فغطنى الثالثة ثم أرسلنى فقال : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ[٥] . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف[٦] فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد رضى الله عنها فقال زملونى[٧] زملونى فزملوه حتى ذهب عنه الروع[٨] فقال لخديجة وأخبرها الخبر : لقد خشيت على نفسى ، فقالت خديجة : كلا والله ما يخزيك الله أبدا إنك لتصل الرحم[٩] وتحمل الكل[١٠] وتكسب المعدوم وتقرى[١١] الضيف وتعين على نوائب الحق — الحديث .

فترى من هذا مكانة «غارحراء» وأنه كان متعبدا للرسول صلى الله عليه وسلم قبل البعثة وأن به نزلت أوّل سورة من القرآن الذى هو نور وهدى للناس وفيه شفاء لما فى الصدور فلا تعجب إذا رأيتنا ولعين بزيارة هذا الأثر، ففى يوم ١٦ ذى الحجة سنة ١٣١٨ قصدت جبل حراء فى جملة من الضباط والعساكر وبعض الحجاج فوصلنا إليه بعد خمسين دقيقة بسير الخيل المعتاد، وهذا الجبل يقع فى شمالى مكة على يسار الذاهب إلى عرفات بعيدا عن جادّة الطريق بنحو ميل، ويقول ياقوت

---

(١) بياضه . (٢) الوحى . (٣) الغطّ : العصر الشديد، ومنه الغطّ فى الماء : الغوص. قيل : إنما غطّه ليختبره هل يقول من تلقاء نفسه شيئا . (٤) الطاقة . (٥) دم غليظ . (٦) يضطرب قلبه . (٧) لفونى فى الثياب . (٨) الخوف . (٩) القرابة . (١٠) الضعيف . (١١) تكرمه .

فى معجمه : إنه على ثلاثة أميال من مكة وأنه جبل شامخ أعلى من ثبير وفى أعلاه قلة شامخة زلوج — أنظر الجبل فى (الرسم ٥٤) — وفى ميسرة القِمة نفس غار حراء،

وقد صعدنا هـذا الجبل فى ٣٥ ق مع أن ٱرتفاعه حوالى ٢٠٠ متر ولكنـه يكاد يكون عموديا فلذا كان صعب المرتقى واضطررنا إلى الاستراحة مرتين أثناء الصـعود وأغمى على بعض الضباط ولولا ما معنا من المـاء الذى رششنا به وجهه لحصل ما لا تحمـد عقباه ، ولذا يجمـل بمن رام صعوده أن يستصحب بعض المياه خصوصا فى آونة الحرّ، وقبل أن نصـل الى قنة الجبل بثلاث دقائق وجدنا خزانا نحت بالجبـل لحفظ مياه المطر يبلغ طوله ٨ أمتار فى عرض ٦ وعمق ٤ وله درج للوصول إلى قاعه وكان خاويا من الماء، ووجدنا بجانبه ٱمرأة عربية تصنع القهوة والشاى للزائرين فى موسم الحج وتبيعهما بالثمن وقد تناولنا من شايها وقهوتها وفرشت لنا بساطا من الصوف، ومكثنا فى حضرتها نصف ساعة ونقدناها الثمن مضاعفا مكافأة على ما قدّمت ثم تسنمنا ذروة الجبل وإذا فيها بنـاء متين تعلوه قبة طوله ٦ أمتار فى مثلها عرضا فى ٨ ٱرتفاعا وفى أرض هذا البناء حجر أملس أسـود به شق فى وسطه أشبه بالفتحة التى نراها بمصر فى صناديق الخطابات بها ٱنحدار إلى أسفل ويقال : إنه المكان الذى شق فيه صدر الرسول صلوات الله وسلامه عليه ولكن أخرج «البخارى» فى صحيحه عن مالك بن صعصعة قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم. "بينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان — وذكر بين الرجلين[1] — فأتيت بطَسْت من ذهب ملئ حكمة وإيمانا فشُق من النحر الى مَرَاقِّ البطن ثم غسِل البطن بماء زمزم ثم ملئ حكمة وإيمانا" — الحديث . وجاء فى كتاب الشفاء : روى يونس عن ابن شهاب عن أنس قال : كان أبو ذر يحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "فرج سقف بيتى فنزل جبريل ففرج صدرى ثم غسله من ماء زمزم ثم جاء بطست" الخ

(١) فى بعض الروايات : وذكر يعنى رجلا بين الرجلين والمعنى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان نائما بين رجلين حينما أتى بالطست فالضمير فى ذكر يعود الى النبي صلى الله عليه وسلم ، والرجلان حمزة وجعفر يوضح ذلك رواية مسلم من طريق سعيد عن قتادة بلفظ إذ سمعت قائلا يقول : أحد الثلاثة بين الرجلين .

(ص ١٤٤) وأكثر الأحاديث على أن شق البطن كان فى صغره صلى الله عليه وسلم وهو عند حليمة السعدية وقد قالت فى ذكر قصة الشق لأمّه آمنة بنت وهب: بينما هو وإخوته فى بَهْم[1] لنا خلف بيوتنا الخ، فأين البيت الحرام أو سقف بيت الرسول صلى الله عليه وسلم أو ما وراء بيوت حليمة من قنة جبل حراء التى زعم الناس أن بها مكان شق صدر الرسول صلى الله عليه وسلم؟ اللهم إن هذا بهتان مبين ظنه الناس صدقا وتوارثوا هذا الظن حتى بلغ من نفس السلطان عبد العزيز أن حركه لبناء قبة على هذا المكان المزعوم فى سنة ١٢٧٩، وقد وجدت هذا مكتوبا على حجر فى جدارها الجنوبى محلى بماء الذهب، وفى الجهة الجنوبية من القبة غار حراء الذى كان يتعبد فيه النبى صلى الله عليه وسلم قبل البعثة على ما أسلفنا لك، والإنسان ينحدر إليه من قنة الجبل على درج حجرى غير منتظم أشبه بالسلم، والبعد بينه وبين القبة نحو ٥٠ مترا وهذا الغار عبارة عن جفوة بابها نحو الشمال تسع نحو خمسة أشخاص جلوسا وارتفاعه قامة متوسطة وقد صلينا فيه ودعونا ووجدنا هنالك بعض الحجاج من الأتراك يزورون هذه الآثار. والواقف على قنة هذا الجبل يرى مكة وأبنيتها العظيمة وقلاعها الحصينة كما يرى جبل ثور، ولون الجبل ذهبى حتى لو حدقت النظر فى قطعة منه تخالها ذهبا إبريزا ولذلك إذا سطعت عليه الشمس ترى له منظرا من أجمل المناظر وأبهجها، وقد أخذت قطعا صغيرة منه ولكن للاسف عملته إحدى الخدم كانونا بمدينة الوجه فتركت القطع هنالك، ومما ينبغى لزائرى هذا الجبل أن يحملوا معهم الماء الكافى وأن يكونوا جماعات يحملون السلاح حتى يدفعوا عن أنفسهم شر اللصوص من العربان الذين يتربصون الفرص لسلب الحجاج أمتعتهم ونقودهم خصوصا فى مكان منقطع كهذا لا يقصده إلا بعض الحجاج، وقد بلغنى أن اعرابيا قتل حاجا فلم يجد معه غير ريال واحد فقيل له: تقتله من أجل ريال؟ فقال وهو فرح "الريال أحسن منه" فانظر كيف بلغت القسوة من هذه القلوب وكيف أعماها حبها لدراهم معدودة عن المحافظة على أرواح بريئة تقوم بشعيرة من أكبر الشعائر الدينية فى مكان جعله الله حرما

(١) البهم جمع بهمة وهى ولد الضأن ذكرا كان أو أنثى .

آمنا للناس ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ﴾ هذا وفى سنة ١٣٢١ رقينا الجبل وكان معنا صاحب الدولة وزير حربية مراكش السيد المهدى المنبهى ولما أن نزلنا ضربنا فى سفح الجبل فسطاطا تغذينا فيه مع الوزير الذى واسى الفقراء بماله وطعامه .

زيارة غار ثَوْر

قال تعالى فى سورة التوبة ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُ(١) عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلسُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ وأخرج البخارى فى صحيحه فى باب « ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ » من كتاب التفسير — عن أنس قال : حدثنى أبو بكر رضى الله عنه قال : كنت مع النبىّ صلى الله عليه وسلم فى الغار فرأيت آثار المشركين قلت : يا رسول الله لو أن أحدهم رفع قدمه رآنا قال : " ما ظنك باثنين الله ثالثهما " اه ، وذكر الحاكم فى مستدركه عن عمر : قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الغار ومعه أبو بكر فجعل يمشى ساعة بين يديه وساعة خلفه حتى فطن له رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله فقال له : يا رسول الله أذكر الطلب فأمشى خلفك ثم أذكر الرَّصَد (من يرصدهم وينتظرهم) فأمشى بين يديك فقال عليه السلام : يا أبا بكر لو كان شىء أحببتَ أن يكون بك دونى ، قال : نعم والذى بعثك بالحق . فلما انتهى الى الغار قال أبو بكر : مكانك يا رسول الله حتى استبرئ لك الغار فدخل فاستبرأه حتى إذا كان فى أعلاه ذكر أنه لم يستبرئ الجحرة ، فقال : مكانك يا رسول الله حتى استبرئ الجحرة فدخل واستبرأ الجحرة ثم قال انزل يا رسول الله ، فنزل فمكثا فى الغار ثلاث ليال حتى خمدت عنهما نار الطلب فجاءهما عبدالله بن أريقط بالراحلتين فارتحلا . اه .

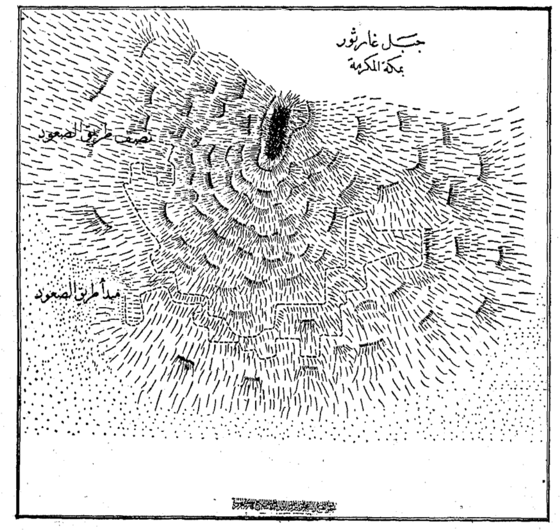
(١) أمنته التى تسكن عندها القلوب .

فترى من هــذا أن غار ثور هو الغار الذى اختفى فيه الرسول صلى الله عليــه وسلم من دعاة الباطل وأعداء الحق الذين مكروا به مكرا كُبَّارا — ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ — وأن الرسول اختفى به مع أبى بكر ثلاثا حتى انقطعت عنهــما نار الطلب ثم خرجوا منه الى المدينة حيث كانت عزة الاســلام وأهله . لهذا كله وددنا ان نرى هــذا الأثر رأى العين، فخرجنا من مكة قبل فجر يوم ١٨ ذى الحجة سنة ١٣١٨ (٨ أبريل سنة ١٩٠١) قاصدين زيارة هــذا الغار وكان بصحبتنا صاحبا الفضيلة الشيخ محمد طموم والشيخ محمد أحمد السيوطى صهرانا وجمــلة من الحجاج وثلة من الجنود نتقى بهم شرار الأعراب فى سبيل لا يمرّ به إلا القليل وقد انتحينا ناحية الجنوب فى سيرنا وصلينا فرض الصبح قبــل الوصول الى الجبــل ، وقد قطعنا المســافة بينه وبين معسكرنا بالشيخ محمود فى ساعة و ٢٠ ق بسير الخيل المعتاد وهى قريبــة من خمسة أميال ونصف ، والطريق من مكة الى الجبل تحفه الجبال من الجانبين وبه عقبــة صغيرة يرتفع اليها الانسان وينحدر منها ولم يستغرق قطعها إلا ٣ ق وبالطريق سبعة أعلام مبنيــة بالحجر ومجصصة فوق نشوز من الأرض يبلغ ارتفاع الواحد منها ثلاثة أمتار وقاعدته متر مربع وتنتهى بشكل هرمى ، وهذه الأعلام على يسار القاصد للجبل ، وبين كل اثنين منها بعد يتراوح بين ٢٠٠ متر و ١٠٠٠ متر وكل واحد منها وضع عند تعريجة حتى لا يضل السالك عن الجبــل ، وساعة بلغنا الجبل قسمنا قوتنا قسمين قسم صعد معنا الى الجبل والآخر وقف بسفحه يرد عنا عادية العربان إن هموا بالأذى . وقد تسلقنا الجبل فى ساعة ونصفها بما فى ذلك استراحة دقيقة أو ثنتين كل خمس دقائق بل فى بعض الأحيان كنا نستريح خمس دقائق لأن الطريق وعر حلزونى ، وقد عددت ٥٤ تعريجة الى نصف الجبل وكنا آونة نصعد وأخرى نحدر حتى وصلنا الغار بسلام ، ولولا الاصــلاح الذى أحدثه المشير عثمان باشا نورى الذى ولى الحجــاز سنة ١٢٩٩ هـ . والمشير السيد اسماعيل حقى باشا الذى كان واليا على الحجاز وشيخا للحرم سنة ١٣٠٧ هـ لازدادت الصعوبة وضل السائر عن الطريق ولم يهتد الى الغار لعظم

الجبل وآتساعه وتشعب مسالكه (الرسم ٥٥) وكان من أثر إصلاحهما جعل الطريق بهيئة سلالم تارة تتصعد وأخرى تنحدر على أنه مع ذلك لا يزال العروج صعبا فقد رأيت بعض الصاعدين آمتُقِع لونه وخارت قواه فوقع على الأرض مغشيا عليه ولولا أننا تداركناه بجرعةٍ من الماء شربها وصُبابةٍ منه سكبناها على رأسه حتى أفاق لباغتته المنية، ولهذا ننصح للزائرين بأن يتزودوا من الماء ليقوا أنفسهم شر العطب .

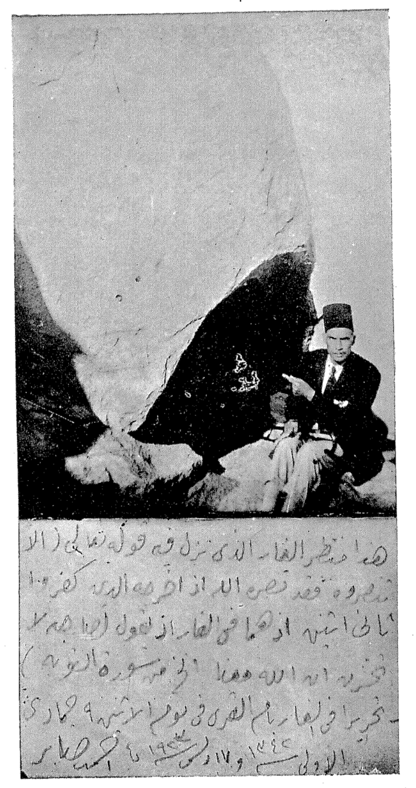
ولما بلغنا الغار وجدناه صخرة مجوّفة فى قنة الجبل أشبه بسفينة صغيرة ظهرها الى أعلى ولها فتحتان فى مقدمها واحدة وفى مؤخرها أخرى وقد دخلت من الغربية زاحفا على بطنى مادا ذراعى الى الأمام وخرجت من الشرقية التى تتسع عن الأولى قليلا بعد أن دعوت فى الغار وصليت ، والفتحة الصغيرة عرضها ثلاثة أشبار فى شبرين تقريبا وهى الفتحة الأصلية التى دخل منها النبىّ صلى الله عليه وسلم وهى فى ناحية الغرب أما الفتحة الأخرى فهى فى الشرق ويقال : أنها محدثة ليسهل على الناس الدخول الى الغار والخروج منه، والغار من الجبل فى الناحية الموالية لمكة وقد وجدنا بجانبه رجلا عربيا يتناول الصدقات من الزائرين فى مواسم الحج ويرشدهم الى الغار إذ توجد هناك صخور تشبه صخرته ولكنها لا تماثلها تماما، وقد مكثنا فوق ظهر الجبل ساعتين أكلنا فيهما وشربنا وتناولنا الشاى وتفقدنا كثيرا من نواحى الجبل، وقد نزل فى خلالها القسم الذى زار وجاء القسم الذى تركناه بسفح الجبل ليزور، وقد قدم علينا ونحن على ظهر الجبل نحو عشرين من حجاج الداغستان ففرحوا بنا ورافقونا الى أن رجعنا الى مكة. ولا يقصد زيارة هذا الغار وغار حراء إلا قليل من الأتراك والمغاربة والداغستانيين ولم يسبقنا الى هذه الزيارة أحد من المصريين بل ولا من المكيين إلا ما ندر، وقد بلغنى من أناس يقيمون بمكة منذ أربعين سنة أنهم لم يصعدوا إلى هذين الجبلين ولا رأوا من المصريين أو مرافقى المحمل من قصدهما فلله المنة علينا . أنظر الغار فى الرسم ٥٦ الذى أهداه الينا فى سنة ١٣٤٢ حضرة أحمد أفندى صابر ناظر التكية المصرية بمكة فله منا الشكر الجزيل على هذه الهدية القيمة .

جبل ثور وطريق الصعود عليه



55. Thor's Mountain and road of ascending same.

(غار ثور) رسم احمد صابر ناظر تكية مكة



56. The Mount of the Cave of Thawr at Mecca.

وارتفاع جبل ثور يزيد على ٥٠٠ متر والواقف فى أعلاه يشرف على كل ماحواليه من الجبال ويرى مكة وما حولها واضحة ظاهرة وكذلك يرى حدّة (بالحاء المهملة) بنخلها وبأعلى ثور علم يسترشد به الناس لمعرفة هذا الجبل وهو مبنىّ بالحجر ومبيض بالجص ويشبه الأعلام التى وصفناها قبلا فى طريقه أنظر (الرسم ٥٥) والجبل ذوألوان مختلفة من ذهبىّ وفضىّ وفحمىّ وما يشبه الأسمنت وما يماثل المرمر، وربما كانت له ألوان أخرى فى جهات لم أرها وقد أخذت من كل معدن قطعة ولكن فعلت بها الخادمة ما فعلت بالقطع التى أخذتها من جبل حراء — سامحها الله — غير أنها تركت قليلا عرضته بعد حضورى الى مصر على بعض الصاغة فأخبرنى بأن معدنه من الذهب ولكنه غير مستو؛ هذا وقد زار غار ثور سيدى عبد الله بن محمد ابن أبى بكر العياشى وذلك فى يوم الأربعاء ٨ شوّال سنة ١٠٥٩ كما جاء برحلته المطبوعة سنة ١٣١٦ وقد ذكر فيها أنه مشى إلى الجبل من طريق بين الخندمة وأبى قبيس لقربه وان كان وعرا ومسافته ثلاثة أميال أما زيارتنا فكانت من طريق المسفلة وهو أطول وأسهل وقد وصف الغار وصفا دقيقا وذكر ما قاساه من المشاق فى الصعود الى هذا الجبل على نحو ما وصفنا (أنظر ص ١٠٢ جزء ثانى من رحلته).

عادات المكيين بعد موسم الحج

بعد انقضاء الموسم يقيمون الأفراح ويزوجون الأولاد ويتروضون جهة الطائف والزاهر والأماكن التى بها بساتين ويستصحبون معهم المغنين وآلات الطرب لأنهم ولعون بالاغانى، وفى شهر رجب يقصدون المدينة للزيارة وفى ذلك ينفقون ما جمعوا فى الموسم الا قليل منهم يستبقى بعض كسبه لينفقه فى السفر الى البلاد التى يفد منها الحجاج ليتعرّف بمريدى الحج فى العام القابل وليتفق معهم على أن يكونوا من مطوّفيه وأكثرهم يقترض النقود بفائدة كبيرة لينفق منها فى تلك الرحلات على أمل أن يسدّدها فى الموسم وقلما يسددها فيطوّق بالديون، وقد كذّب ظَنَّهم فى هذا العام دولة الشريف فقد قسم مصر وجاوه والهند والمغرب وبلاد الأناضول وغيرها أقساما تسابق المطوّفون

إلى شرائها بأثمان ظنوها متناسبة مع أهمية المركز وثروة حجاجه ، ولكن كثيرا منهم خسر فى ذلك خسارة فادحة إذ دفعوا فى الأقسام أثمانا باهظة بلغت الخمسين جنيها وزادت ، ولما حان الموسم لم يحصلوا مقدار ما دفعوا ولكن قليلا منهم سعد جده فربح أرباحا عظيمة ، وقد نشأت خسارة من خسر من علو ثمن الأقسام ومن أنه كان سافر الى بعض الجهات وأنفق فى ذلك وفى الهدايا التى كان يأخذها لمريدى الحج النفقات الطائلة ثم ظهر بعد ذلك أن كثيرا منهم لم يأت فى القسم الذى اشتراه ، ولما رأى بعض المطوفين أن حجاج قسمه فقراء وما يدفعونه بخس اشتد عليهم وأغلظ لهم القول وحصل من جراء ذلك تشاحن وتساب بين الفريقين . وكانت العادة المتبعة قبل هذا التقسيم أنه يجبى من كل مطوف ريال للشريف عن كل حاج ينزل عنده وبالضرورة يأخذ المطوف من الحاج أمثال هذه الضريبة ولو كان فى فقر مدقع ، وان كانت لديه شفقة تجاوز عنه وحصل أضعافه من الموسرين ، والشريف لا يقيل أى مطوف من الضريبة مهما قدّم من الأعذار فأما أن يدفع وأما أن يزج به فى غيابة السجن ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ .

دولة الشريف عون الرفيق وسلطته بمكة

يلقب شريف مكة بسيد الجميع تمييزا له عن بقية الأشراف وهو الحاكم الذى لاينازع فى أمر ولا يرد له قول ينفى من شاء ويحبس من شاء ويعاقب من شاء بيده عقد الأمور وحلها وكل الحكام بمكة طوع إشارته من كبيرهم أحمد راتب باشا المشير إلى صغيرهم ، فان عارضه واحد منهم عزل فى الحال لأن الشريف له يد قوية فى الدولة فأى الأمور طلب أجيب اليه بل غالب الشكايات منه ترد اليه ليفصل فيها بما شاء من شرع أوهوى ولا معقب لحكمه فالويل كل الويل لمن شكا ، نعم هذه اليد المستبدة تناسب حال الأعراب الأشرار الذين لا ترغمهم إلا القوة ولا يقومهم إلا البطش بهم ، ولكن لوضمت الى القوة العدالة لكبح الأشرار عن سيئاتهم

والتف النـاس حوله بأجسامهم وقلوبهم لأن للعدل من السلطان على النفوس ما ليس للقوة الغاشمة .

أما الشريف على باشا فله سلطة على الأعراب وله فى نفوسهم مكانة واحترام ولذلك لا يردّون له قولا وهو الذى يقابلهـم اذا حضروا ويفاوضهم اذا عملوا ما لا يرضاه الشريف وود إقلاعهم عنه .

أجر الجمـال والمكوس

كان يؤخذ فى جدة على كل شـقدف يباع سـتة قروش مصرية ونصف — روبيـة — وهى وان كانت تؤخذ من البائع لكنها فى الحقيقة يدفعها المشـترى اذ يلاحظها البائع فى تقدير الثمن ويؤخذ من أجرة الجمل الذى يقل الحاج من جدّة الى مكة ريالان للشريف وخمسة قروش عثمانية (٤ قروش مصرية) للحكومة وريال آخر لوكيل المطوّف بجدّة ولمتعهد الجمال (المقوم) — ضرائب ما أنزل الله بها من سلطان — وقد كانت أجرة الجمل من جدّة الى مكة ٦ ريالات «برم» (وهو عشرة قروش مصرية تقريبا) فى بدء الموسم هذا العام فاذا نقصنا تلك الضرائب من هذه الأجرة كان الباقى للجمال أجرة له ولجمله دون ٣ ريالات أى أقل من نصف الأجرة وإن ذلك لظلم بيّن يحمل الجمال على أن يسلب من الحاج ما استطاع ، والأجرة وإن كانت فى أوّل الموسم ٦ ريالات «برم» لكن عند وصول المحمل الى جدّة بلغت ١٢ ريالا ثم أخذت تزداد حتى بلغت ٣٠ ريالا ثم تناقصت الى ٦ ريالات كما كانت أوّلا وكان آخر نقص لها يوم ٧ ذى الحجة ، والسبب فى ارتفاع الأجرة الى ٣٠ ريالا أن الحجاج كثر ورودهم من جهات جدّة والمدينة والجهات الشرقية بحال لم يسبق لها مثيل حتى كانت الطريق لا تخلو لحظة واحدة ليلا ونهارا من مرور الحجاج بها ، وقد قدمنا لك أنه فى يوم السبت ٣ ذى الحجة قدم من جدّة الى مكة ١٥٠٠ حاج مشاة على أقدامهم لقلة الجمال . وكان يؤخذ بمكة على كل رأس يباع من الغنم خمسة قروش مصرية وعلى كل جمل خمسون قرشا ، وقد كانت الأجرة من مكة إلى عرفات ذهابا وإيابا للجمل ذى الشـقدف

٧ ريالات « برم » وذى الرحل الذى يركبه شخص واحد ٦ ريالات منها ريال للشريف وآخر للطوّف والمقوم فيبقى للجمال ٤ ريالات أو خمسة . وأجرة الجمل من مكة الى المدينة الى ينبع كانت لذى الشقدف ٣٣ ريالا مجيديا ويتبع ذلك نصف جمل لحمل المتاع ، وكانت لذى الرحل ٣٢ ريالا منها ١٢ ريالا للشريف — جنيهان انكليزيان — وريال ونصف للمخرج[1] وريالان للطوّف وريال للتعهد (المقوّم) وريال للحكومة وربع ريال للرهينة (كل قبيلة تقدم واحدا عنها تحبسه الحكومة حتى يصل الركب بسلام الى الجهة التى يقصدها وتأخذ الحكومة ربع الريال فى نظير ذلك) فيكون الباقى للجمال من ذلك ¼ ١٥ ريالا أو ¼ ١٤ وأدهى من ذلك وأمر أنه يؤخذ من الجاويين أربعة جنيهات من كل حاج لا فى مقابلة عمل ولكنهم لغناهم وتساهلهم يطمع فى نقودهم ، وللتعهدين طريقة فى التخلص من الضرائب التى تدفع عن كل جمل مؤجر وذلك أنهم يتفقون مع كل حاج على عدد معين ولكن عند الخروج من مكة يحملون بعض العدد فقط أحمالا فوق الطاقة والباقى يخرج غير حامل شيئا فلا تؤخذ عليه الضريبة اذ يزعم المتعهد أنه غير مؤجر وبعد الخروج من مكة توزع الأمتعة على العدد المتفق عليه وكثيرا ما يتفقون مع الحاج على عدد معين يقدمونه فى أول الأمر له ويتفقون على أجرته حتى اذا ما رحلوا أخذوا منه بعض ما اتفقوا عليه وأجروه لآخرين فيؤجرون الجمل مرتين ويتقاضون الأجرين — وانه وربك لظلم بين وطمع مرد — ثم هل سمعت بمثل هذه الضرائب القاسية التى يأباها الاسلام وينكرها أشدّ الإنكار ، إن غاية ما قرره الاسلام فى نظام الضرائب ٢٠ ٪ لا فى مال يكد الإنسان فى تحصيله ويعرق فيه جبينه ، ولكن فى أموال تقع فى يد المرء بلا كد ولا تعب كالمعادن وكنوز الجاهلية ، ولكن لا تعجب من أعمال هؤلاء فالدين لغو على ألسنتهم لم يتمكن بعدُ من نفوسهم فتراهم ﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾ ولو علمت دولتا فرنسا والروسيا هذه المظالم التى يتكبدها الحجاج لما منعوا رعاياهم المسلمين عن الحج اذ لو حضروا ورأوا هذه المظالم بأعينهم لرغبوا عن الحج ولم يحدثوا

(١) الذى يتولى إخراج القوافل .

به أنفسهم تارة أخرى بل لبثوا فى نفوس إخوانهم كراهيته ، وإذ ذاك يمتنعون من تلقاء أنفسهم عن الحج دون أن يتكلف حكامهم مشقة المنع ونتائجه ولكن « البعيد أعمى » .

وكل ما قدمنا لك فى أجرة الجمال إنما هو للحجاج الذين لا يتبعون المحمل أما ركبه فلهم طريقة أخرى فى تقدير الأجرة للجمال التى يحتاجون اليها .

أجرة الجمال التى تقل ركب المحمل — هذه الأجرة تقدر بمعرفة صاحب الدولة شريف مكة الذى لا يرد له قول ولا يخالف له أمر مهما كانت الأجرة المقدرة ، فمعارضة أمير الحج وأمين الصرة لا تجدى شيئا بل لا تجد الأذن السامعة وعلى ذلك أخذت الأجرة تزداد شيئا فشيئا خصوصا فى الخمس السنين الأخيرة حيث زادت زيادة فاحشة وهاك البيان .

فى سنة ١٣٠٢ ﻫ (١٨٨٥ م) كانت أجرة الجمل من مكة الى المدينة ١٨ ريالا (برما) لذى الشقدف و١٧ لذى الرحل ، وكانت من مكة الى المدينة فينبع البحر ٢٣ ريالا للأول و٢٢ للثانى ومن مكة الى المدينة ثم الى جدة ٢٨ للأول و٢٧ للثانى ومن مكة الى المدينة فالوجه ٣٥ ريالا للأول و٣٤ للثانى ، ومن جدة الى مكة ٢ ٣/٤ وهذا لكثرة الحجاج وغلو الأثمان كما هو مذكور فى رحلة المرحوم صادق باشا ، وآستمرت الزيادة بعد ذلك الى أن كانت فى سنة ١٣١٤ وما بعدها كما يأتى :

مجموع أجرة الجمل الواحد	الأجرة من جدة الى مكة	الأجرة من مكة لعرفة ذهابا وإيابا	الأجرة من مكة للدينة فالوجه	السنة	ملاحظات
ﻫ	ﻫ	ﻫ	ﻫ		
٨٥٠	٩٠	٩٠	٦٧٠	١٣١٤	
١٣٦٠	٨٧,٧٥	٨٧,٧٥	١١٨٤,٥	١٣١٥	فى هذه السنة لم يعين مع المحمل قسم عسكرى.
١٤٧٠	١٣١,٥	١١٠	١٢٢٨,٥	١٣١٦	» » » » »
١٦٥٧,٥	١٩٥	١٩٥	١٢٦٧,٥	١٣١٧	
٢٠٩٦,٢٥	٣٤١,٥	٢٩٢,٥	١٤٦٢,٥	١٣١٨	

ومن هـذه المقارنة تتبين لك الزيادة المطردة من سنة ١٣١٥ التى لم يتعين فيها قسم عسكرى يصحب المحمل وكذا فى السنة التالية لهـا والسبب فى هـذه الزيادة أن المحمل رافقه قوّة عسكرية شاهانية فى السـنين التى خلت من القوّة المصرية ولم تدفع حكومتنا نفقات القوّة الشاهانية فزيدت أجرة الجمال حتى تعوّض تلك النفقات والسبب فى الزيادة العظيمة هـذا العام أن الحكومة لم تخاطب الشريف فى شأن الزيادات فى السنين السالفة فتعودها وزاد عليها تلك الزيادة الفاحشة التى ٱستكثرها الناس — وحق لهم ذلك — وقد قلت لدولة الشريف : إن هذه الزيادة المطردة ستنبه الحكومة لوضع حدّ لها وربما أحدثت تغييرا فى النظام المـالى للحمل بسبب ذلك .

الجمـالة — بمناسبة الكلام على أجرة الجمال والمكوس نقدّم لك كلمتين الأولى فى معاملة العربان الجمـالة للركب الذى يصحبونه والأخرى فى تاريخ المكوس حتى تربط لك الحاضر بالمـاضى لتستخلص منهما ما ينبغى فى المستقبل ، هؤلاء العربان يحافظون على الحجـاج وعلى أمتعتهم متى غمروهم بالخيرات من مأكولات ولحوم ومشروب الشاى ، وتزداد عنايتهم بالحجاج إذا وعدوا بكسوة يعطونها فى المحطة الختامية وكسوتهم يسيرة الكلفة فهى ثوب قطنى من «البفتة» السمراء وعقال و « كوفية » لا تتجاوز قيمتها عشرة قروش مصرية أما من بخل عليهم بماله فيرونه العذاب ألوانا فتارة يقطعون حزام الجمل فيقع راكبه ويتأخر عن القافلة حتى يصلح الحزام وربمـا ٱنتهزوا فرصة الانفراد به وقتلوه إذا لم يبرز لهم الريالات ويتعهد بالغذاء وتارة يؤخرون الجمل عن القافلة بحجة أن الرحل فى حاجة إلى إصلاح وما يريدون بذلك إلا فرصة للفتك به . والعربان مغرمون بشرب الدخان فلو أن الحاج أخذ معه قسطا منه وأعطاه لجماله راعاه أحسن مراعاة ومشى بجانبه يحافظ عليه ويهيئ له أسباب الراحة ، ومن عادة العربان أنهم اذا تناولوا الطعام مع الحاج لا يخونونه أبدا واذا رأوا عربانا من قبيـلة أخرى يريدون الفتك به أخبروهم أنه فى كنفهم فلا يصلون اليـه بسوء وكأنما هو واحد منهم .

تاريخ المكوس — يطلق المكس على الجباية كما يطلق على ما يأخذه العشّار ويقال له الماكس : وفى الحديث «لا يدخل صاحب مَكْس الجنة» والمكوس أخذها قديم ، فقد كان مضاض بن عمرو الجرهمى يعشر من يدخل مكة من أعلاها ، والسميدع يعشر من يدخل من أسفلها ، وكانوا يعشرون أموال العمالقة الذين كانوا ولاة مكة قبل جرهم فأنتهكوا حرمة الحرم فأخرجتهم جرهم وقطور ، وكانوا يأخذون عشر الميرة التى يأتون بها (أنظر منائح الكرم للسنجارى) وقد أبطل الإسلام المكوس بأنواعها وفرض الزكاة على الناس فى أموالهم ، وقد كانت المكوس تؤخذ من الحجاج الذين يمرون من طريق عَيْذاب (قرية على ساحل البحر الأحمر فى ديارنا المصرية) ومن فرّ منهم جبيت منه فى جدّة وكانت سبعة دنانير (٣٥٠ قرشا) تجبى لأمير مكة ، وفى سنة ٥٧٢ أبطلها السلطان صلاح الدين الأيوبى ، وكان سبب ذلك أنه حج فى هذه السنة الشيخ علوان الأسدى الحلبى فلما وصل جدّة طولب بذلك فأبى وهم بالرجوع وترك الحج فلاطفه من هنالك و بعثوا الى والى مكة الشريف مكثر بن عيسى فأمر بإطلاقه و إعفائه ، فلما وصل مكة اجتمع به واعتذر اليه بأن دخل مكة لا يفى بمصالح أهلها و إننا لذلك نضطر الى أخذ المكوس ، فكتب الشيخ علوان الى صلاح الدين بذلك فأرسل اليه ٨٠٠٠ أردب من الحبوب وقيل ٢٠٠٠ أردب وألف دينار ورغب اليه فى ترك تلك المظلمة فتركها ولكنها عادت ، وأبطلها فى سنة ٦٣٩ المنصور عمر بن رسول صاحب اليمن وكتب بذلك مربعة جعلت حيال الحجر الأسود وفى جدار زمزم الى أن قلعها آبن المسيب ثم ما لبثت أن عادت المكوس ، وأبطلت فى سنة ٧٦٠ فى سلطنة الملك الناصر بأمر شريف مكة سند آبن رُمَيثة ولكن ما عتمت أن رجعت فرفعت فى سنة ٧٦٦ بهمة الأمير كتبغا مدير السلطنة بمصر وعوض عنها صاحب مكة ٢٦٠ ألف درهم وألف أردب من القمح وقرر ذلك فى ديوان السلطان شعبان صاحب مصر وكتب ذلك بالحفر فى دعائم بالمسجد الحرام ، وقد شاهدت ذلك فى جهة باب الصفا وفى سنة ٨٢٦ أمر السلطان أحمد بن المؤيد صاحب مصر أن يعطى للشريف حسن ألف دينار (٥٠٠ جنيه

مصرى) تحمل اليه من مصر نظير تركه المكوس على الخضروات بمكة وأمر أن يكتب ذلك فى بعض أساطين الحرم المكى فكتب وهو باق الى الآن بقرب باب السلام .

وفى سنة ١٠٨٣ أمر الشيخ محمد المغربى القرمسى أن تدهن السوارى التى بها الكتابات المحفورة بإبطال المكوس فدهنت بالدهانات الملونة وظهرت الكتابة فيها واضحة وعوّض صاحب مكة الحسن بن عجلان قسطا من بيت المال ، وهكذا كان يبطلها أو يعمل على إبطالها الحكام العادلون ثم تعود على يد الظالمين مدفوعين بشهوة الطمع أو بداعى الحاجة حتى رأيناها بأعيننا فى زمننا .

ضيافات بمكة — قد استضافنا نجل الشيخ الفاسى — شيخ طريقة مشهور — فى الزاوية المعروفة باسمه وكانت الدعوة عامة لجميع موظفى المحمل من ملكيين وعسكريين وأقام لنا وليمة فاخرة أعجبنا بنظامها و إتقان طعامها ونظافة أوعيته وشربنا الشاى بعدها ثلاث كوبات كما هو المتبع عندهم ، وقد احتفى بنا الشيخ وقومه حفاوة عظيمة ملئوا بها قلوبنا سرورا . ودعانا بعد ذلك لتناول الطعام الشيخ باخطمه — حضرمى — التاجر المقرّب من الأمير والذى يقوم بقضاء مصالح دولة الشريف والوالى وحكام مكة ويستحضر ما يلزم للعساكر الشاهانية ويشترى من الضباط مرتباتهم بنصف قيمتها اذ يسأمون من تأخر صرفها فيبيعون غائبا بحاضر ، والشيخ باخطمه يصرفها من الخزينة كاملة نظير نقود يدفعها لذوى الشأن فى الصرف فيسرعون بصرف المرتبات اليه .

وقد أكثر من إكرامنا وضيافتنا « مقوّم » المحمل ولكن لم يقصد بضيافته وجه الله ولا وجوهنا ولكن وجه الجنيه إذ كان غرضه الوحيد من ذلك الحصول على شهادة منا بزيادة عدد الجمال عن المقرّر لركب المحمل ، وهذه الشهادة يقدّمها للمالية المصرية أو الحربية — ان كانت من القسم العسكرى — ليصرف قيمة مافيها ، وقد طلب منى فعلا هذه الشهادة فأبيت عليه وقلت له : إن كان لدينا زيادة عن العدد المقرّر فأنا مستعد لدفع أجرته من مالى الخاص على شريطة أن تكون الأجرة مماثلة

لأجرة جمال الأهالى فما كان جوابه إلا أن قال « نحن لا نريد خسارتك وإنمـا الذى ينفعنا ينفعك» فنصحته بأن يلتزم خطة الحق وبأن ما أتى من الحرام يذهب من حيث أتى وعرفته بأننا جئنا لنتمم شعائر الدين ونطلب الغفران من رب رحيم لا أن نتحمل مآثم وأوزارا ونخون الأمة فى مالهـا الذى أعدّته لمصالحها فما كان منه إلا أن سكت مرغما لمـا أن رأى قناتنا لا تلين .

إعانة السكة الحديدية الحجازية

أمر دولة شريف مكة بجمع إعانة للسكة الحديدية وقدّر على كل حاج غير معسر ريالا ، فأخذ المطوّفون يجمعونها و يوردونها للشريف كل يوم ، وكان بعض الحجاج يمتنع عن الدفع و بعضهم دفع عن نفسه وعمن يرافقه فى القافلة ودفع أحمد بك الجمل من أعيان المنصورة مائة جنيه ، ودفع أحمد بك الضيّ عشرة جنيهات ، ودفع سلطان المكلة والشحر (ثغران على خليج عدن) عوض بن عمر القعيطى ٢٠٠٠٠ روبية أى $\frac{1}{3}$ ١٣٣٣ جنيه انجليزى وكثير غيرهم من الأغنياء ، لكن لم نقف على مقدار ما دفعوا . وقد أمر دولة الشريف بعدم خروج أحد من الحجاج من مكة حتى تجبى الضريبة كلها ، وعلى ذلك حبس الحجاج بمكة بعد تأدية الفريضة سبعة أيام كانوا فيها على أحرّ من الجمر ، شوقهم لزيارة الرسول يهيب بهم أن اسرعوا والشريف يقول : مكانكم حتى تدفعوا . وقد بلغنى أن بعضا من حجاج المغرب شكا لدولة الوالى حبسهم بمكة فأرسل بهم مع مندوب من قبله الى دولة الشريف ليسمح لهم بالخروج ، فلما وصلوا اليه نزل عليهم ضربا بالعصى واذ ذاك انقض عليهم زبانيتـه أيضا (الباوردية) فتشتتوا مذعورين ورجعوا بخفى حنين ، شكوى عادلة جوابها إهانة قاسـية فى بلد جعله الله حرما آمنا ﴿ سَوَاءً ٱلْعَاكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ . وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّالِمُونَ ﴾ ولئن دام هـذا الظلم لينصرفن الناس عن الحج وتلك الطامة الكبرى ببلاد العرب وأهلها الذين يجدون فى الحجاج العيش الكفاف بل الرزق الواسع بل ذلك جناية على الإسلام ومعتنقيه فان هذا البلد واسطة

التعارف بين المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها فاذا انقطعت بينهم الأسباب وانفصمت عروة التواد كانوا كالغنم القاصية تلتهمها الدول المستعمرة فتستغيث فلا مغيث فليقلع الظالم عن ظلمه حتى لايعمنا الله بعذاب من عنده ويغفر لنا ما أسلفنا ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ .

مضارّ حبس الحجاج بمكة — لم يسمح دولة الشريف بخروج الحجاج من مكة إلا بعد أن دفعوا جميعا ريال الإعانة للسكة الحديدية ، فلما أن صدر الإذن بالخروج أخذ جميع الحجاج فى الرحيل وهم ألوف مؤلفة يسلكون طريقا ضيقا ولما بلغوا مكانا مخصوصا بالطريق أوقفوا حتى يدفعوا ريال الحكومة — عوائد — عن كل جمل خال أو محمل فأخذوا يدفعون ولكن بلغ الزحام أشدّه لأن المحصل شخص واحد قام بجانبه اثنان من الزبانية لايسمحان لأحد بالمرور حتى يدفع الريال واستعملا كل غلظة وقساوة لا تصدر من الوحوش فضلا عن الأناسى بل فضلا عن مسلم يدين بالإسلام ، وقد أصبحت الطريق التى كانت معدّة لسير جملين بشقادفهما متحاذيين فيها أربعة صفوف فدخلت الشقادف بعضها فى بعض وكاد الناس يكونون طبقات بعضهم فوق بعض وهنالك تحطم كثير من الشقادف وسقط بعض الراكبين من عليها فتهشمت منهم العظام وبلغت فيهم الجراح وفقدوا من الأمتعة وتلف كثير منها ، وكنت لاتسمع إذ ذاك إلا ولولة النساء وعويل الصبيان واستغاثة الضعفاء ومنازعات الرجال ولا شرطة هناك تحول دون ذلك ، وكل هذا مغبة حبس الشريف للحجاج وسوء نظام الجباية ، وماذا على الحكومة لو عينت عددا من المحصلين وعينت لكل قافلة يوما تخرج فيه ، ومعرفة القوافل من الأمور الهينة لأن المطوفين والمتعهدين يعرفونها وأولئك معروفون لدى الحكومة وبذلك يسهل التحصيل وتسير القافلة بهدوء وسكينة ويأمن الناس على نفوسهم وأمتعتهم .

مرتبات الأشراف والعربان والأهالى وطريقة صرفها

جرت العادة من قديم أن تصرف الحكومة المصرية مرتبات للأشراف والعربان والأهالى بمكة والمدينة، وكان المقرر فى ميزانية المحمل هذا العام للأشراف ١٢٦٥ جنيها مصريا وللعربان ٢٥١١ جنيها وللأهالى ٢٨٧٩ جنيها وكان يصرف لكل شخص مرتبه المقرر بمقتضى إذن يمضيه أمين الصرة وأمير الحج وكذلك الكاتب الأول للصرة دلالة على أن الصرف قانونى، والكاتب الأول هو الذى يقوم بإعداد إذن الصرف ليكون مطابقا لما دوّن بالسجل الذى به أسماء أصحاب المرتبات (الذين لا وجود لأكثرهم الآن) وساعة البدء فى الصرف حضر أمام الكاتب عدد عظيم من العربان وكلفوه بتلاوة الأسماء فسألهم هل أنتم أصحاب المرتبات؟ فقالوا: لا ولكننا موكلون فى تسلمها سنويا فقال لهم: أحضروا التوكيلات التى تؤيد دعواكم، فقالوا وممن تكون التوكيلات؟ فقال لهم: من أصحاب المرتبات الذين وكلوكم أو وارثيهم، فقالوا: إن أصحابها توفوا من زمن مديد ولا أثر لمعظم وارثيهم وكل سنة نتسلم المرتبات بدون معارضة ونحن متفقون فيما بيننا على صرفها إلينا فاضطر الكاتب لإجابة طلبهم وأخذ يتلو الأسماء عليهم، فأخذ كل منهم يخطف من الأذون ما استطاع حتى كان الواحد يتحصل على الخمسين والستين ثم يتسلم قيمتها .

والأشراف المقيدة بأسمائهم المرتبات منهم الحى ومنهم المتوفى وتصرف مرتباتهم إلى من يعينه شريف مكة وكيلا عنهم بعد أن يستعلم منه أمير الحج .

وللشيخ حذيفة كبير قبيلة الأحامدة مرتب سنوى ينيف على ٦٠٠ ريال، تصرف إليه نظير محافظته على ركب المحمل أثناء مروره بالطريق السلطانى الذى يقيم به الشيخ حذيفة، وهذا المرتب يصرف إليه سنويا مرّ المحمل به أو لم يمر، وفى هذا العام قدم من قبله وكيل عنه يدعى محمد بن عامر ومعه وثيقة التوكيل ممهورة بختم الشيخ حذيفة وصريحة فى أنه وكيل عنه فى قبض مرتبه ولكن أبى الشريف إلا أن يصرف المرتب الى أكبر أولاد الشيخ حذيفة المسمى خليلا مع أن بين الشيخ وابنه عداءً شديداً

ومخاصمات كبيرة وحروبا طاحنة أهرقت فيها الدماء آنتصر فيها الولد على ابيه بقوة أعوانه وأنصاره وسبب ذلك تحريض الأبن للعربان على شق عصا الطاعة لأبيه . فكان ينبغى من أجل هذا النفار المستحكم أن يصرف المرتب للوكيل الشرعى لا للابن العاق ولكن من يستطيع أن يخالف أمر الشريف الذى نفذ ما أراد وصرف المرتب للولد الباغى .

وقد صرفت بمكة مكافأة لواحد من الأشراف آسمه الشيخ مساعد يقوم فى جمع من عسكر «البيشة» بحراسة المحملين المصرى والشامى بعد وصولها الى المدينة و يبلغ عددهم نحو الخمسين يقاسمونه المكافأة وليس لهؤلاء العسكر نظام ولا يطيعون من الأوامر إلا ما آتفق مع رغبتهم مع أن عملهم مساعدة المحمل عند الحاجة ، و يشكون كثيرا من أنهم لا يجدون ما يأكلون وما يعلفون به الدواب مع أن العلف صرف اليهم — وما كنا ملزمين بذلك — وقد أخذوا مكافآت ينفقون منها ولكن أنفقوا ما صرف اليهم فى بيوتهم وآتكلوا على الأمير والأمين يمدّونهم بما يأكلون ، ويعين مع الشيخ مساعد رئيس «البيشة» فارس عثمانى برتبة ملازم يرافق المحمل ولكن البيشة لا يسمعون منه قولا ولا ينفذون له أمرا بل يأتمرون بأمر واحد من بنى جِلْدتهم ومع أن هؤلاء العسكر يقظون فى الحراسة و بصرهم حادّ ينبغى أن يضم اليهم قسم من العساكر يشركونهم فى الحراسة كما ينبغى تحذيرهم من السلب والنهب لأنهم ولعون بذلك خصوصا عند مجىء العربان لبيع ما عندهم للحجاج ، فإنه بلغنى أنهم أخذوا فى سنة خلت من بعض العربان قدرا من السمن ولم يدفعوا ثمنه وضربوا أصحابه وتسبب عن ذلك تجمع العربان وترامبهم مع رجال المحمل بالنيران حتى قتل بعض الحجاج وجرح بعض آخر « ومعظم النار من مستصغر الشرر » أما فى هذا العام فلم يحصل ما يكدر فالحمد لله على ما منّ .

* * *

والى هنا فرغنا من ذكر الأعمال التى قمنا بها فى مكة وأصبحنا على أهبة السفر الى الحرم الثانى وبقى علينا أن نصف لك مكة وما آشتملت عليه من المبانى الفخمة

والآثار الجمة وكذلك منى وعرفة والمزدلفة والطائف ونلم بتاريخها إلماما حتى تكون على بينة من أمرها وخبيرا بما قام به سلفنا الصالح فى الحرم الذى جعله الله مثابة للناس وأمنا ونقدّم لك بين يدى ذلك القسم الدينى من رحلتنا فى الحج ومناسكه ووصف لبلاد العرب وموجز فى تاريخها وفى سير الفتوحات الإسلامية وانتشار الدين فى ربوع المعمورة .

القسم الدينى

قد رأينا أن نسوق اليك أيها القارئ حجته صلى الله عليه وسلم ثم نردفها بالأحكام الفقهية فى شرائع الحج حسب ما سطر فى كتب المذاهب المختلفة ، وإنما قدّمنا حجته صلى الله عليه وسلم لأنها السراج الوهاج الذى ٱقتبس منه الفقهاء ولأنها الحكم عند اختلاف الآراء ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ وقد ٱعتمدنا فى ذلك على ما كتبه الإمام ٱبن القيم المتوفى سنة ٧٥١ هـ فى كتابه « زاد المعاد فى هدى خير العباد » فإنه خير ما كتب فى هذا الموضوع على ما علمنا .

حجة الوداع — لا خلاف أنه صلى الله عليه وسلم لم يحج بعد هجرته الى المدينة سوى حجة واحدة وهى حجة الوداع ولا خلاف أنها كانت سنة عشر . وٱختلف هل حج قبل الهجرة ، فروى الترمذى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : حج النبى صلى الله عليه وسلم ثلاث حجج حجتين قبل أن يهاجر وحجة بعد ما هاجر معها عمرة ، قال الترمذى : هذا حديث غريب — تفرّد به راو واحد — من حديث سفيان قال : وسألت محمدا يعنى البخارى عن هذا فلم يعرفه من حديث الثورى ، وفى رواية لا يعدّ هذا الحديث محفوظا . ولما نزل فرض الحج بادر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الحج من غير تأخير فان فرض الحج تأخر الى سنة تسع أو عشر وأما قوله تعالى ﴿ وَأَتِمُّوا ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ فإنها وإن نزلت سنة ست عام الحديبية فليس فيها فريضة الحج وإنما فيها الأمر بإتمامه وإتمام العمرة بعد الشروع فيهما وذلك لا يقتضى وجوب الابتداء .

ولما عزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحج أعلم الناس أنه حاج فتجهزوا للخروج معه وسمع بذلك من حول المدينة فقدموا يريدون الحج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ووافاه فى الطريق خلائق لا يحصون فكانوا من بين يده ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله مدّ البصر، وخرج من المدينة نهارا بعد الظهر لست بقين من ذى القعدة بعد أن صلى الظهر بها أربعا وخطبهم قبل ذلك خطبة علمهم فيها الإحرام وواجباته وسننه، قال ابن حزم: وكان خروجه يوم الخميس، قال ابن القيم: والظاهر أنه كان يوم السبت (انظر أدلة كل منهما بزاد المعاد) وبعد أن صلى وخطب ترجل (مشط رأسه) وأدهن ولبس إزاره[1] ورداءه وخرج بين الظهر والعصر فنزل بذى الحليفة[2] (الخريطة ٥٧) فصلى بها العصر ركعتين ثم بات بها وصلى بها المغرب والعشاء والصبح والظهر فصلى بها خمس صلوات وكان نساؤه كلهن معه وطاف عليهن تلك الليلة، فلما أراد الإحرام اغتسل غسلا ثانيا لإحرامه غير غسل الجماع الأول ثم طيبته عائشة بيدها بذريرة[3] وطيب فيه مسك فى بدنه ورأسه حتى كان وبيص[4] المسك يرى فى مفارقه[5] ولحيته ثم استدامه ولم يغسله ثم لبس إزاره ورداءه ثم صلى الظهر ركعتين ثم أهلّ[6] بالحج والعمرة فى مصلاه ولم ينقل عنه أنه صلى للإحرام ركعتين غير فرض الظهر وقلد[7] قبل الإحرام بُدْنه نعلين وأشعرها فى جانبها الأيمن فشق صفحة سَنامها وسلت[8] الدم عنها — وقد ساق ابن القيم بضعة وعشرين دليلا كلها صحيحة صريحة فى أنه صلى الله عليه وسلم حج قارنا، وذكر أنه أخطأ فى عمرة النبى صلى الله عليه وسلم خمس طوائف ووهم فى حجه خمس طوائف وغلط فى إحرامه خمس طوائف وبين آراء كل طائفة وساق

(١) الإزار ما يلف على أسفل الجسم، والرداء ما يلف على أعلاه.

(٢) ذو الحليفة أو آبار على غربى المدينة بينها وبين مسجدها نحو ٢٠ كيلو مترا وبها مسجد يسمى مسجد الشجرة وبئر يسميها الجهال بئر على لظنهم أن عليا قاتل الجن بها وهو كذب (رسائل ابن تيمية ص ٣٥٦ جزء ثان).

(٣) الذريرة نوع من الطيب يجمع من أخلاط شتى.

(٤) بريقه ولمعانه.

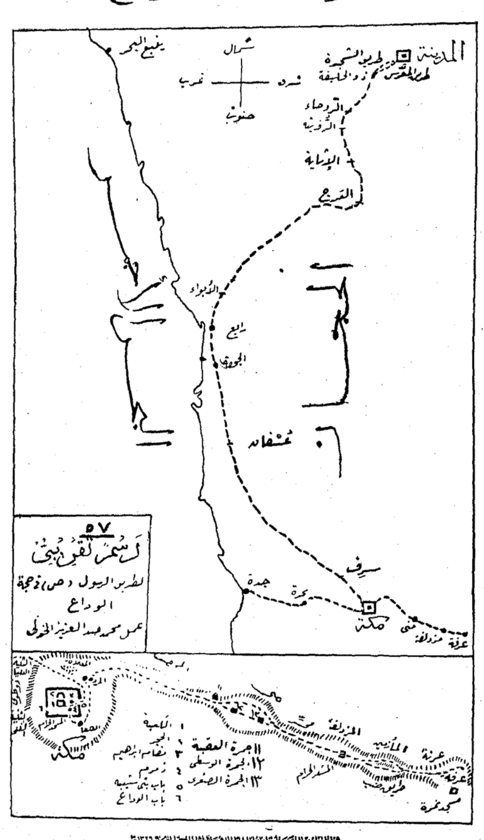
(٥) جمع مفرق وهو وسط الرأس الذى يفرق فيه الشعر.

(٦) الإهلال رفع الصوت بالتلبية بهما.

(٧) تقليد البدنة أن يعلق فى عنقها شىء ليعلم أنها هدى.

(٨) أى أماطه وأزاله.

خريطة حجة الوداع



57. A map showing the Prophet's farewell pilgrimage.

أدلتها ثم كر عليها بالنقض، وكتابته فى هذا الموضوع أمتع ما كتب فراجعها فى كتابه زاد المعاد من ص ١٨٣ الى ص ٢٠٢ من الجزء الأول طبع الحلبى بمصر — ولبد رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه بالغسل — بوزن كفل — وهو ما يغسل به الرأس من خَطْمى[١] ونحوه يلبد به الشعر حتى لا ينتشر، وأهل فى مصلاه ثم ركب على ناقته وأهل أيضا ثم أهل لما آستقلت به على البيداء[٢] . قال ابن عباس رضى الله عنهما : وايم الله لقد أوجب[٣] فى مصلاه وأهل حين آستقلت[٤] به ناقته وأهل حين علا على شرف[٥] البيداء وكان يهل بالحج والعمرة تارة وبالحج تارة لأن العمرة جزء منه ؛ فمن ثمة قيل : قرن[٦]، وقيل : تمتع، وقيل : أفرد ثم لبى فقال : لبيك[٧] اللهم لبيك . لبيك لا شريك لك لبيك . إن الحمد والنعمة لك . والملك لا شريك لك . ورفع صوته بهذه التلبية حتى سمعها أصحابه وأمرهم بأمر الله له أن يرفعوا أصواتهم بالتلبية وكان حجه على رحل لا فى محمل ولا هودج ولا عمارية[٨] وزاملته[٩] تحته — وآختلف فى جواز ركوب المحرم فى المحمل والهودج والعمارية ونحوها على قولين هما روايتان عن أحمد رحمه الله أحدهما الجواز وهو مذهب الشافعى وأبى حنيفة رحمهما الله والثانى المنع وهو مذهب مالك — ثم انه صلى الله عليه وسلم خيرهم عند الإحرام بين الأنساك الثلاثة (الحج أو العمرة أوهما معا) ثم ندبهم عند دنوهم من مكة الى فسخ

---

(١) كلما راجعت قاموسا لعلى أجد فيه وصف هذا النبات لا أجد إلا قول ما يغسل به الرأس أو هو نبات محلل منضج ملين نافع لعسر البول الخ أو نبات معروف أو غسل معروف وهو بكسر الخاء وقد تفتح .

(٢) الصحراء. (٣) أوجب الشخص عمل عملا يستوجب له الجنة . (٤) حملته وقامت به .

(٥) مرتفع . (٦) القران الإهلال بالحج والعمرة معا، والتمتع : الاهلال بالعمرة وحدها وبعد التحلل منها يحرم بالحج، والإفراد : الاحرام بالحج وحده . (٧) أى إجابة لك بعد إجابة .

(٨) الرحل للابل كالسرج للفرس، والمحمل كمجلس : شقان على البعير يحمل فيهما العديلان، والهودج : مركب للنساء مقبب، وأما العمارية فهى الهودج يُجلس فيه (أقرب الموارد، ج ٢ ص ٨٢٩) .

(٩) الزاملة : البعير الذى يحمل عليه الطعام والمتاع من الزمل وهو الحمل، والزميل : العديل الذى حمله مع حملك على البعير .

الحج والقران الى العمرة لمن لم يكن معه هدى ثم حتم ذلك عنـد المروة . وولدت أسماء بنت عميس زوجة أبي بكر رضى الله عنهما بذى الحليفة محمد بن أبي بكر فأمرها رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تغتسل وتستسفر وتستتر بثوب وتحرم وتهل ، وكان فى قصتها ثلاث سنن إحداها غسل المحرم ، والثانية أن الحائض تغتسـل لإحرامها ، والثالثة أن الإحرام يصح من الحائض . ثم سار رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يلبي بتلبيته المذكورة والناس معه يزيدون فيها وينقصون وهو يقرهم ولا ينكر عليهـم ولزم تلبيته . فلما كانوا بالرَّوحاء[(١)] رأى حمار وحش عَقِيرًا[(٢)] فقال : دعوه فإنه يوشـك أن يأتى صاحبه ، فجاء صاحبه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله شأنكم بهذا الحمار فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر رضى الله عنه فقسمه بين الرفاق ، وفى هذا دليل على جواز أكل المحرم من صيد الحلال إذ لم يصده لأجله ، وأما كون صاحبه لم يحرم فلعله لم يمرّ بذى الحليفة فهو كأبى قتادة فى قصته ، وتدل هذه القصة على أن الهبة لا تفتقر الى لفظ وهبت لك بل تصح بالفظ يدل عليها ، وتدل على قسمته اللحم مع عظامه بالتحرى ، وتدل على أن الصيد يملك بالإثبات وإزالة امتناعه وأنه لمن أثبته لا لمن أخذه ، وعلى حل أكل لحم الحمار الوحشى وعلى التوكيل فى القسمة وعلى كون القاسم واحدا ـــ ثم مضى حتى اذا كان بالإثاية بين الرُّوَيْثَة والعَرْج[(٣)] إذا ظبي حاقف[(٤)] فى ظل شجرة فيه سهم فأمر رجلا أن يقف عنده لا يريبه أحد من الناس حتى يجاوزوا ، والفرق بين قصة الظبي وقصة الحمار أن الذى صاد الحمار كان حلالا فلم يمنع من أكله وهذا لم يعلم أنه حلال وهم محرمون فلم يأذن لهم فى أكله ، ووكل

(١) الروحاء موضع بين مكة والمدينة على ثلاثين أو ستة وثلاثين أو أربعين ميلا من المدينة .

(٢) معقورا مضروبا . (٣) الإثاية موضع بين الحرمين فيه مسجد نبوى أو بئر دون العرج عليها مسجد للنبي صلى الله عليه وسلم (القاموس المحيط) وهى بالياء مثلثة الهمزة وقال فى معجم ياقوت : هى موضع فى طريق الجحفة بينه وبين المدينة خمسة عشر فرسخا (٤٥ ميلا) والعرج : قرية جامعة من أعمال الفُرع على أيام من المدينة (نهاية) قال ياقوت : بينها وبين المدينة ثمانية وسبعون ميلا ، والرويثة بالتصغير : موضع على ليلة من المدينة ، وقال ابن السكيت : الرويثة مُعَشّى بين العرج والروحاء .

(٤) رابض فى حِقْف من الرمل وهو المعوج منه .

من يقف عنده لئلا يأخذه أحد حتى يجاوزوا، وفيه دليل على أن قتل المحرم للصيد يجعله بمنزلة الميتة فى عدم الحل إذ لو كان حلالا لم تضع ماليته بل كان للحلال أن ينتفع به ، ثم سار حتى اذا نزل بالعرج(١) وكانت زاملته وزاملة أبى بكر واحدة وكانت مع غلام لأبى بكر ، فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر الى جانبه وعائشة الى جانبه الآخر وأسماء أختها الى جانب أبيها ، وأبو بكر ينتظر الغلام والزاملة إذ طلع الغلام ليس معه البعير فقال أين بعيرك؟ فقال : أضللته البارحة ، فقال أبو بكر : بعير واحد تضله قال : فطفق يضربه ورسول الله صلى الله عليه وسلم يبتسم ويقول انظروا الى هذا المحرم ما يصنع ، وما يزيد رسول الله على أن يقول ذلك ويبتسم ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى اذا كان بالأبواء(٢) أهدى له الصعب بن جثامة عجز حمار وحشى فرده عليه فقال : إنا لم نرده عليك إلا أنا حرم . فلما مر بوادى عسفان(٣) قال يا أبا بكر أى واد هذا؟ قال : وادى عسفان قال : لقد مر به هود وصالح على بكرين أحمرين خطمهم(٤) الليف وأزرهم العباء(٥) وأرديتهم النمار(٦) يلبون يحجون البيت العتيق — ذكره الامام أحمد فى المسند . فلما كان بسرف(٧) حاضت عائشة رضى الله عنها وقد كانت أهلت بعمرة ، فدخل عليها النبى صلى الله عليه وسلم وهى تبكى قال ما يبكيك؟ لعلك نفست : قالت : نعم قال : هذا شىء قد كتبه الله على بنات آدم أفعلى ما يفعل

---

(١) تقدم الكلام عليه مع الاثاية . (٢) الأبواء قرية بينها وبين الجحفة مما يلى المدينة ثلاثة وعشرون ميلا ورابغ بينهما ، فالأبواء : جهة المدينة ، والجحفة : جهة مكة وقيل : جبل شامخ هنالك ، وفى هذا الموضع توفيت والدة الرسول صلى الله عليه وسلم آمنة بنت وهب بن عبد مناف ، والأبواء قبل رابغ بقليل من جهة المدينة . (٣) عسفان منهلة من مناهل الطريق بين الجحفة ومكة وهى على مرحلتين من مكة أوسطة وثلاثين ميلا والجحفة على ثلاث مراحل ومن عسفان إلى ملل يقال له : الساحل ، وملل على ليلة من المدينة . (٤) الخطام : كل ما يوضع فى أنف البعير ليقتاد به والجمع خطم .

(٥) العباء : ضرب من الأكسية واحدته عباءة وعباية .

(٦) النمار جمع نمرة وهى كل شملة مخططة كأنها أخذت من لون النمر لما فيها من السواد والبياض .

(٧) موضع على عشرة أميال من مكة وقيل : أقل وقيل : أكثر وفيه تزوج النبى صلى الله عليه وسلم ميمونة بنت الحارث .

الحاج غير أن لا تطوفى بالبيت . وقد جاء فى صحيح مسلم عن جابر رضى الله عنه قال : أهلت عائشة بعمرة حتى اذا كانت بسرف عركت (حاضت) ثم دخل[١] رسول الله صلى الله عليه وسلم على عائشة فوجدها تبكى فقال ما شأنك ؟ قالت : شأنى أنى قد حضت وقد أحل الناس ولم أحل ولم أطف بالبيت والناس يذهبون الى الحج الآن ، فقال : إن هذا أمر قد كتبه الله على بنات آدم فاغتسلى ثم أهلى بالحج ففعلت ووقفت المواقف كلها حتى إذا طهرت طافت بالكعبة و بالصفا والمروة ثم قال قد حللت من حجك وعمرتك قالت يارسول الله ! إنى أجد فى نفسى أنى لم أطف بالبيت حتى حججت قال : فاذهب بها يا عبد الرحمن فأعمرها من التنعيم . وقد تنازع العلماء فى قصة عائشة هل كانت متمتعة أو مفردة والصواب أنها كانت متمتعة محرمة بالعمرة فقط واذا كانت متمتعة فهل رفضت عمرتها وانتقلت الى الإفراد بالحج أو أدخلت عليها الحج وصارت قارنة بإدخاله عليها والصواب الثانى ، وهل العمرة التى أتت بها من التنعيم كانت واجبة أو لا ؟ والصحيح أنها كانت نافلة تطييبا لقلبها وجبرا لها و إلا فطوافها وسعيها وقع عن حجها وعمرتها وكانت متمتعة ثم أدخلت الحج على العمرة فصارت قارنة ، واختلفوا هل كان طهرها يوم عرفة أو يوم النحر . وحديث عائشة السابق يؤخذ منه أصول عظيمة من أصول المناسك : (١) اكتفاء القارن بطواف واحد وسعى واحد ؛ (٢) سقوط طواف القدوم عن الحائض ، كما أن حديث[٢] صفية أصل فى سقوط طواف الوداع عنها ؛ (٣) أن إدخال الحج على العمرة جائز كما يجوز للطاهر وأولى المعذورة لأنها محتاجة الى ذلك ؛ (٤) أن الحائض تفعل أفعال الحج كلها إلا أنها لا تطوف بالبيت ؛ (٥) أن التنعيم من الحل ؛ (٦) جواز عمرتين فى سنة واحدة بل فى شهر واحد ؛ (٧) أن المشروع فى حق المتمتع إذا خاف الفوات أن يدخل الحج على العمرة وحديث عائشة أصل فيه ؛ (٨) أنه أصل فى العمرة المكية وليس مع من يستحبها غيره ، فان النبى صلى الله عليه وسلم لم يعتمر هو ولا أحد ممن حج معه من مكة خارجا منها إلا عائشة وحدها ، فجعل أصحاب العمرة المكية قصة عائشة أصلا

(١) وذلك الدخول بعد أن وصل صلى الله عليه وسلم الى مكة . (٢) أنظر ص ٩٤

صلاة الجمعة بالحرم المكي في الحجة سنة ١٣٢٥

58. Pilgrims round El-Kaaba performing the Friday Prays.

لقولهم ولا دلالة لهم فيها فإن عمرتها إما أن تكون قضاء للعمرة المرفوضة عند من يقول : إنها رفضتها فهى واجبة قضاء لها أو تكون زيادة محضة وتطييبا لقلبها عند من يقول : إنها كانت قارنة وإن طوافها وسعيها أجزأها عن حجها وعمرتها . ولنعد الى سياق حجه صلى الله عليه وسلم .

فلما كان بِسَرِف قال لأصحابه : من لم يكن معه هدى فأحب أن يجعلها عمرة فليفعل ومن كان معه هدى فلا ، وهذه رتبة أخرى فوق رتبة التخيير عند الميقات ، فلما كان بمكة أمر أمرا حتما من لا هدى معه أن يجعلها عمرة ويحل من إحرامه ومن معه هدى أن يقيم على إحرامه ولم ينسخ ذلك شىء البتة ، بل سأله سراقة بن مالك عن هذه العمرة التى أمرهم بالفسخ اليها هل هى لعامهم ذلك أو للأبد ؟ قال : بل للأبد ، وإن العمرة قد دخلت فى الحج إلى يوم القيامة وقد روى عنه صلى الله عليه وسلم الأمر بفسخ الحج الى العمرة أربعة عشر صحابيا وأحاديثهم كلها صحاح (انظر الأحاديث وأعذار المخالفين والرد عليها فى زاد المعاد من ص ٢٠٩ الى ٢٢٥ ج ١) . ثم نهض صلى الله عليه وسلم إلى أن نزل بذى طوى[١] وهى المعروفة الآن بآبار الزاهر فبات بها ليلة الأحد لأربع خلون من ذى الحجة وصلى بها الصبح ثم اغتسل من يومه ونهض الى مكة فدخلها من أعلاها من الثنية[٢] العليا التى تشرف على الحجون[٣] ، وكان فى العمرة يدخل من أسفلها ، وفى الحج دخل من أعلاها وخرج من أسفلها ثم سار حتى دخل المسجد وذلك ضحى ، وذكر الطبرانى أنه دخله من باب بنى عبد مناف الذى يسميه الناس اليوم باب بنى شيبة[٤] أو باب السلام ثم استقبل البيت ودعا ، وذكر الطبرانى : أنه كان إذا نظر إلى البيت قال : اللهم زد بيتك هذا تشريفا وتعظيما وتكريما ومهابة ، وروى عنه أنه كان عند رؤيته يرفع يديه ويكبر ويقول : اللهم أنت السلام

(١) ذو طوى : موضع غربىّ مكة على مقربة منها . (٢) الثنية فى الجبل : كل عقبة مسلوكة أو هى الطريق العالى فيه . (٣) الحجون : جبل بأعلى مكة مشرف على مقبرتها وتسمى المقبرة : الحجون .
(٤) انظر صورته شرقى الكعبة فى (الرسم ٥٨) .

ومنك السلام حينا ربنا بالسلام اللهم زد هذا البيت تشريفا وتعظيما وتكريما ومهابة وزد من حجه أو اعتمره تكريما وتشريفا وتعظيما وبرا وهو مرسل[١]، ولكن سمع هذا سعيد ابن المسيب من عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقوله . فلما دخل المسجد عمد الى البيت (انظر رسمه فى الشكل ٥٨) ولم يركع تحية المسجد فان تحية المسجد الحرام الطواف . فلما حاذى الحجرَ الأسود[٢] (ترى فى الرسم ٥٩ الحجاج وقد تزاحموا على تقبيله) استلمه ولم يزاحم عليه ولم يتقدّم عنه الى جهة الركن[٣] اليمانى ولم يرفع يديه ولم يقل : نويت بطوافى هذا الأسبوع كذا وكذا ولا افتتحه بالتكبير كما يكبر للصلاة كما يفعله من لا علم عنده بل هو من البدع المنكرات ولا حاذى الحجر الأسود بجميع بدنه ثم انفتل عنه وجعله على شقه بل استقبله واستلمه ثم أخذ عن يمينه وجعل البيت عن يساره ولم يعرف عنه عند الباب[٤] ولا تحت الميزاب[٥] ولا عند ظهر الكعبة وأركانها ولا وقت الطواف ذكر معين لا بفعله ولا بتعليمه بل حفظ عنه بين الركنين ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾. ورمل[٦] فى طوافه هذا ثلاثة الأشواط الأول وكان يسرع مشيه ويقارب بين خطاه واضطبع بردائه فجعله على أحد كتفيه وأبدى كتفه الآخر ومنكبه، وكلما حاذى الحجَر الأسود أشار اليه واستلمه بمِحْجَنه وقبل المحجن، والمحجن : عصا محنية الرأس ، وثبت عنه أنه استلم الركن اليمانى ولم يثبت عنه أنه قبله ولا قبل يده عند استلامه ولكن ثبت عنه أنه قبل الحجَر الأسود وثبت عنه أنه استلمه بيده فوضع يده عليه ثم قبلها وثبت عنه أنه استلمه بمحجن فهذه ثلاث صفات، وروى عنه أيضا : أنه وضع شفتيه عليه طويلا يبكى . وذكر الطبرانى عنه بإسناد جيد أنه كان إذا استلم الركن اليمانى قال : بسم الله

(١) الحديث المرسل ما سقط من سنده — رواته — الصحابى .

(٢) فى زاوية الكعبة الجنوبية الشرقية وسيأتى مزيد شرحه .

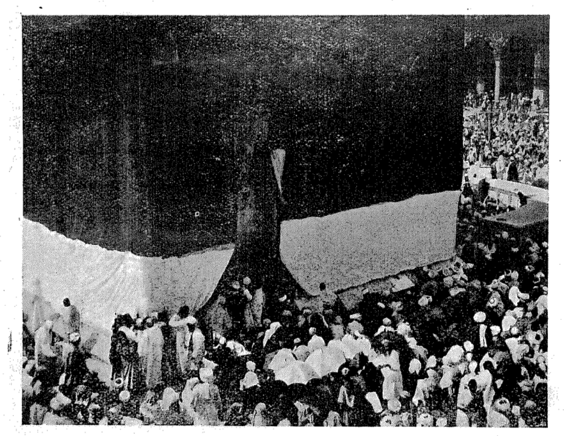
(٣) هو الركن الذى فى الجهة الجنوبية الغربية .

(٤) الباب فى الجهة الشرقية (انظره عليه الستارة فى الرسم ٥٩) .

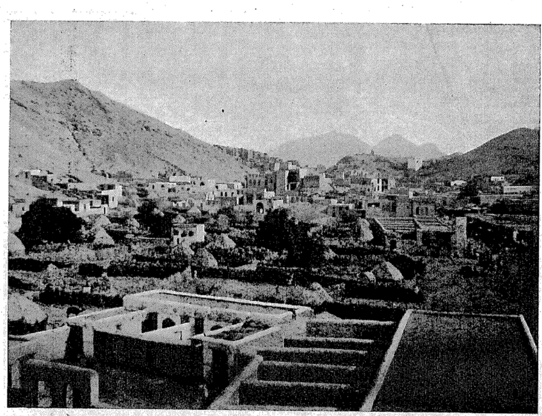
(٥) الميزاب : ما يسيل منه الماء الذى يجمع على سطح الكعبة وسيأتى شرحه .

(٦) الرَّمَل : الاسراع فى المشى مع تقارب الخطا .

الحجاج حول الكعبة المشرفة وتقبيلهم للحجر الاسود



59. Pilgrims round the Kaaba kissing the Black Stone.



مقياس السيل بجرول سنة ١٣٢٥ وجبل الكعبة

61. The Water-gauge and the Kaaba Mountain at Garwal, Mecca.

والله أكبر، وكان كلما أتى على الحجر الأسود قال: الله أكبر، وروى عن عمر أنه قبل الحجر وسجد عليه وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل ذلك. وروى عن آبن عباس أنه قبل الركن اليماني ثم سجد عليه ثم قبله ثم سجد عليه ثلاث مرات. ولم يستلم صلى الله عليه وسلم ولم يمس من الأركان إلا اليمانيين فقط . فلما فرغ من طوافه جاء إلى خلف المقام[1] فقرأ: ﴿وَٱتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ فصلى ركعتين، والمقام بينه وبين البيت قرأ فيهما بعد الفاتحة بسورتى الإخلاص، فلما فرغ من صلاته أقبل الى الحجر الأسود فآستلمه ثم خرج الى الصفا[2] من الباب الذى يقابله، فلما قرب منه قرأ ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ ٱللَّهِ﴾ أبدأ بما بدأ الله به، وفى رواية آبدءوا على الأمر ثم رقى عليه حتى رأى البيت فآستقبل القبلة فوحد الله وكبره وقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير لا إله إلا الله وحده أنجز وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده، ثم دعا بين ذلك وقال مثل هذا ثلاث مرات، وقام آبن مسعود على الصَّدع وهو الشق الذى فى الصفا فقيل له: هاهنا يا أبا عبد الرحمن قال: هذا والذى لا إله غيره مقام الذى أنزلت عليه سورة البقرة — ذكره البيهقى — ثم نزل الى المروة يمشى فلما آنصبّت قدماه فى بطن الوادى سعى حتى إذا جاوز الوادى وأصعد مشى — هذا الذى صح عنه فى ذلك اليوم — قبل الميلين الأخضرين فى أوّل السعى وآخره، والظاهر أن الوادى لم يتغير عن وضعه . هكذا قال جابر عنه فى صحيح مسلم، وظاهر هذا أنه كان ماشيا، وقد روى مسلم فى صحيحه عن آبن الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يقول: طاف النبي صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع على راحلته بالبيت وبين الصفا والمروة ليراه الناس وليشرف ولم يطف رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أصحابه بين الصفا والمروة إلا طوافا واحدا[3]، قال آبن حزم:

(١) الحجر الذى قام عليه إبراهيم وهو يبنى الكعبة وسيأتى الكلام عليه .

(٢) الصفا : مكان عال فى أصل جبل أبى قبيس جنوبى المسجد الحرام على مقربة من بابه المسمى باب الصفا وهو أشبه بالمصلى طوله ٦ أمتار وعرضه ثلاثة وسيأتى وصفه .

(٣) فلم يسعوا بعد طواف الافاضة .

لا تعارض بينهما لأن الراكب إذا أنصب به بعيره فقد أنصب كله وأنصبت قدماه أيضا مع سائر جسده، قال ابن القيم: وعندى وجه آخر للجمع بينهما أحسن من هذا وهو أنه سعى ماشيا أولا ثم أتم سعيه راكبا، وقد جاء ذلك مصرحا به، ففى صحيح مسلم عن أبى الطفيل قال: قلت لابن عباس أخبرنى عن الطواف بين الصفا والمروة راكبا أسنة هو؟ فان قومك يزعمون أنه سنة قال: صدقوا وكذبوا قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كثر عليه الناس يقولون: هذا محمد حتى خرج عليه العواتق من البيوت قال: وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يُضْرب الناس بين يديه فلما كثر عليه ركب والمشى أفضل. وأما طوافه بالبيت عند قدومه فاختلف فيه هل كان على قدميه أو كان راكبا؟ والصحيح أنه طافه على قدميه لأنه ثبت عنه الرَّمَل فيه وهو إنما يكون من الماشى، وأن الركوب كان فى طواف الإفاضة. وكان صلى الله عليه وسلم إذا وصل إلى المروة(١) رقى عليها واستقبل البيت وكبر الله وحده وفعل كما فعل على الصفا، فلما أكمل سعيه عند المروة أمر كل من لاهدى معه أن يحل حتما ولا بد قارنا كان أومفردا، وأمرهم أن يحلوا الحل كله من وطء النساء والطيب ولبس المخيط وأن يبقوا كذلك الى يوم التروية، ولم يحل هو من أجل هديه وهناك قال: لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لما سقت الهدى ولجعلتها عمرة، وهناك دعا للمحلقين بالمغفرة ثلاثا وللمقصرين مرة، وهناك سأله سُراقة بن مالك بن جُعْشُم عقيب أمره لهم بالفسخ والإحلال هل ذلك لعامهم خاصة أو للأبد؟ فقال: بل للأبد ولم يحل أبو بكر ولا عمر ولا علىّ ولا طلحة ولا الزبير من أجل الهدى، وأما نساؤه صلى الله عليه وسلم فأحللن وكنّ قارنات إلا عائشة فانها لم تحل من أجل تعذر الحل عليها بحيضها، وفاطمة حلت لأنه لم يكن معها هدى، وعلى رضى الله عنه لم يحل من أجل هديه، وأمر من أهّل بإهلال كاهلاله صلى الله عليه وسلم أن يقيم على إحرامه إن كان معه هدى وأن يحل إن لم يكن معه هدى، وكان يصلى مدّة مقامه بمكة الى يوم التروية(٢) بمنزله الذى هو

(١) المروة: مكان مرتفع فى أصل جبل قعيقعان فى الشمال الشرقى للسجد الحرام على بعد منه وتحيط به الآن ثلاثة جدر فى الشمال والشرق والغرب. (٢) ثامن ذى الحجة وكانوا يعدون فيه الماء للسفر الى عرفة.

نازل فيه بالمسلمين بظاهر مكة، فأقام بظاهر مكة أربعة أيام يقصر الصلاة يوم الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء، فلما كان يوم الخميس ضحى توجه بمن معه من المسلمين الى منى (١) فأحرم بالحج من كان أحل منهم من رجالهم ولم يدخلوا الى المسجد فأحرموا منه بل أحرموا ومكة خلف ظهورهم، فلما وصل الى منًى نزل بها وصلى بها الظهر والعصر وبات بها وكان ليلة الجمعة فلما طلعت الشمس سار منها الى عرفة وأخذ على طريق ضب (٢) على يمين طريق الناس اليوم وكان من أصحابه الملبى ومنهم المكبر وهو يسمع ذلك ولا ينكر على هؤلاء ولا على هؤلاء، فوجد القبة قد ضربت له بنَمِرة بأمره وهى قرية (٣) شرقى عرفات وهى خراب اليوم فنزل بها حتى إذا زالت الشمس أمر بناقته القصوى (٤) فرحلت (٥)، ثم سار حتى أتى بطن الوادى من أرض عُرَنة (٦) فخطب الناس وهو على راحلته خطبة عظيمة قرّر فيها قواعد الإسلام وهدم فيها قواعد الشرك والجاهلية وقرّر فيها تحريم المحرمات التى اتفقت الملل على تحريمها وهى الدماء والأموال والأعراض ووضع فيها أمور الجاهلية تحت قدميه ووضع فيها ربا الجاهلية كله وأبطله وأوصاهم بالنساء خيرا وذكر الحق الذى لهنّ وعليهنّ وإن الواجب لهنّ الرزق والكسوة بالمعروف ولم يقدر ذلك بتقدير وأباح للأزواج ضربهنّ اذا أدخلن الى بيوتهنّ من يكرهه أزواجهن، وأوصى الأمة فيها بالاعتصام بكتاب الله. وأخبر أنهم لن يضلوا ماداموا معتصمين به ثم أخبرهم أنهم مسئولون عنه واستنطقهم بماذا يقولون وبماذا يشهدون فقالوا : نشهد نك قد بلغت وأديت ونصحت فرفع

(١) منى : هو موضع فى شرقى مكة على مسيرة ساعتين وخمس وأربعين دقيقة منها وفيها الجمرات وسيأتى وصفها ورسمها فى خريطة مشاعر الحج .

(٢) ضب : اسم الجبل الذى فى أصله مسجد الخيف وطريق ضب يبتدئ من أوّل المأزمين على يمين الميم عرفة وهو أخصر من طريق المأزمين .

(٣) لم نر بالتواريخ التى بأيدينا أنها قرية .

(٤) لقب ناقة النبى صلى الله عليه وسلم والقصواء فى الأصل الناقة التى قطع طرف أذنها لكن لم تك ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك .

(٥) وضع عليها الرحل — تقدّم تفسيره .

(٦) عرنة : واد بين المزدلفة وعرفة وطوله نحو ١٥٠٠ متر .

أصبعه الى السماء وٱستشهد الله عليهم ثلاث مرات وأمرهم أن يبلغ شاهدهم غائبهم، وسيأتى نص الخطبة فى الكلام على حج الجاهلية ، فلما أتمها أمر بلالا فأذّن ثم أقام الصلاة فصلى الظهر ركعتين أسرّ فيهما بالقراءة وكان يوم الجمعة فدل على أن المسافر لا يصلى جمعة، ثم أقام فصلى العصر ركعتين أيضا ومعه أهل مكة وصلوا بصلاته قصرا وجمعا بلا ريب، ولم يأمرهم بالإتمام ولا بترك الجمع ومن قال : إنه قال لهم : أتموا صلاتكم فإنا قوم سفر فقد غلط فيه غلطا بينا ووهم وهما قبيحا وإنما قال لهم ذلك فى غزاة الفتح بجوف مكة حيث كانوا فى ديارهم مقيمين ولهذا كان أصح أقوال العلماء: أن أهل مكة يقصرون ويجمعون بعرفة كما فعلوا مع النبي صلى الله عليه وسلم، وفى هذا أوضح دليل على أن سفر القصر لا يتحدد بمسافة معلومة ولا بأيام معلومة ولا تأثير للنسك فى قصر الصلاة البتة، وإنما التأثير لما جعله الله سببا وهو السفر هذا مقتضى السنة ولا وجه لما ذهب اليه المحدّدون . فلما فرغ من صلاته ركب حتى أتى الموقف فوقف فى ذيل الجبل عند الصخرات(١) واستقبل القبلة وجعل جبل المشاة بين يديه وكان على بعيره فأخذ فى الدعاء والتضرّع والأبتهال الى غروب الشمس، وأمر الناس أن يرفعوا عن بطن عرنة وأخبر أن عرفة لا تختص بموقفه ذلك بل قال : وقفت هاهنا وعرفة كلها موقف وأرسل الى الناس أن يكونوا على مشاعرهم(٢) ويقفوا بها فإنها من إرث أبيهم إبراهيم . وكذلك هناك أقبل ناس من أهل نجد فسألوه عن الحج فقال : الحج يوم عرفة من أدرك قبل صلاة الصبح فقد أدرك الحج .

أيام منًى ثلاثة أيام التشريق ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ وكان فى دعائه رافعا يده إلى صدره كاستطعام المسكين وأخبرهم أن خير الدعاء دعاء يوم عرفة وذكر من دعائه صلى الله عليه وسلم فى الموقف: اللهم: لك الحمد كالذى نقول وخيرا مما نقول اللهم : لك صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى وإليك مآبى

(١) انظر : رسم جبل عرفات .

(٢) جمع مشعر وهو موضع الشعيرة وهى كل ما جعل علما لطاعة الله تعالى .

ولك ربى تراثى[1] اللهم إنى أعوذ بك من عذاب القبر ووسوسة الصدر وشتات الأمر اللهم إنى أعوذ بك من شر ما تجىء به الريح — ذكره الترمذى — ومما ذكر من دعائه هنالك : اللهم إنك تسمع كلامى وترى مكانى وتعلم سرى وعلانيتى ولا يخفى عليك شىء من أمرى أنا البائس الفقير المستغيث المستجير والوجل المشفق المقرّ المعترف بذنوبى أسألك مسألة المسكين وأبتهل اليك ابتهال المذنب الذليل وأدعوك دعاء الخائف الضرير من خضعت لك رقبته وفاضت لك عيناه وذلّ جسده ورغم أنفه لك ، اللهم لا تجعلنى بدعائك رب شقيا وكن بى رءوفا رحيما يا خير المسئولين وياخير المعطين — ذكره الطبرانى — وذكر الامام أحمد من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : كان أكثر دعاء النبى صلى الله عليه وسلم يوم عرفة : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ؛ له الملك وله الحمد بيده الخير وهو على كل شىء قدير ، وذكر البيهقى من حديث علىّ رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال أكثر دعائى ودعاء الأنبياء من قبلى بعرفة : لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير، اللهم اجعل فى قلبى نورا وفى صدرى نورا وفى سمعى نورا وفى بصرى نورا اللهم اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى وأعوذ بك من وسواس الصدر وشتات الأمر وفتنة القبر اللهم إنى أعوذ بك من شر ما يلج فى الليل وشر ما يلج فى النهار وشر ما تهب به الرياح وشر بوائق[2] الدهر — وأسانيد هذه الأدعية فيها لين — وهناك أنزلت عليه ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ . وهناك سقط رجل من المسلمين عن راحلته وهو محرم فمات فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكفن فى ثوبيه ولا يمس بطيب وأن يغسل بماء وسدر ولا يغطى رأسه ولا وجهه وأخبر أن الله تعالى يبعثه يوم القيامة يلبى . فلما غربت الشمس واستحكم غروبها بحيث ذهبت الصفرة أفاض من عرفة وأردف أسامة بن زيد خلفه وأفاض بالسكينة وضم اليه زمام ناقته حتى أن

(١) النسك : العبادة . والمآب : المرجع . والتراث : المال الموروث .

(٢) مهلكاته .

رأسه ليصيب طرف رحله وهو يقول : أيها الناس عليكم السكينة فان البر ليس بالإيضاع أى ليس بالإسراع ، وأفاض من طريق المأزمين[١] ودخل عرفة من طريق ضب وهكذا كانت عادته صلوات الله وسلامه عليه فى الأعياد أن يخالف الطريق ثم جعل يسير العَنَق وهو ضرب من السير ليس بالسريع ولا البطيء فاذا وجد فجوة وهو المتسع نصَّ سيره أى رفعه فوق ذلك وكلما أتى ربوة[٢] من تلك الربا أرخى للناقة زمامها قليلا حتى تصعد وكان يلبّى فى مسيره ذلك لا يقطع التلبية ، فلما كان فى أثناء الطريق نزل صلوات الله وسلامه عليه فبال وتوضأ وضوءا خفيفا فقال له أسامة : الصلاة يارسول الله فقال : المصلى أمامك ، ثم سار حتى أتى المزدلفة[٣] فتوضأ وضوء الصلاة ثم أمر المؤذن بالأذان فأذن المؤذن ثم أقام فصلى المغرب قبل حط الرحال وتبريك الجمال ، فلما حطوا رحالهم أمر فأقيمت الصلاة ثم صلى العشاء الآخرة بإقامة بلا أذان ولم يصل بينهما شيئا ، وقد روى أنه صلاهما بأذانين وإقامتين ، وروى بإقامتين بلا أذان ، والصحيح أنه صلاهما بأذان وإقامتين ، كما فعل بعرفة ثم نام حتى أصبح ولم يحى تلك الليلة ولا صح عنه فى إحياء ليلتى العيدين شيء ، وأذن فى تلك الليلة لضعفة أهله أن يتقدّموا الى منى قبل طلوع الفجر وكان ذلك عند غيبوبة القمر وأمرهم أن لا يرموا الجمرة حتى تطلع الشمس ، فلما طلع الفجر صلاها فى أول الوقت لا قبله قطعا بأذان وإقامة يوم النحر وهو يوم العيد وهو يوم الحج الأكبر وهو يوم الأذان ببراءة من الله ورسوله من كل مشرك ، ثم ركب حتى أتى موقفه عندا المشعر[٤] الحرام فاستقبل القبلة وأخذ فى الدعاء والتضرّع والتكبير والتهليل والذكر حتى أسفر جدا وذلك قبل طلوع الشمس وهنالك سأله عروة بن مُضَرِّس الطائى فقال يا رسول الله :

---

(١) هو الطريق الذى يسلكه الناس اليوم وهو أطول من طريق ضب الذى فى جنوبيه على يمين السالك نحو عرفة . (٢) مكانا عاليا .

(٣) المزدلفة : هو الوادى الواسع الذى بين المأزمين من جهة عرفة وبين وادى محسِّر الضيق من جهة مكة ويمتدّ على طول ٣٨١٢ متر .

(٤) المشعر الحرام فى المزدلفة على بعد ٢٥٤٨ متر من أولها من جهة المحسر عند الجبل المعروف بقزح .

إنى جئت من جبلى طيئ أكللت (١) راحلتى وأتعبت نفسى والله ما تركت من جبل إلا وقفت عليه فهل لى من حج؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من شهد صلاتنا هذه فوقف معنا حتى ندفع وقد وقف بعرفة قبل ذلك ليلا أو نهارا فقد تم حجه وقضى تفثه ــ قال الترمذى : حديث حسن صحيح (٢) . وبهذا احتج من ذهب الى أن الوقوف بمزدلفة والمبيت بها ركن كعرفة . وقد وقف صلى الله عليه وسلم فى موقفه وأعلم الناس أن مزدلفة كلها موقف، ثم سار من مزدلفة مردفا للفضل بن عباس وهو يلبى فى مسيره وانطلق أسامة بن زيد على رجليه فى سباق (٣) قريش ، وفى طريقه ذلك أمر ابن عباس أن يلتقط له حصى الجمار سبع حصيات ولم يكسرها من الجبل تلك الليلة كما يفعل من لا علم عنده ولا التقطها بالليل، فالتقط له سبع حصيات من حصى الخذف (٤) فجعل ينفضهن فى كفه ويقول : أمثال هؤلاء فارموا وإياكم والغلو فى الدين فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو فى الدين . وفى طريقه تلك عرضت له امرأة من خثعم جميلة فسألته عن الحج عن أبيها وكان شيخا كبيرا لا يستمسك على الراحلة فأمرها أن تحج عنه وجعل الفضل ينظر اليها وتنظر اليه فوضع يده على وجهه وصرفه الى الشق الآخر ــ وكان الفضل وسيما ــ فقيل : صرف وجهه عن نظرها اليه وقيل : صرفه عن نظره اليها ، والصواب أنه فعله للأمرين فإنه فى القصة جعل ينظر اليها وتنظر اليه وسأله آخر هنالك عن أمه فقال : إنها عجوز كبيرة وإن حملتها لم تستمسك وإن ربطتها خشيت أن أقتلها فقال : أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضيه ؟ قال : نعم قال : فحج عن أمك . فلما أتى بطن (٥) محسر حرك ناقته وأسرع السير وهذه كانت عادته فى المواضع التى نزل فيها بأس الله بأعدائه ، فإن هنالك أصاب أصحاب

(١) أتعبتها . (٢) الحديث الذى رواه عدل تام الضبط بسند متصل غير معل ولا شاذ يقال له : الصحيح فان لم يكن الضبط تاما يقال له : الحسن ومعنى كون الحديث حسنا صحيحا أن أحد سنديه تنطبق عليه أوصاف الصحة والآخر تنطبق عليه أوصاف الحسن فإن كان له سند واحد فوصفه بالأمرين للاختلاف فى حال رجاله أهم رجال الصحيح أم رجال الحسن ؟

(٣) تسابقهم . (٤) الخذف بالحصى رميه بالأصابع .

(٥) الوادى الضيق بين منى ومزدلفة يقال له محسر .

الفيل ما قص الله علينا، ولذلك سمى ذلك الوادى وادى محسر لأن الفيل حَسِر فيه أى أعيى وانقطع عن الذهاب وكذلك فعل فى سلوكه الحجر وديار ثمود فانه تقنع بثوبه وأسرع السير، و«محسر» برزخ بين مِنًى وبين مزدلفة لا من هـذه ولا من هذه و«عُرَنَةُ» برزخ بين عرفة والمشعر الحرام فبين كل مشعرين برزخ ليس منهما، فمنى من الحرم وهى مشعر، ومُحَسِّر من الحرم وليس بمشعر، ومزدلفة : حرم ومشعر، وعُرنة ليست مشعرا ولا حرما، وعرفة : حل ومشعر . وسلك صلى الله عليه وسلم الطريق الوسطى بين الطريقين وهى التى تخرج على الجمرة الكبرى حتى أتى منى فأتى جمرة[1] العقبة فوقف فى أسفل الوادى وجعـل البيت عن يساره ومنى عن يمينـه واستقبل الجمرة وهو على راحلته فرماها راكبا بعد طلوع الشمس واحدة بعد واحدة يكبر مع كل حصاة ، وحينئذ قطع التلبية ، وكان فى مسيره ذلك يلبى حتى شرع فى الرمى، ورمى وبلال وأسامة معه أحدهما آخذ بخطام ناقتـه والآخر يظله بثوب من الحرّ، وفى هذا دليل على جواز استظلال المحرم بالمحمل ونحوه إن كانت قصة هذا الإظلال فى يوم النحر ثابتة وان كانت بعده فى أيام منى فلا حجة فيها وليس فى الحديث بيان أى زمن كانت والله أعلم . ثم رجع إلى منى فخطب الناس خطبة بليغة أعلمهم فيها بحرمة يوم النحر وتحريمه وفضله عند الله وحرمة مكة على جميع البلاد وأمر بالسمع والطاعة لمن قادهم بكتاب الله وأمر الناس بأخذ مناسكهم عنه وقال : لعلى لا أحج بعـد عامى هـذا وعلمهم مناسكهم وأنزل المهاجرين والأنصار منازلهم وأمر الناس أن لا يرجعوا بعـده كفارا يضرب بعضهم رقاب بعض وأمر بالتبليغ عنـه، وأخبر أنه رب مبلَّغ أوعى من سامع وقال فى خطبته : لا يجنى جان إلا على نفسـه وأنزل المهاجرين عن يمين القبلة والأنصار عن يسارها والنـاس حولهم وفتح الله له أسماع الناس حتى سمعها أهل منى فى منازلهم وقال فى خطبته تلك : اعبـدوا ربكم وصلوا خمسكم وصوموا شهركم وأطيعوا ذا أمركم تدخلوا جنـة ربكم، وودّع حينئذ الناس

(١) جمرة العقبة أقرب الجمـار الى مكة وهى الآن حائط من الحجر ارتفاعه نحو ثلاثة أمتار فى عرض مترين وتليها الجمرة الوسطى فالأولى .

فقالوا : حجة الوداع ، وهناك سئل عمن حلق قبل أن يرمى . فقال : لا حرج قال عبد الله بن عمر : ما رأيته سئل صلى الله عليه وسلم يومئذ عن شيء إلا قال : افعلوا ولا حرج ، قال ابن عباس إنه قيل له صلى الله عليه وسلم فى الذبح والحلق والرمى والتقديم والتأخير قال : لا حرج ، وقال أسامة بن شريك : خرجت مع النبى صلى الله عليه وسلم حاجا وكان الناس يأتونه فمن قائل يا رسول الله ! سعيت قبل أن أطوف أو أخرت شيئا وقدّمت فكان يقول : لا حرج لا حرج إلا على رجل اعترض عِرْض رجل مسلم وهو ظالم فذلك الذى حرج وهلك وقوله : سعيت قبل أن أطوف فى هذا الحديث ليس بمحفوظ ، والمحفوظ : تقديم الرمى والنحر والحلق بعضها على بعض ثم انصرف إلى المنحر بمنى فنحر ثلاثا وستين بدنة بيده وكان ينحرها قائمة معقولة يدها اليسرى ، وكان عدد هذا الذى نحره عدد سنى عمره ثم أمسك ، وأمر عليا أن ينحر ما بقى من المائة ثم أمر عليا رضى الله عنه أن يتصدّق بجلالها (١) ولحومها وجلودها فى المساكين وأمره أن لا يعطى الجزار فى جزارته شيئا منها وقال : نحن نعطيه من عندنا وقال : من شاء اقتطع . وقد نحر صلى الله عليه وسلم بمنحره بمنى وأعلمهم أن منى كلها منحر وأن فجاج مكة طريق ومنحر ، وفى هذا دليل على أن النحر لا يختص بمنى بل حيث نحر من فجاج مكة أجزأه كما أنه لما وقف بعرفة قال وقفت هاهنا وعرفة كلها موقف ، ولما وقف بمزدلفة قال : وقفت هاهنا ومزدلفة كلها موقف . وسئل صلى الله عليه وسلم أن يبنى له بناء يظله من الحر؟ فقال : لا ، منى مناخ لمن سبق اليه ، وفى هذا دليل على اشتراك المسلمين فيها وأن من سبق إلى مكان فهو أحق به حتى يرتحل عنه ولا يملكه بذلك .

فلما أكمل رسول الله صلى الله عليه وسلم نحره استدعى بالحلاق فحلق رأسه فقال للحلاق وهو معمر بن عبد الله وهو قائم على رأسه بالموسى ونظر فى وجهه وقال يامعمر! أمكنك رسول الله صلى الله عليه وسلم من شحمة أذنه وفى يدك الموسى فقال معمر : أما والله يا رسول الله إن ذلك لمن نعمة الله علىّ ومنّه قال : أجل (٢) وقال صلى الله عليه

(١) الجلال جمع جُل وهو كِساء يوضع على ظهور الابل . (٢) نعم .

وسلم للحلاق : خذ وأشار إلى جانبه الأيمن، فلما فرغ منه قسم شعره بين من يليه ثم أشار الى الحلاق فحلق جانبه الأيسر ثم قال: هاهنا أبو طلحة فدفعه اليه، هكذا وقع فى صحيح مسلم، وقد دعا صلى الله عليه وسلم للحالقين بالمغفرة ثلاثا وللمقصرين مرة، وحلق كثير من الصحابة بل أكثرهم وقصر بعضهم وهذا مع قوله تعالى : ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِنْ شَاءَ ٱللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ ومع قول عائشة رضى الله عنها طيبت رسول الله صلى الله عليه وسلم لإحرامه قبل أن يحرم ولإحلاله قبل أن يحل دليل على أن الحلق نسك وليس بإطلاق من محظورات الإحرام .

ثم أفاض صلى الله عليه وسلم إلى مكة قبل الظهر راكبا فطاف طواف الإفاضة وهو طواف الزيارة وهو طواف الصَّدَر ولم يطف غيره ولم يسع معه هذا هو الصواب، وقد خالف فى ذلك ثلاث طوائف — طائفة زعمت أنه طاف طوافين طوافا للقدوم سوى طواف الإفاضة ثم طاف للإفاضة، وطائفة زعمت أنه سعى مع هذا الطواف لكونه قارنا، وطائفة زعمت أنه لم يطف فى ذلك اليوم وإنما أخر طواف الزيارة الى الليل (وقد بين ابن القيم منشأ هذه الأقوال وخطأها فى كتابه زاد المعاد من ص٢٣٩ الى ٢٤٢) ولم يرمُل صلى الله عليه وسلم فى هذا الطواف ولا فى طواف الوداع وإنما رمل فى طواف القدوم ، ثم أتى زمزم بعد أن قضى طوافه وهم يسقون فقال : لولا أن يغلبكم الناس لنزلت فسقيت معكم ثم ناولوه الدلو فشرب وهو قائم فقيل : هذا نسخ لنهيه عن الشرب قائما وقيل : بل بيان منه لأن النهى على وجه الاختيار وترك الأولى وقيل : بل للحاجة وهذا أظهر . وهل كان فى طوافه هذا راكبا أو ماشيا؟ . واختلف أين صلى صلى الله عليه وسلم الظهر يومئذ؟ ففى الصحيحين عن ابن عمر أنه صلى الله عليه وسلم أفاض يوم النحر ثم رجع فصلى الظهر بمنى، وفى صحيح مسلم عن جابر أنه صلى الله عليه وسلم صلى الظهر بمكة وكذلك قالت عائشة : وقد رجح جماعة قول عائشة وجابر ورجح آخرون قول ابن عمر (انظر وجوه الترجيح زاد المعاد أوّل ص ٢٤٣) وقد طافت عائشة فى ذلك اليوم طوافا واحدا وسعت سعيا واحدا أجزأها عن حجها وعمرتها، وطافت صفية ذلك اليوم ثم حاضت فأجزأها طوافها ذلك عن طواف الوداع ولم

تودّع فآستقرّت سنته صلى الله عليه وسلم فى المرأة الطاهرة إذا حاضت قبل الطواف أن تقرن وتكتفى بطواف واحد وسعى واحد، وإن حاضت بعد طواف الإفاضة آجترأت به عن طواف الوداع . ثم رجع صلى الله عليه وسلم الى منى من يومه ذلك فبات بها فلما أصبح آنتظر زوال الشمس ، فلما زالت مشى من رحله الى الجمار ولم يركب فبدأ بالجمرة[1] الأولى التى تلى مسجد الخَيْف فرماها بسبع حصيات واحدة بعد واحدة يقول مع كل حصاة الله أكبر ثم يقدم على الجمرة أمامها حتى أسهل[2] فقام مستقبل القبلة ثم رفع يديه ودعا دعاء طويلا بقدر سورة البقرة ثم أتى الى الجمرة الوسطى فرماها كذلك ثم آنحدر ذات اليسار مما يلى الوادى فوقف مستقبل القبلة رافعا يديه يدعو قريبا من وقوفه الأوّل ثم أتى الجمرة الثالثة وهى جمرة العقبة فاستبطن الوادى وآستعرض الجمرة فجعل البيت عن يساره ومنى عن يمينه فرماها بسبع حصيات كذلك ولم يرمها من أعلاها كما يفعل الجهال ولا جعلها عن يمينه ،وآستقبل البيت وقت الرمى كما ذكره غير واحد من الفقهاء، فلما أكمل الرمى رجع من فوره ولم يقف عندها فقيل : لضيق المكان بالجبل وقيل وهو أصح : إن دعاءه كان فى نفس العبادة قبل الفراغ منها فلما رمى جمرة العقبة فرغ الرمى، والدعاء فى صلب العبادة قبل الفراغ منها أفضل منه بعد الفراغ منها . ويغلب على الظنّ أنه كان يرمى قبل الصلاة ثم يرجع فيصلى ، ومما تقدّم تعلم أن حجة النبى صلى الله عليه وسلم تضمنت ست وقفات للدّعاء، الموقف الأوّل على الصفا ، والثانى على المروة، والثالث بعرفة، والرابع بمزدلفة، والخامس عند الجمرة الأولى، والسادس عند الجمرة الثانية .

وخطب صلى الله عليه وسلم الناس بمنى خطبتين خطبة يوم النحر وقد تقدّمت والخطبة الثانيــة فى أوسط أيام التشريق فقيل : هو ثانى يوم النحر وهو أوسطها أى خيارها وآحتج لذلك بحديث سَرَّى بنت نَبْهان قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أتدرون أى يوم هذا؟ قالت : وهو اليوم الذى تدعون يوم الرءوس

(١) أنظر الجمرات وصفا ورسما بعد .

(٢) صار فى الارض السهلة .

قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : هذا وسط أيام التشريق ، هل تدرون أى بلد هذا ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : هذا المشعر الحرام . ثم قال : إنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد هذا : ألا وإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى بلدكم هذا حتى تلقوا ربكم فيسألكم عن أعمالكم ألا فليبلغ أدناكم أقصاكم ألا هل بلغت ، فلما قدمنا المدينــة لم يلبث إلا قليلا حتى مات صلى الله عليه وسلم — رواه أبو داود .
ويوم الرءوس هو ثانى يوم النحر بالآتفاق . واستأذنه العباس بن عبــد المطلب أن يبيت بمكة ليالى منى من أجل سقايته فأذن له ، وآستأذنه رعاء الإبل فى البيتوتة خارج منى عند الإبل فأرخص لهم أن يرموا يوم النحر ثم يجمعوا رمى يومين بعد يوم النحر يرمونه فى أحدهما ؛ قال مالك : ظننت أنه قال فى أوّل يوم منهما ثم يرمون يوم النفر ؛ وقال آبن عيينة فى هذا الحديث رخص للرعاء أن يرموا يوما ويدعوا يوما فيجوز للطائفتين بالسنة ترك المبيت بمنى ، وأما الرمى فانهــم لا يتركونه بل لهم أن يؤخروه الى الليل فيرمون فيه ، ولهم أن يجمعوا رمى يومين فى يوم ، واذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد رخص لأهل السقاية وللرعاء فى البيتوتة فمن له مال يخاف ضــياعه أو مريض يخاف من تخلفه عنه أو كان مريضا لا تمكنه البيتوته سقطت عنه بتنبيه النص على هؤلاء . ولم يتعجل صلى الله عليه وسلم فى يومين بل تأخر حتى أكمل رمى أيام التشريق الثلاثة وأفاض يوم الثلاثاء بعــد الظهر الى المحصب[١] وهو الأبطح وهو خيف بنى كنانة فوجد أبا رافع قد ضرب فيه قبته هنالك وكان على ثَقَله[٢] توفيقا من الله عز وجل دون أن يأمره به رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى الظهر والعصر والمغرب والعشاء ورقد رقدة ثم نهض الى مكة فطاف للوداع ليــلا سحرا ولم يرمل فى هــذا الطواف وأخبرته صفية أنها حائض فقال أحابستنا هى ؟ فقالوا له : إنها قد أفاضت قال : فلننفر اذا ، ورغبت اليه عائشة تلك الليلة أن يُعمرها عمرة مفردة فأخبرها أن طوافها بالبيت وبالصفا والمروة قد أجزأها عن حجها وعمرتهــا فأبت

(١) المحصب هو الوادى الذى بين المعلاة من جهة مكة وبين المكان المعروف بسبيل الست من جهة منى .
(٢) الثقل متاع المسافر وحشمه .

إلا أن تعتمر عمرة مفردة فأمر أخاها أن يعمرها من التنعيم، ففرغت من عمرتها ليلا ثم وافت المحصَّب مع أخيها فأتيا في جوف الليل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فرغتما؟ قالت: نعم، فنادى بالرحيل في أصحابه فارتحل الناس ثم طاف بالبيت قبل صلاة الصبح، وقد اختلف في التحصيب أسنة هو أو منزل اتفاق على قولين — وهاهنا ثلاث مسائل هل دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم البيت في حجته أم لا؟ وهل وقف بالملتزم أو لا؟ وهل صلى الصبح ليلة الوداع بمكة أو خارجا عنها؟ والذى تدل عليه سنته أنه لم يدخل البيت في حجته ولا في عمرته وإنما دخله عام الفتح وأنه لم يقف بالملتزم إلا عام الفتح وانه صلى صلاة الصبح بمكة عند البيت، وسمعته أم سلمة يقرأ فيها بالطور.

ثم ارتحل صلى الله عليه وسلم راجعا الى المدينة، فلما كان بالروحاء لقي ركبا فسلم عليهم وقال من القوم؟ فقالوا: المسلمون فمن القوم؟ فقال: رسول الله صلى الله عليه وسلم، فرفعت امرأة صبيا لها من مِحفة[1] فقالت يارسول الله! ألهذا حج؟ قال: نعم ولك أجر، فلما أتى ذا الحليفة بات بها، فلما رأى المدينة كبر ثلاث مرات وقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير آئبون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ثم دخلها نهارا من طريق المعرّس[2] وخرج من طريق الشجرة[3].

هديه صلى الله عليه وسلم في الهدايا: أهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم الغنم وأهدى الإبل وأهدى عن نسائه البقر وأهدى في مقامه وفي عمرته وفي حجته

(١) المِحَفّة: مركب من مراكب النساء كالهودج ألا انها لاتقبب كما تقبب الهوادج.

(٢) التعريس نزول المسافر آخر الليل نزلة للاستراحة والنوم، والمعرس موضع التعريس وبه سمى معرّس ذى الحليفة الذى عرّس به النبي صلى الله عليه وسلم.

(٣) المراد بالشجرة الشجرة التى ولدت عندها أسماء بذى الحليفة وكان النبي صلى الله عليه وسلم ينزلها من المدينة ويحرم منها وهي على ستة أميال من المدينة.

وكانت سنته تقليد[1] الغنم دون إشعارها ، وكان إذا بعث بهديه وهو مقيم لم يحرم عليه شيء كان منه حلالا ، وكان اذا أهدى الإبل قلدها وأشعرها فيشق صفحة سنامها اليمنى يسيرا حتى يسيل منها الدم ، قال الشافعي رضي الله عنه : والإشعار في الصفحة اليمنى ، كذلك أشعر النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان إذا بعث بهديه أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم رسـوله اذا أشرف على عطب شيء منه أن ينحره ثم يصبغ نعله في دمه ثم يجعله على صفحته ولا يأكل منه هو ولا أحد من رفقته ثم يقسم لحمه ، ومنعه من هذا الأكل سدا للذريعة فإنه لعله ربما قصر في حفظه ليشارف العطب فينحره ويأكل منه فإذا علم أنه لا يأكل منـه شيئا اجتهد في حفظه ، وشرك بين أصحابه في الهدى فالبدنة عن سبع والبقرة كذلك ، وأباح لسائق الهدى ركوبه بالمعروف اذا آحتاج اليه حتى يجد ظهرا غيره ، وقال علي رضي الله عنه : يشرب من لبنها ما فضل عن ولدها . وكان هديه صلى الله عليه وسلم نحر الإبل قياما مقيدة معقولة اليسرى على ثلاث وكان يسمى الله عند نحره ويكبر وكان يذبح نسكه بيده وربما وكل في بعضه كما أمر عليا رضي الله عنه أن يذبح مابقي من المـائة ، وكان إذا نحر الغنم وضع قدمه على صفائحها ثم سمى وكبر ونحر ، وقد تقدم أنه نحر بمنى وقال : إن فجاج مكة كلها منحر ، وقال ابن عباس : مناحر البدن بمكة ولكنها نزهت عن الدماء ومنى من مكة ، وكان آبن عباس ينحر بمكة . وأباح صلى الله عليه وسلم أن يأكلوا من هداياهم وضحاياهم ويتزودوا منها ونهاهم مرة أن يدخروا منها بعد ثلاث لدافة[2] دفت عليهم ذلك العـام من الناس فأحب أن يوسعوا عليهم . وروى مسلم : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في حجة الوداع لثوبان : أصلح هذا اللحم قال : فأصلحته فلم يزل يأكل منه حتى بلغ المدينة ، وكان ربمـا قسم لحوم الهدى وربما قال : من شاء آقتطع فعل هذا وفعل هذا ، وكان من هديه صلى الله عليه وسلم ذبح هدى العمرة عند المروة وهدى القران بمنى وكذلك كان آبن عمر يفعل . ولم ينحر هديه صلى الله عليه وسلم قط إلا بعد أن

(١) وضع قلادة في عنقها ليعلم أنها هدى والإشعار : الضرب في صفحة السنام حتى يسيل منها الدم وقد تقدما . (٢) الدافة : القوم يسيرون جماعة سيرا ليس بالشديد يقال : هم يدفون دفا .

حل ولم ينحره قبل يوم النحر ولا أحد من الصحابة البتة، ولم ينحره أيضاً إلا بعد طلوع الشمس وبعد الرمى، فهى أربعة أمور مرتبة يوم النحر: أولها الرمى ثم النحر ثم الحلق ثم الطواف وهكذا رتبها صلى الله عليه وسلم ولم يرخص فى النحر قبل طلوع الشمس البتة ولا ريب أن ذلك مخالف لهديه فحكمه حكم الأضحية إذا ذبحت قبل طلوع الشمس فإنها لاتجزئ .

فقه المذاهب فى الحج

قد رأينا أن نعتمد فى نقل فقه المذاهب على ماكتبه الامام ابن رشد (المتوفى سنة ٥٩٥) فى كتابه «بداية المجتهد ونهاية المقتصد» وإن دعت الحاجة الى الرجوع لكتب المذاهب المختلفة رجعنا اليها، وسنذكر الأحكام مجردة عن الأدلة فان ماقدمنا لك من حجة الرسول فيه الأدلة الكافية لمن أرادها وإن أبيت إلا الزيادة فدونك هذا الكتاب وكتاب نيل الأوطار للعلامة الشوكانى اليمنى فانه البحر الخضم لمن رغب التوسع فى الأدلة والله يوفقنا لما فيه الخير لديننا وأمتنا .

النظر فى كتاب الحج فى ثلاثة أجناس: «الجنس الأول» يشتمل على الأشياء التى تجرى من هذه العبادة مجرى المقدمات التى تجب معرفتها لعمل هذه العبادة؛ «الجنس الثانى» فى الأشياء التى تجرى منها مجرى الأركان وهى الأمور المعمولة نفسها والأشياء المتروكة؛ «الجنس الثالث» فى الأشياء التى تجرى منها مجرى الأمور اللاحقة وهى أحكام الأفعال وذلك أن كل عبادة فإنها توجد مشتملة على هذه الثلاثة الأجناس .

الجنس الأول

هذا الجنس يشتمل على شيئين: (١) معرفة وجوب الحج وشروطه وعلى من يجب؛ (٢) معرفة متى يجب .

(١) وجوب الحج وشروطه — لا خلاف فى وجوب الحج لقوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ .

والشروط قسمان: شروط وجوب، وشروط صحة؛ فأما شروط الصحة فلا خلاف بين الأئمة أن منها الإسلام فلا يصح حج من غير مسلم. واختلفوا فى صحة وقوعه من الصبى فذهب مالك والشافعى إلى جواز ذلك ومنع منه أبو حنيفة، وكذلك آختلف أصحاب مالك فى صحة وقوعه من الطفل الرضيع وينبغى أن لا يختلف فى صحة وقوعه ممن يصح وقوع الصلاة منه وهو كما قال صلى الله عليه وسلم من السبع الى العشر.

وأما شروط الوجوب فالإسلام على القول بأن الكفار مخاطبون بفروع شريعتنا ولا خلاف فى اشتراط الاستطاعة وإن كان فى تفصيل ذلك آختلاف وهى بالجملة تتصور على نوعين: مباشرة ونيابة؛ فأما «المباشرة» فلا خلاف عندهم أن من شرطها الآستطاعة بالبدن وبالمال مع الأمن وآختلفوا فى تفصيل الاستطاعة بالبدن والمال. فقال الشافعى وأبو حنيفة وأحمد وهو قول آبن عباس وعمر بن الخطاب: إن من شرط ذلك الزاد والراحلة، وقال مالك: من آستطاع المشى فليس وجود الراحلة من شرط الوجوب فى حقه بل يجب عليه الحج وكذلك ليس الزاد عنده من شرط الاستطاعة إذا كان ممن يمكنه الاكتساب فى طريقه ولو بالسؤال. فأما وجوبه باستطاعة «النيابة» مع العجز عن المباشرة فعند مالك وأبى حنيفة أنه لا تلزم النيابة اذا آستطيعت مع العجز عن المباشرة، وعند الشافعى أنها تلزم فيلزم على مذهبه أن من لا يقدر على الحج ببدنه وعنده مال يكفى لإنابة غيره عنه فى الحج تجب عليه تلك الإنابة من ماله الخاص، وإن وجد من يحج عنه بماله وبدنه من أخ أو قريب سقط ذلك عنه، وكذلك عنده الذى يأتيه الموت ولم يحج يلزم ورثته عنده أن يخرجوا من ماله ما يحج به عنه ولا خلاف بين المسلمين أنه يقع عن الغير تطوعا. وإنما الخلاف فى وقوعه فرضا، وآختلفوا من هذا الباب فى الذى يحج عن غيره سواء أكان حيا أم ميتا هل من شرطه أن يكون قد حج عن نفسه أو لا؟ فذهب بعضهم الى أن ذلك ليس من شرطه وان كان قد أدّى الفرض عن نفسه فذلك أفضل وبه قال مالك فيمن يحج عن الميت لأن الحج عنده عن الحى لا يقع، وذهب آخرون الى أن من شرطه أن يكون قد قضى فريضة نفسه وبه قال الشافعى وغيره.

إنه إن حج عن غيره من لم يقض فرض نفســه ٱنقلب إلى فرض نفســه ، وٱختلفوا فى هذا الباب أيضا فيمن يؤاجر نفسه فى الحج فكره ذلك مالك والشافعى وقالا : إن وقع ذلك جاز ولم يجز ذلك أبو حنيفة ، وبذلك عرفت من تجب عليه هذه الفريضة وممن تقع .

وٱختلفوا من هذا الباب هل من شرط وجوب الحج على المرأة أن يكون معها زوج أو ذو محرم منها يطاوعها على الخروج معها الى السفر للحج فقال مالك والشافعى : ليس ذلك من شرط الوجوب ، وقال أبو حنيفة وأحمد وجماعة : وجود ذى المحرم ومطاوعته لها شرط فى الوجوب .

(٢) متى يجب الحج — ٱختلفوا هـل هو على الفور أو على التراخى ، والقولان منسوبان إلى مالك وأصحابه والظاهر عنـد المتأخرين من أصحابه أنها على التراخى وبالقول أنهـا على الفور قال البغداديون من أصحابه واختلف فى ذلك قول أبى حنيفة وأصحابه ، والمختار عندهم أنه على الفور وقال الشافعى : هو على التوسعة .

حكم العمرة — قيل : إنها واجبة ، وقيل : إنها سنة ، وقيل : هى تطوّع وبالأوّل قال الشافعى وأحمد وأبو عبيـد والثورى والأوزاعى وهو قول ٱبن عباس وٱبن عمر من الصحابة وجماعة من التابعين وبالسنية قال مالك وجماعة ، وبالتطوّع قال أبو حنيفة وأبو ثور وداود .

الجنس الثانى

فى أفعال هذه العبادة نوعا نوعا والتروك المشترطة فيها

هذه العبادة صنفان : حج ، وعمرة ؛ والحج ثلاثة أنواع : إفراد وتمتع وقران وكلها تشتمل على أفعـال محدودة فى أمكنة محدودة وأوقات محدودة وعلى تروك تشترط فى تلك الأفعال ، ولكل هذه أحكام محدودة إما عند الإخلال بها وإما عند الطوارئ المانعة منها فإذًا الجنس الثانى ينقسم الى الأفعال والى التروك ؛ فلنبدأ بالأفعال وهذه منها ما تشترك فيها هذه الأربعة الأنواع من النسك أعنى أنواع الحج الثلاثة والعمرة

ومنها ما يختص ببعضها فلنبدأ من القول فيها بالمشترك ثم نعقب ذلك بالخاص فنقول : إن الحج والعمرة أوّل أفعالها الفعل الذى يسمى الإحرام .

(١) الإحرام — (أ) ميقاته

الإحرام : يشترط فيه المكان والزمان أما المكان فهو ما يسمى مواقيت الحج وقد أجمع العلماء على أن المواقيت التى منها يكون الإحرام، ذو الحليفة لأهل المدينة والجحفة لأهل الشام، وقَرْن لأهل نجد، ويلملم لأهل اليمن، وآختلفوا فى ميقات أهل العراق فقال جمهور فقهاء الأمصار: ميقاتهم من ذات عرق، وقال الشافعى والثورى : إن أهلوا من العقيق كان أحب[1]، وجمهور العلماء على أن من يخطئ هذه وقصده الإحرام فلم يحرم إلا بعدها فعليه دم وهؤلاء منهم من قال : إن رجع الى الميقات فأحرم منه سقط عنه الدم ومنهم الشافعى، ومنهم من قال : لا يسقط عنه الدم وإن رجع وبه قال مالك، وقال قوم: ليس عليه دم، وقال آخرون: إن لم يرجع الى الميقات فسد حجه ويرجع الى الميقات فيهل منه بعمرة، وجمهور العلماء على أن من كان منزله دونهن فميقات إحرامه من منزله ، وآختلفوا هل الأفضل إحرام الحاج منهن أو من منزله إذا كان منزله خارجا عنهن؟ فقال قوم: الأفضل له من منزله والإحرام منها رخصة وبه قال الشافعى وأبو حنيفة والثورى وجماعة ، وقال مالك واسحاق وأحمد إحرامه من المواقيت أفضل . وآختلفوا فيمن ترك الإحرام من ميقاته وأحرم من ميقات آخر غير ميقاته مثل أن يترك أهل المدينة الإحرام من ذى الحليفة ويحرموا من الجحفة فقال قوم عليه دم وممن قال به مالك وبعض أصحابه وقال أبو حنيفة ليس عليه شيء .

ولا خلاف أنه يلزم الإحرام من مرّ بهذه المواقيت ممن أراد الحج أو العمرة وأما من لم يردهما ومرّ بهما فقال قوم: كل من مرّ بهما يلزمه الإحرام إلا من يكثر ترداده مثل الحطابين وشبههم وبه قال مالك، وقال قوم: لا يلزم الإحرام إلا لمريد الحج

(١) انظر خريطة المواقيت .

أو العمرة ، هذا كله لمن ليس من أهل مكة وأما أهل مكة فإنهم يخرجون الى الحل ويحرمون منه بالحج أو العمرة . وأما متى يحرم بالحج أهل مكة فقيل : إذا رأوا الهلال وقيل : إذا خرج الناس إلى منى فهذا هو ميقات المكان المشترط لأنواع هذه العبادة . وميقات الزمان محدود أيضا فى أنواع الحج الثلاثة وهو شوّال وذو القعدة وتسع من ذى الحجة باتفاق ، وقال مالك : ثلاثة الأشهر كلها محل للحج ، وقال الشافعى : الشهران وتسع من ذى الحجة ، وقال أبو حنيفة : وعشر من ذى الحجة ؛ وفائدة الخلاف تأخر طواف الإفاضة الى آخر الشهر ، فإن أحرم بالحج قبل أشهره كرهه مالك وصح إحرامه عنده ، وقال غيره : لا يصح إحرامه ، وقال الشافعى : ينعقد إحرامه إحرام عمرة . وأما العمرة فٱتفقوا على جوازها فى كل أوقات السنة ، وقال أبو حنيفة : تجوز فى كل السنة إلا يوم عرفة ويوم النحر وأيام التشريق فإنها تكره . وٱختلفوا فى تكريرها فى السنة الواحدة فكان مالك يستحب عمرة فى كل سنة ويكره تكرارها فى السنة الواحدة وقال الشافعى وأبو حنيفة : لا كراهة فى ذلك .

فهذا هو القول فى شروط الإحرام الزمانية والمكانية .

(ب) محظورات الإحرام

ٱتفق العلماء على أن المحرم لا يلبس قميصا ولا سِرْوالا (لباسا) ولا بُرْنُسا (قلنسوة طويلة) ولا خفا ولا ثوبا مسه الزعفران أو الوَرْس (نبت أصفر يمنى) ولا ما كان فى معنى ذلك من مخيط الثياب وأن هذا مخصوص بالرجال فلا بأس بأن تلبس المرأة القميص والسراويل والخفاف والخمر . وٱختلفوا فيمن لم يجد غير السراويل هل له لباسها ؟ فقال مالك وأبو حنيفة : لا يجوز له ذلك وإن لبسها ٱفتدى ، وقال الشافعى والثورى وأحمد وأبو داود وأبو ثور : لا شيء عليه إذا لم يجد إزارا وجمهور العلماء على إجازة لبس الخفين مقطوعين لمن لم يجد النعلين وقال أحمد : يجوز لمن لم يجد النعلين أن يلبس الخفين غير مقطوعين ، قال عطاء : فى قطعهما فساد والله لا يحب الفساد ، وٱختلفوا فيمن لبسهما مقطوعين مع وجود النعلين فقال مالك : عليه الفدية وبه

قال أبو ثور ، وقال أبو حنيفة : لا فدية عليه ، والقولان عن الشافعى . وٱختلفوا فى المعصفر فقال مالك : لا بأس به فانه ليس بطيب ، وقال أبو حنيفة والثورى : هو طيب وفيه الفدية وأجمعوا على أن إحرام المرأة فى وجهها وأن لها أن تغطى رأسها وتستر شعرها وأن لهاأن تسدل ثوبها على وجهها من فوق رأسها سدلا خفيفا تستتر به من نظر الرجال إليها . واختلفوا فى تخمير المحرم وجهه بعد إجماعهم على أنه لا يخمر رأسه ، فروى مالك عن ابن عمر أن ما فوق الذقن من الرأس لايخمره المحرم واليه ذهب مالك ، وروى عنه أنه إن فعل ذلك ولم ينزعه مكانه ٱفتدى ، وقال الشافعى والثورى وأحمد وداود وأبو ثور: يخمر المحرم وجهه إلى الحاجبين . واختلفوا فى لبس القُفَّازين للمرأة فقال مالك : إن لبستهما ٱفتدت ، ورخص فيه الثورى وهو مروىّ عن عائشة .

وأجمع العلماء على أن الطيب كله يحرم على المحرم بالحج أو العمرة فى حال إحرامه ، واختلفوا فى جوازه للمحرم عند الإحرام قبل أن يحرم لما يبقى من أثره عليه بعد الإحرام فكرهه قوم وأجازه آخرون ، وممن كرهه مالك ورواه عن عمر بن الخطاب وهو قول عثمان وابن عمر وجماعة من التابعين ، وممن أجازه أبو حنيفة والشافعى والثورى وأحمد وداود .

وأجمع المسلمون على أن وطء النساء على الحاج حرام من حين يحرم لقوله تعالى ﴿ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ ﴾ .

واتفقوا على أن المحرم لا يلق تفثه ولا يزيل شعره ولا يقتل القمل ،وأجمعوا على أنه يجوز له غسل رأسه من الجنابة ، واختلفوا فى كراهية غسله من غير الجنابة فقال الجمهور: لا بأس بغسله رأسه ، وقال مالك : بكراهية ذلك واتفقوا على منع غسل رأسه بالخطمى ، وقال مالك وأبو حنيفة : إن فعل ذلك ٱفتدى وقال أبو ثور وغيره : لا شىء عليه . واختلفوا فى دخوله الحمام فكان مالك يكره ذلك ويرى أن على من دخله الفدية وقال أبو حنيفة والشافعى والثورى وداود : لا بأس بذلك .

ومن محظورات الإحرام الاصطياد وذلك مجمع دليـه لقوله تعالى ﴿ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ﴾ وقوله تعالى ﴿ لَا تَقْتُلُوا ٱلصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ﴾ وقد أجمعوا على أنه لا يجوز له صيده ولا أكل ما صاد هو منه ، واختلفوا إذا صاده حلال هل يجوز للمحرم أكله ؟ على ثلاثة أقوال : قول أنه يجوز له أكله على الإطلاق وبه قال أبو حنيفة وهو قول عمر بن الخطاب والزبير ، وقال قوم : هو محرّم عليه على كل حال وهو قول ابن عباس وعليّ وبه قال الثورى ، وقال مالك : ما لم يصد من أجل المحرم أو من أجل قوم محرمين فهو حلال ، وما صيد من أجل محرم فهو حرام على المحرم . واختلفوا فى المضطر هل يأكل الميتة أو يصيد فى الحرم ؟ فقال مالك وأبو حنيفة والثورى وزُفَر وجماعة : إذا اضطر أكل الميتة ولحم الخنزير دون الصيد ، وقال أبو يوسف : يصيد ويأكل وعليه الجزاء ؛ فهذه الخمسة اتفق المسلمون على أنها من محظورات الإحرام . واختلفوا فى نكاح المحرم فقال مالك والشافعى والليث والأوزاعى : لا ينكح المحرم ولا يُنكح فان نكح فالنكاح باطل وهو قول عمر وعليّ بن أبى طالب وابن عمر وزيد بن ثابت ، وقال أبو حنيفة والثورى : لا بأس بأن ينكح المحرم ويُنكح .

(ج) أنواع الإحرام

المحرم إما محرم بعمرة مفردة أو محرم بحج مفرد أو جامع بين الحج والعمرة وهذان ضربان إما متمتع وإما قارن . ولما كان الإفراد هو التعرى عن صفات التمتع والقران وجب أن نبدأ أولا بصفة التمتع ثم نردف ذلك بصفة القران ، اتفق العلماء على أن هذا النوع من النسك المعنى بقوله سبحانه ﴿ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ﴾ هو أن يهل الرجل بالعمرة فى أشهر الحج من الميقات إن كان مسكنه خارجا عن الحرم ثم يأتى حتى يصل البيت فيطوف لعمرته ويسعى ويحلق فى تلك الأشهر بعينها ثم يحل بمكة ثم ينشئ الحج فى ذلك العام نفسه وفى تلك الأشهر نفسها من غير أن ينصرف إلى بلده إلا ما روى عن الحسن أنه كان يقول : هو متمتع وإن عاد إلى بلده ولم يحج فعليه الهدى وكان يقول : عمرة فى أشهر الحج متعة وقال طاوس : من اعتمر فى غير أشهر الحج ثم أقام حتى يحج

وحج من عامه إنه متمتع ، وقد اتفق العلمـاء على أن من لم يكن من حاضرى المسجد الحرام فهو متمتع وٱختلفوا فى المكىّ هل يقع منه التمتع أو لا ؟ والقائلون بوقوعه منه ٱتفقوا على أنه ليس عليـه دم لقوله تعالى ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ . وٱختلفوا فيمن هو حاضر بالمسجد الحرام ممن ليس هوكذلك فقال مالك : حاضرو المسجد الحرام هم أهل مكة وذى طوى وما كان مثل ذلك من مكة ، وقال أبو حنيفة : هم أهل المواقيت فمن دونهم إلى مكة وقال الشافعى بمصر : من كان بينه و بين مكة ليلتان وهو أقرب المواقيت ، وقال أهل الظاهر : من كان ساكن الحرم ، وقال الثورى : هم أهل مكة فقط ، وأبو حنيفة يقول إن حاضرى المسجد الحرام لا يقع منهم التمتع .

وهنا نوعان من التمتع ٱختلف العلمـاء فيهما ، أحدهما فسخ الحج فى عمرة وهو تحويل النية من الإحرام بالحج إلى العمرة ، فجمهور العلماء يكرهون ذلك من الصدر الأول وفقهاء الأمصار ، وذهب ٱبن عباس إلى جواز ذلك و به قال أحمد وداود . وأما النوع الثانى من التمتع فهو ما كان يذهب اليه ٱبن الزبير أن التمتع الذى ذكره الله هو تمتع المحصر بمرض أو عدوّ وذلك إذا خرج الرجل حاجا فحبسه عدو أو أمر تعذر به عليه الحج حتى تذهب أيام الحج فيأتى البيت فيطوف و يسعى بين الصفا والمروة ، ويحل ثم يتمتع محله الى العام المقبل ثم يحج ويهدى ، وعلى هذا القول لا يكون التمتع المشهور إجماعا ، وشذ طاوس أيضا فقـال : إن المكى إذا تمتع من بلد غير مكة كان عليه الهدى . واختلف العلماء فيمن أنشأ عمرة فى غير أشهر الحج ثم عملها فى أشهر الحج ثم حج عامه ذلك فقال مالك : عمرته فى الشهر الذى حل فيه فإن كان حل فى أشهر الحج فهو متمتع وإن كان حل فى غير أشهر الحج فليس بمتمتع ، وبقريب منه قال أبو حنيفة والشافعى والثورى إلا أن الثورى اشترط أن يوقع طوافه كله فى شوّال وبه قال الشافعى ، وقال أبو حنيفة : إن طاف ثلاثة أشواط فى رمضان وأربعـة فى شوّال كان متمتعا وإن لا فلا ، وقال أبو ثور : إذا دخل فى العمرة فى غير أشهر الحج فسواء طاف لها فى أشهر الحج أو فى غيرها لا يكون متمتعا .

وشروط التمتع عند مالك ستة : (١) أن يجمع بين العمرة والحج فى شهر واحد ؛ (٢) أن يكون ذلك فى عام واحد ؛ (٣) أن يفعل شيئا من العمرة فى أشهر الحج ؛ (٤) أن يقــدّم العمرة على الحج ؛ (٥) أن ينشئ الحج بعد الفراغ من العمرة وإحلاله منها ؛ (٦) أن يكون وطنه غير مكة .

والقران أن يهل بالنسكين معا أو يهل بالعمرة فى أشهر الحج ثم يردف ذلك بالحج قبل أن يحل من العمرة . واختلف أصحاب مالك فى الوقت الذى يكون ذلك له فيه فقيل ذلك له ما لم يشرع فى الطواف ولو شوطا واحدا وقيل : ما لم يطف ويركع . ويكره بعد الطواف وقبل الركوع فان فعل لزمه وقيل : له ذلك ما بقى عليه شىء من أعمال العمرة من طواف أو سعى إلا الحلق فانه بالاتفاق إذا أهل بالحج قبله فقط لا يكون قارنا والقارن الذى يلزمه هدى التمتع هو عند الجمهور من غير حاضرى المسجد الحرام إلا ابن الماجُشُون من أصحاب مالك ، فان القارن من أهل مكة عنده عليه الهدى .

والإفراد ماعرى عن الصفات السابقة وهو أن لا يكون متمتعا ولا قارنا بل أن يهل بالحج فقط . واختلف العلماء أىّ الثلاثة أفضل الإفراد أو التمتع أو القران (انظر أدلة ذلك ص ٢٧٠ جزء أول بداية وانظر ص ١٨٣ من زاد المعاد أول وتواليها) .

(د) صـــفة الإحرام

اتفق جمهور العلمــاء على أن الغسل للإهلال ســنة وأنه من أفعال المحرم حتى قال ابن نوار : إن هــذا الغسل للإهلال عنــد مالك أوكد من غسل الجمعة ، وقال أهل الظاهر : هو واجب ، وقال أبو حنيفة والثورى يجزى عنــه الوضوء . واتفقوا على أن الإحرام لا يكون إلا بنيــة ، واختلفوا هل تجزئ النية فيــه من غير التلبية فقــال مالك والشافعى : تجزئ النية من غير تلبية ، وقال أبو حنيفة : التلبية فى الحج كالتكبيرة فى الإحرام بالصــلاة إلا أنه يجزئ عنــده كل لفظ يقوم مقام التلبيــة كما يجزئ عنده فى افتتاح الصلاة كل لفظ يقوم مقام التكبير وهو كل ما يدل

على التعظيم . وٱتفق العلماء على أن تلبية رسول الله صلى الله عليه وسلم : لبيك اللهم لبيك . لبيك لا شريك لك لبيك . إن الحمد والنعمة لك والملك . لا شريك لك ، وٱختلفوا هل هى واجبة بهـذا اللفظ فقال أهل الظاهر : هى واجبة بهـذا اللفظ ولا خلاف عنـد الجمهور فى ٱستحباب هذا اللفظ وإنما ٱختلفوا فى الزيادة عليه أو فى تبديله ، وأوجب أهل الظاهر رفع الصوت بالتلبية وهو مستحب عند الجمهور . وأجمع أهل العلم على أن تلبية المرأة فيما حكاه أبو عمر هو أن تسمع نفسها بالقول . وقال مالك : لا يرفع المحرم صوته فى مساجد الجمـاعة بل يكفيه أن يسمع من يليه إلا فى المسجد الحرام ومسجد مِنًى فإنه يرفع صوته فيهـما . وٱستحب الجمهور رفع الصوت عند التقاء الرفاق وعند الإطلال على شرف من الأرض . وكان مالك لا يرى التلبية من أركان الحج ويرى على تاركها دما وكان غيره يراها من أركانه . وٱستحب العلماء أن يكون ٱبتداء المحرم بالتلبية بأثر صلاة يصليها ، وكان مالك يستحب ذلك بأثر نافلة . وٱختلفت الآثار فى الموضع الذى أحرم منه رسول الله صلى الله عليه وسلم بحجته من أقطار ذى الحليفة فقال قوم : من مسجد ذى الحليفة بعد أن صلى فيه وقال آخرون : إنما أحرم حين أطل على البيداء وقال قوم : إنما أهل حين ٱستوت به راحلته ، وسئل ٱبن عباس عن ٱختلافهم فى ذلك فقال : كل حدث لا عن أوّل إهلاله صلى الله عليه وسلم بل عن أوّل إهلال سمعه ، وذلك لان الناس يأتون متسابقين فعلى هذا لا ٱختلاف . وأجمع فقهاء الأمصار على أن المكىّ لا يلزمه الإهلال حتى يخرج الى منى ليتصل له عمل الحج ، وروى مالك أن عمر بن الخطاب كان يأمر أهل مكة أن يهلوا إذا رأوا الهلال ، ولاخلاف عندهم أن المكىّ لا يهل إلا من جوف مكة إذا كان حاجا وأما إذا كان معتمرا فإنهم أجمعوا على أنه يلزمه أن يخرج الى الحل ثم يحرم منه ليجمع بين الحل والحرم كما يجمع الحاج لأنه يخرج إلى عرفة وهى حل ، وٱختلفوا إن لم يفعل فقال قوم : يجزيه وعليه دم وبه قال أبو حنيفة وٱبن القاسم وقال آخرون : لايجزيه وهو قول الثورى واشهب . وٱختلفوا متى تقطع التلبية؟ فقال مالك : تقطع بزوال الشمس من يوم عرفة وبه قال الخلفاء الأربعـة غير أنه اختلف عن عثمان ،

وقال جمهور فقهاء الأمصار وأهــل الحديث : تقطع برمى جمرة العقبة فإذا رمى آخر حصاة قطع التلبية وقيل : بل يقطعها فى أوّل حصاة يلقيها وقيل : غير ذلك ، أما وقت قطع التلبية بالعمرة فقال أبو حنيفــة ومالك : يقطعها إذا آنتهى إلى الحرم ، وقال الشافعى : إذا آفتتح الطواف .

وجمهور العلماء متفقون على إدخال الحج على العمرة ويختلفون فى إدخال العمرة على الحج ، وقال أبو ثور : لا يدخل حج على عمرة ولا عمرة على حج كما لا تدخل صلاة على صلاة . وإلى هنــا فرغنا من الكلام على أوّل عمل يأتى به المحرم وهو الإحرام وأما الفعل الذى بعد هذا فهو الطواف إذا دخل مكة .

(٢) الطواف بالبيت

الكلام فى الطواف : (١) فى صفته ؛ (٢) وشروطه ؛ (٣) وأنواعه وحكمه :

(١) صفة الطواف — الجمهور مجمعون على أن صفة كل طواف واجبا كان أو غير واجب أن يبتدأ من الحَجَر الأســود فإن آستطاع أن يقبله قبله أو يلمسه بيده ويقبلها إن أمكنه ثم يجعل البيت على يساره ويمضى على يمينه فيطوف سبعة أشواط يرمل فى الثلاثة الأشواط الأول ثم يمشى فى الأربعــة وذلك فى طواف القدوم على مكة وذلك للحاج والمعتمر دون المتمتع وأنه لا رمل على النساء ، ويستلم الركن اليمانى وهو الذى على قطر الركن الأسود . وآختلفوا فى حكم الرمل فى الثلاثة الأشواط الأول للقادم هل هو ســنة أو فضيلة ؟ فقال ابن عباس : هو ســنة ، وبه قال الشافعى وأبو حنيفة وإسحاق وأحمد وأبو ثور ، وآختلف قول مالك فى ذلك وأصحابه ؛ ومن جعله سنة أوجب فى تركه الدم ، ومن جعله فضيلة لم يوجب فى تركه شيئا ، وعلى أصول الظاهرية يجب الرمل لقوله صلى الله عليه وســلم " خذوا عنى مناسككم " وأجمعوا على أنه لا رمل على من أحرم بالحج من مكة من غير أهلها وهم المتمتعون لأنهم قد رملوا فى حين دخولهم حين طافوا للقدوم ، وآختلفوا فى أهل مكة هل عليهم رمل إذا حجوا؟ فقال الشافعى : كل طواف قبل عرفة مما يوصل بينه وبين السعى فإنه يرمل

فيه، وكان مالك يستحب ذلك، وكان ابن عمر لا يرى عليهم رملا إذا طافوا بالبيت على ما روى عنه مالك . واتفقوا على أن من سنة الطواف استلام الركنين الأسود واليمانى للرجال دون النساء، واختلفوا هل تستلم الاركان كلها أم لا؟ فذهب الجمهور إلى أنه إنما يستلم الركنان فقط، واحتج من رأى استلام جميعها بما روى عن جابر، قال: كنا نرى إذا طفنا أن نستلم الأركان كلها، وكان بعض السلف لا يحب أن يستلم الركنين إلا فى الوتر من الأشواط . وكذلك أجمعوا على أن تقبيل الحجَر الأسود خاصة من سنن الطواف إن قدر وإن لم يقدر على الدخول اليه قبل يده . وأجمعوا على أن من سنة الطواف ركعتين بعد انقضاء الطواف وجمهورهم على أنه يأتى بهما الطائف عند انقضاء كل أسبوع إن طاف أكثر من أسبوع واحد، وأجاز بعض السلف أن لا يفرق بين الأسابيع بالركعتين بل يركع لكل أسبوع ركعتين .

(٢) شروط الطواف — (الشرط الأول) أن يكون فى موضعه، وجمهور العلماء على أن الحِجْر من البيت وأن من طاف بالبيت لزمه إدخال الحجر فيه وأنه شرط فى صحة طواف الإفاضة، وقال أبو حنيفة وأصحابه : هو سنة . (الشرط الثانى) أن يكون فى وقته واختلفوا فى وقت جوازه على ثلاثة أقوال : أحدها إجازة الطواف بعد الصبح والعصر ومنعه وقت الطلوع والغروب وهو مذهب عمر بن الخطاب وأبى سعيد الخدرى وبه قال مالك وأصحابه وجماعة، والقول الثانى : كراهيته بعد الصبح والعصر ومنعه عند الطلوع والغروب وبه قال سعيد ابن جبير ومجاهد وجماعة، القول الثالث : إباحة ذلك فى هذه الأوقات كلها وبه قال الشافعى وجماعة . (الشرط الثالث) الطهارة . قال مالك والشافعى : لا يجزى طواف بغير طهارة لا عمدا ولا سهوا، وقال أبو حنيفة : يجزى ويستحب له الإعادة وعليه دم، وقال أبو ثور : إذا طاف على غير وضوء أجزأه طوافه إن كان لا يعلم ولا يجزئه إن كان يعلم، والشافعى يشترط طهارة ثوب الطائف كاشتراط ذلك للمصلى .

(٣) أنواع الطواف — أجمع العلماء على أن الطواف ثلاثة أنواع، طواف القدوم على مكة، وطواف الإفاضة بعد رمى جمرة العقبة يوم النحر، وطواف الوداع،

وأجمعوا على أن الواجب منها الذى يفوت الحج بفواته هو طواف الإفاضة وأنه المعنى بقوله تعالى ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ وأنه لا يجزئ عنه دم ، وجمهورهم على أنه لا يجزئ طواف القدوم على مكة عن طواف الإفاضة إذا نسى طواف الإفاضة لكونه قبل يوم النحر، وقالت طائفة من أصحاب مالك : إن طواف القدوم يجزئ عن طواف الإفاضة كأنهم رأوا أن الواجب هو طواف واحد،وجمهور العلماء على أن طواف الوداع يجزئ عن طواف الإفاضة إن لم يكن طاف طواف الإفاضة لأنه طواف بالبيت معمول فى وقت طواف الوجوب الذى هو طواف الإفاضة ، وأجمعوا فيما حكاه أبو عمر بن عبد البر أن طواف القدوم والوداع من سنة الحاج إلا لخائف فوات الحج فإنه يجزئ عنه طواف الإفاضة،واستحب جماعة من العلماء لمن عرض له هذا أن يرمل فى الأشواط الثلاثة من طواف الإفاضة على سنة طواف القدوم من الرمل، وأجمعوا على أن المكىّ ليس عليه إلا طواف الإفاضة كما أجمعوا أنه ليس على المعتمر الا طواف القدوم، وأجمعوا أن من تمتع بالعمرة إلى الحج عليه طوافان طواف للعمرة لحله منها وطواف للحج يوم النحر، وأما المفرد للحج فليس عليه إلا طواف واحد كما قلنا يوم النحر، واختلفوا فى القارن فقال مالك والشافعى وأحمد وأبو ثور : يجزئ القارن طواف واحد وسعي واحد، وقال الثورى والأوزاعى وأبو حنيفة وابن أبى ليلى : على القارن طوافان وسعيان .

(٣) السعى بين الصفا والمروة

القول فيه فى : (١) حكمه؛ (٢) صفته؛ (٣) شروطه؛ (٤) ترتيبه .

(١) حكم السعى — قال مالك والشافعى : إنه واجب وإن لم يسع كان عليه حج قابل وبه قال أحمد وإسحاق، وقال الكوفيون : هو سنة وإذا رجع إلى بلاده ولم يسع كان عليه دم، وقال بعضهم : هو تطوع ولا شىء على تاركه .

(٢) صفته — جمهور العلماء : على أن من سنة السعى بين الصفا والمروة أن ينحدر الراقى على الصفا بعد الفراغ من الدعاء فيمشى على عادته حتى يبلغ بطن

المسيل فيرمل فيه حتى يقطعه إلى ما يلى المروة فإذا قطع ذلك وجاوزه مشى على سجيته حتى يأتى المروة فيرقى عليها حتى يبدو له البيت ثم يقول عليها نحوا مما قال من الدعاء والتكبير على الصفا وإن وقف أسفل المروة أجزأه عند جميعهم ثم ينزل عن المروة فيمشى على طبيعته حتى ينتهى إلى بطن المسيل فإذا انتهى اليه رمل حتى يقطعه إلى الجانب الذى يلى الصفا يفعل ذلك سبع مرات يبدأ فى كل ذلك بالصفا ويختم بالمروة ، فإن بدأ بالمروة قبل الصفا ألغى ذلك الشوط ، وقال عطاء إن جهل فبدأ بالمروة أجزأ عنه . وأجمعوا على أنه ليس فى وقت السعى قول محدود فإنه موضع دعاء، وثبت من حديث جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا وقف على الصفا يكبر ثلاثا ويقول : لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ويدعو ويصنع على المروة مثل ذلك .

(٣) شروطه — اتفقوا على أن من شرطه الطهارة من الحيض كالطواف ، ولا خلاف بينهم أن الطهارة ليست من شرطه إلا الحسن فانه شبهه بالطواف .

(٤) ترتيبه — جمهور العلماء : على أن السعى إنما يكون بعد الطواف، وأن من سعى قبل أن يطوف بالبيت يرجع فيطوف ويسعى وإن خرج من مكة، فإن جهل ذلك حتى أصاب النساء فى العمرة أو فى الحج كان عليه حج قابل والهدى أو عمرة أخرى ، وقال الثورى : إن فعل ذلك فلا شىء عليه وقال أبو حنيفة : اذا خرج من مكة فليس عليه أن يعود وعليه دم .

الخروج الى عرفة — يلى السعى الخروج يوم التروية (الثامن من ذى الحجة) إلى منى والمبيت بها ليلة عرفة ، واتفقوا على أن الإمام يصلى بالناس بمنى يوم التروية الظهر والعصر والمغرب والعشاء قاصرا الرباعية إلا أنهم أجمعوا على أن هذا الفعل ليس شرطا فى صحة الحج لمن ضاق عليه الوقت ثم إذا كان يوم عرفة صلى الإمام بالناس صلاة الصبح ومشى معهم بعد شروق الشمس من منى إلى عرفة ووقفوا بها بعد الزوال .

(٤) الوقوف بعرفة

القول فى هـذا الفعل ينحصر : (١) فى معرفة حكمه ؛ (٢) وفى صفته ؛ (٣) وفى شروطه .

(١) حكم الوقوف — أجمعوا على أن الوقوف ركن من أركان الحج وأن من فاته فعليه حج قابل والهدى فى قول أكثرهم لقوله صلى الله عليه وسلم "الحج عرفة" .

(٢) صفته — صفته أن يصل الإمام إلى عرفة يوم عرفة قبل الزوال فإذا زالت الشمس خطب الناس ثم جمع بين الظهر والعصر فى أول وقت الظهر ثم وقف حتى تغيب الشمس ، وإنما اتفقوا على هذا لأن هذه الصفة مجمع عليها من فعله صلى الله عليه وسلم ، ولا خلاف بينهم أن إقامة الحج هى للسلطان الأعظم أو لمن يقيمه السلطان الأعظم لذلك وأنه يصلى وراءه برا كان السلطان أوفاجرا أو مبتدعا ، وأن السنة فى ذلك أن يأتى المسجد بعرفة يوم عرفة مع الناس فإذا زالت الشمس خطب الناس كما قلنا وجمع بين الظهر والعصر . واختلفوا فى وقت أذان المؤذن بعرفة للظهر والعصر ، فقال مالك : يخطب الامام حتى يمضى صدر من خطبته أو بعضها ثم يؤذن المؤذن وهو يخطب وقال الشافعى : يؤذن إذا أخذ الامام فى الخطبة الثانية وقال أبو حنيفة : إذا صعد الامام المنبر أمر المؤذن بالأذان كالحال فى الجمعة فإذا فرغ المؤذن قام الإمام يخطب ثم ينزل ويقيم المؤذن الصلاة وبه قال أبو ثور تشبيها بالجمعة ، وقد حكى ابن نافع عن مالك أنه قال : الأذان بعرفة بعد جلوس الإمام للخطبة ، وفى حديث جابر أن النبى صلى الله عليه وسلم لما زاغت الشمس أمر بالقصواء فرحلت له وأتى بطن الوادى فخطب الناس ثم أذن بلال ثم أقام فصلى الظهر ثم أقام فصلى العصر ولم يصل بينهما شيئا ثم راح إلى الموقف . واختلفوا هل يجمع بين هاتين الصلاتين بأذانين وإقامتين أو بأذان واحد وإقامتين؟ قال مالك : بالأول ، وروى عن أحمد ، وقال أبو حنيفة والشافعى والثورى وأبو ثور وجماعة : بالثانى . واتفقوا على أن الخطبة فى هـذا اليوم ليست بشرط للصلاة كالجمعة وأن القراءة فى الصلاة

سر . واتفقوا على أن الصلاة مقصورة اذا كان الامام مسافرا، واختلفوا إذا كان الإمام مكيا هل يقصر بمنى الصلاة يوم التروية وبعرفة يوم عرفة وبالمزدلفة ليلة النحر إن كان من أحد هذه المواضع ؟ فقال مالك والأوزاعى وجماعة : سنة هذه المواضع التقصير سواء أكان من أهلها أم لم يكن، وقال الثورى وأبو حنيفة والشافعى وأبو ثور وداود : لا يجوز أن يقصر من كان من أهل تلك المواضع . واختلف العلماء فى وجوب الجمعة بعرفة ومنى فقال مالك : لا تجب الجمعة بعرفة ولا بمنى أيام الحج، لا على أهل مكة ولا على غيرهم الا أن يكون الإمام من أهل عرفة، وقال الشافعى مثل ذلك إلا أنه يشترط فى وجوب الجمعة أن يكون هنا لك من أهل عرفة أربعون رجلا على مذهبه فى اشتراط هذا العدد فى الجمعة، وقال أبو حنيفة : إذا كان أمير الحج ممن لا يقصر بمنى ولا بعرفة صلى بهم فيها الجمعة إذا صادفها، وقال أحمد : إذا كان والى مكة يجمع وبه قال أبو ثور .

(٣) شروطه — يشترط فى الوقوف بعرفة أن يكون بعد الزوال ويسنّ له أن يمدّه إلى غروب الشمس وأجمعوا على أن من وقف بعرفة قبل الزوال وأفاض منها قبل الزوال أنه لا يعتدّ بوقوفه وأنه إن لم يرجع فيقف بعد الزوال أو يقف من ليلته تلك قبل طلوع الفجر فقد فاته الحج، واختلفوا فيمن وقف بعرفة بعد الزوال ثم دفع منها قبل غروب الشمس فقال مالك : عليه حج قابل إلا أن يرجع ويدفع قبل الفجر، وإن دفع منها قبل الإمام وبعد الغيبوبة أجزأه، وبالجملة فشرط صحة الوقوف عنده أن يقف ليلا وقال جمهور العلماء : من وقف بعرفة بعد الزوال فحجه تام وإن دفع قبل الغروب، إلا أنهم اختلفوا فى وجوب الدم عليه . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم من طرق أنه قال : عرفة كلها موقف وارتفعوا عن بطن عرنة . والمزدلفة كلها موقف إلا بطن محسِّر، ومنى كلها منحر، وفجاج مكة منحر ومبيت، واختلف العلماء فيمن وقف من عرفة بعرنة فقيل : حجه تام وعليه دم وبه قال مالك، وقال الشافعى : لا حج له، ويلى الوقوف بعرفة من أفعال الحج النهوض إلى المزدلفة بعد الغروب وما يعمل بها .

(٥) أفعال المزدلفة

قال تعالى ﴿ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ(١) الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ ﴾ أجمع العلماء على أن من بات بالمزدلفة ليلة النحر وجمع فيها بين المغرب والعشاء مع الإمام ووقف بعد صلاة الصبح إلى الإسفار بعد الوقوف بعرفة فإن حجه تام، وذلك أنها الصفة التى فعلها صلى الله عليه وسلم. واختلفوا هل الوقوف بها بعد صلاة الصبح والمبيت بها من سنن الحج أو من فروضه؟ فقال الأوزاعى وجماعة من التابعين: هو من فروض الحج ومن فاته كان عليه حج قابل والهدى، وفقهاء الأمصار يرون أنه ليس من فروض الحج، وأن من فاته الوقوف بمزدلفة والمبيت بها فعليه دم وقال الشافعى: إن دفع منها بعد نصف الليل الأول ولم يصل بها فعليه دم، وقد أجمعوا على أنه لو وقف بالمزدلفة ولم يذكر الله فإن حجه تام، والمزدلفة وجَمْع اسمان لموضع يبيت الحجاج به ويجمعون بين المغرب والعشاء فى أول وقت العشاء ويغلّسون بالصبح فيها.

(٦) رمى الجمار

الفعل الذى يلى المبيت بمزدلفة والوقوف بها رمى الجمار وذلك أن المسلمين اتفقوا على أن النبى صلى الله عليه وسلم وقف بالمشعر الحرام وهو المزدلفة بعد ما صلى الفجر ثم دفع منها قبل طلوع الشمس إلى منى، وأنه فى هذا اليوم وهو يوم النحر رمى جمرة العقبة بعد طلوع الشمس، وأجمع المسلمون أن من رماها فى هذا اليوم فى ذلك الوقت أعنى بعد طلوع الشمس إلى زوالها فقد رماها فى وقتها، وأجمعوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يرم يوم النحر من الجمرات غيرها، واختلفوا فيمن رمى جمرة العقبة قبل طلوع الفجر فقال مالك: لم يبلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رخص لأحد أن يرمى قبل طلوع الفجر ولا يجوز ذلك، فإن رماها قبل الفجر أعادها وبه قال أبو حنيفة وسفيان وأحمد، وقال الشافعى: لا بأس به وإن كان المستحب هو بعد طلوع الشمس، وقد أجمع العلماء على أن الوقت المستحب لرمى جمرة العقبة

(١) المزدلفة.

هو من لدن طلوع الشمس إلى وقت الزوال وأنه إن رماها قبل غروب الشمس من يوم النحر أجزأه ولا شيء عليه إلا مالكا فإنه قال : آستحب له أن يريق دما ، وآختلفوا فيمن لم يرمها حتى غابت الشمس فرماها من الليل أو من الغد فقال مالك : عليه دم ، وقال أبو حنيفة : إن رماها من الليل فلا شيء عليه وإن أخرها الى الغد فعليه دم ، وقال أبو يوسف ومحمد والشافعى : لا شيء عليه إن أخرها إلى الليل أو إلى الغد . وقد ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رمى فى حجته الجمرة يوم النحر ثم نحر بدنة ثم حلق رأسه ثم طاف طواف الإفاضة ، وأجمع العلماء على أن هذا سنة الحج وآختلفوا فيمن قدم من هذه ما أخره النبى صلى الله عليه وسلم أو بالعكس فقال مالك : من حلق قبل أن يرمى جمرة العقبة فعليه الفدية ، وقال الشافعى وأحمد وأبو داود وأبو ثور : لا شيء عليه ، وعند مالك أن من حلق قبل أن يذبح فلا شيء عليه وكذلك إن ذبح قبل أن يرمى ، وقال أبو حنيفة : إن حلق قبل أن ينحر أو يرمى فعليه دم ، وإن كان قارنا فعليه دمان ، وقال زفر : عليه ثلاثة دماء ، دم للقران ، ودمان للحلق قبل النحر وقبل الرمى ، وأجمعوا على أن من نحر قبل أن يرمى فلا شيء عليه لأنه منصوص عليه .

ومن قدّم الإفاضة على الرمى والحلق لزمه إعادة الطواف ، وقال الشافعى : ومن تابعه لا إعادة عليه ، وقال الأوزاعى : إذا طاف للإفاضة قبل أن يرمى جمرة العقبة ثم واقع أهله أراق دما . وآتفقوا على أن جملة ما يرميه الحاج سبعون حصاة يرمى منها فى يوم النحر جمرة العقبة بسبع ، وإن رمى هذه الجمرة من حيث تيسر من العقبة من أسفلها أو من أعلاها أو من وسطها كل ذلك واسع والموضع المختار منها بطن الوادى . وأجمعوا على أنه يعيد الرمى إذا لم تقع الحصاة فى العقبة وأنه يرمى فى كل يوم من أيام التشريق ثلاث جمار بواحد وعشرين حصاة كل جمرة منها بسبع وأنه يجوز أن يرمى منها يومين وينفر فى الثالث لقوله تعالى ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ .

وقدر الحصاة عندهم أن تكون فى مثل حصى الخذف . والسنة عندهم فى رمى الجمرات كل يوم من أيام التشريق أن يرمى الجمرة الأولى فيقف عندها ويدعو وكذلك

الثانية ويطيل المقام ثم يرمى الثالثة ولا يقف . وأجمعوا على أن من سنة رمى الجمار الثلاث فى أيام التشريق أن يكون ذلك بعد الزوال، واختلفوا إذا رماها قبل الزوال فى أيام التشريق فقال جمهور العلماء : يعيد رميها بعد الزوال، وروى عن أبى جعفر محمد بن على أنه قال : رمى الجمار من طلوع الشمس إلى غروبها . وأجمعوا على أن من لم يرم الجمار أيام التشريق حتى تغيب الشمس عن آخرها فإنه لا يرميها بعد . واختلفوا فى الواجب من الكفارة فقال مالك : إن ترك رمى الجمار كلها أو بعضها أو واحدة منها فعليه دم وقال أبو حنيفة : إن ترك الجمار كلها كان عليه دم وإن ترك جمرة واحدة فصاعدا كان عليه لكل جمرة إطعام مسكين نصف صاع حنطة إلى أن يبلغ دما بترك الجميع إلا جمرة العقبة فمن تركها فعليه دم، وقال الشافعى : عليه فى الحصاة مدّ من طعام وفى حصاتين مدّان وفى ثلاث دم، وقال الثورى مثله إلا أنه قال : فى الرابعة الدم، ورخصت طائفة من التابعين فى الحصاة الواحدة ولم يروا فيها شيئا، وقال أهل الظاهر : لا شىء فى ذلك والجمهور على أن جمرة العقبة ليست من أركان الحج، وقال عبد الملك من أصحاب مالك : هى من أركان الحج .

فهذه جملة أفعال الحج من حين الإحرام الى أن يحل، والتحلل : تحللان تحلل أكبر وهو طواف الإفاضة وتحلل أصغر وهو رمى جمرة العقبة؛ وسنذكر الفرق بين التحللين .

الجنس الثالث فى الأحكام

(١) الإحصار

قال تعالى ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾ جمهور العلماء : على أن المحصر عن الحج ضربان محصر بمرض ومحصر بعدوّ، فالمحصر بالعدوّ اتفق الجمهور على أنه يحل من عمرته أو حجه حيث أحصر، وقال الثورى والحسن بن صالح : لا يتحلل إلا فى يوم النحر، والذين قالوا : يتحلل حيث أحصر اختلفوا فى إيجاب الهدى عليه وفى موضع نحره إذا قيل

بوجوبه وفى إعادة ما حصر عنه من حج أو عمرة، فذهب مالك الى أنه لا يجب عليه هدى وأنه إن كان معه هدى نحره حيث حل، وذهب الشافعى الى إيجاب الهدى عليه و به قال أشهب، واشترط أبو حنيفة ذبحه فى الحرم وقال الشافعى : حيثما حل وأما الإعادة فإن مالكا يرى عدم الإعادة عليه، وقال قوم : عليه الإعادة، وذهب أبو حنيفة إلى أنه إن كان أحرم بالحج فعليه حج وعمرة وإن كان قارنا فعليه حج وعمرتان و إن كان معتمرا قضى عمرته، وليس عليه عند أبى حنيفة ومحمد حلق أو تقصير، واختار أبو يوسف أن عليه ذلك .

وأما المحصر بمرض فإن مذهب الشافعى وأهل الحجاز أنه لا يحله إلا الطواف بالبيت والسعى بين الصفا والمروة وأنه بالجملة يتحلل بعمرة لأنه إذا فاته الحج بطول مرضه انقلب عمرة وهو مذهب ابن عمر وعائشة وابن عباس، وخالف فى ذلك أهل العراق فقالوا : يحل مكانه وحكمه حكم المحصر بعدوّ فيرسل هديه ويقدّر يوم نحره ويحل فى اليوم الثالث، والجمهور على أن المحصر بمرض عليه الهدى، وقال أبو ثور وداود : لا هدى عليه وأجمعوا على إيجاب القضاء عليه، وكل من فاته الحج بخطأ من العدد فى الأيام أو بخفاء الهلال عليه أو بغير ذلك من الأعذار فحكمه حكم المحصر بمرض عند مالك، وقال أبو حنيفة : من فاته الحج بعذر غير المرض يحل بعمرة ولا هدى عليه وعليه إعادة الحج : والمكى المحصر بمرض عند مالك كغير المكى يحل بعمرة وعليه الهدى و إعادة الحج، وقال الزهرى : لا بد أن يقف بعرفة وان حمل حملا، وأصل مذهب مالك أن المحصر بمرض إن بقى على إحرامه إلى العام المقبل حتى يحج حجة القضاء فلا هدى عليه، فإن تحلل بعمرة فعليه هدى المحصر لأنه حلق رأسه قبل أن ينحر فى حجة القضاء .

(٢) أحكام جزاء الصيد والنبات

قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ ﴾ أى عاقبته .

قتــل الصيد حرام على المحرم ، وآختلف العلمـاء هل الواجب فى قتـله قيمته أو مثله ؟ فذهب الجمهور الى أن الواجب المثل ، وذهب أبو حنيفة الى أنه مخير بين القيمة أعنى قيمة الصيد و بين أن يشــترى بها المثل . وآختلفوا أيضا فى آستئناف الحكم على قاتل الصيد فيما حكم فيــه السلف من الصحابة — مثل حكمهم أن من قتل نعامة فعليه بدنة تشبيها بها ، ومن قتل غزالا فعليه شاة ، ومن قتل بقرة وحشية فعليه إنسية — فقال مالك : يستأنف فى كل ما وقع من ذلك الحكم به . و به قال أبو حنيفة ، وقال الشافعى : إن آجتزأ بحكم الصحابة مما حكموا فيه جاز . وآختلفوا هل الأجزية فى الآية على الترتيب أو التخيير ، فقال مالك وأبو حنيفة بالتخيير ، وقال زفر بالترتيب . وآختلفوا هل يقوّم الصيد أو المثل إن اختار الإطعام فيشترى بقيمته طعاما ، فقال مالك : يقوّم الصيد وقال الشافعى : يقوم المثل ، ولم يختلفوا فى تقدير الصيام بالطعام فى الجمـلة و إن اختلفوا فى التفصيل ، فقال مالك : يصوم لكل مدّ يوما وهو الذى يطعم عندهم كل مسكين ، و به قال الشافعى وأهل الحجاز ، وقال أهل الكوفة : يصوم لكل مدين يوما وهو القــدر الذى يطعم كل مسكين عنــدهم . وآختلفوا فى قتل الصيد خطأ هل فيــه جزاء أولا ؟ فالجمهور على أن فيه الجزاء وقال أهل الظاهر : لا جزاء عليه .

وآختلفوا فى الجماعة يشــتركون فى قتل الصيد فقال مالك : على كل واحد منهم جزاء كامل وقال الشافعى : عليهم جزاء واحد ، وفرق أبو حنيفة بين المحرمين يقتلون الصــيد و بين المحلين يقتلونه فى الحرم فقال : على كل من المحرمين جزاء وعلى المحلين جزاء واحد .

وآختلفوا هل يكون أحد الحكمين قاتل الصيد ؟ فذهب مالك إلى أنه لا يجوز وقال الشافعى : يجوز وآختلف أصحاب أبى حنيفة على القولين جميعا .

وآختلفوا فى موضع الإطعام فقال مالك : فى الموضع الذى أصاب فيه الصيد إن كان ثم طعام و إلا ففى أقرب المواضع إليه ، وقال أبو حنيفة : حيثما أطعم جاز ، وقال الشافعى : لا يطعم إلا مساكين مكة .

وأجمع العلماء على أن المحرم اذا قتل الصيد عليه الجزاء ، وآختلفوا فى الحلال يقتل الصيد فى الحرم فقال جمهور فقهاء الأمصار : عليه الجزاء ، وقال داود وأصحابه : لا جزاء عليه ، ولم يختلف المسلمون فى تحريم قتل الصيد فى الحرم وإنما آختلفوا فى الكفارة .

وجمهور فقهاء الأمصار على أن المحرم إذا قتل الصيد وأكله فإنه ليس عليه إلا كفارة واحدة ، وروى عن عطاء وطائفة : ان فيه كفارتين . وهذه مشهورات المسائل المتعلقة بالصيد .

وآتفق العلماء على أن صيد البر محرّم على المحرم إلا الفواسق الخمس المنصوص عليها فى حديث آبن عمر وغيره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : خمس من الدواب ليس على المحرم جناح فى قتلهن ، الغراب ، والحدأة ، والعقرب ، والفأرة ، والكلب العقور ، والجمهور على إباحة قتل هذه الدواب وكذلك آتفقوا على أن صيد البحر حلال كله للمحرم وإن آختلفوا فى تفسيره كما آختلفوا فيما يلحق بالفواسق مما لا يلحق بها فقال مالك : الكلب العقور إشارة إلى كل سبع عاد فأما ما ليس بعاد من السباع فليس للمحرم قتله ، ولم ير قتل صغارها التى لا تعدو ولا ما كان منها أيضا لا يعدو ، وقال أبو حنيفة : لا يقتل من الكلاب العقورة إلا الكلب الإنسى والذئب ، وقال الشافعى : كل محرم الأكل فهو فى معنى الخمس ، ولا خلاف بينهم فى قتل الحية والأفعى والأسود وقال مالك : لا أرى قتل الوزغ ، والأخبار بقتلها متواترة لكن مطلقا لا فى الحرم ، وآختلفوا فى الزنبور فألحقه بعضهم بالعقرب وبعضهم رأى أنه أضعف نكاية من العقرب .

وآتفق العلماء على أن السمك من صيد البحر وآختلفوا فى غير السمك بناء منهم على أن ما يحتاج منه إلى زكاة ليس من صيد البحر وأكثر من ذلك ما كان محرما لا يعتبر من صيد البحر ، ولا خلاف بين من يحل جميع ما فى البحر فى أن صيده حلال . وآختلفوا فيما يعيش فى البر والبحر معا ، وقياس قول أكثر العلماء أنه يلحق

بالذى عيشه فيه غالبا وهو حيث يولد . والجمهور على أن طير الماء محكوم له بحكم حيوان البر، وروى عن عطاء أنه قال فى طير الماء : حيث يكون أغلب عيشه يحكم له بحكمه .

واختلف العلماء فى نبات الحرم هل فيه جزاء أم لا ؟ فقال مالك : لا جزاء فيه وإنما فيه الإثم فقط ، وقال الشافعى : فيه الجزاء فى الدَّوْحة (الشجرة العظيمة) بقرة وفيما دونها شاة وقال أبو حنيفة : كل ما كان من غرس الإنسان فلا شىء فيه وكل ما كان نابتا بطبعه ففيه قيمته ، والأصل فى هذا قوله صلى الله عليه وسلم فى حديث : « ولا يُعْضَدُ شجرها ولا ينفر صيدها » .

(٣) حكم إتيان المحظورات فى الإحرام

أجمع العلماء على أن فدية الأذى المذكورة فى قوله تعالى ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ واجبة على كل من أماط الأذى من ضرورة ، وألحق به مالك من أماطه من غير ضرورة ، وقال الشافعى وأبو حنيفة : إن حلق من غير ضرورة فإنما عليه دم فقط ، والمتعمد والناسى فى وجوب الفدية سواء عند مالك وأبى حنيفة والثورى والليث ، وقال الشافعى فى أحد قوليه ، وأهل الظاهر : لا فدية على الناسى .

وأجمع العلماء على أن فدية الأذى ثلاث خصال على التخيير الصيام والإطعام والنسك ، والجمهور على أن الإطعام لستة مساكين ، والصيام ثلاثة أيام ، والنسك أقله شاة ، وروى عن الحسن وعكرمة ونافع أنهم قالوا : الإطعام لعشرة مساكين ، والصيام عشرة أيام ، وقد اختلف الفقهاء فيما يطعمه لكل مسكين فقال مالك والشافعى وأبو حنيفة وأصحابهم : الإطعام فى ذلك مدان بمدّ النبى صلى الله عليه وسلم لكل مسكين ، وروى عن الثورى أنه قال : من البر نصف صاع ومن التمر والزبيب والشعير صاع ، وروى أيضا عن أبى حنيفة مثله وهو أصله فى الكفارات .

والجمهور على أن كل ما منعه المحرم من لبس الثياب المخيطة وحلق الرأس وقص الأظفار أنه إذا ٱستباحه فعليه الفدية دم على ٱختلاف بينهم فى ذلك أو إطعام ولم يفرقوا بين الضرر وغيره فى هذه الأشياء وكذلك ٱستعمال الطيب وقال قوم: ليس فى قص الأظفار شيء وقال آخرون : فيه دم، وحكى ٱبن المنذر الإجماع على منع المحرم من قص الأظفار، واختلفوا فيمن أخذ بعض أظفاره، فقال الشافعى وأبو ثور : إن أخذ ظفرا واحدا أطعم مسكينا واحدا وإن اثنين فاثنين وإن ثلاثة فعليه دم فى مقام واحد، وقال أبو حنيفة فى أحد أقواله : لا شيء عليه حتى يقصها كلها، وقال أبو محمد ٱبن حزم : يقص المحرم أظفاره وشاربه وهو شذوذ وقال : لا فدية إلا فى حلق الرأس للعذر الذى ورد فيه النص . وقد أجمع العلماء على منع حلق شعر الرأس، واختلفوا فى حلق الشعر من سائر الجسد، فالجمهور على أن فيه الفدية وقال داود : لا فدية عليه . واختلفوا فيمن نتف من رأسه الشعرة والشعرتين أو من لحيه فقال مالك : ليس على من نتف الشعر اليسير شيء إلا أن يكون أماط به أذى فعليه الفدية وقال الحسن : فى الشعرة مدّ وفى الشعرتين مدان وفى الثلاث دم، وبه قال الشافعى وأبو ثور، وقال عبد الملك صاحب مالك : فيما قل من الشعر إطعام وفيما كثر فدية .

وٱختلفوا فى موضع الفدية فقال مالك : يفعل من ذلك ما شاء أين شاء بمكة وبغيرها وإن شاء ببلده لا فرق فى ذلك بين الإطعام وذبح النسك والصيام وهو قول مجاهد، والذى عند مالك هاهنا هو نسك وليس بهدى، فإن الهدى لايكون إلا بمكة أو بمنى، وقال أبو حنيفة والشافعى : الدم والإطعام لا يجزيان إلا بمكة، والصوم حيث شاء وقال ٱبن عباس : ما كان من دم فبمكة وما كان من إطعام وصيام فحيث شاء وعن أبى حنيفة مثله .

واختلف العلماء فى حلق الرأس هل هو نسك من مناسك الحج أو هو مما يتحلل به منه؟ ولا خلاف بين الجمهور فى أنه من أعمال الحج وأنه أفضل من التقصير إلا للنساء فسنتهن التقصير، ومعظم الفقهاء على أنه نسك فى الحج والعمرة وأنه واجب على

كل من فاته الحج وأحصر بعدو أو مرض، وقال أبو حنيفة : لا حلق ولا تقصير على المحصر بعدو، و بالجملة فمن آعتبر الحلق أو التقصير نسكا (عبادة) أوجب فى تركه الدم ومن لم يجعله نسكا لم يوجب فيه شيئا .

(٤) كفارة المتمتع

نص الله سبحانه عليها فى قوله ﴿ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ وجمهور العلماء على أن ما آستيسر من الهدى شاة، وذهب آبن عمر إلى أن الهدى لا يطلق إلا على الإبل والبقر، وأن معنى قوله تعالى فما آستيسر من الهدى أى بقرة أدون من بقرة و بدنة أدون من بدنة، وأجمعوا على أن هذه الكفارة على الترتيب وإن لم يجد الهدى فعليه الصيام . واختلفوا فى حد الزمان الذى ينتقل بآنقضائه فرضه من الهدى إلى الصيام فقال مالك : إذا شرع فى الصوم فقد آنتقل واجبه إليه، وقال أبوحنيفة : إن من وجد الهدى فى أثناء صوم الثلاثة الأيام لزمه وإن وجده فى صوم السبعة لم يلزمه، وأجمعوا على أنه إذا صام الثلاثة الأيام فى العشر الأول من ذى الحجة أنه قد أتى بها فى محلها لقوله سبحانه ﴿ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ ﴾ وآختلفوا فيمن صامها فى أيام عمل العمرة قبل أن يهل بالحج أو صامها فى أيام منى ؟ فأجاز مالك صيامها فى أيام منى ومنعه أبو حنيفة فقال : إذا فاتته الأيام الأول وجب الهدى فى ذمته، ومنعه مالك قبل الشروع فى عمل الحج وأجازه أبو حنيفة، وآتفقوا على أنه إذا صام السبعة الأيام فى أهله أجزأه، وآختلفوا إذا صامها فى الطريق، فقال مالك : يجزئ الصوم وقال الشافعى : لا يجزئ .

(٥) مفسدات الحج ومفوتاته

ولا خلاف أن من فاته الحج بعد أن شرع فيه إما بفوات ركن من أركانه وإما من قبل غلطه فى الزمان أو من قبل جهله أو نسيانه أو إتيانه فى الحج فعلا مفسدا له فإن عليه القضاء إذا كان حجا واجبا وهل عليه هدى مع القضاء؟ الجمهور على وجوب الهدى عليه، وآختلفوا أيضا هل يقضى الحج التطوع أو لا .

ومما يخص الحج الفاسد عند الجمهور دون سائر العبادات أنه يمضى فيه المفسد له ولا يقطعه وعليه دم، وشذ قوم فقالوا : هو كسائر العبادات .

وآتفقوا على أن الحج يفسد بترك أركانه التى هى شرط فى صحته على آختلافهم فيما هو ركن مما ليس بركن، وكذلك يفسده الجماع باتفاق إن كان قبل الوقوف بعرفة أو قبل الطواف والسعى بالنسبة للعمرة، وآختلفوا فى فساد الحج بالوطء بعد الوقوف بعرفة وقبل رمى جمرة العقبة وبعد رمى الجمرة وقبل طواف الإفاضة الذى هو الواجب فقال مالك والشافعى : يفسده الوطء قبل رمى جمرة العقبة وعليه الهدى والقضاء، وقال أبو حنيفة والثورى : عليه الهدى بدنة وحجه تام وروى مثله عن مالك والجمهور على أن من وطئ بعد رمى جمرة العقبة وقبل الطواف لا يفسد حجه ويلزمه الهدى، وقالت طائفة : فسد حجه وهو قول آبن عمر . واختلفوا فى صفة الجماع الذى يفسد الحج وفى مقدّماته، فالجمهور على أن التقاء الختانين يفسد الحج ويحتمل من يشترط فى وجوب الطهر الإنزال مع التقاء الختانين أن يشترطه فى الحج، وآختلفوا فى إنزال الماء فيما دون الفرج فقال أبو حنيفة : لا يفسد الحج، وقال الشافعى : ما أوجب الحدّ أفسد الحج، وقال مالك : الإنزال نفسه يفسد الحج وكذلك مقدّماته من المباشرة والقبلة، وآستحب الشافعى فيمن جامع دون الفرج أن يهدى . وآختلفوا فيمن وطئ مرارا فقال مالك : ليس عليه إلا هدى واحد وقال أبو حنيفة : إن كرر الوطء فى مجلس واحد كان عليه هدى واحد وإن كرره فى مجالس كان عليه لكل وطء هدى، وقال محمد بن الحسن يجزيه هدى واحد وإن كرر الوطء ما لم يهد لوطئه الأول، وعن الشافعى الثلاثة الأقوال إلا أن الأشهر عنه مثل قول مالك، وسوى مالك بين الوطء عمدا ونسيانا، وقال الشافعى فى الجديد : لا كفارة على الناسى . وآختلفوا هل على المرأة هدى؟ فقال مالك : إن طاوعته فعليها هدى وإن أكرهها فعليه هديان، وقال الشافعى : ليس عليه إلا هدى واحد كقوله فى المجامع فى رمضان، وجمهور العلماء : على أنهما إذا حجا من قابل تفرّقا أى الرجل والمرأة، وقيل : لا يفترقان وهو مروى عن بعض الصحابة والتابعين وبه قال أبو حنيفة وفى أى الأماكن يفترقان؟ قال الشافعى :

يفترقان من حيث أفسدا الحج، وقال مالك: يفترقان من حيث أحرما إلا أن يكونا أحرما قبل الميقات . ولا خلاف بين العلماء أن التحلل الأصغر الذى هو رمى الجمرة يوم النحر — يحل به الحاج من كل شىء حرم عليه إلا النساء والطيب والصيد فإنهم آختلفوا فى ذلك، أما التحلل الأكبر بطواف الإفاضة فانه يحل للحاج كل ما حرم عليه بالاتفاق . وآتفقوا أيضا على أن المعتمر يحل من عمرته إذا طاف بالبيت وسعى بين الصفا والمروة وإن لم يكن حلق ولا قصر لثبوت الآثار بذلك إلا خلافا شاذا، روى عن ابن عباس أنه يحل بالطواف وقال أبو حنيفة : لا يحل إلا بعد الحلق، فإن جامع قبله فسدت عمرته .

وآختلف العلماء فى الهدى الواجب بالجماع فقال مالك وأبو حنيفة: شاة، وقال الشافعى: بدنة، وإن لم يجدها قوّمت البدنة دراهم والدراهم طعاما، فإن لم يجد صام عن كل مدّ يوما، قال: والإطعام والهدى لا يجزى إلا بمكة أو بمنى والصوم حيث شاء وقال مالك : كل نقص دخل فى الإحرام من وطء أو حلق شعر أو إحصار فان صاحبه إن لم يجد الهدى صام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجع ولا يدخل الإطعام فيه، فمالك شبه الدم اللازم هنا بدم التمتع، والشافعى شبهه بالدم الواجب فى الفدية، والإطعام عند مالك لا يكون إلا فى كفارة الصيد وكفارة إزالة الأذى .

يفوت وقت الحج بفوات الوقوف بعرفة يوم عرفة وأجمعوا أن من هذه صفته لا يخرج من إحرامه إلا بالطواف بالبيت والسعى بين الصفا والمروة أعنى أنه يحل ولا بد من عمرة وحج من قابل، واختلفوا هل عليه هدى أو لا ؟ فقال مالك والشافعى وأحمد والثورى وأبو ثور : عليه الهدى، وقال أبو حنيفة : لا هدى عليه، واختلف العلماء فى القارن إذا فاته الحج هل يقضى حجا مفردا أو مقرونا بعمرة؟ فذهب مالك والشافعى إلى أنه يقضى قارنا وقال أبو حنيفة : ليس عليه إلا الإفراد، وجمهور العلماء: على أن من فاته الحج لا يقيم على إحرامه ذلك إلى عام آخر، وهذا هو الاختيار عند مالك إلا أنه أجاز ذلك ليسقط عنه الهدى ولا يحتاج إلى التحلل بعمرة .

(٦) الكفارات المسكوت عنها

آتفق الجمهور على أن أعمال الحج أقسام ثلاثة : فرض لا يجب بتركه دم، وسنة مؤكدة يجب بتركها الدم، ونفل مرغب فيه لا يجب بتركه دم ولا شيء آخر؛ وكذلك آتفقوا على أن ما كان من التروك مسنونا ففى فعله فدية الأذى، وما كان مرغبا فيه فليس فى تركه شيء، ولكن آختلفوا فيما يعتبر فرضا أو سنة أو يعتبر سنة أو نفلا، وأهل الظاهر لا يوجبون دما أو فدية إلا فيما ورد فيه النص إذ لا قياس عندهم خصوصا فى العبادات .

وها نحن أولاء نذكر لك أفعال الحج ومحظوراته واحدا واحدا ونبين ما فيه دم أولا : (١) مجاوزة الميقات من غير إحرام قال قوم : لا دم عليه وقال قوم : عليه الدم وإن رجع وهو قول مالك وآبن المبارك، وروى عن الثورى، وقال قوم : إن رجع اليه فليس عليه دم وإن لم يرجع فعليه دم وهو قول الشافعى وأبى يوسف ومحمد، ومشهور قول الثورى، وقال أبو حنيفة : إن رجع ملبيا فلا دم عليه وإن رجع غير ملب كان عليه الدم، وقال قوم : هو فرض ولا يجبره الدم؛ (٢) غسل الرأس بالخطمى قال مالك وأبو حنيفة : من فعله يفتدى، وقال الثورى وغيره : لا شيء عليه؛ (٣) دخول الحمام رأى فيه مالك الفدية والأكثرون على الإباحة؛ (٤) لبس ما نهى عن لباسه، فيه الفدية على قول الجمهور . وآختلفوا فيمن لبس السراويل لعدم الإزار، فقال مالك وأبو حنيفة : يفتدى، وقال الثورى وأحمد وأبو ثور وداود : لا شيء عليه إذا لم يجد إزارا . وآختلفوا فيمن لبس الخفين مقطوعين مع وجود النعلين فقال مالك : عليه الفدية، وقال أبو حنيفة : لا فدية عليه والقولان عن الشافعى . وآختلفوا فى لبس المرأة القفازين (لباس اليدين) «الجوانتى» هل فيه فدية أو لا ؟ وقد تقدّم كثير من هذه الأحكام فى باب الإحرام؛ (٥) ترك التلبية، قيل : فيه دم، وقيل لا : وقد تقدّم؛ (٦) نكس الطواف أو نسيان شوط من أشواطه، يعيد الطواف من فعل ذلك باتفاق ما دام يمكنه . وآختلفوا إذا بلغ الى أهله فقال

قوم منهم أبو حنيفة : يجزيه الدم، وقال قوم : بل يعيد ويجبر ما نقصه؛ (٧) ترك الرمل في الثلاثة الأشـواط لا يجبر بالدم على قول ٱبن عباس والشافعي وأبي حنيفة وأحمد وأبي ثور، وٱختلف في ذلك قول مالك وأصحابه؛ (٨) تقبيل الحجر أو يديه بعد وضعهما عليه في ترك ذلك دم؛ (٩) نسيان ركعتي الطواف حتى يرجع الشخص الى أهله فيه دم عند مالك، وقال الثوري : يركعهما ما دام في الحرم، وقال الشافعي وأبو حنيفة : يركعهما حيث شاء؛ (١٠) طواف الوداع، لا يجبر بدم عند من يرى أنه فرض ومن لا يراه فرضا، ٱختلفوا فيمن تركه ولم تمكن له العودة اليـه، فقال مالك : ليس عليه شيء إلا أن يكون قريبا فيعود، وقال أبو حنيفة والثوري : فيه دم إن لم يعد وإنما يرجع عندهم ما لم يبلغ المواقيت؛ (١١) عدم إدخال الحِجْر في الطواف فيـه دم إلا اذا أعاده قبل أن يخرج من مكة وهـذا عند أبي حنيفة؛ (١٢) المشي في الطواف مع القدرة عليه، قال مالك : هو من شرط الطواف كالقيام في الصلاة فإن عجز كان كصلاة القاعد ويعيد عنـده إلا إذا رجع إلى بلده فإن عليه دما. وقال الشافعي : الركوب في الطواف جائز؛ (١٣) ترك السعي فيه دم إذا ٱنصرف إلى بلده وهو عند من لا يراه واجبا، ومن رآه تطوّعا لم يوجب فيه شيئا؛ (١٤) تقديم السعي على الطواف إذا لم يعده حتى يخرج من مكة فيه دم عند بعضهم؛ (١٥) الدفع من عرفة قبل الغروب فيه دم عند أبي حنيفة والثوري عاد أو لم يعد، وقال الشافعي وأحمد : لا شيء عليه إذا عاد ودفع بعد الغروب؛ (١٦) الوقوف بعرنة من عرفة فيه دم عند مالك، والشافعي يرى أن لا حج له. وتقدّم مثل ذلك كثير.

القول في الهدى

النظر في الهـدى يشتمل : (١) على معرفة حكمه؛ (٢) وعلى معرفة جنسـه؛ (٣) وعلى معرفة سنّه؛ (٤) وكيفية سوقه؛ (٥) ومن أين يساق؛ (٦) والى أين يساق وهو موضع نحره؛ (٧) وحكم لحمه بعد النحر.

(١) حكم الهدى — الهدى المسوق في الحج منه واجب ومنه تطوع، والواجب منه ما هو واجب بالنذر ومنه ما هو واجب في بعض أنواع هـذه العبادة

ومنه ما هو واجب لأنه كفارة ، فالواجب فى بعض أنواع هـذه العبادة هو هدى المتمتع باتفاق وهدى القارن باختلاف ، وأما الذى هو كفارة فهـدى القضاء على مذهب من يشترط فيـه الهدى وهدى كفارة الصيد، وهدى القاء الأذى والتفث وما أشبه ذلك من الهدى المقيس على المنصوص كما قدّمنا .

(٢) جنس الهدى — اتفق العلماء على أن الهدى لا يكون إلا من الأزواج الثمانية التى نص الله عليها وأن الأفضل فى الهدايا الإبل ثم البقر ثم الغنم ثم المعز .

(٣) سنّ الهدى — أجمعوا على أن الثّنى[1] فما فوقه يجزى منها وأنه لا يجزى الجَـذَع[2] من المعز فى الضحايا والهدايا ، واختلفوا فى الجذع من الضأن فأكثر أهل العلم يقولون بجوازه فى الهدايا والضحايا ، وكان ابن عمر يقول : لا يجزئ فى الهدايا إلا الثّنى من كل جنس ، ولا خلاف فى أن الأغلى ثمنا من الهدايا أفضل وليس فى عدد الهدى حدّ معلوم ، وكان هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة .

(٤) كيفية سوق الهدى — يساق الهدى مقلدا مشعرا لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قلد هديه بذى الحليفة وأشعره وأحرم وتقلد الإبل والبقر بنعل أو نعلين أو غيرهما إذا لم يجد وهـذا باتفاق ، أما الغنم فلا تقلد عند مالك وأبى حنيفة وتقلد عنـد الشافعى وأحمد وداود وأبى ثور ، ويستحب توجيه الهـدى الى القبلة حين توجيهه ، ومالك يستحب فى الإشعار طعن الهدى فى سنامه حتى يسيل منه الدم وأن يكون من الجانب الأيسر ، والشافعى وأحمد وأبو ثور يستحبونه من الجانب الأيمن .

(٥) من أين يساق الهدى — يرى مالك أن السـنة فى الهدى أن يساق من الحل ولذلك ذهب الى أن من اشترى الهدى بمكة ولم يدخله من الحل عليه أن

---

(١) الثنى من الإبل : ما دخل فى السنة السادسة ومن البقر والغنم ما دخل فى الثالثة وعلى مذهب أحمد هو من المعز ما دخل فى الثانية .

(٢) الجذع : من أسنان الدواب ما كان شابا فتيا وهو من الإبل مادخل فى السنة الخامسة ، ومن البقر والمعز مادخل فى السنة الثانية وقيل : من البقر ما دخل فى الثالثة ، ومن الضأن ما تمت له سنة وقيل : أقل منها .

يقفه بعرفة وإن لم يفعل فعليه البدل ، وأما من أدخله من الحل فيستحب له أن يقفه بعرفة وهو قول آبن عمر وبه قال الليث ، وقال الشافعى والثورى وأبو ثور : وقوف الهدى بعرفة سنة سواء أدخل من الحل أم لا ، ولا حرج على من لم يقفه ، وقال أبو حنيفة : توقيف الهدى بعرفة ليس بسنة .

(٦) منحر الهدى — محله أى الموضع الذى يحل نحره فيه — البيت . قال تعالى : ﴿ ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾ وقال تعالى : ﴿ هَدْيًا بَـٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ ﴾ وأجمع العلماء على أن الكعبة لا يجوز لأحد أن يذبح فيها وكذلك المسجد الحرام ، وقال مالك : المراد بالكعبة فى الآية مكة ولهذا لم يجز لمن نحر هديه فى الحرم إلا أن يحره بمكة ، وقال الشافعى وأبو حنيفة : إن نحره فى غير مكة من الحرم أجزأه ، وقال الطبرى : يجوز نحر الهدى حيث شاء إلا هدى القران وجزاء الصيد فانهما لا يحران إلا بالحرم ، وبالجملة فالنحر بمنى إجماع من العلماء وفى العمرة بمكة إلا ما آختلفوا فيه من نحر المحصر ، وعند مالك إن نحر للحج بمكة وللعمرة بمنى أجزأه ، وحجة مالك أنه لا يجوز النحر بالحرم إلا بمكة قوله صلى الله عليه وسلم « كل فجاج مكة طريق ومنحر » وآستثنى مالك من ذلك هدى الفدية فأجاز نحره بغير مكة . هذا مكانه وأما زمانه فقال مالك : إن ذبح هدى التمتع أو التطوع قبل يوم النحر لم يجزه ، وقال الشافعى : يجوز فى كليهما قبل يوم النحر ، وجوّزه أبو حنيفة فى التطوع والجمهور على أن الصيام المعدول به عن الهدى يجوز حيث شاء لأنه لا منفعة فى ذلك لأهل الحرم ولا لأهل مكة وإنما اختلفوا فى الصدقة المعدولة عن الهدى ، فجمهور العلماء : على أنها لمساكين مكة والحرم لأنها بدل من جزاء الصيد الذى هو لأهل الحرم ، وقال مالك : الإطعام كالصيام يجوز بغير مكة .

وتستحب فى النحر التسمية لأنها ذكاة وآستحب بعضهم التكبير معها ، ويستحب للمهدى أن يلى نحر هديه بيده وإن آستخلف جاز ويسن أن تنحر قياما .

(٧) الانتفاع بالهدى — فى ذلك مسائل مشهورة : (١) ركوب الهدى، فذهب أهل الظاهر إلى جوازه لضرورة ومن غير ضرورة بل أوجب بعضهم ركوبه وكره جمهور فقهاء الأمصار ركوبه من غير ضرورة؛ (٢) أكل لحمه، أجمع العلماء على أن هدى التطوع إذا بلغ محله أكل منه المتطوع كسائر الناس وإذا عطب قبل ذلك خلى بينه وبين الناس ولم يأكل منه، بل قال أبو داود وأبو ثور: لا يأكل منه رفقته أيضا، وآختلفوا فى الواجب على من أكل منه فقال مالك : عليه بدل الهدى وقال أبو حنيفة والشافعى وأحمد والثورى وآبن حبيب من أصحاب مالك: عليه قيمة ما أكل أو أمر بأكله طعاما يتصدق به، وروى عن على وآبن عباس وآبن مسعود وجماعة من التابعين. وما عطب فى الحرم قبل أن يصل الى مكة هل بلغ محله أو لا ؟ فيه الخلاف وهو مبنى على الخلاف المتقدم هل المحل هو مكة أو الحرم ؟ وأما الهدى الواجب فإن عطب قبل محله فلصاحبه أن يأكل منه لأن عليه بدله، بل أجاز بعضهم أن يبيع لحمه ليستعين به فى بدله — وكره مالك ذلك — وآختلفوا فى الأكل من الهدى الواجب إذا بلغ محله فقال الشافعى : لا يؤكل من الهدى الواجب كله ولحمه كله للمساكين وكذلك جله إن كان مجللا والنعل الذى قلد به وقال مالك : يؤكل من الهدى الواجب جزاء الصيد ونذر المساكين وفدية الأذى، وقال أبو حنيفة لا يؤكل من الهدى الواجب إلا هدى المتعة والقران .

*
* *

وإلى هنا تم ما قصدنا من أحكام الحج فى المذاهب وآختصرنا ذلك من بداية المجتهد كما أعلمناك سابقا .

جدول بمعظم أحكام الحج فى المذاهب الأربعة

العمـــل	حكم الحنفية	حكم الشافعية	حكم المالكية	حكم الحنبلية
الحـــج	فرض فورا (١)	فرض تراخيا	فرض فورا	فرض فورا
العـــمرة	سنة مؤكدة	»	سنة مؤكدة	»
الإحرام بالحج أى نيته	شرط وركن (٢)	ركن	ركن	ركن
» بالعمرة أى نيتها	شرط وقيل ركن	»	»	»
قرن الإحرام بالتلبية	سـنة (٣)	سـنة	سنة وقيل واجب	سـنة
الإحرام من الميقات	واجب (٤)	واجب	واجب	واجب
الغسل للإحرام	سـنة	سـنة	سـنة	مستحب
التطيب للإحرام	»	»	مكروه	»
التلبيـــة	»	»	واجبة	سـنة
طواف القدوم	»	»	واجب	»
نية الطواف	شرط	شرط (٥)	»	شرط
بدء الطواف من الحجر الأسود	واجب	»	»	»
جعل البيت عن يسار الطائف	»	»	شرط	»
المشى فى الطواف لقادر عليه	»	سـنة	واجب	»
الطهارة من الحدثين فى الطواف	»	شرط	شرط	»
طهارة البدن والثوب والمكان فى الطواف	سـنة	»	»	»
كون الطواف من وراء الحِجر	واجب	»	»	»
» » فى المسجد	»	»	»	»
» » سبعة أشواط	واجب (٦)	»	»	»

(١) عند محمد على التراخى . (٢) أى شرط آبتداء حيث يصح حصوله قبل أشهر الحج . وركن آنتهاء حيث لا يصح آستدامته بعد أشهر الحج ليحج به من قابل ، والفرق بين الشرط والركن أن الشرط خارج عن الشئ والركن جزء منه وكل منهما لا بد منه لصحة الشئ . (٣) السـنة لا يلزم بتركها شئ ولكن يفوت الثواب . (٤) يلزم بتركه دم . (٥) فى الوداع والتطوع فقط . (٦) الأربعة الأشـواط الأولى ركن والثلاثة الأخيرة واجبة فى طواف الزيارة سنة فى الطواف الواجب .

(تابع) جدول بمعظم أحكام الحج فى المذاهب الأربعة

العمل	حكم الحنفية	حكم الشافعية	حكم المالكية	حكم الحنبلية
الموالاة بين أشواط الطواف	سنة	سنة	واجب	شرط
ستر العورة فى الطواف	واجب	شرط	شرط	»
ركعتا الطواف	(١) واجب	سنة وقيل واجب	(٢) واجب	سنة
الطواف للعمرة	ركن	ركن	ركن	ركن
السعى بين الصفا والمروة فى الحج أو العمرة	واجب	»	»	»
وقوع السعى بعد طواف	»	شرط	واجب	شرط
نية السعى	»	»	شرط	»
بدء السعى بالصفا وختمه بالمروة	»	»	»	»
المشى فيه مع القدرة	»	سنة	واجب	»
كون السعى سبعة أشواط...	»	شرط	شرط	»
الموالاة بين أشواط السعى	سنة	سنة	واجب	»
« « السعى والطواف	»	»	»	سنة
الحلق أو التقصير فى العمرة	واجب	واجب	»	واجب
المبيت بمنى ليلة عرفة	»	سنة	»	مستحب
الوقوف بعرفة	ركن	ركن	ركن	ركن
وقت الوقوف بعرفة	من بعد الزوال إلى طلوع فجر يوم النحر			
مد الوقوف إلى ما بعد الغروب إن وقف نهارا	واجب	واجب وقيل سنة	ركن	واجب
الدفع من عرفة مع الإمام أو نائبه	»	سنة	واجب	سنه
الجمع بمزدلفة بين صلاتى المغرب والعشاء...	»	»	سنة	»
(٣) المبيت بمزدلفة	»	واجب	واجب	واجب

(١) ولكن يعادان ولا يجبران بالدم . (٢) و يجب فيهما عند المالكية أن يكونا بوضوء الطواف كما يجب أن لا يصليا بالحجر أو الكعبة وأن لا يفصل بينهما و بين الطواف فاصل طويل .

(٣) ولكن يكفى فى تحصيل الواجب المكث لحظة فى النصف الثانى من الليل عند الشافعى ولحظة بعد الفجر عند أبى حنيفة ومقدار حط الرحال وصلاة العشاءين وتناول شىء من الطعام والشراب عند مالك .

(تابع) جدول بمعظم أحكام الحج فى المذاهب الأربعة

العمـــل	حكم الحنفية	حكم الشافعية	حكم المالكية	حكم الحنبلية
الوقوف بمزدلفة «المشعر الحرام» فى وقته (١)	واجب	واجب	سنة أو مستحب	واجب
رمى جمرة العقبة يوم النحر (٢)	»	»	واجب	»
الحلق أو التقصير فى الحج	»	ركن	»	»
الترتيب بين الرمى والذبح والحلق	»	سـنة	سـنة	سـنة
كون الحلق فى الحرم وأيام النحر	»	»	»	»
طواف الإفاضة	ركن أكثره	ركن	ركن	ركن
كونه فى أيام النحر	واجب	»	واجب فى ذى الحجة	سنة يوم العيد
تأخير طواف الإفاضة عن الرمى	سـنة	سـنة	واجب	سـنة
رمى الجمار الثلاث فى أيام التشريق (٣)	واجب	واجب	»	واجب
عدم تأخير الرمى الى الليل	سـنة	سـنة	»	سـنة
المبيت بمنى ليالى أيام التشريق (٣)	»	واجب	»	واجب
طواف الوداع	واجب	»	مستحب	»

حكم المناسك وأسرارها

نذكر تحت هذا العنوان كلمة ممتعة للسيد محمد رشيد رضا منشئ مجلة المنار الغرّاء وهى القسم الأخير من رسالته فى مناسك الحج ، قال أحسن الله اليه تحت هذا العنوان : يظن كثير من الناس الذين لا يعرفون كنه هذا الدين القويم من غير أهله ومن

(١) وقته من طلوع الفجر الى شروق الشمس . (٢) وقتها المستحب من طلوع الشمس الى الزوال ولا يجوز رميها قبل الفجر خلافا للشافعى ويجوز رميها الى غروب شمس يوم النحر فان رماها بالليل وجب عليه دم عند مالك وإن أخرها الى الغد عليـه دم عند مالك وأبى حنيفة . (٣) وذلك فى يومين فقط لمن تعجل وفى ثلاثة لغيره .

المنسوبين إليه على سبيل الجنسية لا التدين أن بعض مناسك الحج من العبادات الوثنية وأن الاسلام أقرها تأنيسا لمشركى العرب، وقد سئلنا عن ذلك سؤالا مطولا نشر فى باب الفتوى من المجلد السادس عشر، فنذكرهنا ملخص ما أجبنا به من حكم الحج وأسراره ولولا ضيق الوقت لزدنا عليه وهو :

حكمة استلام الحجر الأسود — من عرف معنى العبادة يقطع بأن المسلمين لا يعبدون الحجر الأسود ولا الكعبة، ولكن يعبدون الله تعالى وحده باتباع ما شرعه فيهما . بل كان من تكريم الله تعالى لبيته أن صرف مشركى العرب وغيرهم من الوثنيين والكتابيين الذين كانوا يعظمونه قبل الإسلام عن عبادته ، وقد وضعوا فيه الأصنام وعبدوها فيه ولم يعبدوه، ذلك أن عبادة الشىء عبارة عن دعائه وكل قول أو عمل مبنى على اعتقاد أن له سلطة غيبية يترتب عليها الرجاء بنفعه لمن يعبده أو دفع الضرر عنه، والخوف من ضره لمن لا يعبده أو لمن يقصر فى تعظيمه، سواء أكانت هذه السلطة ذاتية لذلك الشىء المعبود فيستقل بالنفع والضر أم كانت غير ذاتية له بأن يعتقد أنه واسطة بين من لجأ اليه وبين المعبود الذى له السلطة الذاتية . ولا يوجد أحد من المسلمين يعتقد أن الحجر الأسود ينفع أو يضر بسلطة ذاتية له، ولا بسلطة تقرب من يعبده ويلجأ إليه إلى الله تعالى ، ولا كانت العرب فى الجاهلية تعتقد ذلك وتقوله فى الحجر كما تقول فى أصنامها : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ ﴿هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ وإنما عقيدة المسلمين فى الحجر هى ماصرح به عمر بن الخطاب رضى الله عنه عند تقبيله ، قال : إنى أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك — رواه الجماعة كلهم — أحمد والشيخان وأصحاب السنن . وقد بينا فى المنار من قبل أن هذا القول روى أيضا عن أبى بكر رضى الله عنه وروى مرفوعا الى النبى صلى الله عليه وسلم، وأن أثر عمر كان العمدة فى هذا الباب للاتفاق على صحة سنده . قال الطبرى : إنما قال عمر ذلك (أى مع أنه معلوم من الدين بالضرورة) لأن الناس كانوا حديثى عهد بعبادة الأصنام نخشى أن

يظن الجهال أن استلام الحجر الأسود من باب تعظيم الأحجار كما كانت العرب تفعل في الجاهلية ، فأراد أن يعلم الناس أن استلامه اتباع لفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم لا لأن الحجر يضر وينفع بذاته اه .

بقي أن يقال : اذا كان هذا الحجر لا ينفع ولا يضر — كما قال عمر في الموسم تعليما للناس وأقره جميع الصحابه عليه — وكان استلامه وتقبيله لمحض الطاعة والاتباع لرسول الله صلى الله عليه وسلم كما يتبع في سائر العبادات ، فما حكمة جعل ما ذكر من العبادة؟ وهل يصح ما قيل : من أن النبي صلى الله عليه وسلم تركه في الكعبة مع أنه من آثار الشرك تأليفا للمشركين واستمالة لهم إلى التوحيد؟ والجواب أن الحجر ليس من آثار الشرك ولا من وضع المشركين ، وإنما هو من وضع إمام الموحدين إبراهيم صلى الله عليه وآله وسلم ، جعله في بيت الله ليكون مبدأ للطواف بالكعبة يعرف بمجرد النظر اليها فيكون الطواف بنظام لا يضطرب فيه الطائفون ، وبهذا صار من شعائر الله يكرم ويقبل ويحترم لذلك كما تحترم الكعبة لجعلها بيتا لله تعالى وإن كانت مبنية بالحجارة فالعبرة بروح العبادة النية والقصد ، وبصورتها الامتثال لأمر الشارع واتباع ما ورد بلا زيادة ولا نقصان ، ولهذا لا تقبّل جميع أركان الكعبة عند جمهور السلف ، وان قال به وبتقبيل المصحف وغيره من الشعائر الشريفة بعض من يرى القياس في الأمور التعبدية . وتعظيم الشعائر والآثار الدينية والدنيوية بغير قصد العبادة معروف في جميع الأمم لا يستنكره الموحدون ولا المشركون ولا المعطلون ، وأشدّ الناس عناية به الإفرنج فقد بنوا لآثار عظماء الملوك والفاتحين والعلماء العاملين الهياكل العظيمة ونصبوا لهم التماثيل الجميلة ، وهم لا يعبدون شيئا منها ، فلماذا نهتم بكل ما يلفظ به كل قسيس أو سياسي يريد تنفير المسلمين من دينهم إذا موّه علينا في شأن تعظيم الحجر الأسود فزعم أنه من آثار الوثنية ، ونحن نعلم أنه أقدم أثر تاريخي ديني لأقدم إمام موحد داع إلى الله من النبيين المرسلين الذين عرف شيء صحيح من تاريخهم وهو إبراهيم عليه الصلاة والسلام الذى أجمع على تعظيمه مع المسلمين اليهود والنصارى؟

بقى من حكمة آستلام الحجر وتقبيله ما آعتمده الصوفية فيها أخذا مما ورد فى بعض الأحاديث الضعيفة كحديث آبن عباس « الحجر الأسود يمين الله فى أرضه » رواه الطبرانى ، فقالوا : وهو أنه رمز لمبايعة الله تعالى فكأن الحجر يمين الله تعالى ، ومستلمه مبايع له على توحيده والإخلاص له واتباع دينه الحق ، والأعمال الرمزية معروفة فى جميع الأديان الإلهية . وقال المهلب : حديث عمر يرد على من قال إن الحجر يمين الله فى الأرض يصافح بها عباده — ومعاذ الله أن تكون لله جارحة — وإنما شرع تقبيله آختبارا ليعلم بالمشاهدة طاعة من يطيع ، وذلك شبيه بقصة إبليس حيث أمر بالسجود لآدم اه . وليس مراد من قال إنه يمين الله أن لله جارحة ، وإنما أراد ما ذكرنا ، والعمدة فى ردّ هذا القول عدم صحة الحديث فيه ، فان صح وجب قبوله ومعناه ظاهر ، وقال الخطابى : معنى كونه يمين الله فى الأرض أن من صافحه فى الأرض كان له عند الله عهد ، وجرت العادة بأن العهد يعقده الملك بالمصافحة لمن يريد موالاته والآختصاص به فخاطبهم بما يعهدونه . وقال المحب الطبرى : إن كل ملك إذا قدم عليه الوفد قبل يمينه ، فلما كان الحاج أول ما يقدم سن له تقبيله نزل منزلة يمين الملك ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ اه .

ولعمرى لو أن ملوك الإفرنج وعلماءهم أمكنهم أن يشتروا هذا الحجر العظيم لتغالوا فى ثمنه تغاليا لا يتغالون مثله فى شىء آخر فى الأرض ، ولوضعوه فى أشرف مكان من هيا كل التحف والآثار القديمة عندهم ، ولحج وفودهم إلى رؤيته وتمنى الملايين لو تيسر لهم لمسه وآستلامه ، وناهيك بمن يعلم منهم تاريخه وكونه من وضع إبراهيم أبى الأنبياء عليهم السلام وأنهم ليتغالون فيما لا شأن له من آثار الملوك أو الصناع .

هذا وأن من مقاصد الحج النافعة تذكر نشأة الاسلام دين التوحيد والفطرة فى أقدم معابده وإحياء شعائر إبراهيم التى طمستها وشوهتها الجاهلية بوثنيتها فطهرها الله ببعثة ولده محمد الذى آستجاب الله به دعوته ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ عليهما الصلاة والسلام . روى

أحمد وأصحاب السنن والحاكم عن يزيد بن شيبان قال : أتانا ابن مِرْبع (كمنبر واسمه يزيد) الأنصارى ونحن بعرفة — فى مكان يباعده عمرو عن الإمام[1] — فقال : أما إنى رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم اليكم، يقول لكم : « قفوا على مشاعركم فإنكم على إرث من أبيكم ابراهيم» هذا سياق أبى داود وقد سكت عليه . وقال الترمذى : حديث ٱبن مربع الأنصارى حديث حسن لانعرفه إلا من حديث ٱبن عيينة عن عمرو بن دينار .

وجملة القول أن مناسك الحج من شريعة إبراهيم وقد أبطل الإسلام كل ما ٱبتدعته الجاهلية فيها من وثنيتها وقبيح عملها كطوافهم بالبيت عراة، وأن الكعبة من بناء إبراهيم واسماعيل عليهما السلام كما هو ثابت عند العرب بالإجماع المتواتر بينهم، وكانوا يعظمونها هم والأمم المجاورة لهم بل والبعيدة عنهم كالهنود، ومن الثابت أيضا أنهم لما جدّدوا بناءها أبقوا الركنين اليمانيين على قواعد إبراهيم، وإنما ٱقتصروا من جهة الركنين الشاميين ، ولذلك ورد ٱستلام الركنين اليمانيين دون غيرهما ، ويقال لأحدهما : الركن الأسود لأن فيه الحجَر الأسود وللآخر: اليمانى فإذا ثنوهما قالوا : اليمانيين تغليبا كما يقولون فى تثنية الركن الشامى والركن العراقى : الشاميين . ولما كانت الكعبة قد جدّد بناؤها قبل الإسلام وبعده ولم يبق فيها حجر يعلم باليقين أنه من وضع ابراهيم إلا الحجَر الأسود لٱمتيازه بلونه وبكونه مبدأ المطاف — كان هو الأثر الخاص المذكر بنشأة الاسلام الأولى فى ضمن الكعبة المذكرة بذلك بوضعها وموضعها وسائر خصائصها، زادها الله حفظا وشرفا . وقد علم بهذا أن الحجَر له مزية تاريخية دينية وإن كان الأصل فى وضعه بلون مخالف للون البناء ٱهتداء الناس بسهولة الى جعله مبدأ للطواف . ولنا مع علمنا بهذا أن نقول إن لله تعالى أن يخصص ما شاء من الأجسام والأمكنة والأزمنة بما شاء لروابط العبادة والشعائر، فلا فرق بين تخصيص

(١) هذه الجملة مدرجة فى الحديث أدرجها فى الرواية عمرو بن دينار ومعناها أنهم فى مكان بعيد عن موقف الامام بحيث لا يسمعون كلامه فقوله : يباعده عمرو يعنى يذكر عمرو بن عبدالله بن صفوان التابعى أنه بعيد عن الإمام الأعظم صلى الله عليه وسلم أى فلذلك أرسل اليهم رسولا .

الحجر الأسود بما خصصه به وبين تخصيص البيت الحرام والمشعر الحرام وشهر رمضان والأشهر الحرم بما خصت به، ومبنى العبادات على الاتباع لا على الرأى .

حكمة رمى الجمار

إذا وعيت ماتقدم كان نورا بين يديك تبصر به حكم سائر مناسك الحج، أعنى أنها مما تعبدنا الله تعالى بها لتغذية إيماننا بالطاعة والامتثال سواء عرفنا سبب كل عمل منها وحكمته أم لا، وأنها إحياء لدين إبراهيم أبى الأنبياء و إمام الموحدين المخلصين، وتذكير بنشأة الإسلام ومعاهده الأولى . وإن لاستحضار ذلك لتأثيرا عظيما فى تغذية الإيمان وتقوية الشعور به والثقة بأنه دين الله الخالص الذى لا يقبل غيره، فإن جهلنا سبب شرع بعض تلك الأعمال أوحكمتها لا يضرنا ذلك ولا يثنينا عن إقامتها، كما اذاثبت لنا نفع دواء من الأدوية مركب من عدة أجزاء وجهلنا سبب كون بعضها أكثر من بعض، فان ذلك لا يثنينا عن استعمال ذلك الدواء والانتفاع به، ولا يدعونا إلى التوقف وترك استعماله الى أن نتعلم الطب ونعرف حكمة أوزان تلك الأجزاء ومقاديرها .

أبسط ما يتبادر الى الذهن من منشإ هذه العبادة أن هذه المواضع التى تسمى الجمرات كانت من معاهد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، فشرع لنا أن نقف عند كل واحدة منها نكبر الله سبع تكبيرات نرمى عند كل تكبيرة حصاة صغيرة بين أصابعنا نعد بها التكبير، والعدّ بالحصى — ومثله النوى فى مثل الحجاز — من الأمور المعهودة عند الذين يعيشون عيشة السذاجة، فنجمع بهذا الذكر بهذه الكيفية بين إحياء سنة إبراهيم الذى أقام الدين الحق فى هذه المعاهد وبين التعبد لله تعالى بكيفية لا حظ للنفس ولا محل للهوى فيها . والعبادة منها شعائر يجتمع لها الناس وتقصد الأمة بعملها إظهار الدين والاجتماع والتآلف على عبادة الله تعالى، وكل أعمال الحج من هذا القبيل، ومنها ما يقصد به تربية كل فرد نفسه وتزكيتها فقط كالتهجد وذكر الله فى الخلوة، فلا يقال إن الذكر والتكبير لا يختص بذلك الزمان والمكان، لأن هذا

القول لا يصح إلا فى غير الشعائر إذ الشعائر لابد فيها من التخصيص والتوقيت لأجل جمع الناس عليها بنظام كالأذان وصلاة الجماعة والجمعة والعيدين .

أما كون رمى الجمار شرع لذكر الله تعالى فسيأتى حديث عائشة المصرح به ، وأما سبب وقوف إبراهيم فى تلك المعاهد لذكر الله وتكبيره وعدّه بالحصى فلا يضرنا جهله ويكفينا أن نقتدى به فى هذه الشعيرة كشعيرة الطواف وغيرها من المناسك . وورد فى بعض الأحاديث الضعيفة السند أن إبليس عرض له هنالك أى يوسوس له ويشغله عن أداء المناسك فكان يرميه كل مرة فيخنس ثم يعود . وروى الطبرانى والحاكم والبيهقى عن ابن عباس : لما أتى خليل الله المناسك عرض له الشيطان عند جمرة العقبة فرماه بسبع حصيات حتى ساخ فى الأرض ثم عرض له عند الجمرة الثانية فرماه بسبع حصيات حتى ساخ فى الأرض ثم ذكر الجمرة الثالثة كذلك .

وروى عن محمد بن إسحاق قال : لما فرغ ابراهيم عليه السلام من بناء البيت الحرام جاءه جبريل عليه السلام فقال له طف به سبعا : ثم ساق الحديث وفيه أنه لما دخل مِنًى وهبط من العقبة تمثل له إبليس عند جمرة العقبة فقال له جبريل : كبر وارمه سبع حصيات ، فرماه فغاب عنه ، ثم برز له عند الجمرة الوسطى فقال له جبريل : كبرّ وارمه فرماه ابراهيم سبع حصيات ، ثم برز له عند الجمرة السفلى فقال له جبريل : كبر وارمه ، فرماه سبع حصيات مثل حصى الخذف ، فغاب عنه إبليس . ثم مضى إبراهيم فى حجه — الحديث . وليس تمثل الشيطان للأنبياء ولا ظهوره لهم بغريب فى قصصهم ففى الإنجيل المعتمد عند النصارى أنه ظهر للمسيح عليه السلام وجربه تجارب طويلة . فإذا صح أن إبليس عرض لإبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام فى أثناء أداء مناسكه بظهور ذاته أو مثاله أو بمجرد التصدى للوسوسة والشغل عن ذكر الله تعالى فلا غرابة فى قذفه ورجمه كما يطرد الكلب ، فمن المعروف فى الأخلاق والطباع أن يأتى الانسان بعمل عضوى يظهر به كراهته لما يعرض له

حتى من الخواطر القبيحة ودفعه عنه وبراءته منه ، فأخذ الحصيات ورميها مع تكبير الله تعالى من هـذا القبيل ، وإن حركة اليد المشيرة الى البعد لتفيد فى دفع الخواطر الشاغلة للقلب...والرجم بالحجارة بقصد الدلالة على السخط والتبرى أوالإهانة معهود من الناس وله شواهد عند الأمم كرجم بنى اسرائيل مع يشوع النبى (يوشع عليه السلام) لعجان بن زراح وأهـله وماله من ناطق وصامت كما فى ٧ : ٢٤ و٢٥ من سـفر يشوع ، وكرجم النصارى لشجرة التين التى لعنها المسيح ، ورجم العرب فى الجاهلية لقبر أبى رغال فى المُغَمَّس بين مكة والطائف لأنه كان يقود جيش أبرهة الحبشى الى مكة لأجل هدم الكعبة حرسها الله تعالى .

والعمدة فى رمى الجمار ماتقدّم من قصد التعبد لله تعالى وحده بما لاحظ للنفس فيه اتباعا لإبراهيم أقدم رسل الله الذين بقيت آثارهم فى الأرض ، ومحمدٍ خاتم رسل الله ومكمل دينه ومتممه الذى حفظ كله فى الأرض صلى الله عليهم أجمعين .

قال أبو حامد الغزالى رحمه الله تعالى فى بيان أسرار الحج من الإحياء : «وأما رمى الجمـار فليقصد به الانقياد للأمر إظهارا للرق والعبودية ، وانتهاضا لمجرد الامتثال من غير حظ للنفس والعقل فى ذلك . ثم ليقصد به التشبه بإبراهيم عليه السلام حيث عرض له إبليس لعنه الله تعـالى فى ذلك الموضع ليدخل على حجـه شبهة أو يفتنه بمعصية ، أمره الله عز وجل أن يرميـه بالحجـارة طردا له وقطعا لأمله . فان خطر لك أن الشيطان عرض له وشاهده فلذلك رماه وأما أنا فليس يعرض لى الشيطان ، فاعلم أن هـذا الخاطر من الشيطان وأنه الذى ألقاه فى قلبك ليفتر عزمك فى الرمى ، ويخيل إليك أنه لا فائدة فيه ، وأنه يضاهى اللعب فلم تشتغل به ؟ فاطرده عن نفسك بالجـد والتشمير فى الرمى ، فبـذلك ترغم أنف الشيطان . واعلم أنك فى الظاهر ترمى الحصى فى العقبـة وفى الحقيقة ترمى به وجه الشيطان وتقصم به ظهره ، إذ لا يحصل إرغام أنفه إلا بامتثالك أمر الله سبحانه وتعالى تعظيما له بمجرد الأمر من غير حظ للنفس فيه » اهـ .

حكمة الرمل فى الطواف والسعى بين الصفا والمروة

الطواف بالكعبة المعظمة والسعى بين الصفا والمروة من مناسك الحج وشعائر الإسلام عن عهد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وروى أن هاجر رضى الله تعالى عنها كانت تسعى بينهما وَالِهة حيرى عند حاجتها إلى الماء زمن ولادتها إسماعيل حتى هداها الله تعالى الى بئر زمزم . والحكمة فى هذه العبادة ما ذكرناه فى الكلام على رمى الجمار من إقامة ذكر الله تعالى فى هذه المعاهد التى هى أقدم معاهد التوحيد المعروفة فى الأرض وإحياء سنن المرسلين فيها، قال صلى الله عليه وآله وسلم « إنما جعل الطواف بالبيت وبين الصّفا والمروة ورمى الجمار لإقامة ذكر الله » رواه أبو داود والترمذى وقال حسن : صحيح من حديث عائشة . وأذكاره معروفة فى المناسك . وأما الرمل فيه فهو سنة نبينا صلى الله عليه وسلم خاصة ومعناه سرعة فى المشى مع تقارب الخطوات من غير عدو ولا وثب، ويسمى الخبب أيضا، فهو دون العدو وفوق المشى المعتاد، فإن زادت السرعة كان عدوا .

أما سبب الرمل فى الطواف والسعى بهمة ونشاط بين الصفا والمروة فهو كما يؤخذ من عدّة أحاديث إظهار قوّة المسلمين للمشركين ، وكان قد علم النبى صلى الله عليه وسلم أن المشركين قالوا عام الحديبية فى المؤمنين : قد أوهنتهم حمّى يثرب . وروى فى الصحيح أيضا أن النبى صلى الله عليه وسلم لما قدم مكة لعمرة القضاء قال المشركون : إن محمدا وأصحابه لا يستطيعون أن يطوفوا بالبيت من الهزال لذلك أمر صلى الله عليه وسلم أصحابه أن يرملوا فى ثلاث طوفات ويمشوا فى أربع من الأشواط السبعة من طواف القدوم فقط . وكان خطر لعمر بن الخطاب أن يتركه لأن النبىّ صلى الله عليه وسلم فعله لسبب عارض ، ثم بدا له فمضى عليه لأنه علم أن المحافظة على ما فعله النبىّ صلى الله عليه وسلم ولم ينه عنه كالمحافظة على ما كان فعله جدّه إبراهيم صلى الله عليه وسلم إن لم تكن أولى، روى أبو داود وابن ماجه عنه أنه قال : « فيم الرَّمَلَان اليوم والكشف عن المناكب وقد أطأ الله الإسلام

(أى وطأه وأحكمه) ونفى الكفر وأهله ؟ مع ذلك لا ندع شيئا كنا نفعله على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم » وأصله فى البخارى بلفظ "فما لنا والرمل إنما كنا راءينا به المشركين وقد أهلكهم الله — ثم قال — شيء صنعه رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا نحب أن نتركه"؛ وقوله : «راءينا» مشاركة من الرؤية أى أريناهم قوتنا وأننا لا نعجز عن مقاومتهم، وقيل : هو من الرياء بمعنى إراءة ما هو غير الواقع أى أريناهم من الضعف قوة . والرياء مذموم لأنه خداع والخداع جائز فى الحرب وهذا من قبيل الحرب، وقوله فى الرواية الأولى : والكشف عن المناكب معناه الاضطباع وهو أن يؤخذ الرداء من تحت إبط اليد اليمنى فيلقى على كتف اليسرى فتظهر المناكب، وحكمته عين حكمة الرمل، وقيل : إنما هو لأجل التمكن منه وقد ورد فى الصحيح أن المشركين قالوا عند ما رأوا النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه يرملون مضطبعين : هؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم أجلد من كذا وكذا، وفى رواية أجلد منا .

فعلم من هذا أن الرمل أو الهرولة كما قال السائل إنما شرعت فى الطواف لسبب، وأننا نحافظ عليه لتمثيل حال سلفنا الصالحين رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضى الله عنهم اتباعا وتذكرا لنشأة الإسلام الأولى فى عهدهم، وهل توجد أمة من الأمم غيرنا تعرف من نشأة دينها هذه الدقائق بيقين ؟ لالا ! فالحمد لله رب العالمين .

حكمة ذبائح النسك

حكمة ذبائح الهدى والأضاحى معروفة لا يجهلها عامة المسلمين، وهى طاعة الله تعالى وتقواه وإظهار نعمته بتوسعة المسلمين على أنفسهم وعلى الفقراء والمساكين فى أيام العيد التى هى أيام ضيافة الله للمؤمنين، وهى من مناسك الحج لأنها إحياء لسنة إبراهيم وتذكر لنعمة الله عليه وعلى الناس بفداء ولده إسماعيل من الذبح الذى ابتلاه الله واختبره به لتظهر قوة إيمانه بالله تعالى وإيثاره لرضاه . ونعمة الله بذلك على الناس كافة إنما هى من حيث إن إسماعيل هو جدّ محمد صلى الله عليهما وسلم الذى أرسله الله تعالى خاتما لرسله وهاديا للناس كافة .

قال الله تعالى فى البُدْن التى تنحر للنسك ﴿ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ﴾ وقال فى ذبائح النسك عامة ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ .

جملة القول فى حكمة الحج والاعتبار به

اعلم أيها الحاج أن ما ورد فى الحديث الصحيح من أن الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة ، وأن «من حج ولم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه» سببه أن الحج إذا أدى كما يحب الله تعالى يقوى الإيمان ويزكى النفس ويطهرها حتى يظهر أثر ذلك فى الأخلاق والمعاملات مع الله والناس .

فاذا أردت أن يكون حجك مبرورا فعليك أولا أن تتوب الى الله تعالى توبة صادقة وأن يكون حجك لوجه الله وابتغاء مرضاته بآمتثال أمره وتحقيق حكمة شرعه فى النسك وغيره .

وذلك بأن تعلم أنك بحج بيت الله تعالى مقبل على الله تعالى مع إخوانك المؤمنين كما تقبلون عليه فى الآخرة ، وتذكر أن ثياب الإحرام كأكفان الموتى ، وأن المحرمين يتساوى كبيرهم وصغيرهم وأميرهم ومأمورهم فى الزى وترك ما هو غير ضرورى للحياة من نعيم الدنيا ومميزاتها ومفاخرها وأثاثها ورياشها وزينتها وطيبها وفى أداء المناسك كلها ولا سيما الوقوف بعرفات الذى يشبه الوقوف بين يدى الله تعالى يوم القيامة . فتدبر هذه المعانى وتذكر أنك بين يدى الله تعالى وأنه يسمع تلبيتك التى سمعت معناها ، فآجتهد أن تكون صادقا فيها وتدبر معناها ومعانى سائر الأذكار والدعوات ، وتذكر عند تقلبك فى المناسك نشأة الدين الأولى فى عهد سيدنا إبراهيم وعهد ولده سيدنا محمد وهما أفضل الرسل عليهما الصلاة والسلام وعلى سائر رسل الله تعالى . وأنك تطوف حيث طافا وتسعى حيث سعيا وتقف حيث وقفا وتذكر الله وتدعوه حيث ذكرا ودعوا ، ولكنهما تحملا من العناء والبلاء فى إقامة دين الله فى تلك البلاد ما لا تتحمل شيئا منه .

فاذا أنت تذكرت وتدبرت ماذكر يخشع قلبك وجوارحك وتدمع عيناك، ويقوى شعور الإيمان فى نفسك حتى يغلب باذن الله تعالى ما كان فيها من آثار الأوزار السابقة، وتعود بصفائها وطهارتها الى أصل الفطرة، وهذا معنى خروجك من الذنوب كيوم ولدتك أمك. فيجب أن تحرص بعد الحج على المحافظة على هذه النفس الزكية الطاهرة كما تحرص على نفس ولدك الذى تربيه تربية صالحة أن ينغمس فى الفسق والشرور، ولا تنس ما فى الحج من فوائد تعارف شعوب المسلمين وقبائلهم وتآلفهم، فاحرص على هذه الفائدة والله الموفق، فنسأله تعالى أن يوفقنا لاداء مناسكنا على الوجه الذى يحبه ويرضاه، ويجعل ذلك ذخيرة لنا الى يوم نلقاه. والحمد لله أوّلا وآخرا.

قبل أن نتكلم على مكة وما فيها من المشاعر نتقدم اليك بكلمة جغرافية عن بلاد العرب ثم بموجز تاريخى عن هذه البلاد وسير الفتوحات الإسلامية منها الى أرجاء المعمورة حتى تكون عليما بتاريخ المسلمين وأين هم الآن فاستمع علمنا الله وإياك.

فصـــــل جغـــــرافى موجز [1]

فى وصف بلاد العرب

(ا) حدودها وشواطئها وأهمية موقعها

(١) حدودها — شبه جزيرة العرب أو «جزيرة العرب» كما يسميها العرب أو «الجزيرة» فقط كما يسميها بعضهم هى ثالثة أشباه الجزائر الأسيوية الكبيرة الواقعة فى جنوب آسيا . تحدها البحار من ثلاث نواح فتفصلها عما يليها فى هـذه النواحى فصلا تاما . يحدّها البحر الأحمر غربا ، والمحيط الهندى جنوبا ، وبحر عمان والخليج الفارسى شرقا . أما حدودها الشمالية العامة فمبهمة غير واضحة ، فقد يلحقون بها شبه جزيرة سيناء وبادية الشام والجزيرة والعراق وقد لا يفعلون . وهذه الجهات تعدّ منها من الوجهة الطبيعية وإن كانت لا تعـدّ منها من الوجهة السياسية . وعلى كل حال فمساحة الجزيرة العربية تبلغ نحو ألف ألف ميل مربع أى نحو ثلث القارة الأوربية .

(٢) شواطئها — يكاد الشاطئ الغربى يكون خطا مستقيما وهو على العموم قليـل المرافئ الصالحة لرسوّ السفن . وأهم الجزائر الواقعة بالقرب منه والتابعة لبلاد العرب جزائر فرسان وكمران وبريم الواقعة عنـد مدخل مضيق باب المندب . والشاطئ الجنوبى الممتدّ فى تقوّس وانحناء من مضيق باب المنـدب الى رأس الحدّ به عدّة ثغور حسنة ، أهمها عدن والمكلة والشحر وبالقرب منـه جزيرة سقطرى وجزائر كوريا موريا . وأما الشاطئ الشرقى الممتدّ من رأس الحدّ الى الكويت فرملى قريب الغور ، وتقع قريبا منه جزائر البحرين الشهيرة . هـذا ويبلغ طول الشواطئ العربية من السويس الى مصب الفرات نحو ٤٠٠٠ ميل .

---

(١) هـذا الفصل والفصل التاريخى الذى يعقبه بقلم حضرة عبد الحميد افندى العبادى أستاذ التاريخ والجغرافيا بمدرسة القضاء الشرعى .

(٣) أهمية موقعها — هذا الموقع المتوسط الذى تقعه بلاد العرب بين المحيط الهندى والبحر الأبيض المتوسط وبين آسيا وأفريقية الشمالية اللتين هما أهم أقطار العالم التجارية فى العصور القديمة والمتوسطة ومن أهم أقطاره التجارية فى العصور الحديثة قد جعل لبلاد العرب منذ أقدم أزمنة التاريخ أهمية تجارية عظيمة بحرية وبرية كما يعلم المطلع على تاريخ العرب فى الجاهلية والإسلام .

(ب) الجوّ والنبات والحيوان

(١) الجوّ — ليس جوّ بلاد العرب على حالة واحدة فى جميع أنحائها بل هو يختلف اختلافا بينا من مكان لآخر . فالجهات المنخفضة القريبة من البحار حارة وغير صحية ، والجهات المرتفعة جافة صحية . ويسقط المطر بنجد فى فصلى الربيع والخريف . وقد تنخفض درجة الحرارة شتاء باليمن فتفوت درجة التجمد . وقد ترتفع فى الصيف فتبلغ ٨٠° (بمقياس فهرنهايت) وتستفيد هذه البلاد من الرياح الموسمية فيسقط بها المطر فى مارس ويولية وأغسطس وسبتمبر . وقد يدوم فصل المطر فى الحجاز نحو خمسة أسابيع من فصل الخريف . وأما الجهات الشمالية فالمطر بها نادر وإذا سقط فإنما يسقط فى فصل الشتاء .

(٢) النبات — تعدّ اليمن أخصب أنحاء الجزيرة العربية ، ويزرع بها البن والفاكهة والخضروات . ومن حاصلات الحجاز الحناء والبلسم . وأهم حاصلات حضرموت البخور . وأهم مزروعات عمان والأحساء النيلة . وأما النخل فينمو فى أكثر أنحاء الجزيرة . وقد جلب الى بلاد العرب من الخارج شجر جوز الهند والموز فنما بها نموّا حسنا .

(٣) الحيوان — أهمه الإبل والغنم والخيل والحمير ، وكلها تعدّ فى الطبقة الأولى من نوعها ولا سيما مهارى (مهرة) وخيل نجد . ويوجد النعام ببعض الصحارى العربية غير أنه قليل . ويكثر السمك بخليج عمان ، ويستخرج من مغاصات اللؤلؤ الشرقية ما قيمته سنويا نحو ٣٠٠,٠٠٠ جنيه .

(ج) الوصف الطبوغرافى

مقدّمة — كان جغرافيو الاغريق والرومان يقسمون بلاد العرب بالنظر الى طبيعة أرضها الى ثلاثة أقسام : بلاد العرب الحجرية ، وبلاد العرب السعيدة ، وبلاد العرب الرملية ؛ فأما الأولى فكانت عندهم شبه جزيرة سيناء ؛ وأما الثانية فهى بلاد اليمن ؛ وأما الثالثة فكل ما عدا هذين الإقليمين من بلاد العرب . وأما العرب فكانوا يقسمونها باعتبار المواضع والأقاليم . وأساس تقسيمها عندهم جبال السراة التى تمتدّ من أطراف بادية الشام الى اليمن ؛ فتقسم جزيرة العرب الى قسمين : غربى ، وشرقى . فالغربى وهو أصغرهما ينحدر من سفح ذلك الجبل حتى يصل الى شاطئ البحر الأحمر ، وقد صار هابطا أو غائرا فسموه الغور أو تهامة ؛ والقسم الشرقى وهو أكبرهما يمتدّ شرقا وهو على ارتفاعه الى أطراف العراق والسماوة فسموه نجدا لهذا السبب . وسموا الجبل الفاصل بين تهامة ونجد (الحجاز) وهو عبارة عن جبال تتخللها المدن والقرى . وجعلوا ما تنتهى به نجد فى الشرق حتى يصل الى خليج فارس بلاد اليمامة والبحرين وعمان وما والاها ويسمونها العروض ، وسموا القسم الجنوبى بلاد اليمن وحضرموت والشحر .

وأما الجغرافية الحديثة فتميل الى تقسيم بلاد العرب باعتبار قربها من البحر أو بعدها عنه . وعلى هذا الاعتبار تنقسم بلاد العرب الى قسمين كبيرين : (١) بلاد العرب المتصلة بالبحر وتشمل الحجاز وعسيرا واليمن وحضرموت ومهرة (الشحر) وعمان والأحساء (البحرين) ؛ (٢) بلاد العرب غير المتصلة بالبحر وهذه تشمل نجدا والصحارى الداخلية . وسنتبع هذا التقسيم ونذكر كلمة موجزة عن كل قسم من هذه الأقسام :

بلاد العرب المتصلة بالبحر

(١) الحجاز — أهم الأقطار العربية من الوجهة التاريخية ، فيه نبت الإسلام ومنه درج كما سترى فى الفصل التاريخى الآتى . وهو يمتدّ بوجه عام من رأس خليج

العقبة الى حدود اليمن اذا اعتبرنا عسيرا داخلة فيه كما يصنع بعض الجغرافيين . وبه من الأودية وادى الحمد ووادى الرمة . وأهم مدنه مكة المشرفة والمدينة المنورة والطائف الشهيرة بفواكهها الجيدة . وأهم ثغوره الواقعة على البحر الأحمر، الوجه والحوراء وينبع ورابغ وجدّة، وكلها محطات للحجاج المصريين . وينزله من القبائل العربية الآن عرب الحويطات فى الإقليم الشمالى المسمى حسمى، وعرب عنزة شمالى المدينة، وبلى ما بين العقبة والوجه، وقريش شمالى عرفة والطائف، وهذيل فى الجبال التى بين مكة والطائف، وثقيف فى جنوب وشرق الطائف .

(٢) عسير — تتسع جبال السراة جنوبى مكة والطائف فتكوّن الإقليم المعروف بعسير والواقع بين الحجاز شمالا واليمن جنوبا . وهذا الإقليم على العموم من أخصب وأجمل الأقاليم العربية وأغناها من الوجهة الاقتصادية . أهم أوديته : وادى ضلع ووادى بيشة . وأهم مدنه : أبها ومحايل وصبيا . وأهم ثغوره : القنفدة . وأهم قبائل عسير : قبائل قحطان التى هى أصل القبائل اليمنية .

(٣) اليمن — وتنقسم الى قسمين غير متساويين : تهامة اليمن التى هى عبارة عن امتداد تهامة عسير والحجاز، ونجد اليمن ويتضمن أربع هضاب فرعية : هضبة نجران فى الشمال، وهضبة مأرب فى الشرق، وهضبة صنعاء فى الوسط، وهضبة تعز فى الجنوب . وأهم مدن اليمن صنعاء، وهى العاصمة ثم صعدة ومأرب الشهيرة بآثارها القديمة وبريم وتعز ولحج وزبيد . وأهم ثغور اليمن الحديدة ومخا الواقعتان على البحر الأحمر، وعدن الواقعة على المحيط الهندى والتابعة لانجلترا (وكذلك جزيرة بريم الواقعة عند مدخل مضيق باب المندب) .

(٤) حضرموت — وهى عبارة عن الإقليم الواقع شرقى اليمن . سطحها جبلى يشقه واد متسع يساير الشاطئ نحو مائة ميل ويسمى وادى الكسر . وأهم مدن حضرموت : شبام . وأهم ثغوره : المكلا وسيحوت . وبحضرموت، كما باليمن آثار حضارة عربية قديمة .

(٥) مهرة — وكان جغرافيو العرب يسمونها (الشحر) وتمتد شرقا من سيحوت الى حاسك وتشتهر منذ القدم بالبخور والصموغ . وأهم ثغورها : الشحر ومرباط . هذا وأرض مهرة الممتدة من حاسك الى عمان قاحلة وداخلها غير معروف بالمرة .

(٦) عمان — هى أبعد جهات العرب من ناحية الشرق . يمتد شاطئها من رأس الحد الى الرأس المعروف برأس مسندم . وتكثر به المرافئ الجيدة كما يكثر السمك بمياهه ، وأهل عمان مشهورون من قديم الزمان بالمهارة فى الملاحة والاتجار مع بلاد الهند . وأما سطح عمان فجبلى يبلغ غاية ارتفاعه فى الجبل الأخضر . وعاصمة عمان هى مسقط وتقع الى الشمال منها صحار عاصمة عمان القديمة .

(٧) الأحساء — وكانت تعرف فى عهد الدول العربية الإسلامية بالبحرين أو هجر التى كانت عاصمتها إذ ذاك . وأما لفظ الأحساء فاسم المدينة التى أنشأها القرامطة فى القرن الرابع الهجرى بالقرب من هجر . والأحساء ثلاثة أقسام : قسم جنوبى ويعرف بالقواسم ، وقسم متوسط هو عبارة عن شبه جزيرة (قطر) التى تشتهر هى وجزائر البحرين باستخراج اللؤلؤ ، وقسم شمالى غربى يمتد من قطر الى الكويت ويسمى (القطيف) وأهم مدن قطر الحفوف ، وأهم مدن القطيف الكويت التى ستكون يوما ما مركزا تجاريا عظيما لحسن موقعها الجغرافى . وأهم حاصلات الأحساء : البلح و يضرب المثل بكثرته .

بلاد العرب الداخلية

ويمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام : البادية ونجد والدهناء .

(١) البادية — ونطلقها مجازا على الأرض الواقعة شمال نجد والا فهى عبارة عن بادية العراق والجزيرة والشام . ويلى هذه البوادى بادية السماوة التى سلكها خالد بن الوليد عند منصرفه من العراق الى الشام بأمر أبى بكر الصديق . وهى فلاة لا يأمن سالكها الهلاك فيها عطشا وجوعا . وتلى بادية السماوة الواحة المعروفة قديما بدومة الجندل وتعرف اليوم بالجوف . وهذه الواحة واقعة على الوادى

الآنى من حوران والمعروف بوادى السرحان . وتلى الجوف صحراء (النفود) وهى فلاة قاحلة لا ماء بها .

(٢) نجــد — هضبة عظيمة تلى (النفود) ويبلغ ارتفاعها أحيانا أكثر من ٥٠٠٠ قدم، تشقها أودية تكثر زروعها وحيوانها . وأهم هذه الأودية : وادى الرمة ووادى الدواسر . ونجد تنقسم الى أقسام : حرة خيبر فى الغرب، والقصيم فى الشمال ونجد الأصلى فى الجنوب . ويقع الى الجنوب والشرق من نجد الإقليم المعروف باليمامة والذى يطلق العرب عليه وعلى البحرين معا اسم (العروض) . هذا وجو نجد أصح أجواء بلاد العرب، وأهم بلدان نجد الرياض وحائل وعنيزة، وتنزله فى الوقت الحاضر من القبائل بنو سبيع وعنزة وقبائل تنتمى الى بنى هلال المشهورة .

(٣) الدهناء — صحراء مترامية الأطراف مجهولة الداخل تمتد من جنوبى نجد الى الحدود الصحراوية لعمان ومهرة وحضرموت واليمن . ليست بها عيون ولا أودية، وانما تجودها الأمطار فى فصل المطر فتعشب فيؤمها البدو بخيامهم وإبلهم فيرعونها نحو ثلاثة أشهر، فاذا حل فصل الجفاف ارتحلوا عنها . ويطلق على هذه الفلاة أسماء مختلفة ؛ فالقسم الواقع منها بين شرق اليمن وشمال غربى حضرموت يسمى (صيهد) . والجزء الواقع شمال شرقى حضرموت يسمى (الأحقاف) . والجزء الواقع شمال مهرة يسمى (وبار) على أنها تسمى بوجه عام (الدهناء) لحمرة رمالها . وكثيرا ما يطلقون عليها (الربع الخالى) أى غير المعمور .

التقسيم السياسى الحاضر

إن حال بلاد العرب السياسية مضطربة فى الوقت الحاضر إضطرابا كبيرا ، وذلك نتيجة الحرب العالمية الكبرى وزوال سلطة الدولة العثمانية عن هذه البلاد . غير أنه يمكننا أن نقول فى تصوير الحال السياسية العامة لبلاد العرب إن بها اليوم من الإمارات ما يأتى :

(١) الإمارة الزيدية فى القسم الجبلى من اليمن .

(٢) الإمارة الإدريسية فى أراضى الشافعية من تهامة اليمن و بعض تهامة عسير .

(٣) السلطنة السعودية الوهابية فى جميع نجد بما فى ذلك إقليم عسير .

(٤) الحكومة الهاشمية التى انحصرت فى جدّة .

(٥) إمارة آل الصباح بالكويت عند نهاية الخليج الفارسى .

(٦) مشيخة قطر .

(٧) مشيخة حضرموت وهى تحت الحماية الانجليزية .

(٨) سلطنة عمان المستقلة و يسكنها الخوارج الأباضية .

ولا يمكن القول بما ستؤول اليه الأحوال السياسية فى هذه البلاد ، نسأله تعالى أن يوفق أهلها الى مافيه جمع شملهم وتوحيد كلمتهم ورجوعهم كما كانوا فى صدر الإسلام إخوانا متحابين كلة فى نفوسهم إنه بالإجابة جدير .

فصل تاريخى موجز

فى حال العرب قبل الإسلام وقيام الدولة الإسلامية وآنتشار الدين الإسلامى

---

١ — كلمة فى العرب قبل الإسلام

الدول العربية قبل الإسلام — إن الجزيرة العربية التى سبق وصفها قد تناوب زعامتها من قديم الزمان ثلاثة شعوب سامية يطلق عليها جميعا آسم (العرب) ولا نعلم للأسف من تاريخها السابق على الإسلام غير اليسير المستمد من آثارهم التى كشفت حديثا ببلاد اليمن و بادية الشام ، ثم مما رواه الرواة من أشعارهم وأخبارهم ،

وما كتبه عنهم مؤرّخو الأمم المتحضرة التى عاصرتهم وآتصلت بهم كالمصريين والإغريق والروم والفرس . تلك الشعوب الثلاثة هى :

(١) العرب البائدة — الذين عاصروا الكلدانيين القدماء ومنهم العمالقة بشمالى الجزيرة والشام ومصر ، وعاد بالأحقاف ، وثمود بالحجر ، وطسم وجديس باليمامة والأنباط بشمالى الجزيرة . هؤلاء العرب قد بادوا وآنقطعت أخبارهم ، غير أنا نعلم من القرآن وبعض الآثار أنهم كانوا على حضارة راقية ولا سيما إذا آعتبرنا ما يروى عن مدينتهم (إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ) وقد بقى ذلك الجيل حتى غلبه على أمره جيل عربىّ ثان يعرف :

(٢) بالعرب القحطانية نسبة إلى جدّهم قحطان — والراجح أنهم نزحوا إلى جزيرة العرب من بعض جهات الفرات ، وكانت لهم باليمن دول آشتهرت منها «الدولة المعينية» والدولة السبئية » (من حوالى ٨٥٠ إلى ١١٥ ق . م) و « دولة حمير » و « التبابعة » (١١٥ق . م — ٥٢٥ م) وقد برعت العرب القحطانية فى الزراعة لخصب أرضهم ، وفى التجارة لحسن موقع بلادهم من الوجهة الجغرافية ، فكانت عروض التجارة ترد اليهم من الشرق بطريق البحر ثم ينقلونها على ظهور الجمال إلى الشام ومصر . وبرعوا كذلك فى الصناعة فدبغوا الجلود وطبعوا السيوف وصنعوا الرماح وغير ذلك . وكان لهم حكومات وملوك ومدن كبيرة منها (مأرب) و (صنعاء) وقصور فخمة ، منها : (ناعط) و (غمدان) وسدود عظيمة يستعان بها فى خزن الماء الزائد عن الحاجة زمن المطر لينتفع به وقت الحاجة اليه كسدّ مأرب . هذا ولا يزال علماء الآثار من الأوربيين يجدّون فى البحث عن آثار العرب القحطانية وربما أوضحوا فى المستقبل ما غمض من تاريخهم .

ولما ضعف شأن الدولة السبئية بعد القوة وأهملت مرافق الزراعة والصناعة تصدع سدّ مأرب ثم آنبثق فأهلك الحرث والنسل ، ولقد أشار القرآن الكريم الى هذا الحادث فى سورة سبإ فقال ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ

وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ(١) خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾ وربما كان ذلك فى أواخر القرن الثانى الميلادى . فهاجر أكثر القبائل اليمنية من بلادهم وتفرّقوا فى طول الجزيرة وعرضها ، فكان منهم دولة المناذرة اللخميين التى قامت بالحيرة بالعراق وكانت خاضعة لأكاسرة الفرس (٢٦٨ م — ٦٣٢ م) ودولة الغساسنة التى قامت ببادية الشام وفلسطين وكانت خاضعة لأمبراطرة الروم (٢٠٠ — ٦٣٣ م) . ودولة كندة التى قامت بنجد وكانت مستقلة (٤٠٠ — ٥٦٠ م ؟) وخلف الدولة السبئية دولة أخرى هى دولة حمير والتبابعة فكانت لها العظمة والقوّة ردحا من الزمن حتى ٱستولى الرومان على مصر وٱتخذوا البحر الأحمر طريقا تجاريا إلى اليمن والشرق فساءت حالها لكساد تجارتها البرّية ، ونهض إليها الأحباش وتغلبوا عليها سنة ٥٢٥ م ، وبعد ذلك بقليل من الزمن زالت عنها سلطة الأحباش بفضل البطل العربى المشهور سيف ابن ذى يزن وحلت محلها سلطة الفرس ، فكان ذلك كله سببا فى ٱنتقال الزعامة على بلاد العرب من الجنوب إلى الشمال فأصبحت فى الجيل العربى الثالث المعروف :

(٣) بالعرب الإسماعيلية أو العدنانية — وهم أشهر الأجيال العربية لظهور الإسلام فيهم ، وهم ينتسبون إلى إسماعيل بن إبراهيم الخليل — عليهما السلام — الذى نزل هو وزوجه هاجر وولدهما إسماعيل أرض مكة وحفروا بها بئر زمزم وبنوا الكعبة ، ومن ذلك الحين أخذ اليمنيون يتوافدون على تلك البقعة ويعمرونها حتى نشأت مكة المكرمة ، وإلى ذلك يشير القرآن الكريم بقوله على لسان سيدنا ابراهيم ﴿ رَبَّنَا إِنِّى أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ فَٱجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ ونشأ إسماعيل عليه السلام بين هؤلاء اليمنية (وخاصة قبيلة جرهم) وتزوّج منهم ، وعلى مر

(١) ثمر مرّ بشع .

الزمن تكاثر أبناؤه وٱنتشروا بالحجاز ونجد وما وراء ذلك من مشارف الشام والعراق، غير أنه بقيت منهم بمكة قبيلة كان لها فيما بعد شأن عظيم . تلك هى قبيلة قريش .

إمارة قريش بمكة — بقى أمر مكة بأيدى ملوك من جرهم . وكان لبنى إسماعيل مكانة محترمة لما لأبيهم من بناء الكعبة، ولكن لم يكن لهم من الحكم شىء. فلما كان حادث سد مأرب وٱرتحال القبائل اليمنية من ديارها كان منها من عرّج على مكة وهم بنو خزاعة الأزديون فحاربوا جرهما وأجلوها عن مكة وٱستبدوا بحكم مكة دون قريش حتى ظهر قصىّ بن كلاب حوالى منتصف القرن الخامس الميلادى فجمع شتات قريش ووحّد كلمتهم فكان لهم بذلك قوة مكنتهم من أن يزاحموا خزاعة ويغلبوها على حكم مكة . ولم يبق بأيديهم غير سدانة البيت الحرام فٱشتراها قصىّ بزق خمر من سادنه المعروف بأبى غُبْشَان وإلى ذلك يشير الشاعر بقوله :

باعت خزاعة بيت الله إذ سكرت * بزق خمر فبئست صفقة الشارى .

وبذلك أصبح قصىّ سيد مكة والمتولى شؤون الكعبة التى كانت تحج إليها العرب من جميع أنحاء الجزيرة فكان له من مظاهر الرياسة :

(١) رياسة دار الندوة التى أنشأها بمكة وكانت تجتمع فيها قريش للفصل فى أمورها العظيمة .

(٢) اللواء فكان لا تعقد راية الحرب إلا بيده .

(٣) الحجابة وهى حجابة الكعبة فلا يفتح بابها إلا هو وهو الذى يلى أمر خدمتها .

(٤) سقاية الحاج ورفادته .

وكان لقصىّ من الولد، عبد الدار، وعبد مناف، وعبد العزى، وكان عبد مناف قد ساد فى حياة أبيه فأراد أبوه أن يلحق به ابنه عبد الدار وكان أسنّ منه، فأوصى له بما كان يليه من مصالح قريش فلم ينازع عبد مناف أخاه فى ذلك، ولما توفى ترك أربعة أولاد، هاشما، وعبد شمس، والمطلب، ونوفلا، فنافسوا بنى عمهم عبد الدار فى هذه المصالح التى رأوا أنفسهم أحق بها لشرفهم وسيادتهم وكثرتهم، وٱفترقت

قريش طائفتين، طائفة تنتصر لبنى عبد مناف وطائفة تنتصر لبنى عبـد الدار وكاد يكون بينهم قتال لولا أنهم ألهموا الصلح على طريق لا يغض من الفريقين وهو اقتسام هذه المصالح، فكان لبنى عبد الدار الحجابة واللواء والندوة، ولبنى عبد مناف السقاية والرفادة . ثم حكم بنو عبد مناف القرعة فى نصيبهم فأصابت القرعة هاشم بن عبد مناف .

وهاشم بن عبـد مناف فيما يروى أول من سن الرحلتين لقريش رحلة الشتاء وكانت إلى اليمن ورحلة الصيف وكانت إلى الشام قصد الاتجار، وربما كان ذلك على أثر المعاهدات التى أبرمتها قريش على أيدى بنى عبد مناف مع من بجوارها من الملوك . روى الطبرى فى تاريخه أن بنى عبـد مناف أول من أخذ لقريش العصم فانتشروا من الحرم . أخذ لهم هاشم حبلا من ملوك الشام الروم وغسان، وأخذ لهم عبد شمس حبلا من النجاشى الأكبر، فاختلفوا لذلك السبب إلى أرض الحبشة، وأخذ لهم نوفل حبلا من الأكاسرة فاختلفوا بذلك السبب إلى العراق وأرض فارس، وأخذ لهم المطلب حبلا من ملوك حمير فاختلفوا بذلك الى اليمن . وقد امتن الله على قريش بهاتين الرحلتين فى قوله : ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِى أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ .

الخلاف بين الهاشميين والأمويين — وكان ذلك الشرف كله لهاشم بن عبـد مناف فأثار ذلك فيما يروى غيرة أمية بن عبـد شمس وكان مثريا من المـال والبنين ولكنه مع ذلك لم يكن له من رياسة قريش شىء . وجرت بين العم وابن أخيه منافرة غلب فيها أمية على أمره فكان ذلك بدء النزاع بين الهاشميين والأمويين .

فلما توفى هاشم خلفه أخوه المطلب ثم من بعده ابنـه عبد المطلب فى السقاية والرفادة، وتميز إمارة عبد المطلب بثلاث حوادث كبار :

(١) كشفه عن بئر زمزم التى كانت طُمَّت وخفيت معالمها .

(٢) تجدّد النزاع بين الهاشميين والأمويين ، وذلك أن حرب بن أمية بن عبد شمس نفس على عبد المطلب شرفه ورياسته وجرت بينهما منافرة كالتى كانت بين أبويهما فغلب حرب على أمره ، وكذلك آستمر الخلاف بين الهاشميين والأمويين وكانت له فيما بعد آثار عظيمة فى الإسلام .

(٣) واقعة الفيل وكانت عام ٥٧١ م . وسببها أن أبرهة الحبشى لما أقام باليمن أنشأ بصنعاء كنيسة فخمة وأراد أن يكون حج العرب إليها دون الكعبة ، فلما لم يتيسر له ذلك من طريق السلم آعتزم أن يسير إلى الكعبة ويهدمها . غير أنه فشل فى ذلك كما نطق به القرآن فى سورة الفيل ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ ٱلْفِيلِ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ(١) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ(٢) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ(٣) مَّأْكُولٍ﴾ .

وقد رزق عبد المطلب عشرة أبناء كان أحدهم عبد الله الذى ولد له سيدنا محمد عام الفيل على أصح الروايات .

الحال الدينية للعرب قبل الإسلام — قد آختلفت أديان العرب فى جاهليتهم فمنهم الدهريون الذين قالوا : ما يهلكنا إلا الدهر ، ومنهم الصابئة عبدة النجوم والكواكب ، ومنهم الوثنيون عباد الأصنام والأحجار والأشجار ، ومنهم اليهود والنصارى . غير أن عبادة الأصنام كانت الغالبة عليهم وكانت الكعبة مجمع أصنامهم . ومن أشهر أصنام العرب ، ود ، ويغوث ، ويعوق ، ونسر ، واللات ، والعزى ، ومناة ، وهبل ، والخلصة وقد ورد ذكر كثير منها فى القرآن الكريم .

تلك الحال الدينية قد تغيّرت بعض الشىء قبيل الإسلام إذ ظهر فى حواضر الجزيرة آحاد من العرب لم تطب نفوسهم عن ذلك الضرب من التعبد ورأوا أن هناك حقيقة غابت عنهم أوهم ضلوا عنها . روى ابن هشام فى سيرته عن ابن اسحاق أن قريشا اجتمعت يوما فى عيد لهم عند صنم من أصنامهم فخلص منهم أربعة نفر نجيا

---

(١) جماعات جماعات . (٢) طين متحجر . (٣) العصف : ورق الشجر .

هم ورقة بن نوفل وعبيد الله بن جحش وعثمان بن الحويرث وزيد بن عمرو، فقال بعضهم لبعض (تعلموا والله ما قومكم على شيء . لقد أخطأوا دين أبيهم ابراهيم . ما حجر نطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع؟ . يا قوم التمسوا لأنفسكم فانكم والله ما أنتم على شيء) فتفرقوا في البلدان : فأما ورقة بن نوفل فآستحكم في النصرانية وأما عبيد الله فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى أسلم ثم آرتد . وأمّا عثمان بن الحويرث فقدم على قيصر وتنصر . وأما زيد بن عمرو فوقف فلم يدخل في يهودية ولا نصرانية وفارق دين قومه . هذه الحركة تبين لنا ما كان وقتئذ في نفوس العرب من استعداد لقبول دين يلائم الفطرة كالدين الإسلامى .

ممـا تقدّم كله نعلم أنه لم يكن للعرب قبل الاسلام جامعة واحدة تؤلف بينهم . فأما من الوجهة الدينية فقد رأينا تعدّد نحلهم . وأما من الوجهة السياسية فقد كان منهم الخاضع للفرس كأهل اليمن أوّلا ومناذرة الحيرة أخيرا، أو للروم كغساسنة بادية الشام، ومنهم من لم يخضع لحكومة أجنبية وهم سائر العرب . على أنه قد كانت لهم أمور عصمتهم من التدابر المطلق : منها إجماعهم على تعظيم الكعبة واختصاصهم قريشا بسدانتها واحترامهم للأشهر الحرم واشتراكهم فى إقامة الأسواق العامة التى كانوا فيها يتبايعون و يتحاكمون و يتناشدون الشعر وذلك مثل سوق عكاظ وغيره .

و إنما الرجل الذى قام بجمع شتات العرب وجعل منهم أمة واحدة ذات دين واحد وحكومة واحدة وعصبية واحدة هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب سيد المرسلين وخاتم النبيين .

٢ – قيام الدولة الإسلامية وامتداد سلطانها

نشأة محمد عليه الصلاة والسلام — ولد نبينا — كما سبقت الإشارة بمكة عام الفيل سنة ٥٧١م من أبوين قرشيين هما عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم وآمنة بنت وهب بن عبد مناف . وقد توفى أبوه قبيل مولده وأمه قبل أن يبلغ السادسة

وجدّه وهو فى الثامنة فأصبح فى كفالة عمه أبى طالب . غير أن فقر عمه دفعه الى العمل والارتزاق . وكان فى مكة أرملة من فضليات النساء ذات ثروة ويسار . تلك هى (خديجة بنت خويلد) فلما رأت أمانة محمد عرضت عليه أن يسافر الى الشام للاتجار بمالها ففعل فأعجبت به وعرضت عليه أن يتزوّجها فقبل ذلك وقد بلغ الخامسة والعشرين . فلما بلغ الأربعين من عمره أرسله الله رحمة للعالمين فأخذ يذيع أصول الدين الإسلامى ويدعو اليه خاصته فآمنت به زوجته خديجة وابن عمه على بن أبى طالب وصديقه أبو بكر بن قحافة وأفراد غيرهم من كبار قريش . ثم كثر سواد المسلمين ، غير أن قريشا شق عليها ترك دينها وتسفيه أحلامها فناصبت النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه العداء وتمادوا فيه حتى اضطر بعض أصحابه الى الهجرة الى الحبشة فنزلوا على ملكها ضيوفا كراما واضطر النبى صلى الله عليه وسلم بعد ذلك الى الهجرة من مكة الى المدينة بعد ثلاث عشرة سنة من بعثته وكان قد أصبح له بالمدينة أنصار من أهلها اعتنقوا الإسلام وعرضوا عليه نصرتهم . وقد هاجر النبي الى المدينة واتخذها مستقرا له فكانت أوّل عواصم الإسلام .

فتح بلاد العرب ٢ — ١١ هـ — وبدأ النبى صلى الله عليه وسلم منذ هاجر الى المدينة سلسلة غزوات كانت بينه وبين أعدائه من يهود المدينة وقريش مكة وسائر القبائل العربية وانتهت بأن عم الإسلام جزيرة العرب ، ونحن نذكر أهم هذه الغزوات على سبيل الإجمال .

غزوة بدر سنة ٢ هـ — بلغ النبي صلى الله عليه وسلم أن عيرا لقريش آتية من الشام وعليها أبو سفيان بن حرب فأراد أخذها فنهضت قريش لحمايتها . والتقى الجمعان قريبا من المدينة على ماء بدر فى ١٧ رمضان سنة ٢ هـ . فانتصر المسلمون على قلة عددهم وكثرة عدوّهم وقتلوا جمعا من صناديد قريش فيهم (أبو جهل بن هشام) ألد أعدائه عليه الصلاة والسلام . ومعركة بدر من معارك التاريخ الفاصلة ، فقد اعتز بها الإسلام وقوى شأن المسلمين كما سترى .

وعلى أثر واقعة بدر خرج النبي صـلى الله عليه وسـلم الى بنى قينقاع وهم قبيلة يهودية بالمدينة قد نقضت عهدها مع النبي وآذت المسلمين فأخرجها من المدينة .

غزوة أُحد سنة ٣ هـ — صممت قريش على الثأر لنفسها ممن انتصر عليها فى واقعة بدر . فخرجت بقيادة أبى سفيان تريد المدينة فخرج اليهم النبى صـلى الله عليه وسلم عام ٣ هـ . والتقى بهم عند جبل أُحد وكاد النصر يكون للمسلمين، لولا أن بعض أصحاب النبي صـلى الله عليه وسـلم خالف أمره فانكشف المسلمون وحمل عليهم من خلفهم خالد بن الوليد حملة شديدة اضطرت كثيرا من المسلمين الى الفرار، وجرح النبي صـلى الله عليه وسـلم يومئذ وكادت الدائرة تدور على المسلمين لولا أن قريشا اكتفت بأن قتلت من المسلمين بقدر من قتلوا منها فى واقعة بدر وثنت الأعنة راجعة الى مكة . وعلى أثر تلك الواقعة علم النبى صلى الله عليه وسلم أن يهود بنى النضير يأتمرون بقتله فخرج اليهم وأخرجهم من المدينة الى خيبر (١) .

غزوة الخندق سنة ٥ هـ — وتعرف أيضا بغـزوة الأحزاب، لأن كثيرا من قبائل العرب ويهود خيبر ظاهروا فيها قريشا وساروا جميعا الى المدينة يريدون القضاء على الإســلام والمسلمين وحاصروا المدينة ولكنهم لم يستطيعوا أخذها، لأن النبى صلى الله عليه وسلم كان قد حصنها وحفر حولها بإشارة سلمان الفارسى خندقا عميقا . وكان القتال فى تلك الغزوة قاصرا على المبارزة الفردية والترامى بالنبل . وأخيرا اجتمعت على الأحزاب سياســة النبى صلى الله عليه وســلم التى فرقت ألفتهم ومطر وريح وجنود سلطها الله عليهم، فكانت تكفأ قدورهم وتقلب أخبيتهم فارتدوا عن المدينة ولم يبلغوا مراما .

صلح الحديبية سنة ٦ هـ — وأقام النبى صلى الله عليه وسـلم بالمدينة الى ذى القعدة من السنة السادســة للهجرة، ثم خرج يريد مكة معتمرا لا محاربا وسار حتى بلغ (الحديبية) وكانت قريش قد سمعت بقدومه فتأهبت للذود عن بلدها، وبعد

(١) وسيأتى تفصيل هذه الغزوة عند الكلام على زيارتنا لأُحد .

أخذ ورد عقد الفريقان الصلح على أن يكون بينهما هدنة لمدة عشر سنوات ، وعاد المسلمون من غير أن يدخلوا مكة ويطوفوا بالبيت .

وبتلك الهدنة أمن المسلمون شر قريش وأصبحوا مطلق الحرية يروحون ويجيئون كيف شاءوا وعظم نفوذ النبي صلى الله عليه وسلم ، فكتب الى ملوك الدول المجاورة لبلاد العرب يدعوهم الى الإسلام ، فمنهم من أسلم كنجاشي الحبشة ومنهم من ردّ ردّا جميلا كهرقل قيصر الروم والمقوقس حاكم مصر — أُنظر كتابه صلى الله عليه وسلم

كتاب النبي عليه السلام للمقوقس

A copy of the letter of the prophet Mohammad to El Mokawkas.

(الرسم ٣٢٠)

الى المقوقس رسم ٣٢٠ — ومنهم من ردّ ردّا قبيحا وأهان رسول النبي ، كالحارث ابن شمر الغسانى وكسرى الفرس .

فتح خيبر سنة ٧ هـ — على أن المسلمين، وان كانوا قد أمنوا شر قريش بصلح الحديبية، كان لهم عدوّ بالقرب منهم يتربص بهم الدوائر . ذلك العـدوّ هو يهود خيبر الذين لم ينسوا ما حل بهم وبإخوانهم . فسار اليهم النبي عليه الصلاة والسلام ونازل حصونهم واستولى عليها كلها .

ولمـا حال الحول على عمرة الحديبية، خرج النبي صلى الله عليه وسـلم معتمرا فأخلت قريش مكة على حسب شرطها فى صلح الحديبيـة . وقضى النبي صلى الله عليه وسـلم وأصحابه مناسك الحج ثم عاد الى المدينة . وكان لتلك الحجة أثر كبير فى نفوس قريش، حتى إن خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وغيرهما دخلوا فى الإسلام على أثرها .

فتح مكة سنة ٨ هـ — كان صلح الحديبية يقضى بأن يسود السـلم بين المسلمين وقريش عشر سنوات ، ولكن قريشا نقضت عهدها واعتدت على بعض أحلاف النبي صلى الله عليه وسلم، فسار النبي صلى الله عليه وسلم فى أصحابه معتزما فتح مكة . وخرج أبو سفيان يتجسس الأخبار فظفرت به جنود النبي صلى الله عليه وسلم فلم يسعه إلا أن يسلم، وعنـد ذلك منحه النبي من العفو ما لم يكن يطمع فيه وخلى سبيله . فعـاد أبو سفيان الى مكة وحمل أهلها على الاستسلام لمن لا يستطيعون مناهضته . فدخل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه تلك البلدة التى طالمـا جاهدته وآذته وكان بوسعه أن ينتقم منها أشـدّ الانتقام، ولكنه عفا عن أهلها وقال لهم : « ما تظنون أنى فاعل بكم ؟ » قالوا خيرا، أخ كريم، وابن أخ كريم، قال «اذهبوا فأنتم الطلقاء» ثم سار الى الكعبة فكسر ماحولها من الأصنام . وقد أعقب ذلك أن أسلم أهل مكة جميعا .

غزوة حنين سنة ٨ هـ — فلما رأت ذلك قبيلة هوازن، وكانت منازلها بالقرب من مكة، توقعت أن يغزوها النبي صلى الله عليه وسلم فأجمعت على أن تغزوه قبل أن يغزوها، وانضمت اليها ثقيف وقبائل أخرى . فلما سمع النبي صلى الله عليه وسلم بذلك سار اليهم والتقى بهم فى وادى حنين فى طريق وعرة . فبغته العدوّ وكادت الهزيمة تدور عليه، لولا ثباته وشجاعة الأنصار فإنهم أعادوا الكرة على الأعداء وهزموهم وغنموا أسلابهم .

غزوة تبوك سنة ٩ هـ — كان النبي صلى الله عليه وسلم فى سنة ٨ هـ قبل فتح مكة قد أرسل جيشا بقيادة زيد بن حارثة، الى عرب بادية الشام فتكاثرت الروم والعرب على ذلك الجيش وقتل زيد بن حارثة، ولولا تدبير خالد بن الوليد لأبيد الجيش كله . فلما كان عام ٩ هـ . بلغ النبي صلى الله عليه وسلم أن الروم يجمعون له فحشد جيشا جرارا تبلغ عدّته ثلاثين ألف مقاتل واتجه به نحو الشمال . على أنه لم يلتحم بالروم بل بسط نفوذه على القبائل العربية الشمالية، بأن فرض الجزية على (آيلة) و (دومة الجندل) وغيرهما، ثم عاد وكانت هذه آخر غزواته عليه الصلاة والسلام .

وفى ذلك العام أخذت العرب تدخل فى دين الله أفواجا وكثرت الوفود على النبي صلى الله عليه وسلم قادمة من جميع أنحاء الجزيرة العربية، فكان عليه الصلاة والسلام يرسل معهم من أصحابه من يقرئهم القرآن ويفقههم فى الدين .

حجة الوداع ووفاته عليه الصلاة والسلام — ولما كانت السنة العاشرة حج النبي صلى الله عليه وسلم بأصحابه آخر حجة له، وخطب الناس فى هذه الحجة خطبة بليغة مؤثرة تعرف (بخطبة الوداع) أوضح للناس فيها كثيرا من أمور الدين وألقى عليهم فيها من النصائح الغالى الثمين، وقد تقدّمت الحجة بالتفصيل وسيأتى نص الخطبة . ثم عاد الى المدينة المنوّرة .

وفى أواخر صفر من السنة الحادية عشرة للهجرة اعتلت صحته عليه السلام فاستأذن نساءه فى أن يمرض فى بيت زوجته السيدة (عائشة) فأذن له . ولما كان

يوم الاثنين ١١ ربيع الأول من سنة ١١ هـ . لحق عليه السلام بالرفيق الأعلى وقد خلف وراءه دينا يساير الفطر والعقول هو الدين الإسلامى، وأمة بالمعنى الصحيح هى الأمة العربية ووضع أساس دولة سيكون لها شأن عظيم هى الدولة الإسلامية .

٣ — انتشار الدين الإسلامى بالسياسة

الحرب بين العرب وبين الروم والفرس

مقدّمة — وضع النبى عليه الصلاة والسلام أساس الدولة العربية، وفى الأرض دولتان كبيرتان هما دولة الروم المسيحية ودولة الفرس المجوسية . فأما دولة الروم فكانت قد أصابها الضعف وتفرّق الكلمة، لضعف امبراطرتها من بعد جستنيان وللنزاع الدينى الذى كان قائما بين الملكانية والنساطرة بالشام، وبين الملكانية واليعاقبة بمصر . هذا النزاع قد فصل فى الحقيقة هذين القطرين عن الدولة الرومانية من الوجهة الدينية وجعلهما على وشك الانفصال عنها من الوجهة السياسية .

وأما دولة الفرس التى كان يحكمها المتأخرون من ملوك الأسرة الساسانية فلم تكن حالها خيرا من حال الدولة الرومانية، وذلك لأسباب كثيرة منها ظهور نحل دينية غريبة مفسدة للنظم الاجتماعية، وضعف المتأخرين من ملوك الأسرة الساسانية، وكثرة الطامعين فى ملكهم من أقربائهم وقوّاد جيوشهم، وحروبهم الكثيرة مع الدولة الرومانية .

تلك حال الدولتين اللتين اصطدمت بهما الدولة العربية الناهضة فزعزعت أركان الأولى وقوّضت دعائم الثانية، وذلك أن أبا بكر الصديق أوّل خلفاء الإسلام بعد أن قضى على حركة (الردّة) التى ظهرت فى جزيرة العرب قبيل وفاة النبى صلى الله عليه وسلم وأعاد الى هذه الجزيرة وحدتها السياسية، انتهز عودة الجيوش العربية الظافرة فسير بعضها الى الشام والبعض الآخر الى العراق لفتح بلاد هى عربية قبل

كل شيء، ألا وهى بلاد الغساسـنة والمناذرة ، ولكن القتال مع هؤلاء ترقى بطبيعة الحال الى قتال مع الدولتين الحاميتين لهم أى مع دولتى الروم والفرس . ونحن متكلمون أوّلا على الحروب التى نشبت بين العرب والروم وانتشار الإسـلام فى الشام ومصر وشمالى أفريقية وأسـبانيا . ثم نعود فنتكلم على نشوب الحرب بين العرب والفرس وانتشار الإسلام فى الأقطار الأسيوية التى دخلها الإسلام قرين السياسة .

(١) فتح الشام

سيّر أبو بكر الصديق الى الشام جيشا ضخما تبلغ عدّته ٣٥٠٠٠ مقاتل، وكان أربعة أقسام :

(١) قسم يقوده أبو عبيدة بن الجراح وكانت وجهته حِمص .

(٢) وقسم يقوده يزيد بن أبى سفيان وكانت وجهته دمشق .

(٣) وقسم يقوده شرحبيل بن حسنة وكانت وجهته وادى الأردن .

(٤) وقسم يقوده عمرو بن العاص وكانت وجهته فِلسطين .

واقعة اليرموك سنة ١٣ هـ — فلما رأى ذلك هرقل امبراطور الروم قدم بنفسه الى حِمص، ومن ثم وجه أربعة جيوش تبلغ عدّتها ٢٤٠٠٠٠ مقاتل لسحق الجيوش العربية . فلما رأى قوّاد العرب ذلك اتفقوا فيما بينهم على أن يجمعوا جيوشهم فى صـعيد واحد وأن ينزلوا جميعا اليرموك . فأمر هرقل قوّاده أن ينزلوا اليرموك أيضا وبقى الجمعان متواقفين ثلاثة أشهر، فأوجس أبو بكر فى نفسه خيفة على المسلمين وأمر خالد بن الوليد بالسير من العراق الى الشام، فقدم خالد وعهد اليه قوّاد العرب أمر القيادة، فعبّأ الجيوش تعبئة قائد خبير ثم حمل على الروم فهزمهم وأفنى أكثر جيشهم وانتصر العـرب انتصارا مبينا . وفى أثناء المعـركة جاء البريد بوفاة أبى بكر وتولى عمر بن الخطاب وعزل خالد عن القيادة العليا وجعلها لأبى عبيـدة، وذلك لأمور كان ينقمها عمر من خالد .

وكانت واقعة اليرموك فاصلة فى أمر الشام، فقد استولى أبو عبيدة وخالد بعدها على دمشق وعلى مدن الساحل وكذلك حمص واللاذقية وقِنسرين وحلب، واضطر هرقل أخيرا الى الفرار الى القسطنطينية .

فتح القدس سنة ١٥ هـ — وفى أثناء ذلك كان عمرو بن العاص يجدّ فى فتح فلسطين . وكان أرطبين حاكم فلسطين قد بث الجند فى بيت المقدس وغزة والرملة، ورابط بجيشه فى أجنادين شرقى بيت المقدس . ففصل عمرو فصائل من جيشه لمراقبة تلك الجنود، ثم زحف بمعظم الجيش الى أرطبين فهزمه عند أجنادين واضطره الى الفرار الى مصر . واستولى عمرو عقب الواقعة على مدن الساحل الفلسطينية . وأما بيت المقدس فحاصره أربعة أشهر وأبى بطريقه (سفرونيوس) أن يسلم المدينة لأحد غير الخليفة نفسه . فجاء عمر فلسطين وتسلم المدينة وابتنى بها مسجده المشهور .

(ب) فتح مصر والنوبة

عند ما قدم عمر بن الخطاب الى بيت المقدس لتسلمه سنة ١٥ هـ . اقترح عليه عمرو بن العاص أن يبعثه بجيش لفتح مصر فلم يجبه عمر الى ذلك . فلما كان عام ١٨ هـ . واضطربت حال الشام عقب طاعون (عمواس) قدم عمر الى دمشق فأعاد عمرو اقتراحه . وقد أجابه الخليفة هذه المرة وهو متخوّف متردّد . ومن الحجج التى أدلى بها عمرو تبريرا لما طلب : (١) أن مصر مضطربة الحال مفتحة الأبواب؛ (٢) أنها غنية جدّا؛ (٣) أن أرطبين الذى كان حاكم القدس قد لجأ اليها وأخذ يحشد الجنود ليسترد الشام .

زحف عمرو على مصر — غادر عمرو قيسارية على رأس ٤٠٠٠ مقاتل وبلغ العريش سنة ١٨ هـ . ثم سار منها الى الفرما فاستولى عليها من غير جهاد كبير وجرّدها من معدّات دفاعها، ثم سار الى بلبيس ملتزما حدود الصحراء فلما بلغها قاتل

الروم عندها وقتل قائدهم أرطبين واستولى على البلد، ثم تركها الى قرية أم دنين الواقعة على رأس الدلتا[١] .

واقعة عين شمس سنة ٢٠ هـ — على أن عمرا أدرك حرج موقفه فأرسل الى الخليفة يستمدّه وشغل جنده فى أثناء ذلك بغزو الفيوم، فلما جاء المدد وقدره ٤٠٠٠ مقاتل عسكر بجميع جنوده شمالى عين شمس ثم التقى بالروم فى واقعة عين شمس المشهورة وهزمهم هزيمة كان من أثرها سحق الجيش الرومانى والاستيلاء على الإقليم المسمى مصر الواقع عند رأس الدلتا وإتمام إخضاع الفيوم والشروع فى حصار حصن بابليون .

أخذ حصن بابليون سنة ٢٠ هـ — وكان المقوقس رئيس بطركية الإسكندرية فى ذلك الوقت داخل الحصن وكانت له مآرب سياسية يودّ الوصول إليها بكل الوسائل، فأخذ ييئّس الروم من الانتصار على العرب وٱستطاع أن يبعث وفدا الى جزيرة الروضة لمفاتحة العرب فى أمر الصلح فلم يفلح الوفد أوّلا، ثم عقد الصلح أخيرا على أن يؤدّى الروم للعرب الجزية، وكتب المقوقس معاهدة بذلك وبعث بها إلى هرقل ليقرّها . فدهش الامبراطور لذلك ولم يقرّ المعاهدة بل ٱستدعى المقوقس الى القسطنطينية، فلما رأى العرب ذلك واصلوا الحصار وبيناهم كذلك اذ بلغهم موت هرقل فكان ذلك مثبطا للرومان مقويا للعرب، وتسوّر الزبير بن العوّام الحصن وتبعه الجند، فاستسلمت الحامية الرومانية لهم .

فتح الاسكندرية سنة ٢١ هـ — وعلى أثر ذلك شرع عمرو فى الزحف الى الإسكندرية فٱلتقى بالروم فى طريقه اليها عند دمنهور، فهزمهم فى واقعة كبيرة انحاز بعدها الجيش الرومانى الى الإسكندرية واقتفى العرب أثرهم . وكانت الإسكندرية اذ ذاك مدينة عظيمة حصينة بها نحو ٥٠,٠٠٠ مقاتل وكانت فوق ذلك مفتوحة من ناحية البحر . لذلك ترك عمرو بظاهرها جيشا يحاصرها ثم سار هو لفتح المدن

(١) وموقعها الآن ما بين الأزبكية وعابدين .

الساحلية . وفى أثناء ذلك عاد المقوقس الى الاسكندرية وأخذ يعمل على إنفاذ مآربه القديمة . وقد أفلح سعيه هذه المرة اذ أقنع الامبراطور الجديد بضرورة تسليم الاسكندرية . ثم شرع يفاوض عمرو بن العاص فى شأن الصلح والتقى به فى بابليون وعقدا معاهدة تقضى بأن تؤدّى الجزية للمسلمين وأن تجلو الجيوش الرومانية عن الاسكندرية والا يتدخل المسلمون فى الشؤون الدينية المسيحية وأن يسمح لليهود بالاقامة بالاسكندرية مع شروط أخرى . وبمقتضى هذه المعاهدة دخل العرب الاسكندرية وتمّ لهم الاستيلاء على مصر . ثم غزوا على أثر ذلك بلاد النوبة وصالحوا ملكها على جزية يؤدّيها لمصر كلّ عام .

(ج) فتح بلاد المغرب

لم يكد عمرو بن العاص يفرغ من مصر حتى شرع فى الزحف غربا وقد تمّ له فتح الاقليم المعروف ببرقة ثم صار ولاة مصر من العرب من بعده يعملون على إخضاع بلاد المغرب و إدخال الإسلام فيها فكانوا يلقون فى ذلك عناء عظيما وذلك لوعورة أرض المغرب وتنائيها عن المشرق ولاستبسال البربر فى القتال زمن الحرب وعدم إخلادهم الى الهدوء زمن السلم ولأن الروم كانوا يساعدون البربر احتفاظا بسلطانهم فى تلك البلاد بعد أن زال سلطانهم عن الشام ومصر . هذه الصعاب كلها جعلت الإسلام يسير فى بلاد المغرب سيرا بطيئا بل جعلته أحيانا يرجع القهقرى، كما حدث عند ما تجمع الروم والبربر على عقبة بن نافع وقتلوه هو ومعظم جيشه سنة ٦٣ هـ . وعند ما ثاروا بزهير بن قيس البلوى وقتلوه ، وعند ما قامت الكاهنة (دهياء) والتفّ البربر حولها (٧٤ — ٧٩ هـ) على أن البربر نزلوا أخيرا على حكم العرب عند ما عهد أمر إخضاعهم الى القائد الكبير موسى بن نصير فإنه قمع فتنتهم ونشر فيهم الإسلام .

(د) فتح الأندلس

بعد أن تمّ لموسى بن نصير أمر المغرب ولى على طنجة وما حولها مولاه طارق ابن زياد وعاد هو الى القيروان عاصمة المغرب لذلك العهد . وكانت حال الأندلس

فى ذلك الوقت مختلة معتلة لضعف الحكومة القوطيـة التى كانت تحكمها . فطمع طارق فى فتحها فعبر الزقاق (مضيق جبل طارق) بإذن موسى سنة ٩٢ هـ . ونزل بشاطئ أسبانيا الجنوبى والتحم بالقوط يقودهم ملكهم (رذريق) فى معركة عظيمة على النهر المعـروف بوادى بكة . فهزمهم واسـتولى على المدن الأندلسية الجنوبية ثم سار الى طُلَيطُلة عاصمة الدولة القوطية واستولى عليها . وعند ذلك التحق به موسى ابن نصير ليفوز بشرف الفتح وسار القائدان العظيمان معا يفتحان مدن الأندلس حتى بلغا جبال البرانس وبذلك أصبحت أسبانيا (ما عدا الجـزء الشمالى الغربى) يخفق عليها علم الدولة الإسـلامية . وقد أتيح لتلك الأرض أن تقوم بهـا للمسلمين دولة عظيمة هى الدولة الأموية الأندلسية وحضارة رائعة يذكرها التاريخ بكل إعجاب .

(هـ) قيام البحرية الإسلامية وفتح أكبر جزائر البحر الأبيض المتوسط

كان الباعث للعـرب على إنشاء الأساطيل البحرية خوفهم من غارات الروم على الشام ومصر من ناحية البحر . وقد أنشأ معاوية بن أبى سفيان أيام ولايته على الشام لعثمان بن عفان أسطولا لهذ الغرض وجعل عليه عبد الله بن قيس الحارثى . وقد فتح هـذا الأسطول جزيرة قبرس وساعده فى ذلك الأسـطول المصرى يقوده عبد الله بن سعد بن أبى سرح .

واستولى المسلمون بمرور الزمن على أهم جزائر البحر الأبيض المتوسط ، ففى عام ٢١٠ أخرج عبـد الله بن طاهر والى مصر مهاجرة الأندلس من الاسكندرية الى اقريطش (كريت) بعد أن زوّدهم بالمـال والسلاح فساروا اليها وافتتحوها ونشروا فيها الاسلام . وافتتح المسلمون جزائر البليار عند فتحهم أسبانيا فى أواخر القرن الأول الهجرى . وكذلك افتتحت الدولة الأغلبية التى كانت حاكمة تونس (١٨٤ — ٢٩٦هـ) جزيرة صـقلية وجنوبى إيطاليا فكان ذلك سببا فى قيام حضارة إسـلامية بصقلية

لا يزال بعض آثارها ماثلا الى اليوم . فلما ظهر الترك العثمانيون استولوا على رودس وكثير من جزائر بحر الأرخبيل وأدخلوا فيها الإسلام .

(و) فتح العراق (١٢ — ١٤ ﻫ)

كانت وقائع خالد بن الوليد وغيره من قواد العرب مع المرتدين فى اليمامة والبحرين يتطاير شررها الى القبائل العربية النصرانية النازلة ببادية العراق والمحتمية بالحكومة الفارسية فكانت الحال لا تخلو من قتال بين الفريقين . هذا هو السبب القريب فى قيام الحرب بين العرب والفرس غير أنه كان ثمة سببان جوهريان لهذه الحرب هما رغبة أبى بكر فى نشر الاسلام وشغل العرب بالجهاد بعد حروب الردّة . لذلك أمر خالد بن الوليد بعد انتهائه من واقعة اليمامة أن يسير الى العراق وينضم بجيشه الى جيش المثنى بن حارثة الذى كان يقاتل فى البحرين . وكذلك أمر عياض بن غنم أن يلحق بهما . فاجتمع جيشا خالد والمثنى وكانت عدّتهما نحوا من ٢٠,٠٠٠ مقاتل والتقى خالد بالفرس فى وقعة (الحفير) فكان النصر لخالد . وقد أثار ذلك الانتصار عصبية بكر وتغلب النازلتين غربى الفرات و بعثهما على طلب الثأر لمن قتل خالد منهم، وانضم اليهم كثير من الجند الفارسى . فلما علم بذلك خالد سار اليهم والتقى بهم فى وقعة (الليس) وانتصر عليهم بعد قتال عنيف .

وزحف خالد بعد ذلك الى الحيرة عاصمة المناذرة فاستسلمت اليه بشروط معينة ثم ذهب لنجدة عياض بن غنم عند دومة الجندل فاستولى على هذه البلدة وعاد الى الحيرة والتقى بتغلب والفرس فى واقعة الفراض وانتصر عليهم . ثم خرج الى الحج خفية وعاد ولم يشعر جنده بذلك . فلما علم أبو بكر بحجه هذا عتب عليه وأمره بأن يتوجه بنصف الجيش الى الشام حيث كان المسلمون مرابطين باليرموك كما تقدّم القول فأطاع خالد واستخلف على بقية جيش العراق المثنى بن حارثة .

واقعة القادسية سنة ١٤ ﻫ — رأى المثنى بن حارثة بعد ارتحال خالد قلة جنده وحرج موقفه نخف الى المدينة ليخبر أبا بكر بحقيقة الحال فوجده فى مرضه

الأخير . فلما تولى الخلافة عمر بن الخطاب كان أوّل ما عمله أن نفذ مشيئة أبي بكر فأرسل مددا الى المثنى يقوده أبو عبيدة بن مسعود الثقفى . فانتصر أبو عبيدة فى أوّل الأمر على الفرس ولكنه خالف نصيحة القائد المجرب المثنى بن حارثة فاشتبك مع الفرس فى واقعة الجسر التى انتهت بقتله وفناء معظم جيشه . فلما بلغ الخليفة ذلك جدّ فى إرسال الجند الى العراق . أما المثنى فتراجع الى حدود الصحراء واستمدّ من يليه من القبائل العربية النصرانية فأمدّوه عصبية منهم لإخوانهم العرب واشتبك مع الفرس فى واقعة البويب فكان النصر له عليهم .

فى ذلك الوقت تولى على الفرس شاب حمِى هو يزدجرد آخر آل ساسان فعزم على طرد العرب من بلاده وساق على العراق ١٢٠,٠٠٠ مقاتل يقودهم قائده رستم . فرأى المثنى أن لا قبل له بلقاء ذلك الجيش الجرار وتراجع مرة أخرى الى الصحراء ريثما ترد عليه النجدة من المدينة . ولكنه لم يمدّ له فى عمره حتى يرى آثار إخلاصه وحسن بلائه فقد توفى بعد قليل من الزمن من جراح أصابته فى واقعة الجسر .

ومن حسن حظ الجيش العربى أن أدركته النجدة يقودها سعد بن أبى وقاص . رابط سعد فى سهل القادسية بجيش يبلغ (مع مدد جاء من الشام أثناء القتال) ٤٠,٠٠٠ مقاتل . وكان الجيش الفارسى حياله على الجانب الشرقى للفرات . وظل الجيشان متوافقين مدة طويلة حتى نفد صبر يزدجرد وأمر رستم ببدء القتال فعبر رستم الفرات ونشب بين الفريقين قتال عظيم دام ثلاثة أيام ثم انجلى عن انتصار باهر للعرب . وكانت تلك الواقعة فاصلة فى شأن العراق فانها استتبعت ارتجاع الحيرة وما والاها من المدن التى كانت سقطت فى أيدى الفرس ثم الزحف الى المدائن عاصمة الفرس وأخذها . كذلك كان من نتائجها فرار يزدجرد واستيلاء العرب على الأرض الواقعة جنوبى الموصل وقرقيسياء . وعند ذلك أمر الخليفة سعدا ألا يتابع الفتح واكتفى من بلاد الفرس بالعراق . فاتخذ سعد المدائن مقرا له وشرع ينظم شؤون الحكومة الجديدة . غير أن غارة من الفرس على العرب كانت السبب فى واقعة

جلولاء التى استولى بها العرب على حلوان . وفرّ يزدجرد الى الرى وأصبحت جبال زجروس حدّا فاصلا بين العرب والفرس .

(ز) فتح فارس

واقعة نهاوند سنة ٢١ هـ — على أن عمر بن الخطاب اضطر لأن يأذن للعرب بمناجزة الفرس لتوالى غارات هؤلاء عليهم . فأمر سعد بن أبى وقاص أن يسيّر الجنود بقيادة النعمان بن مقرّن لقتال الفرس فالتقى النعمان أخيرا بالفرس قرب نهاوند وانتشب بين الفريقين قتال عنيف قتل فيه النعمان بن مقرّن فقام مكانه حذيفة ابن اليمان فحمل على الفرس وهزمهم شر هزيمة .

وكانت هذه الواقعة فاصلة فى شأن فارس اذ استتبعت استيلاء العرب على همذان والرى كما استتبعت فرار يزدجرد الى ماوراء النهر (حيث توفى فى خلافة عثمان). ثم أمر عمر ففتح العرب الأقاليم الفارسية التى لم تكن فتحت .

(ح) فتح أواسط آسيا ودخول الإسلام فيها

حدث فى فارس بعد وفاة عمر بن الخطاب خروج عام على العرب فأمر عثمان والى البصرة عبد الله بن عامر بأن يقمع هذه الثورة ، فقام ابن عامر بذلك سنة ٣١ هـ . ثم تابع الزحف متجها شمالا بشرق فاستولى على أكبر مدن خراسان وهى نيسابور ومرو وسرخس وبلغ بلخ وطخارستان . فلما كان عصر الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك فتح العرب الاقليم المسمى « ما وراء النهر » (٨٦—٩٦ هـ) وكان فتحه على يد قتيبة بن مسلم عامل خراسان ، فاستولى على بخارى سنة ٨٨ هـ . وسمرقند سنة ٩٢ هـ . وبلغ حدود الصين سنة ٩٦ هـ . وأصبح الإسلام دين أهل تلك البلاد وزهت بها المدنية الاسلامية زهاء عظيما .

(ط) فتح الهند وانتشار الإسلام فيها

قد بلغ العرب فى فتوحهم الاسلامية الأولى جهات الهند الشمالية ولكنهم لم يستقروا بها ولا استداموها إقليما تابعا لهم . فلما كانت ولاية الحجاج على العراق والمشرق وجه الى الهند محمد بن القاسم سنة ٩٢ هـ . لفتحها ونشر الاسلام فيها . فسار ابن القاسم فى جيش لا يزيد عن ١٠,٠٠٠ مقاتل ففتح السند والبنجاب، ووقف الفتح العربى عند هذا الحدّ لاضطراب أمر بنى أمية وظل إقليم السند زهاء قرنين من الزمان يحكمه أمراء من العرب .

على أن الفتح الحقيق لبلاد الهند ونشر الاسلام فيها إنما جاء على أيدى أتراك خراسان لا عرب الجزيرة . وقد قام بذلك العمل الجليل أربع دول تاريخها فى الحقيقة متصل غير منفصل الأولى الدولة الغزنوية التى حكمت بلاد الأفغان والبنجاب (٣٥١ — ٥٨٢ هـ) وكان أكثر رجالها جدّا فى فتح الهند محمود بن سبكتكين . الثانية الدولة الغورية التى حكمت بالأفغان وبلاد الهند (٥٤٣ — ٦١٢ هـ) وقد دان لها سهل الهندستان كله . الثالثة دولة سلاطين دهلى (٦٠٢ — ٩٦٢ هـ) وكان مقر حكومتها بالهند نفسها لا خارجها كما كانت الحال من قبل . الرابعة دولة المغول بالهند كلها (٩٣٢ — ١٢٧٥ هـ) وقد انبسط سلطانها على الهند كلها تقريبا وظلت كذلك حتى اضمحلت وآلت الزعامة على الهند الى الانجليز فى أواسط القرن الثالث عشر الهجرى .

ولا بأس بأن نلمّ فى هذا المقام بأهم الأمور التى مكنت المسلمين وهم فئة قليلة أجنبية من أن ينزلوا بلاد الهند على سعتها وكثرة سكانها واختلاف نحلها ويؤسسوا لهم بها الدول ذات الأعمار الطويلة . إن الهنود على الرغم من كثرتهم الهائلة كانوا طوائف متقاطعة متخاذلة من الوجهتين السياسية والأدبية . وكان سوادهم الأعظم من طبقة الزراع المستضعفة من قديم الزمان والتى أمات الاستبداد ما بها من حب الاستقلال فأصبحت لا تهتم لسقوط حكومة وقيام أخرى ما دام الكفاف من

العيش ميسورا لها . لذلك قلما نجد الهنود يناهضون المسلمين . أما المسلمون فكانوا بإزاء ذلك يدا واحدة يقاتلون لنصر الاسلام ونشره بين الوثنيين . ثم إن الديمقراطية التى يتصف بها الاسلام قد جعلت كثيرا من الهنود يدخلون فى الاسلام فى حين أن من لم يدخل فيه كان يفضل حكومة المسلمين الأجنبية على حكومة (الراچات) الوطنية لأن الأولى كانت أبرّ بهم وأرحم .

(ى) دخول الاسلام فى جنوب أوربا الشرقى

للتُّرك فضل كبير فى نشر الدين الاسلامى فهم الذين نشروه فى بلاد الهند كما تقدّم القول، وهم الذين عملوا على حفظه من غلبة التشيع فى القرن الخامس الهجرى كما يعلم المطلع على تاريخ السلاجقة، وهم الذين رفعوا لواءه ردحا من الزمن بجنوب أوربا الشرقى .

والترك عامة فرع من الجنس التترى الذى حكم كثيرا من البلاد الأسيوية فى الأزمنة القديمة . ومواطن الترك الأصلية هى سهول بحر قزوين وبحر آرال وما وراء النهر وما والاها من الجهات . وقد تدرّجوا فى الظهور فى التاريخ الاسلامى فكانوا أوّل الأمر خدما فى بيوت الأمراء وقصور الخلفاء فجندا فولاة أقاليم فسلاطين إبان حكم السلاجقة وخلفائهم من الأتابكة، ولما جاء التتار فى القرن السابع الهجرى قضوا على بقايا السلاجقة إلا دولة الروم السلجوقية بآسيا الصغرى فانها امتنعت عليهم حينا من الزمن . وكان من بين القبائل التركية الخراسانية التى سارت مغربة فرارا من التتار قبيلة صغيرة تعرف (بالأوغوز) يبلغ عددها ٤٠٠ فارس . تلك القبيلة هى أس الترك العثمانيين الذين أتموا فتح آسيا الصغرى وأقاموا دولة أسلامية عظيمة بجنوب أوربا الشرقى .

سار بهذه القبيلة زعيمها المسمى (أرطغرل) يرتاد لقومه منتجعا فأدّى به السير الى آسيا الصغرى . وبينما هو ذات يوم يطلع اذ رأى فيما يروى جيشين يقتتلان وآنس فى أحدهما علائم الانهزام . فانحاز اليه كرما منه فتغيرت بذلك حال الجيشين

المتحار بين اذ انهزم الذى كان هازما وغاب الذى كان من قبـل مغلوبا . وما لبث أرطغرل أن علم أنه نصر السلطان علاء الدين السلجوقى على جيش تترى . واعترافا له بتلك اليد البيضاء أقطعه السلطان المذكور أرضا له على حدود الدولة البيزنطيـة فى آسيا الصغرى عرفت فيما بعد (بسلطانونى) ذلك الأقطاع هو أس الدولة التركية العثمانيـة .

نمو الدولة التركية — ولبث أرطغـرل أميرا على ذلك الإقطاع حتى توفى سنة ٦٨٠ هـ . فتولى بعـده ابنه عثمان الذى ينسب اليه الترك (٦٨٠ — ٧٢٦ هـ) فثبت قدمه فى إقطاعه، ثم شرع فى الاستيلاء على الحصون البيزنطية التى تتاخم أرضه حتى قارب (بروسه)، وفى عام ٦٩٩ هـ . قضى التتار على الدولة السلجوقية بآسيـا الصـغرى فكان ذلك سببا فى اسـتقلال سلطانونى ومن ذلك الحين أخذ سلاطين الترك يعملون من جهة على إخضاع جميع آسيا الصغرى لسلطتهم ومن جهة أخرى على التـدخل فى شئون الدولة البيزنطية بقصد الاسـتفادة من ضعفها ثم إسقاطها والحلول محلها . وقد تم لهم ذلك كله . والذى بدأ سياسة الفتح الأوربية هو أرخان ابن عثمان (٧٢٦ — ٧٦١ هـ) فانه بعـد أن نظم شئون دولتـه وأنشأ جيش الانكشارية الشهير أخذ يتدخل فى الشئون الأوربية وكانت الدولة البيزنطية اذ ذاك فى منتهى الانحطاط وكان يتنازع عرشها رجلان أحدهما يسمى كنتاكوزين والآخر باليولوغ وكان كل منهما يستعين أرخان على خصمه . فمدّ أرخان يد المساعدة الى أولهما فكافأه على ذلك بأن زوّجه من ابنته ، وعند ما زحف الصربيون على القسطنطينية فى عام ٧٥٣ هـ . اسـتعان كنتاكوزين بصهره أرخان فأرسل اليه مددا يقوده ابنه سليمان . وقد تمكن كنتاكوزين بهذا المدد من ردّ الصربيين . ولكى يكافئ سليمان على صنيعه هذا نزل له عن حصن (تزمب) القائم بالشاطئ الأوربى للدردنيل واتفق فى العام القابل أن حدث زلزال عظيم فى تراقيـة دك حصون البـلاد وهدم أسوار غاليبولى فاستولى عليها الترك فكان ذلك بدء ملكهم بأوربا .

وفى عهد السلطان مراد الأول (٧٦١ — ٧٩٢ هـ) بلغ الترك فى فتوحهم نهر الطونة بعد أن هزموا الصرب والبلغار والمجر والأفلاق والألبان فى واقعة (قوصوه) الشهيرة سنة ٧٩٢ هـ . وبهذه الفتوح كلها أصبحت أملاك الترك تكتنف القسطنطينية من جميع جهاتها . وبذلك طمع محمدا الثانى الملقب بالفاتح (٨٥٥ — ٨٨٦ هـ) فى أخذها والقضاء على الدولة البيزنطية ، وقد تم له ذلك فى عام ٨٥٧ هـ . وأصبحت القسطنطينية عاصمة الدولة التركية . وقد اتبع محمد الفاتح ذلك العمل الخطير بأن أتم إخضاع البوسنة والصرب والمورة وجزائر الأرخبيل وشواطئ البحر الأسود الجنوبية والقرم وألبانيا . ونزلت جنوده بجنوبى إيطاليا . وبذلك أصبحت شبه جزيرة البلقان بأيدى الترك .

ثم وقف نمو الدولة التركية فى أوربا لأن بايزيد بن مراد الأول لم يكن ميالا للحروب بوجه عام ولأن سليمان ابنه (٩١٨ — ٩٢٦ هـ) شغل بمحاربة الفرس ومماليك مصر والشام وكان مظفرا فى حروبه فقد أذل الفرس وأدخل الشام ومصر فى حكم الترك وحمل فيما يقال الخليفة العباسى الذى كان مقيما إذ ذاك بالقاهرة على أن ينزل له عن الخلافة ففعل وأصبحت الخلافة فى آل عثمان .

فلما تولى ملك آل عثمان السلطان سليمان القانونى (٩٢٦ — ٩٧٤ هـ) استؤنف الفتح والتوسع فى أوربا ففتح السلطان بلاد المجر ودفع جيوشه فى النمسا حتى بلغ عاصمتها ويانا وحاصر هذه العاصمة مرتين ولكنه لم يستطع أخذها لمناعتها واستبسال أهلها .

ذلك أقصى ما بلغته حدود الدولة التركية فى أوربا . على أنها لم تستدم ذلك الملك الواسع طويلا فقد أصابها الضعف بعد القوة لفساد إدارتها وسياستها فى الداخل ولنهوض الدول المجاورة لها : الروسيا والنمسا وبولونيا واجتماعها كلها على محاربة الترك وانتقاص ملكهم فصار الترك يخلون شيئا فشيئا عن أملاكهم الأوربية وغير الأوربية حتى أصبح ملكهم منحصرا فى آسيا الصغرى .

٤ — الأقطار التى دخلها الاسلام بمجرد الدعوة
ومقدار انتشار الاسلام فى الوقت الحاضر

إن الأقطار التى سبق الكلام عليها هى التى شملتها الدول الإسلامية فى الأعصر الإسلامية المختلفة وهى التى دخلها الاسلام قرين السياسة . على أنه ينبغى ألا يستفاد من ذلك أن الاسلام قام بالقوّة كما يرى كثير من النـاس مسلمين وغير مسلمين . فالحقيقة أن الدولة الاسلامية كانت من كثير من الوجوه ذات صفة مدنية وأنهـا نمت نموّ الامبراطوريات الواسعة القديمة والحديثة . أما الدين الاسلامى فقد انتشر فى أكثر الأحوال بمجرّد الدعوة من جانب الفاتحين أو بمجرّد اطمئنان القلب اليه من جانب من فتحت عليهم بلادهم وذلك كما حدث فى الشام ومصر فقد دخلهما الاسلام والمسيحية فيهما متشعبة المذاهب منقسمة الآراء منحطة النفوذ فكان ذلك سببـا فى انصراف كثير من أهلها عنها ودخولهم فى الاسلام . وقد يكون انتشار الاسـلام لسبب آخر هو مجرّد الرغبة فى التخلص من دفع الجزية وأن يكون الذميون والمسلمون فى مستوى أدبى واحد . ونحن لانذهب بعيدا فى تقرير هذه الحقيقة فالقرآن والسنة حثا فى كثير من المواطن على احترام الذميين ودعوتهم الى الاسلام بالتى هى أحسن . وكان المسلمون عادة لا يكرهون أحدا على الدخول فى دينهم بل كانوا يكتفون منهم فى الغالب بالجزية والسيرة الحسنة .

ومما يدل على صدق النظرية التى تقول بانفصال الدين عن السياسة فى التاريخ الاسلامى أن الدين الاسلامى قد دخل أقطارا كثيرة مجرّدا من وسائل الفتح والتغلب السياسى ونحن نختم هذا الفصل التاريخى بذكر هذه الأقطار ثم نتبع ذلك بكلمة تبين مقدار انتشار الاسلام فى أنحاء العالم فى زمننا الحاضر .

(ا) الصحراء الكبرى — السودان — غرب أفريقية وشرقها

عرفناك قبلا أن الإسلام دخل مصر والنوبة وبلاد المغرب فى الصـدر الأول للاسلام،والآن نقول إن الدين الإسلامى قد سرى أثره من هذه الأقطار الى الأقطار

الأفريقية التى تليها وهى الصحراء الكبرى وبلاد السودان وغربى أفريقية .
وكان ذلك فى أغلب الأحوال بمجرّد الدعوة ومحض اختلاط المسلمين بأهل تلك الأقطار من وثنيي البربر والزنوج . وقد ابتدأ ذلك منذ القرن الخامس الهجرى عند ما قام عبد الله بن يس داعية الدولة المرابطية وعمل على نشر الإسلام فى قبائل الصحراء الكبرى . وقد تابعه فى ذلك ابن تومرت الملقب بمهدى الموحدين (٥٢٤ — ٦٦٥ ﻫ)، ثم قفى على أثر هؤلاء فى نشر الدعوة بالصحراء الكبرى والسودان وغربى أفريقية مشايخ الطرق التى ظهرت فى شمال أفريقية وأخصها القادرية والتيجانية والسنوسية . فبمجهودات هؤلاء جميعا أصبح الإسلام دين تلك الأقطار، مع أنها خاضعة لدول أوربية مسيحية قوية .

وكما انتشر الإسلام فى تلك الأقطار بمجرّد الدعوة فإنه انتشر كذلك فى شرقى أفريقية، فقد دخل الإسلام منذ الصدر الأول بلاد الصومال وزنجبار والجالا وكان ذلك بارتحال رجال من عرب اليمن الزيديين وعرب البحرين الى تلك الجهات واستقرارهم بها وللعلائق التجارية التى كانت على العموم بين عرب الجزيرة وبين وثنيي تلك الجهات .

(ب) الروسيا

دخل الإسلام بلاد الروسيا فى زمن الدولة العباسية (القرن الرابع) وكان دخوله فى الأقاليم الروسية المعروفة إذ ذاك ببلاد البلغار، وهى عبارة عن حوض نهر الولغا وكان دخوله تلك النواحى للعلائق التجارية التى كانت بين المسلمين وبين أهل هذه البلاد . على أن الإسلام نما وانتشر فى جنوبى الروسيا وجنوبها الشرقى عند ما غلب عليها التتار المعروفون بالطائفة الذهبية فى القرن السابع الهجرى . فإنهم اعتنقوا الإسلام بمحض رغبتهم، وأوّل من فعل ذلك منهم ملكهم الوثنى بركة خان (٦٥٤ — ٦٦٤ ﻫ) الذى كان معاصرا وحليفا للظاهر بيبرس سلطان مصر لذلك العهد . ولا يزال الإسلام دين هذه الجهات حتى يومنا هذا .

(ج) الصين

ليس بأيدينا من المصادر الموثوق بها ما يبين تاريخ دخول الإسلام بلاد الصين وانتشاره بها . على أنا نعرف من بعض المصادر الصينية والإسلامية أنه قد كانت علاقات سياسية بين الدولتين الإسلامية والصينية منذ خلافة عثمان بن عفان ، وقد ابتعث هذه العلاقات استعانة فيروز بن يزدجرد بإمبراطور الصين لارتجاع بلاده . وتقول التواريخ الصينية كذلك إن سفيرا صينيا قدم على الخليفة هشام بن عبد الملك موفدا من قبل أمبراطور الصين . وان الأمبراطور هسوان تسنج عند ما ثار به بعض رعيته واغتصب منه العرش استعان بالخليفة المنصور العباسى ، فأرسل اليه الخليفة جنـدا إسلاميا ارتجع به بعض مدنه من الثوار . وقد استقر هؤلاء الجنود بالصين ولم يعودوا الى بلادهم فكان ذلك بدء استقرار الاسـلام بالصين . على أن العلاقات التجارية التى كانت بين العرب والصين من قديم الزمان كانت سببا آخر فى سكنى عدد غير قليل من تجار المسلمين بالثغور الصينية . فلما كانت غارة التتار فى القرن السابع الهجرى وما حدث على أثرها من اضطراب فى العالم الإسلامى الشرقى نزح عدد كبير من الصناع والتجار المسلمين الى بلاد الصين واستقروا بها وابتنوا المساجد وانتظموا فى سلك الحكومة الصينية .

(د) أرخبيل الملايو

قد دخل الإسلام جزيرة سومطرة منذ القرن الأول الهجرى ، وكان ذلك بواسطة تجار العرب . ثم نما بهذه الجزيرة على مر الزمن بواسطة دعاة وتجار من الهند وبلاد العرب على السواء كما يستفاد من كلام الرحالة الإسلامى ابن بطوطة والرحالة الايطالى ماركو بولو (القرن السابع الهجرى) ودخل الإسلام كذلك جزيرة جاوه فى القرن السادس الهجرى وعظم شأنه بها حتى قامت بها حكومة إسلامية قوية . ثم اقتبست الإسـلام من هاتين الجزيرتين سائر جزائر الملايو — بورنيـو وسيليبس والفلبيين وكذلك الهنـد الصينية ، هذا والإسلام فى الوقت الحاضر أخذ يتغلب على الوثنيـة

فى جزائر الملايو وقد بلغ عدد حجاج المستعمرات الهولندية بتلك الجزائر فى سنة ١٩١٠ نحو ١٤٬٢٤٠ حاجا .

انتشار الاسلام فى الوقت الحاضر — هذه هى الأقطار التى دخلها الإسلام بمجرد الدعوة . ولا يستفاد مما تقدم أن هذه الأقطار والأقطار التى دخلها الإسلام مع السياسة إسلامية بحتة ، فقد تقلص ظل الإسلام عن بعضها كالأندلس وأكثر الأملاك العثمانية الأوربية وبعضها توجد به أقلية إسلامية كما هى الحال فى الصين والهند بوجه عام . وقد اختلفت الأحصائيات فى تقدير عدد المسلمين فى أنحاء العالم فى الوقت الحاضر ، والمتفق عليه أنهم لا يقلون عن ٢٠٠ مليون نسمة ولا يزيدون عن ٢٥٠ مليون نسمة .

مكة المكرمة

مجمل الكلام على مكة — أسماؤها — موقعها — جبالها — شوارعها وحاراتها — أقسامها الهامة — مبانيها — مستشفى الغرباء — التكية المصرية — مولد الرسول صلى الله عليه وسلم أو داره — دار خديجة بنت خويلد — دار الأرقم — بستان الشريف عون الرفيق باشا — تأثير السيول فى مكة وتاريخها — سكان مكة — جنسيتهم — أخلاقهم — أزياؤهم — لغتهم — دينهم — عاداتهم — جو مكة — تجارتها — نقودها — مياهها — عين زبيدة — أمراء مكة .

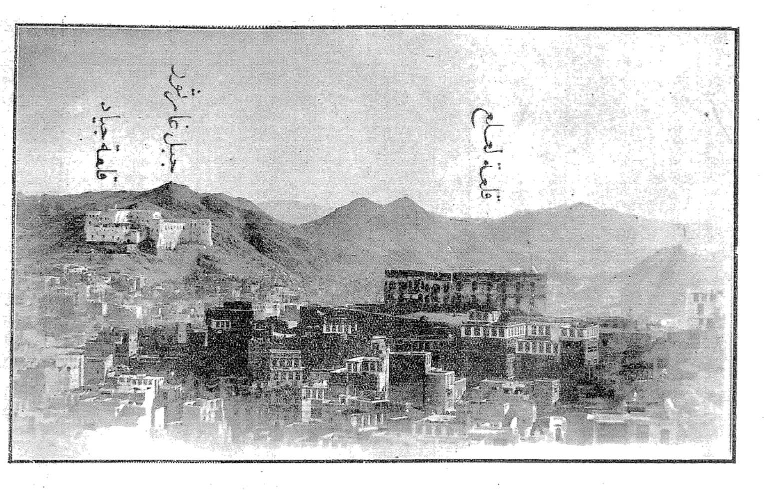
أسماء مكة — ذكر العلماء أن لمكة ستة عشر اسما نذكر أشهرها وهى أربعة نطق بها القرآن أولها : «مكة» قال تعالى ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ وقالوا سميت بذلك لقلة مائها ، أخذا من قولهم : امتك الفصيل ضرع أمه اذا امتصه ، وقيل : لأنها تمك الذنوب أى تذهب بها ، وثانيها « أم القرى » قال تعالى ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ ، وثالثها « بكة » — بالباء الموحدة — قال تعالى

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ ﴾، ورابعها « البلد الأمين » وقد أقسم الله به فى قوله ﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴾ .

موقعها — مكة واقعة على ٢١° و ٢٨ ق عرضا شماليا ، وعلى ٣٧° و ٥٤ ق طولا شرقى باريس ، وترتفع عن سطح البحر الأحمر بنحو ٢٧٩ مترا ، وهى عاصمة بلاد الحجاز ، وطولها من الشمال الى الجنوب ميلان ، وعرضها شرقا من جبل أبى قبيس الى أسفل جبل قعيقعان من الغرب ميل واحد ، يقطع الماشى طولها فى نحو نصف ساعة ، ومع كون عرضها دون طولها يقطع فى زمن أكثر مما يقطع فيه الطول ، وذلك لوجود أماكن على تلال فى كل من جانبيها . وهى ببطن واد يحيط به سور من الجبال الشامخة قد بنيت عليها الحصون المحكمة ، وليس بسورها الجبلى ثغرات إلا حيث مداخلها الأربع ، ففى الشمال الشرقى الطريق الى مِنًى ، وفى الجنوب الطريق الى اليمن ، وفى الشمال الغربى الطريق الى وادى فاطمة ، وفى الشرق الطريق الى جُدّة . وتلك الجبال تكوّن سلسلتين شمالية وجنوبية تتركب الأولى من جبل الفلج غربا ثم جبل قعيقعان ثم جبل الهندى ثم جبل لعلع ثم جبل كداء (بفتح أوّله ومدّ آخره) وهو فى أعلى مكة ومن جهته دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والثانية تتركب من جبل أبى حديدة غربا يتلوه جبلا كُدَى وكُدَىّ (كلاهما بضم أوّله والأوّل مقصور والثانى مصغر) بانحراف الى الجنوب ثم جبل أبى قبيس الى شرقيهما ثم جبل الخندمة .

شوارع مكة ومبانيها — نذكر لك أهم شوارعها وما فيها من البنايات الضخمة والمساجد والآثار مفردين الهامّ منها بالوصف التفصيلى قارنين ذلك بالصور الكاشفة إن شاء الله فنقول : شوارع مكة ضيقة غير منتظمة ما عدا شارعا مشهورا يقطعها من جنوبها الغربى الى شماليها الشرقى يبتدئ من الشيخ محمود أو جرول مارّا بباب العمرة الى أمام التكية المصرية ثم على المسعى وعلى طريق القشاشية وسوق الليل الى آخر مكة من جهة المعلاة ، وعرض الشارع بين ثمانية أمتار وعشرة وعشرين ، ومن الحارات النافذة الى الشارع المذكور ، حارة الباب ، وحارة الشبيكة ، والسوق

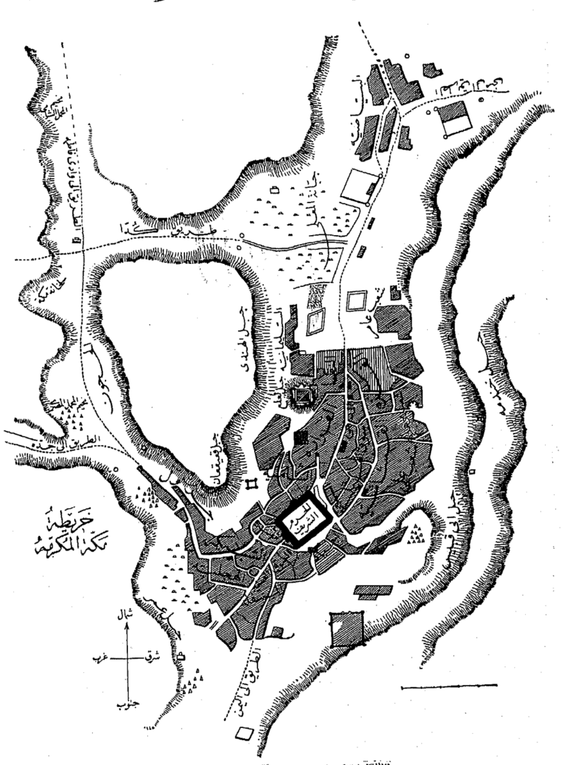
٦٠ مكرر من جبل ابى قبيس الى جبل غار ثور



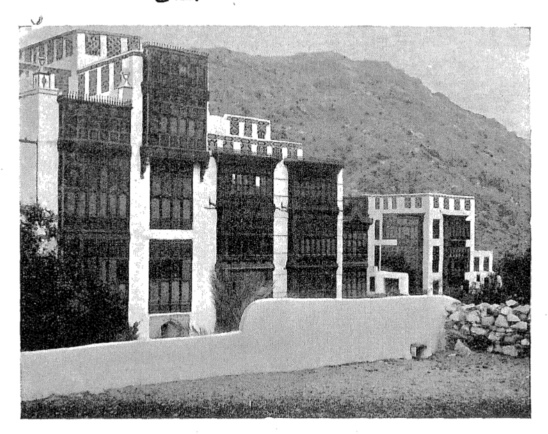
بدل لعلع يقرأ الهندى

60 bis— A view of the route from Mountain Abikobeis to Garsour.

خريطة مكة المكرمة



بيوت بمكة التي على الطراز الجديد بجياد للسقاف

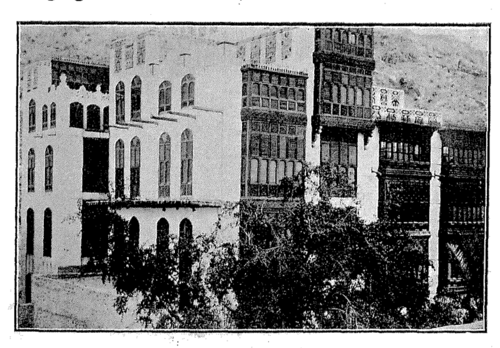


62. A view of the houses of Mecca on the modern style in Giad in 1321.

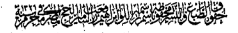


صحيفة ١٧٩

منازل السيد عمر السقاف المشيده بمكه سكن الوالى

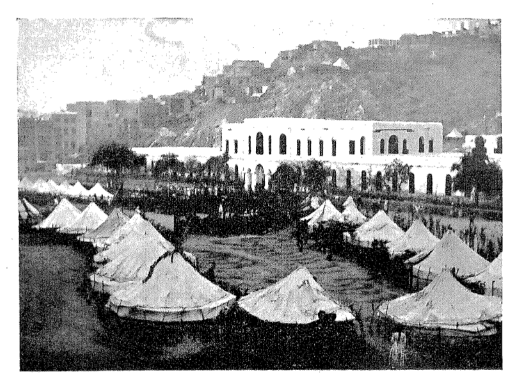


63. Houses built at Gyad, belonging to Sayed Omar El Sakkaf



صحيفة ١٧٩

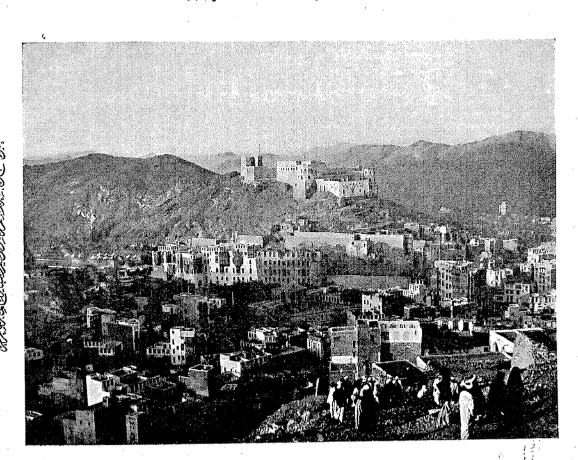
قشلاق العساكر الشاهانية بجياد



64, A view of the Turkish Barracks in Giad at Mecca in 1321.

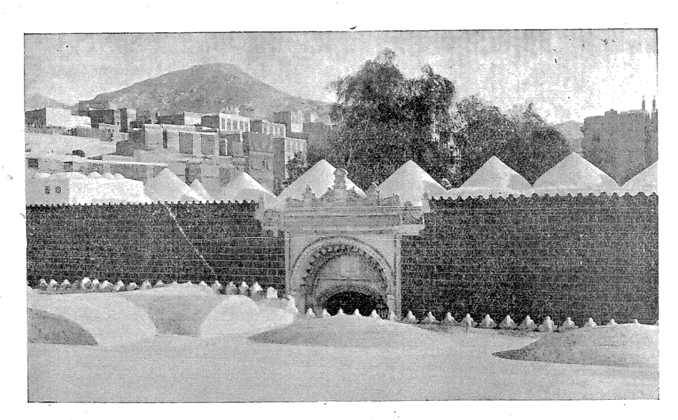
صحيفة ١٨٠

بيوت مكة من الجنوب الغربي وبها قلعة جياد



65, The Southern view of the houses of Mecca and the Citadel of Giad.

منظر تكية محمد علي باشا بمكة المكرمة



70. The Charity house of Mohamed Aly Pasha at Mecca

الصغير، وجياد وسوق الليل وسوق الصفا والمسعى، والقشاشية عن اليمين، ويليها الغزة ثم سوق المعلاة والباضية، وعن يسار القشاشية المسعى الى المروة الذى به يسارا باب السلام ويمينا طريق المدعى ثم الجودرية ثم المحناطة، ومن حارة الباب ينفذ الى سوق الشامية ومنه الى المروة (الرسم ٦٠) .

ومن الجهات التى بها مبانٍ نخمة أو آثار جمة :

(١) جهة جرول — وعندها جبل بجيشة وفيها الحفائر وبستان لدولة الشريف عون الرفيق وبئر ذى طوى الذى اغتسل منه النبي صلى الله عليه وسلم وهو داخل الى مكة (رسم ٢٦) والمكان المعتاد للمحمل المصرى «والمسافرخانة» التى بناها السلطان عبد الحميد وقدّمنا لك وصفها ومقياس المياه الذى تراه فى شرقى (الرسم ٦١) على شكل عمود .

(٢) المسفلة — فى جنوب المسجد الحرام وبها بستان الشريف عبد الله ومولد سيدنا حمزة والخليفة الأول أبى بكر الصديق رضى الله عنهما .

(٣) شعب جياد — فى الجنوب الشرقى للمسجد الحرام وهو أجمل مواقع مكة لعلوه وسعة طرقه وكثرة بيوته التى على الطراز التركى والتى يسكنها غالبا موظفو الولاية من الأتراك وفى مقدّمتهم الوالى وترى فى (الرسم ٦٢) نموذجا منها وهو بيت للسيد محمد السقاف ذى الأملاك الواسعة بمكة والمدينة وجُدّة، وكذلك فى (الرسم ٦٣) وبهذا الشعب التكية المصرية تجاه المسجد الحرام فى (الرسم ٧٠)، وكذلك ديوان الحميدية مقرّ الحكومة العثمانية الذى تراه غربى المسجد فى (الرسم ٨٥) ، والثكنات العسكرية للجنود الشاهانية التى تراها فى (الرسم ٦٤) ، وترى فيه خيما يسكنها الجنود الذين ليس لهم أماكن فى الثكنات .

والديوان والثكنات كلاهما من إنشاء الأمين الحازم المصلح الكبير المشير عثمان باشا نورى والى الحجاز وتجد مكتوبا على باب الحميدية الشرقى :

دار حوت لسعد سلطاننا * عبدالحميد كل حسن وطيب
أشادها بحى أم القــرىْ * عثمان والينا بشكل عجيب
بشرى لنا قد جاء تاريخها * نصر من الله وفتـح قريب

وعلى الباب الغربى :

دار سلطان الورى عبد الحميد * قدبدت كالبدر فى البيت الأمين
شادها عثمان والينـا الذى * توّج الأحكام بالعــدل المبين
أرّخ المجــد ونادى فى العـلا * أدخـلوها بسـلام آمنيـن

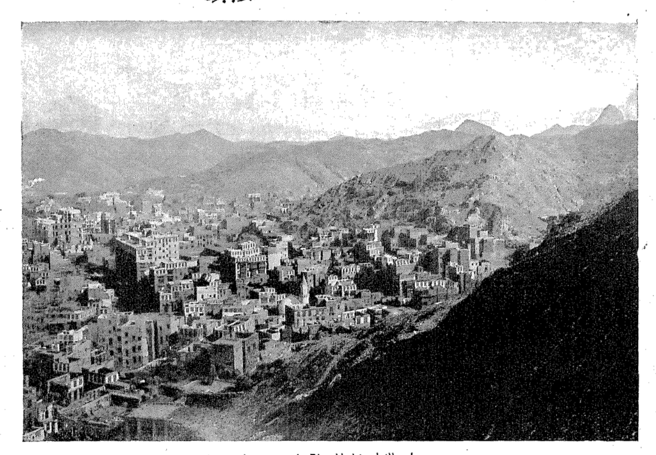
وعلى الباب الجنوبى المتوسط كتب (دائرت حكومت سنيهٔ) .

وعلى الباب الجنوبى الجانبى كتب سطر بالخط الثلث الجميل على شكل دائرة ، العبارة الآتية (دائرهٔ فرقهٔ عسكريهٔ) .

وفى جياد أيضا ميدان لأستعراض العساكر وفيه المطبعة الأميرية ودار للبريد (البوسـتة) والإشارات البرقيـة (التلغراف)(١) ومركز الصحة ودار عظيمة للشريف عبد المطلب و بيت لأمين الدفاتر (الدفتردار) ومسجد صغير — زاوية — للشاذلية وترى فى (الرسم ٦٥) منظرا عاما لجياد، والبناء الذى فى أعلى الرسم على قمة الجبل قلعة جيـاد .

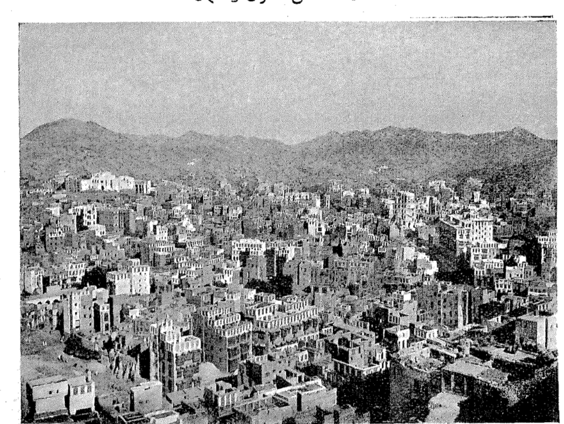
(٤) القشاشية — فى شرقى المسجد الحرام ويطل عليها جبل أبى قبيس ، وفى الجهة الشرقية منها شعب علي أو شعب بنى هاشم انظر (خريتة مكة) و بالقشاشية دار الخيزران وهى دار الأرقم بن أبى الأرقم المخزومى وبها بيوت بنى شيبة حجبة

(١) لا عناية ولا نظام للإشارات البرقية ولا بالخطابات فقلما تصـل إشارة الى صاحبها ، والخطابات تحضر من جدّة إلى مكة على ظهور الجمـال فى غرارات (زكايب) وتلق بطرقة فى دار البريد فيأتى الحجاج أو المطوّفون أو خدمهم فيفرزون هذه المكاتبات فان عثروا على شيء لهم أو لأصحابهم وأقاربهم أخذوه ، وكان خليقا بالحكومة العثمانية أن تعنى بذلك عناية شديدة لأن أولئك الحجاج الذين شط بهم المزار فى حاجة الى تعرّف الأخبار عن أهليهم وأصحابهم وربما تضمنت أخبارا هامة يترتب على جهلها ضرر كبير .



66. Houses of Mecca as seen from the top of Abu-Kobis hills from the East, showing Gar Herak and the Birth Place of the Prophet.

منازل مكة من الشرق والشمال



67. The northern and eastern view of the houses of Mecca In 1321.

الكعبة، وبيوت محسن بك وعبد الله بك وأحمد باشا الحجازى وكان واليا على الحجاز وهو والد المرحوم منصور باشا يكن ودار أبى سفيان التى جعلها الرسول عام الفتح مأمنا لمن لجأ اليها إذ قال : من دخل دار أبى سفيان فهو آمن وهى الآن مستشفى . وبها بيت خديجة بنت خويلد أو مولد فاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم وبها أيضا بيت أبى جهل وهو الآن ميضأة تجاه باب المسجد الحرام المسمى باب النبى عليه السلام .

(٥) الغـــزة — فى الشمال الشرقى للمسجد الحرام وبها بيت الإمارة الذى شيده محمد على باشا جدّ الأسرة الخديوية ثم الملكية ويقيم به الآن شريف مكة عون الرفيق باشا وتراه فى الشمال الشرقى من (الرسم ٦٧) وواضح بالرسم واجهتان منه إحداهما ذات « مشربيات » صنعت صنعا بديعا من الخشب الهندى الأحمر وفيها أيضا مخزن أميرى عام تخزن به الحبوب للحكومة والأهالى وكذلك مخزن كبير للصدقات والحبوب التى ترد من مصر كل عام ومن دونهم منازل لأهل مكة .

(٦) شعب بنى عامر — شمالى الغزة به مولد النبى صلى الله عليه وسلم ومولد على رضى الله عنه قريبا منه وبيوت لبنى هاشم . وهذه الجهات الشرقية كانت مساكن بنى عبد المطلب فى الجاهلية وفيها الآن كثير من الأشراف أما باقى قريش فكانوا فى الجهة الأخرى من المسجد الحرام خصوصا جهة الشمال انظر (مساكن الجهة الشرقية فى الرسم ٦٦) .

(٧) الشامية — فى شمالى المسجد الحرام مع غربيه وهى شارع تجارى عظيم أشبه بشوارع الموسكى والتربيعة والغورية وخان الخليلى عندنا بمصر ويباع فيها السُبَح والأقمشة الهندية والتركية وفصوص الفيروز والياقوت والعقيق الذى يبيعه حجاج اليمن بأثمان رخيصة جدّا .

(٨) القرارة — شمالى الشامية وبها منزل الشريف عبد المطلب أمير مكة سابقا وهو البناء الفخم الذى تراه واضحا فى الشمال الشرقى (للرسم ٦٨) وفيه ترى منظرا عاما لبيوت القسم الشمالى وبالقرارة مسجد صغير — زاوية — للجيلانى .

(٩) السليمانية بها النقا والمنحنى والمعابدة والبياضــية والمعلاة أى المقبرة — كلها شوارع وجهات فى شمالى المســجد الحرام فوق القرارة والغزة ، وبالمعابدة محــل للصاغة وبيت للشريف غالب أمير مكة سابقا ومسجد الإجابة والراية ومساكن للهنود والحضارم ومحل للخضراوات والمسلى والإبل والأغنام ومساكن « البيشة » وهم عساكر أمير مكة وكذلك بها مساكن قبائل من العربان وفيها معاطن للإبل ومرابض للغنم وبالبياضية منزل للسيد محمد صالح الشَّيْبى أمين المفتاح وكذلك بستان له ، والمعلاة من زمن بعيد مقبرة أهل مكة وتقدّم الكلام عليها مع رسومها .

وفى مكة على الجمــلة ٦ جوا مع كبــيرة خلاف المسجد الحرام و ٦٧ مسجدا ، المشهور منها مسجد الراية بشرق البلد ومسجد الجنّ بغربها ومسجدا الإجابة والبيعة شماليهــا وزاوية السنوسى فى الجنوب الشرقى ، والسنوسى له فى الحجــاز شأن كبير ومعظم الأعراب شيعته وكذلك أهل مكة وكثير منهم على طريقة يسمونها الرشيدية وأهلها أتباع الشيخ ابراهيم الرشــيدى ، ومنهم الأدريسية أتباع الشيخ أحمد بن إدريس ، والمرغنية وهم شــيعة المرغنى المعروف بمصر والسودان وبها محكمة شرعيــة تحت قبــة مجاورة للمسجد الحرام بجهته الشماليــة تراها شرقى المئذنتين المتقاربتين فى (الرسم ٩١) والقبــة التى بينهما على المكتبة السليمانيــة وترى فى الشمال الغربى قلعــة الهندى ، وســيأتى ذكر المكتبة والقلعــة قريبا ، وظاهر بالرسم ست مآذن من مآذن المسجد الحرام ، والبناء الفخم الذى فى أعلى الشــكل سراى الشريف عبدالله باشا أمير مكة سابقا وقد احترقت . وفى مكة ٦ مدارس للعلوم و ٤٣ مكتبا للصبيان ، وكانت فى ســنة ١٣٠٣ — ٣٣ وكان عدد التلاميذ بهــا ١١٥٠ وأشهر هــذه المدارس المدرســة الصولية التى بناها الطيب الأثر الشيخ رحمــة الله الهندى

سراي الشريف عبد المطلب بالقرارة بمكة



68. The palace of El Sherif Abdul Mottaleb at El Karara in Mecca.

صاحب كتاب إظهار الحق ، ويدرس فيها القرآن وعلم التجويد وشيء من اللغة العربية والحساب والهندسة وينفق عليها من تبرعات أهل الهند ، ومدرسة أخرى تماثل الأولى أو تزيد عليها . وبمكة مكتبتان صغيرتان الأولى فى باب أم هانئ تسمى كتبخانة شروانى زاده محمد رشدى باشا والى الحجاز سابقا وأخرى فى باب الدريبة قرب باب السلام تسمى بالكتبخانة السليمانية أسسها السلطان عبد المجيد وكونها من شتات كتب المسجد وغيرها مما أرسله إليها من الاستانة ، ولكل مكتبة من هذين فهرس بخط اليد وأمين يقوم بشؤونها ، والكتب التى بهما نحوية وفقهية وأدبية وتاريخية وأكثرها باللغة العربية وفيها شيء بالفارسية والأوردية (الهندية) والتركيه والجاوية (لغة الملايو) . وبمكة مستشفى عسكرى وآخر للغرباء — يأتى وصفه — وبها ١٧ مصنعا ومدبغتان للجلود ومسلختان ومخزنان كبيران . وبها قلاع ثلاث تحكم على المدينة ويقيم بها عساكر الدولة : أولاها قلعة جياد التى أنشأها فى سنة ١١٩٦ هـ . الشريف سرور بن مساعد أمير مكة بعد أن آشترى ما حولها من البيوت وأنفق فى عمارتها مالا كثيرا ، وقد نقض بعد سنتين كثيرا من بنائها وأعاده متقنا على أحسن شكل كما تراه فى أعلى (الرسم ٦٥) ، وثانيتها قلعة الهندى التى بناها الشريف غالب بن مساعد سنة ١٢٢١هـ . فى الجهة الشمالية وكانت صغيرة وحدث فيها خراب فعمرها ووسعها المشير عثمان نورى باشا شيخ الحرم ووالى الحجاز وقد أحكم بناءها ورتبها فى سنة ١٣٠٠ هـ . زمن السلطان عبد الحميد الثانى ، وثالثتها قلعة لعلع التى أنشأها أيضا الشريف غالب أيام محاربة الوهابيين له وهو الذى أقام الأبراج بأطراف مكة . وبمكة حمامان على مثال الحمامات الرومية بمصر ، واحد بالعمرة بناه محمد باشا وزير السلطان سليمان سنة ٩٨٠ هـ . والثانى بالقشاشية ويسمونه حمام النبى . وبها ثلاث تكايا : أهمها التكية المصرية أمام باب المسجد الحرام المسمى باب جياد — وسيأتى وصفها — وفيها عشرون مسق — سبيلا — وعشرون صهريجا مملوءة بمياه عين زبيدة ، ويختلف طولها وعرضها من ٥ أمتار إلى ١٠ ، والعمق من مترين ونصف الى ١٣ مترا ، وفم الصهريج سعته ٨٠ سنتيا

ولبعضها فتحتان وثلاث الى ٦ فتحات على خط واحد وتنزح المياه منها بواسطة السقائين الذين أكثرهم من العبيد، وببيوت الأمراء أنابيب مائية ذات «حنفيات»، وبمكة ١٩ رباطا يأوى إليها الفقراء، و٨٠ طاحونة خيل، و٦٠ تنورا، و٩٥ قهوة بلدية رصت فيها «التكك» والكراسى التى مقاعدها شباك مصنوعة من الليف أو الخوص المجدول، ويشرب فيها الشاى والقهوة والنرجيلة «الشيشة» التى يجهزونها بالتمباك الحمى عادة ويكثرون آستعمالها ويضيفون الى البن اليمنى الحبهان والقرنفل والحبة السوداء مما يجعل للقهوة نكهة جميلة. وبها محجر صحى «كورنتينا» معطّل وصيدلية ومتجران كبيران للجوهرات الثمينة، و١٧ مجيرة «كوشة» لعمل الجير، و٨ مصانع للفخار، ومخزن كبير للغاز.

وبمكة ٣٠٠٠ دكان و٦٥٠٠[1] بيت مبنية بالجص والحجر الأصم ذى اللون الأسود تتخلله نقط حمراء وبيضاء، والبيت يتكون من طبقة الى خمس طبقات وأكثرها ليس به فناء، وأجمل بيوت مكة على الإطلاق بيوت جليس الشريف المسمى (البو) وبيوت محمد على كاتب الشريف فإنها مبنية على الطراز الحديث من جهة التقسيم والهيئة والزخرف والزينة وهى تضارع بعض البيوت الجميلة بمصر والاسكندرية. وبيوت الأمراء وإن كانت عظيمة إلا أنها على الطراز القديم. وبمكة كثير من البساتين الصغيرة والبرك الصناعية ذات الفوارات المائية.

وها نحن أولاء نصف لك بالتفصيل بعض الأماكن الشهيرة كما وعدنا.

مستشفى الغرباء والفقراء — هذا المستشفى بالجهة الشرقية من المسجد الحرام وقد أنشئ فى سنة ١٠٨٦ هـ — كما هو مكتوب عليه — فى زمن السلطان الغازى محمد خان الرابع، وقد زرت هذا المستشفى فى ٢٧ ذى الحجة سنة ١٣١٨ (١٦ أبريل سنة ١٩٠١) فوجدت به طبيبين يدعى أولها اسماعيل افندى ثروت طبيبا أول وثانيهما عثمان افندى اسماعيل طبيبا ثانيا ورأيت صيدليا آسمه حسن افندى تحسين والكل مجمل بالثياب

(١) تعداد الأماكن السالفة نقلناه عن التقويم التركى للبلاد الحجازية سنة ١٣٠٩ هـ. وهو مطبوع بمكة بالمطبعة الأميرية.

الجيدة النظيفة، وبه ما يقرب من ٥٠ سريرا وقد مررت بأقسامه فوجدت إهمالا شديدا ولا سيما قسم الأمراض العفنة فالملابس والمفروشات فى غاية القذارة تنبعث عنها الروائح الكريهة ولايصلحها إلا حرقها وقد اعترف الطبيب الذى صاحبنى بذلك وكان يريد عدم مرورى بهذا القسم من شدّة عفونته، وقد رأيت كثيرا من المرضى نائما على الألواح قد اشتد به المرض حتى صيره هيكلا عظميا كالهيا كل التى نراها بالقصر العينى، وأن مريضا هذا حاله لا ينتظر إبلاله من مرضه وهو يتنشق تلك الروائح الخبيثة التى تفتك بالأصحاء فضلا عن المرضى، ولولا وضعى المنديل على أنفى وضغطى عليه لما استطعت المرور، وبلغنى أنه قلما يدخل فيها مريض فيشفى، فاذا كان ذلك شأنها فاغلاقها خير من فتحها، فان الهواء النقى قد يشفى المريض مما ألم به، والأدوية تأتى الى هذا المستشفى من الأستانة أما الأغذية والمفروشات فمن ديوان مكة المكرمة .

التكية المصرية — هى من الآثار الجليلة ذات الخيرات العميمة وأنها نعمت صدقة جارية لمسديها ثواب جزيل وأجر عظيم، وقد أنشأها ساكن الجنان محمد على باشا رأس الأسرة الخديوية فى سنة ١٢٣٨ ه . كما هو مسطور بدائر القبة التى بوسط التكية تظل الصنابير «الحنفيات» التى يتوضأ منها الناس والتكية بشارع جياد أقيمت مكان دار السعادة التى كانت محل حكومة بنى زيد من الأشراف، ويرد إليها الفقراء فى الصباح والمساء فيتناول الفقير فى كل مرة رغيفين وشيئا من «الشربة» وربما أعطى أكثر من ذلك إن كان فقره مدقعا، وكثير من نساء مكة وجواريها الفقراء يتعيشن بما يأخذن ويكتفين بذلك عن مسألة الناس، ويصرف يوميا من الخبز ما يقرب من ٤٠٠ أقة (حاصل ٣ أرادب من القمح) و ١٥٠ أقة من الرز، وفى يوم الخميس تزاد كمية الأرز الى ٤٢٠ أقة، ويصرف فى هذا اليوم فقط مائة أقة من اللحم، وفى كل أيام رمضان يكون المرتب كمرتب يوم الخميس ويزيد عليه ٥٠ أقة من الحمص، ويصرف من السمن ما يكفى لطبخ هذه المقادير، والفقراء يزداد عددهم حتى يبلغ ٤٠٠٠ شخص وذلك من شهر رمضان حتى آخر ذى الحجة.

لورود كثير من الحجاج الفقراء من السودانيين (التكارنة) والمغاربة وغيرهم ثم يتناقص العدد بعد ذلك الى ٤٠٠ تقريبا .

وللتكية ناظر ومعاون وكتبة يقومون جميعا بخدمة الفقراء، وبها طاحونة يتناوب إدارتها أربعة بغال تطحن القمح، وفيها مطبخ واسع به ثمانية أماكن يوضع عليها أوان ثمان من ذات الحجم الكبير (قزانات) وفيها مخبز ذو بابين يخبز به العيش ومخزن وحجر للمستخدمين انظر التكية (فى الرسم ٧٠) وفى مدّة الحج يسكنها بعض عمال المحمل كالطبيب والصيدلى وكاتب القسم العسكرى وبعض الضوئية والعكامة والسقائين، ويوضع بها أمتعة الأمير والأمين وبعض الموظفين عند ذهابهم الى عرفات، وفى التكية بيوت أدب وصنابير (حنفيات) ماء ومكان جميل مفروش فى وسطه بركة ماء صناعية (فسقية) ويجلس به أمير الحج وأمين الصرة وكتابها حينما يصرفون المرتبات، ومكتوب على باب التكية بالخط الثلث الجميل البيتان الآتيان :

لعباس مولانا الخديوى فضائل * عليها دليل كل يوم مجدّد
رأيناه قد أحيا تكية جدّه * فقلنا أعباس بنى أو محمد

[سنة ١٣١٩ و ١٢٣٨ هـ]

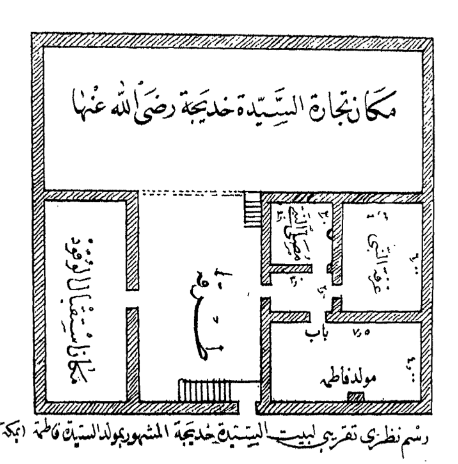
ولو سمعت الأدعية المتصاعدة من قلوب الفقراء لرب هذه النعمة لأكبرت هذا العمل ومسديه، وانساقت نفسك الى أمثاله ان كان لديك سعة فى المال وبسطة .

أما التكايا الأخرى فلم أزرها لأنه لا يأوى اليها فقير، وقد سطر بواجهة تكية السيدة فاطمة قوله تعالى ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ وأنها أنشئت فى سنة ١٠٨٦ هـ . زمن السلطان الغازى محمد خان الرابع كما أسلفنا .

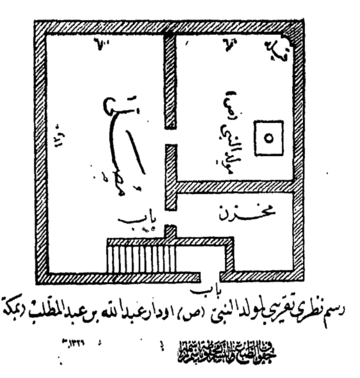
مولد الرسول صلى الله عليه وسلم — مولد الرسول صلى الله عليه وسلم بشعب بنى عامر شرقى مكة وهو مكان قد ارتفع الطريق عنه بنحو متر ونصف وينزل اليه بواسطة درج من الحجر يوصل الى باب يفتح الى الشمال يدخل منه الى فناء يبلغ طوله نحو اثنى عشر مترا فى عرض ستة أمتار وفى جداره الأيمن (الغربى)

باب يدخل منه الى قبة فى وسطها (يميل الى الحائط الغربى) مقصورة من الخشب داخلها رخامة قد تقعر جوفها لتعيين مولد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهـذه القبة والفناء الذى خارجها يكونان الدار التى ولد فيها الرسول صلى الله عليه وسـلم (رحلة البتانونى ص ٥٢ طبعة ثانية) ، وجاء فى تاريخ مكة لأبى الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقى المتوفى فى العقد الثانى من المائة الثالثة فى ص ٤٢٢ طبع ألمـانيا : أن البيت الذى ولد فيه الرسول صلى الله عليه وسلم هو فى دار محمد بن يوسف الثقفى أخ الحجاج ، وكان عقيل بن أبى طالب أخذ من الرسول صلى الله عليه وسلم داره لما هاجر ، وفيها يقول الرسـول صلى الله عليه وسلم فى عام حجة الوداع لمـا قيل له : أين تنزل يا رسول الله "وهل ترك لنا عقيل من ظل"؟ ولم تزل الدار بيد عقيل و ولده حتى باعها ولده من محمد بن يوسف الثقفى فأدخلها فى داره التى يقال لها البيضاء وتعرف اليوم بدار ٱبن يوسف ، و بقيت الدار كذلك حتى حجت الخيزران أم الخليفتين موسى وهارون سـنة ١٧١ هـ . فجعلت دار الرسول مسجدا يصلى فيه وفصلته من دار ٱبن يوسف وأشرعته فى الزقاق الذى فى أصل تلك الدار و يقال له : زقاق المولد قال أبو الوليـد : إنه سمع جدّه و يوسف بن محمـد يثبتان أنه المولد وأنه ذلك البيت لا ٱختلاف فيه عنـد أهل مكة اهـ . ولكن جاء فى المواهب اللدنية أنه ٱختلف فى مكان ولادته صلى الله عليـه وسلم فقيل : ولد بمكة فى الدار التى كانت لمحمد بن يوسـف الثقفى ، و يقال : بالشعب — شـعب بنى هاشم — و يقال : بالردم ، و يقال : بعسفان اهـ . هذا وقد جاء برحلة العياشى (ص ٢٢٥ ج ١) بعد أن ذكر خلاف أهل السير فى مولده صلى الله عليـه وسلم ما يأتى : والعجب أنهم عينوا محلا من الدار مقدار مضجع وقالوا له : موضع ولادته صلى الله عليه وسلم ، و يبعد عندى كل البعـد تعيين ذلك من طريق صحيح أو ضعيف لمـا تقـدّم من الخلاف فى كونه بمكة أو غيرها وعلى القول بأنه فيها ففى أى شعابها وعلى القول بتعيين هذا الشعب ففى أى الدور ، وعلى القول بتعيين الدار ، فيبعد كل البعد تعيين الموضع من الدار بعد مرور الأزمان والأعصار وٱنقطاع الآثار والولادة وقعت فى زمن الجاهلية

وليس هناك من يعتنى بحفظ الأمكنة ولا سيما مع عدم تعلق غرض لهم بذلك ، و بعد مجيء الإسلام قد علم من حال الصحابة وتابعيهم ضعف اعتنائهم بتقييد الأماكن التى لم يتعلق بها عمل شرعى لصرفهم اعتناءهم رضوان الله عنهم لما هو أهم من حفظ الشريعة والذب عنها بالسنان واللسان ، وكان ذلك هو السبب فى خفاء كثير من الآثار الواقعة فى الاسلام من مساجده عليه السلام ومواضع غزواته ومدافن كثير من أصحابه مع وقوع ذلك فى المشاعر الجليلة ، فما بالك بما وقع فى الجاهلية لا سيما ما لا يكاد يحضره أحد إلا من وقع له كمولد على ومولد عمر ومولد فاطمة رضى الله عن جميعهم ، فهذه الأماكن مشهورة عند أهل مكة فيقولون هذا مولد فلان هذا مولد فلان ، وفى ذلك من البعد أبعد من تعيين مولده صلى الله عليه وسلم لوقوع كثير من الآيات ليلة مولده صلى الله عليه وسلم فقد يتنبه بعض الناس لذلك بسبب ما ظهر من الآيات وان كانوا أهل جاهلية ، وأما مولد غيره ممن ولد فى ذلك العصر فتكاد العادة تقطع بعدم معرفته إلا أن يرد خبر عن صاحب الواقعة بتنبهه أو أحد من أهل بيته اه . كلامه (يلاحظ أن العياشى كتب رحلته فى حجتيه سنة ١٠٥٩ و سنة ١٠٦٤ هـ) . وقد جاء فى كتاب شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام للتقى الفاسى الذى كتبه فى العقد الثانى من المائة التاسعة بعد الهجرة وصف مولد الرسول وقال بعد الوصف : وقد خفى علينا كثير من عمارته والذى علمته من ذلك أن الناصر العباسى عمّره فى سنة ٥٧٦ هـ . ثم الملك المظفر صاحب اليمن سنة ٦٦٦ هـ . ثم حفيده المجاهد سنة ٧٤٠ هـ . وفى سنة ٧٥٨ هـ . من قبل الأمير شيخون أحد كبار الدولة بمصر ، وفى دولة الملك الأشرف شعبان صاحب مصر باشارة مدبر دولته يلبغا الخاسكى سنة ٧٦٦ هـ . وفى آخر سنة ٨٠١ هـ . وفى أول التى بعدها من المال الذى أنفذه الملك الظاهر برقوق صاحب مصر لعمارة المسجد الحرام وغيره بمكة ، وكانت عمارة هذا المولد بعد موته اه . وقد جدّد القبة التى على موضع الولادة السلطان سليمان خان سنة ٩٣٥ هـ . وفى سنة ٩٦٣ هـ . أهدى هو أيضا ثلاثة قناديل ذهبا منها اثنان للكعبة والثالث يعلق بالمولد ، وقد علقت بيد الشريف أبى نمىّ .



رسم نظري تقريبي لبيت السيدة خديجة المشهور بمولد السيدة فاطمة (بمكة)



رسم نظري تقريبي لمولد النبي (ص) او دار عبد الله بن عبد المطلب (بمكة)

باب

71. The birthplace of the Prophet and the house of Sayyeda Khadija, Mecca.

وفى سنة ١٠٠٩ هـ . أمر السلطان محمد خان آبن السلطان مراد خان بعمارة مولد الرسول صلى الله عليه وسلم ، و بنى فى أعلاه قبة عظيمة ومنارة ، ووقف عليه وقفا بالديار الرومية ورتب له مؤذنا وخادما و إماما ، وجعل لكُلّ شىء معين يحمل إليه كل عام ، ثم جعلت له السلطنة العثمانية مدرّسا يدرس فيه و يتقاضى مرتبا فى نظير ذلك أنظر (المئذنة والقبة متجاورتين فى وسط الرسم ٦٦ وآنظر الرسم النظرى ٧١) .

دار خديجة بنت خويلد أو مولد فاطمة رضى الله عنهما — هذه الدار بزقاق الحجر بمكة ويقال له أيضا : زقاق العطارين على ماذكره الأزرقى وتعرف بمولد فاطمة رضى الله عنها لكونها ولدت فيها هى وإخوتها أولاد خديجة من النبى صلى الله عليه وسلم . وذكر الأزرقى : أن النبى صلى الله عليه وسلم بنى بخديجة فيها وأنها توفيت فيها ، ولم يزل النبى صلى الله عليه وسلم ساكنا بها حتى هاجر الى المدينة فأخذها عقيل بن أبى طالب ثم اشتراها منه معاوية وهو خليفة فجعلها مسجدا يصلى فيه ، ولكن ذكر فى موضع آخر أن معتبا بن أبى لهب أخذ بيت خديجة فباعه من معاوية بمائة ألف درهم وهذا يخالف ما ذكره من أن عقيلا أخذ بيتها وباعه من معاوية والله أعلم بالصواب ، وهذه الدار الآن قد آرتفع عنها الطريق فينزل اليها بجملة درجات توصل الى طرقة على يسارها مسطبة مرتفعة عن الأرض بنحو ٣٠ سنتيا ومسطحها نحو عشرة أمتار طولا فى أربعة عرضا ، وفيها مكتب يقرأ فيه الصبيان القرآن الشريف وعلى يمينها باب صغير يصعد إليه بدرجتين يدخل منه الى طرقة ضيقة عرضها نحو مترين ، وفيها ثلاثة أبواب الذى على اليسار لغرفة صغيرة يبلغ مسطحها ثلاثة أمتار طولا فى أقل منها عرضا ، وهذا المكان كان معدّا لعبادته صلى الله عليه وسلم ، وفيه كان ينزل الوحى عليه ، وعلى يمين الداخل إليه مكان منخفض عن الأرض يقال : إنه كان محل وضوئه صلى الله عليه وسلم ، والباب الذى فى قبالة الداخل الى الطرقة يفتح على مكان أوسع يبلغ طوله نحو ستة أمتار فى عرض أربعة وهو المكان الذى كان يسكنه النبى صلى الله عليه وسلم مع زوجته خديجة رضى الله عنها ، أما الباب الذى على اليمين فهو لغرفة مستطيلة عرضها نحو أربعة أمتار فى طول

نحو سبعة أمتار ونصف ، وفى وسطها مقصورة صغيرة أقيمت على المكان الذى ولدت فيه السيدة فاطمة رضى الله عنها — لا تنس ما أسلفناه فى مولد الرسول صلى الله عليه وسلم للعياشى — وفى جدار هذه الغرفة الشرقى رف موضوع عليه قطعة من رحى قديمة يقولون : إنها من رحى السيدة فاطمة التى كانت تستعملها فى حياتها ، وعلى طول هذا المسكن والطرقة الخارجة والمسطبة من جهة الشمال فضاء مرتفع بنحو متر ونصف يبلغ طوله نحو ستة عشر مترا ، وعرضه سبعة أمتار ، وأظن أنه المكان الذى كانت السيدة خديجة تخزن فيه تجارتها انظر (الرسم ٧١) . هذا وصف الدار على ما جاء برحلة البتانونى (ص ٥٣) وهو ما شاهدناه ثم قال البتانونى بعد ذلك هذه الدار التى كانت مقرّا له صلى الله عليه وسلم ومحل إقامته فى مكة ومبعثه إلى الخلق كافة اذا أنعمت بها نظرك وأمعنت فيها فكرك لا تراها إلا «البساطة» بنفسها ، دار تحتوى على أربع غرف ؛ ثلاث داخلية منها : واحدة لبناته ، والثانية له ولزوجه ، والثالثة له ولربه ، والرابعة بمعزل عنها له ولعموم الناس ؛ بالله ما هذا الترتيب الجميل وما هذا النظام البديع ! اهـ .

وقد جاء فى كتاب شفاء الغرام للفاسى وصفه لدار خديجة عن مشاهدته وهو مخالف للشكل الذى نراها عليه الآن قال : غالب هذه الدار الآن على صفة المسجد لأن فيها رواقا فيه سبعة عقود على ثمانى أساطين — أعمدة — فى وسط جدره القبلى ثلاثة محاريب وفيه ست وعشرون سلسلة فى صفين وأمامه رواق فيه أربعة عقود على خمس أسطوانات ، وبين هذين الرواقين صحن ، والرواق الثانى أخصر من الرواق المقدّم لأن بقربه بعض المواضع التى يقصدها الناس بالزيارة فى هذه الدار وهى ثلاثة مواضع ، الموضع الذى يقال له : مولد فاطمة رضى الله عنها ، والموضع الذى يقال له : قبّة الوحى وهو ملاصق لمولد فاطمة ، والموضع الذى يقال له : المختبأ وهو ملاصق لقبة الوحى ، زعموا أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يختبئ فيه من الحجارة التى يرميه بها المشركون والله أعلم بحقيقة ذلك ، وذرع الموضع الذى يقال له : المختبأ أربعة أذرع وثلث ذراع ، وذلك من الجدر الذى فيه المحراب الى الجدر المقابل له وهو طرف جدر

قبّة الوحى الغربى هذا ذرعه طولا ، وذرعه عرضا ثلاثة أذرع وثلثا ذراع ، وذلك من الجدر الذى فيه بابه الى الجدر المقابل له ، وذرع الموضع الذى يقال له : قبّة الوحى من الجدر الذى فيه بابه الى الجدر المقابل له ثمانية أذرع وثلثا ذراع هذا ذرعه طولا ، وأما ذرعه عرضا فثمانية أذرع ونصف بذراع الحديد المقدّم ذكره ، والموضع الذى يقال له مولد فاطمة طوله خمسة أذرع إلا ثمن ، وعرضه من وسط جدره ثلاثة أذرع وثلاثة أثمان الذراع ، وفى هذا الموضع موضع صغير يشبه بركة مدوّرة ، وسعتها طولا من داخل البناء المحوط عليها ذراع وعرضها كذلك ، وفى وسطها حجر أسود يقال : أنه مسقط رأسها ، وذرع الرواق المقدّم من هذه الدار من وسط جدريه على الاستواء ثمانية وثلاثون ذراعا هذا ذرعه طولا ، وذرعه عرضا سبعة أذرع وربع ، وذرع ما بين كل اسطوانتين منه خمسة أذرع وربع ، وذرع الرواق المؤخر من هذه الدار من جدر قبة الوحى الى الجدر المقابلة له ثلاثة وعشرون ذراعا ، هذا ذرعه طولا ، وذرعه عرضا عشرة أذرع وكان تحرير ما ذكرنا من ذرع المواضع بذراع الحديد (٥٧ سنتيا تقريبا) كله بحضورى ، وعلى باب هذه الدار مكتوب أنها عمرت فى خلافة الناصر العباسى وفى زمن الملك الأشرف ابن شعبان بن حسين بن الملك الناصر محمد ابن قلاوون صاحب مصر ، وفى الرواق المقدّم من هذه الدار أن المقتدى العباسى أمر بعمله ، وعمر بعض هذه الدار فى أوّل دولة الملك الناصر فرج بن الملك الظاهر برقوق من المال الذى أنفذه أبوه لعمارة المسجد الحرام وغيره ، ولم يعمر ذلك إلا بعد موته فى آخر سنة إحدى وثمانمائة أو فى التى بعدها ، ومما عمر فى هذا التاريخ من هذه الدار الموضع المعروف بقبة الوحى بعد سقوطه ، وبلغنى أن القبة الساقطة كانت من عمارة الملك المظفر صاحب اليمن رحمهم الله تعالى ، وإلى جانب هذه الدار حوش كبير على بابه حجر مكتوب فيه : إن هذا الموضع مربد مولد فاطمة رضى الله عنها ، وأن الناصر العباسى عمره ووقفه على مصالح دار خديجة التى إلى جانبه . اه .

وهذا الوصف فى العقد الثانى من المائة التاسعة بعد الهجرة . هذا وتجد مكتوبا بالحروف البارزة على لوح من الرخام وضع فى حائط الطرقة الخارجية على يسار الداخل.

ما يأتى (بسم الله الرحمن الرحيم أمر بعمارة مربد مولد الزهراء البتول فاطمة سيدة نساء العالمين بنت الرسول محمد المصطفى المختار صلى الله عليه وعلى آله وسلم سيدنا ومولانا الإمام المفترض للطاعة على الخلق أجمعين الناصر لدين الله أمير المؤمنين أعز الله أنصاره وضاعف اقتداره وجعل منافعه ومستغلاته وأجره عائدا على مصالحه ثم على مصالح هذا المقام الشريف المقدس الطاهر النبوى على ما يرى الناظر المتولى له فى ذلك من الحظ الوافر والمصلحة لهذا المربد والمولد المقدس المذكور بعد ذلك ابتغاء وجه الله تعالى وطلبا لثواب الدار الآخرة، تقبل الله ذلك منه وجزاه عليه أجر المحسنين، وذلك على يد العبد الفقير الى رحمة الله تعالى على بن أبى البركات الذورانى الانبارى فى سنة أربع وستمائة، ومن غيّر ذلك أو بدّله عليه لعنة الله ولعنة اللاعنين إلى يوم الدين وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله الطاهرين) وقد عمر الدار السلطان سليمان فى سنة ٩٣٥ هـ. وفى هذه الدار صفيحة من حجارة مبنى عليها فى جدر البيت الذى كان يسكنه النبي صلى الله عليه وسلم، وقد اتخذ أمام الصفيحة مسجدا، وهذه الصفيحة مرتفعة فى الجدر عن الأرض قدر ما يجلس تحتها الرجل، وذرعها ذراع فى ذراع وشبر، ويقولون: إن هذه الصفيحة كان يستتر بها الرسول من الحجارة التى ترمى عليه من دار أبى لهب ودار عدى بن الحمراء، ولكن هذا لم يسمع من ثقة، وأصح ما انتهى إليه الخبر أن أهل مكة كانوا يتخذون فى بيوتهم صفائح من حجارة تكون شبه الرفاف يوضع عليها المتاع والشيء من الصينى والداجن يكون فى البيت، فقل بيت يخلو من تلك الرفاف فالصفيحة التى فى دار خديجة من هذا القبيل (ص ٤٢٣ أزرق) .

دار الأرقم الشهيرة بدار الخيزران — هذه الدار فى زقاق على يسار الصاعد إلى الصفا وبابها يفتح إلى الشرق ويدخل منه إلى فسحة سماوية طولها نحو ثمانية أمتار فى عرض أربعة وعلى يسارها « إيوان » مسقوف على عرض نحو ثلاثة أمتار، وفى وسط الحائط التى على يمينها باب يدخل منه الى غرفة طولها ثمانية أمتار فى عرض نحو نصف ذلك مفروشة بالحصير، وفى زاويتها الشرقية الجنوبية حجران من الصوان

أحدهما فوق الآخر مكتوب فى أعلاهما بالحرف البارز : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴾ هذا مختبأ رسول الله ودار الخيزران وفيها مبتدأ الإسلام ، أمر بتجديده الفقير الى مولاه أمين الملك مصلح ابتغاء ثواب الله ورسوله ولا يضيع أجر المحسنين) ومكتوب فى الثانى بسم الله الرحمن الرحيم : (هـذا مختبأ رسول الله المعروف بدار الخيزران أمر بعمله وإنشائه العبد الفقير لرحمة الله تعالى جمال الدين شرف الاسلام أبو جعفر محمد بن على ابن أبى منصور الأصفهانى وزير الشام والموصل الطالب الوصول الى الله تعالى الراجى لرحمته أطال الله فى الطاعة بقاه وأناله فى الدارين مناه فى سنة خمس وخمسين وخمسمائة) « رحلة البتانونى ص ٥٥ » . وقد جاء فى شفاء الغرام للفاسى : أن طول المسجد (الحجرة التى على اليمين) الذى فى هذه الدار ثمانية أذرع إلا قيراطين، وعرضه سبعة أذرع وثلث وأنه مكتوب فيه ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴾ : هذا مختبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم دار الخيزران وفيـه مبتدأ الإسلام أمر بتجديده الفقيرة الى الله مولاة أمير الملك مفلح سنة ست وذهب بقية التاريخ) فتجد فرقا فى هذه العبارة والعبارة السابقة ، وقال بعد ذلك : وعمره أيضا الوزير الجواد، وعمرته مجاورة يقال لهـا : مرة العصمة ، وعمر أيضا فى سـنة ٨٢١ هـ . والذى أمر بهذه العمارة ما عرفته . والمتولى لصرف النفقة فيها علاء الدين على بن ناصر محمد بن الصارم المعروف بالقائد . اهـ .

ودار الأرقم بن أبى الأرقم المخزومى كان يجتمع فيها المسلمون سرا يتعلمون الدين ويقيمون الشعائر حتى أسلم عمر رضى الله عنه وعزّ به الاسلام وجهر المسلمون بدينهم، وكان إسلام عمر بدار الأرقم : وها نحن أولاء ننقل اليك عن سيرة ابن هشام قصة إسلامه لمـا فيها من العبر والمواعظ قال ابن اسحاق : وكان إسلام عمر فيما بلغنى أن أخته فاطمة بنت الخطاب وكانت عند سعيد بن زيد بن عَمْرو بن نفيل وكانت قد أسلمت وأسلم بعلها سعيد بن زيد وهما مستخفيان بإسلامهما من عمر، وكان نعيم بن عبدالله النحام قد أسلم وكان يخفى إسلامه فرقا ــ خوفا ــ من قومه، وكان خَبَّابُ بن الأَرَتّ

يختلف — يذهب — الى فاطمة بنت الخطاب يقرئها القرآن ، فخرج عمر يوما متوشحا بسيفه يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ورهطا من أصحابه قد ذكر له أنهم آجتمعوا فى بيت عند الصفا وهم قريب من أربعين ما بين رجال ونساء ، ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم عمه حمزة بن عبد المطلب وأبو بكر بن أبى قحافة الصدّيق وعلى بن أبى طالب فى رجال من المسلمين رضى الله عنهم ممن كان أقام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ولم يخرج فيمن خرج الى أرض الحبشة ، فلقيه نعيم بن عبد الله فقال له : أين تريد يا عمر؟ فقال : أريد محمدا هذا الصابئ الذى فرق أمر قريش وسفّه أحلامها وعاب دينها وسبّ آلهتها فأقتله ، فقال له نعيم : والله لقد غرّتك نفسك من نفسك يا عمر! أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمدا أفلا ترجع الى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟ قال : وأى أهل بيتى؟ قال : خَتَنُك(١) وآبن عمك سعيد بن زيد آبن عمرو وأختك فاطمة بنت الخطاب فقد والله أسلما وتابعا محمدا على دينه فعليك بهما ، قال : فرجع عمر : عامدا الى أخته وختنه وعندهما خباب بن الارت معه صحيفة فيها طه يقرئها إياها ، فلما سمعوا حسّ عمر تغيّب خباب فى مخدع لهم أو فى بعض البيت ، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها ، وقد سمع عمر حين دنا الى البيت قراءة خباب عليها فلما دخل قال : ما هذه الهينمة التى سمعت؟ قالا له : ما سمعت شيئا ، قال : بلى! والله لقد أخبرت أنكما تابعتما محمدا على دينه وبطش بختنه سعيد بن زيد فقامت اليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفه عن زوجها فضربها فشجها ، فلما فعل ذلك ، قالت له أخته وختنه : نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله فاصنع ما بدا لك ، فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع فارعوى وقال لأخته : أعطينى هذه الصحيفة التى سمعتكم تقرءون آنفا أنظر ما هذا الذى جاء به محمد وكان عمر كاتبا ، فلما قال ذلك ، قالت له أخته : إنا نخشاك عليها ، قال : لا تخافى وحلف لها بآلهته ليردّنها اذا قرأها إليها ، فلما قال ذلك طمعت فى إسلامه فقالت له : يا أخى إنك نجس على شركك وإنه لا يمسها إلا الطاهر ، فقام عمر فآغتسل فأعطته الصحيفة وفيها

(١) الختن محركة : الصهر وكل من كان من قبل المرأة كالأب والأخ .

(طه) فقرأها ، فلما قرأ منها صدرا قال : ما أحسن هذا الكلام وأ كرمه ! فلما سمع ذلك خباب خرج اليه فقال له يا عمر : والله إنى لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه فإنى سمعته أمس وهو يقول : اللهم أيد الاسلام بأبى الحكم بن هشام أو بعمر ٱبن الخطاب فالله الله ياعمر: فقال له عند ذلك عمر: فدلنى ياخباب على محمد حتى آتيه فأسلم ، فقال له خباب : هو فى بيت عند الصفا — بيت الأرقم — معه فيه نفر من أصحابه ، فأخذ عمر سيفه فتوشحه ثم عَمَد الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فضرب عليهم الباب ، فلما سمعوا صوته قام رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر من خلل الباب فرآه متوشحا السيف فرجع الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فزع فقال يارسول الله : هذا عمر بن الخطاب متوشحا السيف ، فقال حمزة ٱبن عبد المطلب : فأذن له فان كان جاء يريد خيرا بذلناه له وإن كان يريد شرا قتلناه بسيفه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إئذن له ، فأذن له الرجل ونهض إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لقيه بالحجرة فأخذ بِحُجْزَته — حجزة الإزار معقده — أو بمجمع ردائه ثم جبذه جبذة شديدة — جذبه — وقال : ما جاء بك يا ٱبن الخطاب؟ فوالله ما أرى أن تنتهى حتى ينزل الله بك قارعة ، فقال عمر : يارسول الله جئتك لأومن بالله ورسوله وبما جاء من عند الله ، فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عمر قد أسلم ، فتفرق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكانهم وقد عزّوا فى أنفسهم حين أسلم عمر مع إسلام حمزة وعرفوا أنهما سيمنعان رسول الله صلى الله عليه وسلم وينتصفون بهما من عدوّهم ؛ فهذا حديث الرواة من أهل المدينة عن إسلام عمر بن الخطاب حين أسلم . اه .

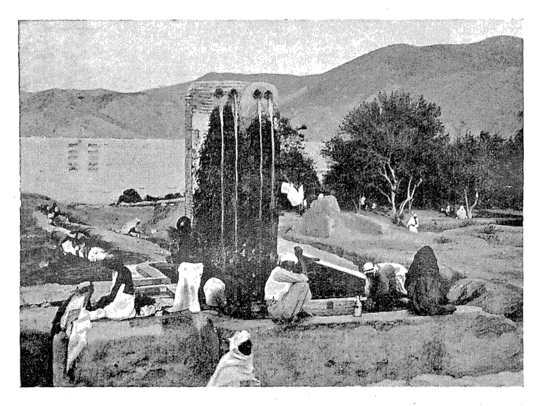
بستان دولة شريف مكة — هو حديقة غناء بجهة جرول مستطيلة الشكل طول ضلعها البحرى ٢٧٠ مترا ، والغربى ١٨٠ مترا وٱرتفاع سورها المحيط بها متران ، وفى وسطها خزان للماء مربع الشكل طول ضلعه ٦١ مترا ، وسمك حائطه من الأعلى ثلاثة أمتار وربع ، وٱرتفاعه أربعة أمتار ، وهو مبنى بالحجر الأزرق وجدره من

الداخل والخارج مجصصة بالجير المخلوط بمسحوق الآجر، ويصعد إليه من الجهة الشمالية أوّلا على أربع درجات ثم بعدها ١٦ درجة عن اليمين ومثلها عن اليسار، فله سلمان بعد الأربعة الأولى، وفى آخر السلم درجة كبيرة فى مستوى أعلى الخزان والسلم مصنوع من حجر متين زادته الصنعة رونقا وجمالا وفى زوايا الخزان الأربع من الداخل درج منتظم على شكل ربع الدائرة، كل زاوية فيها ١٤ درجة طول العليا منها متر والسفلى ستة أمتار ونصف، وهذا الدرج للنزول منه الى قاع الخزان، وفى منتصف كل جدار من جدر الخزان بحذاء الأرض فتحتان ارتفاع كل فتحة ثلاثة أرباع المتر فى عرض نصفه وذلك لتصريف المياه منها الى البستان، وهذا الخزان الكبير لا مثيل له فى الأقطار الحجازية لهذا عنينا بوصفه . وبالبستان أيضا خزانان بينهما أربعة أمتار ارتفاع كل منهما ستة أمتار وبأعلى كل منهما فتحتان تقذفان المياه الى بركة يشرب منها الناس ويغسلون أوانيهم وثيابهم ويغتسلون منها، وترى الماء حين نزوله أبيض اللون يمثل قطعا فضية تلاحق رميها ؛ وإنه لمنظر جميل فى بلاد قفرة قلت فيها المياه .

والمزروع من أرض البستان نحو الربع، وفيه شجر الجوافة والجوز الهندى والبرتقال والليمون والنخيل والعنب والورد والبرسيم الحجازى والكرنب والكرات والباذنجان والطماطم الى غير ذلك، ولا يفوتنا ذكر ما فيه من شجر الكادى الذى يستخرج منه عطر الكادى ذو الرائحة الجميلة، وشكل الشجرة كالصبارة إلا أن طولها يفوق المترين ولها جذوع كثيرة ضاربة فى الأرض، وورقها عريض أشبه بسعف النخل من جانبه العريض وله شوك كثير .

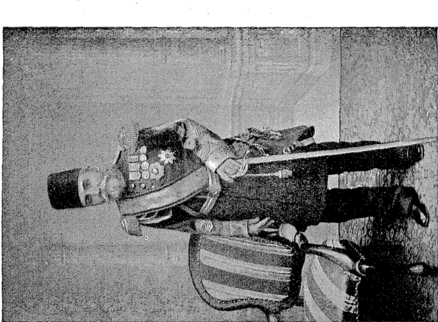
وقد أذن لنا دولة الشريف بدخوله والاستظلال بشجره فى ساعات القيلولة، وكان معسكرنا بحذائه وشدّت طنب بعض الخيام بجداره . وقد تناولنا من الجوافة التى كانت به وقت لبثنا بمكة : انظر (الرسم ٧٢) وترى فيه الناس وهم يأخذون المياه ويغتسلون، وقد بلغنى أخيرا أن هذا البستان محى أثره بعد وفاة منشئه الشريف عون

حديقة الشريف عون الرفيق وبها منحدر مياه من عين زبيده



72. The garden of El Sherif Oun El Rafik with a water-fall from the well of Zobeidah.





73. El Moshir Osman Pash Noury, the Wali of El Hejaz

الرفيق باشا فتحقق بذلك المثــل "الجزاء من جنس العمل" وذلك أن والى مكة العادل المشــير عثمان نورى باشا(١) كان قد أنشأ بالقرب من معسكر المحمل بستانا بهجة للناظرين فيه من الأشجار أجملها ومن الثمــار أطيبها وأباحه لأهل مكة يتنزهون فيه ويستظلون بوارف ظله ، وكان أوّل ما أنشئ بمكة من متنزهات ، فما كان من الشريف إلا أن سعى به لدى الخليفة فعزله ، وأمر بإزالة البستان الذى أنشأه وأنفق عليه الآف الجنيهات .

تأثير السيول فى مبانى مكة — إن مكة فى واد تحف به الجبال فاذا هطلت الأمطار بشــدّة تجمعت فى الأودية بسرعة وهرعت الى مكة فكوّنت فى كثير من أماكنها بحيرات ترى البيوت فيها أشبه بالجزر ، واذا علمت أن المسجد الحرام وطئ عن الشوارع بنحو ثلاثة أمتار أدركت أنه عند طغيان السيول يتحوّل الى بحيرة بعيدة الغور ، لذلك تنبغى العناية بتأسيس البيوت حتى لا يجرفها السيل أو يأتى عليها من قواعدها ، وللسيول بمكة حوادث غريبة دعتنا الى أن نسطر لك بعضها .

ففى زمن جرهم أيام كانوا ولاة البيت جاء سيل جارف هدم الكعبة فبنته جرهم على قواعد اسماعيل ، وكان البانى رجلا أزديا يدعى أبا الجارود .

(١) ولى أمر الحجاز لأوّل مرة سنة ١٢٩٩ ه . وهو رجل ذكى شهم سياسى تحيل فى القبض على الشريف عبــد المطلب الذى هم بالخروج على الدولة فعزلتــه من إمارة مكة وولت مكانه عون الرفيق باشا وقد وشى هذا بعثمان نورى باشا لما أن غل يده عن المكوس والمظالم التى كان يتقاضاها من العربان والحجاج ، فعزل بالوشاية بعــد خمس سنوات وعين واليا على اليمن ثم أعيد الى ولاية الحجاز وقد أصلح مجرى عين زبيدة وعمل فيها صنابير (حنفيات أو بازانات) وهو الذى أنشأ ديوان الحميدية ودار البريد والثكنات العسكرية بمكة وجدّة وأنشأ سور ينبع ، وقد أنشأ الحديقة المذكورة فى ولايته الثانية ولم يكن موضعها مقبرة وإنما كان فضاء واسعا ، ولما امتلأت نفس عون منه خرج الى المدينة فى جمع من علماء مكة وأشرافها وضم إليه علماء المدينة وأشرافها وكتبوا الى السلطان يطعنون فى الوالى وأنه يكره الأشراف ويسبهم ويهينهم ويحتقرهم وإنه حوّل مقبرة المسلمين الى متنزه ، فما كان من السلطان إلا أن عزل العادل المصلح ، وكان خليقا بأمير المؤمنين أن يتبين فى قول الشريف كما أمر الله فى كتابه وأن لا يحكم على متهم إلا بعد استجوابه واستماع قوله .

(أنظر الوالى فى الرسم ٧٣)

وفى زمن خزاعة جاء سـيل عظيم دخل المسجد الحرام وأحاط بالكعبـة ورمى بالشجر وجاء برجل وامرأة ميتين، فعرفت المرأة وكانت بأعلى مكة يقال لهـا : قارة وسمى السيل باسمها ولم يعرف الرجل، فبنت خزاعة بناء حول البيت أداروه وأدخلوا الحجر فيه ليحصنوا البيت فلم يزل ذلك البناء الى زمن قريش .

وفى سـنة ٨٠ هـ . نزل سيل عظيم دفعة واحدة ذهب ببعض الحجاج وبأمتعتهم وكان يحمل الإبل عليها الأحمال والرجال والنساء ودخل المسجد فأحاط بالكعبة وبلغ الركن وهدم بيوتا كثيرة انقضت على كثيرين فأماتتهم، فرقى الناس الجبال واعتصموا بها وسمى ذلك السيل « سيل الجحاف » وفيه يقول عبد الله بن عمارة

لم ترعينى مثل يوم الاثنين * أكثر محزونا وأبكى للعين
اذ خرج المخبيات يسعين * شواردا الى الجبـال يرقين

وفى سـنة ١٠٤ هـ . وقع سيل يقال له : المخبل لأنه أصاب الناس بعده مثل الخبال من مرض حدث بهم عقبه فى أجسامهم وألسنتهم، وكذلك حصل سيل آخر فى هذه السنة .

وفى سنة ٢٠٨ هـ . حدث سيل عظيم أحاط بالكعبة وبلغ الباب والحجر الأسود وهـدم أكثر من ألف دار ومات به أكثر من ألف ملأ المسجد والوادى بالطين والبطحاء وذهب بصناديق الباعة فألقى بها فى المسفلة ، وفى ذلك كتب عبيد الله ابن الحسن الى المأمون يستنجد به : « يا أمير المؤمنين إن أهل حرم الله تعالى وجيران بيته وألّاف مسجده وعمرة بلاده قد استجاروا بعز معروفك من سيل تراكمت جرياته فى هدم البنيان وقتل الرجال والنسوان واجتياح الأموال وجرف الأثقال حتى ما ترك طارفا ولا تالدا للراجع اليها فى مطعم ولا ملبس فقد شغلهم طلب الغذاء عن الاستراحة الى البكاء على الأمهات والأولاد والآباء والأجداد، فأجرهم يا أمير المؤمنين بعطفك عليهم وإحسانك اليهم تجد الله مكافئك عنهم ومثيبك على الشكر منهم » فوجه المأمون اليهم الأموال الكثيرة وكتب اليه (أما بعد، فقد وصلت شكيتك لأهل حرم الله الى

أمير المؤمنين فبكاهم بعين رحمته وأنجدهم بصيب نعمته وهو متبع لما أسلف اليهم بما يخلفه عليهم عاجلا وآجلا ان أذن الله فى تثبيت نيته على عزمه) فكان كتابه أسر لأهل مكة مما بعث اليهم .

وفى سنة ٢٥٣ هـ . دخل مكة سيل عظيم أحاط بالكعبة وقارب الحجر الأسود وهدم دورا كثيرة وملأ المسجد غُثَاءً حتى جرف بالعجلات .

وفى سنة ٣٤٩ هـ . لما برز الحج قافلا جاءهم سيل فأخذهم عن آخرهم وألقى بهم فى البحر وما أتى مصر منهم أحد نسأل الله العافية .

وكذلك حدثت سيول فى سنى ٥٥٩ و ٥٧٣ و ٦٥٠ و ٦٦٩

وفى سنة ٧٣٣ هـ . فى آخر ذى الحجة وقعت أمطار وصواعق منها صاعقة على أبى قبيس قتلت رجلا، وثانية بالخيف قتلت رجلين، وثالثة بالجعرَّانة قتلت رجلين أيضا .

وفى سنة ٧٣٨ هـ . وقعت سيول جاء معظمها من وادى إبراهيم ودخلت المسجد وعلت على العتبة قدر شبرين، ودخل المطر قناديل المطاف وهدم مايربو على ٨٠٠ دار وغرق ناس ومات آخرون تحت الأنقاض .

وفى سنة ٧٥٠هـ . نزل مطر وصاعقة وريح سوداء أوقعت جميع الأعمدة المتجدّدة حول المطاف التى جدّدها فارس المدين فى سنة ٧٤٩ هـ . ولم يبق منها إلا عمودان .

وفى سنة ٨٠٢هـ . نزل سيل كأفواه القرب جعل فى مكة بحرا زاخرا وملأ المسجد الحرام حتى كان عمقه خمسة أذرع ودخل الكعبة من شق بابها وأسقط عمودين بما عليهما وهدم دورا كثيرة ومات به نحو ٦٠ شخصا ما بين غرقى وهدمى .

وفى سنة ٨٢٥ هـ . وقع مطر عظيم صحبته صاعقة أماتت أربعة أشخاص .

وكذلك حصلت سيول فى سنى ٩٧١ و ٩٨٣ و ١٠٢١ و ١٠٢٤ و ١٠٣٣

وفى سنة ١٠٣٩ هـ . نزل مطر شديد أمات نحو ١٠٠٠ شخص فى يوم وليلة ودخل المسجد الحرام وبلغ طوق القناديل وأسقط الجانب الشامى من الكعبة بوجهه

وأخذ معـه من الجدار الشرقى الى البـاب ، ومن الغربى من الوجهين نحو السدس ودخل بيوتا فأخرج منها الأمتعة وذهب بها الى المسفلة .

وفى سنة ١٠٧٣ هـ . نزل مطر شديد وصل من المسجد الحرام الى القناديل .

وفى سنة ١٠٩١ هـ . أمطرت السماء مطرا لم يشاهد مثله خرّب أكثر البيوت خصوصا ما كان بسوق الليل والمسفلة والأطراف المنحدرة ، ودخل المسجد الحرام و بلغ الى نصف الكعبه ، وكان ذلك اليوم يوم خروج الحج المصرى ففرق المسافرين ، ومن غريب الاتفاق أن حمل السيل جملا محملا ودخل به الى الحرم فلم يزل السيل يدفعه — وقد انقطع حمله — حتى رقى على منبر الخطيب ولم يزل به الى الصبح من اليوم الثانى وقد أرّخ بعضهم هذا السيل بقوله (طغى المـاء) .

وفى سـنة ١٠٩٣ هـ . عملت فى المسفلة (أسفل مكة) قناة عظيمة لتصرف السيل الى بركة ماجن .

وفى يوم السبت ٢١ ذى الحجة من سنة ١٣٢٥ (٢٥ يناير سنة ١٩٠٨) فى حجتى الرابعة نزل مطر شديد وجرى السيل من كل جهات مكة بشكل لم يسبق له مثيل منذ ٣٣ سنة على ما بلغنى ، وكان السيل أشبه بمـاء النيل المنحدر وكان عرضه وهو ينحدر من جبال جياد نحو ٥٠ مترا وسمعنا دوى صاعقة بجيـاد مثلت صوت جملة من المدافع الضخمة أطلقت فى لحظة واحدة ، وقد ملأ الشوارع حتى كان عمقه فى شارع وادى ابراهيم مترين تقريبا ، ولذلك دخل المسجد الحرام من أبوابه وانقطع المرور من الطرق إلا بالسباحة ، وكنت ترى الشقادف ورحال الإبل سابحة فى المـاء وتسـمع دويا للمـاء كأنك أمام القناطر الخيرية وقد فتحت عيونهـا وتجد الناس فى (الرسم ٧٤) وقد خرجوا من المسجد الحرام من باب الرحمة يستعدّون لاجتياز هذه المياه وقد كشفوا عن سوقهم ورفعوا ثيابهم الى ركبهم ودون ذلك وأكثر .

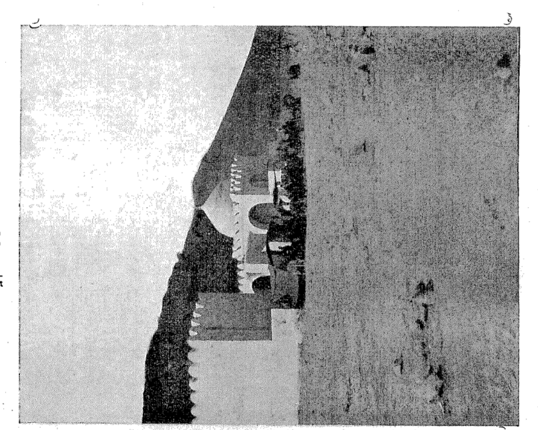
الحجاج يجتازون السبيل بمكة سنة ١٣٢٥



74. A photo of the pilgrims passing through El Sabil in Mecca in 1325.







75. Mosque & Mausoleum of El Sayyeda Maymuna, wife of the Prophet Mohamed, at Sarif between Mecca & Medina.

سكان مكة — قال تعالى ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً[١] لِلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾ وقال ﴿ سَوَاءً ٱلْعَاكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ[٢] ﴾ لهذا هرع المسلمون من أقطارهم المختلفة الى الاقامة بمكة المكرمة احتماء بحرم الله وابتغاء لفضل الله ورضوانه وقصد التجارة للدنيا والآخرة. وذلك من يوم أن انتشر الاسلام فى أطراف المعمورة الى يومنا هذا .

وقد كان من أثر ذلك أن كان المكيون من أجناس مختلفة وأمم متباينة ؛ فمنهم المكىّ الصميم ، ومنهم أعراب البوادى الذين توطنوا مكة يمنيين وحضرميين وحجازيين ونجديين ، ومنهم الهنود والجاوة والبخاريون والأفغان والأعجام والشوام والأتراك والمصريون والسودانيون والمغاربة وكثير غيرهم من الأمم الاسلامية ، ولما كان للغربة والهجرة أثر كبير فى الجدّ والنشاط كان معظم التجارة بأيدى الأغراب ، فالأشياء الثمينة والبيوت التجارية العظيمة بأيدى أولئك .

قال صديقنا الفاضل لبيب بك البتانونى فى رحلته : ومن اختلاط هذه الأجناس بعضهم ببعض بالمصاهرة أو المعاشرة صار سواد أهل مكة خليطا فى خَلْقهم وخُلُقهم، فتراهم قد جمعوا الى طبائعهم وداعة الأناضولى وعظمة التركى واستكانة الجاوى وكبرياء الفارسى ولين المصرى وصلابة الشركسى وسكون الصينى وحدّة المغربى وبساطة الهندى ومكر اليمنى وحركة السورى وكسل الزنجى ولون الحبشى ، بل تراهم جمعوا بين رقة الحضارة وقشف البداوة ، فبينا ترى الرجل منهم قد آنسك برقة حديثه معك وضعته بين يديك إذ هو قد استوحش منك وأغلظ فى كلامه حتى كأن طبيعة البداوة تغلبت فيه على طبيعة الحضارة فلم يطق ما تكلفه فى حضرتك .

وقد وصل هذا الخلط الى أزيائهم التى تراها مجموعة مختلطة من أزياء البلاد الاسلامية : عمامة هندية وقفطان مصرى وجبة شامية ومنطقة تركية فيها خنجر تراه على الخصوص فى حزام الأشراف مفضضا أو مذهبا بشكل جميل جدا ، وكثيرا

(١) مكانا يثوب الناس إليه ويرجعون .
(٢) المقيم والطارئ .

مايكون مرصعا بالأحجار الكريمة، وقد ترى الصانع الفقير يلبس القميص وعلى طوقه الوشي المشغول بالحرير وعلى رجل سراويله شي يشبه « الركامة » وهو حافى القدم غير أنك لا تلاحظ هذا فى طبقة الأشراف التى ترفعت عن هذا الخليط فلم يؤثر فيهم الغريب ولم يتغلب عليهم خلق جديد ، بل أخلاقهم أخلاق عربيـة بحتة هى التى ورثوها عن آبائهم السالفين .

ثم قال : والذى يؤسف له أن هـذا الخلط وصل الى لغتهم فتراهم يتكلمون فى الأكثر بلغة يكثر فيها الحشو من كلمات عربية مشوّهة أو فارسية أو تركية وهم ينوّنون المضاف فيقولون : فى هذا حق فلان مثلا : هذا حقٌّ فلان مع ابدال القاف جيما مصرية ، ومنهم من يمدّ الحرف المنوّن فيقول « هـذا حقون فلان » أو يؤنث لفظه فيقول « حقة فلان » ولا يحذفون النون من الفعل فى صيغة الأمر للجمع فيقولون : « هيا صلون المغرب واركبون » بدل صلوا وآركبوا ويسـتعملون الترخيم فى غير المنادى فيقولون : « قم لِعنا » أى قم لعنـدنا ويقولون : فى الإبل « البِل » بكسر الباء وفى الجبل « البَل » بفتحها ويقولون كِنّاً أى كانا (خلصنا) ويقولون : « وصابتى » فى وامصيبتى ، والّلن فى اليمن ، ومما يكثر سماعه منهم قولهم : « دَحِين » فى هذا الحين و « اِزْهَم فلان » فى ادع فلانا ، ويعبرون عن الرجل بلفظ « زلَمَـة » ويجمعون الرجل على «أوادم» ويقولون «زَكِّنُه» أى فكره أو نبهه وقل كذا أى اعمل كذا ويقولون « أبيض » للاستحسان و « سنِّع » فى اصنع أو أتقن و «آتجعمص» فى اجلس و « فصِّخ حذاك » أى اخلع نعالك ، ويقولون : « مِشْلح » للعباءة ، و«شاية» للقفطان ، و«امرح» : آجر ، و«الوَدَن» للفدان من الأرض ، «والصُّمادة» للكوفية ، و « زكن عليه » أى أكد عليه ، و « زِل » بمعنى مر ، و « آندر » بمعنى آخرج ، و « إلّا » بمعنى نعم ، ويسمون الأولاد « البزورة » فيقولون : بزورة فلان أو بزران فلان أى أولاده ، ويسـتعملون لفظة « هرِّج » فى معنى كلم فيقولون : ما هرَّجته أى ما كلمته ، ويستعملون لفظ « صاقن » التركيـة للتنبيه والآحتراس

و « قرپوز » للبطيخ الخ ، وهذا كله مع كثرة أغلاطهم وعدم مراعاة قواعد العربية فى النطق والكتابة .

وما كان ينبغى بأم البلاد العربية أن تكون لغة أهلها على هذه الشاكلة ، وكان جديرا بها أن تكون موئل العربية الفصحى ومنهلها العذب كما كانت كذلك فى أيام الجاهلية وصدر الاسلام ، ولكنه الاهمال يذهب بالمجد التليد والعز القديم . وأكثر أهل مكة يعرف التركية ومن المطوفين من يتكلم بلغات مخصوصة كالهندية والأوردية — هندية أيضا — والجاوية والصينية والفارسية وأهل البادية لغتهم عربية بحتة ، ولكن لا تكاد تفهمها ولكل قوم لهجة خاصة ، فمنهم من يقلب القاف زايا فيقول « زربة » فى قربة ، ومنهم من يقلب الكاف سينا فيقول « سواسب » فى كواكب و « سبد » فى كبد الخ .

وسكان مكة يزيدون على ١٢٠ ألفا كلهم مسلمون إذ قد حرم الاسلام أن يقربها مشرك ، قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا (١) وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً (٢) فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ فلم يسكنها مشرك من ذلك العام ، وذلك ليكون مبعث الاسلام ومشرقه الأوّل بمنجى ممن يدسون للمسلمين الدسائس ويثيرون الفتن ، بل مازال عمر فى خلافته يجدّ حتى طهر جزيرة العرب ممن يدين بغير الاسلام فكانت للمسلمين حصنا حصينا وحرزا منيعا خلا من مثارات الفتن وأهل الأهواء والريب .

عادات المكيين — جاء فى رحلة صديقنا لبيب بك أن من عادات أشراف مكة أن يرسلوا أولادهم وهم فى نعومة أظفارهم الى البادية وخصوصا الى قبيلة عدوان التى فى شرق الطائف وهى قريبة من سعد التى أرضع فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فينشئون فيها على البداوة التامة مع الأمية الصرفة حتى اذا ترعرعوا عادوا الى مكة وقد تعلموا بعض لغات القبائل وحفظوا من أشعارهم وأخذوا من عاداتهم وأخلاقهم التى من أحسنها الفروسية والحرية فى القول والفعل .

(١) سنة تسع . (٢) فقرا .

ومن عادة الشريف أن يجلس للحكم فى دار الإمارة كل يوم من الساعة الخامسة نهارا الى قبيل العصر فتعرض عليه المسائل العامة .

ومن عادته أن يستقبل صباح الجمعة فى دار الإمارة الوالى وكبار الموظفين والأشراف والوجوه .

ومن عادات المكيين التأنق فى المأكل والمشرب واللباس وتكثر فى لباسهم الألوان الزاهية خصوصا الأخضر والأحمر والأزرق والوردى ، وترى فى مساكنهم كثيرا من أدوات الزخرف والزينة والرياش الثمينة ولاسيما البسط العجمية النادرة المثال .

ومن عاداتهم تقديم الشاى فى أى وقت تحية للقادم عليهم وإقامة المآدب فى حفلة يسمونها قَيْلَة ويتفاخرون بكثرة صنوف الطعام ، وليس لأطعمتهم نظام مخصوص ، فنها : الهندى والمغربى والشامى والتركى والمصرى ويقعد المدعوون فى هذه الولائم على سماط يمدّ على الأرض ويقدّم اليهم الطعام لونا فلونا ، وبعد ذلك يجلسون للسمر أو سماع بعض الأغانى وآلات الطرب كالعود والقانون والرباب ثم ينصرفون وفى الأكثر تكون هذه الحفلات فى ضواحى مكة كالزاهر والشهداء ، وهنالك يبكرون اليها ويقضون يومهم فى سرور وألعاب رياضية كالمسابقة بالجرى أو لعب الكرة أو النرد أو الشطرنج .

ولأهل كل حارة من حارات مكة وليمة يقيمونها للشريف كل سنة فى أحد متنزّهاتهم خارج البلد ، فيحضر مع خاصته فى موكبه ويتناولون الطعام وتقام الألعاب حتى آخر النهار وبعد فترة من الليل يعود فى موكبه الى مكة .

ومن عاداتهم أن يتناولوا الطعام مرتين فى اليوم فى الضحوة وبعد صلاة العصر ، ويتظاهرون بالكرم والشجاعة خصوصا فى شهر رمضان وقد كانوا يفطرون فى المسجد الحرام بعد صلاة المغرب فيمدّون الموائد هناك ولكن أبطل عون الرفيق باشا هذه العادة لما يتبعها من تقذير المسجد وقد أمرنا بنظافة المساجد وتعطيرها ، ومن عادة كثير منهم شرط وجنات الصبيان ثلاث شرطات فى كل وجنة .

ونساؤهم يدخن بالنرجيلة (الشيشة) ويفشو بينهن الزار ويخرجن الى الأسواق بملاءات واسعة سوداوات فى الأكثر وبرقع كثيف فيه ثقبان صغيران فى محاذاة العينين، وفى أقدامهن خفاف ضخمة أغلبها ذو لون أصفر .

ومن عادتهم فى عرسهم أن يدعوا الأهل والأصدقاء رجالا ونساء ويجلس الرجال خارج البيت فى المكان المعدّ لهم ، ويمدّ لهم فى العشاء سماط طويل يجلسون عليه جميعا مرة واحدة فيأكلون وينصرفون . أما النساء فيدخلن البيت فيجدن على باب القاعة التى يجلسن فيها قصعة كبيرة مملوءة بمعجون الحناء، فتصبغ المرأة منها إحدى يديها ثم تدخل الى قاعة الجلوس وبعد السلام تجلس مع الجالسات يتجاذبن أطراف الحديث حتى منتصف الليل، واذ ذاك يزففن العروس الى بعلها ثم يعدن الى بيوتهن بعد أن يطوّقن عنقها بعقود من زهر الفل أو ثمر التفاح وهو فى قدر البندق .

ومن عادتهم فى مآتمهم أنه حينما تفيض الروح الى بارئها تصرخ امرأة من أقرب الناس اليه صرخة أو صرختين إعلاما بالمصيبة ، فيتوارد اليها النساء فيجدن قصعة على باب القاعة التى يجلسن فيها ملئت بمعجون الحناء فيخضبن منها إحدى اليدين ثم يدخلن القاعة معزيات صاحبة المصيبة ثم يجلسن ويأخذن فى الأحاديث المختلفة ثم ينصرفن والميت يأخذه بعض أقاربه الى محل يسمى الشرشوره يغسل فيه ثم يسرعون به الى المقبرة ، ويدفنونه بدون احتفال كبير ثم يتوارد الرجال على أهله معزين ثم ينصرفون لوقتهم .

ومن عادتهم أنهم يعملون حفلة كبيرة عند ختم أولادهم للقرآن، فيسيرون بهم فى موكب يقطع طرق مكة . ويحتفلون فى منتصف شهر صفر بمولد السيدة ميمونة زوج النبى صلى الله عليه وسلم عند مدفنها بِسَرِف (الرسم ٧٥) على مسير ثلاث ساعات من مكة على طريق المدينة، فينصبون خيامهم فى تلك الصحراء ويتفاخرون بكثرة الطعام والشراب . ويحتفلون بمولد النبى صلى الله عليه وسلم فى شهر ربيع الأوّل ويعبرون عن المولد بالحول فيقولون حول النبى وحول ميمونة، ومما تعوّدوه الاصطياف

فى الطائف وفى جبل الهدة فوق جبال كرا ، لطيب هوائهما وكثرة بساتينهما ويرتفع الطائف عن بحر جدّة ١٥٤٥ مترا ويرتفع الهـدة عنه ١٧٥٨ مترا والكرا ٨٢٢ مترا[١] وأشهر مصيف فى الطائف يسمى شبرا وهو لأشراف ذوى عون ، أنشأه الشريف عبد الله باشا وسماه باسم شبرا مصر ثم حدائق المثناة وهى لذوى غالب وهى أحسن حدائق الطائف ومشهورة بخوخها وعنبها ، وماؤها أعذب مياه تلك الجهة .

جوّ مكة — جوّها جاف وحار وتختلف درجة الحـرارة فى بعض الشهور عن بعض ، ففى يناير تكون ١٨° وفى فبراير ٢٠° وفى مارس ٢٣° وفى أبريل ٢٤° وفى مايو ٢٧° وفى يونيه ٢٩° وكذلك فى يوليه وفى أغسطس ٣٠° وفى سبتمبر ٢٨° وفى أكتوبر ٢٥° وفى نوفمبر ٢٤° وفى ديسمبر ٢٠° ، هذا هو الجوّ الاعتيادى وقد تصل الحرارة الى ٣٩°[٢] ، والأمطار بها قليلة وقد تنحدر اليها سيول عظيمة تحوّل مكة الى بحيرات وتأتى من الأمطار التى تنزل بالجبال المطيفة بالطائف ، وقد وصفنا لك سابقا السيل الذى كان فى سنة ١٣٢٥ هـ . والرياح فى مكة مختلفة المهاب فتارة تهب من الشمال وأخرى من الغرب وثالثة من الجنوب ورابعـة من الشرق ، ومنشأ ذلك أن الجبال تطيف بمكة والهواء يعمل فيما بينها شبه دوامات المـاء فتأتى الرياح من جميع الجهات وألطف الأهوية عندهم ماجاء من جهة البحر الأحمر ، ثم من جهة الشام ، أما ما يهب من الشرق أو الجنوب فحارّ .

تجارة مكة — أكثر الأشـياء التى يتجر بها فى هذا البلد يأتى من الخارج : كالبصرة ومصر وبومباى واليمن والشام وغيرها ، وأكثر التجار من الأجانب الذين سكنوا مكة ، ومن الأصناف التى يتجرون فيها العطريات والسبح والسجاجيد والأنسجة الحريرية الهندية والشامية وأنواع الحلى وتأتى اليها الخضراوات والفواكه كالعنب والموز والجوز والسفرجل وغيرها من جهة الطائف ومن بركة ماجن التى تبعد

(١) دليل الحج لصادق باشا ولكن فى «سلنامة» — تقويم — الحجاز أن ارتفاع الطائف ١٧٧٥ متر

(٢) سلنامة ١٣٠٥ ص ١٤٩

عن مكة مسير نصف ساعة وكذلك من مزارع جنوبى جبل ثور تبعد عن مكة مسير ساعتين وتأتى أيضا من بساتين وادى فاطمة على بعد خمس ساعات، ومن سولة ووادى الليمون على بعد أربع عشرة ساعة من مكة، وأهم سوق للخضراوات واللحوم السوق الصغير غربى المسجد الحرام أمام باب إبراهيم، والجوهرات والأشياء الثمينة فى سوق الشامية، ولوازم الحجاج فى سوق الليل شرقى المسجد الحرام . وهاك جدولا بالنقود المستعملة فى مكة وجدّة وقيمتها بالقروش العثمانيــة فى زمن الحج و بعــده نقلناه عن رحلة المرحوم محمد صادق باشا .

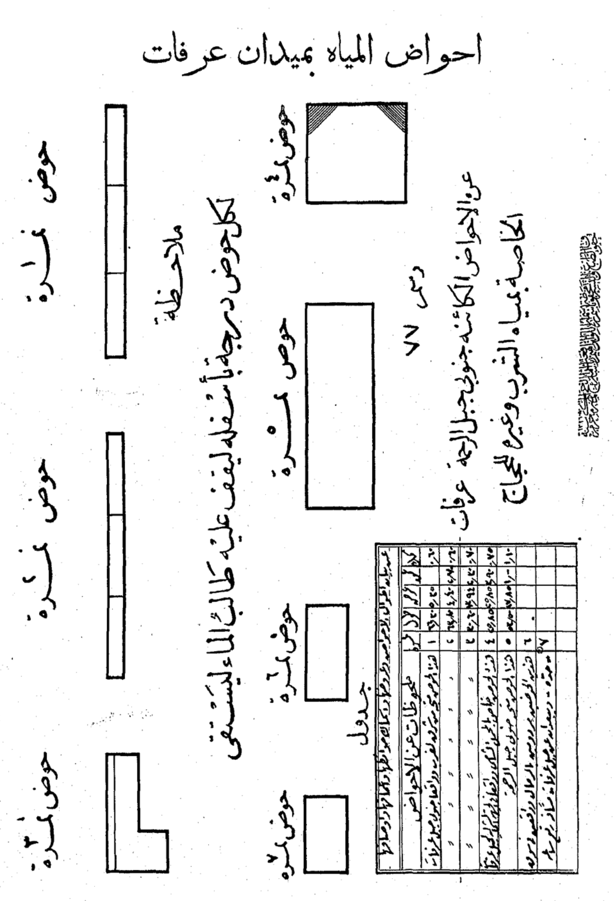
من بعد الحج	وقت الحج	أسماء العملة	من بعد الحج	وقت الحج	أسماء العملة
هـ	هـ		هـ	هـ	
١٧١	١٦٩	الجنيه المصرى	٢٩	٢٨	الريال الشنكوا
١٧٠	١٦٨	« الانجليزى	٢٨	٢٦	« المجيدى
١٥١	١٤٨	« العثمانى	١٣	١٣	الروبيــة
١٣٣	١٢٨	البنتــو	—	٥	الفــرانق
٢٨½	٢٨	الريال بطاقة	—	١½	القرش المصرى

وأكثر النقود استعمالا النقود العثمانيــة وغيرها أكثر ما يتعامل به فى أوان الحج بحسب قيمته .

مياه الشرب فى مكة — قدّمنا لك نبــذة عن الصهاريج فى مكة ولم نبين إذ ذاك موارد مياهها وها نحن نشبع الكلام فى ذلك إشباعا ونقفك على سر من أسرار القدر وعمل من أجل الأعمال ربما شق مثله فى عصرنا عصر الاختراعات والتقدّم الباهر فى الصناعات، ولكنها الهمم لا يقف دونها شىء ولا يصدّها عن تنفيذ عزماتها صاد ولا سيما اذا صفت النية وخلصت السريرة، فاستمع وفقك الله لخير العمل وأبره، فى طريق الطائف على بعد نحو أربعين كيلومترا من مكة جبال تسمى جبال الثقبة، تنبع من عندها عين تسير فى قناة بنيت لها من منبعها حتى عرفة فالمزدلفة فمنى فمكة، وهذه العين تعرف بعين زبيدة، وهذه القناة عرضها من الأعلى متر وقد تزيد، وفراغها

من ٥٠ الى ٦٠ سنتيمترا، وعمقها متر ونصفه، وآرتفاع المـاء فى قاعها ٧٠ سنتيمترا وقد يزيد وقد ينقص وهى مغطاة بأبنية الحجارة، وبالغطاء فتحات لأخذ المـاء منها، عرضها ستون سنتيمترا وتنقص أو تزيد، والفتحات يتباعد بعضها عن بعض بمسافات مختلفة حسب الحاجة، وبجانب الفتحات أحواض لشرب الآدميين وأخرى لشرب الحيوان، وسطح القناة تارة يكون مساويا لسطح الأرض وتارة يرتفع عنها وقد يصل الآرتفاع الى ٧ أمتار، وتارة تسير فى تخوم الأرض على مقربة من سطحها أو أبعد، ومن هذه القناة تأخذ كل صهاريج مكة فيشرب أهلها عذبا فراتا، وهذه القناة تدور فى سفح جبل عرفات من ثلاث جهات كما ترى ذلك بخريطة عرفة (رسم ٧٨)، وفيها هنالك فتحات كثيرة بين الفتحة وأختها ٤٫٥٥ أمتار، وعرض الفتحة ٦٨ سنتيا فى عرض ٨٠، وقد يزيد الطول والعرض على ذلك الى متر، وعمق القناة ١٫٣٢ متر، وعرضها ١٫٤٦ متر من الأعلى، ويصعد الى الفتحات بسلالم قد تصل درجات السلم الى١٥، وعلو الدرجة من ٢٥ سنتيا الى ٣٥ سنتيا، وعرضها ٣٠ سنتيا وهذا المقاس إنما كان فى المجرى جنوبى جبل الرحمة فقط، وهذه الحياض ترمم وتنظف كل سنة قبل موسم الحج بقليل . ومما لاحظته أن هذه الحياض بعرفة دون حاجة الحجيج ودوابهم، فان الحجيج زادوا على ١٥٠٠٠٠ شخص، ومعهم من الحيوان مالايقل عن ٣٠٠٠٠ حيوان، فترى الناس فى زحام شديد على هذه الحياض، وليس هناك جند يقى بعضهم صدمات بعض أو يقدّمهم الى الأحواض بنظام، وبسبب هذا التزاحم تتقذر المياه حتى لا تصلح لشرب الحيوان فضلا عن الانسان، وبسببه أيضا يعمد النـاس الى أخذ المياه من الفتحات التى فى المجرى والتى يصعد اليها الناس بسلم ذى أربع عشرة درجة، وهنالك يتوضأون أو يغتسلون من نفس المجرى أو ينظفون ثيابهـم وأوعيتهم فيقذرون المياه ولو من أرجلهـم على الأقل، ولولا جريان المـاء لكان من ذلك أضرار محققة بصحة الحجاج .

وكان خليقا بالحكومة أن تنظف الحيضان وتجدّد ماءها كل يوم من أيام عرفة التى لا تعدو الأربعة وتقيم بجانبها حرّاسا ينظمون حركة الشاربين ويحفظون الميـاه



77. The water-cisterns at Arafat.

من الأقذار، وأن دولة الشريف والوالى يصحبهما بعرفة الحراس الكثيرون فما عليهما لو جعلوا من أولئك حرّاسا على الحياض؟ ولا يكلفهم ذلك فتيلا ولا نقيرا، بل ماذا عليهما لو أقاما جنودا فى ميدان عرفة الفسيح يحافظون على الأمن ويضربون على أيدى اللصوص الذين تفاقم شرهم يتربصون غرة من الحاج ليسلبوه ماله ومتاعه؟ بل مما يضمن راحة الحجاج فى ذلك الميدان أن يقسم الى شوارع وحارات يوضع عليها أعلام، فان الحجاج كثيرا ما يضلون خيامهم لسعة الميدان فانه ميلان فى ميلين تقريبا وذلك لا يكلف الحكومة إلا تخطيط الأرض ووضع أسماء الجهات بالخط العريض على رءوس الشوارع وإنه لأمر يسير.

ومما لاحظته أن ليس هنالك بيوت خلاء فترى الناس يقضون الحاجة فى الفضاء متدانين ومتباعدين فتتصاعد الروائح الكريهة، فلو أقيمت بيوت أدب على مبعدة من الخيام وأنضاف الى ذلك العناية بالماء لكان الناس فى صحة وهناء، ومن الحسن جدا أن تغطى الحياض بغطاء من الصاج ويجعل فيها صنابير « حنفيات » فبذلك يُجنَّبُ الماء القذر ولا يغيره طول المكث، وكذلك ينبغى أن يجعل للفتحات التى فى مجرى العين أغطية حتى تمنع عن العين الأتربة وآستقاء الناس وتطهرهم منها وغسل ثيابهم وأوانيهم، وإن ما تنفقه الحكومة فى تنظيف الحياض وترميمها فى سنتين ليكفى عمل الأغطية والصنابير فيوفر عليها النفقات الطائلة التى تنفقها كل سنة.

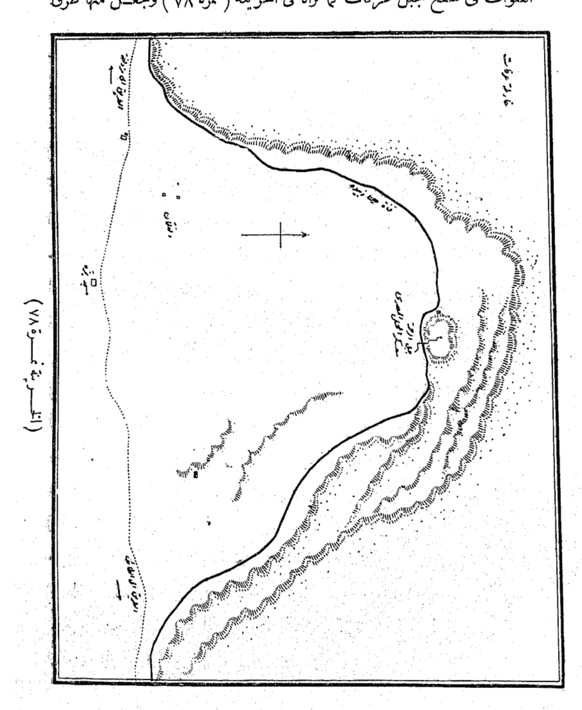
أهمية عين زبيدة — وبما أن عين زبيدة تعتبر كنهر يجرى على مسافة ٤٠ كيلو مترا يستقى منه سكان البلد الحرام والحجيج الوافدون من جميع الأقطار بل وينبتون به المزروعات ويخطون منه البساتين، كان من الواجب علينا أن نقدّم بين يديك نبذة تاريخية عن عين زبيدة خاصة والمياه بمكة عامة، ومنها تعرف أن الاسلام آمتزج حبه بلحوم المسلمين ودمائهم وأنه تأصل فى نفوسهم وازع الخيرات والرحمة بِقُطَّان الوادى المبارك كما تعرف أن الحج لم يفرضه الله عبثا — تعالى عن ذلك علوا كبيرا — ولكن أنقذ به أمة فى صحراء جرداء ومكن به الروابط بين المسلمين فى جميع الاقطار: ﴿ سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾.

المياه فى مكة وضواحيها وتاريخها — كان أهل مكة فيما سلف يشربون من الآبار التى بداخل البلدة وخارجها ، فلما كانت خلافة معاوية أجرى الى مكة عيونا عشرة فى قنوات عملها لذلك ، ولما حج عبد الله بن عامر جمع العيون وصرفها فى عين واحدة واتخذ حياضا بميدان عرفة أجرى اليها ماء العين فبقى الناس فى راحة من جهة الماء بمكة وعرفة ، وفى آخر دولة بنى أمية — ١٣٢ — تخربت العيون التى كانت تمد العين الكبيرة فانقطعت المياه عن أهل مكة وأصابهم كما أصاب الحجاج من جراء ذلك جهد شديد حتى كانت القربة تباع بعشرة دراهم — ٢٥ قرشا مصريا — وأكثر ، ورجع الناس الى مياه الآبار كما بدءوا واستمروا على ذلك الى خلافة أمير المؤمنين هارون الرشيد (١٧٠ — ١٩٣) فأمر بإصلاح ما تخرّب من العيون ، ولكن ما لبثت أن تقطع ماؤها وأصاب الناس من جراء ذلك شدّة شديدة ؛ فلما بلغ ذلك أم جعفر زبيدة زوجة هارون الرشيد وكانت رغابة فى الأعمال الخيرية أمرت بإجراء عين حنين — عين زبيدة — الى مكة بعد أن استأذنت فى ذلك أمير المؤمنين ، ومنبع هذه العين فى ذيل جبل شاهق يقال له «طاد» بين جبال سود عاليات تسمى جبال (الثقبة) فى طريق الطائف من مكة ، وكانت عين حنين يسقى بها نخل ومزارع للناس اليها ينتهى جريان الماء وكانت تسمى هذه البقعة حائط حنين وهو موضع غزا فيه النبى صلى الله عليه وسلم غزوة حنين ، فاشترت زبيدة هذه الأراضى وأبطلت ما فيها من النخيل والمزارع وبنت للماء قناة يجرى فيها شقت لها الجبال وجعلت لها شحاحيذ (بركا) فى كل جبل يكون ذيله مظنة لاجتماع الماء عند هطول الأمطار ، وجعلت فيها قناة متصلة الى مجرى هذه العين فصار كل شحاذ عينا يساعد عين حنين ، وهى سبعة تصب فيها ومياهها تارة تزداد وتارة تنقص حسب الأمطار التى تنزل على أمهات تلك الشحاحيذ ، ولا زالت تمد تلك القناة حتى وصلت بها الى مكة ؛ وكذلك أمرت بإجراء عين وادى النعمان الى عرفة وهى عين منبعها فى ذيل جبل كرا وهو جبل شامخ صعب المرتقى ، من أسفله الى أعلاه مسيرة نصف يوم وبعده أرض الطائف ، وتنحدر المياه من ذيل الجبل فى قناة الى

موضع يقال له «الأوجر» بوادى النعمان ثم يجرى منه المـاء الى موضـع بين جبلين شاهقين فى علوّ أرض عرفات فيه مزارع وفى ذلك يقول القائل :

أيا جبـلى نعمان بالله خليا * نسيم الصبا يخلص الىّ نسيمها

ثم أجرى المـاء فى قنـوات الى عرفات فاتصلت عين النعمان بهـا ثم أديرت القنوات فى سفح جبل عرفات كما تراه فى الخريطة (نمرة ٧٨) وجعـل منها طرق



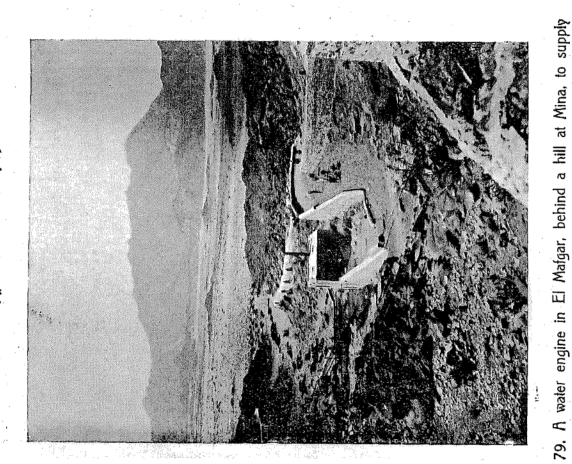
(الخريطة نمرة ٧٨)

الى البرك التى بأرض عرفات فتمتلئ ماء يشرب منه الحجاج يوم عرفة ثم سير بالقناة نحو الشمال وعلى بعد ١٣٧٨ مترا عمل بازان — بئر فى الأرض قاعه مجرى العين وينزل اليه بدرج ، وقد يكون عميقا وقد يكون قريب الغور حسب بعد القناة عن سطح الأرض أو قربها وهذه البئر تعمل ليستق منها الناس — اسمه « فقير الذئب الأعلى » وعلى بعد ٤٠٥ متر من هذا البازان بازان «فقير الذئب الثانى» ثم تنعطف القناة نحو الغرب داخلة فى وادى المغمس وتنتهى الى « حوض البقر » على بعد ١٤٢٠ مترا من البازان الثانى ، وفى هذا الحوض ٢٥ خرزة ثم تسير فى باطن الجبل الى موضع يقال له «الخاصرة» بقربه أراض زراعية يقال لها الهمدانية ، ثم ترجع منه يمينا الى « بازان الحقابة » الذى على يمين الآتى من عرفات ، ثم تتوجه يمينا الى « بازان المعترضة» وبعد ذلك تسير القناة فى سفح المأزمين على يسار القادم من عرفات ، ثم تسير الى مزدلفة وتتوجه منها فى وادى النار وفيه عند رأس جبل على يسار الذاهب الى مكة بازان يقال له «فم الوبر» ومنه يكون المجرى متعلقا فى الجبل الى «المفجر» خلف منى ، وعنده أقيم الآن على المجرى آلة بخارية (ماكينة) عند الريع (المكان العالى) الذى يرده أهل منى وهذه الآلة ترفع المياه من المجرى وتوصلها فى أنابيب حديدية الى أحواض بمنى أنشئت أخيرا فى عهد صاحب الجلالة ملك مصر فؤاد الأوّل والحجاج يستقون من هذه الأحواض . (انظر الرسم ٧٩) الذى إذا تأملته رأيت فيه المجرى والأنابيب ، ثم يتوجه المجرى منحدرا خلف جبل منى الى فتحات موازية لمدرج منى بجانبها مسجد وحوض لسقيا الدواب يسمى « حوض البقر الثانى » ومنه تسير القناة تحت الأرض الى بئر عظيمة طويت بأحجار كبيرة جدّا تسمى « بئر زبيدة » اليها تنتهى القناة ، وهى من الأبنية العظيمة (انظر مجرى عين زبيدة فى الرسم ٨٠) ولعله كان فى العزم توصيل تلك القناة الى مكة لتختلط بمجرى عين حنين ، ولكن حال دون ذلك مالا نعلمه ، والمسافة بين هذه البئر وبين المنبع ٣٣٠٠٠ متر (رحلة صادق باشا ص ٦١) وبينها وبين منى مسيرة ساعة ركوبا ، ومن هذه البئر يشرب الآن الشريف والوالى وموظفو المحملين وسَراة الحجاج بواسطة نقل الماء فى قرب على ظهور الحيوانات .

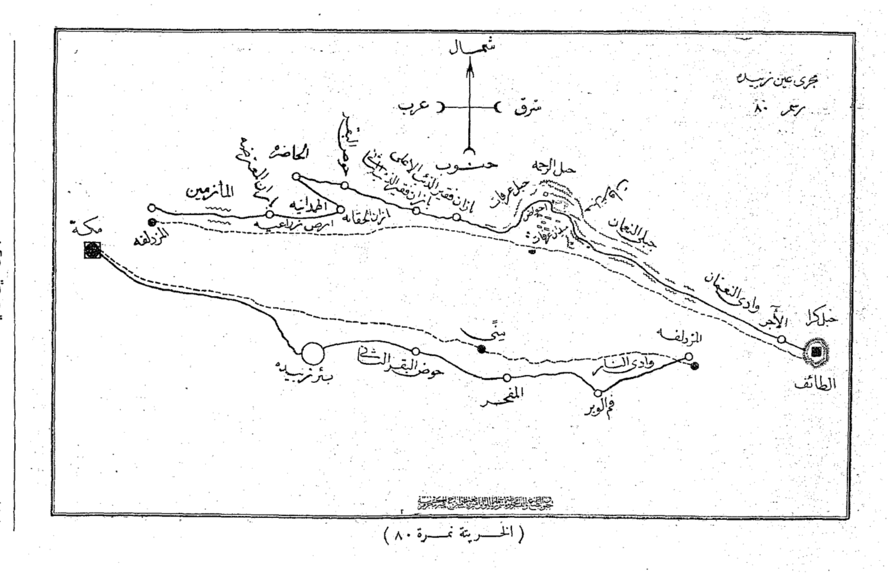
منظر الحجاج في ميدان جبل عرفات وبه حوض مياه من عين زبيدة

76. Pilgrims on Mount Arafat where a cistern of water from the well of Zobeida is found.

منظر وابور مياه في المفجر خلف جبل في منى لسقي الحجاج من عين زبيدة بواسطة مواسير



79. A water engine in El Mafgar, behind a hill at Mina, to supply the pilgrims with water by means of pipes



(الخريطة نمرة ٨٠)

وصارت عين نعمان خاصة بعرفة ومنى فى ذلك الزمن، وقد أنفقت زبيدة على ذلك العمل ١٧٠٠٠٠٠ دينار أو مثقال من الذهب، ويروى أنه لما تم عملها اجتمع المباشرون والعمال لديها وأحضروا دفاترهم لأجل الحساب ليبرئوا ذمتهم ويخرجوا من عهدة ما تسلموه من الخزينة لهذا العمل، وكانت زبيدة ساعة ذلك فى قصر عال مطل على الدجلة فأمرت بالدفاتر يلقى بها فى الدجلة وقالت : (تركنا الحساب ليوم الحساب فمن بقى عنده شىء من بقية المال فهو له ومن بقى له عندنا شىء أعطيناه) وألبستهم الخلع الثمينة — شكرا لله لها سعيها ورحمها الرحمة الواسعة —

ثم أخذت عين مكة ينقطع ماؤها لقلة الأمطار وتهدم بعض من قنواتها وطغيان السيول عليها، فأمر صالح بن العباس فى سنة ٢١٠ هـ . أن تتخذ لها جملة برك فى نواحى مكة تصل اليها مياهها، ويذهب الفائض الى بركة ماجن أسفل مكة؛ وقد كان الخلفاء والسلاطين كلما بلغهم حدوث خراب فى هذه العيون أو قنواتها يرسلون من يعمرها، ومن أولئك جعفر بن المعتصم (المتوكل على الله) أرسل مائة ألف دينار ذهبا الى مكة لاجراء ماء عين عرفات اليها، وكان ذلك لما أن حصلت زلازل فى سنة ٢٤١ هـ . غارت منها عيون مكة، ومنهم إبراهيم بن خلكان عمّر عين زبيدة فى سنة ٥٠٠ هـ . وقد وجدت فى لوحة بجبل الرحمة على يمين الصاعد اليه هذه الكتابة : «بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى إمام الله ظل مولانا الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين أعز الله أنصاره؛ أمر الإمام الاصفهتيلار الكبير نصير الدين بن زين الدين صاحب اربل — ولم أعرف ما بعد ذلك — سنة ٥٠٠ هـ . لأبى جعفر المنصور المستنصر بالله أمير المؤمنين أعز الله تعالى ببقائه الإسلام» .

ووجدت لوحة أخرى تدل على عمارة لأبى العباس أحمد الناصر لدين الله أمير المؤمنين سنة ٥٨٤ هـ . ونصها : «بسم الله الرحمن الرحيم أمر سيدنا ومولانا الإمام خليفة الله على كافة أهل الإسلام أبو العباس أحمد الناصر لدين الله أمير المؤمنين أعز الله أنصاره وضاعف اقتداره لعمارة عين عرفة والمصانع لحجاج بيت الله الحرام،

أجزل الله ثوابه آمين؛ وذلك على يد الأمير الأصفهتيلار الكبير مجير الدين أمير الحاج والحرمين طاستكين نصر أمير المؤمنين أدام الله توفيقه، وذلك فى سنة أربع وثمانين وخمسمائة » .

وهناك لوحة ثالثة تدل على عمارة لأمير المؤمنين السابق وفيها « بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد النبي وآله ، أمر بعمارة عين عرفة والمصانع التى بها ملتفة مولانا أمير المؤمنين أعز الله أنصاره وضاعف اقتداره و بلغه سؤله ومناه وأمله ومبتغاه فى سلالته الطاهرة وعترته الزاهرة أمير الأمراء الأجل السيد الاصفهتيلار الكبير مظفر الدين بكيرى بن على صاحب اربل سيف أمير المؤمنين أيد الله سلطانه وأعلى أبدا شانه سنة ٥٩٤ هـ. تقبل الله عن يد عبد الرحمن بن أبي جرمى عفا الله عنه» .

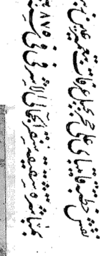
ورأيت لوحة رابعة فيها ما فى اللوحة السابقة بالتاريخ عينه . والمستنصر العباسى عمر عين عرفات فى سنة ٦٢٥هـ . وفى سنة ٦٢٧هـ. وفى سنة ٦٣٣هـ. وبجبل الرحمة كتابة تدل على تعمير المستنصر العباسى ها كها [(بسم الله الرحمن الرحيم لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ) شرع لعمارة هذه البركة لوجه الله تعالى وأضيافه المباهى بهم الملائكة صلى الله تعالى ورجاء عفوه (يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا) بالاربل الأشرف النبوى الامامى المستنصرى زاده الله تعالى شرفا ، وقد شاده حلالا المطوع بعمارة عين عرفة والبرك التى بها ملتفة بعد عطلها خرابا عشرين سنة ، المولى الأمير الكبير السيد المؤيد المظفر المجاهد شرف الدين جلال الدولة عبد الخلافة المعظم محيي الإمامة المكرمة ملك الملك ومليك المعالى زعيم الجيوش ملك الملك الإمام الأعز أبو الفضائل والمكارم اقنال الخاص النبوى المستنصرى خاص أمير المؤمنين مملوك سيدنا ومولانا الامام الأعظم المفتقر الى الطاعة على جميع الأمم عبد الله خليفة الله فى أرضه المستنصر بالله أمير المؤمنين] .

ومنهم جوبان أمير العراقين من قبل السلطان أبي سعيد بن خربندا ملك التتار فانه أمر رسوله الأمير بازان بتعمير عين عرفة وزوّده بخمسين ألف دينار فى سنة ٧٢٥ هـ. فلما انتهى موسم هذه السنة نادى فى الناس بمكة من أراد العمل فى العين فله ثلاثة دراهم يوميا ، فهرع اليه العمال وخرج بهم الى العمل وما زالوا يعملون أربعة أشهر

حتى جرى المـاء الى مكة وظهر بين الصفا والمروة فى ١٠ جمادى الأولى من سـنة ٧٢٦ هـ . وقد زادت المياه عن الحاجة فصرفها الناس فى زرع الخضراوات، وبلغت نفقات ذلك ١٥٠٠٠٠ درهم، قال الفاسى : والسبب فى كفاية ذلك القدر ما وجد فيها حين عمارتها من القناة المعمولة المهيأة من قديم الزمن ، وهى أكثر من الثلث وأقل من النصف — ومن هنا نعرف أن بازان اسم لرجل سميت به الأحواض والآبار التى على مجرى العين لقيامه بإصلاحها — وفى سنة ٧٢٨هـ. أجرى الملك الناصر محمد ابن قلاوون عينا الى مكة سارت فى مجرى عين بازان . وفى سنة ٧٤٤ هـ. أجرى نائب السلطنة بمصر عينا من منى إلى بركة السَّلَم، وذلك من طريق منى وعمرت بعد ذلك مرارا، وفى سنة ٨١٨ هـ. عمرت عين بازان — حنين — حتى وصل ماؤها إلى مكة بعد انقطاعه عنها . وفى سنة ٨٢٠هـ. انقطع المـاء فانتدب الملك المؤيد صاحب مصر والشام والحرمين قائده علاء الدين لعمارة العين فى سنة ٨٢١هـ. وزوّده بألفى مثقال ذهبا، فشرع فى عمارتها فى جمـادى الآخرة وتممها فى شعبان حيث وصل المـاء الى مكة، ولمـا انقضى موسم هذا العام قل المـاء وارتفع سعره فانتدب علاء الدين ثانية فى سنة ٨٢٢ هـ . بعض العمال والمهندسين لتعمير مالم يعمر منها وإصلاح ما خرب من عمارته الأولى، فتم ذلك وبلغت المياه مكة فى آخر صفر، وفى سنة ٨٥٢ هـ . عمرت عين حنين بمعرفة «بيرم خواجة» ناظر الحرمين الشريفين، ثم خربت العيون بعد ذلك وأصاب الناس جهد جهيد. وبلغ ذلك الملك الأشرف قايتباى، فأمر بتعمير عين مكة وعين عرفات سـنة ٨٧٥ هـ . وبدأت العمارة فى عين عرفات من جبل الرحمة الى وادى النعمان حيث وجدوا المـاء هنالك بكثرة فخلوا سبيله الى عرفة فوصلها بعد أن انقطع عنها مائة وخمسين سنة، كان الحجاج يقاسون فيها يوم عرفة الظمأ الشديد وقد أصلح البرك التى بعرفات وملأها بالمـاء، وكذلك عمر عين حنين حتى وصلت مياهها إلى مكة وعمر أيضا عين خليص وأجراها وبنى قبتها .

وقد رأيت للشريف قايتباى خطبة نقشت فى لوح من الحجر وضع بجبل الرحمة على مقربة من القناة فنقلتها بالقلم الرصاص فى ٩ ذى الحجة سنة ١٣١٨ هـ فى مدّة أربع

ساعات ، وذلك لصعوبة قراءتها وشدّة الزحام ، ولولا من يدفع عنى المزاحمين جهده ما تمكنت من نقلها ، وفى ٩ ذى الحجة سنة ١٣٢٠ هـ ، تمكنت من أخذ صورتها بالآلة الشمسية (الفتوغرافيا) وقد كتبها الشيخ على بدوى بخطه الجميل لتكون صورة واضحة للأصل الذى لوّثته بعض الدماء . (انظر الرسم ٨١) .





[أخذ هذا الرسم فى سنة ١٣٢٥ هـ]

Inscription on a stone at Arafât of Kait Bey's speech concerning the repairs to the well of Zobeida, under taken by his brother Sunkur El Gamali in the year 875.

(الرسم ٨١)

وفى سنة ٩١٦هـ عمر قانصوه الغورى آخر ملوك الجراكسة بمصر عين حنين حتى جرت وملأت بركة المعلى وبركة ماجن فى درب اليمن من أسفل مكة، وارتفق الناس بذلك؛ وفى أوائل ملك الدولة العثمانية للأقطار الحجازية بطلت العيون لقلة الأمطار وتهدّمت القنوات وانقطعت عين حنين عن مكة، وصار أهلها يستقون من آبار حولها يقال لها العسيلات فى علو مكة قريبة من المنحنى، ومن آبار فى أسفل مكة يقال لها الزاهر فى طريق التنعيم، وكذلك انقطعت عين عرفات وتهدّمت قنواتها حتى كان الحجاج يحملون الماء الى عرفات من الأمكنة النازحة، وكان فقراء الحجاج لا يطلبون يوم عرفة غير الماء لعزته، وكان بعض الأقوياء يستحضره من الأماكن النائية ليبيعه فيربح فيه الأرباح الطائلة، قال العلامة قطب الدين الحنفى : وكنت يومئذ مراهقا فى خدمة والدى رحمه الله وفرغ المــاء الذى حملناه من مكة واشتريت قربة صغيرة جدا يحملها الانسان بأصبعيه بدينار ذهبا، والفقراء يضجون من العطش يطلبون من الماء مايبلون به حلوقهم فى ذلك اليوم الشريف، فشرب أهلنا منها وتصدّقوا بباقى القربة على من كان مضطرا اليها من الفقراء، ثم عطشنا جميعا عقب ذلك وجاء وقت الوقوف والناس فى شــدّة الظمأ يلهفون فأمطرت السماء وسالت السيول من فضل الله ورحمته والناس إذ ذاك واقفون تحت جبل الرحمة، فصاروا يشربون من السيل تحت أرجلهم ويسقون دوابهم، وحصل البكاء الشديد من الحجاج لمـا رأوا من رحمة الله بهم وإحسانه اليهم، ثم صدرت الأوامر السلطانية السليمانية باصــلاح عين مكة (عين حنين) وعين عرفات، وعيّن للعيون ناظرا اسمه مصلح الدين مصطفى، وكان مجاورا بمكة فبذل جهده فى العمارة حتى جرت عين مكة ودخلتها وجرت من أسفلها إلى بركة ماجن، وأصلح عين عرفات حتى صارت تملأ البرك بعرفات وكان ذلك فى سنة ٩٣١ هـ . ثم اشترى «مصلح الدين» عبيدا سودا وأجرى عليهم الأطعمة من خزائن السلطنة وأناط بهم خدمة العين وإخراج أتربتها من الدبول — جمع دبل وهو الجدول أى النهير — والقنوات، ثم قلت الأمطار ويبست العيون ونزحت الآبار فى سنين متعدّدة من سنة ٩٦٥هـ. وما بعدها حتى كانت سنوات تقارب سنى يوسف

شدادا عجافا، ولم يبق من العيون إلا عين عرفات ولكن قل جريانها. ولما عرضت أحوال العيون على السدة السلطانية السليمانية صدر الأمر بتصليح ذلك، فاجتمع بمكة قاضيها عبد الباقى المغربى وحاكم جدّة خير الدين وغيرهما من الأعيان وتشاوروا فى الاصلاح، فأجمع أمرهم على أن أقوى العيون عين عرفات وعقدوا النية على توصيل الماء من بئر زبيدة خلف منى الى مكة وحسبوا أن تحت الأرض مجرى قديما الى مكة وانهدم، وطلبوا من السلطنة ٣٠٠٠٠ دينار للتعمير سنة ٩٦٩هـ. فالتمست صاحبة الخيرات فاطمة هانم كريمة السلطان سليمان من أبيها أن يأذن لها فى القيام بهذا العمل الخيرى فأذن لها، وانتدبت لذلك بعد استشارة الوزراء الأمير ابراهيم بن تكرين أمين الدفاتر بديوان مصر وأعطته ٥٠٠٠٠ دينار للقيام بالعمل، وقد وصل الى جدّة لثمان يقين من ذى القعدة سنة ٩٦٩هـ. ثم برحها الى مكة فقابله شريفها محمد بن نمى مقابلة جميلة وأكرم وفادته، وجاء للسلام عليه قاضى مكة حسين الحسنى فعرض عليهما مهمته وزوّداه بالآراء الصائبة وبحث عين عرفة بنفسه حتى أحاط بها خبرا، واستدعى من مصر والشام وحلب والأستانة واليمن طوائف المهندسين والخبراء بالعيون والآبار والحدّادين والبنائين والحجارين والقطاعين والنجارين وغيرهم ممن يحتاج اليه فى العمارة واستحضر آلاتها من مصر، وشرع بمعونة هؤلاء ومعونة مماليكه الأربع المائة فى إصلاح القناة مبتدئين من الأوجر حتى وصلوا الى بئر زبيدة، وهنالك بدا لهم ما لم يكونوا يحتسبون إذ لم يجدوا بعد البئر دبلا تحت الأرض وعلموا اذ ذاك أن زبيدة اضطرت الى ترك التوصيل الى مكة اضطرارا لصلابة الحجر وصعوبة قطعه وطول مسافته، وأن لاسبيل الى ذلك ألا بنقر دبل تحت الأرض فى الحجر الصوان طولها ألفا ذراع بذراع البنائين — ٧٥ سنتيمترا — حتى يتصل بدبل عين حنين وتتصل عين عرفة بمكة ولا يمكن نقب ذلك الحجر تحت الأرض، فانه يحتاج الى النزول فى تخوم الأرض ٥٠ ذراعا عمقا فتجاذب الأمير ابراهيم عاملا اليأس والأمل، ولكن عامل اليأس قضى عليه صادق عزيمته لحفر وجه الأرض حتى إذا ما وصل الى الحجر الصوان أوقد عليه ليلة كاملة ما يقارب مائة حمل من الحطب الجزل فى مكان

طوله سبعة أذرع فى عرض خمسة من وجه الأرض حتى تأكل من الحجر الصوان ١/٢ من الذراع ، ثم أعمل المعاول حتى صادف الحجر الصلب فأوقد عليه النيران كما فعل أوّلا حتى وصل الى عمق ٥٠ ذراعا ، وبذلك حفر من القناة خمسة أذرع من ألفى ذراع ثم سار على هذا النمط حتى أتم ١٥٠٠ ذراع ، وقد نفد الحطب من الجهات الدانية والنائية وذهب خدمه وأولاده ومماليكه فى سبيل ذلك ، وأنفق ٥٠٠,٠٠٠ دينار ذهبا من الخزائن السلطانية واخترمه أجله بعد ذلك فى رجب سنة ٩٧٤ هـ . فشيعته القلوب وأغدقت عليه صيب الدعوات ودفن بالمعلاة على يمين الصاعد الى الأبطح ، وخلفه على العمل أمير جدّة قاسم بك ولم يقم بكبير عمل لقصور فهمه ومدّ يده وتشبثه برأيه وتوفى ، فخلفه الأمير محمد بك فعاجلته المنية فى رجب سنة ٩٧٩ هـ . ثم تولى العمل قاضى القضاة وناظر المسجد الحرام السيد حسين الحسنى ، فجدّ جدّه ونشط نشاطه حتى أتم القناة فى خمسة أشهر بعد أن قضى الأمراء السابقون فى ذلك عشرة أعوام ، فجرت عين عرفات الى مكة وتفجرت ينابيعها فى نواحيها لعشر بقين من ذى القعدة سنة ٩٧٩ هـ . وكان هذا اليوم عيدا أكبر للناس مدّت فيه الموائد للأكابر وخلعت الحلل الفاخرة على المهندسين والبنائين ، وتصدّق على الفقراء والمساكين وزفت البشائر الى السلطان سليم وكريمته ذات المجد الأثيل والخير العميم فاطمة هانم ، فأقيمت الأفراح بالأستانة وأغدقت العطايا على قاضى القضاة الذى تم على يده ذلك المشروع العظيم الذى أحيا أم القرى بماء الحياة كما حييت من قبل بإشراق النبوّة من نواحيها وحج الناس اليها من أدانى الأرض وأقاصيها ، وتلك مأثرة للسلطان سليم تقرن بالحمد والثناء وتسطر فى سجل أعماله الطيبة بحروف من نور ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

وقد حصل بعد ذلك فى العين ومجاريها تعميرات فى سنى ١٠١٩ و ١٠٢٠ و ١٠٢٥ هـ . ورأيت فى لوحة هذه الكتابة « أمر بتعمير عين عرفات مولانا السلطان الأعظم والخاقان الأفخم خادم الحرمين الشريفين السلطان أحمد خان.

ابن السلطان محمد خان أيد الله سلطنته الى آخر الزمان سنة ١٠٢٥ ه . بمباشرة الفقير اليه سبحانه حسن باشا عفى عنه وكذلك عمرت فى سنى ١٠٦٦ و١٠٨٣ و ١٠٨٤ه. وقد رأيت مكتوبا على حجر رخام ثبت بجبل الرحمـة على يمين الصاعد اليـه العبارة الآتيـة : « يا محمد بسم الله الرحمن الرحيم الحمـد لله حق حمده على إفضاله والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله ، أمر حضرة السلطان الأعظم والخاقان الأفخم مولى ملوك العرب والعجم السلطان الغازى محمد خان ابن السلطان إبراهيم خان عز نصره أجرى عين عرفات وتعمير أبنيتها واتصـاله الى الحرم المنيف ، بفضـله تعمرت سنة أربع وثمانين وألف ١٠٨٤ من هجرة من له العز والشرف على يد عمـدة أعيان الدولة الحاج على أغا بن مصـلى قهوجى باشا السطان كان الله له ووفقه لمرضاة الله (وفى الآخر كلمتان لم أعرفهما) » .

وعمرت فى سنة ١٠٨٩ و١٠٩٢ه.وعملت إصلاحات هامة فى سنة ١٠٩٣ه. بأمر السلطان محمد خان فنظفت البرك التى بالمعلى وزيد فى ارتفاعها مقدار قامة وأقيم فى وادى النعمان سدّ عظيم يمنع طغيان السيول على المجارى ، وبنى على رأس القنوات الحواجز المسماة بالخرازات فبنى نحو عشرين خرزة وعمل قناة فى أسفل مكة تذهب بمياه السيل الى بركة ماجن ، وفى يوم الاثنين ١٣ ربيع الأوّل سنة ١٠٩٩ ه . كسر من قنوات العين نحو ثلاثين ذراعا فبعث الشريف من فوره بالمهندسين فأصلحوا ذلك .

وفى سنة ١١٤٣ه . انقطع ماؤها أجمع وصار الناس يستقون من آبار العسيلات والزاهر وغيرهما ، وقد أصلحت من طرف السلطنة وكذلك عمرت فى سنة ١١٨١ ه. وفى سنة ١٢١٩ ه . بعد قطع الوهابيين المياه عن مكة حينما حاصروها وتخرّب بعض قنواتها فأصلحت ذلك الدولة العثمانية ، وكذلك أصلحها السلطان محمود سنة ١٢٣٥ه. وفى سنة ١٢٤٢ ه . انقطع المـاء من مكة لخراب حدث بالقنوات بسبب السيول فأرسل والى مصر محمد على باشا من عمر القنوات ، وبعد ذلك بقيت عين مكة يقل

ماؤها بقلة الأمطار ويكثر بكثرتها حتى كانت سنة ١٢٧٨ هـ . إذ حدث سيل عظيم خرب بعض مجاريها فأصلح . وفى سنة ١٢٩١ هـ . كاد ينقطع ماؤها عن مكة فأصلح المجارى والى الحجاز من قبل السلطنة السيد محمد الشروانى باشا مع جماعة من أهل البر. وفى سنة ١٢٩٥ هـ . شكلت بمكة لجنة بسعى بعض الهنود لجمع الإعانات من كافة الأقطار الإسلامية خصوصا مصر والهند وإنفاقها فى إصلاح العيون ، وكان من أعضاء تلك اللجنة الشيخ رحمة الله الهندى صاحب كتاب إظهار الحق ، فجمعت أموالا كثيرة واستقدمت من الهند المهندسين والصناع وخرجت بهم الى عرفة فذرعوا المسافة بين مكة ومنبع عين زبيدة من وادى النعمان فاذا هى تنيف على ١٧٠٠٠ متر[1] ورأوا أن يبدءوا العمل فى عين زبيدة من جهة عرفة ، فأصلحوا نحو ٦٠٠ ذراع فى المجرى من بعد حدود عرفة الى وادى النعمان ، وبنوا فيها عدة خرزات ستروا بعضها وكشفوا باقيها ليستق منها العربان ، وكان شروعهم فى العمل من جهة مكة بتنظيف الدبول وتعمير ما تخرب منها حتى وصلوا الى المفجر ، ووصلوا الماء منه الى منى بآلة بخارية أقاموها هنالك ، ونحتوا لأجل ذلك بعض الجبال ولم يزالوا فى عملهم حتى وصلوا الى عرفة ، وبنوا فى عملهم هذا عدة خرزات فى طريق مكة ، وبازانات بمكة منها : بازان الشعب ، وبازان سوق الليل ، وبازان القشاشية ، وبازان جياد ، وبازانان بحارة المسفلة ، وبازان بحارة الباب ، وبازان الشبيكة ، وبازان الشامية ، وبازان بسوق المعلى يسمى بازان التمارة ؛ وعمروا ما كان خرابا وزادوا موارد الماء بالبلدة وقطعوا الجبل الطويل الذى بأول مكة وبنوا به دبلا يجرى فيه الماء الى حارة جرول التى بنوا فيها بازانا عظيما يستق منه الناس ، وكذلك

---

(١) هذا ما فى رسالة الزواوى وهو يخالف ما فى رحلة صادق باشا من أن المسافة بين المنبع وبين بئر زبيدة ٣٣ كيلومترا فاذا هى بين مكة والمنبع أكثر من ذلك وهذا هو الصحيح ، فان صادق باشا لما رجع من الطائف مر بمبدأ المجرى وقطع المسافة بين المبدأ وبين دلمى الحرم من جهة عرفة فى ٢ س و ١٦ ق وقطع المسافة بين العلمين ومكة فى ساعة و ٥٠ ق ، فاذا لاحظنا أن المجرى يسير حذاء الطريق فى الأكثر وأن المسافة بين مكة ودلمى الحرم ١٨ كيلومترا تقريبا كانت المسافة بين العلمين ومبدأ المجرى ٢٢ كيلومترا أى أن المجرى طوله ٤٠ كيلومترا من مبدئه الى مكة فهذه المسافة التى نسبها الزواوى الى المهندسين تخالف الواقع .

عمروا بعض التعمير فى العين الأصلية (عين حنين) بعد أن أهملت منذ وصلت عين عرفة إلى مكة . وفى سنة ١٢٩٧هـ . أرسل إلى اللجنة من مصر ٢٥٠٠٠ جنيه مع أحد معاونى الداخلية وكان برفقته أحد المهندسين لمباشرة العمارة الجارية مع المعمرين ، وقد مكثت اللجنة تشتغل ثلاث سنين دأبا تحت رآسة الحاج عبد الواحد الميمنى. ثم أخذ الفتور يدب فى أعضائها وتناولت الحكومة بعض مال اللجنة من صندوقها وأنفقته فى غير مصالح العين فأساء ذلك أهل الهند وقطعوا الإعانات ، فوقفت اللجنة عملها وآستعفى رئيسها وأكثر أعضائها وتشكلت لجنة أخرى آستولت على ما بقى بصندوق العين ويقال : إنه كان ٥٧٠٠٠ جنيه ، وسارت فى العمل كسابقتها ولكن هذه وجهت كبير عنايتها الى إصلاح عين حنين وكانوا يرون أنها عين مكة الأصلية ثم آنقطع العمل فى العينين فآنقطع ماء عين حنين وقل ماء عين زبيدة وكاد ينقطع فى سنة ١٣٢٤هـ . فتكوّنت لجنة تحت رياسة الشريف وجمعت إعانات جبرية من مكة والطائف وجدة وكتبت إلى الدولة مستجدية فجمعت عشرات الألوف من الجنيهات ، وقدم من الإستانة مهندسون فقاموا بإصلاح كبير خصوصا فى منابع العين من جهة وادى النعمان ، وفى سنة ١٣٢٦هـ . قدم مهندس ومفتش من قبل الدولة لتعرّف أحوال عين زبيدة فوضعا لها خريتة عظيمة من منبعها الى مكة تركا صورة منها فى مقر اللجنة وأخذا أخرى الى الإستانة ، وفى أوائل شهر المحرم سنة ١٣٢٧هـ . شكل أمير مكة الشريف الحسين باشا بن على هيئة جديدة لإصلاح العيون أعضاؤها من أجناس مختلفة ووكل إليها الإصلاح وجعلها حرّة فى عملها فاستنهضت همم المسلمين فى الأقطار المختلفة فغمروها بالتبرعات ولا سيما الهند ومصر وجاوة وبدأت فى الإصلاح ، وفى آخر سنة ١٣٢٨ هـ . جاء سيل عظيم ملأ المجارى حتى طفت وهدم كثيرا منها فقل الماء ولجأ الناس الى الآبار القديمة وإنها لكثيرة ، فقام شريف مكة وأنجاله وأهل مكة بالاصلاح بأموال من صندوق اللجنة حتى وردت المياه مكة . وفى ١٨ المحرم سنة ١٣٣٠هـ . هجم سيل شديد من وادى نعمان وهجان وسدّ دبول عين زبيدة بالتراب ، وقطع الماء عن عرفات ، فقامت اللجنة بتعمير المتخرّب حتى عاد الماء الى مجراه

وأنشأت مستغلات جديدة، وقد مكثت هذه اللجنة ثلاث سنين مجـدة فى عملها فطهرت المجارى وكشفت عن عيون مختبئـة وبنت خرزات كثيرة وأصلحت عدة بازانات وعمـرت مستغلات عين زبيدة وأحدثت لها مستغلات أخرى فلها شكرنا الوافر وثناؤنا المستطاب .

وقد أطلنا عليك أيها القارئ الكلام مع تعمـدنا الاختصار ولكنها النفوس الطيبة والأعمـال الخيرة تأبى إلا أن تنقش على صفحات كل كتاب سيار حتى يكون للناس منهـا قدوة حسنة فيكون لفاعلها — زيادة الى أجره — أجر من عمـل بها الى يوم القيامة .

وإنا نبتهل الى جميع المسلمين فى أن يتقدموا بأموالهم ورجالهم الى تلك العيون التى يستق منهـا سكان بيت الله والوفود عليـه من كل فج والتى تعب سلفنا الصالح فى إنشائها وتعميرها ولم يضنوا عليها بمال أو رجال ندعوهم ليقوموا نحو هذه العيون بعمل خالد يأمن معه صدمات الليالى وهجوم السيول ويطمئن به أهل مكة وحجاجها على المـاء الذى به حياة كل شىء قال تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَاءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ ﴿ مَنْ ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[1] .

الحـــرم

قال تعـالى ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ اعلم أنه يحيط بالكعبة ثلاث دوائر : الأولى دائرة المسجد، والثانية دائرة الحرم، والثالثة دائرة المواقيت فلا يعدو امرؤ الدائرة الثالثة قاصدا دخول مكة إلا إذا أحرم — لبس ثياب الإحرام وأهلّ بالتلبية فحرمت بذلك عليه محرمات الإحرام — وهى ذو الحليفة لأهل المدينة، والجُحْفَة لأهل الشام، وقَرْن لأهل نجد، ويَلَمْلَم لأهل اليمن، وذات

(١) روجع فى كتابة المياه بمكة الى الأصل ص ٤٢ والى رحلة صادق باشا ص ٦١ والى شفاء الغرام ص ٢٥٩ والى رسالة السيد محمد صالح الزواوى مفتى المالكية بمكة المكرمة .

عرق للعراقيين . وذو الحُليفة على عشر مراحل من مكة ، والجحفة على ثلاث ، وقبلها بقليل رابغ ، وذات عرق على مرحلتين ، وكذلك قرن المنازل ويلملم . والدائرة الثانية دائرة الحرم وقد نصبت عليها أعلام فى جهاتها الأربع ، وقد ذكر المسافات بينها وبين المسجد الحرام التقى الفاسى فى كتابه شفاء الغرام ، ونحن نذكرها نقلا عنه مبينين مقدارها بالأمتار[1] ، فحدّ الحرم من جهة الطائف على طريق عرفة من بطن عُرَنَة ٣٧٢١٠ ٢/٧ ذراع بذراع اليد ، أى ١٨٣٣٣ متر وذلك من جدر باب بنى شيبة إلى العلمين اللذين هما علامة لحدّ الحرم من جهة عرفة ، وحدُّه من جهة العراق من جدر باب بنى شيبة إلى العلمين اللذين هما علامة لحدّ الحرم فى طريق العراق واللذين هما بجادة وادى نخلة — ٢٧٣٥٢ ذراع بذراع اليد ، وتعادل ١٣٣٥٣/٥ متر . وحدّه من جهة التنعيم وهى طريق المدينة وما يليها ١٢٤٢٠ ذراع بذراع اليد ، أى ٦١٤٨ متر وذلك من جدر باب العمرة إلى أعلام الحرم التى فى الأرض من هذه الجهة لا التى على الجبل . وحدّ الحرم من جهة اليمن من جدر باب إبراهيم إلى علامة حدّ الحرم فى هذه الجهة ٢٤٥٠٩ ٤/٧ ذراع بذراع اليد ، وتعادل ذلك ١٢٠٠٩/٧٥ متر ، وعلى حدّ الحرم من جهة الجنوب مكان يقال له : أضاة ، ومن الغرب بميل قليل إلى الشمال قرية الحديبية وهى التى تمت بها بيعة الرضوان ، ومن الشرق على طريق الطائف مكان يقال له : الجعرانة[2] أحرم منه النبيّ صلى الله عليه وسلم مرجعه من الطائف بعد فتح مكة (انظر الرسم ٨٢) وهذه الدائرة جعلها الله مثابة للناس وأمنا بل أمن فيها الحيوان والنبات فحَرُم التعرض لصيدها ومنع أن يُخْتَلَى خَلاها (حشيشها) أو يعضد شوكها .

وأوّل من نصب علامات على حدود الحرم إبراهيم عليه السلام بإرشاد جبريل تعظيما للبيت وتشريفا ، ثم قُصَىّ بن كلاب ، وقيل : قبله اسماعيل ، ويروى هذا عن

(١) ذراع الحديد ٥٦ ١/٧ سنتيا كما حررته من قياس جدر الكعبة بالمتر ، ومقارنتها بقياس الفاسى ، وذراع اليد ٤٩ سنتيا بالتقريب استنتجته من قياسه لبعض الأماكن بالذراعين ذراع الحديد وذراع اليد .

(٢) الجعرانة بكسر الجيم وسكون العين وبكسرها وكسر العين وتشديد الراء .



(الخريطة نمرة ٨٢)

ٱبن عباس، وقيل: إن عدنان بن أُدّ أوّل من وضع أنصاب الحرم، ونصبتها قريش بعد ذلك والنبيّ صلى الله عليه وسلم بمكة قبل هجرته، ونصبها النبي صلى الله عليه وسلم عام الفتح، ثم عمر بن الخطاب فى سنة ١٧ هـ، ثم عثمان بن عفان فى سنة ٢٦ هـ، ثم معاوية رضى الله عنهم ثم عبد الملك بن مروان، ثم المهـديّ العباسى، ثم أمر الراضى بعمارة العلمين الكبيرين اللذين بالتنعيم فى سنة ٣٢٥ هـ. قال الفاسى: وٱسمه عليهما مكتوب ثم أمر المظفر صاحب إِرْبِل بعمارة العلمين اللذين هما حدّ الحرم من جهة عرفة سنة ٦١٦ هـ، ثم الملك المظفر صاحب اليمن سنة ٦٨٣ هـ (١).

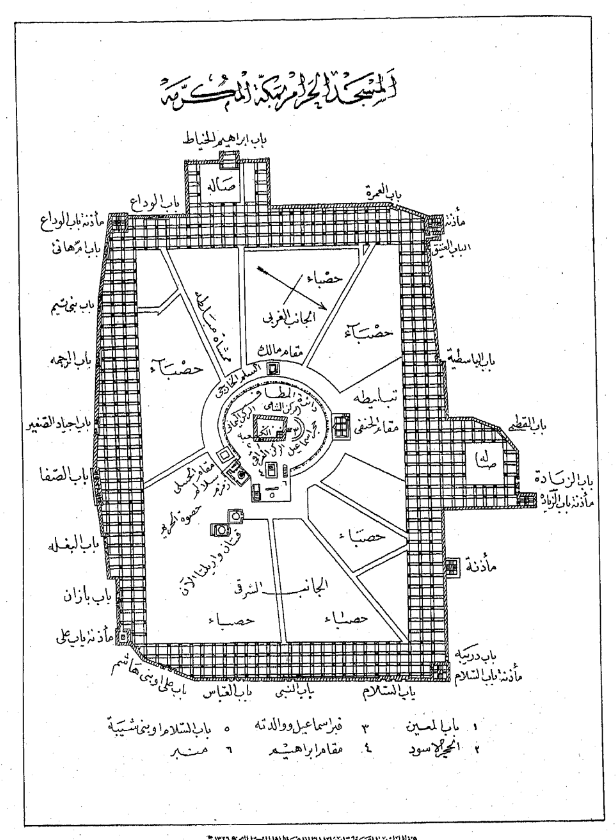
المسجد الحـــرام

وصف عام للسجد — أبواب المسجد — مآذنه — توسعته وعماراته وتاريخ ذلك — مواقف الأئمة فى المسجد الحرام — كيفية الصـلاة فيها — مقام إبراهيم عليـه السلام — منبر المسجد الحرام وتاريخه — بئر زمزم — سقاية العباس — المـاشى الأربع — مزاول المسجد — قناديله — موظفوه — أعمدة المطاف.

وصف عام للسجد الحرام — المسـجد الحرام وسط مكة وشكله مربع تقريبا. وضلعه الشماليـة المقابلة للحطيم ١٦٤ مترا وطول الضلع الجنوبيـة المقابلة للأولى ١٦٦ مترا، وضلعه الشرقية التى فيها باب السلام ١٠٨ متر، والغربية طولها ١٠٩ متر، فيكون مسطحه من الداخل ١٧٩٠٢ متر أى أربعة أفدنة وربع تقريبا أما من الخارج فمتوسط طوله ١٩٢ مترا وعرضه ١٣٢ مترا، وفى وسط المسـجد يميل إلى الجنوب بيت الله أى الكعبة المكرمة. ويحيط بالمسجد من جهاته الأربع ثلاثة أروقة (بواكى) فى الأكثر، يفصل بين كل رواق وآخر صف من الأعمدة مواز لجدر المسجد، ووصل بين كل عمودين بعقد من البناء المتين وأقيم على كل أربعـة

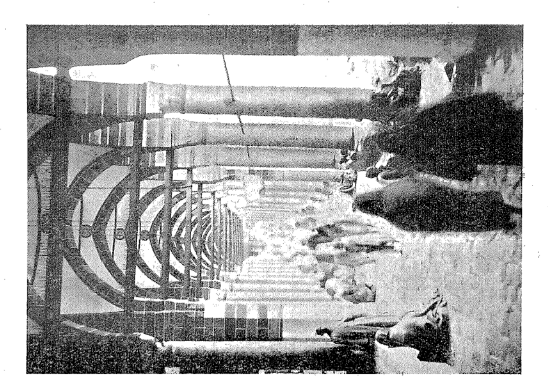
(١) لم نعثر على تاريخ الأعلام بعد ذلك مع شـدّة حرصنا على الوقوف عليـه مع أنه لا بد أن تكون عمرت بعد ذلك مرارا فان بناءها القائم ليس بناء سبعة قرون أو تزيد.

أعمدة قبة محكمة البناء فنشأ من ذلك قباب متجاورة منها تكون سقف تلك الأروقة ، وعدد العقود فى الجهة الشمالية من الجدار الشرقى الى الغربى ٤٢ عقدا فى كل صف على آستقامة واحدة ، أما العقود العرضية فى هذه الجهة فثلاثة ثلاثة إلا فى الطرفين فان العرض عقدان ، وعدد العقود طولا فى الجهة الجنوبية ٤٠ فى أطول صف من الجدار الشرقى الى الغربى ، وعددها عرضا ثلاثة ثلاثة وأربعة أربعة فى الوسط ، وفى الطرف اثنان وواحد ، وعددها من الجهـة الشرقية طولا بطول الصحن فقط ٢٤ عقدا فى كل صف ، والعرضية ثلاثة ثلاثة إلا فى الطرف الجنوبى فاثنان لانحراف الجدار ، وفى الجهـة الغربية قبالة الصحن فقط ٢٤ طولا فى كل صف ، والعقود العرضية أربعة أربعـة وقليل ثلاثة ثلاثة ، وتجـد عقودا أخرى فى الجهـة الشمالية فى مدخل باب الزيادة وكذلك فى الجهـة الغربية فى مدخل باب إبراهيم ، وجملة الأعمدة المقامة عليها تلك العقود ٥٤٥ عمودا منها ٣٠١ من الرخام ومنهـا ٢٤٤ من الحجر الشميسى الأحمر ، ومعلق بين كل عمودين خمسة قناديل كبار — فنايير — توضع فيها المصابيح ، وفى صرة كل قبة قنديل فاذا ما أضيئت كل هذه مع ما حول الكعبة أحدثت منظرا يملأ النفس بهجة وسرورا . (أنظر المسجد الحرام فى الرسم ٨٣) والجهة الشمالية فى الرسم ما فيها باب الزيادة والشرقية ما فيها باب النبى صلى الله عليه وسلم الخ ، وانظر العقود (البواكى) فى (الرسم ٨٤) وترى فى العوارض الخشبية مسامير لمنع وقوف العصافير والحمام عليها آتقاء لقذرها ، وما عدا هذه الأروقة من المسجد فصحن واسع توسطته الكعبة (الرسم ٨٥) يحيط بها المطاف المرصوف بالرخام قد أقيم عليه صف من الأعمدة المصنوعة من النحاس الأصـفر وصل بينها بعوارض الحديد تعلق فيهـا المصابيح وأقيم بخارج المطاف تجاه كل ضلع من أضلاع البيت — عدا الضلع الشرقية — سقيفة قامت على أعمدة الرخام يصلى فى الشمالية منها إمام الحنفية وهى ذات طبقتين وفى الغربية إمام المـالكية وفى الجنوبية إمام الحنبلية أما إمام الشافعية فيصلى خلف مقام ابراهيم شرقى الكعبة أوفوق البناء المقام على زمزم . وبجوار المطاف فى الجهة الشرقية المنبر وفى جنوبيه قبـة أقيمت على بئر زمزم ، وبشمالى البئر باب



83. The map of El Haram Mosque in Mecca.

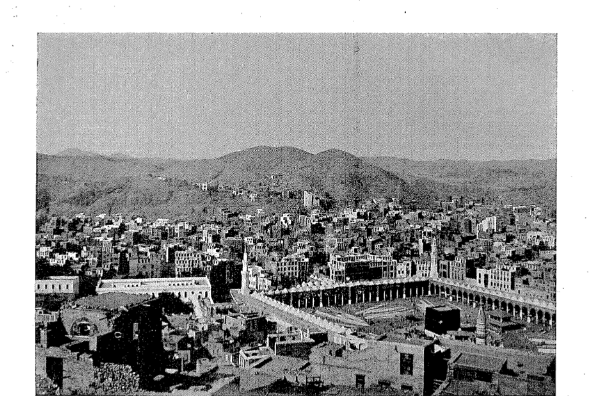
منظر أروقة الحرم المكي من الداخل



84. Arcades of El Haram Mosque as seen from the Interior.

صحيفة ٢٢٨

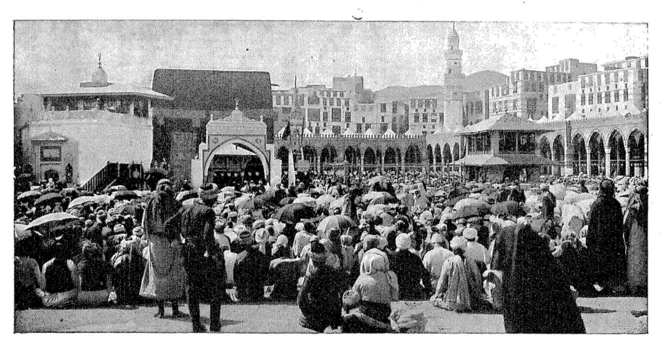
الحرم المكي من جهة الشمال والغرب والجنوب



85. The Southern, Western and Northern view of the Mosque of Mecca.

اجتماع الحجاج لصلاة الجمعة حول الكعبة المشرفة

بهذا الرسم على الشمال زمزم وهى البيضاء ذات القبة وبابها ظاهر وبين الباب والكعبة سلم للصعود عليه داخل الكعبة من افخر الصناعات العربية وبعدها الكعبة والحزام القصب والستارة ظاهرة وفى وجه الكعبة باب بنى شيبه وقناديل الانارة فى وسطه وبعده المنبر وعليه البيرق واثنان اغوات وبعده البواكى وبعده مقام الحنفى ذو الطبقتين والحجاج جلوس

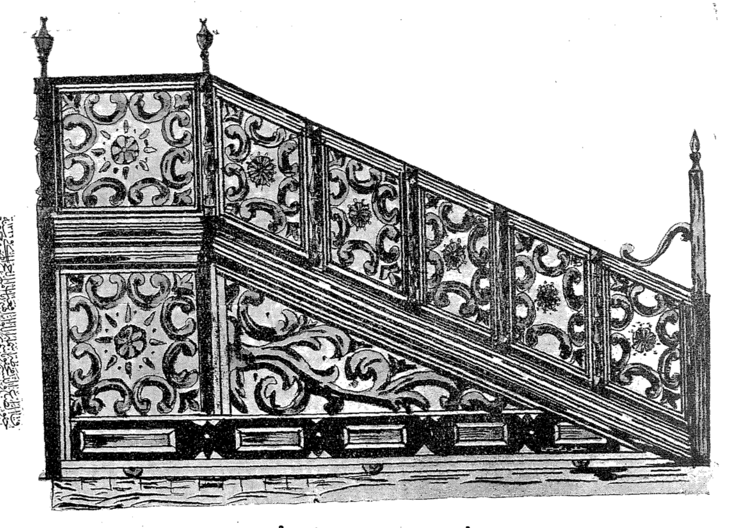


86. The meeting of the pilgrims round the Kaaba for the Friday prayers.



87. The Pigeons of Hema in Haram Mosque in Mecca

صحيفة ٢٢٩



١ سلم للصعود عليه لداخل الكعبة

87. Stairs to ascend to the Interior of Kaaba.

بنى شيبة يعلوه عقد أقيم على عمودين من الرخام، وقد كتب على باب بنى شيبة تحت الهلال ﴿ أُدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ ﴾ وكتب على العقد ﴿ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴾ وذلك بماء الذهب ، وكتب فى الجهة المقابلة لمقام إبراهيم والكعبة « الله جل جلاله » ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ « محمد عليه السلام » (أُنظر باب بنى شيبة فى الرسم ٨٦ الذى أخذته سنة ١٣٢٥ هـ . والحجاج مجتمعون بالمسجد لصلاة الجمعة) وأرض المسجد منخفضة عن الأرض المحدقة به بنحو ثلاثة أمتار ويصعد من أرضه إلى الأبواب التى على الشوارع بسلالم، والبيت منحدر تدريجا عن هذه الأرض بنحو متر، وصحن المسجد سقفه السماء وفرشه الحصباء إلا ما تخلله من المماشى التى تصل بين الأبواب والأروقة من جهة والمطاف وما يليه من ناحية الكعبة من جهة أخرى فإنها مرصوفة بحجارة الجص كالأروقة ليسلكها الناس ويتجنبوا الحصباء التى كثيرا ما تكون مبللة بمياه الوضوء ، ولذلك فإن المطوّفين إذا ما دنت صلاة العصر بسطوا « الأكلمة » والسجادات على هذه الحصباء ليجلس عليها الحجاج ، على أن كثيرا من الناس يفترش الحصباء الساعتين والثلاث ٱنتظارا للصلاة خصوصا فى يوم الجمعة فتراهم يبكرون ويجلسون على الحصباء وقد ٱشتدّ القيظ وتسلط على الأدمغة لهيب الشمس كل هذا حرصا على سماع الخطبة، وعرض تلك المماشى قريب من متر ويجلس عليها بعض النساء الفقيرات يبعن الحبوب للحجاج ليقدموها إلى حمَام الحمى الذى يوجد بكثرة فى المسجد ولونه أزرق غامق به نقط رمادية وخطوط سود وهو مطوّق بالخضرة المحمرة ، والقطاط مسلطة عليه تصطاده ، وكذلك يوجد بالمسجد طير الأبابيل كما يسميه المكيون — وهو أشبه بما نسميه عصفور الجنة — وهذه الطيور لا تنفر من الحجاج لأن الله كتب لها الأمن فى حرمه كما كتبه للناس (انظر الرسم ٨٧). تجد الحمام وهو يلتقط الحب .

وللمسجد خمسة وعشرون بابا ، منها بالشمال ثمانية أبواب وبالشرق خمسة وبالجنوب سبعة وبالغرب خمسة، من هذه ستة أبواب صغيرة (خوخات) والباقى

أبواب كبيرة منها ذو الفتحة والفتحتين والثلاث والخمس، وفى المسجد سبع منارات فى كل زاوية منارة، وثنتان فى الشمال وواحدة فى الشرق .

أبواب المسجد الحرام ووصفها

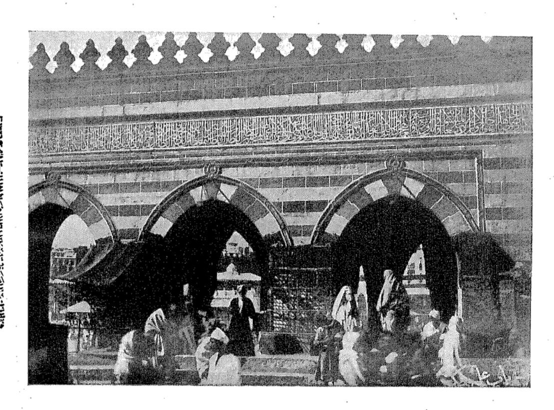
فى الشرق : (١) باب السلام — ويعرف بباب بنى شيبة وبباب بنى عبد شمس وهو ذو فتحات ثلاث، وكتب عليه ما يأتى : أمر بانشاء هذا البيت الشريف السلطان الملك المظفر سليمان خان بن السلطان سليم خان بن السلطان با يزيد خان بن السلطان محمود خان بن السلطان مراد خان بن السلطان محمد خان ابن السلطان با يزيد خان بن السلطان مراد خان بن السلطان أرخان بن السلطان عثمان خان، وكتابة ذلك فى سنة ٩٣١ هـ . وهى منقوشة على الحجر الأبيض ، وهذا الباب يدخل منه الحجاج لأداء طواف القدوم .

(٢) باب قايتباى — وهو خوخة ولا سلم له .

(٣) باب الجنائز — سمى بذلك لأن الجنائز تخرج منه فى الغالب الى مقبرة المعلى، وذكر الأزرقى : أنه باب النبىّ صلى الله عليه وسلم الذى كان يخرج منه ويدخل الى منزله دار خديجة رضى الله عنها فى زقاق العطارين، ولهذا الباب فتحتان وينزل منه الى مستوى المسجد بثلاث عشرة درجة ارتفاع الدرجة ربع المتر .

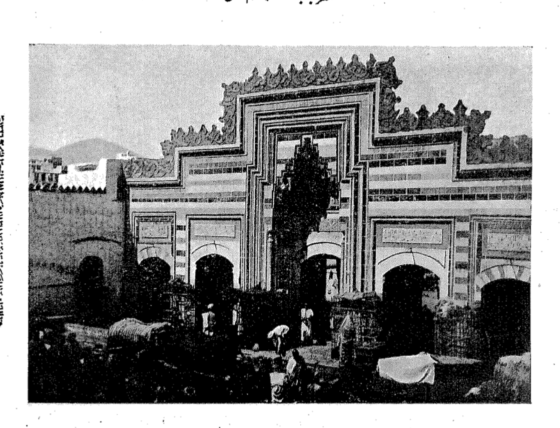
(٤) باب العباس بن عبد المطلب — سمى بذلك لأنه يقابل داره بالمسعى. وسماه ابن الحاج فى منسكه باب الجنائز ولعل ذلك لأنه كان يصلى فيه على الجنائز، وهذا الباب ذو فتحات ثلاث للدخول منها، وله إحدى عشرة درجة ومكتوب على يسار الداخل منه على الحائط بخط الثلث الجميل (الله . محمد . أبو بكر . عمر . عثمان) رضوان الله عليهم أجمعين سنة ١٢٩٩ هـ . وفوق ذلك كتب بالخط الثلث الدقيق (قد وقع هذا الانشاء الشريف باشارة السلطان الأعظم السلطان مراد خان بن السلطان سليم خان أيد الله ملكه سنة ٩٨٨ هـ) .

منظر باب علي بالحرم المكي



88. Door of Aly in Mecca Mosque.

منظر باب الصفا بالحرم المكي



89. View of the door of El Safa at Mecca.

(٥) باب علىّ — ويعرف بباب بنى هاشم، قال الأزرقى : وبباب البطحاء أيضا وفيه ثلاث فتحات وآرتفاعه عن أرض المسجد ١٣ درجة آرتفاع الواحدة منها ٢٨ سنتيمترا وعليه كتابة جميلة للسلطان مراد سنة ٩٨٤ ه . (آنظر الرسم ٨٨ الذى آستعرناه من خليل افندى قازانلى المصوّر بالمدينة) .

وبالجهة الجنوبية : (١) باب بازان — سمى بذلك لأن عين مكة المعروفة ببازان قربه — كل محل ينزل اليه بدرج ويكون مستطيلا يسمى بازان — قاله جمال الدين محمد بن محمد نور الدين فى كتابه الجامع اللطيف فى فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف — وسماه الأزرقى باب بنى عائذ ويسمى الآن أيضا باب القره قول (المخفر) لأنه أمامه، وهذا الباب ذو فتحتين، وله ١٣ درجة، ومكتوب عليه بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ سنة ٩٨٤ ه . للسلطان مراد بن السلطان سليم خان .

(٢) باب البغلة — وهو ذو فتحتين قال الفاسى : ولم أدر ما سبب هذه الشهرة، وعرّفه الأزرقى بباب بنى سفيان، وله إحدى عشرة درجة ينزل منها الى أرض المسجد، ومكتوب عليه بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَةِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ صدق الله العظيم . والحمد لله رب العالمين . وذلك بالخط الثلث .

(٣) باب الصفا — سمى بذلك لأنه يلى الصفا وعرّفه الفقهاء فى المناسك بباب بنى مخزوم وكذا عرّفه الأزرقى وهو ذو خمس فتحات أو طاقات أو أبواب وله أربع عشرة درجة ينزل منها الى أرض المسجد ومكتوب عليه بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ (انظر الرسم ٨٩) وترى فيه أقفاصا تحفظ فيها أحذية الداخلين .

(٤) باب إجياد الصغير — كذا سماه ابن جبير وسماه أيضا باب الخلفيين ولا يعرف السبب فى هذا وسماه الأزرقى أيضا باب بنى مخزوم وهذا الباب له طاقان وينزل منه الى المسجد بتسع درجات .

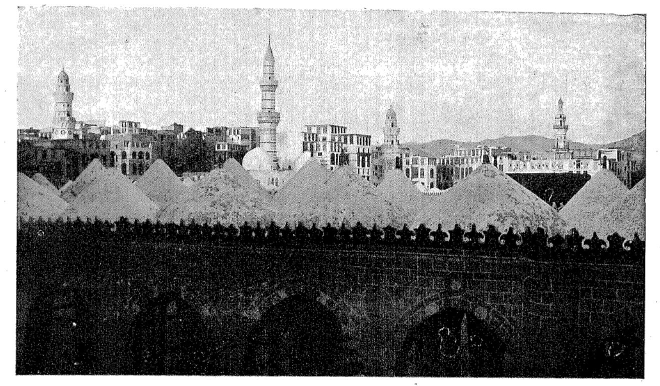
(٥) باب المجاهدية — وأطلق ذلك عليه لأن عنده مدرسة الملك المجاهد صاحب اليمن كذا عرّفه الفاسى ويقال له : باب الرحمة ولم يعرف سبب هذه التسمية (انظر الرسم ٧٤) ، وذكر الأزرقى : أنه من أبواب بنى مخزوم فتلك أبواب ثلاثة متجاورة يطلق على كل منها باب بنى مخزوم لكونهم كانوا ساكنين بتلك الجهة .

(٦) باب مدرسة الشريف عجلان — سمى بذلك لأنها بجانبه كذا عرّفه الفاسى وعرّفه الفاسى بباب بنى تيم ويقال له : باب التكية لأن أمامه التكية المصرية وله فتحتان وينزل منه الى أرض المسجد بأحد عشر سلما ، ومكتوب عليه بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّافِنَاتُ ٱلْجِيَادُ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴾ بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَوَاتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ٱلَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّاءِ وَٱلضَّرَّاءِ وَٱلْكَاظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ .

(٧) باب أم هانئ — بنت أبى طالب وبذلك عرّفه الأزرقى وذكر الفاسى أنه يسمى بباب الملاعبة لأنه بحذاء دار تنسب للقوّاد الملاعبة يعنى فى زمنه ، وعرّفه الأقشهرى بباب الفرج ويطلق عليه الآن باب الحميدية (دار الحكومة التركية) لأنها أمامه وأشهر أسمائه الاسم الأوّل لأن ما يليه من المسجد كان دارا لأم هانئ زوج هبيرة بن عمرو المخزومى ، وكان عندها بئر جاهلية فدخلت الدار والبئر فى المسجد فى زيادة المهدى الثانية ، وحفر المهدى عوضها بئرا عند باب الوداع (الحزورة) ولهذا الباب منفذان أو طاقتان وله سلم ١٢ درجة ينزل منه الى أرض

صحيفة ٢٣٣

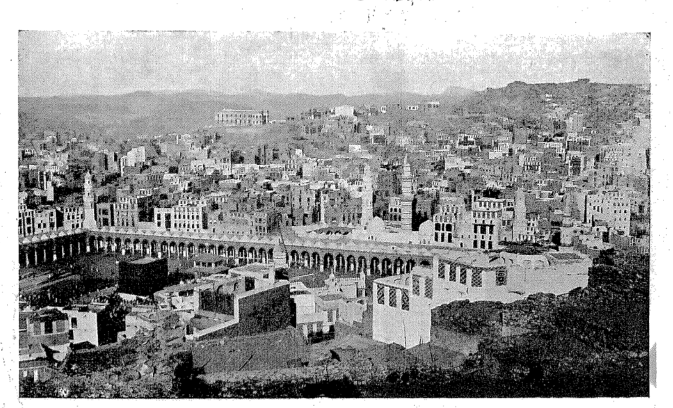
الحرم المكي من جهة باب ابراهيم



90. The Great Mosque at Mecca as seen from Ibrahim's Mausoleum.

صحيفة ٢٣٥

داخل الحرم المكي من الجهة الشمالية الغربية



91. The Northern Western view of the Mosque of Mecca.

المسجد الحرام ، ومكتوب عليه باللون الأصفر بالخط الثلث الجميل ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا وَيَنْصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ .

وبالجانب الغربي : (١) باب الحزورة — قال الفاسي : المصحّف الآن بباب عزورة والحزورة آسم لسوق فى الجاهلية كانت فى هذا المكان ودخلت فى المسجد الحرام عند توسعته ويسمى باب البقالية ، قال الأزرقى : ويقال له باب بنى حكيم بن حزام وبنى الزبير بن العوّام ، والغالب عليه باب الحزامية لأنه يلى خط الحزامية ، ويقال له الآن : باب الوداع لأن الناس يخرجون منه عند سفرهم ، ولهذا الباب فتحتان وسلم من الداخل ذو درجات عشر وعليه بين البابين تاريخ للملك الناصر فرج بن السلطان الشهيد الظاهر أبو سعيد برقوق سنة ٨٠٤ هـ . ومكتوب على الباب يا مبدئ يا معيد . ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ . ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ ٱللَّهِ مَنْ آمَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾ .

(٢) باب إبراهيم — قال الفاسى : وإبراهيم المنسوب إليه هذا الباب كان خياطا يجلس عنده على ما قيل كما ذكره البكرى فى كتاب المسالك والممالك ، وإن العوام نسبوه اليه . ووقع للحافظ أبى القاسم بن عساكر وآبن جبير وغيرهما من العلماء ما يقتضى أنه الخليل عليه السلام وهو بعيد لا وجه له اهـ . وهذا الباب فى الزيادة التى فى هذا الجانب ، وهو ذو فتحة واحدة كبيرة وهو أكبر أبواب المسجد ، ومكتوب على يمين هذا الباب ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ وعلى اليسار « أمر بعمارة هذا الباب المعظم السلطان الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغورى » بدون تاريخ ، انظر داخل المسجد الحرام من جهة باب إبراهيم فى (الرسم ٩٠) الذى ترى فيه قباب المسجد وشرفاته .

(٣) باب صغير — بمدرسة الشريف عبد المطلب .

(٤) باب الداودية — صغير أيضا وله ١٣ سلما .

(٥) باب العمـرة — وسمى بذلك لأن المعتمرين من التنعيم يخرجون ويدخلون منه فى الغالب وسماه الأزرقى باب بنى سهم ، وهو ذو طاق واحد وينزل منه الى مستوى المسجد بثنتى عشرة درجة .

وفى الجانب الشمالى : (١) باب عمرو بن العاص — ويقال له : باب السدّة لكونه سدّ ثم فتح ، ويقال له : الباب العتيق ، وهو ذو فتحة واحدة صغيرة ويعلو أرض المسجد بخمس عشرة درجة .

(٢) باب الزمامية — وهو باب صغير ذو فتحة واحدة وله تسع درجات تصل بك الى أرض المسجد .

(٣) باب العجلة — لكونه عنـد دار العجلة ولا يدرى ما هذه العجلة ، ويقال له باب الباسطية لأنه مجاور لمدرسة عبد الباسط وله فتحة واحدة واثنتا عشرة درجة .

(٤) باب القطبى — ويقـال له : باب الزيادة لكونه غربى الزيادة التى فى شمالى المسجد ، وهو ذو فتحة واحدة وله ١٣ درجة .

(٥) باب سويقة — وهو فى صـدر زيادة دار النـدوة أى فى شماليها ، ويعرف الآن بباب الزيادة ، وكان يقال هـذا على باب القطبى ، ولبـاب سويقة ثلاث فتحات وينزل منه الى أرض المسجد بثلاث عشرة درجة .

(٦) باب المحكمة — وهو صغير ذو فتحة واحدة ولا سلم له .

(٧) باب الكتبخانة — ويقال له : باب المدرسة ذو فتحة واحدة .

(٨) باب دريبة — وهو فى الطرف الشمالى الشرقى وذو فتحة واحدة .

مآذن المسجد الحرام — له سبع مآذن : (الأولى) مئذنة باب العمرة فى ركن المسجد الشمالى الغربى ، وقد بناها المنصور العباسى فى عمارته للمسجد سنة ١٣٩ هـ .

وجدّدها وزير صاحب الموصل سنة ٥٥١ هـ . وأصلحت فى سنة ٨٤٣ هـ . فى ولاية السلطان چقمق ، وفى سنة ٩٣١ هـ . أمر السلطان سليمان بهدم هذه المنارة وإعادة بنائها محكما ، (الثانية) مئذنة باب السلام عمرها المهدى العباسى سنة ١٦٨ هـ . (الثالثة) مئذنة باب علىّ عمرها المهدى أيضا فى التاريخ السالف ، وجدّدت بالحجر الأصفر فى عمارة السلطان سليمان للسجد . (الرابعة) مئذنة باب الحزورة (باب الوداع) عمرها المهدى أيضا ، ثم عمرت زمن الأشرف شعبان صاحب مصر ، وكانت سقطت سنة ٧٧١ هـ . فعمرت فى السنة التالية . (الخامسة) مئذنة باب الزيادة عمرها المعتضد العباسى لما بنى الزيادة سنة ٢٨٤ هـ . ثم جدّدها الأشرف برسباى فى سنة ٨٢٦ هـ . (السادسة) مئذنة قايتباى بالمدرسة المعروفة باسمه ، وهى مجاورة لباب السلام على يسار الداخل الى المسجد وقد عمرت فى حدود سنة ٨٨٠ هـ . (السابعة) مئذنة السليمانية فى المدرسة المعروفة باسمها ، وكل هذه المآذن حصلت فيها زيادات وترميمات فى العمارة الكبيرة التى قام بها السلطان سليم الثانى وأبوه فى المسجد كما ستقف على ذلك بعد ، وكذلك رممت فى سنة ١٠٧٢ هـ . على يد سليمان بك والى جدّة والحرم من قبل السلطان محمد كزلار الأغا وكل هذه المآذن يؤذن عليها الآن فى الأوقات الخمس وشيخ المؤذنين أو الميقاتى يؤذن على قبة زمزم فيتبعه باقى المؤذنين على المآذن ومثبت فى الحائط الجنوبى لهذه القبة مزولة أهداها رجل مراكشى الى المسجد وهى فى غاية الضبط والإحكام وعليها ميقاتهم فى النهار . أُنظر فى (الرسم ٩١) ست مآذن من السبع .

توسعة المسجد الحرام وعمارته وتاريخ ذلك — ذكر الأزرقى والامام أبو الحسن الماوردى وغيرهما أن المسجد الحرام كان فى عهد النبىّ صلى الله عليه وسلم وأبى بكر الصديق رضى الله عنه ليس عليه جدار يحيط به ، وكانت الدور محدقة به من كل جانب وبين الدور أزقة يدخل منها الناس ، وكانت حدوده حدود المطاف الآن وهو على ذلك من عهد إبراهيم عليه السلام ، فلما أن استخلف عمر بن الخطاب رضى الله عنه اشترى دورا هدمها ووسع بها المسجد — وكانت تلك أوّل زيادة —

وأبى بعضهم أن يأخذ الثمن وامتنع من البيع فوضع[1] أثمانها فى خزانة الكعبة فأخذوها بعد ذلك، وقال لهم عمر: إنما نزلتم على الكعبة فهو فناؤها ولم تنزل الكعبة عليكم ثم جعل سيدنا عمر على المسجد جدارا قصيرا محيطا به دون القامة وكانت المصابيح توضع عليه فكان عمر أول من اتخذ للمسجد جدارا ووضع له المصابيح، وذكر القاضى فى جامعه : أن أول من استصبح لأهل الطواف عتبة بن الأزرق وكانت داره لاصقة بالمسجد فكان يضع فى جداره مصباحا كبيرا يضىء لمن يطوف بالبيت . ولما كان زمن عثمان وكثر الناس اشترى دورا وسع بها المسجد وقد أبى قوم أن يبيعوا فهدم عليهم فصاحوا به فقال لهم : إنما جرأكم علىّ حلمى عنكم فقد فعل بكم عمر هذا فلم يصح به أحد ثم أمر بهم الى الحبس حتى شفع فيهم عبد الله بن خالد بن أسيد فأخرجهم . وجعل عثمان للمسجد أروقة فكان أول من اتخذ الأروقة له وكانت توسعة عمر فى سنة ١٧ هـ . وتوسعة عثمان فى سنة ٢٦ هـ . وفى سنة ٦٤ هـ . اشترى عبد الله بن الزبير دورا وسع بها المسجد من جانبيه الشرقى والجنوبى توسعة كبيرة، ومن جملة ما اشتراه بعض دار الأزرق جدّ الأزرقى صاحب تاريخ مكة وكانت شرقى المسجد، وقد اشترى بعضها هذا ببضعة عشر ألف دينار، وفى سنة ٧٥ هـ . حج عبد الملك بن مروان وعمر المسجد ولم يزد فيه ولكن رفع جدره وسقفه بالساج، وجعل فى رأس كل أسطوانة ٥٠ مثقالا من الذهب ثم وسعه ابنه الوليد ونقض عمل أبيه وعمله عملا محكما وسقفه بالساج المزخرف وأزّر المسجد من داخله بالرخام وجعل له شرفا، وجعل على رأس الأساطين الذهب على صفائح الشبه من الصفر (الشَّبَه والشِّبْه نوع من النحاس) وجعل فى وجوه الطيقان من أعلاها الفسيفساء وهو أول من جعلها بالمسجد الحرام وأول من نقل إليه أساطين الرخام . وفى ولاية زياد بن عبد الله الحارثى على مكة أمره أبو جعفر المنصور ثانى خلفاء بنى العباس

---

(١) تفعل حكومتنا مثل هذا . فمن أخذت منه شيئا للصالحة العامة وأبى أخذ ثمنه أودعته خزينة المحكمة باسمه .

بزيادة المسجد الحرام فوسعه من جانبه الشمالى ومن جانبه الغربى، ولم يجعل فيما وسعه من الجانبين إلا رواقا واحدا ، وكان آبتداء عمل ذلك فى المحرم سنة ١٣٧ ه . والفراغ منه فى ذى الحجة سنة ١٤٠ ه . وكانت زيادته ضعف ما كان عليه المسجد وقد زينه بالذهب وأنواع النقوش وبنى مئذنة بنى سهم . ولما حج المنصور سنة ١٤٠ ه . رأى حجارة الحجر بادية فأمر عامله زيادا المذكور بتغطيتها بالرخام ليلا حتى اذا أصبح لا يراها إلا مغطاة وقد فعل ما أمر به على السراج قبل أن يصبح الصباح ثم إن المهدى بن أبى جعفر وسع المسجد الحرام بعد موت أبيه من أعلاه ومن الجانب اليمانى ومن الموضع الذى آنتهى اليه أبوه فى الجانب الغربى حتى صار على ما هو عليه اليوم ما عدا الزيادتين فانهما أحدثتا بعده كما سيأتى . وكانت عمارة المهدى فى نوبتين الأولى فى سنة ١٦١ ه. وزاد فيما زاده أبوه رواقين، والثانية فى سنة ١٦٧ ه . وكان أمر بها لما حج حجته الثانية فى سنة ١٦٤ ه . ورأى الكعبة فى شق من المسجد فكره ذلك وأحب أن تكون فى وسطه، فدعا المهندسين وشاورهم فى ذلك فقدروا ذلك فاذا هو لا يستوى لهم من أجل الوادى والسيل، وقالوا : إن وادى مكة له سيول قوية العزم ونخشى ان حوّلنا الوادى عن مكانه أن لا يتم لنا ما نريد، فقال المهدى : لا بد لى من سعة المسجد حتى تكون الكعبة فى وسطه ولو أنفقت فيه جميع ما فى بيوت المال وعظمت نيته فى ذلك وقوى عزمه، فقدّر المهندسون ذلك وهو حاضر ونصبوا الرماح على الدور من أوّل موضع الوادى الى آخره ثم ذرعوه من فوق الرماح حتى عرفوا ما يدخل فى المسجد من ذلك وما يبقى فى الوادى ، ثم خرج المهدى الى العراق وخلف الأموال فاشتروا من الناس دورهم ووسعوا المسجد ولم يكمل ذلك إلا فى خلافة آبنه موسى الهادى لمعاجلة المنية للمهدى، وكان مما عمل بعد موته بعض الجانب اليمانى وبعض الغربى، وأنفق المهدى رحمه الله فى ذلك أموالا عظيمة بحيث صار ثمن الذراع المربع مما دخل فى المسجد الحرام خمسة وعشرين دينارا — اثنى عشر جنيها ونصفا — وثمنه مما دخل فى الوادى خمسة عشر دينارا، ونقل الى المسجد الحرام أساطين الرخام

من مصر وغيرها فى السفن حتى أنزلت بجدّة وحملت منها على العجل الى مكة ، قال الأزرقى : ووسع المهندسون باب بنى هاشم الذى يستقبل الوادى وجعلوا إزاءه بابا فى الجهة الأخرى يقابل خط الحزامية — وهو باب الحزورة أو البقالين — وقالوا إذا جاء سـيل عظيم ودخل المسـجد خرج من ذلك الباب .

وفى خلافة هارون الرشيد عمل أمير مكة عبـد الله بن محمد بن عمران الطلحى مظلة للمؤذنين التى على سطح المسجد ليؤذنوا فيها يوم الجمعة وكانوا يؤذنون قبل ذلك فى يومها على سطح المسجد صيفا وشتاء .

ولم يزد فى المسجد الحرام بعد عمارة المهدى سوى زيادة دار الندوة فى الجانب الشامى (الشمالى) وزيادة باب ابراهيم فى الجانب الغربى ، وكان سبب الزيادة الأولى كما فصله الفاسى عن إسحاق الخزاعى أن بعض أهل الخير كتب الى وزير الخليفة المعتضد العباسى يحسن له جعل ما بقى من دار الندوة مسجدا ويقول له : إن هذه مكرمة لم تتهيأ لأحد من الخلفاء بعـد المهدى ، فلما بلغ ذلك المعتضد عظمت رغبته وأخرج لذلك مالا عظيما فأخرجت القُمام — جمع قُمامة وهى الكناسـة — من دار النـدوة وجعلت مسجدا ووصلت بالمسجد الكبير وعمره بأساطين وطاقات وأروقة مسقفة بالساج المزخرف ثم فتح لها فى جدار المسجد الكبير اثنا عشر بابا بعقود ستة كبار ، تحت كل عقد منها باب سعته خمسة أذرع فى آرتفاع أحد عشر ، وبين العقود الكبيرة ستة صغيرة تحت كل عقد باب سعته ذراعان ونصف فى آرتفاع ثمانية أذرع وثلث ، وجعل فى هـذه الزيادة من الخارج ثلاثة أبواب ، بابان طاقان وباب طاق واحد شارعة الى الطريق التى حولها وجعل سقفها مسامتا لسقف المسجد الكبير وبنى فيها مئذنة وشرفا ، وفرغ من ذلك فى ثلاث سنين ، وذرع هـذه الزيادة طولا أربعة وستون ذراعا من الشمال الى الجنوب ، وذرعها عرضا من وسط الجدار الشرقى الى وسـط الغربى سبعون ذراعا بذراع الحديد . ولم يبين إسحاق الخزاعى السنة التى فرغ فيها من عمارة هذه الزيادة ولعل ذلك كان فى سنة ٢٨٤ هـ . على مقتضى ما ذكره إسحاق من أن الكتابة الى المعتضد بسبب إنشائها كانت فى سـنة ٢٨١ هـ . ثم ذكر

أن القاضى محمد بن موسى لما كان اليه أمر البلد غير الطاقات (الأبواب) التى كانت فى جدار المسجد الكبير وجعل ذلك بأساطين حجارة مدوّرة عليها ملابن — كَلّ خشبية فى نهاية الأعمدة ومبدأ العقود — ساج بعقود من الآجر والجص الأبيض، فوصل الزيادة بالمسجد الكبير وصولا أحسن من الأول حتى صار من فى دار الندوة من مصل ومستقبل يرى القبلة كلها وكان ذلك فى سنة ٣٠٦ هـ . وقد كانت دار الندوة منزلا للخلفاء والأمراء فى صدر الإسلام إذا حجوا ، ولكن أهمل أمرها فى منتصف القرن الثالث فأخذ يتهدّم بناؤها وألقيت فيها القمام حتى أضيفت الى المسجد .

وأما الزيادة التى فى الجانب الغربى المعروفة بزيادة باب إبراهيم فنقل الفاسى رحمه الله أنه لما كانت أيام جعفر المقتدر بالله أمير المؤمنين أمر أن يجعل هذا المحل مسجدا ويوصل بالمسجد الكبير ، فعمل على ما هو عليه اليوم فاتسع الناس به وصلوا فيه وكان ذلك سنة ٣٧٦ هـ . والمسقف الذى بالزيادة المذكورة من عمل الناصر حسن بن الناصر محمد بن قلاوون وكان إنشاؤه فى حدود سنة ٧٥٩ هـ . أو فى السنة التى بعدها ، وطول هذه الزيادة ٥٧ ذراعا إلا ربعا وعرضها اثنان وخمسون ذراعا وربع .

وفى سنة ٦٤١ هـ . أجرى صاحب اليمن على بن عمر عمارة داخل باب السلام ووقف كثيرا من الكتب للمسجد الحرام . وفى سنة ٧٨١ هـ . أرسل الأمير زين الدين العثمانى من مصر مملوكه سودون باشا لعمارة المسجد الحرام وكان مما عمله تحلية الباب والميزاب وتبييض سطح الكعبة .

وفى ليلة السبت الثامن والعشرين من شوّال سنة ٨٠٢ هـ . ظهرت نار من رباط رامشت المعروف الآن برباط ناظر الخاص عند باب الحزورة المعروف بباب عزورة بالجانب الغربى من المسجد الحرام ، فلم يكن غير لحظة حتى تعلقت النار بسقف المسجد وعمّ الحريق الجانب الغربى وبعض الرواقين المقدّمين من الجانب

الشامى بما فى ذلك من السقوف والأساطين الرخام وصارت قطعا وانتهى الحريق إلى محاذاة باب العجلة وصار ما احترق أكواما عظيمة تمنع من الصلاة فى موضعها ومن رؤية البيت الشريف ثم منّ الله بعمارة ذلك فى مدّة يسيرة على يد الأمير بيسق الظاهرى ، وكان قدومه لذلك سنة ٨٠٣ هـ . فلما رحل الحاج من مكة شرع فى رفع الأكوام حتى فرغ منها ، ثم ابتدأ فى العمارة حتى عاد ذلك كما كان ، وكان الفراغ من ذلك فى أواخر شعبان سنة ٨٠٤ هـ . وعجب الناس كثيرا من سرعة العمارة فى هذه المدّة لأن من رأى ذلك قبل العمارة يقطع بأن هذه العمارة إنما تتم فى مدّة سنتين باعتبار العادة فى العمارات ، فسهل الله فراغها فى تلك المدّة وجعلت الأساطين فى الجانب الغربى كلها من حجارة منحوتة وكذلك الجانب الشامى ما خلا أساطين يسيرة فى مقدّمه فانها رخام مكسر ملصق بالحديد ، ولم يبق من ذلك محتاجا للعمارة إلا سقف الجانب الغربى وما أخره عن إتمام ذلك إلا فقده خشب الساج ولو وجده لأتم ذلك قبل موسم سنة ٨٠٤ هـ . ولما كان المحرّم مفتتح شهور سنة ٨٠٧ هـ . قدم الى مكة الأمير بيسق فأخذ يجمع الخشب ويعدّه للسقف ثم وضعه فى محاله بسرعة ، وكان ذلك الخشب من العرعر جىء به من الطائف الى مكة ، وقد عمر فى تلك السنة مواضع من المسجد كانت متشعبة وسقوفا فيه ونقشه وكان ذلك فى أيام السلطان الناصر فرج بن برقوق . وفى هذه السنة عمرت سقاية العباس بالحجر وكانت بالخشب عمرها الجواد الأصبهانى وزير صاحب الموصل .

وفى سنة ٨١٥ هـ . عمرت أماكن بالمسجد ، وفى سقفه وكان القائم بذلك قاضى مكة جمال الدين محمد بن عبد الله بن ظهيرة من مال تطوّع به أهل الخير .

وقد كثر بعد ذلك الخلل والتشعب فى جدر المسجد وعمده وأبوابه وسقفه فقيض الله لإصلاح ذلك الأمير زين الدين مقبلا القديدى موفدا من قبل ملك مصر وصاحبها الأشرف برسباى ، فقام بعمارة كبيرة فى كل المسجد فأقام عشرات العقود وجدّد كثيرا من أبواب المسجد وعمرت سقوفه وطليت بالنورة وكان ذلك فى سنتى ٢٥ و ٢٦ بعد الثمانمائة .

وفى سـنة ٨٤٢ هـ . عمر الأمير سيدوم سقف المسجد ، وفى سنة ٨٥٢ هـ . رمم بعض أماكنه بيرم خواجه ناظر الحرمين من قبل السلطان چقمق .

وفى سنة ٧٧٨ هـ . عمر السلطان الغورى باب إبراهيم فجعل له عقدا بعد أن لم يكن ، وجعل فى أعلاه قصرا وفى جانبيه سكنين و بيوتا تغل بالكراء و بنى ميضأة خارج باب إبراهيم .

وفى سـنة ٩٧٩ هـ . صدر أمر السلطان سليم خان ببنـاء المسجد الحرام على أكمل درجات الاتقان وأن يعتاض عن السقف بقبب دائرية وأرسل الى سنان باشا صاحب مصر ليبعث من يقوم بهـذا العمل من الكبار ، فعين الباشا أحمد بك فكان تعيينا صادف أهله فإنه طبع على حب الخير وعدم الاكتراث بالدنيا وشدّة العطف على الفقراء ، وقد وصل مكة سلخ ذى الحجة سنة ٩٧٩ هـ . ومعه الإجازات السلطانية بمباشرة البناء على أن يكون تحت إشراف القاضى حسين مدبر المملكة الحسنية وسفير الأقطار الحجازية ، واستصحب أحمد بك شيخ المهندسين بمصر المعلم محمدا المصرى ، وقد بدأ بالهدم يتلوه التعمير من باب السلام وكان ذلك فى الرابع عشر من ربيع الأول سنة ٩٨٠ هـ . ولم يزل يبنى على الشكل الذى نراه الآن حتى أتم الجانبين الشرقى واليمانى ، وقد أتى نعى السلطان سليم خان وتولية ابنه السلطان مراد ، وورد منه أمر لأحمد بك بأن يستمر فى عمارة المسجد ويستنجزه الاتمام ، فجدّ جدّه فى العمارة حتى أتم المسجد فى أواخر سنة ٩٨٤ هـ . فكان نزهة الناظر وجلاء الخاطر و بلغ ما أنفق فى هـذه العمارة ١١٠٠٠٠ دينار (٥٥٠٠٠ جنيه تقريبا) ومائة ألف من الذهب الإبريز ، وذلك عدا ما وصل من مصر من مواد البناء مثل الخشب والحديد وأهلة القباب المطلية بالذهب ، وهـذا الشكل هو الذى تراه بالمسجد الى يومنا هـذا وقد وصفناه لك قبلا .

وفى هـذه العمارة خفض العمال أرض الشارع الموصل الى المسفلة بحيث صار يصرف ماعساه يدخل الى المسجد من مياه السيول التى كثيرا ما كانت سببا فى نقض

أركانه وهدم بنيانه وقد رمم المسجد الحرام فى سنة ١٠٧٢ هـ . سليمان بك والى جدّة وشيخ المسجد الحرام بمـال زوده به سلطان مصر محمد كزلار الأغا .

هـذا وقد كانت الزيادات التى تخلف من الدور التى دخلت فى تربيع المسجد فى كل عماراته يبنى بعضها مدارس وبعضها أروقة يسكن فيها فقراء طلبـة العلم فى المسجد، وكان لهـا أوقاف جمة ولكن كثيرا ما تغيرت أوقافها واستبدل بها غيرها أو خرجت من يد واقف الى يد آخر أقوى منـه ، ومن ذلك مدرسـة قايتباى التى لا تزال للآن على يسار الداخل الى المسـجد من باب السلام فانها بعـد أن كانت مدرسة تدرس فيها علوم الدين ولها أوقاف بمصر تصرف غلاتها عليها ضعفت أوقافها شيئا فشيئا فنقلوها من دار علم الى دار ضيافة كان ينزل فيها أمراء الحج المصرى ثم سار يسكنها بعض أشراف بنى غالب .

مقام ابراهيم عليه السلام — (١) ما المراد به . قال تعالى ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُـدًى لِلْعَالَمِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ ﴾ وقال تعالى ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ قال شيخ المفسرين ابن جرير فى تفسيره اختلف أهـل التأويل فى مقام ابراهيم فقال بعضهم : مقامـه هو الحج كله (أى مشاعره)، وروى ذلك عن ابن عباس ومجاهد وعطاء، وقال آخرون : مقام ابراهيم عرفة والمزدلفة والجمار، وحكى ذلك عن هؤلاء الثلاثة أيضا، وقال آخرون : مقام ابراهيم الحجر الذى قام عليه ابراهيم حين ارتفع بناؤه وضعف عن رفع الحجارة وأسنده الى ابن عباس، وقالت طائفة رابعة : بل مقام ابراهيم هو مقامه المعروف فى المسجد الحرام وعزا ذلك الى قتادة وعمار والسدى، ثم قال ابن جرير : وأولى هذه الأقوال بالصواب عندنا ما قاله القائلون إن مقام ابراهيم هو المقام المعروف بهذا الاسم الذى هو فى المسجد الحرام، لمـا روينا عن عمر بن الخطاب أنه قال : قلت يا رسول الله ! لو اتخـذت المقام مصلى فأنزل الله ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ ولمـا حدّثنا يوسف بن سليمان قال : حدّثنا حاتم بن إسماعيـل قال : حدّثنا جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر قال : استلم رسول الله صلى الله عليه وسلم الركن فرمل ثلاثا ومشى أربعا

ثم تقدّم الى مقام ابراهيم فقرأ ﴿وَٱتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ فجعل المقام بينه وبين البيت فصلى ركعتين ، فهذان الخبران ينبئان أن الله تعالى ذكره إنما عنى بمقام ابراهيم الذى أمرنا الله باتخاذه مصلى هو الذى وصفنا ، ولو لم يكن على صحة ما اخترنا فى تأويل ذلك خبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لكان الواجب فيه من القول ما قلنا ، وذلك أن الكلام محمول معناه على ظاهره المعروف دون باطنه المجهول حتى يأتى ما يدل على خلاف ذلك مما يجب التسليم له ، ولا شك أن المعروف فى الناس بمقام ابراهيم هو المصلى الذى فيه قال الله تعالى ذكره ﴿وَٱتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ وقد روى الخبرين اللذين ذكرهما ابن جرير البخارى فى صحيحه الأول فى كتاب التفسير والثانى فى كتاب الحج ونرى أن الآية صريحة فى أن المصلى بعض من المقام أى موضع القيام والحجر لا يصلح أن يكون مصلى لصغره فالمقام مكان غيره أكبر منه ولعل الحجر المعروف الآن بمقام ابراهيم كان موضوعا فى مكان قيامه علامة عليه .

(٢) قياس المقام — (الحجر) وتحليته . قال القاضى عز الدين بن جماعة : حررت لما كنت مجاورا بمكة سنة ٧٥٣ هـ . مقدار ارتفاع المقام عن الأرض فكان $\frac{٧}{٨}$ الذراع ، وأعلى المقام مربع من كل جهة $\frac{٣}{٤}$ الذراع ، وموضع غوص القدمين ملبس بالفضة ، وعمقه من فوق الفضة سبع قراريط ونصف قيراط من ذراع القماش المستعمل فى مصر . اهـ .

وأول ما حلى المقام فى خلافة المهدى العباسى لأنه رفع فانثلم لرخاوة حجره ، فكتب الحجبة الى المهدى يعرفونه بذلك وأنهم يخشون عليه أن يتفتت ، فبعث المهدى فى سنة ١٦١ هـ . بألف دينار أو أكثر فضببوا بذلك المقام من أعلاه وأسفله ، فلما كان فى خلافة المتوكل زاد فى تضبيب المقام سنة ٢٣٦ هـ . ومقدار ما زاده ٨٠٠٠ مثقال من الذهب و ٧٠٠٠٠ درهم من الفضة وكان ذلك فوق حليته الأولى ثم أن جعفر بن الفضل عامل مكة ومحمد بن حاتم قلعا حلية المتوكل وضرباها دنانير ليستعينا بها على ما قيل فى حرب إسماعيل بن يوسف العلوى الذى خرج وأفسد بمكة والحجاز فى سنة ٢٥١ هـ . ولم تزل حلية المهدى على المقام الى أن قلعت عنه

فى محرم سنة ٢٥٦ هـ . لأجل إصلاحه لأن الحجبة ذكروا لعامل مكة على بن الحسن العباسى أن المقام وهى وتسللت أحجاره ويخشى عليه ، وسألوه فى تجديد عمله وتضبيبه حتى يشتدّ فأجابهم لسؤالهم وزادهم ذهبا وفضة الى حليته الأولى ، فعمل له طوقان من ذهب فيهما ١٩٩٢ مثقال ، وطوق من فضة ، وأحضر المقام الى دار الإمارة وأذيبت له العقاقير بالزئبق وشدّ بها شدّا جيدا حتى التصق ، وكان قبل ذلك سبع قطع زال عنها الالتصاق لما قلعت الحلية عنه سنة ٢٥٥ أو ٢٥٦ هـ . لأجل إصلاحه ، وكان الذى شدّه بيده فى هذه السنة بِشر الخادم مولى أمير المؤمنين المعتمد العباسى وحمل المقام بعد لصقه وتركيب الحلية عليه لشدّه الى موضعه وكان ذلك فى يوم الاثنين ٨ ربيع الأول سنة ٢٥٦ هـ .

(٣) موضع المقام والمصلى خلفه — قال التقى الفاسى : روى الأزرقى — توفى سنة ٢١٧ هـ — عن ابن أبى مليكة أن موضع المقام الآن هو موضعه فى الجاهلية وفى عهد النبى صلى الله عليه وسلم والخليفتين بعده إلا أن السيل — سيل أم نهشل سنة ١٧ هـ — ذهب به فى خلافة عمر رضى الله عنه فجعل فى وجه الكعبة — الجهة الشرقية التى فيها الباب — حتى قدم عمر فردّه الى مكانه بمحضر من الصحابة ، ونقل المحب الطبرى عن مالك فى مدوّنته أنه قال : كان المقام فى عهد ابراهيم عليه السلام فى مكانه اليوم وكان أهل الجاهلية ألصقوه بالبيت خيفة السيل ، فكان كذلك فى عهد النبىّ صلى الله عليه وسلم وأبى بكر ، فلما ولى عمر ردّه بعد أن قاس موضعه بخيوط قديمة قيس بها حتى أخروه ، قال التقى الفاسى : وهذا يخالف قول الأزرقى وحديث جابر الصحيح ، ثم قال بعد كلام طويل : فيتحصل فيمن ردّه الى موضعه الآن — سنة ٨١٢ هـ — ثلاثة أقوال : أحدها أنه النبى صلى الله عليه وسلم ، والثانى أنه عمر ، والثالث أنه غيرهما ، ثم قال : موضع المقام الآن هو موضعه فى عهد الخليل عليه السلام من غير خلاف أعلمه فى ذلك ، وأما الخلاف فى موضعه اليوم هل هو

موضعه فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم كما ذكر ابن أبى مليكة أو لا كما قال مالك ، ثم قال وكان ردّ عمر للمقام الى موضعه هذا لما غيره عنه السيل سنة ١٧ ه .

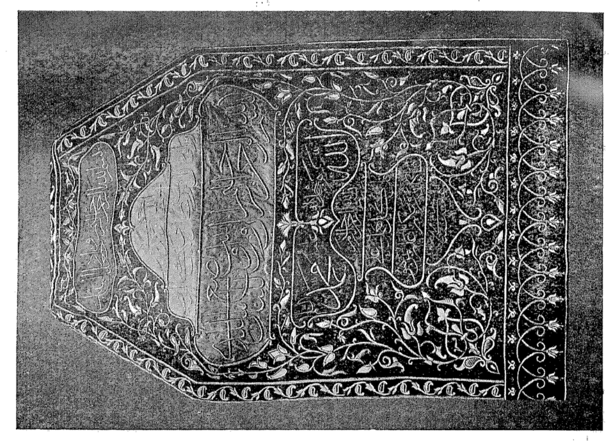
قال التقى الفاسى : المقام الآن تحت قبة عالية من خشب قائمة على أربعة أعمدة دقيقة من حجارة منحوتة بينها أربعة شبابيك من حديد بين كل عمودين شباك ، ومن الجهة الشرقية يدخل الى المقام ، والقبة مزخرفة من باطنها بالذهب ، ومما يلى السماء مبيضة بالنورة ، وأما المصلى الذى هو خلف المقام فعليه ظلة قائمة على أربعة أعمدة منها عمودان عليهما القبة إذ هى متصلة بالقبة ، والظلة مزخرف سقفها من الباطن بالذهب ومبيض من أعلاه بالنورة ، وأحدث وقت صنع فيه ذلك شهر رجب سنة ٨١٠ ه . واسم الملك الناصر فرج صاحب الديار المصرية والشامية مكتوب فيه بسبب هذه العمارة ، واسم الملك الناصر محمد بن قلاوون صاحب مصر مكتوب فى الشباك الشرقى بسبب عمارته له سنة ٧٢٨ ه . ومقام ابراهيم فى وسط القبة بين شبابيكها الأربعة الحديدية ، ويحيط بالمقام قبة من الحديد — مقصورة — مثبتة فى الأرض برصاص مصبوب بحيث لايستطاع قلع القبة التى فوقه إلا بالمعاول وشبهها ، ولعل هذه القبة الحديدية هى التى كانت توضع فوقه عند قدوم الحاج الى مكة صونا له لكونها أشدّ تحملا للازدحام والاستلام على ما ذكر ابن جبير فى رحلته سنة ٥٧٩ ه . وقد ذكر ما يدل على أن المقام لم يكن ثابتا بل كان تارة يجعل فى الكعبة وتارة فى موضعه الآن فى قبة من خشب ، فاذا كان الموسم أبدل بها القبة الحديدية ، قال التقى الفاسى وما عرفت متى جعل المقام ثابتا فى القبة على صفته التى هو عليها الآن ، وأما القبة التى فوق القبة الحديدية التى فى جوفها المقام فاظن أن الملك المسعود صاحب اليمن ومكة أوّل من بناها . اه .

وقد جدّدت قبة المقام فى سنة ٩٠٠ ه . وكذلك فى سنة ١٠٤٩ ه . ونقشها بالذهب فى سنة ١٠٧٢ ه . سليمان بك والى جدّة ومكة من قبل سلطان مصر محمد

كزلار ، وقد رأيت مكتوبا على القبة من الجهة الجنوبية «أمر بتجديد هــذا المقام الشريف مولانا العبد الفقير الى الله تعالى سلطان الاسلام والمسلمين قاتل الكفرة والمشركين ملك البرين والبحرين خادم الحرمين الشريفين الســلطان المــالك الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغورى عز نصره فى ١٥ شهر رجب الفرد سنة ٩٠٠ ه . ومكتوبا عليها فى الجهة الغربية المقابلة لباب الكعبة « أمر بتجديد هذا المقام المعظم ســيدنا ومولانا السلطان المظفر سليم خان بن السلطان بايزيد خان — وعلى الجهــة الشمالية بقية أجداده — ســنة ١٠٤٩ ه » . وقد قست المسافة بين المقصورة التى على المقام وجدار الكعبة الذى فيه الباب من الوسط فاذا هى ١٥,٤٠ مترا ، ودخلت المقصورة مع المطوف فوضع من ماء زمزم على أثر القدمين وشربنا منه فى حجتنا هذه سنة ١٣١٨ ه . وكان خليقا بى و بالمطوف أن نتجنب التبرك بالآثار والشرب من مواطئ الاقــدام وأن ندع هــذه البدعة جانبا ولا نفعل عند هــذا الأثر سوى ما فعــله رسول الله صلى الله عليه وســلم من الصلاة عنــده آمتثالا لأمر الله تعــالى ﴿ وَٱتَّخِـذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ ولكنى كنت فى هــذا الوقت لمــا تنضج معلوماتى الدينية فى الحج ومشاعره ولم أكن وقفت تمــام الوقوف على تأثير البدع السيئ فى الدين ، وقــد دعانى الإنصاف الى ذكر الواقــع ودعانى البصر بالدين الى انكار ما حصل ﴿ يَٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِٱلْقِسْــطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِــكُمْ أَوِ ٱلْوَالِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ .

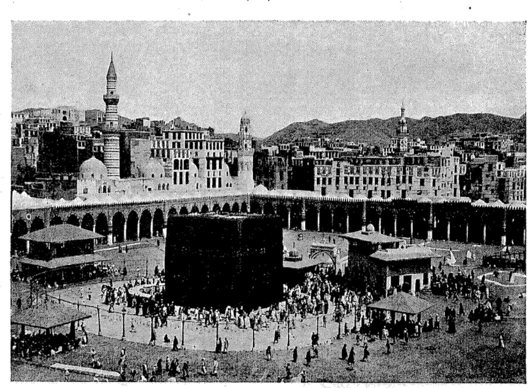
وقد رسمت المقام فى حجتى سنة ١٣٢٥ ه . وهو الذى تراه فى (الرسم ٣٣) بجوار الكعبة والمنبر ، و بالتأمل فى الرسم تجد فى كل جهة شباكين وترى فى وسط المقــام القبــة . وفى (الرسم ٩٣) الجــانب الأمامى من كسوة المقــام التى تصنعها مصر ، وفى الجدول الآتى ما سطر على كسوة المقام :

رسم كسوة مقام ابراهيم عليه السلام



53. The Carpet on Ibrahim's mausoleum.

منظر الكعبة المعظمة بالمسجد الحرام بمكة المكرمة



92. The Northern-Eastern view of the Kaaba and the Praying Places of the four calophs in_the Mosque of Mecca.

ما سطر على كسوة مقام إبراهيم عليه السلام

الوجه الأول	الوجه الثانى	الوجه الثالث	الوجه الرابع
بسم الله الرحمن الرحيم . و إذ جعلنا البيت	مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى	وعهدنا إلى إبراهيم و إسماعيل أن طهرا بيتى	للطائفين والعاكفين والركع السجود
بسم الله الرحمن الرحيم . و إذ قال ابراهيم رب أرنى كيف تحيي الموتى	قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى قال فخذ أربعة من الطير فصرهن	إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا	واعلم أن الله عزيز حكيم . صدق الله ربنا وخالقنا العزيز الرحيم
بسم الله الرحمن الرحيم . إن أول بيت وضع للناس للذى	ببكة مباركا وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن	دخله كان آمنا ولله على الناس حج البيت من استطاع	اليه سبيلا ومن كفر فان الله غنى عن العالمين
الله جل جلاله . محمد صلى الله عليه وسلم	أبو بكر رضى الله عنه عمر رضى الله عنه	عثمان رضى الله عنه على رضى الله عنه	حسن رضى الله عنه حسين رضى الله عنه
بسم الله الرحمن الرحيم قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا	بسم الله الرحمن الرحيم هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا	السلطان محمد خان الخامس ابن السلطان الغازى عبد المجيد خان ابن السلطان محمود خان بن السلطان عبد الحميد خان	ابن السلطان أحمد خان خلد الله خلافته وأيد بالعدل سلطنته الى انتهاء الزمان ونهاية الدوران سنة ١٣٢٧ هـ

المقامات الأربع أو مواقف الأئمة فى الصلوات المفروضة

قال التقى الفاسى فى كتابه شفاء الغرام :

مقام الشافعى خلف مقام إبراهيم بينه وبين جدار الكعبة الشرقى ½ ٣٩ ذراعا بذراع الحديد وبينه وبين الأسطوانتين المؤخرتين من سباط مقام إبراهيم ½ ٩ أذرع — وأقول إن هذا المقام لاوجود له الآن وإمام الشافعية يصلى فى مقام إبراهيم أو على سطح زمزم قال : ومقام الحنفى بين جدار محرابه الى وسط جدار الحجر ⅚ ٣١ ذراعا ، ومن جدار محرابه الى حدّ حاشية المطاف ½ ١٠ أذرع بالعتبة ، وعرض العتبة نصف ذراع وقيراطان ، ومقام المالكى من جدار محرابه الى وسط جدار الكعبة الغربى ⅔ ٣٧ ذراعا ومن جدار المحراب الى حاشية المطاف بالعتبة ⅓ ١٠ أذرع ، ومقام الحنبلى من جدار المحراب الى الحجر الأسود فى الجنوب ⅔ ٢٧ ذراعا بعتبة الحاشية « ذراع الحديد ⅐ ٥٦ سنتيا كما سيأتى بيانه » .

(١) مقام الحنفى قال التقى الفاسي : فى أواخر سنة ٨٠١ هـ وأوائل سنة ٨٠٢ هـ بنى مقام السادة الحنفية وهو قائم على أربع أساطين من حجارة عليها سقف مدهون مزخرف ، وأعلاه مما يلى السماء مطلى بالنورة وبين الأسطوانتين المقدّمتين محراب مرخم ، ثم قال : وأنكر عمله على هذه الصفة جماعة من العلماء منهم الشيخ العلامة زين الدين الفارسكورى الشافعى وألف فى ذلك تأليفا حسنا ، والشيخ سراج الدين البلقينى وولده جلال الدين قاضى القضاة بالديار المصرية وكذلك القضاة وأفتوا بهدم هذا المقام وتعزير من أفتى بجواز بنائه على هذه الصفة ، ورسم ولى الأمر بهدمه فعارض فى ذلك بعض ذوى الهوى فلم يتم الأمر ، وسبب الإنكار ما حصل من شغل الأرض بالبناء وقلة الانتفاع بموضعه وما يتوقع من إفساد أهل اللهو فيه لأجل سترته لهم ، وسبب المعارضة أن بعض علماء الحنفية إذ ذاك أفتى بجواز بقائه لما فيه من تظليل المسلمين من الحرّ ووقايتهم من البرد والمطر ، وحكمه فى ذلك حكم الأروقة والأساطين التى فى المسجد ، وفى سنة ٨٣٦ هـ . كشف الأمير سودون

المحمدى سقف المقام المذكور وعمره وزخرفه أحسن مما كان ووضع عليه من أعلاه قبة خشب مبيضة ترى من فوق ولا أثر لها داخل المقام، وفرش فيه حجارة حمراء من حجر الماء ثم جدّد مرارا بعد ذلك ، وآخر مرة فى سنة ٩١٧ هـ . واستمر على ذلك الى سنة ٩٢٤ هـ . فلما حج الأمير مصلح الدين الرومى فى موسم سنة ٩٢٣ هـ . بدا له أن يهدمه فهدمه فى مفتتح سنة ٩٢٤ هـ . وجعله قبة كبيرة شامخة على أربع بتر (قوائم مبنية) عراض جدّا بأربعة عقود، وكل ذلك عمل بحجر الماء المنحوت ذى اللون الأحمر فالأصفر، وهذا الحجر يؤتى به من جهة الحديبية ويقال له : الشميسى ، وزاد فى طول المقام وعرضه وانتهى بمحرابه الى إفريز حاشية المطاف وبقيت هذه القبة حتى سنة ٩٤٩ هـ . فأمر بهدمها السلطان لأنها أخذت بناء كبيرا من المسجد، فنفذ الأمر الأمير خشقلدى نائب جدّة ومباشر العمائر السلطانية فهدم هذه القبة فى أوائل شهر رجب سنة ٩٣٩ هـ . ثم شرع فى بناء مقام عظيم للحنفية ، وشكله أربع بتر جميلة فى الأركان أخذت من أنقاض القبة الأولى وهى من حجر الماء، وستة أعمدة مثمنة من حجر الصوان كل عمود قطعة واحدة؛ فمن ذلك عمودان بين البترتين المقدمتين وآخران بين المؤخرتين وعمود بين البترتين من ناحية باب العمرة وآخر بين البترتين من جهة باب السلام مقابل للأول ، وعلى ذلك عشرة عقود لطاف ، وعلى ذلك سقف مزخرف من خشب الساج مصنوع صناعة ظريفة ، وفوق هذا السقف ظلة للمبلغين بأربع بتر، وستة أعمدة ألطف من الأعمدة التحتية وعلى شكلها فى الوضع ، وعلى جميعها سقف مزخرف فوقه جملى (جملون) غطى بالرصاص لدفع المطر وفى وسط السقف الأول طاقة يرى المبلغ منها الإمام، وفى المقام سلم جميل يصعد عليه المبلغ الى الظلة فى أوقات المكتوبة وقد أتم هذا البناء فى ١٣ رمضان من السنة المذكورة، وفى سنة ٩٧٤ هـ . رخم مقام الحنفية بأمر السلطان أحمد خان ع وفى سنة ١٠١٠ هـ . رخم محراب هذا المقام وفى سنة ١٠٧٢ هـ . بنى سليمان بك والى جدّة وشيخ الحرم وناظر عمارته من قبل السلطان محمد كزلار الأغا — المقام الحنفى بالحجر الصوان المنحوت وبالحجر الأصفر وصفح أعلى سقفه بالرصاص المطلى

بالذهب، وجعل عليه رصافتين طليتا بالذهب كما جعل أمامه أربع رصافيات مطلية بالذهب ونقش نقوشا جميلة بماء الذهب والأصباغ البديعة انظر (الرسم ٩٢) وفيه ترى الجهة الشمالية والشرقية من المسجد والكعبة فى وسط الصحن، والذى فى يسار الرسم مقام الحنفى ذو الطبقتين ومقام المالكى ثم أعمدة المطاف ثم الحجر على شكل نصف دائرة بجوار الكعبة ، والذى على يمينها مقام إبراهيم فالقبة فباب بنى شيبة فزمزم عليها قبة أيضا ، ويلاصقها سقاية العباس ، والذى فى جنوب السقاية مقام الحنبلى .

(٢ و٣ و٤) مقامات الشافعى والمالكى والحنبلى . عمر الأمير بيسق هذه المقامات الثلاث فى سنة ٨٠٧ هـ . وكان كل مقام منها عبارة عن بترتين عليهما عقد لطيف فى أعلاه ثلاث شراريف وفيه خشبة معترضة علقت فيها الخطاطيف للقناديل ، وبين البترتين من أسفل جدار لطيف بنى من حجارة ونورة فيه محراب إلا مقام الشافعى فانه لا محراب فيه ، قال الفاسى فى كتابه شفاء الغرام : وقد ذكرنا صفتها القديمة فى أصل هذا الكتاب ولكن هذا الأصل لم يوجد بعد الفاسى ولا عثر عليه قال ابن ظهيرة فى كتابه الجامع اللطيف : مقام الشافعى كذلك الى يومنا هذا، وأما مقام المالكى والحنبلى فقد أدركتهما كذلك ثم غيرا بعد سنة ٩٣٠ هـ . بأحسن مما كانا عليه فى أيام السلطان سليمان خان، قال : ووصفهما الآن كل مقام بأربع أساطين مثمنة الشكل، كل أسطوانة قطعة واحدة من الحجر الصوان المكى، وتحت كل أسطوانة قاعدة منحوته بتربيع وتثمين، وفوقها أخرى كذلك من الحجر الصوان فوق ذلك سقف من الخشب المدهون المزخرف فوقه أخشاب بهيئة جملى (جملون) عليها صفائح الرصاص لدفع المطر، وفى كل مقام محراب فيما بين الأسطوانتين المقدمتين الى جهة القبلة، وهما كذلك الى هذا التاريخ وكان المباشر لذلك عبد الكريم اليازجى الرومى، وفى سنة ٩٧٤ هـ . رممت المقامات الثلاث بأمر السلطان أحمد خان .

وفى سنة ١٠٧٢ هـ . نقشت الثلاثة بماء الذهب والأصباغ الجميلة وذلك بأمر سليمان بك والى جدّة السابق ذكره، وكذلك جعل فى أعلى كل مقام منها رصافية مطلية بالذهب وأمام كل منها ثلاث كذلك .

كيفية الصلاة فى المقامات الأربع — قال ابن ظهيرة فى كتابه الجامع اللطيف : أما كيفة الصلاة فانهم فى زماننا — منتصف القرن العاشر — يصلون مرتبين الشافعى فى مقام الخليل عليه السلام، ثم إمام الحنفية بعده فى مقامه، ثم إمام المالكية بعده فى مقامه، ثم إمام الحنبلية بعدهم فى مقامه، وهذا فى الفجر والظهر والعصر والعشاء، وأما فى صلاة المغرب فكان فيما أدركناه قريبا يصلى الحنفى والشافعى فى وقت واحد فحصل بذلك التخليط والتشويش على المصلين من الطائفتين بسبب اشتباه أصوات المبلغين فأنهى ذلك الى مولانا السلطان سليمان فبرز أمره بالنظر فى ذلك وإزالة هذا التخليط ، فاجتمع القضاة والأمير على بك نائب جدّه فى الحطيم وقضوا بأن يتقدّم الحنفى فى صلاة المغرب وعند التشهد يدخل إمام الشافعى وكان هذا فى حدود سنة ٩٣١ هـ . واستمر الى وقتنا هذا — عام ٩٤٩ هـ . — فجزى الله الساعى فى ذلك خيرا، وأما المالكى والحنبلى فلا يصلون المغرب أئمة فيما أدركناه، وأما كيفية الصلاة فيما تقدّم من الزمان فكانوا يصلون مرتبين كما فى الأربع الفروض المتقدّمة إلا أن المالكى كان يصلى قبل الحنفى مدة، ثم تقدّم عليه الحنفى بعد سنة ٧٩٠ هـ . ونقل الفاسى عن ابن جبير أنه اضطرب كلامه فى الحنفى والحنبلى، لأنه ذكر ما يقتضى أن كلا منهما كان يصلى قبل الآخر، أما صلاة المغرب فكان الأئمة الأربعة يصلونها جميعا فى وقت واحد فيحصل للمصلين بسبب ذلك لبس كبير من اشتباه أصوات المبلغين واختلاف حركات المصلين فأنكر العلماء ذلك وسعى جماعة من أهل الخير عند ولى الأمر إذ ذاك وهو الناصر فرج بن برقوق الجركسى صاحب مصر فبرز أمره فى موسم سنة ٨١١ هـ . بأن إمام الشافعية بالمسجد الحرام يصلى المغرب وحده فنفذ أمره بذلك، واستمر الى أن تولى الملك المؤيد صاحب

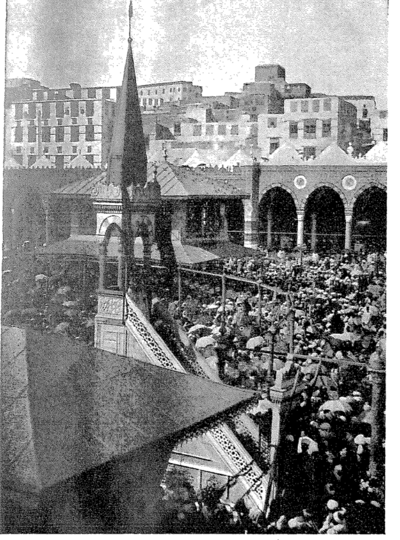
مصر فرسم بأن الأئمة الثلاثة يصلون المغرب كما كانوا فنفذوا ذلك فى ليلة السادس من ذى الحجة سنة ٨١٦ هـ . وكذلك يجتمع الأئمة الثلاثة غير الشافعى على صلاة العشاء فى رمضان ويجتمع الأئمة الأربعة وغيرهم من الأئمة بالمسجد الحرام فى صلاة التراويح ويحصل بسبب اجتماعهم التشويش على المصلين الذى كان يقع دائما فى صلاة المغرب وأعظم لكثرة الأئمة .

هذا وقد أنكر العلماء من كل المذاهب تعدد الأئمة فى الصلوات الخمس ، واستبشعوا ذلك خصوصا فى صلاة المغرب إذ يصلى الكل دفعة واحدة أنظر (شفاء الغرام) أما فى وقتنا هذا (سنة ١٣١٨ هـ) . فالحنفى يبتدئ بالصلاة فى جميع الأوقات ويتلوه المالكى ثم الشافعى ثم الحنبلى إلا صلاة الصبح فيبدأ بها الشافعى ويتأخر بها عنهم الحنفى .

وأما الوقت الذى حدث فيه تعدّد الأئمة فى الصلوات المفروضة فقال الفاسى : لم أعرفه تحقيقا ثم نقل مايدل على أن الحنفى والمالكى كانا مع الشافعى فى سنة ٤٩٧ هـ . وأن الحنبلى لم يكن فى ذلك الوقت وإنما كان إمام الزيدية ، ثم قال : ووجدت ما يدل على أن إمام الحنبلية كان موجودا فى عشر الأربعين وخمسمائة راجع الرسالة التى كتبها الشيخ جمال الدين القاسمى فى بدعة تعدّد الأئمة .

منبر المسجد الحرام — كان الخطباء من الخلفاء والولاة يخطبون بالمسجد الحرام يوم الجمعة قياما على الأرض فى وجه الكعبة وفى الحجر حتى كانت سنة ٤٤هـ . إذ قدم معاوية بن أبى سفيان من الشام حاجا وصحبته منبر من خشب ذو درجات ثلاث خطب عليه بالمسجد الحرام وتركه وكان كلما تخرب عمر ، ولم يزل يخطب عليه حتى حج هارون الرشيد فأهدى له عامله على مصر موسى بن عيسى منبرا من خشب ذا درجات تسع ونقش بديع ، فكان منبر المسجد ونقل الأول الى عرفة ، ثم أمر الواثق العباسى بعمل منبر للمسجد وآخر لمنى وثالث لعرفة ولما حج المنتصر بن المتوكل العباسى فى خلافة أبيه جعل له منبر عظيم فخطب عليه بمكة ثم خرج وخلفه بها

صحيفة ٢٥٣ منظر الخطيب وهو على المنبر في صلاة الجمعة بالحرم المكي



44. The praecher in the Pulpit during Friday Prays at Mecca Mosque.

صحيفة ٢٥٣ 

المنبر بالمسجد الحرام والحجاج مجتمعون لصلاة الجمعه

95. The pulpit of the Mosque of Mecca 1325 A. H.

وجعل للمسجد بعد ذلك عدّة منابر، فمن ذلك منبر عمله وزير المقتدى العباسى وأرسله من بغداد وكان منقوشا عليه بالذهب « لا إله إلا الله محمد رسول الله الإمام المقتدى بالله أمير المؤمنين » وقد بلغت نفقاته ألف دينار (٥٠٠ جنيه) ولما وصل الى مكة أحرقه المصريون ولم يبد اعتراضا على ذلك أمير مكة محمد بن جعفر، وأوّل من قطع الخطبة لملوك مصر وخطب لملوك بنى العباس بعد أن قطعت الخطبة لهم نحو مائة سنة وأبى أهل مصر إلا أن تكون الخطبة للمستنصر العبيدى صاحب مصر فخطب له . ثم كان بعد ذلك يخطب حينا لبنى العباس وحينا لملوك مصر يقدم منهم من يجزل له العطاء ، وكانت عادة الخطباء بمكة أن تكيل الثناء للملوك كيلا من ذلك ما كان يقال للملك الكامل فى الخطبة (صاحب مكة وعبيدها واليمن وزبيدها ومصر وصعيدها والشام وصناديدها والجزائر ووليدها سلطان القبلتين ورب العلامتين وخادم الحرمين الشريفين الملك الكامل خليل أمير المؤمنين) . ومنها منبر عمل فى دولة الملك الأشرف شعبان صاحب مصر فى سنة ٧٦٦ هـ . وقد أصلح مرارا ، قال التقى الفاسى هو باق يخطب عليه الآن — سنة ٨١٥ هـ . وما حواليها — ومنها منبر حسن أنفذه الملك المؤيد صاحب مصر فى موسم سنة ٨١٨ هـ . وخطب عليه فى سابع ذى الحجة وهجرت الخطبة على الذى قبله، وفى السنة السابقة أرسل شيخو صاحب مصر منبرا من خشب خطب عليه فى يوم التروية .

وفى سنة ٨٦٦ هـ . أرسل الملك الناصر « خوشقدم » صاحب مصر منبرا من خشب خطب عليه بالمسجد فى ثانى ذى الحجة من السنة المذكورة ، وفى سنة ٨٧٧ هـ . أرسل الملك الأشرف قايتباى الظاهرى منبرا من خشب خطب عليه فى أوّل ذى الحجة سنة ٨٨١ هـ . وفى سنة ٩٦٦ هـ . بعث السلطان سليمان خان بالمنبر الرخام القائم الآن بفناء المسجد وهو آية فى الاحكام ودقة الصناعة ودليل على ما للصناع من البراعة، وتراه فى (الرسم ٩٤) كاملا، وفى (الرسم ٩٥) إذا دققت النظر رأيت الخطيب على المنبر يلبس جبة وقباء (قفطانا) وقد لف على صدره مع رأسه « شالا » .

وقد كتب على المنبر من جهة الكعبة « الحمد لله رب العالمين قد بنى سليمان منبرا لبلد أمين » وعلى الجهة المقابلة لهـا « إنه من سليمان وإنه بسم الله صدق الله جل اسمه سنة ٩٦٦ هـ . » وقد أرّخ القاضى صلاح الدين بن ظهيرة القرشى المكى سنة ورود هذا المنبر بقوله :

شـيد الله ملك من * أسـبغ الله ظـله
وبأم القرى لقـد * ضـاعف الله نزله
إن ذا المنـبر الذى * قدحوى الحسن كله
هاك تاريخـه الذى * شهد الخلق فضـله
لسليمان منـبر * بالدعا شاهـد له

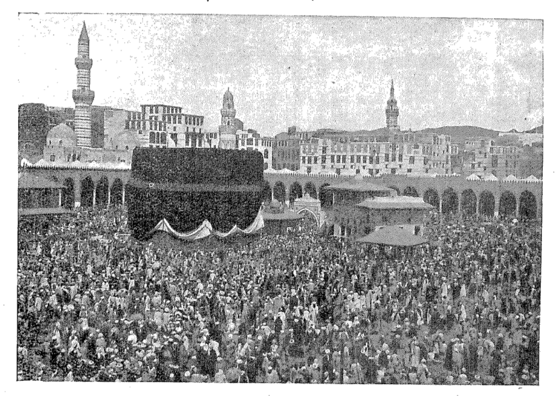
سنة ٩٦٦ هـ

وأول خطبة خطبت عليـه خطبة عيد الفطر قالها السيد أبو حامد النجارى ، وفى الثانى والعشرين من ذى الحجة سنة ١٠٢٠ هـ . شرع فى تركيب هلال المنبر الذى أرسله السلطان وكان أعلى المنبر مبنيا بالآجر فهدم ذلك وجعل له ألواح ركبت فيها الفضة المطلية بالذهب .

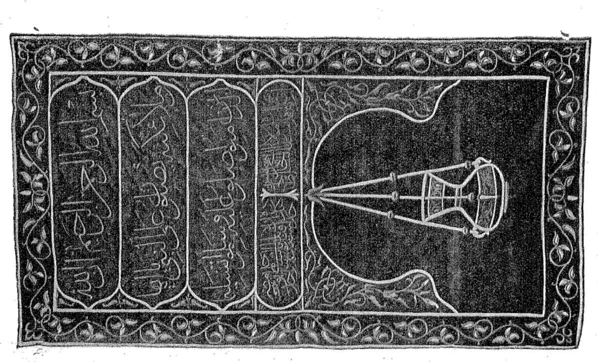
وقد كان الخطباء إذا أرادوا الخطبة فى المسجد وضعوا المنبر لصق جدار الكعبة بين الركن الأسود والركن اليمانى ، فاذا أراد الخطيب أن يخطب استلم الحجَر أوّلا ، ثم دعا وصعد المنبر ، وبعـد الخطبة كان ينقل المنبر الى مكانه بجوار زمزم ، فلمـا أهدى السلطان سليمان الى المسجد الحرام منبره المذكور بقى مكانه واستمرت الخطبة عليه الى اليوم ، وترى فى (الرسم ٩٦) الستارة التى تسدل على باب المنبر وهى من صنع مصر .

والعادة الآن بل ومن قديم الزمان أنه اذا أراد الخطيب أن يخطب للجمعة يقبل بين شخصـين من الأغوات يتهادى بينهما بيـد كل منهما راية ، ثم يعمد الى الحجَر الأسود فيقبله ويدعو عنده ، ثم يقصد الى المنبر بين الأغوين وأمامه شخص يضرب بالفرقعة — عود به جلد رقيق — فى الهواء فيسمع من فى داخل المسجد وخارجه

صلاة الجمعة حول الكعبة المشرفة



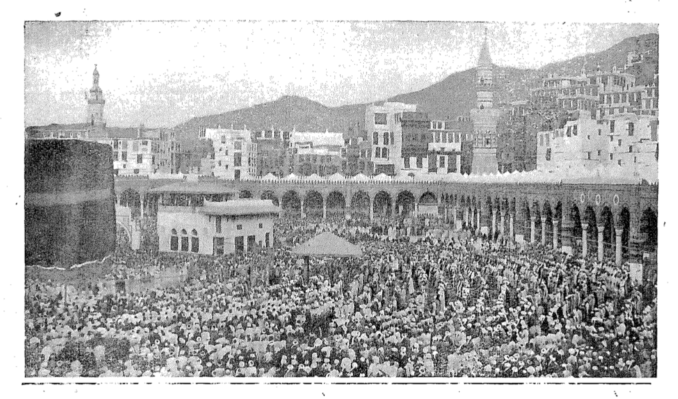
97. Pilgrims attending the Friday Prayers round the Kaaba.



96. A view of the curtain of the door of the pulpit in the Mosque of Mecca.


حقوق الطبع والتصوير محفوظة باسم اللواء ابراهيم رفعت باشا أمير الحج المصري في محرم سنة ١٣٢٦

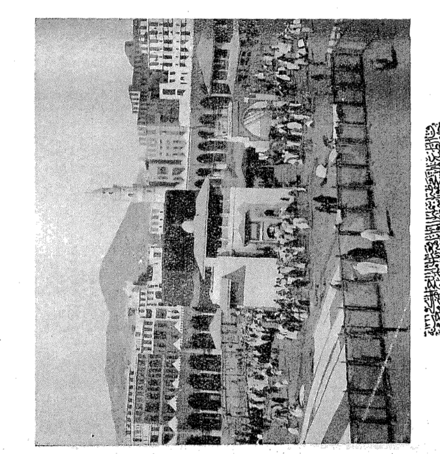
صلاة الجمعة حول الكعبة المشرفة



98. A view of the Friday Prayer in the Mosque of Mecca in El Hegga in 1325.



صحيفة ٢٥٥



99. A view of Zamzam with the pilgrims drinking from it.

صوتها الشديد، ويقصد بذلك إعلام الناس بخروج الخطيب، فإذا ما كان على باب المنبر ناوله شخص هنالك سيفا وثبتت الرايتان بجانب المنبر، فاذا ما رقى الدرجة الأولى ضربها بسيفه ضربة مسمعة، وكذلك يفعل فى الدرجة الثانية والثالثة، فاذا ما وصل الى العليا فعل بها كذلك ثم يدعو بدعاء خفى ويسلم على الناس يمينا وشمالا فيردّون عليه، ثم يأخذ المؤذنون على ظهر زمزم فى الأذان الثانى وبعد الفراغ منه يشرع فى الخطبة ومما يقوله فيها: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ما طاف بهذا البيت طائف. ويشير بأصبعه الى الكعبة ويدعو للخلفاء الأربعة وعمى النبى صلى الله عليه وسلم وسبطيه وأمهما وجدّتهما وكذلك يدعو للخليفة وأمير مكة واذا فرغ من الخطبة صلى وانصرف بجانبه حاملا الرايتين وبين يديه المفرقع يعلم الناس بانتهاء الخطبة والصلاة. ﴿شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ ٱللَّهُ﴾ ويرى فى (الرسم ٩٧) الناس وهم يصلون الجمعة بالمسجد الحرام فى ذى الحجة سنة ١٣٢٠ هـ . والذى على يمين الكعبة مقام ابراهيم فباب بنى شيبة فزمزم والسقاية — السقاية الآن مخزن لأدوات المسجد — وفى (الرسم ٩٨) منظر صلاة الجمعة فى ذى الحجة سنة ١٣٢٥ هـ .

بئر زمزم — هذه البئر تقع جنوبى مقام إبراهيم بحيث إن الزاوية الشمالية الغربية من البناء القائم عليها محاذية للحجر الأسود على بعد ١٨ مترا منه، وماؤها طعمه قيسونى والبناء القائم عليها مربع من الداخل طول ضلعه ٥,٢٥ أمتار وهو مفروش بالرخام، وهذا البناء طبقتان: فى الأولى منهما خدمة البئر، وفى الثانية خدمة من الخصيان (الأغوات) ويصعدا اليه من يريد الاستحمام على سلم من الخشب انظر (الرسم ٩٢) تجد بناء زمزم فى شرقيه داخل المسجد. ويرى فى (الرسم ٩٩) بناء زمزم والحجاج يدخلون اليه يستقون .

وهى بئر قديمة العهد ترجع الى زمن إسماعيل عليه السلام، فان أمه هاجر لما نزلت به فى مكان البيت وظمئ ولدها إسماعيل طلبت الماء فلم تجده فجاء جبريل عليه السلام وبحث الأرض بعقبه، فى رواية غمزها بعقبه — وكلتاهما فى صحيح

البخارى — فنبع الماء على وجه الأرض ، فكان ذلك نشأة زمزم، وأدارت هاجر عليه حوضا خيفة أن يفوتها الماء قبل أن تملأ قربتها، قالوا : ولو تركته لكانت زمزم عينا تجرى على وجه الأرض — على ماورد فى الصحيح — وذكر الفا كهى ما يدل على أن ابراهيم عليه السلام حفر بئر زمزم بعد أن نبعت العين . وإذ ذاك بدأت عمارة مكة ولم يكن لأحد فيها قبل ذلك قرار فسكنتها قبيلة جرهم رغبة فى مائها، وقد غلب ذو القرنين إبراهيم على زمزم ردحا من الزمن ومازال ماؤها ينتفع به سكان مكة حتى استخفت جرهم بحرمة الكعبة وحرمها فدرس موضعه حتى صار لا يعرف ، وقيل إنّ جرهما طمست البئر حين نفيت من مكة ، ولما كان زمن عبد المطلب بن هاشم جدّ النبي صلى الله عليه وسلم أرى فى المنام مكان زمزم فاستنبانها وحفرها قبل مولد النبي صلى الله عليه وسلم، وبعد مدة طويلة أخذ ماؤها يقل حتى كاد ينقطع فى سنة ٢٢٣ هـ . لأن البئر أهملت وهدم كثير من جوانبها فأخذ رجل من أهل الطائف يقال له محمد بن بشير يعمل فيها . قال الأرزقى : وقد صليت فى قعرها وفيه ثلاث عيون : عين حذاء الركن الأسود وعين حذاء أبى قبيس والصفا وعين حذاء المروة، قال : وكان ذرع غورها من أعلاها الى أسفلها ٦٩ ذراعا، منها ٤٠ مبنية و٢٩ نقر فى الجبل من أسفلها، قال التقى الفاسى : وقد قيس بحضورى ارتفاع فم البئر عن سطح الأرض وقطره ومحيطه فكان الارتفاع ذراعين إلا ربعا والقطر أربعة ونصفا والمحيط خمسة عشر ذراعا إلا قيراطين، وذلك بذراع الحديد $\frac{1}{7}$ ٥٦ سنتيا — قال التقى الفاسى : — أوائل القرن التاسع — وزمزم الآن داخل بيت مربع فى جدرانه تسعة أحواض للماء تملأ من بئر زمزم ليتوضأ الناس منها ، وفى الحائط المقابل للكعبة شبابيك، وفوق هذا البيت ظلة للؤذنين ولم أدر من أقام ذلك على هذه الصفة، ثم ذكر أنه فى سنة ٨٢٢ هـ . أجرى إصلاح كبير بل عمارة جديدة فى هذا البيت وأحواضه والظلة التى فوقه للؤذنين وأن ذلك كان على نفقة الجناب العالى الكبير الشيخ على بن محمد بن عبد الكريم الجيلانى نزيل مكة .

وفى سنة ٩٣٣ هـ . عمل لدائر بيت زمزم طراز مذهب وكتب فيه اسم مولانا السلطان الملك المظفر سليمان نخبة آل عثمان .

وفى سـنة ٩٤٨ هـ . جدّد بيت زمزم على يد الأمير خشقلدى فرخمت أرضه وجعل عليـه سقف فوقه مظلة مسقوفة بالخشب المزخرف عليه جمـلى (جمالون) فى وسطه قبة مصفحة بالرصاص .

وفى سنة ١٠٢٠ هـ . وضع بأمر السلطان أحمد خان شبكة من الحديد بداخل البئر ومنخفضة عن سطح المـاء بمتر ، لأن بعضا من المجاذيب كانوا يلقون أنفسهم فيها ليموتوا فداء حسب تصوّرهم وتجد الآن — ١٣١٨ هـ . — مكتوبا على الشباك الشمالى من جهة الباب « ماء زمزم شفاء من كل داء »(١) « آية مابيننا وبين المنافقين أنهم لا يتضلعون من زمزم »(٢) السلطان عبد الحميد خان سنة ١٢٠١ هـ . وتجد مكتوبا على بابها ما يأتى :

سرور لسلطان البسيطة والورا * عبد الحميد البر بحـــر المكارم
ونصر له أيضا وفتح ورفعـة * بتعمير هـــذا المأثر المتقادم
حفيرة ابراهيم يوم ابن هاجر * وركضة جبريل على عهد آدم

وعلى الشباك القبلى « ماء زمزم لمـا شرب له(٣) . لا يجمع ماء زمزم ونار جهنم فى جوف عبد »(٤) (السلطان عبد الحميد خان سنة ١٢٠١ هـ) .

وقد ورد كثير من الأحاديث فى فضـل ماء زمزم ، فمن ذلك ما رواه الطبرانى فى معجمه بسـند رجاله ثقات . وفى صحيح ابن حبان من حديث ابن عباس رضى الله عنهما عن النبيّ صلى الله عليه وسلم «خير ماء على وجه الأرض ماء زمزم» وذكر البخارى فى صحيحه : أنه لمـا شق صدر النبيّ صلى الله عليه وسلم غسل بمـاء زمزم

(١) رواه الديلمى فى مسند الفردوس وهو حديث ضعيف . (٢) رواه الحاكم وابن ماجه والبخارى فى تاريخه . (٣) رواه أحمد فى مسنده والبيهقى فى سننه وشعبة وابن أبى شيبة عن جابر بن عبد الله بن عمرو . (٤) لم نر من خرج هذا الحديث .

قال العلامة ابن القيم فى كتابه زاد المعاد فى باب الطب : ماء زمزم سيد المياه وأشرفها وأجلها قدرا وأحبها الى النفوس وأغلاها ثمنا عند الناس ، وهو هزمة جبريل وسقيا اسماعيل وثبت فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لأبى ذر : وقد أقام بين الكعبة وأستارها أربعين مابين يوم وليلة وليس له طعام غيره فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم « إنها طعام طعم » وزاد غير مسلم باسناده وشفاء سقم وفى سنن ابن ماجه من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « ماء زمزم لما شرب له » وقد ضعف هذا الحديث طائفة بعبد الله بن المؤمل راويه عن محمد بن المنكدر ، وقد روينا عن عبد الله بن المبارك أنه لما حج أتى زمزم فقال : اللهم إن ابن أبى الموالى حدّثنا عن محمد بن المنكدر عن جابر رضى الله عنه عن نبيك صلى الله عليه وسلم أنه قال « ماء زمزم لما شرب له » فإنى أشربه لظمأ يوم القيامة وابن أبى الموالى ثقة ، فالحديث اذا حسن وقد صححه بعضهم وجعله بعضهم موضوعا ، وكلا القولين فيه مجازفة ، وقد جربت أنا وغيرى من الاستشفاء بماء زمزم أمورا عجيبة واستشفيت به من عدّة أمراض فبرأت باذن الله وشاهدت من يتغذى به الأيام ذوات العدد قريبا من نصف الشهر أو أكثر ولا يجد جوعا ويطوف مع الناس كأحدهم ، وأخبرنى أنه ربما بقى عليه أربعين يوما وكان له قوة يجامع بها أهله ويصوم ويطوف مرارا ، انتهى كلامه فليس فى الاستشفاء به مطعن لا من جهة الحديث ولا من جهة الطب وما الطب إلا التجارب ، وقد جرت عادة الناس بنقل هذا الماء الى الجهات النائية تبركا به ، قال التقى الفاسى : والأصل فى جواز نقله ما رويناه فى جامع الترمذى عن عائشة رضى الله عنها أنها حملت من ماء زمزم فى القوارير ، وقالت : حمل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الأداوى والقرب وكان يصب على المرضى ويسقيهم ، ورويناه فى شعب الايمان للبيهقى وفى سننه وقال : قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه .

والحجاج فى زمننا يستحضرون معهم المنسوجات البيضاء ويغسلونها بماء زمزم ويجففونها فى صحن المسجد (الرسم ٩٩) ثم يلفونها ويحفظونها ليكفنوا فيها بعد الوفاة ويأخذون الآن مياهها الى بلادهم فى أوانى صينية (دوارق) أو صفائح كبيرة ليتبركوا بها أو يهادوا، وإن حديث عائشة مع ما فيه من الغرابة ليس فيه ما يدل على جواز نقل هذه المياه للتبرك بها بل فيه أن هذا النقل للشرب منه أو مداواة المرضى به أى باستعماله شرابا أو صبا لا بحفظه فى البيوت والتماس البركة والخير به من هذه الناحية .

سقاية العباس — سقاية العباس حجرة كبيرة شرقى الكعبة وجنوبى زمزم ذات نوافذ وسقفها جملى (جمالونى) بارز عن جدرها ليستظل به الناس وقد وصفها الفاسى فى وقته فقال : إنها بيت مربع فى أعلاه قبة كبيرة وفى جهاتها الأربع عدا الجنوبى منها شبابيك من حديد ، وفى جانبها الشمالى من الخارج حوضان بينهما الباب وفى وسط البيت بركة كبيرة تملأ بالماء من زمزم بواسطة قناة سماوية من زمزم الى جدر البيت ثم يسلك قناة أرضية الى البركة فيخرج منها الماء على شكل فوارة وقال : إنها عمرت فى سنة ٨٠٧ هـ . وقد كان العباس بن عبد المطلب يسقى فيها الحجيج، وقد ذكر الفاسى : أن مقدار ما بين هذه السقاية والحجر الأسود ثمانون ذراعا بالذراع الحديد = ٥٦ $\frac{١}{٧}$ سنتيا — أنظر (الرسم ٩٢) .

متفرقات فى المسجد الحرام :

(١) المماشى الأربعة — قال العلامة الشيخ عبد الرحمن فى بعض مسوداته : وأما المماشى الأربعة التى إحداها الى باب السلام، والأخرى الى باب الصفا، والثالثة الى باب العمرة، والرابعة الى باب الحزورة فقد أحدثت بعد أن فرش المطاف بالمرمر سنة ١٠٠٣ هـ .

(٢) المزاول بالمسجد — قال ابن ظهيرة : وفى الظلة التى فوق بيت زمزم مزولة يعلم بها الماضى والباقى من النهار، وفى سادس ذى الحجة سنة ١٠٧٩ هـ .

وضع الشيخ محمد بن سليمان المغربى مزولة تجاه باب السلام بنى لها بترة طول قامة الرجل ويرى الانسان رسومها حيال الركن الشرقى على ممشى باب السلام وكان موضعها فيما سلف مزولة عملها الوزير الأصفهانى الملقب بالجواد .

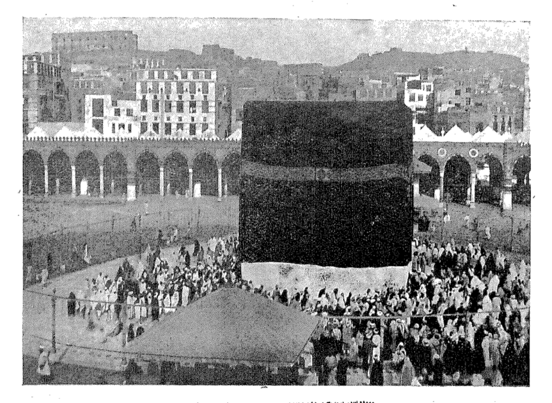
(٣) قناديل المسجد — فى الجهة الشرقية ١٦٧ ، وفى الغربية ١٤٧ ، وفى الشمالية ٣٣٠ ، وفى القبلية ١٨٧ ، وبين أعمدة المطاف ٢٥٧ ؛ فالجملة ١٠٨٨ عدا ما فى زيادتى دار الندوة وابراهيم وهذا حسب تعدادى لها بسنة ١٣٢٠ ﻫ .

(٤) موظفو المسجد الحرام — له شيخ هو الوالى عادة ونائب ووكيل للنائب ومدير يقوم بشؤونه وفيه من الموظفين ما يقارب سبعمائة : منهم ١٠٧ مدرّس يتقاضى ٤٤ منهم مرتبا يتراوح بين ٥٠٠ و ١٠٠ قرش والباقون متبرعون بالتدريس ؛ ومنهم ٧٩ إماما وخطيبا للحنفية المتبرعون منهم ٣٤ ، ويتقاضى ٤٥ منهم مرتبا . وللشافعية ٢٤ إماما وخطيبا المتبرعون منهم ١٦ والباقون بمرتب وأئمة ، وخطباء المالكية ١٤ المتبرعون منهم ثمانية : وللحنبلية ٥ المتبرعون اثنان منهم ، والامام أو الخطيب يتقاضى مرتبا يختلف بين ٤٠ و ١٠٠ و ٢٠٠ قرش ، ومنهم ٥٢ خصيا (أغا) من بينهم رئيس ونقيب لهم ، ومن ذلك ٤١ مؤذنا و ٨ وقّادين و ١٢ فراشا و ١٠ محافظين على النظام (مشدين) و ٢٠ كناسا و ٣٠ بوابا و ١١ جبادا (ملاء للماء) و ١٨١ غسالا لقناديل المسجد و ١٨ خادما خدمة سائرة ومن ضمنهم ٢٠ لهم مرتبات قديمة ، و ١٥ موظفا فى سقاية زمزم الخ ، أما الذين يقومون بخدمة الكعبة فسدنتها من باب بنى شيبة . والخدمة فى المسجد الحرام وراثية فى الأكثر .

وأول من رتب الأغوات فى المسجد أبو جعفر المنصور وهم يقومون بأعمال مختلفة وخدمة المسجد الحرام مهنة من أشرف المهن يتباهى بها الخلفاء والسلاطين من قديم ، ومن ضمن الرتب فى الدولة العلية رتبة « خادم الحرمين الشريفين » .

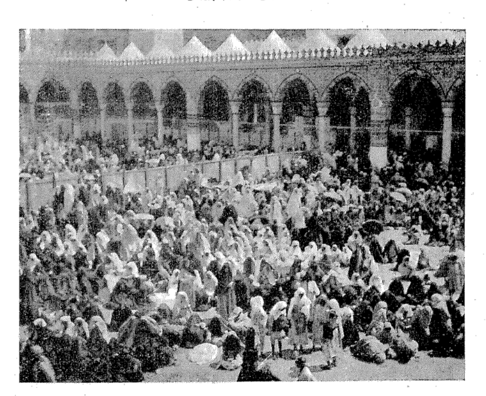
قال صديقنا محمد لبيب بك البتانونى ويدرّس بالمسجد الحرام بعض العلوم العربية والتفسير على الطريقة القديمة العقيمة ويقدر عدد الطلبة ببضع مئات جلهم

الكعبة بالإزار الأبيض من الجهة الغربية



100. The Western view of El Kaaba.

قفص النساء بالحرم المكي



101. The women's enclosure in the Mecca Mosque.

من الجاوه الذين يفرون الى هذه البلاد من المظالم التى تتساقط على رءوسهم من حكومة بلادهم، ويشتغلون وقت الدرس بالدراسة وفى وقت الفضاء يعملون عملا يرتزقون منه .

(٥) أعمدة المطاف — فى سنة ٢٣٢ هـ . أمر الواثق بالله بعمد عشرة جعلت على المطاف، وكانت من الخشب طويلة وأمر بثمان ثريات وضعت عليها ليستصبح بها الطائفون، وكانت مقسمة على جهات الكعبة الأربع فى كل جهة ثنتان، ثم زيد فى الأعمدة فبلغت اثنين وثلاثين من الخشب، ثم أبدلت بأعمدة من الحجر والآجر فكان منها ثمانية عشر من الآجر المجصص وأربعة عشر من الحجارة المنحوتة، ووصل بينها بعوارض من الخشب تعلق فيها القناديل، ثم حصل فيها تغيير حتى كانت أخيرا من النحاس وصل بينها بعوارض الحديد، علق فى كل عارضة ٧ قناديل ، والعمود يمثل مدفعين جبليين فم أحدهما على فم الآخر، وعدد هذه الأعمدة ثمان وثلاثون انظر (أعمدة المطاف فى الرسم ١٠٠) .

مصلى النساء بالمسجد الحرام — كان النساء يصلين فى المسجد مع الرجال يقف الرجال فى المقدمة والنساء بعد الصبيان فى المؤخرة كما هى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يكن هناك فاصل بين النوعين وفى الطواف يختلطن بالرجال ولما بلغ خالد بن عبد الله قول الشاعر :

يا حبذا الموسم من موفد * وحبذا الكعبة من مشهد
وحبذا اللاتى يزاحمننا * عند استلام الحجر الأسود

فقال خالد : اما إنهنّ لايزاحمنك بعد هذا، وأجلس عند كل ركن حرسا بأيديهم السياط يمنعون النساء أن تختلط بالرجال ، ومثل هذا ما حكاه الزمخشرى فى خالد قال : لما بلغ خالدا ما قاله رجل من موالى الأنصار :

ليتنى فى المؤذنين نهارى * إنهم يبصرون ما فى السطوح
فيشيرون أو يشير اليهم * بالهوى كل ذات دل مليح

فأمر بهدم المنائر، فقال فيه الفرزدق :

ألا قبح الرحمن ظهر مطية * أتت تتهادى من دمشق بخالد
وكيف يؤم الناس من أمه * تدين بأن الله ليس بواحد
بنى بيعة فيها الصليب لأمه * ويهدم من كفر منار المساجد

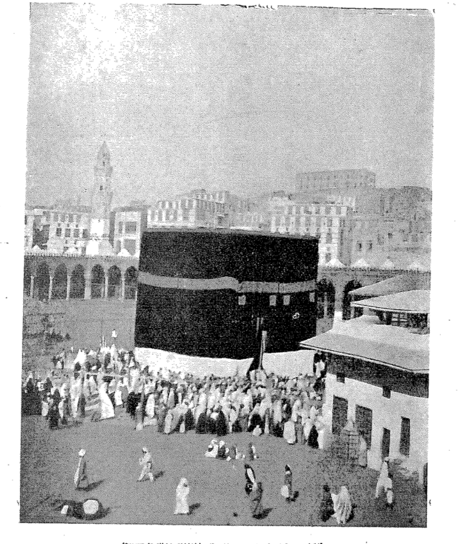
أما أول من وضع حاجزا بين مصلى الرجال والنساء فعلى بن الحسين الهاشمى أمر بحبال ربطت فى الأساطين التى يجلس عندها النساء ففصلت بينهن وبين الرجال ، وفى سنة ١٣٢٠ هـ . رأيت داخل المسجد الحرام حظيرة للنساء يفصلها عن باقى المسجد خشب « شيش » على ارتفاع مترين وترى فى الرسم (١٠١) النساء داخل هذه الحظيرة قائمات وجالسات وراكعات وساجدات ، وقد رفع الفاصل عون الرفيق باشا أمير مكة فلم أجده فى حجتى سنة ١٣٢٥ هـ .

الكعبة المشرفة

أسماء الكعبة — وصفها ومقاسها — بناء الكعبة وعمارتها — تحليتها — معاليقها وما اهدى اليها — كسوتها — كشف باجزاء الكسوة — نفقات الكسوة — سدانة الكعبة ومفتاحها — تطييب الكعبة — صلاة النبى صلى الله عليه وسلم فيها — الحجر الأسود — الحطيم والحِجْر — الحج فى الجاهلية وما يتبعه — إنساء الشهور .

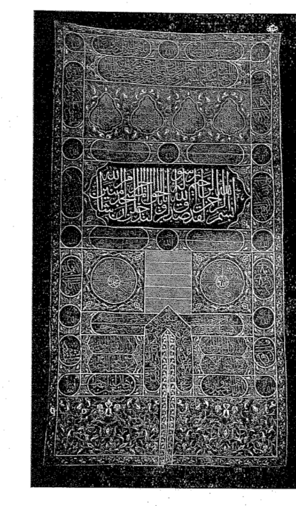
أسماء الكعبة — لها أسماء كثيرة منها الكعبة سميت بذلك لتكعيبها أى تدويرها ، وقال القاضى عياض : سميت بذلك لتكعيبها أى تربيعها وكل بناء مرتفع مربع كعبة ، ومنها البيت العتيق : لأن الله أعتقه من الجبابرة فلم ينله جبار قط ، ومنها المسجد الحرام لقوله تعالى ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ والمراد به الكعبة بلا خلاف وورد إطلاق المسجد الحرام على غير الكعبة ، ومنها البنية وقد كثر قسم العرب برب هذه البنية ، ومن أسمائها نادر والقرية القديمة وقادس والدُّوَّار .

الكعبة المشرفة من جهة الجنوب والشرق وبه بابها



102. The Southern & Eastern sides of the Kaaba with door

منظر ستارة الكعبة



103. A view of the Curtain of the door of El Kaaba

وصف الكعبة الآن ومقاسها — فى وسط المسجد الحرام بناء فخم يمثل حجرة كبيرة مرتفعة البناء مربعة الشكل تقريبا ، هى المعروفة بالكعبة أو بالبيت الحرام انظر شكل الكعبة فى (الرسم ١٠٢) والواجهتان الظاهرتان الواجهة الشرقية والواجهة الجنوبية وترى به الكسوة وحزامها المقصب وإزارها الأبيض وستارة الباب مطوية والحجاج متزاحمون لتقبيل الحجر الأسود (الرسم ٥٩) والذى على يمين الكعبة سقاية الحاج وزمزم ، وفى جدار الكعبة الشرقى ميل الى الشمال بنحو ٢٠ درجة ، وكذلك يميل جدارها الشمالى الى الشرق ٢٠ درجة أيضا ، وارتفاعها ١٥ مترا ، وطول ضلعها الشمالية ٩,٩٢ أمتار ، والغربية ١٢,١٥ مترا ، والجنوبية ١٠,٢٥ أمتار ، والشرقية ١١,٨٨ مترا ، وفى الضلع الشرقى بابها ويرتفع عن الأرض بنحو مترين ، وارتفاعه هو متران وعتبته مصفحة بصفائح الفضة ، وكذلك مصراعا الباب إلا أن صفائحه الفضية مطلية بالذهب ، وكذلك قفل الباب وذلك من مدة خلافة السلطان سليمان القانونى سنة ٩٥٩ هـ . وعلى الباب ستارة مزركشة آية فى الجمال وهى من ضمن الكسوة التى تأتى الى الكعبة من مصر انظر (الرسم ١٠٣) ويصعد الى الباب على مدرّج من خشب مصفح بالفضة ، ويلاصق جدر الكعبة من أسفلها بناء من الرخام يسمى بالشاذروان أقيم تقوية للجدران ، وهو يحيط بها من جهاتها الأربع ، وارتفاعه فى الجهة الشمالية ٥٠ سنتيا فى عرض ٣٩ ، ومن الجهة الغربية ارتفاعه ٢٧ فى عرض ٨٠ ، ومن الجهة الجنوبية ارتفاعه ٢٤ فى عرض ٨٧ ، ومن الجهة الشرقية ارتفاعه ٢٢ فى عرض ٦٦ ؛ كما حققته بالمقاس فى حجاتى الأربع قال أبو حامد الاسفراينى وابن الصلاح والنووى وغيرهم : أصل الشاذروان ما نقصته قريش من عرض جدر أساس الكعبة حين ظهر على الأرض كما هو عادة الناس فى الأبنية ، وهو عند الشافعية والمالكية من البيت فالمطاف بعده ، وليس من البيت عند الحنفية ومذهب الحنبلية أن الاحتراز عنه مطلوب إلا أن ترك الاحتراز لا يفسد الطواف ، ولا يعلم متى بدئ البناء على أصل الشاذروان ، وقد جدّد البناء عليه مرات فبنى فى سنة ٥٤٢ هـ .

وفى سنة ٦٣٦ و ٦٦٠ و ٦٧٠ و ١٠١٠ هـ . وبين ذلك وقبله وبعده .

وفى الركن الجنوبى الشرقى للكعبة من الخارج الحجر الأسود (الرسم ١١٨) الذى هو مبدأ الطواف ، ويرتفع عن الأرض مترا ونصفا والحجر أسود اللون ذو تجويف أشبه بطاس الشرب وقد حدث فيه الآن تشقق وعمل له فى سنة ١٢٩٠ هـ . غطاء من الفضـة ، فى وسطه فتحة مستديرة قطرها ٢٧ سنتيمترا أعنى شـبرا وثلثا ، يرى منها الحجر ويستلم .

ويواجه ركن الحجر من البلاد الجزء الجنوبى من بلاد الحجاز الى عدن وهرر ومدغشقر وأستراليا وجنوب الهند والصين .

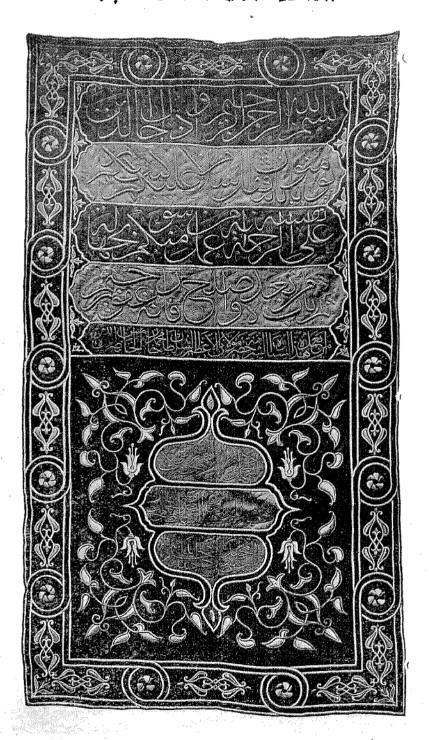
وركن الكعبة الشمالى الشرقى يسمى بالركن الشامى والعراقى ويواجهه من البلاد الجزء الأكبر من بلاد الحجاز والعجم وتركستان والعراق وشمال الهند والسند والصين وسيبريا .

وركن الكعبة الشمالى الغربى ويسمى بالركن الغربى يسامته من الجهات غرب الروسيا وجميع أوروبا والأستانة وبلاد المغرب ومصر الى الشلال .

وركن الكعبة الغربى الجنوبى ويسمى بالركن اليمـانى يسامته من البلاد الجزء الجنوبى من أفريقيا من سواكن على البحر الأحمـر والرأس الأخضر على المحيط الأطلسى الى رأس الرجاء الصالح ، فكل جهة تستقبل ركنها : ﴿ومن حيث خرجت فول وجهك شطر ٱلمسجد ٱلحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره﴾ .

والكعبة مبنية من الحجـارة الصماء ذات الحجم الكبير واللون الأزرق ، وبداخل البيت ثلاثة أعمدة من خشب العود المـاوردى الجيد ، قطر الواحد منها ربع المتر وهى على صف واحد من الشمال الى الجنوب وعلى يمين الداخل للكعبة فى زاوية الركن الشمالى الشرقى باب يصعد منـه على مدرّج الى أعلى الكعبة يقال له : باب التوبة مسدولة عليـه ستارة من الحرير المزركش . أنظر (الرسم ١٠٤) وسقفـه الكعبة منقوش بالنقوش العربيـة البديعة ومعلق به هدايا ثمينة أهداها اليها الملوك

منظر ستارة باب التوبة داخل الكعبة



104. The curtain to the door of El Tawba (repentance) inside the Kaaba.

فى الأعصر المختلفة . وفى سنة ١٢٩٥ هـ . فرش السطح بألواح المرمر وبدائره من الجهات الأربع حلقات تربط بها الكسوة الخارجية حتى تكون مسدولة على الجدر، كما أنه يوجد فى الشاذروان حلقات تربط بها من الأسفل وهى مصنوعة من النحاس الأصفر، وقد عددت ما بالشاذروان من هذه الحلقات فاذا بها ١٤ فى الجهة الغربية و١٢ فى الجنوبية و١٤ فى البحرية و٨ فى الشرقية وفى الغالب مثل ذلك فى الأعلى.

وكسوة الكعبة من حرير أسود من نسيج مصر مكتوب فيها «الله جل جلاله لا إله إلا الله محمد رسول الله» فى كل جزء من أجزائها أنظر (الرسم ١١٢) . وهى تتغير كل سنة وتأتى من مصر وتوضع على الكعبة مع ستر مقام ابراهيم فى يوم ١٠ ذى الحجة والناس بمنى، وفى ٢٧ دى القعدة من كل سنة يوضع على هذه الكسوة إزار من القماش الأبيض بعرض مترين يدور بها من أسفلها أنظر (الرسم ١٠٢). وذلك علامة على إحرامها كما يزعمون والحقيقة أن الشيبى أمين مفتاح الكعبة يقطع من كسوة الكعبة نحو المترين من أسفلها ويضع بدل ذلك الإزار ويبيع الجزء المقطوع للحجاج الذين يفدون الى مكة قبل يوم عرفة وبعده، ويزعم بعض الناس أن ذلك الازار الأبيض يوضع وقاية للكسوة من أيدى من يريد العبث بها أو اقتطاع جزء منها ليتبرك به، والجدران من الداخل مكسوة بالأطلس الأحمر على شكل مثلثات كتب عليها ــ الله جل جلاله ــ وبعض آيات قرآنية هدية من السلطان العثمانى، وبالجدران تحت الستار تواريخ وكتابات فيها أسماء من عمر أو جدّد شيئاً فى الكعبة أو المسجد، من ذلك فى الجهة الشمالية الأبيات الآتية :

قد بدا التعمير فى بيت الاله * قبلة الاسلام والبيت الحرام
أم خاقان الورى مصطفى خان * دام بالنصر العزيز المستدام
بادرت صدقا الى التعمير ذا * إنما كان بالهام السلام
وارتجت من فضله سبحانه * أن يجازيها به يوم القيام
قال تاريخا له قاضى البلد * فعمرته أم سلطان الأنام

أحمد بك شيخ الحرم المكى سنة ١١٠٩ هـ

ومما كتب فى الجهة الغربية : بسم الله الرحمن الرحيم (أمر بعمارة البيت المعظم الامام الأعظم أبو جعفر المنصور المستنصر بالله (هكذا) أمير المؤمنين بلغه الله أقصى آماله وتقبل منه صالح أعماله فى شهور سنة ٦٢٦ هـ . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم) وفيها تاريخ للأشرف قايتباى كتب سنة ٨٨٤ هـ . وفيها أيضا كتب (أمر بتجديد هذا البيت المعظم العبد المفتقر الى رحمة ربه يوسف بن عمر بن على بن رسول . اللهم أيده بعزيز نصرك واغفر له ذنوبه برحمتك يا كريم يا غفار سنة ٦٨٠هـ وفى جدران الكعبة من الداخل أيضا الكتابات الآتية : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾ أمر بتجديد هذا البيت المعظم العتيق الى الله سبحانه وتعالى خادم الحرمين المحترمين السلطان بن السلطان مراد خان بن السلطان أحمد خان بن السلطان محمد خان خلد الله تعالى ملكه وأيد سلطنته فى آخر شهر رمضان المبارك المعظم سنة ١٠٤٠ هـ . من الهجرة النبوية (على صاحبها أفضل التحية) بسم الله الرحمن الرحيم (أمر بتجديد سقف البيت الشريف وجميع داخل الحرم وخارجه مولانا السلطان ابن السلطان محمد خان سنة ١٠٧٠ هـ) . « وتاريخ للسلطان الأشرفى أبى النصر برسباى خادم الحرمين الشريفين بلغه الله آماله سنة ٨٢٦ هـ » .

وفى شمالى الكعبة الحطيم — وهو ما حطم من الكعبة وكسر — وهو بناء مستدير على شكل نصف دائرة ارتفاعه ١,٣١ متر، وعرض جداره من الأعلى ١,٥٢ متر، ومن أسفل ١,٤٤ متر؛ وهذا البناء مغلف بالرخام وأحد طرفيه محاذ للركن الشامى والآخر محاذ للركن الغربى وسعة الفتحة التى بين طرفه الشرقى وآخر الشاذروان ٢,٣٠ متر، وسعة الفتحة الأخرى التى بين طرفه الغربى ونهاية الشاذروان ٢,٢٣ متران، والمسافة التى بين طرفى نصف الدائرة ثمانية أمتار، ووراء الحطيم بمسافة اثنى عشر مترا المطاف . والأرض التى بين جدار الكعبة الشمالى وبين الحطيم هى المعروفة بالحجر، ويدخل اليها من الفتحتين السالفتين وهى مفروشة بالرخام والمسافة من منتصف جدار الكعبة الشمالى ووسط تجويف الحطيم من الداخل ٨,٤٤ أمتار .

وفى أعلى الجدار الشمالى فى منتصفه الميزاب الذى وضع لتصريف ماء المطر الذى ينزل على سطح الكعبة ، وهو من الذهب أرسله السلطان عبد المجيد سنة ١٢٧٠ هـ . انظر (فى الرسم ١٠٥) ما كتب فيه .

وما بين الحجر الأسود وباب الكعبة يسمى بالملتزم ، لكون الحاج يلتزم هذا المكان للدعاء فيه وكان صلى الله عليه وسلم يدعو فيه .

وعلى مقربة من الشاذروان بين باب الكعبة والركن العراقى حفرة تسمى المعجنة يقال إن ابراهيم عليه السلام كان يعجن فيها ملاط البناء ، وعمقها ٣٠ سنتيا ، وعرضها متر ونصف تقريبا فى طول مترين ويقال : إن جبريل عليه السلام صلى بالنبى صلى الله عليه وسلم الصلوات الخمس فى هذا المكان حين فرضها الله على أمته ، وبهذا المكان نقش على حجر : لأبى جعفر المنصور المستنصر بالله أمير المؤمنين بلغه الله تعالى آماله وزين بالصالحات أعماله وذلك فى شهور اثنتين وثلاثين وستمائة ٦٣٢هـ . وصلى الله على سيدنا محمد .

وقد صليت بالمعجنة ركعتين جلست بعدهما فرأيت بالشاذروان تجاه المعجنة لوح رخام نقش فيه هذه الكتابة بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين ﴾ أمر بعمارة سقف البيت الشريف وتجديد ميزاب الرحمة وتقوية جدار بيت الله الحرام تجديدا بحرمه ، وطرقه من ذهب وفضة وجلبار بخبر القرآن العظيم أسس بنيانه على تقوى من الله العبد المفتقر الى رحمة ربه ملك البرين والبحرين سلطان الروم والعراق خادم الحرمين الشريفين السلطان أحمد خان خلد الله ملكه الى آخر الزمان رسم فى محرم سنة ١٠٣١ هـ .

وأمام الجدار الشرقى مقام ابراهيم عليه السلام ، وشمالى المقام بقليل المنبر الرخام وجنوبيه بقليل بئر زمزم وفى شرقى المقام يصلى إمام الشافعية الصلوات الخمس وقد قدمنا لك ذلك بالتفصيل .

اما المطاف فانه يحيط بالكعبة كما قدمنا وقد قست المسافة بينه وبين جدر الكعبة الأربعة فاذا هى ١٣٫٢٥ مترا من الجهة الشرقية و ٢٠٫٤٤ مترا من الجهة الشمالية و ١٦٫١٥ مترا من الجهة الغربية و ١٤٫٧٥ مترا من الجهة الجنوبية .

بناء الكعبة وعمارتها — قال تعالى ﴿ إن أوّل بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا ولله على الناس حج البيت من ٱستطاع إليه سبيلا ومن كفر فان ٱلله غنى عن العالمين ﴾ . قال شيخ المفسرين ابن جرير الطبرى فى تفسير قوله ﴿ إن أوّل بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين ﴾ . اختلف أهل التأويل فى تفسير، ذلك فقال بعضهم . تأويله : إن أوّل بيت وضع للناس يعبد الله فيه مباركا وهدى للعالمين للذى ببكة ، قالوا وليس هو أوّل بيت وضع فى الأرض لأنه قد كان قبله بيوت كثيرة ، وقال آخرون : بل هو أوّل بيت وضع للناس ، ثم قال : والصواب من القول فى ذلك ما قال جل ثناؤه فيه ﴿ إن أوّل بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى ﴾ . ومعنى ذلك إن أوّل بيت وضع للناس أى لعبادة الله فيه مباركا وهدى يعنى بذلك ومآبا لنسك الناسكين وطواف الطائفين تعظيما لله وإجلالا له للذى ببكة لصحة الخبر بذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك ما حدّثنا به محمد بن المثنى قال : حدّثنا ابن أبى عدى عن شعبة عن سليمان عن ابراهيم التيمى عن أبيه عن أبى ذرّ قال : قلت يا رسول الله أى مسجد وضع أوّل؟ قال : « المسجد الحرام » قال ثم أى؟ قال : « المسجد الأقصى » قال كم بينهما؟ قال : « أربعون سنة » . فقد بين هذا الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن المسجد الحرام هو أوّل مسجد وضعه الله فى الأرض على ما قلنا .

قال التقى الفاسى فى كتابه شفاء الغرام ما ملخصه : لا شك أن الكعبة المعظمة بنيت عدّة مرات ، وٱختلف فى عدد البنايات ويتحصل من مجموع ما قيل فى ذلك أنها بنيت عشر مرات بناء الملائكة وبناء آدم وبناء أولاده وبناء الخليل وبناء العمالقة وبناء جرهم وبناء قصى بن كلاب وبناء قريش وبناء عبد الله بن الزبير وبناء

الحجاج ابن يوسف الثقفى، وإطلاق العبارة بأنه بنى تجوز لأنه لم يبن إلا جزءا منها على ما يأتى بيانه ، ثم بين أن بنايات الملائكة وآدم وأولاده لم يأت بها خبر ثابت ، وأما بناء الخليل فجاء به القرآن والسنة قال تعالى : ﴿ واذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربناتقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾ الآيات . وروى الفاكهى عن على رضى الله عنه : أن ابراهيم أوّل من بنى البيت وجزم به الشيخ عماد الدين ابن كثير فى تفسيره وقال : لم يجىء خبر عن معصوم أن البيت كان مبنيا قبل الخليل . وذكر الأزرقى عن ابن اسحاق ذرع بناية ابراهيم قال : كان طول البيت فى السماء تسعة أذرع وجداره الشرقى ٣٢ ذراعا وجداره الشمالى ٢٢ ذراعا وجداره الغربى ٣١ ذراعا والجنوبى ٢٠ ذراعا، وكان بابه بالأرض، وكان إبراهيم يبنى وإسماعيل ينقل له الحجارة على كتفه . أما بناء العمالقة وجرهم فرواه الأزرقى عن على بن أبى طالب . وذكر المسعودى : أن الذى بناها من جرهم الحارث بن مضاض الأصغر، وبناها بعد العمالقة قصى بن كلاب وقد سقفها بخشب الدوم الجيد وبجريد النخل . قال الحلبى : والحق أن الكعبة لم تبن جميعا إلا ثلاث مرات : الأولى بناء ابراهيم عليه السلام، والثانية بناء قريش وكان بينهما ١٦٧٥ سنة والثالثة بناء عبد الله بن الزبير وكان بينهما ٨٢ سنة ؛ وأما بناء الملائكة وآدم وشيث فلم يصح ؛ وأما بناء جرهم والعمالقة وقصى فانما كان ترميما . اهـ .

وأما بناء قريش للكعبة فهو ثابت بالسنة الصحيحة عن النبى صلى الله عليه وسلم وحضره صلى الله عليه وسلم وهو ابن خمس وثلاثين سنة كما جزم به ابن اسحاق وغير واحد من العلماء، وقيل : ابن خمس وعشرين سنة كما جزم به موسى بن عقبة فى مغازيه وابن جماعة فى منسكه ، وكان من خبر هذا البناء أن الكعبة احترقت ستورها وأكثر أخشابها فأوهن ذلك من بنيانها، وتلا ذلك سيل أوهى البناء وصدع الجدران فأجمعت قريش أمرها على تجديدها ورفع بابها حتى لا يدخلها إلا قرشى ، فقدر الله أن رمى البحر بسفينة الى ساحل جدّة كانت لتاجر رومى يدعى « باقوم » ، فخرج الوليد ابن المغيرة يبتاع الخشب فاذا بباقوم وسفينته فأخبره بما اعتزموه ، فأنبأه

باقوم بأنه بناء نجار فاستصحبه الوليد معه ليقوم بالبناء، ولما أرادوا الهدم تقدّم عائذ ابن عمران فاقتلع حجرا ففرّ من يده الى مكانه فقال يا معشر قريش : لا تدخلوا فى بنائها من كسبكم إلا طيبا ، لا يدخل فيه مهر بغى ولا بيع ربا ولا مظلمة أحد من الناس ثم أن القوم هابوا هدمها وفَرِقُوا منه، فقال الوليد بن المغيرة : أنا أبدؤكم فى هدمها فأخذ المعول وقام عليها وهو يقول « اللهم لم ترع » ويقال : لم نزغ اللهم لا نريد إلا الخير ثم هدم وتبعه الناس حتى انتهوا الى أساس ابراهيم فوجدوا حجارة خضراء كالأسنة، وفى نسخة كالأسنمة فأقاموا بناءهم الحديد عليها، وكان صلى الله عليه وسلم ينقل معهم الحجارة روى ذلك البخارى فى صحيحه عن جابر بن عبد الله قال : لما بنيت الكعبة ذهب النبي صلى الله عليه وسلم وعباس ينقلان الحجارة، فقال عباس للنبي صلى الله عليه وسلم :اجعل إزارك على رقبتك يقيك من الحجارة فخر الى الأرض وطمحت عيناه الى السماء ثم أفاق فقال : إزارى إزارى فشدّ عليه إزاره . اه .

قال ابن اسحاق : ثم أن القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها كل قبيلة تجمع على حدة ثم بنوها حتى بلغ البنيان موضع الركن فاختصموا فيه كل قبيلة تريد أن ترفعه الى موضعه دون الأخرى حتى تحاوروا وتحالفوا وأعدوا للقتال، فضربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دما ثم تعاقدوا هم وبنو عدى بن كعب بن لؤى على الموت وأدخلوا أيديهم فى ذلك الدم فى تلك الجفنة فسموا « لعقة الدم » فمكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمسا ثم أنهم اجتمعوا فى المسجد وتشاوروا وتناصفوا، فزعم بعض أهل الرواية أن أبا أمية ابن المغيرة بن عبد الله وكان عامئذ أسن قريش كلها فقال يا معشر قريش : اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه هو أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضى بينكم فيه ففعلوا، فكان أوّل داخل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما رأوه قالوا : هذا الأمين رضينا هذا محمد ، فلما انتهى اليهم وأخبروه الخبر قال صلى الله عليه وسلم : هلم الى ثوبا فأتى به، فأخذ الركن فوضعه فيه بيده، ثم قال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعا، ففعلوا حتى اذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده ثم بنى عليه وفى ذلك يقول هبيرة بن وهب :

تشاجرت الأحياء فى عضل[1] حطه * جرت طيرهم بالنحس من بعد أسعد
تلاقوا بها البغضاء بعد مودّة * وأوقد نارا بينهم شر موقد
فلما رأينا الأمر قد جدّ جدّه * ولم يبق شىء غير سل المهند
رضينا وقلنا العدل أوّل طالع * يجىء من البطحاء من غير موعد
فقد جاءنا هذا الأمين محمد * فقلنا رضينا بالأمين محمد
بخير قريش كلها أمس شيمة * وفى اليوم مهما يحدث الله فى غد
فجاء بأمر لم ير الناس مثله * أعمّ وأرضى فى العواقب واليد
أخذنا بأطراف الرداء وكلنا * له حقه من رفعه قبضة اليد
وقال ارفعوا حتى اذا ما علت به * أكفهم وافى به خير مسند
وكل رضينا فعله وصنيعه * فأعظم به من رأى هادو مهتد
وتلك يد منه علينا عظيمة * نروح بها مدى الزمان ونغتدى

وما زالوا يبنون حتى أتموا بناءها وكان ارتفاعه من الخارج ثمانية عشر ذراعا بزيادة تسعة أذرع على ارتفاعها فى بناء الخليل، واقتصوا من عرضها أذرعا جعلوها فى الحجر لقصر النفقة الحلال التى أعدوها لعمارتها عن ادخال ذلك، ورفعوا بابها ليدخلوا من شاءوا ويمنعوا من شاءوا، وكبسوها بالحجارة وجعلوا فى داخلها ٦ دعائم فى صفين فى كل صف ثلاث من الشمال الى الجنوب، وجعلوا فى ركنها العراقى من الداخل سلما يصعد عليه الى سطحها الذى جعلوا فيه ميزابا يصب فى الحجر.

وأما بناء ابن الزبير للكعبة فانه ثابت مشهور وسبب ذلك وهن فى الكعبة من حجارة المنجنيق التى أصابتها حين حوصر ابن الزبير بمكة فى أوائل سنة ٦٤ ه. لمعاندته يزيد بن معاوية ومن الحريق الذى أصابها من نار أوقدها نفر من أصحاب ابن الزبير فى خيمة له، فطارت الرياح بلهب تلك النار الى الكعبة فأحرقت كسوتها وما فيها من خشب الساج، فوهت جدرها وانقض بنيانها من عل وكانت حجارتها تتناثر اذا ما وقع عليها الحمام، فلما فك الحصار عن ابن الزبير وارتحل عن مكة.

(١) عضل به الأمر: اشتد.

الحصين بن نمير بعد أن نعى له يزيد بن معاوية — رأى ابن الزبير ان يهدم الكعبة ويبنيها ، فوافقه على ذلك نفر قليل وكره ذلك كثيرون منهم ابن عباس رضى الله عنهما ، ولما أجمع على هدمها خرج كثير من أهل مكة الى منى خشية أن يصيبهم عذاب ، وأمر ابن الزبير رضى الله عنهما جماعة من الحبشة فهدموها وآختار هؤلاء رجاء أن يكون فيهم الحبشى الذى أخبر النبى صلى الله عليه وسلم أنه يهدمها — روى الشيخان عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم « يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة» وفى رواية البخارى عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم « كأنى به أسودا أفحج[1] يقلعها حجرا حجرا » فهدمت الكعبة كلها حتى بلغت الأرض وكان يوم السبت منتصف جمادى الآخرة سنة ٦٤ هـ . وبناها على قواعد ابراهيم وأدخل فيها ما أخرجته قريش منها فى الحجر آعتمادا على الحديث الذى أخبرته به خالته عائشة وسيأتى ، وزاد فى طولها على بناء قريش نظير مازادته قريش فى طولها على بناء الخليل وذلك تسعة أذرع ، فصار آرتفاعها سبعة وعشرين ذراعا وهى سبعة وعشرون مدماكا ، وجعل لها بابين لاصقين بالأرض أحدهما بابها الموجود اليوم ، والآخر مقابل له مسدود ، وجعل فيها ثلاث دعائم فى صف واحد وجعل لها مدرّجا فى زاويتها العراقية من الداخل يصعد عليه الى ظهرها ، وجعل لها ميزابا على سطحها يصب فى الحِجر ، وجعل فيها روازن توضع فيها المصابيح ، ولما فرغ من بنائها خلقها بالطيب ظاهرا وباطنا وكان يجمرها كل يوم برطل من العود وفى يوم الجمعة برطلين ، وقد بقيت حجارة فرشها فى المطاف .

وأما بناء الحجاج للكعبة فثابت مشهور ، وذلك أن الحجاج بعد محاصرته ابن الزبير وقتله له كتب الى عبد الملك بن مروان يخبره أن ابن الزبير زاد فى الكعبة ماليس منها وأحدث فيها بابا آخر واستأذنه فى ردّ ذلك الى ما كان عليه فى الجاهلية ، فكتب اليه عبد الملك أن يسدّ بابها الغربى ويهدم ما زاده بن الزبير من الحجر ويكبسها[2] به

(١) الفحج فى المشى تباعد العقبين وتدانى صدور القدمين .

(٢) فى القاموس كبس البئر والنهر يكبسهما طمهما بالتراب ، ولعل المعنى هنا يبنيها به أو يبلطها .

على ما كانت عليه ، ففعل ذلك الحجاج وبناؤه فى الكعبة الجدر الشمالى والباب الغربى المسدود وما تحت عتبة الباب الشرقى وهو أربعة أذرع وشبر على ما ذكر الأزرقى ، وترك بقية الكعبة على بناء ابن الزبير ، وكان ذلك سنة ٧٤ ﻫ . ثم ان عبد الملك ابن مروان ندم على ما وقع منه فى أمر الكعبة ، وقال : وددت والله أنى كنت تركت ابن الزبير وما تحمل حين أخبره الحارث بن عبد الله بن أبى ربيعة المخزومى أنه سمع من عائشة رضى الله عنها حديثا عن النبي صلى الله عليه وسلم اعتمده ابن الزبير فيما فعله بالكعبة ، وحديث عائشة رواه أبو داود الطيالسى ، قال : حدّثنا سليم بن حبان قال حدّثنا سعيد بن المثنى عن عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما ، قال : أخبرتنى عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لها : لولا أن قومك حديثو عهد بالجاهلية لهدمت الكعبة وألزقتها بالأرض وجعلت لها بابا شرقيا وبابا غربيا ولزدت ستة أذرع من الحجر فى البيت فان قريشا آستقصرت ذلك لما بنت البيت .

ولم يحصل فى الكعبة تغيير بعد بناء ابن الزبير والحجاج الى سنة ١٠٣٩ ﻫ . اللهم إلا فى ميزابها وبابها وبعض أساطينها وما دعت الضرورة الى عمارته فى جدرها وسقفها وجدرها الذى يصعد منه الى سطحها وعتبتها ورخامها . وكان سليمان بن عبد الملك يحب أن يردّ الكعبة الى بناء ابن الزبير حين أخبره بذلك خليفته الامام العادل عمر ابن عبد العزيز بن مروان لما سأله عن ذلك ، ولكن منعه من ذلك حبه أن لا يغير عملا عمل بمشورة أبيه ، ويروى أن الخليفة هارون الرشيد — وقيل : أبوه المهدى ، وقيل : جدّه المنصور — أراد أن يغير ما صنعه الحجاج ويردّ الكعبة الى بناء بن الزبير فنهاه عن ذلك الامام مالك بن أنس وقال له : نشدّتك الله أن لا تجعل بيت الله ملعبة للملوك لا يشاء أحد منهم أن يغيره الا غيره فتذهب هيبته من قلوب الناس .

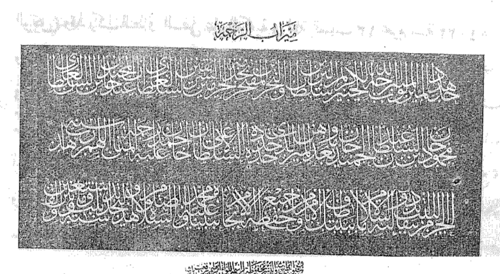
وكأن مالكا رحمه الله لاحظ فى ذلك قاعدته المشهورة : درء المفاسد أولى من جلب المصالح .

ومما جدّ فى الكعبة بعد بناء ابن الزبير والحجاج أن الوليد بن عبدالملك أرسل من الشام الرخام الأحمر والأخضر والأبيض ففرشت به وأُزِّرَتْ جدرها من الداخل . وقد انفتح الجدار الشمالى الذى أقامه الحجاج من بقية البناء وكان الفتح مقدار نصف أصبع فرمم ذلك بالجص الأبيض ، وبعد سنة ٢٠٠ ه . رفعت الفسيفساء التى كان معمولا بها سطح الكعبة لأنها ما كانت تمنع مياه المطر أن تتسرب الى الداخل ، ووضع مكانها المرمر المطبوخ وشيد بالجص . وفى زمن المتوكل العباسى سنة ٢٤١ ه . قلعت العتبة السفلى لباب الكعبة وكانت قطعتين من خشب الساج دثرتا من طول الزمان وأبدل بها قطعة من خشب الساج ألبست صفائح الفضة ، وكذلك جدّد المتوكل رخام الكعبة وأزرها بالفضة وألبس سائر حيطانها وسقفها الذهب ، وفى سنة ٥٤٢ ه . عمر سقفها والمدرّج الذى فى بطنها ، وكذلك أصلح رخامها حوالى سنة ٥٥٠ ه . وكانت هذه العمارة من قبل جمال الدين المعروف بالجواد وزير صاحب الموصل ، وفى سنة ٥٥٩ ه . تضعضع الركن اليمانى من زلزلة حدثت . وأصلح وعمرها المستنصر العباسى سنة ٦٢٩ ه . وجدّد رخامها الملك المظفر صاحب اليمن فى سنة ٦٨٠ ه . وفى رمضان سنة ٨١٤ ه . أصلح بعض سقفها وروازنها وعتبتها ، وكان ذلك عقب مطر عظيم كان من أجله يتدفق من باب الكعبة الى المطاف كأفواه القرب ، وقد عملت اصلاحات جزئية فى الروازن والسقف والرخام والأخشاب التى يركب فيها حلق الحديد الذى تربط به الكسوة فى سنتى ٨٢٥ و ٨٢٦ ه . وكان ذلك بأمر الملك الأشرف برسباى صاحب الديار المصرية والشامية والحرمين ، ورممت الكعبة فى سنة ٩٥٩ ه . زمن السلطان سليمان ، وفى زمن السلطان أحمد (١٠١٢ — ١٠٢٢) حدث بعض التصدّع فى جدارى الكعبة الشرقى والغربى وكذلك فى جُدر الحجر ، فأراد هدم البيت فمنعه من ذلك علماء الروم وأشاروا عليه بعمل نطاق يلم التشعب ، فعمل نطاقين من نحاس أصفر غلف بالذهب وكتب فى بعضه بالرسم « لا إله إلا الله محمد رسول الله » وفى بعض آخر « لا إله إلا الله محمد حبيب الله » الى غير ذلك من الكلمات الجميلة والآيات الشريفة مثل قوله : (حسبنا الله ونعم

الوكيل) وقد ركب النطاق السفلى على الكعبة فى ليلة السبت ١٢ محرم سنة ١٠٢٢ هـ . ووضعت له أعمدة ثبت أسفلها بالرصاص فى الشاذوران ، وفى ليلة الأحد شرعوا فى وضع النطاق العلوى حتى أتموه، وفى سنة ١٠٣٩ هـ . نزلت أمطار كثيرة عمت مكة وحاراتها وعلت المياه عن قفل باب الكعبة بذراعين حتى اذا ما مضى يومان انهدمت دفعة واحدة ما عدا الجهة ايمانية ، بخددها السلطان مراد خان الرابع ، وقد أرسل مندوبين من الأستانة ومهندسين من مصر أقاموا بناءها وراعوا تجديدها سنة ١٠٤٠ هـ . وقد بذل فى سبيل ذلك المال الكثير . وفى سنة ١٢٩٥ هـ . فرش سطح الكعبة بألواح المرمر .

ومن الميازيب التى عملت للكعبة ميزاب عمله الشيخ أبو القاسم رامشت صاحب الرباط المشهور بمكة وصل به خادمه بعد موته سنة ٥٣٧ هـ . وميزاب أنفذه الخليفه المقتفى العباسى سنة ٥٤١ هـ . جعل عوض الميزاب السابق . وميزاب عمله الناصر العباسى من خشب مبطن بالرصاص فى الموضع الذى يجرى فيه الماء وظاهره مما يبدو للناس مطلى بفضة ، وقد حلى هذا الميزاب فى سنة ٧٨١ هـ . ثم عمل بعد ذلك ميزاب من النحاس ثم جعله السلطان سليمان القانونى من الفضة سنة ٩٥٩ هـ . وفى سنة ٩٦٢ هـ . ورد من مصر ميزاب من ذهب وضع موضع الميزاب الفضة ، وأخذ الأول الى الخزانة العالية للتبرك به وصولحت بنو شيبة سدنة الكعبة عما زاد الميزاب من الفضة بمائتى أشرفى، وفى سنة ١٠٢١ هـ . غيره السلطان أحمد بآخر من الفضة منقوش بالذهب والمينا اللازوردية، وفى سنة ١٢٧٣ هـ . أرسل السلطان عبد المجيد ميزابا من الذهب هو الموجود الآن انظر فى (الرسم ١٠٥) ما عليه من الكتابة .

وأول من حلى الميزاب بالذهب الوليد بن عبد الملك ، وفى سنة ٤٥٥ هـ . أخذ بنو الطيب الميزاب وحملوه الى اليمن فابتاعه صاحب اليمن الذى امتلك مكة أيضا فى السنة المذكورة ورد الميزاب الى مكانه .



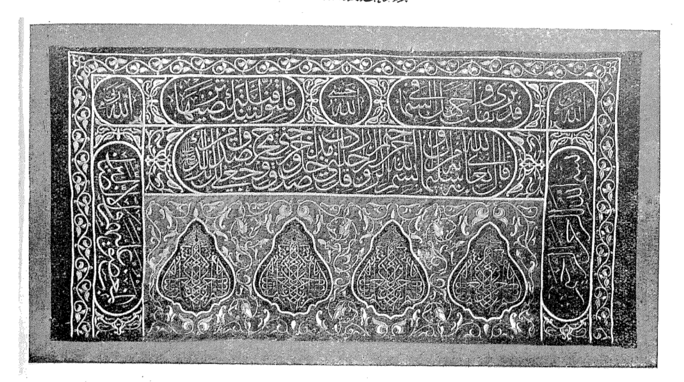
(الرسم ١٠٥)

The gutter of El Rahma.

ومن الأبواب التى صنعت للكعبة باب عمله الجواد وزير صاحب الموصل سنة ٥٥٠ هـ . وركب سنة ٥٥١ هـ . وكان مكتوبا فيه اسم الخليفة المقتفى العباسى ، وبه حلية تستوقف الأبصار ، ومنها باب عمله الملك المظفر صاحب اليمن لما حج سنة ٦٥٩ هـ . وكان عليه صفائح فضة زنتها ٦٠ رطلا صارت لبنى شيبة ، ومنها باب من السنط الأحمر عمله الملك الناصر محمد بن قلاوون صاحب مصر ركب على الكعبة بعد قلع باب المظفر وكان عليه من الفضة ٣٥٣٠٠ درهم ، وباب رابع عمله الملك الناصر حسن سنة ٧٦١ هـ . وهو من خشب الساج وزيدت حليته سنة ٧٧٦ هـ . فكان مقدارها لا يزيد على ٣٠٠٠٠ درهم ، وعلى هذا الباب اسم الملك الناصر محمد بن قلاوون واسم حفيده الأشرف شعبان واسم الملك المؤيد لأن بعض خواصه زاد فى حليته سنة ٨١٦ هـ ٢٠٠ درهم وطلاه بالذهب .

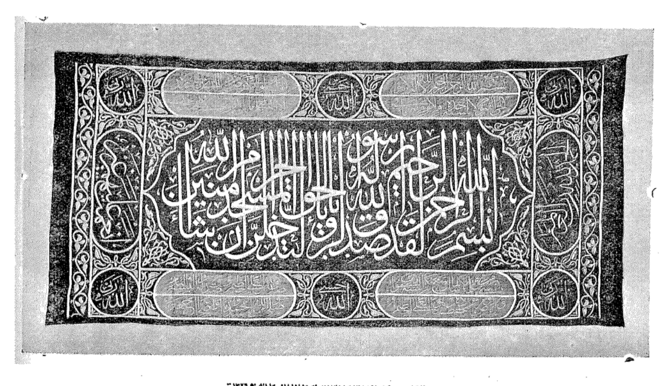
وفى سنة ٧٨١ هـ . حلى زين الدين العثمانى باب الكعبة وميزابها بمعرفة مملوكه سودون باشا حينما أرسله لعمارة المسجد الحرام . وفى سنة ٩٦١ هـ . أمر السلطان سليمان بتصفيح الباب بالفضة . وفى سنة ٩٦٤ هـ . أمر بعمل باب الكعبة فأتى بالباب الأول وركبت عليه ألواح من الخشب الآس الأسود مصفحة بالفضة

القسم الأعلى من ستارة باب الكعبة



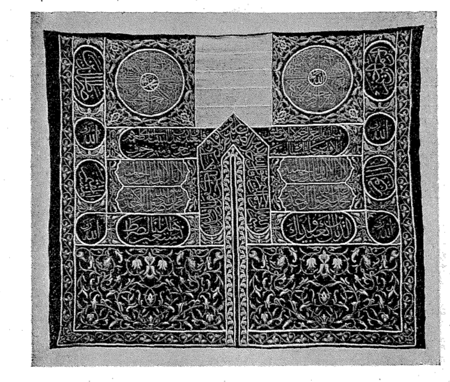
106. A view of the upper part of the curtain of the door of El Kaaba.

القسم الأوسط من ستارة باب الكعبة



107. A view of the middle part of the curtain of the door of El Kaaba.

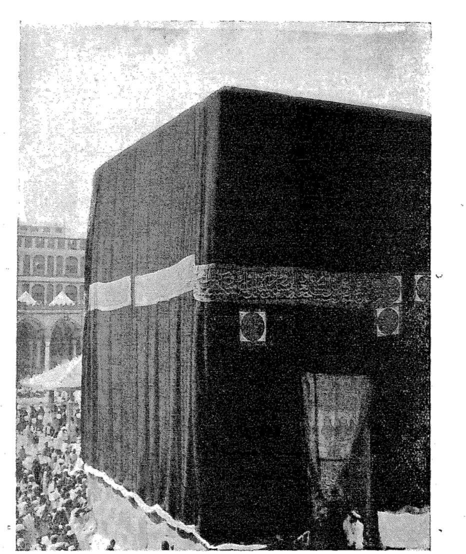
القسم الأدنى من ستارة باب الكعبة



108, A view of the lower part of the curtain of the door of El Kaaba,

صحيفة ٢٧٧

الكعبة المشرفة من جهة الجنوب والشرق وبه بابها



109. The Eastern and Southern side of the Kaaba with door

المطلية بالذهب ، وقد قـدّر الذهب بمبلغ ٢٧١٠ أشرفى ، والفضـة بأربعة قناطير إلا قليلا ، وقد وضعت الفضة على أصل الباب القديم المصنوع من الساج وأعطى بنى شيبة ١٠٠٠ أشرفى عوض الفضة القديمة ، وقد كتب عليه البسملة وقوله تعالى ﴿رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا﴾ وتاريخ تجديده ، وقد أرّخ ذلك بعضهم « بقوله زين الباب » .

وفى سنة ١٠٤٥ هـ . غير الباب وجعل فيه من الحلية الفضية ما زنته ١٦٦ رطلا وطلى بالذهب البندقى بما قيمته ألف دينار وكان ذلك زمن السلطان مراد الرابع .

ولباب الكعبة ستارة مقصبة تسـدل عليه كما ترى فى (الرسم ١٠٩) ، وترى نقش الستارة وما كتب عليها فى الرسوم ١٠٦ و ١٠٧ و ١٠٨

تحلية الكعبة — أوّل من حلاها فى الجاهلية على ما قيل : عبد المطلب جدّ النبى صـلى الله عليه وسـلم بالغزالين الذهب اللذين وجدهما فى زمزم حين حفرها . وأول من حلاها فى الاسلام الوليد بن عبد الملك ذهب البيت ، وقيل : أبوه عبد الملك قـد سبقه فإنه غطى الأسطوانة الوسطى بصفائح الذهب بل قيل : إن ابن الزبير جعل على الكعبة وأساطينها صـفائح الذهب وجعل مفاتحها من ذهب ، وكانت حلية الوليد بصفائح الذهب جعلها على الباب والميزاب وعلى أساطينها وأركانها من الداخل ، وقيمة ذلك الف دينار . وأرسل الأمين محمد بن هارون الرشـيد الى عامله على مكة ١٨٠٠٠ دينار ليضرب بها صفائح توضع على بابى الكعبة — لعل الثانى باب التوبة داخلها — فصفحهما بها واتخذ منهـا مسامير وحلقتين للباب . وبعث المتوكل العباسى إسحاق ابن سلمة الصـائغ فلبس زاويتين من زوايا الكعبة الذهب على فضة كانت فيهما ، وقلع الذهب الذى فى الزاويتين الأخريين ولبسـه على الفضة وجعله فى الزاويتين ، فكانت الزوايا كلها سواء ، وعمل منطقة من فضة ركبها فوق إزار الكعبة وكانت منقوشه عرضها ثلثا ذراع وجعـل لهـا طوقا من ذهب منقوشا ومتصلا بهذه المنطقة ، وكان فى أعلى هـذه المنطقة رخام منقوش فلبسـه

الذهب الرقيق وغير كلاب الباب — شنا كله — التى يشد بها اذا فتح بجعلها من فضة بدل النحاس، وتقدم ما صنعه بعتبة الباب، قال إسحاق : كان مبلغ ما فى الزوايا والطوق من الذهب ٨٠٠٠ مثقال، وما فى المنطقة وعلى عتبة الباب وكرسى المقام من الفضة قريب من ٧٠٠٠٠ درهم، وما ركب من الذهب على جدر الكعبة وسقفها نحو من مائتى حق، فى كل حق خمسة مثاقيل أى ١٠٠٠ مثقال ذهبا، وكان هذا كله سنة ٢٤١ ﻫ . وأمر المعتضد العباسى بعد أن كتب له الحجبة بعمل ذهب على عضادتى باب الكعبة عوض ما أخذه بعض العمال على مكة وضربه دنانير استعان بها على حرب العلوىّ الخارجى سنة ٢٥١ ﻫ . وكذلك أمر يصنع ذهب على أسفل الباب بدل ما أخذه بعض العمال لتسكين فتنة بين الخياطين والجزارين سنة ٢٦٨ ﻫ . وأمرت أم المقتدر العباسى غلامها لؤلؤا بإلباس الأسطوانة التى تلى باب الكعبة صفائح الذهب من أسفلها الى أعلاها وكان بعضها قبل ذلك ملبسا بصفائح الذهب وبعضها الآخر مموّها وذلك فى سنة ٣١٠ ﻫ . وأرسل الوزير الجواد ٥٠٠٠ دينار سنة ٥٤٩ ﻫ . عملت بها صفائح الذهب والفضة فى داخل الكعبة وأركانها . وكذلك حلىّ باب الكعبة الملك المظفر صاحب اليمن وحفيده الملك المجاهد والملك الناصر قلاوون صاحب مصر، وحفيده الملك الأشرف شعبان سنة ٧٧٦ ﻫ . وكثير غيرهم .

معاليق الكعبة وما أهدى إليها من الحلىّ — أهدى ساسان بن بابك من ملوك الفرس للكعبة غزالين من ذهب وجواهر وسيوفا وكثيرا من الذهب ودفن ذلك فى زمزم، ويقال : إن كلاب بن مرة أوّل من جعل فى الكعبة السيوف المحلاة بالذهب والفضة ذخيرة لها . ولما فتح فى عهد عمر بن الخطاب مدائن كسرى كان مما بعث اليه هلالان فعلقهما فى الكعبة، وبعث عبد الملك بن مروان بالشمستين وقدحين من قوارير . وبعث ابنه الوليد بقدحين . وبعث الوليد بن

يزيد بالسرير (الكرسى) وبهلالين . وبعث أبو العباس السفاح بالصفحة الخضراء . وأرسل أخوه المنصور القارورة الفرعونية . وبعث المأمون بياقوتة ثمينة . وأهدى جعفر المتوكل شمسة عملها من ذهب مكللة بالدر الفاخر والياقوت الرفيع والزبرجد وسلسلة تعلق فى وجه الكعبة كل سنة . وأسلم ملك من ملوك التبت وكان له صنم من ذهب فى صورة إنسان يعبده وكان على رأس الصنم تاج من ذهب مكلل بخرز الجوهر والياقوت الأحمر والأخضر والزبرجد وكان على سرير مربع مرتفع عن الأرض على قوائم والسرير من فضة، وعلى السرير فرشة الديباج وعلى أطراف الفرش إزار من ذهب وفضة مرخاة، والإزار على قدر الكرسى فى وجه السرير، فلما أسلم ذلك الملك أهدى السرير والصنم إلى الكعبة . وأهدى إليها المعتصم العباسى قفلا فيه ألف دينار . وأسلم بعض ملوك السند فأهدى اليها طوقا من الذهب مكللا بالزمرذ والألماس وياقوتة خضراء زنتها أربعة وعشرون مثقالا وقد علقت فى الكعبة سنة ٢٥٩ هـ . وأهدى جعفر بن المعتمد قصبة من فضة داخلها كتاب فيه بيعته وبيعة أبى أحمد الموفق، فعلقت فى الكعبة فى صفر سنة ٢٦٢ هـ . وبعث المطيع العباسى اليها قناديل كلها فضة خلا واحدا من الذهب زنته ٦٠٠ مثقال وذلك فى سنة ٣٥٩ هـ . وأهدى صاحب عمان بعد سنة ٤٢٠ هـ . محاريب مبنية زنة المحراب أزيد من قنطار، وقناديل فى غاية الإحكام، وقد سمرت المحاريب فى الكعبة مما يلى بابها . وأهدى إليها الملك المنصور صاحب اليمن سنة ٣٦٢ هـ . قناديل من ذهب وفضة . وبعث إليها الظاهر بيبرس قفلا ومفتاحا . وبعث على شاه وزير السلطان أبى سعيد ملك التتر الى الكعبة سنة ٧١٨ هـ . بحلقتين من الذهب مرصعتين باللؤلؤ البلخش، كل حلقة زنتها ألف مثقال، وفى كل حلقة ٦ لؤلؤات فاخرات، وبينها ٦ قطع بلخش فاخر وقد علقتا زمنا يسيرا ثم رفعتا وأخذهما أمير مكة إذ ذاك رميثه بن أبى نمى . وأهدى السلطان شيخ أويس صاحب بغداد

الى الكعبة ٤ قناديل اثنان ذهبا واثنان فضة وذلك فى أثناء عشر السبعين والسبعمائة، فعلقت فى الكعبة قليلا ثم أخذها أمير مكة عجلان بن رميثة . قال التقى الفاسى : وأهدى الناس الى الكعبة بعد ذلك قناديل كثيرة . والذى فى الكعبة الآن — سنة ٨١٢ هـ — من المعاليق ١٦ قنديلا ، منها ثلاثة فضة وواحد ذهبا وآخر بلورا واثنان نحاسا والباقى زجاج حلبى وهى تسعة، وليس فيها الآن — سنة ٨١٢ هـ — شىء غير هذه القناديل من تلك الهدايا الفاخرة، وسبب ذلك آمتداد أيدى الولاة وغيرهم اليها . قال الأزرقى : ولا يجوز أخذ شىء من حلية الكعبة لا للحاجة ولا للتبرك ، لأن ما جعل للكعبة وسبل لها يجرى مجرى الأوقاف، ولا يجوز تغييرها عن وجوهها وفيها تعظيم الإسلام وإرهاب الأعداء، أشار الى ذلك المحب الطبرى وقد أهدى لها بعد ذلك هدايا قيمة منها الباقى للآن ومنها ما عبثت به الأيدى .

وإذ قد عرضنا عليك صورة تاريخية لمسابقات الملوك والأمراء فى تحلية الكعبة وميزابها وأبوابها وتعاليقها بحلى الذهب والفضة نرى من الواجب علينا أن ننبهك الى أن إنفاق أموال المسلمين العامة فى هذه السبل يأباه الدين لأنه من الإسراف الممقوت، وخير لنا أن ننفق هذه الأموال فى مصالح المسلمين العامة وإن آحترامنا لبيت الله الحرام لا يحول دون آحترام الدين وتعليماته وإرشاداته ، وليس من الدين فى شىء أن نعطل جزءا من أموال المسلمين عن آستثماره وإنفاقه فيما يعود بنفع حقيقى على المسلمين، ولعلك محتج علينا بما فعله عمر رضى الله عنه من إرسال الهلالين اللذين أرسلا اليه بعد فتح مدائن كسرى، وانا مع عدم قطعنا بصحة النسبة اليه لا نرى فيه حجة لمعارض لآحتمال أن يكون عمر أراد به إلهاب الحمية فى نفوس المسلمين وآستنهاضهم الى الجهاد حيث يرون فى الهلالين ثل عروش الأكاسرة وتذليل ملكهم لعز الاسلام والظفر بما آدخروا وآكتنزوا، فعسى أن يوجه الملوك هممهم وأموالهم الى الصالح النافع ويأخذوا بأنفسهم عما لا يفيد ولا يجدى .

كسوة الكعبة — (أنظر الرسم ١٠٩ الذى ترى فيه الحزام المقصب والكرداشيات وستارة الباب منسدلة) .

أوّل من كسا الكعبة أسعد أبو كرب ملك حمير وذلك قبل الهجرة بقرنين وقد كساها الخصف(١) والمعافر(٢) والملاء(٣) والوصايل(٤) والعصب(٥) والمسوح(٦) والأنطاع(٧) والبرود(٨)، وجعل للكعبة بابا ومفتاحا وفى ذلك يقول مفتخرا :

ورد الملك تبع(٩) وبنوه * ورّثوهم جدودهم والجدودا
إذ جبينا جيادنا من ظفار(١٠) * ثم سرنا بها مسيرا بعيدا
فآستبحنا بالخيل ملك قباذ(١١) * وابن اقلود(١٢) جاءنا مصفودا
فكسونا البيت الذى حرّم اللـ * ـه ملاء معصبا وبرودا
وأقمنا به من الشهر عشرا * وجعلنا لبابه إقليدا(١٣)
ثم طفنا بالبيت سبعا وسبعا * وسجدنا عند المقام سجودا
وخرجنا منه الى حيث كنا * ورفعنا لواءنا معقودا

ولما بنت قريش الكعبة آسترفدهم بناؤها لكسوتها فعملوا لها كسا شتى من أنواع الثياب، كلما جاءت كسوة طرحت على سابقتها، ولم تزل قريش تكسو الكعبة حتى كان زمن أبى ربيعة بن المغيرة المخزومى وكان مثريا فقال : أكسوها من مالى عاما وقوموا بكسوتها عاما، فسمى عدل قريش لذلك، وآستمر الأمر على هذا حتى عهد

(١) الخصف محركة : جمع خصفة وهى الثوب الغليظ جدا . (٢) والمعافر فى الأصل آسم بلد سميت به الثياب المعافرية التى تصنع فيه . (٣) الملاء : جمع ملاءة وهى ثوب لين رقيق نسج واحد وقطعة واحدة وتسمى الربطة . (٤) الوصايل : جمع وصيلة وهى ثوب أحمر مخطط يمانى . (٥) العصب : برود يمانية يعصب غزلها أى يجمع ويشد ثم يصبغ بعضه وينسج مع غير المصبوغ فيأتى موشى . (٦) المسوح : جمع مسح وهو ثوب من الشعر غليظ ويقال له : البلاس . (٧) الأنطاع : جمع نطع وهو بساط من الأديم أى الجلد . (٨) البرود : جمع برد وهو ثوب مخطط وكساء يلتحف به . (٩) تبع : لقب ملك ملوك حمير . (١٠) ظفار : كانت مدينة من مدن اليمن قريبة من صنعاء وأطلالها باقية ولها إقليم يسمى الآن باسمها . (١١) أبو كسرى . (١٢) لعله أمير من أمراء الشام أو العراق . (١٣) المفتاح .

النبي صلى الله عليه وسلم . ومما كسوها به مطارف[١] الخز الخضر والصفر وشقاق[٢] الشعر وأكسية من أكسية الاعراب وكرار[٣] الخز والوصايل والأنطاع والنمارق[٤] العراقية والحبرات[٥] اليمانية والأنماط[٦] .

وأوّل عربية كست الكعبة فى الجاهلية نبيلة بنت حباب أم العباس بن عبد المطلب كستها الحرير والديباج ، وسبب ذلك أنها أضلت ابنها خوارا أخا العباس وجعلت تنشد :

أضللته أبيض لوذعيا[٧] * لم يك لحلوبا[٨] ولا دعيا

أضللته أبيض غير خاف * للفتية الغر بنى مناف

ثم لعمرو منتهى الأضياف * سنّ لفهر سنة الإيلاف

* فى القر[٩] يوم القر والإصياف *

ونذرت إن وجدته لتكسون الكعبة ، فأتاها به رجل من جذام فوفت بما نذرت . تلك كساها فى الجاهلية ، وأما كسوتها فى الإسلام فكساها النبى صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر الحبر اليمانية ، وكساها عمر ، وعثمان القباطى[١٠] المصرية ، وكساها عثمان أيضا البرود اليمانية وهو أوّل من ظاهر لها بين كسوتين ، وكان عمر رضى الله عنه ينزع كسوتها كل سنة ويستبدل بها جديدة ، ويقسم الأولى بين الحاج ، وكساها عبد الله ابن عمر ما كان يجلل به بدنه من القباطى والحبرات والأنماط ، وكساها كذلك معاوية وكانت تكسى الديباج يوم عاشوراء ، والقباطى فى اليوم التاسع والعشرين من رمضان ، وكساها الديباج يزيد بن معاوية وابن الزبير وعبد الملك بن مروان .

---

(١) الطريفة : نسيجة تنسج من صوف أو شعر فى عرض ذراع . (٢) الشقة : نوع من الثياب الرقيقة المستطيلة . (٣) نوع من الأكسية مفرده كر . (٤) النمرقة : الوسادة وكساء يوضع على الرحل يسمى الطنفسة . (٥) الحبرات : جمع حبرة وهى ما كان من البرود مخططا . (٦) ضرب من البسط واحدها نمط . (٧) اللوذعى : الخفيف الذكىّ الظريف . (٨) المحلوب : لم أقف على معناه . (٩) القر : البرد . (١٠) القباطى : جمع قبطية بالضم وهو ثوب من ثياب مصر رقيق أبيض وكأنه منسوب إلى القبط وهى بلدة بمصر ينسب اليها أقباطها .

وفى سنة ١٦٠ ﻫ . حج المهدى العباسى فذكر له السدنة أن كساوى الكعبة كثرت عليها والبناء ضعيف يخشى عليه من ثقلها، فأمر بتجريدها وأن لايسدل عليها إلا كسوة واحدة وآستمر ذلك الى يومنا هذا . وكساها المأمون ثلاث كسا الديباج الأحمر يوم التروية والقباطى يوم هلال رجب والديباج الأبيض الذى أحدثه المأمون يوم ٢٧ من رمضان للفطر . وكساها حسين الأفطس بأمر أبى السرايا كسوتين من القز الرقيق إحداهما صفراء والأخرى بيضاء . وكساها بعد ذلك كثير من الملوك والأمراء أنواعا من الكسا كالديباج الأبيض الخراسانى والديباج الأحمرالخراسانى . وكساها أبو النصر الاستراباذى سنة ٤٦٦ ﻫ . كسوة بيضاء من عمل الهند، وكسيت فى هذه السنة أيضا الديباج الأصفر وكساها الحبرات وغيرها الشيخ أبوالقاسم رامشت صاحب الرباط المشهور بالمسجد الحرام وذلك فى سنة ٥٣٢ ﻫ . وكانت كسوته بثمانية عشر ألف دينار مصرية على ما قال ابن الأثير، وقيل : بأربعة آلاف دينار. وكسيت فى بدء خلافة الناصر العباسى كسوة خضراء، وكسيت فى زمنه كسوة سوداء، قال الفاسى : وقد استمرت الى الآن — سنة ٨١٢ ﻫ — إلا أنه فى سنة ٦٤٣ ﻫ . كساها منصور بن ربيعة شيخ الحرم ثيابا من القطن مصبوغة بالسواد .

وفى سنة ٧٥١ ﻫ . أراد الملك المجاهد أن ينزع كسوة الكعبة التى باسم المصريين ويكسوها كسوة من عنده تكون باسمه ، فأخبر صاحب مكة المصريين فقبضوا عليه، وفى ذلك يقول الجلال المؤذن بالمسجد الحرام :

يا راقد الليل مسرورا بأوله * إن الحوادث قد يطرقن أسحارا
فإن أمنت بليل طاب أوله * فرب آخر ليل أجج النارا

وفى سنة ٨١٠ ﻫ . أحدث فى كسوة الجانب الشرقى جامات منقوشة بالحرير الأبيض ووضع ذلك أيضا فى السنين الأربع التالية ثم ترك فى سنى ١٦ و١٧ و١٨ بعد الثمانمائه .

وفى سنة ٨١٩ ﻫ . ملئ الجانب الشرقى من الكسوة من تحت الطراز بالجامات المصنوعة من الحرير الأبيض، والآن تصنع من القصب المطلى بالذهب، أنظر

الجامات فى (الرسم ١١٠) الذى معه الرسمان (١١١و١١٢). وعمل فى هذه السنة لباب الكعبة ستارة عظيمة الحسن لم يسبقها مثلها . وفى داخل الجامات السابقة مكتوب «لا إله إلا الله محمد رسول الله» بالبياض على شكل دوائر، واستمرت الجامات البيض المذكورة خمس سنين متتالية ثم أزيلت وعوض عنها جامات سود فى سنة ٨٢٥ هـ . وفى كسوة الكعبة طراز من حرير أصفر وكان قبل ذلك أبيض، وعمل أصفر حوالى سنة ٨٠٠ هـ . وفى الطراز مكتوب آيات من القرآن قريبة من الآى المكتوبة عليه الآن غير أن مواضعها منها مختلفة ، أنظر الطراز فى (الرسم ١١٠) ولمهلهل الدمياطى فى سواد كسوة الكعبة :

يروق لى منظر البيت العتيق إذا * بدا لطرفى فى الإصباح والطفل
كأن حلته السوداء قد نسجت * من حبة القلب أو من أسود المقل

وكسوة الكعبة من سنة ٧٥٠ هـ من الوقف الذى وقفه الملك الصالح إسماعيل ابن الملك الناصر بن قلاوون على كسوة الكعبة كل سنة وعلى كسوة الحجرة النبوية والمنبر النبوى فى كل خمس سنين مرة، وهذا الوقف عبارة عن ثلاث قرى بسوس وسندبيس وأبى الغيط من قرى القليوبية ، اشتراها من بيت المال ووقفها على كسوتى الكعبة والحجرة، وقد اشترى السلطان سليمان بن السلطان سليم خان عدة قرى بمصر أضافها الى القرى التى وقفها على الكسوة الملك الصالح وهذه القرى هى : (١) سلكه ؛ (٢) سروبجنجة ؛ (٣) قريش الحجر ؛ (٤) منايل وكوم رحان ؛ (٥) بجام ؛ (٦) منية النصارى ؛ (٧) بطاليا ولم تزل موقوفة على ذلك حتى حل وقفها محمد على باشا فى أوائل القرن الثالث عشر الهجرى ، وتعهدت الحكومة بصنع الكسوة من مالها العام ولا يزال ذلك دأبها للآن .

وهاك نص الوقفية[1] :

(١) نقلت عن مرآة مكة لحضرة أمير اللواء البحرى العثمانى أيوب صبرى باشا .

منظر ستارة باب الكعبة المعظمة

A view of the Curtain of the door of El Kâba.



حزام الكعبة المشرفة وما به من الآيات القرآنية



جهة الشرقي



جهة الجنوبي



جهة الغربي



جهة الشمالي



كسوة الكعبة المشرفة من الظاهر

The out-clothing of El-Kaaba.



صورة وقفية الكسوة الشريفة

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذى رفع القبة الخضراء، ووضع بساط الغبراء، وسمك فى سمائه الأفلاك، وملك فى أرضه الأملاك، ففتح مناهج الملك والدولة الغراء، بيمن وقاية السلاطين، وحسن رعاية الأمراء، وجعل الكعبة البيت الحرام لشعائر الدين الزهراء، ﴿فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه﴾ واستسعد بحجة يوم الجمراء، ثم الصلاة والسلام على سيد الأنبياء، محمد أعلم الرسل الأعلام والأنباء، وعلى آله الكرام الأتقياء، وأصحابه العظام الأصفياء، نمقه العبد المحتاج الى عفو ربه الصمد. محمد بن قطب الدين محمد، القاضى بالعساكر المظفرة المنصورة فى ولاية أناطولى. أما بعد فهذا وثيقة أثيقة بديعة المعانى والبيان، هادية منمقة أنيقة بليغة المبانى والتبيان، توارى عباراتها راحا رحيقا، بل هى أصفى، وتجارى استعاراتها مسكا سحيقا بل هى أزكى، يشعر عما هو الحق القاطع، ما حواه فحواها، ويخبر عما هو الصدق الساطع، ما أدّاه مؤدّاها، وهو أنه قد بان لكل ذى عقل سديد، أن الدنيا الدنية قنطرة العابرين، ورباط المسافرين، يحل هذا ويرحل ذاك ولا يدرى أحد إلا ويمتطى صهوتى أدهم الليل وأشهب النهار ويسير مع السائرين الى منتهى الآجال والأعمار، وهى للموعظة ما قال سيد الكائنات[1]، عليه أفضل الصلوات، «استمعوا وعوا من عاش مات ومن مات فات وكل ما هو آت آت»، فلا ريب أن العاقل من اعتبر من الرواحل واتخذ فيها لرحيله ذخيرة وزادا، وادّخر لمقامه الباقى عدّة وعتادا، بالصدقات التى ينال بها النجاة، ويتوسل بها الى الجنات، على ما نطق به القرآن، وحديث رسول الرحمن، حيث قال عز من قائل ﴿ان الله يجزى المتصدّقين﴾ والمتصدّقات وقال عليه الصلوات التامات، «اذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له» ألا وهى الوقف.

(١) المعروف ان هذه الجمل من خطبة قس بن ساعدة التى ألقاها بسوق عكاظ وشهدها النبى صلى الله عليه وسلم قبل عهد الرسالة.

فلما تفكر فى جميع ذلك السلطان الأعظم ، والخاقان الأكمل الأكرم ، ظل الله فى أرضه ، وخليفته على خليقته فى رفعه وخفضه ، علوى العلا ، من آل عثمان عثمانى الحيا ، من سلاطين الزمان سلطان البحرين والبرين ، العرض القائم بالسنة والفرض ، عاشر المجددين لدين الاسلام بأحسن المعاشر ، وعاشر السلاطين العثمانية كالعقد العاشر ، السلطان بن السلطان بن السلطان السلطان « سليمان » شاه بن السلطان « سليم » خان بن السلطان « با يزيد » خان لا زالت حديقة حقيقة العالمين منضرة بماء حياته ، ونماء ذاته ، وحدقة العالمين منورة بضياء صفاته ، وبيضاء سناء حسناته ، وبلغ أرواح آبائه وأجداده الرحمة وسقاهم بالكوثر وأسبغ عليهم نعم غفرانه وأنذر ورأى منها فى نفسه النفيسة نعم الله تعالى جزيلة ، لا يسع شكرها على ذاته الكريمة ، منه منة جميلة ليس فى طوقه ذكرها أراد استقرارها بالأوقات القاره ، واستمرارها بالادارة الداره ، متفكرا فى قول الملك الخلاق ، ﴿ما عندكم ينفد وما عند الله باق﴾ ، ونظر فى قول الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة ، وعالما بأن تعظيم الكعبة المستورة بالأستار الشريفة العالية وتشريفها فى الحج يوجب الجنة ، ويصير الهدف الساتر من العذاب والجنة ، وسائما فى قلبه الفسح من قول الرسول « من زارنى وجبت له شفاعتى » أن يستشفع منه بتكريم قبره بالأستار بل بتشريف مراقد الاتباع ، وستر مراشد الأشياع ، أيضا بالازار تنزيلا اياه منزلة الزيارة الدائمة ، والخدمة القائمة ، على مر الدهور والأعصار فان تلك المواضع وان كانت جرت العادة بسترها لكنها كانت بالأموال المتطرقة ، والاثمان المتفرقة ، فأحب أن يكون ما يصرف الى هذه الآثار الشريفة ، من الأموال المتميزة المتبركة المنيفة ، فعين لهذا أجمل أملاكه وأسبابه ، وأجمل أمواله وأكسابه ، فلذلك قد قال لدى المولى الفاضل ، النحرير الكامل ، مصباح رموز الدقائق ، مفتاح كنوز الحقائق ، كشاف المشكلات ، حلال المعضلات ، الموقع أعلى هذا الكتاب ، يسر الله له حسن المآب ،

بقوله الشريف ، ولطفه اللطيف ، العارى عن الاعتساف ، الحاوى على الاقرار والاعتراف ، الذى يجوزه الشرع ، لاحتوائه على ما يغير الأصل والفرع ، وحكى بأنه قد وقف أوقافا وسبلها ، وحبس أملاكا وكملها ، على النمط الأكفى الأشمل ، وعلى الطريق المشروع الأكمل ، لتكون لهذه المصلحة أوقافا قارة ، وادرارات دارة ، فى الدنيا العاجلة ، ومفيدة له فى يوم الجزاء والآجلة وتكون عدّة معدّة لغده عن أمسه ، ومزية منوّرة لا تفارقه فى رمسه ، وتصيرها جسرة من العذاب وجنة ، ويكون جزاها مثل جزاء الحج المبرور الجنة ، وتكون باعثة للرفاعة وموجبة للشفاعة ، منها جميع القرى الثلاث المسماة بيسوس وأبو الغيث وخوص بقمص الواقعة بالولاية المصرية التى كان حاصل منها فى السنة الواحدة مبلغ (٨٩٠٠٠) درهم ومنها جميع القرى السبع الجديدة الواقعة فى الولاية الشرقية بالديار المصرية أولها قرية (سلكه) كان حصل منها فى تلك السنة مبلغ (٣٠٤٩٦) درهما وثانيها قرية (سيرونجنجة) حاصلها فيها مبلغ (٧١٨٢٠) درهما وثالثها قرية (قريش الحجر) حاصل ما فيها مبلغ (٥١٣٠٤) درهما ورابعها قرية (منايل وكوم ريحان) حصل ما فيها مبلغ (٣٧٨٤٠) درهما وخامسها قرية (بجام) حصل ما فيها (١٤٩٣٤) درهما وسادسها قرية (منية النصارى) وحصل ما فيها مبلغ (٦٠٨٥٨) درهما وسابعها قرية بطاليا وحاصلها فيها (١٠٤٨٤) درهما يكون جميع النقود المزبورة فى تلك السنة المسفورة مبلغ (٣٦٥١٥٢) درهما فضيا محاذيا بنصف القطعة رايجا فى الوقت أيد الله تعالى دولته من سكها باسمه السامى ، ورفه رعاياه بعدله المتوفر النامى ، وقف جميع القرى المزبورة المستغنية عن التعريف والتحديد ، والتبيين والتوصيف ، لشهرتها فى مكانها عند أهاليها وجيرانها ، ولكونها مشروحة ومعلومة فى الدفاتر السلطانية والمناشير الخاقانية بجملة ما لها ، من الحدود والحقوق ، وما ينسب اليها بالاصالة والحقوق ، والمراسم والمرافق ، والمداخل والطرايق ، خلا ما يستثنى

منها شرعا من المساجد والمعابد والمنابر والمعابر، والمراقد والمقابر، والأملاك والأوقاف، وسائر ما يعرف مبينا بينه بالأسامى والأوصاف، وسلم جميعها الى من ولاه عليها بموجب الشرع المنصوص، ونصبه للخدمة بالأمانة والاستقامة فى هذا الخصوص، وتسلمها هو منه للتصرف فيها بالوجه السداد، على ما هو المراد، تسليما وتسلما صحيحين شرعيين .

§ ثم عين السلطان الفايق على حذافير السلاطين فى الآفاق، بالاستهلاك والاستحقاق، والسابق فى مضامير التدابير بمكارم الأخلاق، ومراسم الاشفاق، لا زالت شموس سعادته أبدية الاشراق، وما برحت نجوم سلطنته محمية عن الانمحاق، مما يحصل من تلك القرى الموقوفة المذكورة على حسب التخمين التى مدارها حصل السنة المشروحة المزبورة فالتعيين على هذه النسبة فى جميع الأعوام، قلت المحصولات أوحلت بتفاوت الشهور والأيام، مبلغ مائتى ألف درهم وستة وسبعين ألف درهم ومائتى وستة عشر درهما لأستار ظاهر الكعبة الشريفة شرفها الله تعالى فى كل سنة مرّة على ما جرت به العادة القديمة فى السنين الماضية القديمة طبقا على هذا التخمين بعد الصرف المذكور فى السنة مبلغ ثمانية وثمانين ألف درهم وتسعمائة درهم وستة وثلاثين درهما وشرط أن يحفظ ذلك الباقى بحفظ المتولى تمام خمسة عشر عاما فيكون عدد الجمع فى هذا العام على التخمين التام مبلغ ثلاثة عشر مرّة مائة ألف درهم وأربعين درهما فعين من هذا الباقى فى المحفوظ المجموع المسطور لأستار المواضع التى تجدد فى انقضاء كل خمسة عشر عاما مرّة وبعد تجديدها المزبور لا تجدد كل سنة بل تروح الى انقضاء خمسة عشر عاما أخر ثم تجدد مرّة أخرى كذلك ثم فثم الى أن ينقضى الدهر ويتم لكل مرّة من تلك المرات، وفى كل كرة من هذه الكرات، بالتخمين المزبور، والتعيين المذكور مبلغ سبعمائة ألف درهم وأحد وخمسين ألف درهم وثلثمائة درهم وسبعين درهما فضيا

رايجا فى الوقت وتلك المواضع التى يصرف اليها هذا المقدار فى خمسة عشر عاما مرة وهى داخل الكعبة الشريفة، والروضة المطهرة المنيفة، أعنى بها التربة المنورة لسيد الكونين، ورسول الثقلين، نبينا محمد (عليه أفضل الصلاة والسلام)، الى يوم القيام، بالمدينة المنورة والمقصورة المعمورة، فى الحرم الشريف، والمنبر المنيف، فيه ومحرابه محراب التهجد، والأستار الأربعة لنفس الحرم الشريف ومحراب ابن العباس وقبره وقبر عقيل بن أبى طالب وحضرة الحسن وحضرة عثمان ابن عفان وفاطمة بنت أسد (رضوان الله تعالى عليهم أجمعين) وما زاد بعد هذا وهو مبلغ خمسمائة ألف درهم واثنين وثمانين ألف درهم وستمائة وسبعين درهما لاحتمال أن يقع فى بعض السنين النقصان، بسبب الشراقى وطوارق الحدثان، لأن هذا بالتخمين، وان لزم فى بعض السنين، جبر النقصان، فليجبر من هذا الفضل ذاك الزمان، وان وجد فى انقضاء المدة وبعد الصرف شىء مما يزيد ويفضل سواء كان هذا المقدار، أو أكثر منه أو أقل فليشتر بالموجود المزبور الملك المناسب للوقف من العقار. الواقع فى موضع الرغبة والاشتهار، ليكثر محصول الوقف، وتوفير مواضع الصرف، بالحاق هذا المشترى والمتاع بسائر الأوقات واستغلاله معها وصرف غلاته الى المصارف المبينة بالأوصاف وتنمية الوقف وتقويته بهذا التكثير وتمشيته وتوسعته بذلك التوفير، وهذا بعد رعاية شرط أنه ان وقعت المضايقة فى هذا الوقف أو فى الوقف الآخر الذى وقفه السلطان أيضا على مصالح الفقراء الذاهبين الى الحجاز وعلى حمالهم وعلى سائر مهماتهم وكتب له وقفية مستقلة مشتملة على هذه الشروط والقيود، تكون مرعية بالخلود والايود، يلزم أن يعين كل واحد الآخر من الجانبين بزوائده، وبفضائل عوائده، باتمام ما يهم ويلزم له وبتكميله لدفع مضايقته وضرورته واسعاده واجتهاده اقرارا واعترافا صحيحين شرعيين، مصدقين محققين مرعيين، وقفا صحيحا شرعيا، وحبسا صريحا

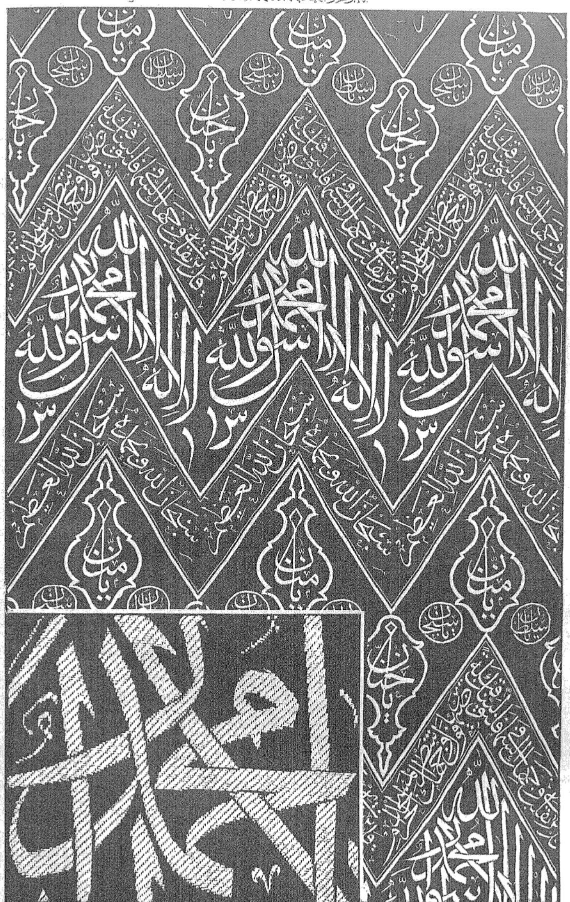
مرعيا ، حاويا على الحكم بصحته أصلا وفرعا ، على وجه يعتد به دينا وشرعا ، وغب رعايته شرائط الحكم والتبجيل ، وفى حصول الوقف والتسبيل ، لدى المولى الفضل النحرير الكامل الموقع أعلا هذا الصك الدينى ، والحفظ اليقينى ، وفتح الله تعالى أبواب الحقوق بمفاتيح أقلامه ، وأحكم الأمور بثبوت أحكامه ، فصار وقفا لازما مسلسلا متفق عليه على مقتضى الشرع ومرتضى أحكامه بحيث لا يرتاب صحته وابترامه لوقوع حكم المولى المومى اليه على رأى من رآه من الأئمة الماضين المجتهدين (رضوان الله تعالى عليهم أجمعين) عالما بالاختلاف الجارى بينهم فى مسألة الوقف علم خلوده بخلود السموات وأبوده بأبود الكائنات الى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين فلا يحل بعد ذلك لأحد يؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر ينقضه أو يبطله أو يحوّله أو يبدله فلا يملك بعد ذلك المؤمن أو خائفا من الله المهيمن بعد ما سمع قول رب العالمين ﴿ ألا لعنة الله على الظالمين ﴾ وأجر الواقف بعد ذلك على أرحم الراحمين جرى ذلك .

وحرر بالأمر العالى الخاقانى لا زال عاليا فى صفر المظفر المنخرط فى سلك شهور سنة سبع وأربعين وتسعمائة من هجرة من لا نبى بعده . وصلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين وفوا عهده .

قال التقى الفاسى : والكعبة تكسى فى عصرنا هذا يوم النحر من كل سنة إلا أنه لا يسبل عليها ثوبها فى هذا اليوم بل يسبل نصفه فقط ، والباقى فى أواخر ذى الحجة . وقد جرت عادة بنى شيبة أن يأخذوا الكسوة القديمة عند ورود الجديدة ويتصرفوا فيها بالبيع وغيره .

وذكر القاضى فى جامعه أن أمراء مكة كانوا يأخذون ستر باب الكعبة مع جانب كبير من الكسوة أو ٦٠٠٠ درهم عوضا عن ذلك ، الى أن رفع ذلك عنهم

منظر كسوة الكعبة المعظمة من الداخل



THE HOLY CARPET IN THE INTERIOR OF THE KAABA

[illegible]

الشريف عنان بن مغامس حين ولى مكة سنة ٧٨٨ هـ. وتبعه أمراء مكة الى زمن السيد حسن بن عجلان فكان يأخذ ستر الباب وكسوة المقام ويهديها الى من يشاء من الملوك وغيرهم ، وقد استمر ذلك لأمراء مكة الى الآن — العشر الثانية بعد الثمانمائة — اهـ .

قال التقى : ولم يكسها أحد من الملوك بعد الملك الصالح إسماعيل إلا أخوه الملك الناصر حسن لكن كسوته كانت لباطن الكعبة لا لظاهرها وهى الكسوة التى فى جوفها الآن — آن الفاسى — وقد أرسل هذه الكسوة سنة ٧٦١ هـ . وكان قبلها كسوة للملك المظفر صاحب اليمن ، وهو أوّل من كسا الكعبة من الملوك بعد انقضاء دولة بنى العباس من بغداد وذلك فى سنة ٦٥٩ هـ . واستمر يكسوها عدة سنين مع ملوك مصر، وانفرد بكسوتها فى بعض السنين . وأوّل من كساها من ملوك مصر بعد بنى العباس الملك الظاهر بيبرس .

وفى سنة ٨٢٥ هـ . أرسل برسباى ملك مصر كسوة حمراء لباطن البيت، وكان كلما ولى ملك أو سلطان أرسل الى الكعبة كسوة من الحرير الأحمر لداخل البيت وبأخرى خضراء للحجرة الشريفة النبوية . فلما استولت الدولة العلية على مصر سنة ٩٢٣ هـ . اختصت بكسوة الحجرة الشريفة النبوية وكسوة البيت الداخلية — فى (الرسم ١١٣) جزء من كسوة الكعبة الداخلية — واختصت مصر بكسوة الكعبة الخارجية فكانت ترسلها كل سنة ولا زال دأبها للآن . ومصر ترسل سنويا كسوة الكعبة الخارجية وستارة لبابها انظر (الرسم ١١١) وأخرى لباب التوبة (الرسم ١٠٤) — باب المدرج الداخلى — وثالثة لباب المنبر أنظر (الرسم ٩٦) وكسوة لمقام ابراهيم الخليل عليه السلام وكيسا لمفتاح الكعبة وقد قدّمنا لك فى (ص ٧ و ٨ و ٩) قطع الكسوة ووصفها وما تصنع منه، وذلك فى الإشهاد الذى كتب بتسليم الكسوة للمحملى بتاريخ ١٥ ذى القعدة سنة ١٣٢١ هـ . وهاك وصفا لها أحسن تفصيلا من

الأول أرسله الينا حضرة عبد الله بك فائق مأمور الكسوة بتاريخ ١٩ ديسمبر سنة ١٩٠٧ وقد أجملناه فيما يأتى :

كشف بتفصيل أجزاء كسوة الكعبة التى أرسلت من مصر

في سنة ١٣٢٥ هـ . الموافقة سنة ١٩٠٨ م . وكسوة مقام الخليل الخ

أحمال الكسوة — هى أحمال من نسيج حرير أسود « كمخ »(١) منقوش بالكتابة تتألف من ٦٢ ثوبا طول الواحد منها ٢٦ ذراعا بلديا — ٥٧ سنتيا — وعرض الثوب ٩٠ سنتيا بجملة أذرع الأثواب ١٦١٢ ذراع جميعها مغطى ومخيط بالحرير الأسود المفتول « وبالشموط(٢) والخرز(٣) » القطن ومبطن « بالبفتة(٤) » البيضاء « المقصورة(٥) » وبالجميع أحبال وعراو « نوار(٦) » من القطن « المردون(٧) » والكل مخرز بالجلد « السختيانى(٨) » الأحمر والجلد « الكوسلة(٩) » ومركب على كل حمل منهما حزام من الأحزمة الثمانية المبينة بعد ومركب على حملين منها أربع « رنوكات أو كرداشيات(١٠) » يأتى بيانها بعد وهاك تفصيل الأحمال وما عليها من الأحزمة .

حملان مركب كل منهما من ٩ أثواب بجملة الأثواب ١٨ والأذرع ٤٦٨ وعلى هذين الحملين الحزام الأول والثالث .

حملان مركب كل منهما من ٨ أثواب بجملة الأثواب ١٦ والأذرع ٤١٦ وعلى هذين الحملين الحزام الثانى والرابع .

حملان مركب كل منهما من ½ ٧ أثواب بجملة الأثواب ١٥ والاذرع ٣٩٠ وعلى هذين الحملين الحزام الخامس والسابع .

---

(١) الكمخ : المكتوب . (٢) الشموط : المفتول الرفيع . (٣) الخرز : المفتول الغليظ . (٤) البفتة : نسيج قطنى . (٥) المقصورة : العريضة . (٦) النوار : شريط قطنى يوضع على ملتقى العرضين . (٧) المردون المفتول . (٨) السختيانى : جلد المعز المدبوغ . (٩) الكوسلة : جلد غير مدبوغ . (١٠) الرنوكة أو الكردشية : الدائرة (انظر الرسم ٣) .

حملان مركب كل منهما من ½ ٦ أثواب بجملة الأثواب ١٣ والأذرع ٣٣٨ وعلى هذين الحملين الحزام السادس والثامن .

وباقى أجزاء الكسوة الأخرى مصنوع من الحرير الأطلس الأسود « السادة [١] » البالغ مقاسه ٢١١ ذراع ومن الأطلس « الساسى [٢] » الأحمر والأخضر الموضوع عليه « مخيش [٣] » الفضة الأبيض ومخيش الفضة الملبسة بالذهب « البندقى [٤] » الأصفر .

أحزمة الكسوة . هى ثمانية :

		الطول			وزنة المخيش	
الحزام	الأول	طوله ٧/٨ ١٢ ذراعا		وزنة المخيش	٧/١٢ ١٠٣٠	مثقال .
«	الثانى	« ٧/٨ ١١	«	« «	١/٤ ٩٤٧	«
«	الثالث	« ٧/٨ ١٢	«	« «	١٠٣٩	«
«	الرابع	« ٧/٨ ١١	«	« «	١/٤ ٩٨٣	«
«	الخامس	« ٧/٨ ١٠ أذرع	«	«	١/٢ ٩٠١	«
«	السادس	« ٧/٨ ٩	«	« «	١/٤ ٨٦٢	«
«	السابع	« ٧/٨ ١٠	«	« «	١/٤ ٨٦٧	«
«	الثامن	« ٧/٨ ٩	«	« «	١/٤ ٨٨٢	«
					١/٣ ٧٥١٣	

كردشيات الكسوة — هذه الكردشيات أربع طولها ستة أذرع مشغول عليها من المخيش بنوعيه السابقين ما زنته ٤٠٥ مثقال وهى مركبة على الحملين اللذين عليهما الحزام الأول والثانى وتوضع فى واجهة الكعبة الشرقية .

برقع الكعبة — هذا البرقع أربع قطع مصنوع من الحرير الأطلس الأسود «السادة» الذى بلغ مقاسه ¼ ٤٦ ذراعا، ومن الأطلس الساسى الأحمر والأخضر وقد وصل الجميع بعضه ببعض ووضع عليه مخيش الفضة الأبيض والفضة الملبسة

(١) السادة : غير المنقوش . (٢) الأطلس الساسى : نوع من الحرير يأتى من الخارج .
(٣) المخيش : أسلاك فضية . (٤) البندقى : الذى عياره ٩٩ ٪

بالذهب البندقى الأصفر والجميع أيضا مبطن « بالبفتة » البيضاء المقصورة وعليه من الدائر والوسط نوار وعُرًا من القطن « المردون » ومبطن أيضا بالأطلس الساسى الأخضر من فوق « البفتة » ويتكوّن البرقع من القطع الآتية :

العتبة[1] وذرعها ١٢ ٣/٤ ذراعا وزنة ما عليها من المخيش بنوعيه ١٤٠٤ ١/٣ مثقال

الطراز ذرعه ١١ ٣/٤ « « ماعليه « « ١٠٥٧ ١/٣ «

القائم الكبير « ١١ ٣/٤ « « « « « ١٤٥٥ ٢/٣ «

« الصغير « ٩ أذرع « « « « ٩٠١ «

وصلة القائمين ... ... « ما عليها « « ٤٣ مثقالا

٤٨٦١ ١/٣

وعلى البرقع ما يأتى : ستة أزرار فضية عيار ٩٠ مطلية بالذهب البندقى مركب كل منها على شمسيتين[2] .

أثنتى عشرة شمسية نسجت من الأطلس الأحمر وشغل عليها المخيش بنوعيه وبطنت بالجلد السختيانى الأحمر، وعلى كل منها شرابة[3] من القطن الهندى .

اثنتى عشرة شرابة صغيرة صنعت من القطن الهندى الأحمر والقصب « والكنتير[4] الششخانة » الأصفر والأبيض والمخيش العقادى[5] الأصفر، وكل منها ركب على شمسية

خمس شرابات كبيرة شغلت من الحرير الأسود والقصب والمخيش العقادى « والكنتير الششخانة » الأصفر والأبيض ، وكل شرابة لها « قيطان » شغل من الحرير الأسود .

---

(١) الستارة مكوّنة من أربع قطع تسمى العليا منها العتبة والتى تحتها الطراز والتى تليها القائم الصغير والسفلى التى فيها الفتحة تسمى القائم الكبير، والوصلة ما توصل به القطع بعضها ببعض .

(٢) الشمسية : دائرة مزركشة من النسيج تشبه أشعة الشمس توضع تحت الزرار . (٣) الشرابة : جملة خيوط قصيرة مجمعها تشبه الكرة . (٤) الكنتير الششخانة : نوع ملفوف من المخيش .

(٥) المخيش العقادى نوع مطلى بالذهب .

كسوة مقام أبينا ابراهيم الخليل عليه السلام — هذه الكسوة مؤلفة من خمس قطع القوائم الأربعة والسقف ومقاس ما فيها من الحرير الأطلس الأسود السادة ثلاثون ذراعا وهى مصنوعة من المواد المصنوع منها البرقع الا أنها ليست مبطنة بالأطلس الساسى الأخضر كالبرقع وأجزاء الكسوة وما عليها كما يأتى :

القائم الأول	طوله	$\frac{1}{8}$ ٧	أذرع	وزنة	ما عليه	من المخيش	٦١٤	مثقال
« الثانى	«	$\frac{1}{8}$ ٧	«	«	«	«	٦١٠	«
« الثالث	«	$\frac{1}{8}$ ٧	«	«	«	«	٦١٣	«
« الرابع	«	$\frac{1}{8}$ ٧	«	«	«	«	٦١٢	«
السقف ...	«	$\frac{1}{2}$ ١	«	«	«	من الفضة البيضاء	١٣٩	«
							٢٥٨٨	

خمسة أزرار فضية سبق وصفها . عشر شمسيات سبق وصفها .

عشر شرابات صغيرة « « . أربع شرابات كبيرة سبق وصفها .

« سجق »(1) شبكة بأزرار وشرابات من القطن الهندى الأحمر بخرز مركب فى أسفل المقام .

ستارة باب مقصورة ابراهيم الخليل — هذه الستارة مركبة من قطعتين طول كل منهما ١٠ أذرع ومن وصلة للقطعتين وهى مصنوعة من المواد المصنوع منها البرقع وزنة ما على القطعة الأولى من المخيش $\frac{2}{3}$ ٩١٥ مثقال وما على الثانية $\frac{1}{3}$ ٩٠٦ مثقال وما على الوصلة ٤٨ مثقالا فالجملة ١٨٧٠ وعليها ما يأتى :

خمسة أزرار فضة كالتى سبق وصفها . عشر شمسيات كالتى سبق وصفها .

عشر شرابات صغيرة .

ستارة باب التوبة — هذه الستارة مصنوعة مما صنع منه البرقع ومقاس ما فيها من الحرير الأطلس الأسود السادة $\frac{1}{2}$ ١١ ذراعا، وزنة ما عليها من المخيش بنوعيه $\frac{2}{3}$ ١٠٢٤

(١) السجق : شبكة من النسيج فى أطرافها كرات .

ستارة باب المنبر المكى — مصنوعة أيضا من المواد المصنوع منها البرقع ، ومقاس ما فيها من الحرير الأطلس الأسود السادة ٦ ¼ أذرع ، وزنة ما عليها من المخيش بنوعيه ٣٩٧ مثقال .

كيس مفتاح الكعبة — هذا الكيس من الأطلس الساسى الأخضر الذى مقاسه ذراع وثُمن وموضوع عليه مخيش فضة ملبس بالذهب البندقى الأصفر الذى زنته ٤٥ مثقالا « وكنتير ششخانه » أبيض « وترتر »[1] فضة أبيض مثقالين وهو مبطن بالأطلس الساسى الأخضر ومركب عليه «قيطان بشرابتين» مصنوعتين من قصب ومخيش عقادى أصفر و « كنتير ششخانة » .

أصناف لزوم الكسوة

ثلاثة أحبال « مجاديل »[2] زنتها ١٨٠ رطلا .

واحد وأربعون حبلا « عصفورة »[3] زنتها ٨٢ رطلا .

ستة وثلاثون ذراعا من « البفتة الخام » السمراء للحزم بها .

والكسوة وتوابعها تسلم الى الشيبى سادن الكعبة بعد أن تصل مكة بمقتضى إشهاد شرعى يحضره العلماء والكبراء ويحفظها فى بيته القريب من الصفا ، حتى اذا ما كان صباح يوم النحر والحجاج بمنى ألبستها الكعبة وتثبت عليها بواسطة حلقات من النحاس الأصفر فى دائر الكعبة العلوى وفى الشاذروان ، ويوضع عليها حزامها فيما دون ثلثها الأعلى . أما الكسوة القديمة فيرسل المقصب منها عادة الى سيادة الشريف ، واذا كان الحج بالجمعة يرسل الى جلالة السلطان ، وغير المقصب يأخذه الشيخ الشيبى فيبيعه للحجاج . وبجوار باب السلام حوانيت تباع فيها الكسوة

(١) الترتر : دوائر مثقوبة من وسطها . (٢) المجاديل : أحبال غليظة تعلق منها الكسوة فى سطح الكعبة بعد أن تخاط بأعالى الكسوة . (٣) العصافير : أحبال رفيعة تربط بها الكسوة فى حلق النحاس المثبت فى دائر الكعبة العلوى والشاذروان .

مخصوصة بذلك . وكان عمر ينزع الكسوة القديمة كل سنة ويفرّقها على الحجاج ، وتبعه فى ذلك عثمان الى أن وجد شيئا منها على حائض ، فأمر بحفر حفرة وألقى فيها الكسوة القديمة وأهال التراب عليها خوف أن يلبسها جنب أو حائض فقالت له عائشة : إن ثياب الكعبة اذا نزعت عنها لا يضرها من لبسها من حائض ولكن بعها واجعل ثمنها فى سبيل الله تعالى وابن السبيل ، ومن ثم صاروا يبيعونها ويأخذ الآن بنو شيبة ثمنها لأنفسهم ، وقد اختلف العلماء فى جواز بيعها فنقل جواز ذلك عن عائشة وابن عباس رضى الله عنهما ، وبه قال بعض الشافعية ، وقال بعضهم بعدم جواز بيعها وما أجمل كلمة عائشة التى ذكرناها .

والكسوة تعمل سنويا بمصر فى دار فسيحة بالخرنفش وإدارتها موكولة لمديرها عبد الله بك فائق .

ومصاريف الكسوة فى هذه السنة (١٣١٨ هـ — ١٩٠١ م) ٤١٤٣ جنيه وتفصيلها كما يأتى :

جنيه	
٥٠٤	مرتب مأمور الكسوة ٣٠٠ جنيه ومرتب كاتب ومخزنى ٢٠٤ جنية .
١٢٩	مرتبات خدمة سائرة .
٣٥١٠	نفقات فى صنع الكسوة من ثمن حرير ومخيش فضة ملبس بالذهب وأجرة العمال ونفقات المهرجان الخ .
٤١٤٣	

وكانت نفقاتها فى سنة ١٣٢٥ هـ ــ ٤٠٨٤ جنيه ، وقد ازدادت نفقاتها فى إبان الحرب الكبرى وبعدها حتى كانت فى سنة ١٣٤٠هـ ــ ١٠٣٢٢ جنيه وذلك لارتفاع أثمان الأشياء بعد قيام الحرب الكبرى وزيادة أجر العمال زيادة كبيرة .

والكسوة مكتوب فى كل جزء منها هذه العبارة «لا إله إلا الله محمد رسول الله . الله جل جلاله » (انظر الرسم ١١٢) وكذلك ستارة الباب مكتوب فيها آيات من

القرآن وبعض كتابات أخرى (انظر الرسم ١١١) ومكتوب على طراز الكسوة أو حزامها من جهاتها الأربع بعض آى القرآن المتعلقة بالكعبة ومن صنعت الكسوة فى عهده من الملوك (انظر الرسم ١١٠) وانظر فى (الرسمين ١١٤ و١١٥) حرفى «س» و« و» بحجمهما الأصلى من ضمن الكتابة التى فى الطراز وانظر فى (الرسم ١١٦) قطعة من ستارة الكعبة وانظر الكرداشية (الجامه) ومانقش داخلها فى (الرسمين ٣ و١١٧)٠

وهذا الخط العربى الجميل المسطور على الكسا والستائر والحزام وكيس الكعبة من كتابة الخطاط الماهر الذائع الصيت عبد الله بك زهدي كتبها فى عهد إسماعيل باشا خديوى مصر والد جلالة مليك مصر الآن فؤاد الأوّل ٠

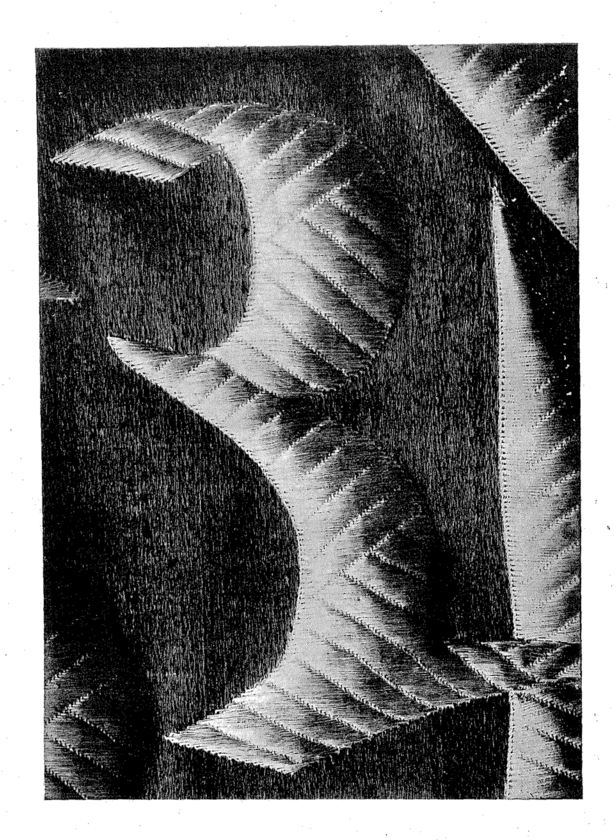
سدانة الكعبة ومفتاحها — سدانة الكعبة خدمتها والقيام بشأنها وفتح بابها وإغلاقه، وكانت أوّلا فى حى طسم قبيلة من عاد فلما آستخفوا بالكعبة وحرمتها أهلكهم الله، فوليت ذلك جرهم فسلكوا مسلك أسلافهم فأوردهم الله مواردهم ثم وليت البيت خزاعة فساروا سيرة سابقيهم فنزع الله ذلك من أيديهم الى قصىّ ، وذلك أن أبا غبشان آخر من ولى البيت من خزاعة آجتمع مع قصىّ فى شرب بالطائف فأسكره قصى وآشترى مفاتيح الكعبة منه بزق خمر وأشهد عليه ودفعها لابنه عبد الدار وطير به الى مكة فأفاق أبو غبشان أندم من الكسعى (١) فضربت به الأمثال فى الحمق والندم وخسارة الصفقة وفى ذلك يقول بعض الشعراء :

وبيعة كعبة الرحمن جمعا * بزق بئس مفتخر الفخور

(١) الكسعى الذى يضرب به المثل فى الندم هو عامد بن الحارث الكسعى الذى آتخذ قوسا وخمسة أسهم وكمن فى مختبأ فر قطيع فرمى حمارا وحشيا منه فنفذ منه السهم وصدم الجبل فأورى نارا فظن أنه قد أخطأ فرمى ثانيا وثالثا الى آخرها وهو يظن خطأه فعمد الى قوسه فكسرها ثم بات فلما أصبح نظر فاذا الحمر مطرحة مصرعة وأسهمه بالدم مضرجه فندم فقطع إبهامه وأنشد

ندمت ندامة لو أن نفسى * تطاوعنى إذا لقطعت خمسى

تبين لى سفاه الرأى منى * لعمر أبيك حين كسرت قوسى



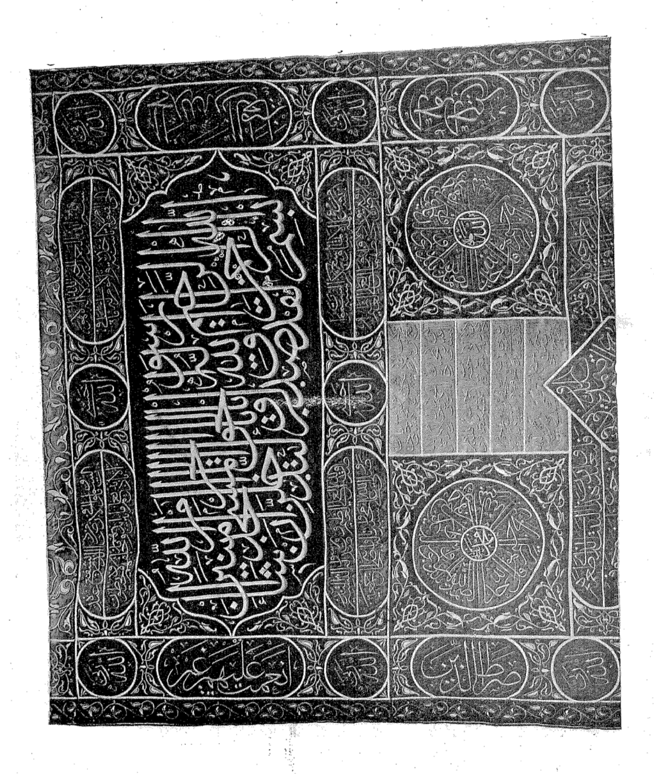
حرف (س)

114. A copy of the letter (س) in the same size as what is written on the Belt of the Kaaba.

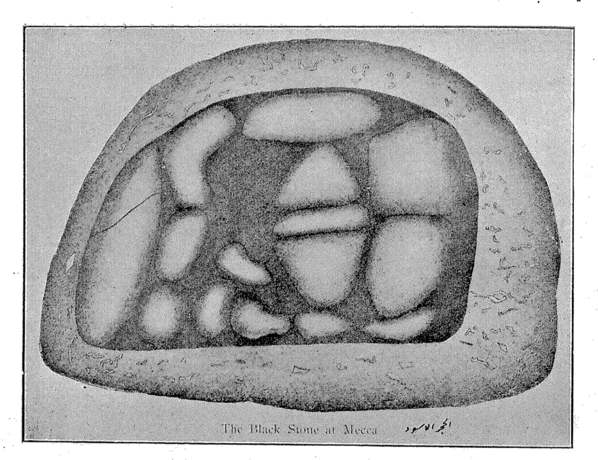
حرف (و)

115. A copy of the letter (و) in the same size as what is written on the Belt of the Kaaba

منظر ستارة الكعبة

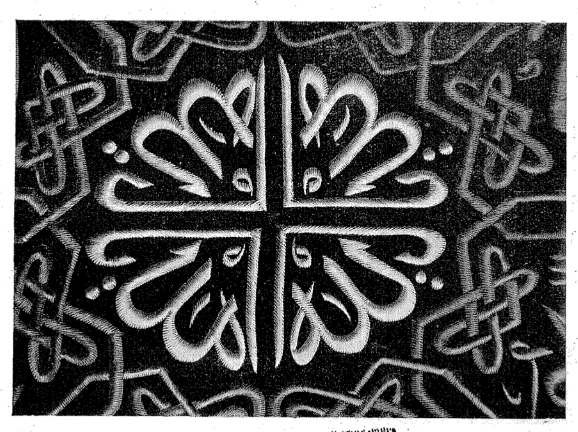


116. The curtain before the door of the Kaaba.



The Black Stone at Mecca الحجر الأسود

صحيفة ٢٩٨



جزء من كسوة الكعبة الشريفة

117. A view of the part of the carpet of El Kaaba (Ya Allah).

وقال آخر

أبو غبشان أظلم من قصىّ * وأظلم من بنى بكر خزاعة

فلا تلحوا قصيا فى شراها * ولوموا شيخكم إذ كان باعه

وقال آخر :

باعت خزاعة بيت الله إذ سكرت * بزق خمر فبئست صفقة البادى

وأخذ المفتاح بعد عبد الدار ولده عثمان ولم تزل السدانة فى ذرّيته حتى آنتقلت الى عثمان بن طلحة بن أبى طلحة بن عبد الله بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصىّ، وقد مات عثمان ولم يعقب فصارت الى آبن عمه شيبة بن عثمان، ولا تزال فى يد ولده للآن . وقد ردّ صلى الله عليه وسلم المفتاح الى عثمان بن طلحة بعد أن أخذه منه عمر، وقال : خذوها يابنى طلحة خالدة تالدة الى يوم القيامة لا ينزعها منكم إلا ظالم وفى ذلك نزل قوله تعالى : ﴿إن الله يأمركم أن تؤدّوا الأمانات الى أهلها﴾ وفى رواية أنه صلى الله عليه وسلم قال : «هاكم المفتاح يابنى شيبة وكلوا بالمعروف» قال العلماء هـذه ولاية من رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يحل لأحد أن ينزعها منهم . قال المحب الطبرى : هذا إن حافظوا على حرمة البيت فإن آستخفوا بها فلا خطر فى أن يقام عليهم مشرف يمنعهم من الظلم .

وقد حدث فى سـنة ٩٩٦ هـ ..لثلاث بقين من رمضان أن فتح الشيخ عبـد الواحد الشيبى الكعبة لزيارة النساء جريا على العـادة فسرق من حجره مفتاح الكعبة ، وكان مصفحا بالذهب فحصلت ضجـة وأغلقت أبواب المسـجد وفتش الناس فلم يظفروا به ثم وجده سـنان باشا باليمن مع رجل أعجمى بلغـه أنه عنـده فكبس داره فاذا بالمفتاح فيهـا مع مسروقات أخرى آعترف بها ، فجز رأسـه ورد المفتاح الى الشيخ عبد الواحد .

وقد جرت العادة من زمن مديد أن يصنع مع الكسوة كيس لمفتاح الكعبة يحفظ فيه عند أكبر بنى شيبة ، أنظر فى الرسم ٢ هذا الكيس، وقد نقش فى إحدى جهتيه ﴿ ان الله يأمركم أن تؤدّوا الأمانات إلى أهلها ﴾ وفوق ذلك وتحته أمر بعمل هذا الكيس المبارك مولانا السلطان محمد الخامس ، وفى الجهة الأخرى فى الوسط قوله تعالى ﴿ إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ وفوق ذلك وتحته جدّد هذا الكيس أفندينا عباس حلمى باشا خديو مصر سنة ١٣٢٧ هـ .

تطييب الكعبة — روى الأزرقى عن عائشة رضى الله عنها قالت : طيبوا البيت فان ذلك من تطهيره وقالت : لأن أطيب الكعبة أحب الىّ من أن أهدى لها ذهبا وفضة، وقد أجرى معاوية بن أبى سفيان للكعبة وظيفة الطيب لكل صلاة وكان يبعثه فى رجب كما أخدمها عبيدا، ثم اتبع الولاة بعده سنته . وكان عبد الله ابن الزبير يجمرها كل يوم برطل من المجمر — بضم ميمه الأولى وكسر الثانية وبوزن عنبر وهو العود الرطب — وفى يوم الجمعة برطلين . وجرت العادة بأن يرسل مع الكسوة كل سنة «غلايتان» من النحاس مملوءتان بماء الورد النقى ليغسل به الكعبة .

صلاة النبى صلى الله عليه وسلم فى الكعبة — روى مسلم فى صحيحه عن ابن عمر رضى الله عنهما قال قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح فنزل بفناء الكعبة وبعث الى عثمان بن طلحة فجاء بالمفتاح ففتح له الباب، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم البيت وعثمان بن طلحة وأسامة وبلال ، فلما خرجوا ابتدرهم الناس فقلت لبلال أصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى البيت؟ قال : نعم! قلت : أين؟ قال : بين العمودين المقدمين تلقاء وجهه، وفى رواية للشيخين عن ابن عمر : فسألت بلالا حين خرج ماذا صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال : جعل عمودا عن يمينه وعمودا عن يساره وثلاثة أعمدة وراءه وكان البيت يومئذ ستة

أعمدة ثم صلى ؛ وروى البخارى أيضا عن ابن عمر أنه كان اذا دخل الكعبة مشى قبل الوجه حتى يدخل ويجعل الباب قبل الظهر يمشى حتى يكون بينه و بين الجدار الذى قبل وجهه قريب من ثلاثة أذرع فيصلى يتوخى المكان الذى أخبره بلال أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى فيه وليس على أحد بأس أن يصلى فى أى نواحى البيت شاء . وكان ما صلاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى دخلته هذه ركعتين كما رواه كثير من الصحابة . وروى النسائى ومسلم عن أسامة بن زيد وابن سعد فى كتاب الطبقات، وأحمد فى مسنده، والطبرانى فى معجمه عن الفضل بن العباس والشيخان والنسائى عن ابن عباس أن ثلاثتهم قالوا : لم يصل النبي صلى الله عليه وسلم فى الكعبة وإنما دعا فيها وصلى ركعتين خارجها عند بابها . وقد رجح التقىّ الفاسى فى كلام طويل جميل رواية الإثبات على رواية النفى وذكر كثيرا من المسالك التى سلكها العلماء فى الجمع بين هاتين الروايتين المتنافيتين ونقدها فارجع اليها إن شئت . وقد دخل النبي صلى الله عليه وسلم الكعبة بعد هجرته أربع مرات فى يوم الفتح وفى اليوم التالى له وفى حجة الوداع وفى عمرة القضية ، وكل هذه الدخلات فيها خلاف إلا دخلته يوم الفتح فليس فيها خلاف ، وإنما اختلفوا فيها هل صلى داخل الكعبة أو خارجها . وقد استحب جمهور العلماء الصلاة فيها لما ثبت عندهم من صلاة النبي صلى الله عليه وسلم فيها ، ومنع ذلك طائفة من العلماء منهم ابن عباس ومحمد بن جرير واصبغ المالكى وبعض أهل الظاهر قالوا لا تصح فيها صلاة أبدا، لا فريضة ولا نافلة ومذهب مالك صحة النفل غير المؤكد فيها . وأما الفرض فالمشهور من مذهبه عدم صحته فيها، وقيل : يجوز ومثل الفرض النوافل المؤكدة، والأصح عند الحنابلة صحة النفل فيها وعدم صحة الفرض . ومذهب أبى حنيفة والشافعى صحة الفرض والنفل فيها . ويصلى المرء الى أى جهاتها شاء .

الحجر الأسود — قدّمنا لك وصفه والآن نذكر لك شيئا من أخباره وما ورد من الأحاديث فى شأنه وتراه فى (الرسم نمرة ١١٨) .

(١) تاريخه — روى الأزرقى عن ٱبن عباس . أن الله تعالى أنزله مع آدم عليه السلام ليستأنس به ، وروى ٱبن إسحاق : أن الله أودعه جبل أبى قبيس وقت طوفان نوح وأنه لما بنى الخليل البيت جاءه جبريل بالحجر الأسود فوضعه الخليل موضعه من البيت ، ولما أكره بنو بكر بن عبد مناة وغبشان بن خزاعة جرهما على الرحيل من مكة دفن عمرو بن الحارث بن مضاض الجرهمى الحجر فى زمزم وٱنطلق هو ومن معه من جرهم الى اليمن ثم أخرج من زمزم ووضع مكانه ولما ٱحترقت الكعبة فى عهد ٱبن الزبير تصدّع الحجر فكان ثلاث فرق وانشظت منه شظية كانت عند بعض آل بنى شيبة وقد شدّه ابن الزبير بالفضة ماعدا الشظية ثم تزلزلت الفضة حول الحجر وخيف عليه أن ينقض ، فلما ٱعتمر هارون الرشيد فى سنة ١٨٩ هـ . أمر بالحجارة التى بينها الحجر فنقبت بالماس من فوقها ومن تحتها ثم أفرغ فيها الفضة ، ولما وافى مكة عدوّالله أبو طاهر القرمطى فى سابع ذى الحجة سنة ٣١٩ هـ . بجيشه الجرار أعمل سيفه فى الطائفين والمصلين وفى مكة وشعابها وقتل هو وجيشه ما يربو على ثلاثين ألفا (عن كتاب الخميس) دفن كثيرا منهم فى بئر زمزم وفى المسجد الحرام بغير غسل ولا تكفين ولا صلاة ونهبوا أموال الحجيج وأهل مكة ، وركض أبو طاهر وهو سكران شاهر سيفه راكب فرسه ودخل المطاف فبالت فرسه وراثت وطلع الى باب الكعبة وهو يقول :

أنا بالله وبالله أنا * يخلق الخلق وأفنيهم أنا

وقد أقام بمكة أحد عشر يوما ، وفى ١٤ ذى الحجة قلع الحجر الأسود من مكانه وذهب به الى بلاد هجر وبقى موضعه خاليا يضع الناس فيه أيديهم للتبرك ، وفى يوم النحر من سنة ٣٣٩ هـ . وافى بالحجر سنبر بن الحسن القرمطى وقد شدّ بالفضة من شقوق حدثت فيه بعد قلعه ، ووضعه بيده فى مكانه وشدّه الصانع بجص أحضره معه سنبر وقال : أخذناه بقدرة الله ورددناه بمشيئة الله ، وكان وضع الحجر قبل حضور الناس من منى فكانت مدة بقائه بيد القرامطة ٱثنتين وعشرين سنة إلا أربعة أيام ، وقد بذل مدبر الخلافة ببغداد للقرامطة خمسين ألف دينار ليردّوا الحجر

الى موضـعه فأبوا وقالوا أخذناه بأمر ولا نردّه إلا بأمر . وكان ممـا فعلوا أن قلعوا باب الكعبة وأخذوا كسوته[١] .

(١) فى خلافة المعتمد العباسى (سـنة ٢٥٦ — ٢٧٩ ﻫ) ظهر شخص بسـواد الكوفة يقال له : قرمط دعا أهـل السواد والبادية ممن ليس لهم عقل ولا دين الى مذهبه فأجابوه وكان ما دعاهم اليه أنه جاء بكتاب فيـه (بسم الله الرحمن الرحيم) يقول الفرج بن عثمان وهو من قرية يقال لها نصرانة إنه داعية المسيح وهو عيسى وهو الكلمة وهو المهدى وهو أحمد بن محمد بن الحنفية وهو جبر يل وأن المسيح تصوّر فى جسم إنسان وقال : إنك الداعيـة وانك الحجة و إنك الناقة و إنك الدابة وانك يحى بن زكر يا و إنك روح القدس ، وعرفه أن الصلاة أربع ركعات ركعتان قبل طلوع الشمس و ركعتان قبل غروبها ، وأن الأذان فى كل صلاة أن يقول المؤذن : الله أكبر ثلاث مرات أشهد أن لا إله إلا الله مرتين أشهد أن آدم رسول الله أشهد أن نوحا رسول الله أشهد أن إبراهيم رسول الله أشهد أن عيسى رسول الله أشهد أن محمدا رسول الله أشهد أن أحمد بن محمد بن الحنفية رسول الله وأن القبلة الى بيت المقـدس وأن الجمعة يوم الاثنين لا يعمل فيها شىء. ويقرأ فى كل ركعـة الاستفتاح وهو المنزل على أحمد بن محمد بن الحنفية وهو الحمـد لله بكلماته وتعالى باسمه المنجد لأوليائه بأوليائه قل : إن الأهلة مواقيت للناس ظاهرها ليعلم عدد السنين والحساب والشهور والأيام ، و باطنها لأوليائى الذين عرفوا عبادى سبيلى واتقونى يا أولى الألباب وأنا الذى لا أسأل عما أفعل وأنا العليم الحليم ، وأنا الذى أبلو عبادى وأمتحن خلقى فمن صبر على محنتى وبلائى واختيارى أدخلته فى جنتى وأخلدته نعيمى ، ومن زل عن أمرى وكذب رسلى أخلدته به مهانا فى عذابى وأتممت أجلى وأظهرت أمرى على ألسنة رسـلى وأنا الذى لم يعل جبار إلا وضعته ولا عزيز إلا أذللته وبئس الذى أجبر على أمره ودام على جهالتـه وقال لن نبرح عليه عاكفين وبه موقنين أولئك هم الكافرون ثم يركع ، ومن شرائعه أن يصام يومان فى السنة وهما المهرجان والنيروز وأن النبيذ حرام والخمر حلال ولا غسل من جنابة ، لكن الوضوء كوضوء الصلاة وأن يؤكل كل ذى ناب وكل ذى مخلب . اﻫ .

ومن القرامطة على بن الفضـل القرمطى ظهر بصنعاء اليمن فى سـنة ٢٩٣ ﻫ . وارتكب المحظورات وأحل لأصحابه شرب الخمر ونكاح البنات وسائر المحرمات . وكان عنوان كتابه من باسط الأرض وداحيها ومزلزل الجبال ومرسيها علىّ بن الفضل الى عبده فلان وكان يؤذن فى مجلسه أشهد أنـ علىّ بن الفضل رسول الله وكان ينشد على المنبر بصنعاء

خذى الدف يا هذه وأضربى * وغنى هـذا ذيك ثم اطربى
تـولى نبى بنى هاشم * وهـذا نبى بنى يعـرب
أحل البنات مع الأمهات * ومن فضله زاد حل الصبى
وقد حط عنا فروض الصـلاة * وحط الصـيام ولم يتعب
إذا النـاس صـلوا فلا تنهضى * وأن أمسكوا فكلى وأشربى
ولا تطلبى السعى عنـد الصفا * ولا زورة القـبر فى يثرب
ولا تمنعى نفسك الناكحين * من الأقربين أو الأجنبى
فلم ذا حللت لهـذا الغريب * وصرت محـرّمة للأب

وفى سنة ٣٤٠ هـ . قلع الحجبة الحجر ووضعوه فى الكعبة خوفا عليه وجعل له طوق من فضة ويقال: إنه كان عليه من الفضة ٣٠٩٧,٥ درهم ثم رد الى مكانه .

وفى سنة ٤١٣ هـ . يوم النفر الأول ضرب رجل الحجر ثلاث ضربات بدبوس فانخدش وجهه وتساقطت منه شظايا مثل الأظفار وتشقق، فجمع بنو شيبة الشظايا وعجنوها بالمسك واللك وملؤا الشقوق وطلوها بطلاء .

وقد أخذ أمير مكة داود بن عيسى الحسنى طوق الحجر الأسود قبيل عزله عن مكة سنة ٥٨٥ هـ . وفى سنة ٧٨١ هـ . قلع الحجر من موطنه وحلى من حلية أرسلها الأمير سودون باشا .

(٢) استلام الحجر الأسود وتقبيله — روى البخارى ومسلم عن عبد الله ابن عمر رضى الله عنهما أنه سئل عن استلام الحجر فقال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يستلمه ويقبله، وكذلك روى عن جابر وعمر وغيرهما، وفى سنن الترمذى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم سجد على الحجر، وفى سنن البيهقى عنه أيضا قال: رأيت عمر بن الخطاب رضى الله عنه قبله وسجد عليه ثم قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل هكذا، وفى مسند الشافعى عن ابن عباس أنه قبل الركن — الحجر الأسود — وسجد عليه ثلاث مرات، ولم ير الامام مالك السجود عليه وقال : أنه بدعة وخالفه الجمهور فى ذلك ، وأخرج الترمذى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنه كان يزاحم على الركنين — الحجر والركن اليمانى — فقيل له فى ذلك ، فقال : إن أفعل فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن مسحهما كفارة للخطايا، وأخرج أحمد بن حنبل وابن حبان فى صحيحه

= أليس الفراش لمن ربه * وأسقاه فى الزمن المجدب
وما الخمر إلا كماء السماء * حلال فقدست من مذهب

وهى قصيدة طويلة حلل فيها سائر المحرمات — لعنه الله — وقد هلك مقصودا مسموما فى سنة ٣٠٣ هـ . ومدة محنته وكفره ١٩ سنة، وقد قويت شوكة القرامطة وأمتد سلطانهم وعلا ظلمهم فهتكوا حرمات الله ونهبوا قوافل الحجاج وقتلوا النساء والأطفال، وكان منهم أبو طاهر القرمطى صاحب حادثة الحجر الأسود .

عنه أيضا عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : مسح الحجر الأسود والركن اليمانى يحط الخطايا حطا . وروى سعيد بن منصور عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت لامرأة لا تزاحمى على الحجر إن رأيت خلوة فاستلمى وإن رأيت زحاما فكبرى وهللى اذا حاذيت ولاتؤذى أحدا، وفى البخارى عن عائشة ما يقتضى ترك استلام الحجر للنساء وهو محمول على ما اذا حضر الرجال كما دل عليه الحديث السابق .

وأخرج الستة البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى والترمذى ومالك عن عابس ابن ربيعة قال : رأيت عمر رضى الله عنه يقبل الحجر ويقول : إنى أعلم أنك حجر لا تنفع ولا تضر ولولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك ، وزاد مسلم والنسائى فى رواية ولكن رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بك حفيا ولم يذكر يقبلك، والحفى المبالغ فى الاكرام والعناية من الحفاوة .

الحطيم والحجر — الحطيم يطلق الآن على الجدار المطيف بالحجر وبذلك قال ابن عباس، وقيل : أن الحطيم ما بين الحجر الأسود ومقام إبراهيم وزمزم وحجر إسماعيل أى البقعة المحصورة بين الكعبة والحجر غربا والمقام وزمزم شرقا ، وهذا ما حكاه الأزرقى عن ابن جريج ، وفى كتب الحنفية أن الحطيم المكان الذى فيه الميزاب وذلك أليق بالاشتقاق لأن ذلك المكان حطم من الكعبة وفصل منها والأكثرون على القول الثانى .

والحجر ما أطاف به الحطيم — الجدار — وقد ذكر الأزرقى : أن ابراهيم عليه السلام جعل الحجر الى جنب البيت عريشا من أراك يقتحمه العنز وكان زربا لغنم إسماعيل وقد تقدّم أن قريشا أدخلت فى الحجر أذرعا من الكعبة حين بنتها لما قصرت عليهم النفقة الحلال التى أعدوها لعمارة الكعبة عن إدخال ذلك فيها ، وأن ابن الزبير أدخل ذلك فى الكعبة حين عمرها، وأن الحجاج أخرجه منها واستمر ذلك ليومنا ، وعلى ذلك فبعض الحجر من الكعبة وبعضه ليس منها ، ويدل لذلك ما فى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا عائشة ! لولا أن قومك حديثو عهد بشرك لهدمت الكعبة فالزقتها بالأرض ولجعلت

لهـا بابا شرقيا وبابا غربيا وزدت فيها ستة أذرع من الحجر فإن قريشا استقصرتها حيث بنت الكعبة ، وفى رواية فان بدا لقومك من بعدى أن يبنوه فهلمى لأريك ما تركوا منه فأراها قريبا من سبعة أذرع ، وفى مسلم عن عطاء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لولا أن الناس حديث عهدهم بكفر وليس عندى من النفقة ما يقوى على بنائه لكنت أدخلت من الحجر خمسة أذرع ، وذكر عطاء أن ابن الزبير زاد فى البيت خمسة أذرع من الحجر، وأنه بدا له أساس نظر اليه الناس فبنى عليه ، وأما ما رواه الشيخان من حديث عائشة قالت : سألت النبى صلى الله عليه وسلم عن الحِجر أمن البيت؟ قال : نعم! قلت : فما لهم لم يدخلوه فى البيت؟ قال : إن قومك قصرت بهم النفقة الخ، فلا يعارض ما ذكرنا من أن بعضه من البيت لأن حديث عائشة هذا مطلق وأحاديثها السابقة مقيدة ، والمطلق يحمل على المقيد، وقد اختلف الفقهاء هل يصح الطواف من الحِجر بعد السبعة الأذرع من البيت أم لا يصح الطواف إلا من وراء الحطيم كما فعل النبىّ صلى الله عليه وسلم قال كثيرون بالأوّل وقال آخرون بالثانى .

ونذكر لك طرفا من عمارة الحجر فنقول : لما حج المنصور العباسى سنة ١٤٠ هـ . دعا زياد بن عبيد الله الحارثى أمير مكة وقال له : إنى رأيت الحِجر بادية حجارته فلا أصبحن حتى يستتر جداره بالرخام فدعا زياد بالعمال فرخموه ليلا على ضوء المصابيح ، ثم جدّد المهدى رخامه سنة ١٦١ هـ . ولم يزل به حتى رث فقلع وألبس رخاما جميلا فى عهد المتوكل العباسى سنة ٢٤١ هـ . وعمر الحِجر المعتضد العباسى سنة ٢٨٣ هـ . والوزير جمال الدين المعروف بالجواد فى العقد الخامس بعد ٥٠٠ هـ . وعمر قبله أيضا وفى زمن الناصر العباسى سنة ٥٧٦ هـ . وعمره المستنصر العباسى والملك المظفر صاحب اليمن ، والملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٠هـ . والأشرف شعبان سنة ٧٨١ هـ . وذلك بأمر الأميرين بركة وبرقوق مدبرى دولته ، وعمره أيضا الظاهر برقوق سنة ٨٠١ هـ . — المكتوب على الحجر من الجهة الغربية تاريخ ٧٨٠ — وثبت كثير من رخام الحجر بالجبس فى سنة ٨٢٢ هـ . وأصلح قسم كبير

من رخام الجدار وأرض الحجر سنة ٨٢٦ هـ . وذلك بأمر الأمير زين الدين مقبل القديرى ، وعمره السلطان جقمق سنة ٨٤٣ هـ . وقايتباى سنة ٨٨٠هـ . والسلطان سليمان سنة ٩٤٠ هـ . والسلطان محمد خان سنة ١٠٧٣ هـ .

وقد تقدّم لك وصف الحِجر الآن ومقاسه فى ص ٢٦٦ ونزيد على ذلك أن فيه رخامة خضراء تحت الميزاب يقال إنها موضع قبر إسماعيل عليه السلام والناس يتحرون هذه الرخامة للصلاة عندها ، مع أن الصلاة الى القبور أو عليها منهى عنها . وفى الحديث الصحيح « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ». وأكثر المؤرّخين على أنه مدفون بالحجر ويؤيد ذلك قول ضِرار بن الخطاب :

لم يحظ بالحجر فيما قد مضى أحد * من البرية لا عرب ولا عجم
بعد ابن هاجر إن الله فضله * إلا زهير له التفضيل والكرم

يعنى زهير بن الحارث بن أسد .

ومما رأيته مكتوبا على حائط الحجر من الجهة الغربية تواريخ لمحمد بن قلاوون ولبرقوق ولجقمق ولقايتباى هى التى قدّمناها لك . ومكتوب على الحجر قبالة الميزاب من الأعلى :

نعم المطاف ترابه * فى عين أرمد إثمد[1]
ويطوفه بالليل والـ * أسحار قوم هجد
الله بارك فرشه * مع من بناه يخلد
زان المطاف بمرمر * ملك الأنام محمد

ثم تاريخ للسلطان سليمان سنة ٩٤٠ هـ . وبعده

لا سيما من نسلهم * سلطاننا المستمجد
بزلال صارم سيفه * للظى[2] الصلال محمد

---

(١) الارمد : المريض بالرمد ، والإثمد : الكحل .

(٢) هكذا فى الحجر .

الله خلد ملكه * والعدل فيه مؤيد
كالبدر يشرق نوره * إذ جنّ ليل أسود

وتاريخ للسلطان محمد خان سنة ١٠٧٣ هـ . وفى أوّل حائط الحجر فى الأعلى من الجهة الشرقية :

الحمـــد لله الذى * جعل المطاف منورا
بضيا جبينه زين(١) * كالشمس أضحى(١)

الحج فى الجاهلية وما يتبعه

من زمن مديد والعرب فى جاهليتها تحج الى البيت الحرام وكانوا على دينين حلة وحمس ، فالحمس قريش ومن والاها من كنانة وخزاعة والأوس والخزرج وقضاعة وجديلة وغطفان وعدوان وغيرهم من قبائل العرب سمّوا بذلك لتحمسهم فى دينهم، والحماسة : الشجاعة ، والأحمس : الشجاع أو لأنهم احتموا بالحمساء وهى الكعبة ، وكانت قريش إذا زوّجت عربيا من بناتهم شرطوا عليه أن كل من ولدت منه فهو أحمسى على دينهم يرون أن ذلك أحفظ لشرفهم وأبسط لسلطانهم ، وكانت لهم فى العرب ميزة لم تكن لغيرهم ومنشأ ذلك فضل فيهم وكمال فى أخلاقهم ، فقد كانوا حلفاء متآلفين وبكثير من شريعة إبراهيم متمسكين ولم يكونوا كالأعراب الأجلاف ولا كمن لا يوقره دين ولا يزينه أدب ، وكانوا يختنون أولادهم ويحجون البيت ويقيمون المناسك ويكفنون موتاهم ويغتسلون من الجنابة وتبرءوا من الهربذة(٢) وتباعدوا فى المناكح من البنت وبنت البنت والأخت وبنت الأخت غيرة وبعدا من المجوسية ، ونزل القرآن بتوكيد صنيعهم وحسن اختيارهم وكانوا يتزوّجون بالصداق والشهود ويطلقون ثلاثا ، ولذلك قال عبد الله بن عباس وقد سأله رجل عن طلاق العرب فقال : كان الرجل يطلق امرأته تطليقة ثم هو أحق بها فان طلقها ثنتين فهو أحق بها أيضا فان طلقها ثلاثا فلا سبيل له اليها ولذلك قال الأعشى :

(١) هكذا فى الحجر . (٢) الهربذة سير دون الخبب .

أيا جارتى بينى فانك طالقــه * كذاك أمور الناس غاد وطارقه
وبينى فقــد فارقت غير ذميمة * وموموقة منــا كما أنت وامقــه(١)
وبينى فان البين خير من العصا * وأن لاترى لى فوق رأسك بارقه

وكان من عادة الحمس اذا أحرموا أن لا يأتقطوا الأقط(٢) ولا يأكلوا السمن ولا يسلوه — لا يطبخوه ولا يعالجوه — ولا يمخضوا اللبن ولا يأكلوا الزبد ولا يلبسوا الوبر ولا الشعر ولا يغزلوه أو ينسجوه أو يستظلوا به ما داموا حرما، وما كانوا كذلك يأكلون شيئا من نبات الحرم، وكانوا يعظمون الأشهر الحرم ولا يخفرون فيها الذمة ولا يظلمون، وكانوا يطوفون بالبيت عليهم لباسهم، وكانوا اذا أحرم الرجل منهـم فى الجاهلية وأوّل الاسلام فان كان من أهل البيوت نقب نقبا فى ظهر بيته فمنه يدخل ومنه يخرج، وما زالوا كذلك حتى بعث الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم فأحرم عام الحديبية، فدخل بيته وكان معه رجل من الأنصار فوقف الأنصارى بالباب فقال له ألا تدخل ؟ فقال الأنصارى : إنى أحمسىّ يا رسول الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أحمسى دينى ودينك سواء، فدخل الأنصارى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الباب، وفى ذلك نزل قوله تعالى : ﴿ وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ وقال الحمس لأنفسهم : لا تعظموا شيئا من الحل كما تعظمون الحرم فإنكم إن فعلتم ذلك استخفت العرب بحرمكم، وقالوا : قد عظموا من الحل مثـل ماعظموا من الحرم فتركوا الوقوف على عرفة والإفاضة منها وجعلوا موقفهم بطرف الحرم من جهة نمرة يظلون به عشـية عرفة ويفيضون منـه الى المزدلفة، فاذا عمت الشمس رءوس الجبال وقفوا وكانوا يقولون : نحن أهـل الحرم لا نخرج من الحرم ونحن الحمس، فعلوا ذلك وأقروا سائر العرب على الوقوف بعرفة والإفاضة منها وتلك شريعة إبراهيم يعرفونها حق المعرفة ولكن ترفعهم ومغالاتهم تنكب بهم عن سبيلها، فشرعوا لهم من

(١) ومقه : أحبه. (٢) طعام يتخذ من المخيض الفتحى يطبخ ثم يترك حتى يمصـل أى يخرج ماؤه، والاقط مثلثه ويحرك ككتف ورجل وإبل.

الدين ما لم يأذن به الله ، ومنشأ ذلك الغلو أن الله تعالى لما أهلك أبرهة الحبشى صاحب الفيل وسلط عليه الطير الأبابيل (الجماعات) عظمت جميع العرب قريشا وأهل مكة ، وقالوا : أهل الله قاتل عنهم وكفاهم مؤونة عدوهم فازدادوا فى تعظيم الحرم والمشاعر الحرام والشهر الحرام ووقروها ، ورأوا أن دينهم خير الأديان وأحبها الى الله تعالى ، وقالت قريش وأهل مكة : نحن أهل الله وبنو إبراهيم خليل الله وولاة البيت الحرام وسكان حرمه وقطانه فليس لأحد من العرب مثل حقنا ولا مثل منزلتنا ولا تعرف العرب لأحد مثل ما تعرف لنا ، فابتدعوا عند ذلك أحداثا فى دينهم أداروها بينهم فكان منها ما تقدّم . ومنها أنهم ما كانوا يجيزون لأحد من الحلة — من ليسوا بحمس — أن يطوف بالبيت أوّل طوافه إلا اذا لبس ثوبا أحمسيا يشتريه أو يستأجره أو يستعيره فاذا ما أتى الواحد منهم باب المسجد رجلا كان أو امرأة قال : من يعير مصونا من يعير ثوبا الخ فان وفق لثوب أحمسى لبسه وطاف به وإن لم يوفق ألقى ثيابه بباب المسجد من الخارج ثم دخل للطواف عريانا فيبدأ بأساف — صنم — ليستلمه ثم يستلم الركن الأسود ثم يأخذ عن يمينه ويطوف جاعلا الكعبة عن يمينه فاذا ختم طوافه سبعا استلم الركن ثم استلم نائلة — صنم — فيختم بها طوافه ثم يخرج فيجد ثيابه كما تركها لم تمس فيأخذها ويلبسها ولا يعود بعد ذلك الى الطواف عريانا ، وكان بعض النساء يلبسن درعا مفرج المقاديم والمآخير ومنهن من تتخذ سيورا تعلقها فى حقوتها[1] وتستتر بها وتقول

اليوم يبدو بعضه أوكله * فما بدا منه فلا أحله

وكانت العادة أن يطوف العراة من الرجال نهارا ومن النساء ليلا وكان ، من له فضل ثياب من الحلة ولم يجد ثوبا أحمسيا يطوف فيه طاف فى ثيابه التى قدم بها من الحل ، فاذا ما أتم طوافه نزعها فجعلها لقا يطرح بين أساف ونائلة فلا يمسها أحد ولا ينتفع بها حتى تبلى من وطء الأقدام والشمس والرياح والمطر ، قال ورقة بن نوفل يذكر اللقا

(١) الحقوة : معقد الازار .

كفى حزنا كرّى عليه كأنه * لقا بين أيدى الطائفين حريم

وكان من خبر الطواف عريا أنه جاءت امرأة يوما وكانت ذات هيبة وجمال فطلبت ثيابا فلم تجد وتحتم عليها الطواف عريانة فنزعت ثيابها بباب المسجد ثم دخلت عريانة قد وضعت يديها على فرجها وجعلت تقول :

اليوم يبدو بعضه أوكله * وما بدا منه فلا أحله
أخثم[1] مثل القعب[2] بادظله * كأن حمى خيبر تمله[3]

فجعل فتيان مكة ينظرون اليها وتزوّجت فى قريش ، وجاءت امرأة أخرى تطوف عريانة وكان عليها مسحة الجمال فرآها رجل فأعجبته فدخل الطواف وطاف فى جنبها لأن يمسها فأدنى عضده من عضدها فآلتزقا فخرجا من المسجد من ناحية بنى سهم عاريين على وجوههما فزعين لما أصابهم من العقوبة ، فلقيهما شيخ من قريش خارجا من المسجد فسألهما عن شأنهما فأخبراه بقضيتهما فأفتاهما أن يعودا الى المكان الذى أصابهما فيه ما أصابهما ويدعوا الله سبحانه مخلصين عازمين على ترك العود فرجعا ودعوا وأخلصا فآفترقت أعضاءهما وذهب كل الى ناحية .

عادة سيئة وبدعة شنيعة أبى الاسلام إلا هدمها والقضاء عليها ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سنة تسع على بن أبى طالب الى أبى بكر أمير الحج ليؤذن فى الناس بأربع : لا يطوف بالبيت عريان ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ، ولا يجتمع مسلم ومشرك فى الحرم بعد عامهم هذا ، ومن كان له عند النبى صلى الله عليه وسلم عهد فعهده الى مدّته ومن لم يكن له عهد فعهدته أربعة أشهر ، وذلك ما جاء فى الآيات من سورة الاعراف وسورة التوبة ففى الأولى ﴿ يا بنى آدم خذوا زينتكم — ثيابكم — عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾ وفى الثانية ﴿ براءة من

(١) عريض . (٢) القدح الضخم . (٣) تعرقه ، والملال والملة : عرق الحمى .

الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر واعلموا انكم غير معجزى الله وأن الله مخزى الكافرين — الى أن يقول — إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم إن الله يحب المتقين ﴾ وفيها ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم ﴾ وقال فى سورة المائدة ﴿ إنه من يشرك بالله فقد حرّم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار ﴾ .

وكان من عادة أهل الجاهلية أن يدخلوا الكعبة لابسى أحذيتهم حتى سنّ لهم الوليد بن المغيرة خلع الخف والنعل إذا ما دخلوا فاستن العرب بسنته إعظاما للكعبة وإجلالا . وكان من عادتهم أيضا إذا اقترب موسم الحج أن يخرج مريدوه الذين يرجون اليه تجارة من ديارهم الى عكاظ فيوافوه مستهل ذى القعدة ويقيموا فيه عشرين ليلة تقوم فيها أسواقهم وتنفق سلعهم وتنحاز كل قبيلة الى منزل أعدوه للقرى فأقاموا عليه الرايات واستدعوا اليه الأضياف يستقبلهم القادة منهم والأشراف فينزلونهم أهلا وسهلا ومرعى خصبا ، وتختلط القبائل بعضها ببعض فى بطن السوق متناشدين ومتبايعين ، فاذا ما مضت العشرون انصرفوا الى مجنة فأقاموا بها عشرا أسواقهم فيها قائمة وتجارتهم رائجة ، فاذا رأوا هلال ذى الحجة انصرفوا الى ذى المجاز فأقاموا به ثمان ليال يروّجون فيها البضاعة ثم يخرجون من ذى المجاز الى عرفة يوم

---

(١) سوق على طريق الصنعاء وراء قرن المنازل بمرحلة وهى سوق لقيس بن عيلان وثقيف وأرضها لنصر . (٢) سوق بأسفل مكة على بريد منها وهى سوق لكنانة وأرضها أرض كنانة وهى التى يقول فيها بلال :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة * بفخ وحولى اذخر وجليل
وهل أردن يوما مياه مجنة * وهل يبدون شامة وطفيل

وشامة وطفيل : جبلان مشرفان على مجنة . (٣) سوق لهذيل عن يمين الموقف من عرفة على فرسخ من عرفة .

التروية ، وسموه بذلك لأنه ينادى بعضهم بعضا بذى المجاز أن ترووا من المـاء لأنه لا ماء بعرفة ولا بالمزدلفة ، وكان يحضر هذه المواسم من يبتغى مع الحج التجارة ، أما من أراده لحسب فيخرج متى شاء . وكان أهل مكة يخرجون يوم التروية بعد أن يترووا من المـاء فتنزل الحمس فى طرف الحرم من نمرة يوم عرفة ، والحـلة تقف بعرفة وكذلك كان يفعل النبى صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة بترك الحمس الى الحلة ، وكانوا لا يتبايعون يوم عرفة ولا أيام منى ، فلما أن جاءت الحنيفية أحلت ذلك قال تعالى ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضـلا من ربكم ﴾ وكانت الحلة تفيض من عرفة يوم عرفة اذا طفلت[1] الشمس للغروب والحمس يفيضون من نمرة فى الوقت نفسه فيلتقون جميعا فى المزدلفة ويبيتون بها حتى اذا طلع الفجر واختلط بياض النهار بظلام الليل وقف الجميع على قزح حتى تطلع الشمس على رءوس الجبال كأنها عمائم الرجال ، فيدفعوا من المزدلفة الى منى وكانوا يقولون أشرق ثبير كيما نغير وفى إفاضة الحمس نزل قوله تعالى ﴿ ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس وأستغفروا الله إن الله غفور رحيم ﴾ فجعلت الإفاضة للجميع من عرفة وخطب بذلك النبى صلى الله عليه وسـلم فى حجة الوداع يوم عرفة فكان ممـا قال : وإنا لا ندفع من عرفة حتى تغرب الشـمس ويحل فطر الصائم وندفع من مزدلفـة غدا إن شاء الله قبل طلوع الشمس ، هدينا مخالف لهدى أهل الشرك والأوثان .

وكان أهل الجاهلية يرون أن من أفجر الفجور العمرة فى أشهر الحج ويقولون اذا برأ الدبر[2] وعفى[3] الوبر ودخل صفر حلت العمرة لمن اعتمر ، يعنون دبر الإبل التى حجوا عليها ووبرها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الاسلام : دخلت العمرة فى الحج الى يوم القيامة ، واعتمر عمرة كلها فى ذى القعدة عمرة الحديبية وعمرة القضاء وعمرة من الجعرانة .

وكانوا يعظمون الحـرم والأشهر الحرم فلا يعدو بعضهم على بعض فيهـا ويلق الرجل قاتل أخيه وأبيه فلا يتعرّض له بسوء ، وكان الرجل اذا أحدث الحدث

(١) طفلت الشمس : تغير لونها . (٢) الدبر : جمع دبرة وهى قرحة الدابة . (٣) عفى : كثر .

فقتل أو لطم أو ضرب اتخذ من لحا شجر الحرم قلادة لعنقه وقال : أنا ضرورة فلا يقتص منه، وقد أبطل الاسلام ذلك فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لا ضرورة فى الإسلام وان من أحدث حدثا أخذ بحدثه .

والذى سنّ لهم تلك الشرائع الخرقاء عمرو بن لحىّ بن حارثة بن عمرو بن عامر الخزاعى الذى غير دين الحنيفية دين ابراهيم عليه السلام وكان سيدا شريفا مطاعا فى قومه يطعم الطعام ويحمل المغرم وكل ما قال فهو دين متبع لا يعصى ، وهو الذى جاء بهبل من أرض الجزيرة فجعله فى الكعبة وجعل عنده عشرة أقداح يستقسمون بها، فى كل قدح منها كتابة يعملون بما تضمنته فكان مكتوبا فى أحدها أمرنى ربى وفى آخر نهانى وثالث غفل، فاذا أراد الرجل أمرا أو سفرا أخرج هذه الأقداح الثلاثة فضرب بها فإن خرج الأوّل مضى وإن كان الثانى نكص وإن طلع الثالث أعاده الكرة حتى يخرج الآمر أوالناهى،أما السبعة الباقية فمكتوب على أحدها الفعل وفى ثان نعم وفى ثالث لا وفى رابع منكم وفى خامس من غيركم وفى سادس ملصق وفى سابع المياه ، فاذا أرادوا أن يختنوا غلاما أو ينكحوا أيما أو يدفنوا ميتا ذهبوا الى هبل بمائة درهم وجزور ثم قالوا لغاضرة بن حبشية بن سلول بن كعب بن عمرو الخزاعى الذى اليه أمر القداح هذه مائة درهم وجزور ولقد أردنا كذا وكذا فأضرب لنا على فلان بن فلان فان كان كما قال أهله خرج «الفعل» أو «نعم» أو «منكم» فما خرج من ذلك انتهوا اليه فى أنفسهم وإن خرج «لا» ضرب على المائة فان خرج «منكم» كان منهم وسيطا وإن خرج «من غيركم» كان حليفا وإن خرج «ملصق» كان دعيا نفيا، فمكثوا زمانا وهم يخلطون حتى جاء الاسلام بتحريم ذلك، قال تعالى : ﴿ حرمت عليكم الميتة والدم — الى أن يقول — وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق ﴾ وقال تعالى ﴿ يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب[1] والأزلام رجس[2] من عمل الشيطان فآجتنبوه لعلكم تفلحون ﴾ .

---

(١) الانصاب : الحجارة التى كانوا يذبحون عليها القرابين لآلهتهم . (٢) نجس .

وعمرو هـذا هو الذى غير تلبية إبراهيم ، فبينما هو يسـير على راحلتـه فى بعض مواسم الحج وهو يلبي إذ تمثل له إبليس فى صورة شيخ نجدى على بعير أصهب فسايره ساعة ثم لبى إبليس فقال : لبيك اللهم لبيك ، فقال عمرو بن لحى مثل ذلك ، فقال إبليس : لبيك لا شريك لك ، فقال عمرو مثله ، فقال إبليس : إلا شريك هو لك ، فاستنكر ذلك عمرو ، فقال إبليس : بعده ما يصلحه : إلا شريك هو لك تملكه وما ملك ، فقال عمرو : ما أرى بهذا بأسا فما زالت كذلك حتى ردّها الإسلام الى ما كانت عليه فى شريعـة إبراهيم « لبيك اللهم لبيك . لبيك لا شريك لك لبيك . أن الحمد والنعمة لك والملك . لا شريك لك » .

ومن عادة العرب فى جاهليتهم — كما حكاه الفاكهى — أن الصبية اذا بلغت ألبسها أهلها من الثياب أحسن ما يجدون وجعلوا عليها من الحلى ما يقدرون ودخلوا بها المسجد الحرام سافرة الوجه فتطوف بالبيت والأبصار ترنو إليها والناس يتساءلون من هذه فإن كانت حرّة قالوا : فلانة بنت فلان ، وإن كانت مولدة قالوا : مولدة فلان قد بلغت أن تخدر فى بيتها وأراد أهلها أن تستكن فى كنها فاذا قضت طوافها خرجت تشيعها الأبصار العفيفة ، فاذ ذاك يرغب النـاس فى نكاحها إن كانت من الحرائر وفى شرائها إن كانت من الاماء ، وبعد أن تصل الى بيتها تحتجب فيه فلا تخرج منه إلا الى بيت زوجها أو الى حظيرة سيدها فكانوا يعطون للخطيب فرصة يتعرّف فيها جمال المخطوبة وجعلوا ذلك فى جوار البيت ليأمنوا النظرات الخبيثة .

وكانت الإفاضة فى الجاهليـة الى صوفة أخزم بن العاص ، وكان له ولد تصدّق به على الكعبة يخدمها فجعل اليه حبشية بن سلول الخزاعى الإفاضة بالناس من أجل نذره الذى نذر ، وكان الى حبشية حجابة الكعبة وإمرة مكة فحينما يقف الناس فى الموقف يقول حبشية : أجز ياصوفة فيقول صوفة أجيزوا أيها الناس فيجوزون ، وولى الإفاضة بعده ولده أخزم الذى نذره للكعبة وقام بخدمتها مع أخواله من جرهم وأعقب أخزم على الإفاضـة ولده من بعـده فى زمن جرهم وخزاعة حتى انقرضوا ، ثم صارت الإفاضـة فى عدوان بن عمرو بن قيس بن غيلان بن مضر فى زمن قريش

فى عهد قصى ، وكانت من بنى عدوان فى آل زيد بن عدوان يتوارثونها حتى جاء الاسلام وكان عليها أبو سيارة العدوانى الذى أفاض بالمشركين فى سنة ثمان ، وأفاض أمير مكة عتاب بن أسيد بالمسلمين .

وكان حضنة البيت يكرمون الحجاج فى الجاهلية ، فروى عن هاشم بن عبد مناف أنه كان يقول لقريش اذا حضر الحاج : يا معشر قريش إنكم جيران الله وأهل بيته خصكم الله بذلك وأكرمكم به ثم حفظ منكم أفضل ما حفظ جار من جاره فأكرموا أضيافه وزوّار بيته يأتونكم شعثا غبرا من كل بلد .

وروى مثل هـذا عن قصىّ بن كلاب بن مرة فكان كل قرشىّ يخرج خرجا من ماله فى كل موسم من مواسم الحج يعطيه لمن يقوم بالرفادة — إطعام الحاج — من قريش فيصنعه طعاما للحجاج أيام الموسم بمكة ومنى ، وبقى ذلك مدة فى عهد الإسلام — حكاه الأزرقى .

إنساء الشهور — إنساء الشهور تأخيرها عن أماكنها الفطرية ، والنسىء مصدر من قول القائل : نسأت فى أيامك ونسأ الله فى أجلك أى زاد الله فى أيام عمرك ومدة حياتك حتى تبقى فيها حيا ، وكل زيادة حدثت فى شىء فالشىء الحادث فيه الزيادة بسبب ماحدث فيه نسىء ، ولذلك قيل للبن اذا كثر بالماء نسىء وقيل للمرأة الحبلى : نسوء ، ونسئت المرأة لزيادة الولد فيها ، وقيل : نسأت الناقة وأنسأتها اذا زجرتها ليزداد سيرها .

كان أهل الجاهلية اذا ما رغبوا فى القتال فى شهر المحرم أخروه الى صفر وأحلوا القتال فى المحرم وسموا صفر المحرم وربيع الأوّل صفر وهكذا حتى يكون ذو الحجة فى نهاية السنة الشهر المحرم ، وكانوا يفعلون هذا سنة ويتركونه سنة ، فكان ذو الحجة يعود الى مكانه الأوّل بعد أربع وعشرين سنة ، وأوّل من أنسأ الشهور من مضر مالك بعد كنانة ثم ابنه ثعلبة ثم أخوه الحرث بن مالك المعروف بالقلمس ثم سرير بن الحارث ، ثم كانت النساءة فى بنى فقيم من بنى ثعلبة حتى جاء الاسلام ، وكان آخر من نسأ منهم أبو ثمامة جنادة بن عوف بن أمية بن عبد بن فقيم وهو الذى جاء فى زمن

عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى الركن الأسود فلما رأى الناس يزدحمون عليه قال : أيها الناس أنا له جار فأخروا عنه ، نخفقه عمر بالدرة ثم قال أيها الجلف الجافى قد أذهب الله عزك بالاسلام ، وكان الذى اليه أمر النساءة يقوم بفناء الكعبة يوم الصدر والناس حوله متجمعون فيقول : اذا أراد أن لا يحلوا المحرم ، أيها الناس ! لا تحلوا حرماتكم وعظموا شعائركم فإنى أجاب ولا أعاب ولا يعاب لقول قلته فهنالك يحرمون المحرم ذلك العام ، واذا ماكانت السنة التى يريدون الإنساء فيها يقول : أيها الناس قد انسأت العام صفر الأول يعنى المحرم — وكانوا يسمونه صفر الأول وصفر صفر الثانى — فيطرحونه من الشهور ولا يعتدون به و يبتدئون العدة فيقولون لصفر وشهر ربيع الأول : صفرين ، ويقولون لشهر ربيع الآخر وجمادى الأولى : شهرى ربيع ، ويقولون لجمادى الآخرة ولرجب : جماديين ، ويقولون لشعبان : رجب ، ولرمضان : شعبان ، ولشوال : رمضان ، ولذى القعدة : شوال ، ولذى الحجة : ذا القعدة ، ولصفر الأول وهو المحرم الذى أنسأه : ذا الحجة ، فيحجون تلك السنة فى المحرم ويبطل من هذه السنة شهرا ينسأه ، وكانوا ينسئون عاما ويتركون آخر ، فكان يقع فى كل شهر من شهور السنة حجتان فى عامين ، وكانوا يحلون فى الأشهر الحرم دماء المحلين طيئ وخثعم لأنهم كانوا يعدون على الناس فيها من بين العرب فيغزونهم ويطلبون بثأرهم ولا يقفون عن حرماتها كما كان يفعل سائر العرب من الحلة والحمس فانهم ماكانوا يعتدون فى شهر حرام ولو لقى أحدهم قاتل أبيه أو أخيه ولا يستاقون مالا إعظاما لحرمة هذه الشهور .

بقى الأمر على هذا المنوال حتى كانت سنة ثمان من الهجرة فجاء الحج فى ذى القعدة وحج المسلمون والمشركون فى هذا العام فدفعوا معا فكان المسلمون فى ناحية يدفع بهم عتاب بن أسيد ويقف بهم المواقف لأنه أمير مكة من قبل النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان المشركون ممن لهم عهد ومن ليس لهم عهد فى ناحية أخرى يدفع بهم أبو سيارة العدوانى على أتان له عوراء رسنها من ليف .

فلما كانت سنة تسع وقع الحج فى ذى الحجة فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصديق رضى الله عنه الى مكة أميرا على الحج بعد أن علمه المناسك وأمره بالوقوف على عرفة وعلى جمع — المزدلفة — ثم نزلت سورة براءة بعد سفر أبى بكر الى مكة بالحجيج فبعث بها النبي صلى الله عليه وسلم مع على رضى الله عنـه وأمره اذا خطب أبو بكر وفرغ من خطبته قام فقرأ على الناس سورة براءة ونبذ الى المشركين عهدهم — حسب ما قدمنا — وقال : لا يجتمعن مسـلم ومشرك على هذا الموقف بعـد عامهم هذا، وكان أبو بكر رضى الله عنه يخطب الناس و يصلى بهم و يقف المواقف ويدفع منها بالحجيج .

ومما تضمنته سورة التوبة إبطال النسىء قال تعالى فيه ﴿ إن عدّة ٱلشهور عند الله ٱثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السـموات والأرض منها أربعـة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين إنمـا النسىء زيادة فى الكفر يضـل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدّة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله زيـن لهم سوء أعمالهم والله لا يهدى القوم الكافرين ﴾ .

فلما كانت سنة عشر أذن الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم فى الحج فحج رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة الوداع التى أسلفنا لك تفصيلها وخطب خطبته المشهورة بعرفة وذكر فيهـا النسىء وأبطله ولمـا تضمنته هـذه الخطبة من الشرائع الحكيمة والنصائح القيمة نوردها لك بنصها وفصها كما رواها ابن هشام فى سيرته .

الحمـد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليـه ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا مـن يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله . أوصيكم عباد الله بتقوى الله وأحثكم على طاعته وأستفتح بالذى هو خير، أيها الناس ٱسمعوا قولى فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعـد عامى هذا بهذا الموقف أبدا . أيهـا الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا وإنكم

ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم وقد بلغت ، فمن كانت عنده أمانة فليؤدّها إلى من آئتمنه عليها وإن كل ربا موضوع ولكن لكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون. قضى الله أنه لا ربا وإن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله وإن كل دم كان في الجاهلية موضوع وإن أوّل دمائكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب (وكان مسترضعا في بني ليث فقتلته هذيل) فهو أوّل ما أبدأ به من دماء الجاهليـة ، أما بعد : أيها الناس فإن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم هذه أبدا ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضي به مما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم ، أيها الناس إن النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدّة ما حرم الله فيحلوا ما حرّم الله ويحرموا ما أحل الله وإن الزمان قد آستدار كهيئته يوم خلق السموات والأرض وإن عدّة الشهور عند الله آثنا عشر شهرا ، منها أربعة حرم ثلاث متوالية ورجب مضر الذي بين جمـادى وشعبان ، أما بعد : أيها الناس. فان لكم على نسائكم حقا ولهن عليكم حقا لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة فان فعلن فان الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح فان آنتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، واستوصوا بالنساء خيرا فانهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيأ وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمات الله ، فاعقلوا أيهـا الناس قولي فاني قد بلغت. وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا أمرا بينا كتاب الله وسنة نبيه ، أيها الناس اسمعوا قولي واعقلوه تعلمن أن كل مسـلم أخ للمسلم وان المسـلمين إخوة. فلا يحل لامرئ من أخيـه الا ما أعطاه عن طيب نفس منـه فلا تظلمن أنفسكم اللهم هل بلغت — فذكر لي ان الناس قالوا — اللهم نعم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم اشهد .

قال ابن اسحاق : حدّثني ليث بن أبي سليم عن شهر بن حوشب الأشعري عن عمرو بن خارجة قال : بعثني عتاب ابن أسـيد الى رسول الله صلى الله عليـه وسلم في حاجة ورسول الله صلى الله عليه وسلم واقف بعرفة فبلغته ، ثم وقفت تحت ناقة

رسول الله صلى الله عليه وسلم وان لغامها[1] ليقع على رأسى فسمعته وهو يقول : أيها الناس إن الله قد أدّى الى كل ذى حق حقه وإنه لا تجوز وصية لوارث ، والولد للفراش وللعاهر الحجر ، ومن ادعى الى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا .

وفى هذا اليوم نزل قوله تعالى ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾ .

واذ قد انتهينا من الحج وتاريخه نذكر لك كلمات مفصلة عن مشاعره .

الصفا والمروة

قال تعالى ﴿ إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوّع خيرا فإن الله شاكر عليم ﴾ .

الصفا — الصفا الذى هو مبدأ السعى فى أصل جبل أبى قبيس جنوبى المسجد الحرام على مقربة من بابه المسمى باب الصفا وهو مكان شبيه بالمصلى طوله ستة أمتار وعرضه ثلاثة مرتفع عن الأرض بنحو مترين يصعد اليه بأربع درجات ، وفى جنوبى هذا المكان أى وراءه أربع درجات أخرى صاعدة أقيم عليها ثلاثة عقود فى صف واحد من الشرق الى الغرب ، وبعد هذه الدرجات الخلفية أصل جبل أبى قبيس وحول الصفا جدا ريحيط به ما عدا الجهة الشمالية التى منها المرتقى ، ويظهر أن فى الأرض درجا آخر غير الظاهر استتر لما رفع مستوى الشارع يدل على ذلك ما ذكره التقى الفاسى فى كتابه وصفا للصفا ، قال ما ملخصه : الصفا مكان مرتفع من جبل له درج وفيه ثلاثة عقود ، والدرج من أعلى العقود وأسفلها ، وبعض الدرج الذى أسفل العقود مدفون وذلك ثمان درجات ثم فرشة — مصطبة — مثل بعض الفرشات الظاهرة التى أمام العقود ثم درجتان وما عدا ذلك ظاهر للعيون

(١) اللغام : اللعاب .

وهو درجة أسفل العقود ثم فرشة كبيرة ثم ثلاث درجات ثم فرشة كبيرة هى السفلى الملاصقة للأرض ، وربما علا التراب على هـذه وما ذكرناه من الدرج المدفون شاهدناه بعد حفرنا عنه فى شوّال بسنة ٨٠٤ هـ اهـ .

والمـــروة فى الشمال الشرقى للمسجد الحرام على بعد منـه وهى منتهى السعى فى أصل جبـل قعيقعان وهى محل مرتفع كالصفا يصعد اليه بخمس درجات فقط بعدها مصطبة طولها أربعة أمتار فى عرض مترين ، بعدها مصطبة أخرى عرضها متر واحد وهى ملاصقة لجدار المروة الشمالى إذ حولها ثلاث جدر فى شماليها وشرقيها وغربيها ، والدور من وراء ذلك ، ومن دون الدرجات الخمس عقد شاهق من الجدار الى الجدار وهو بعيـد عن مبدأ الدرج من أسفل بنحو مترين ، والشارع الذى بين الصفا والمروة هو المسعى وطوله ٤٠٥ متر ، وعرضه تارة عشرة أمتار وتارة اثنا عشر مترا ، وهـذا الطريق مقسم الى ثلاثة أقسـام يمشى الساعى فى القسمين المتطرفين ويهرول فى القسم الوسط ، والقسم الأول من الصفا الى الميلين الأخضرين وهمـا عمودان أخضران أحدهمـا فى الحائط المقابل للمسجد ، وثانيهما حذاءها بجوار باب المسجد الحرام المسمى بباب البغلة وطول هذا القسم خمسة وسبعون مترا ، والقسم الوسط يبتدئ من هذين الميلين و ينتهى الى ميلين آخرين أحدهما بباب المسجد المسمى بباب على والآخر فى الحائط المقابل لجدر المسجد فى الناحية الثانيـة ، وطول هذا القسم سـبعون مترا والثالث من هـذين الميلين الى المروة وطوله ٢٦٠ متر وأول من أحدث بناء ودرجا فى الصـفا والمروة عبد الصمد بن علي فى خلافة أبى جعفر المنصور ثم كملت بعـد ذلك بالنورة فى خلافة المأمون العباسى (انظر هـذا الميـل فى يمين الرسم ٢٠١) .

والصفا فى الأصل العريض من الحجارة الملس والمروة : واحد المرو وهى الحجارة البيض تقتدح بها النار ولا تكون سوداء ولا حمراء .

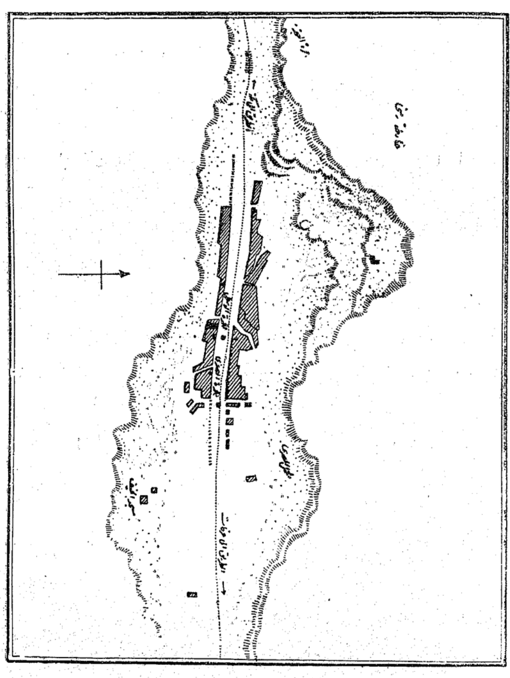
مِنًى

هى الموضع الذى ينزله الحاج ليلة عرفة حتى تشرق الشمس على ثبير وينزله أيضا يوم النحر وأيام التشريق ولياليها حتى يرمى الجمار، وقد قطعنا المسافة بين مكة وبينها فى ساعتين و ٤٥ دقيقة وبدأنا سيرنا من معسكرنا بجرول جنوبى مكة الغربى، والمسافة من المعلاة فى شمالى مكة الى منى ٦ كيلو مترات تقريبا تقطع فى ساعتين بسير الجمل المعتاد، وحدّ هذا الموضع من جهة مكة جمرة العقبة التى بايع الأنصار عندها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن جهة المزدلفة وادى محسر، وظاهر كلام الشافعى والنووى أن العقبة ليست من منى وغيرهما يقول : هى منها أما عرضه فعرض الوادى المحصور بين الجبال الشاهقة وذلك ٦٣٧ مترا استخراجا من مقاس الفاسى . ومنى الآن بلدة صغيرة يقطعها المحمل طولا فى ٢٠ دقيقة وعرضها صفان من البيوت على جانبى الطريق الذى يشقها شقين، والذى يبتدئ من مكة ويوصل الى عرفات، وعرض هذا الطريق مختلف فتارة عشرة أمتار وتارة عشرين ويقل عن ذلك ويكثر وبيوتها مبنية بالحجر الأصم وأكثرها طبقتان انظر (الخريطة ١٢٠) ولا تسكن إلا مدّة الحج وجوها حار لأنها واد بين جبال شامخة، ويزيد حرارتها الأنفاس المتصاعدة من آلاف الحجاج الذين تغص بهم هذه البلدة فى وقت واحد .

وبمنى الجمرات الثلاث وجامع الخيف ومسجد الكوثر وغار المرسلات والصخرة التى قام عليها ابراهيم حينما همّ بذبح ولده اسماعيل أو مسجد الكبش ، وقد زرت هذه الأماكن فى صباح ١٢ ذى الحجة سنة ١٣١٨ هـ . وهاك وصفها عن مشاهدة .

مسجد الخيف — هذا المسجد بمنى فى الجهة الجنوبية على يسار القادم من عرفات ويمين المقبل من مكة انظر (الخريطة ١٢٠) وهو مسجد وسيع محكم البناء مستطيل الشكل طول ضلعه البحرية ١٣٠ مترا ، وضلعه الغربية طولها ١٠٠ متر، وبابه الأكبر فى واجهته البحرية وفوق هذا الباب مئذنة بنيت بالطوب الأحمر ارتفاعها ١٤ مترا ، وعلى يسار الداخل منه مقابر تعلوها قباب أقيمت على

عقود ، وفى جهة المسجد الغربية أربعة أروقة (بواكى) كل رواق يمتد من شمالى المسجد الى جنوبيه، وعرض الأربعة ٣٧ مترا أى من صحن المسجد الى جداره الغربى، وفى كل رواق ٢١ عقدا أعنى فى كل جدار يمتد من الشمال الى الجنوب، والأروقة مسقوفة بقباب ظاهرة من الداخل فقط أما سطح المسجد فمستو، وعرض



(الخــريطة نمــرة ١٢٠)

الرواق الفضاء ٤٫٥ أما بالجدران فضعف ذلك ، وسمك الجدر التى أقيمت عليها قباب الأروقة ١٫٥٥ ، وفى وسط الرواق الملاصق للجدار الغربى منبر ومحراب عليهما قبة فخمة ، وفى صحن المسجد قريب من جداره الشرقى قبة عظيمة أقيمت على ثمانية عقود وبها محراب وهى فى موضع خيمة النبى صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع ، وقد صلى النبى صلى الله عليه وسلم بمكانها الأوقات الخمسة أولها الظهر وآخرها الصبح لأن النبى صلى الله عليه وسلم خرج من مكة فى الثامن من ذى الحجة ووصل الى منى ظهرا و بات بها ليلة التاسع ، ولما صلى الصبح رحل الى عرفة ، وبالجهة الشرقية من القبة مئذنة مبنية بالطوب الأحمر ارتفاعها ١٤٫٦٠ مترا ولها باب صغير خارج القبة يصعد منه اليها ودرجها ثلاث وسبعون ، وارتفاع الدرجة ٢٠ سنتيا ، وبالمسجد أربعة صهاريج كبيرة متجاورة بين القبة والضلع الشمالية أقيمت لحفظ مياه الأمطار بها والشرب منها فى مواسم الحج ولكنها كانت فى سنتنا مسنتة مجدبة ، والمسجد مكشوف ماعدا جهتيه الشمالية والغربية وجدره لها دعامات من الداخل والخارج وارتفاعه ٥ أمتار وعلى الجدر من الأعلى شرافات كالتى نراها بمساجد مصر وله ثلاثة أبواب شمالى وغربى وشرقى (أنظر الرسمين ١٢١ و١٢٢) وانظر أروقة المسجد فى (الرسم ١٢٣) الذى ترى فيه صديقنا محمد افندى على سعوديا .

وبالجهة الشرقية من المئذنة الشرقية على علو أربعة أمتار مكتوب (بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم جدّد لله الملك المعظم ملك الملوك الملك المنصور عمر بن على بن رسول صاحب اليمن مسجد الخيف سنة ٦٧٤ هـ) . وعلى بابه الشمالى مكتوب (عمر مسجد الخيف السلطان الأشرف أبو النصر قايتباى سنة ٨٩٤ هـ) .

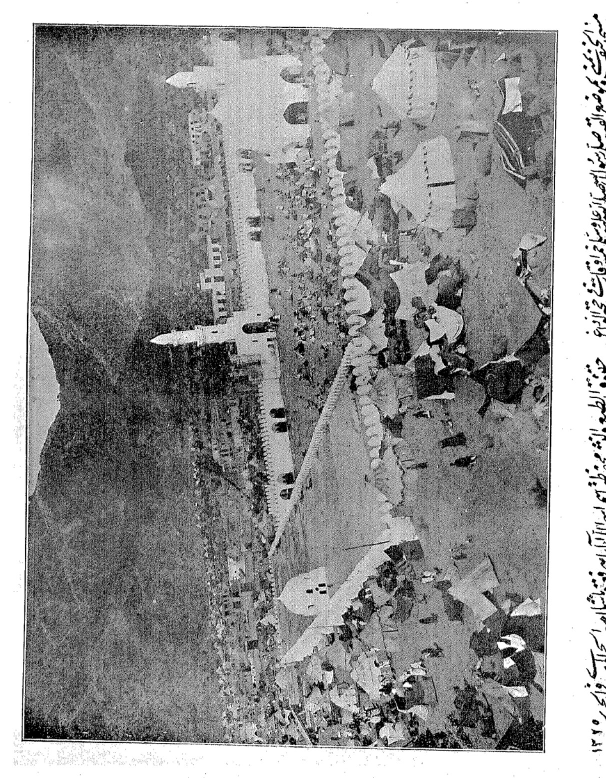
وهذا المسجد الأثرى العظيم يتخذه حجاج المغاربة والدكارنة كبيت للسكن فينصبون فيه خيامهم ويؤدّون به أعمالهم المعاشية من طبخ وغسل وينشرون به لحوم الغذاء لتجفف ويأكلوا منها أياما ، وقد رأيتها وهى منشورة بالجامع فى خيوط ،

مسجد الخيف بمنى

121. Mosque of El Kheif at Mina showing the dome under which the Prophet Mohamed performed the five prayers during his last pilgrimage (Al Wida'a : "Farewell").

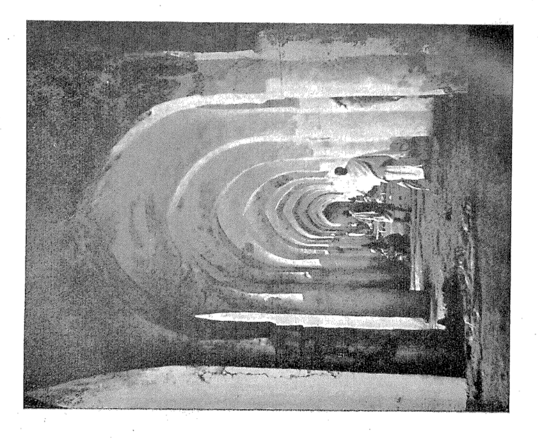
معسكر الحجاج بمنى سنة ١٣٢٠

119. Pilgrims camping at Mina



مسجد الخيف بمنى وبموضع القبة صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم خمس اوقات في حجة الوداع

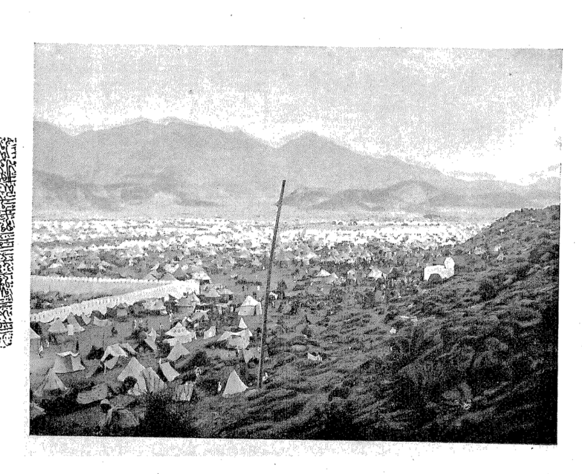
122. Mosque of El Kheif at Mina showing the dome under which the Prophet Mohamed performed the five prayers during his last pilgrimage (Al Wida'a ; "Farewell").



أروقة مسجد الخيف بمنى سنة ١٣٢١

123. Arcades of El Kheif Mosque at Mina.

مسجد نزول سورة الكوثر بمنى



[illegible]

124. A view of the Mosque of (Nozool Soret El Kawthar) in Mina in 1325.

بل يكادون يجعلون الجهة الشمالية منـه محلات أدب وإن ذلك لأمر تشمئز منـه الطباع وينذى له وجه الأدب ويحظره الشرع فانه أمرنا بتنظيف المساجد وتطييبها لا تلويثها ولكنه الجهـل يعمى صاحبـه عن الطريق السوى وكان حريا بالحكومة الحجازية أن تعنى بذلك المسجد عناية تتناسب مع مركزه وتنوط به من الخدم مايقوم بواجب نظافته ويمنع العابثين به مما يحدثونه .

وقد عمر هـذا المسجد فى زمن الخليفة المعتمد أحمد بن المتوكل العباسى سنة ٢٥٦ هـ . وجدده الوزير محمد بن على المعروف بالجواد الأصفهانى سنة ٥٥٩ هـ . وكذلك أم الخليفة العباسى الناصر لدين الله وأقام فيـه عمارة الملك المظفر صاحب اليمن وهو الذى أقام المئذنة التى بجوار القبة وقد قدمنا لك ما عليها من الكتابة الدالة على هذه العمارة .

وفى سـنة ٧٢٠ هـ . أنفق عليـه أحمد بن عمر المعروف بابن المرجانى التاجر الدمشقى ما يزيد على ٢٠٠٠٠ درهم . وفى سنة ٨٢٠ هـ . عمر بمعرفة الشـيخ على البغدادى ولم يعرف من قام بنفقة هذه العمارة . وفى سنة ٨٧٤هـ. أمر الملك الأشرف قايتباى ببناء هـذا المسجد فبنى بناء محكما وأقيمت القبـة التى هى الآن على مصلى النبى صلى الله عليه وسلم وبنى الى جانب القبة مئذنة ذات أدوار ثلاثة وكذلك أقام المئذنة التى على باب المسجد الشمالى وجعل بجانب هـذا الباب دارا يسكنها أمراء الحج وجعـل للمسجد بابا فى جهته الشرقية وخوخة صغيرة الى الجبل الجنوبى الذى فيه غار المرسلات . وفى سنة ١٠٧٢ هـ . عمره السلطان محمد قزلار الأغا وكان القائم بالعمارة والى جدة وشيخ الحرم سليمان بك . قال النجارى وهـذه العمارة وغيرها من العمارات التى قام بها مكتوبة فى حجر بجـدار المقام الحنفى . وفى سـنة ١٠٩٢ هـ . عمره سليمان أغا مرسلا من قبل السلطان محمد خان .

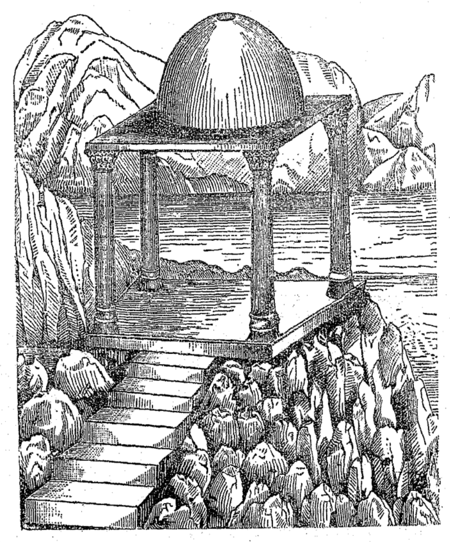
مسجد الكوثر — فى وسط منى على يمين القاصد الى عرفات مسجد صغير يبعد عن الطريق نحو ٤٠ مترا يسـمى مسجد الكوثر زعموا أن سورة الكوثر نزلت فى مكانه على النبى صلى الله عليـه وسلم (انظر شكله فى يمين اللوحة ١٢٤) وتجـد

باللوحة قائمــة البرق ـــ التلغراف ـــ وبهذا المسجد حجر نقشت فيــه كتابة بالخط المغربى لم أعرف منها إلا لفظة "وقفيــة لله" وبجواره بئر صالحة للشرب ويزوره أكثر الحجاج بقصد التبرك .

مسجد الكبش ـــ هـذا المسجد بمنى على يسار الذاهب الى عرفات وهو فى شمـالى جمرة العقبة على نحو ٣٠٠ متر منها فى سفح جبل ثبير، والكبش الذى أضيف اليه هو الذى فدى الله به نبيه اسماعيل لما شرع أبوه الخليل فى ذبحه وبجوار هذا المسجد الصخرة التى ذبح عليها الفداء . وذكر الفاكهى عن على بن أبى طالب ما يقتضى أن الذبح حدث فى غير هـذا المكان وأنه بين الجمرتين الأولى والوسطى فى سفح الجبـل المقابل لثبير ويؤيده ما رواه المحب الطبرى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : نحر رسول الله صلى الله عليــه وسلم فى منحر إبراهيم الذى نحر فيــه الكبش فاتخذوه منحرا وكل منى منحر، ومنحر الرسول بين الجمرتين (أنظر فى زاد المعاد لابن القيم، بحث أن الذبيح اسماعيل لا اسحاق) وهذا المسجد وهذه الصخرة يتزاحم الحجاج على زيارتها تزاحما شـديدا (أنظر رسم قبة الكبش[1] ٣٢٨) والصخرة فى جوف الجبل فيها فلح كبير يزعمون أن السكين التى أراد أن يذبح بها ابراهيم ولده فلتت من يده رحمة بالذبيح فغاصت فى هذا الصخر ففلحته، وبجوار الصخرة مغارة يزعمون أن إبراهيم عليه السـلام سكن فيها مع هاجر ويبلغ طولها ٤ أمتار وعرضها مترين ونصفا وعلى يمين الداخل فيها كهف ثغر فى جوف الجبل .

غار المرسلات ـــ هذا الغار بسـفح جبل جنوبى مسـجد الخيف يقال له جبل الصفائح، وهو غار صغير يبعد عن الطريق بنحو ٣٠٠ متر، به موضع مستدير يقال إنه محل رأس النبى صلى الله عليــه وسلم حين كان يستظل بالجبل وفيــه نزلت عليه سورة المرسلات كما يقولون ، وزحام الحاج على هـذا الغار بالغ أشدّه . ومن المساجد التى بمنى ولم أزرها مسجد البيعة ومسجد منى وهاك وصفهما عن الفاسى .

(١) نقلت عن مرآة مكة تأليف اللواء البحرى العثمانى أيوب صبرى باشا .



(قبة الكبش رســـم ٣٢٨)

مسجد البيعة — هـذا المسجد بقرب العقبة التى هى حدّ منى من جهة مكة وهو وراء العقبــة بيسير الى مكة فى شعب على يسار الذاهب الى منى وسمى بذلك لأن عنده حصلت البيعة التى بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها الأنصار بحضرة عمــه العباس بن عبد المطلب على ما ذكر أهــل الأخبار وقد ذكر التقى الفاسى أن طوله $\frac{1}{2}$ ٣٨ ذراعا بذراع الحديد، وأن به رواقين كل منهما مسقوف بثلاث قبب على أربعة عقود، وأن له بابين فى الجهة الشمالية والجهة الجنوبية وذكر أنه متخرب وأن فيه حجرين مكتوب فى أحدهما (أمر عبــد الله أمير المؤمنين أكرمه الله ببنيان

هذا المسجد مسجد البيعة التى كانت أول بيعة بايع فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم عقد عقده له (؟) العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه ؛ وفى الآخر تعريفه بمسجد البيعة وأنه بنى فى سنة ٢٤٤ ﻫ . وأمير المؤمنين المشار اليه هو أبو جعفر المنصور العباسى . وعمره أيضا المستنصر العباسى قال : ووجدت ذلك فى حجر ملق حول هذا المسجد لتخربه وفيه أن ذلك سنة ٦٢٩ ﻫ .

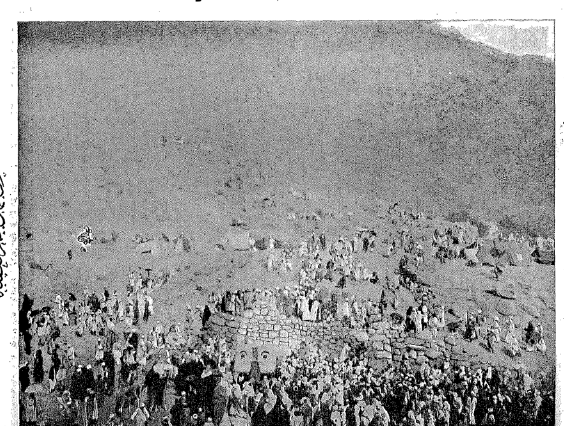
مسجد منى — ويقال له مسجد المنحر ذكره الفاسى وقال : إنه عند الدار المعروفة بدار المنحر بين الجمرة الأولى والوسطى على يمين الصاعد الى عرفة وفيه حجر مكتوب فيه (هذا مسجد سيد الأولين والآخرين صلى فيه الضحى ونحر هديه وفيه : ان الملك قطب الدين أبا بكر بن الملك المنصور عمر بن على بن رسول صاحب اليمن أمر بتجديد عمارته بعد زيارته فى سنة ٦٤٥ ﻫ . وطول هذا المسجد من محرابه الى مؤخره ثمانية أذرع وعرضه سبعة أذرع بذراع الحديد (ذراع الحديد $\frac{1}{7}$ ٥٦) .

الجمار — الجمار التى ترمى بالحصيات هى بمنى والأولى منها هى التى تلى مسجد الخيف ، والوسطى التى بينها وبين جمرة العقبة ، والأخيرة جمرة العقبة — انظر مواقعها من منى (فى الخريطة ١٢٠) .

وهى أقرب الجمار الى مكة وهى حائط من الحجر ارتفاعه نحو ثلاثة أمتار فى عرض نحو مترين أقيم على قطعة من صخرة مرتفعة عن الأرض بنحو متر ونصف ومن أسفل هذا الحائط حوض من البناء تسقط اليه حجارة الرجم ورمى الجمار بهذا الترتيب مطلوب على مذهب مالك حتى لو وقع على غير هذه الصفة ولم يتدارك فى وقت الأداء وهو النهار على المشهور لزمه دم والمسافة التى بين جمرة العقبة والجمرة الوسطى ١١٦,٧٧ مترا ، والتى بين الجمرة الأولى والوسطى ١٥٦,٤٠ مترا ، وقد تقدّم فى ص ٤٨ من الرحلة وصف الأعلام التى على الجمار وبيان حدود المرمى بما نقلناه

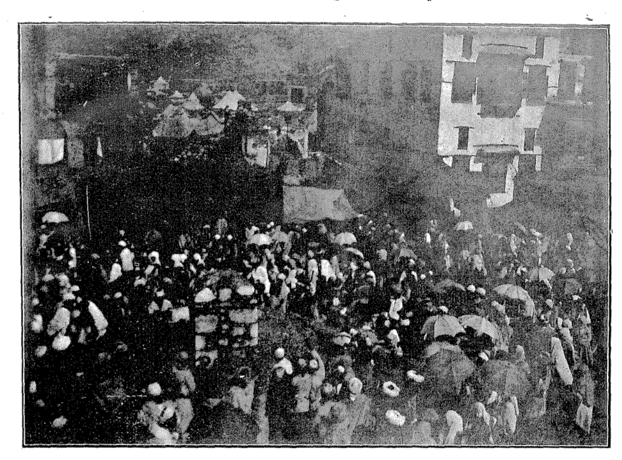
حقوق الطبع والنشر محفوظة باسم اللواء ابراهيم رفعت باشا امير الحج المصري في الحجة سنة ١٣٢٥

125. Stone throwing at Satan (El Shytan el Wossta) at Mecca.



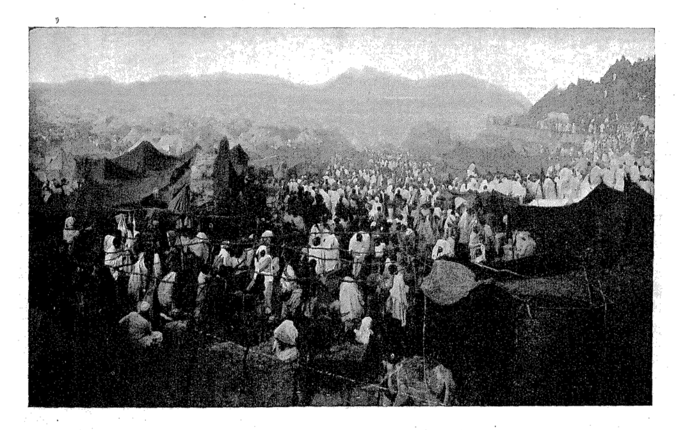
126. A view of the throwing stones in the Largest Room (Gamret El Akaba) in Mina in 1325.

رمي الجمار بالجمرة الثالثة سنة ١٣٢٥



127. The third stone throwing at Shytan at Mecca.

سُوق عَرَفَات



128. A view of the market in Arafat in 1325.

هناك عن المحب الطبرى ، ونزيدك الآن أن الأزرقى ذكر فى كتابه أن جمرة العقبة أزالها جهال الناس عن مكانها الأصلى برميهم الحصى فى غير موضعه وردّها الى مكانها الذى لم تزل عليه إسحاق بن سلمة الصائغ الذى أنفذه المتوكل للقيام بأمور تتعلق بالكعبة وبنى من ورائها جدارا رفعه عنها وجعل بجانب الجدار مسجدا حتى لا يتمكن شخص من أن يرميها من أعلى لأن السنة لمن أراد الرمى أن يقف من تحتها فى بطن الوادى فيجعل مكة عن يساره ومنى عن يمينه ويرمى كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم (أنظر الجمار الثلاث والحجاج يرمونها فى الرسوم ١٢٥ و١٢٦ و١٢٧) .

قال ابن الكلبيّ : إنما سميت الجمار جمارا لأن آدم كان يرمى إبليس فيجمر من بين يديه والإجمار الإسراع ؛ قال لبيد من قصيدة له :

واذا حركت غرزى أجمرت ❊ أو قرابى عدو جون قد أبل[1]

أو سميت هذه الأماكن باسم مايرمى فيها لأن الجمرة الحصاة .

المنحر بمنى — أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن منى كلها منحر وكان الناس يحرون قريبا من مخيم الحجاج فى الأعوام السالفة فى حفر تحفر لذلك . أما فى عامنا هذا فكانت الحفر بعيدة عن المخيم بما يقرب من ألف متر . والحجاج يذبحون الهدى والفداء فى وقت واحد من يوم النحر ولا يأكلون مما يذبحون بل يرمونه بالجهة الشرقية من منى ، وكان فقراء الحجاج من الدكارنة والمغاربة يجرّدون اللحوم من العظام ويعملون منها أحبالا تجفف فى الشمس فتكون غذاء لهم فى سفرهم حتى يصلوا المدينة المنورة ، وكانت الذبائح المتروكة تنبعث منها روائح كريهة لأنها ما كانت تدفن ولكن فى السنين المقبلة عملت حفر عميقة دفنت فيها الذبائح وكلف عمال الصحة بردمها .

(١) الغرز ركاب من جلد توضع فيه الرجل وقراب السيف معروف والعدو السير السريع والجون من الخيل الأدهم وأبل أكل الربل وهو نوع من الشجر يتقطر منه الماء .

المفجر بمنى — مكان خلف الجبل المقابل لثبير، سمى بذلك لما تفجر فيه من الدماء عند ما دارت رحى الحرب بين قصيّ وشيعته وبين بنى الغوث بن أدّ بن طابخة ويقال لهم صوفة وذلك بسبب تقدّم الأوّلين الى رمى جمرة العقبة قبل بنى الغوث . وبهذا المكان مجرى قناة عين زبيدة وقد أقيم عليه آلة بخارية قوتها ثمان خيول لتوصيل الماء فى أنابيب الى ميدان منى إذ يحول الجبل بين المجرى والميدان ، وبواسطة الأنابيب يصعد الماء الى الجبل ثم ينزل فيها الى وادى منى ويصب فى أحواض أعدّت له هناك ليشرب منها الحجاج ؛ وهذه الآلة أحضرها أحد أغنياء الهند كما سمعت ورتب لها مايكفيها من الفحم والشحم والزيت وأجور العمال ؛ وإن مما يذكر مقرونا بأشدّ الأسى أن هذه الآلة وقف عملها لأن أيدى الطامعين تصل الى ما أعدّ لها ولإدارتها وترتب على ذلك غلو المياه حتى أن القربة من الماء بيعت فى سنه ١٣٢١ هـ . بثلاثة قروش ونصف صحيحة ، ويتغنى الأعراب الذين يبيعون الماء بالنشيد الآتى :

رأيت الما * فى سوق منى * بيعا وشرا
حتى آن اللاش(١) * ما يرد الما

وترى فى اللوحة ٧٩ الآلة البخارية والطريق اليها والجبل المجاور لها ومجرى القناة .

منى موطن توحيد — كانت منى فيما سلف منصوبة فيها الأصنام فنصب بها عمرو بن لحى سبعة أصنام منها واحد بين مسجد منى والجمرة الأولى على بعض الطريق، وثان على الجمرة الأولى ، وثالث على المدعى، ورابع على الجمرة الوسطى ، وخامس على شفير الوادى ، وسادس وسابع على الجمرة الكبرى (جمرة العقبة) وقسم على هذه الأصنام حصى الجمار التى هى إحدى وعشرون حصاة ، فيرمى كل وثن منها بثلاث حصيات، ويقال للوثن حين يرمى ، أنت أكبر من فلان — يعنى الصنم

(١) اللاش : البخيل .

الذى قبله — فلما أن جاء الاسلام قضى على عبادة الأصنام واستبدل بها عبادة الله وحده وذكره ﴿ وَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ ٱتَّقَى وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ .

حكم البناء بمنى — أخرج أحمد بن حنبل فى مسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت : قلت يارسول الله ألا تبنى لك بمنى بيتا أو بناء يظلك من الشمس فقال لا إنما هو مناخ من سبق . وأخرجه أبو داود عن أحمد بن حنبل والترمذى قال ابن عساكر بعد إخراجه لهذا الحديث : مفهوم هذا الخطاب يدل على أنه لا يجوز إحياء شىء من مواتها ولا تملك جهة من جهاتها بل هى للناس سواء ، ويدل على ذلك قوله تعالى ﴿ سَوَاءً ٱلْعَاكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ﴾ على القول بأن الضمير يرجع للحرم .

الحصيات بمنى ورفعها — روى الأرزقى فى تاريخه عن جدّه قال : حدّثنى يحيى بن سليم عن ابن خيثم عن أبى الطفيل قال : قلت ياأبا الطفيل هذه الجمار ترمى فى الجاهلية والاسلام كيف لا تكون هضابا تسدّ الطريق ؟ قال : سألت عنها ابن عباس رضى الله عنهما ، فقال : إن الله تعالى وكل بها ملكا فما تقبل منه رفع وما لم يتقبل منه ترك ، وكذلك روى الأرزقى فى رفع المتقبل منه عن ابن عمر وأبى سعيد الخدرى رضى الله عنهما . وروى المحب الطبرى عن أستاذه شيخ الحرم ومفتيه أنه شاهد ارتفاع الحجر عيانا ، ومع أن هذه الأقوال صادرة عن غير معصومين لسنا ملزمين بأن نعتقد اعتقادهم فانا راجعنا فى كتب الرجال أسانيدها التى ذكرها الازرقى فلم نجد لها سندا صحيحا .

المزدلفة

المزدلفة الموضع الذى يؤمر الحاج بنزوله والمبيت فيه بعد دفعه من عرفة ليلا وهو بين مأزمى عرفة من جهتها ومحسر من جهة منى ؛ ومأزما عرفة هو الذى يقال له المضيق ، وسميت بذلك لازدلاف الناس اليها : أى اقترابهم ؛ وقيل لمجىء الناس اليها

فى زلف من الليل : أى ساعات ؛ ويقال للمزدلفة جمع سميت بذلك لاجتماع الناس بها ؛ وقيل لاجتماع آدم وحواء فيها ؛ وقيل لجمع الصلاتين بها . وطول المزدلفة من حدّها الذى يلى منى وهو طرف وادى محسر الى حدّ مزدلفة الذى يلى عرفة ، وهو أوّل المأزمين مما يلى المزدلفة ٤٣٧٠ مترا ، وبوسط المزدلفة المشعر الحرام الذى يستحب للحجاج الوقوف عنده للدعاء والذكر غداة يوم النحر امتثالا لقوله تعالى ﴿ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ ﴾ واقتداء بنبينا صلى الله عليه وسلم فانه لما أصبح بجمع أتى قزح فوقف عليه وقال : « هذا قزح وهو الموقف وجمع كلها موقف » أخرجه أبو داود والترمذى وقال : حسن صحيح . وهذا المشعر هو المسمى بقزح ، ويقول ابن عمر رضى الله عنهما : المشعر الحرام المزدلفة كلها ومثله فى كثير من كتب التفسير وهذا محمول على المجاز كما ذكره المحب الطبرى . وقد ذكر التقى الفاسى فى كتابه شفاء الغرام صفة البناء الذى على قزح فى سنة ٨١١هـ . فقال : إنه بناء مربع يشبه المنارة عرض كل ضلع من أضلاعه اثنا عشر ذراعا ونصف ذراع بالذراع الحديد إلا أن الجهة الشرقية تنقص ثلث ذراع — ذراع الحديد $\frac{1}{7}$ ٥٦ سنتيا — وفى أعلاه اثنتان وعشرون شرافة ، وله درج من ظاهره وباطنه ، وعدد الذى من ظاهره ٢٤ والذى من باطنه ٢٠ وارتفاعه فى السماء ثلاثة عشر ذراعا ، قال : وهذا البناء يقف عليه من يتمكن من الوقوف عليه ومن لا يتمكن يقف بجوار هذا البناء ، وجرت عادة الناس أن يصعدوا من الدرج الظاهرى وينزلوا من الدرج الباطنى . أما الآن فعلى جانبى الطريق جداران ارتفاع كل منهما أربعة أمتار ، وعرضه ثلاثة أمتار والمسافة بينهما ٦٠ مترا ، والمحل الذى يحدّه هذان الجداران هو المسمى فى عرف الناس المشعر الحرام (أنظر المزدلفة فى الرسم ٣٢٧)[1] . وتجد فى أسفل الرسم الشقدف تحت رقم ٢ و ٣

(١) أخذناه عن مرآة مكة التى ألفها بالتركية اللواء البحرى أيوب باشا صبرى العثمانى .

وادى المزدلفة المشعر الحرام

(رسم ٣٢٧)

وفى المزدلفة بجانب قزح مسجد صغير ذكر الفاسى أنه قصير الحيطان وطوله الى جهة القبلة ستة وعشرون ذراعا إلا ثلث ذراع والمقابلة لها تنقص عنها خمسة أذرع إلا ثلثا وعرضه اثنان وعشرون ذراعا وفى قبلته محراب فيه حجر كتب عليه أن الأمير يلبغا الخاصكى جدّد هذا المكان بتاريخ ذى القعدة سنة ٧٦٠ هـ .

وفى سنة ٨٤٢ هـ . أمر السلطان جقمق الأمير سيدون بتعمير هذا المسجد . وفى سنة ٨٧٤ هـ . فى سلطنة قايتباى أمر أمير مكة الشريف محمد بن بركات بتبييضه . وفى سنة ١٠٧٢ هـ . عمره سليمان باك والى جدّة من قبل السلطان محمد .

وهذا المسجد الآن مهدّم بعض جدره ويقف الإمام به فوق أرض مرتفعة فيخطب الحجيج خطبة صيغت منذ مئات السنين فلا تناسب بينها وبين عصرنا الحاضر ولا أثر لها فى القلوب شأن خطبة عرفة وغيرها واذا قارنت بين هذه الخطب وخطب النبيّ صلى الله عليه وسلم بعرفة ومزدلفة ومنى وما تضمنته من الحكم والأحكام والمواعظ والنصائح أدركت سرّ تأخرنا وأننا لا ننتهز الفرص فنبث روح الدين ونوحد بين المسلمين ونربطهم برباط لا ينفصم ، وكان الواجب على ولاة الأمر أن ينبهوا الخطباء الى هذا بل يقسروهم قسرا على تعصير الخطب وأن يجعلوا مع الخطباء مترجمين حتى تسمع كل أمة بلسانها النصح البليغ والوعظ الرقيق ، فتئوب الى ديارها وقد ملئت قلوبها بحب الدين وتمكن فيها الحرص على مصالح المسلمين ولكن لا عجب إن سمعت أمثال هذه الخطب فان خطباءنا من أجهل الناس بالدين وشؤون العمران وأحوال المسلمين إلا قليلا منهم ، فكيف يصفون دواء لايعرفونه لداء يجهلونه فأس الإصلاح رجال عرفوا الدين حق معرفته من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وخبروا شؤون المسلمين خبرة تامة بل شؤون غيرهم أيضا حتى يأمنوا كيدهم ويسلموا من شرهم هدانا الله الى سواء السبيل .

عرفة

ميدانها وجبالها — على بعد ٢١٤٧٦ متر من باب المعلاة بمكة تجد في طريق الطائف علمين هما حدود عرفة من جهة مكة وهما في الحل بعد العلمين المنصوبين على حدود الحرم بمسيرة ٢٥ دقيقة وعرفة ميدان واسع أرضه مستوية يبلغ نحو ميلين طولا في مثلهما عرضا وتحيط به سلسلة جبال على شكل قوس كبير ويمر بطرفي القوس من جهة الجنوب الطريق الى الطائف، وفي شماليه جبل الرحمة المعروف عند الناس بجبل عرفات، وإنما جبل عرفات ما أطاف بهذا الميدان وجبل الرحمة أصغر جزء فيه ويبلغ ارتفاع هذا الجزء ثلاثين مترا وطوله نحو ٣٠٠ متر، وفي متوسط ارتفاعه مستو طوله ١٥ مترا في عرض ١٠ أمتار به مسجد إبراهيم كما يقولون، وفي قنة الجبل مستو واسع مبلط في وسطه مصطبة في ركنها الغربي علم مبني كأعلام الحرم يعلق به جملة مصابيح يهتدي بها الناس ليلا الى موطن الجبل، وقد تقدّم تفصيل بعض ذلك في ص ٤٤ من الرحلة، وبهذا الميدان يخيم الحجاج أيام عرفة وبه جملة مساجد وعدّة أحواض وسوق، ومجرى عين زبيدة يطيف بالميدان كما تطيف الجبال، وقد قدّمنا لك ذكر الأحواض ووصفها بالتفصيل ومقاسها في الرسم (٧٧) وفي ص ٢٠٨ و ٢٠٩ وكذلك تكلمنا على مجرى عين زبيدة بعرفة وذكرنا الكتابات التي وجدناها بجبل الرحمة دالة على العمارات المختلفة في ص ٢١٤ و ٢١٥ وذكرنا أيضا ما نقدناه هنالك من النظام والأعمال فلا داعي لذكره فارجع اليه ان شئت .

عرفة موقف — لا يقوم الحج إلا بالوقوف في عرفة تاسع ذي الحجة بعد الزوال، وكل عرفة موقف إلا بطن عرنة كما قضى بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وبطن عرنة ما بين العلمين اللذين هما على حدود الحرم والعلمين اللذين هما حدّ عرفة من جهة مكة، وعرفة تطلق تارة على ما يشمل بطن عرنة وتارة على الموضع الذي يجزئ فيه الوقوف فقط، ويدل على الاطلاق الأول استثناؤها من عرفة كما جاء في الحديث .

وقد حرّر القاضى عز الدين بن جماعة فى منسكه موقف النبي صلى الله عليه وسلم من عرفات فقال : اجتهد والدى تغمده الله برحمته فى تعيينه وجمع فيه بين الروايات فقال : إن الفجوة المستعلية المشرفة على الموقف وهى من ورائه صاعدة فى الرابية وهى التى عن يمينها، وورائها صخرتان متصلتان بصخر الجبل المسمى جبل الرحمة، وهذه الفجوة بين الجبل المذكور والبناء المربع عن يساره وهى الى الجبل أقرب بقليل بحيث يكون الجبل قبالة الواقف اذا استقبل القبلة ويكون طرف الجبل تلقاء وجهه، والبناء المربع عن يساره بقليل، قال التقى الفاسى بعد أن حكى ذلك عن ابن جماعة : البناء المربع المشار اليه هو الذى يقال له بيت آدم بعرفة وكان سقاية للحاج أمرت بعملها العجوز والدة المقتدر العباسى على ما هو مكتوب فى حجر فى حائطها القبلى . اهـ .

مسجد نمرة — على مسيرة ٢٠ دقيقة من جبل الرحمة تجد علمين يمرّ من بينهما الحجاج وهما على حدود عرفة من جهة مكة ومبنيان بعيد أحدهما عن الآخر، ارتفاع كل منهما خمسة أمتار فى عرض ثلاثة، وعلى مسيرة ١٥ دقيقة جنوبى هذين العلمين اللذين تراهما فى الخريتة (٧٨) تجد مسجد نمرة ويسمى مسجد عرنة وجامع إبراهيم ومصلى عرفة وهو جامع كبير طوله ٩٠ مترا فى عرض ٨٠ أحاطت به الأروقة من جميع جوانبه وله محراب يرتفع ثلاثة أمتار وعرضه ١,٥ متر ويدخل فى الحائط نحو متر وله منبر بدرجات عشر وارتفاعه متران ونصف والمياه تصل اليه من مجرى عين زبيدة أيام عرفة، والحجاج يجمعون فى هذا المسجد بين صلاتى الظهر والعصر جمع تقديم يوم عرفة، وقد جمع بينهما النبي صلى الله عليه وسلم فى بطن عرنة كما تقدّم فى حجة الوداع، وهذا المسجد يرجع إنشاؤه الى العقد الخامس بعد المائة، وقد عمر فى عصور مختلفة فمن ذلك عمارة للسلطان جقمق فى سنة ٨٤٣ هـ . على يد الأمير سيدون وعمارة للسلطان قايتباى سنة ٨٧٤ هـ . جعل فيه رواقين وعمر فى سنة ١٠٧٢ هـ . فى زمن السلطان محمد على يد سليمان بك والى جدة . انظر المسجد (فى الرسم ٤٣) وتجد فيه الأروقة والحجاج بلباس الإحرام رجالا ونساء .

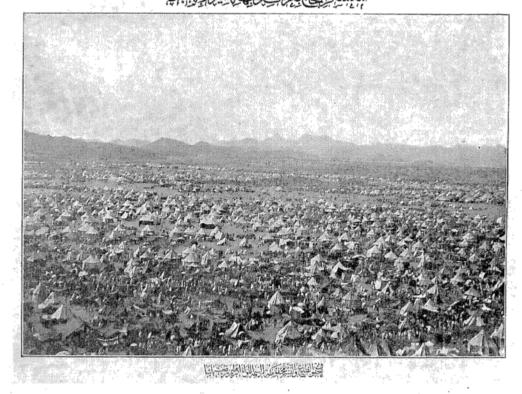
الحجاج بخيامهم بعرفات مع الصخرات



129. Photo of the pilgrims in Arafat.

صحيفة ٣٣٧

معسكر الحجاج بعرفات من الجهة الشرقية وبه جبل الرحمة



130. Camp of Pilgrims from the Eastern side & Rahma Mountain.

مسجد الصخرات — هذا المسجد أسفل جبل الرحمة وهو مسجد صغير زعموا أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى فى مكانه وسمى بذلك لأن بأرضه صخورا كبيرة بعضها الى جانب بعض . انظر جدره المهدّمة فى الشرق الجنوبى (للرسم ٤٢) .

سوق عرفة — يوجد بعرفة سوق كبير جدا يباع فيه كافة أنواع المأكولات وهو قريب من جبل الرحمة المشهور بجبل عرفات انظر (فى الرسم ١٢٨) السوق وترى به القصابين قد علقوا اللحوم فى حبال مدت بين أعمدة من السنط أو السلم والخط الأبيض الذى فى شمالى الرسم مسجد نمرة .

مناظر الحجاج فى عرفات — تجد (فى الرسم ٤٤) الحجاج على جبل الرحمة وذلك فى تاسع ذى الحجة سنة ١٣٢١ وهذا المنظر أخذته وأنا بالموقف تحت الجبل وترى أعلى المحمل «ببرقه» ظاهرا به ، وفى نهايته «الرمانة» يخيل الى الناظر أنها رجل فوق الجبل وترى الخطيب بلباس أبيض وقد أمسك بيده كتابا يقرأ منه الخطبة ، والوجه الكبير البارز بالصورة وجه الشيخ محمد أبى النور نجل الشيخ طموم الكبير صهرنا وكان حاملا آلة الرسم وإنك لتشاهد الحجاج ملؤا ظهر الجبل حتى لم يدعوا به موضع قدم وهم من أجناس مختلفة ينطقون بلغات شتى يجأرون جميعا الى الله أن يغفر لهم ما أسلفوا ويوفقهم الى عمل ما فيه السعادة لهم فى أولاهم وأخراهم .

وتجد فى (الرسم ١٩٢) خيام الحجاج بجانب الصخرات التى بجوار جبل الرحمة وترى فى الرسم رجلا راكعا نصفه العلوى بلا رداء والخيام التى فى أعلى الرسم فيها عساكر الدولة الذين هم حرس للشريف والوالى .

وفى (الرسم ١٣٠) مخيم الحجاج بميدان عرفات فى سنة ١٣٢٠ هـ .

وكذلك (الرسم ٧٦) وتجد به حوضا من ضمن الحياض التى بالميدان وهو الحوض الخاص بركب المحمل الشامى وقد قدّمنا لك وصفه فى الكلام على عين زبيدة .

الطريق من مكة الى عرفات ومشاعر الحج فيه

الطريق بين مكة وعرفات واد بين جبال تكتنفه من الجانبين تارة تتباعد وأخرى تتقارب ، وللوادى فى مواضع تنائيها وتدانيها أسماء مختلفة تعلق بكثير منها بعض أعمال النسك فعند خروجك الى مكة من جهة المعلاة تجد على يمينك جبلا يسمى الحجون قد أشرف على مقبرة المعلاة فيه قبر عبد الله بن عمر بن الخطاب أو الحجون الجبل الذى بحذائه قال الشاعر

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا * أنيس ولم يسمر بمكة سامر

والحجون حدّ المحصب من جهة مكة وحدّه الآخر من جهة منى مكان به سبيل يسمى سبيل الست ، والمحصب جزء من الطريق الى منى وهو مسيل للماء وسمى بذلك لأن السيل يجمع فيه الحصى وهى الحصا الصغير ، وبالمحصب نزل النبى صلى الله عليه وسلم بعد انصرافه من منى ولهذا يستحب للحاج النزول فيه أسوة برسول الله صلى الله عليه وسلم والمسافة من باب بنى شيبة الى سبيل الست الذى هو حدّ المحصب من جهة منى ٧٥٠٠ ذراع بذراع اليد على ماقدّره الفاسى وذلك ٣٦٧٥ مترا باعتبار الذراع ٤٩ سنتيا على ما حققناه من كلام الفاسى — وبما أن المسافة من باب بنى شيبة الى باب مقبرة المعلاة ٢١٢٧ ذراعا بذراع اليد أى ١٠٤٢ مترا تقريبا فالمسافة بين باب المعلاة وسبيل الست ٢٣٨٧ مترا أى طول الوادى الوسيع المسمى بالمحصب ، ويطلق المحصب على الموضع الذى ترمى فيه الجمار لأن به ترمى الحصباء وهى الحصى الصغير، قال عمر بن أبى ربيعة

نظرت اليها بالمحصب من منى * ولى نظر لولا التحرج عازم
فقلت أشمس أم مصابيح بيعة * بدت لك تحت السجف(١) أم أنت حالم
بعيدة مهوى القُرْط إما لنوفل * أبوها وإما عبد شمس وهاشم
ومدّ عليها السجف يوم لقيتها * على عجل تباعها والخوادم

(١) الستر .

فلم أستطعها غير أن قد بدا لنا * عشية رحنا وجهها والمعاصم
اذا ما دعت أترابها فاكتنفنها * تمايلن أو مالت بهن المآكم (١)
طلبن الصبي حتى اذا ما أصبنها * نزعن وهن المسلمات الظوالم

وبعد سبيل الست يضيق الوادى وعلى بعد ٣١٢٠ مترا من السبيل تجد على يسارك جمرة العقبة وهى حدّ منى من جهة مكة فالمسافة بين باب المعلاة بمكة وأول منى ٥٤٠٧ مترا ، وتجد على مقربة من جمرة العقبة فى شعب على يسارك مسجد البيعة فى المكان الذى بايع فيه الأنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم بحضرة عمه العباس ومن جمرة العقبة يتسع الوادى اتساعا كبيرا فيكوّن ميدانا فسيحا عرضه من مؤخر مسجد الخيف الذى يلى الجبل الى الجبل المقابل له فى الناحية الأخرى ٦٣٧ مترا ويضيق عن ذلك ويتسع ، وطوله من جمرة العقبة حتى نهاية وادى محسر من جهة المزدلفة ٣٥٢٨ مترا ، وهذا الميدان هو المسمى بمنى يشقه طريق من الغرب الى الشرق فى أوّله جمرة العقبة التى يرميها الحاج بالحجارة فى يوم النحر وأيام التشريق ، وتليها الجمرة الوسطى على بعد ١١٦,١٧ مترا وتليها الجمرة الأولى على بعد ١٥٦,٤٠ مترا من الثانية ، والجمرتان الأخيرتان فى وسط الطريق وترمى بالحجارة فى أيام التشريق فقط ، والجمار أعلام منصوبة لبيان موضع الرمى وهى أشبه بالأعمدة وقد تقدم لك وصفها ورسمها فى منى ، ومساكن منى بجوار هذه الجمار على جانبى الطريق ، وبمنى ينحر الهدى ويبيت الحجاج ليالى التشريق ويتحللون بعد الحلق أو التقصير عقب النحر يوم الأضحى وقد قدمنا لك قريبا وصفها تفصيلا وفى آخر منى يضيق الوادى ويسمى فى مضيقه وادى محسر الذى يستحب للحاج الاسراع فيه ، والمحسر — بصيغة اسم الفاعل مع تشديد السين — من الحسر وهو كشطك الشيء وكشفك إياه ، يقال : حسر عن ذراعيه ويجوز أن يكون من الحسر بمعنى الاعياء يقال : حسرت الدابة والعين اذا أعيت ويتسع الوادى بعد انتهاء وادى محسر فى مسافة طولها ٣٨١٢ مترا تنتهى الى المأزمين والوادى فى هذا الاتساع يسمى

(١) جمع مأكم أو مأكمة بفتح الكاف وتكسر وهى لحمة على رأس الورك .

المزدلفة وعلى مقدار ٢٥٤٨ مترا من أوّله من جهة المحسر المشعر الحرام أو قزح الذى يقف فيه الحجاج غداة يوم النحر للدعاء ، وعلامته جداران هنالك واحد عن اليمين وآخر عن الشمال ؛ وفى المزدلفة يبيت الحجاج ليلة النحر بعد أن يدفعوا من عرفة ويجمعون فيها بين المغرب والعشاء جمع تأخير (انظر ما تقدم فى المزدلفة) والوادى من نهاية المزدلفة يضيق الى ٥٠ مترا عرضا ويمتدّ على بعد ٤٣٧٢ مترا ، أى الى العلمين اللذين هما حدّ الحرم من جهة عرفة وهما بناءان أشبه ببنائى المشعر إلا أنهما أصغر منهما والمسافة بينهما مائة متر ؛ والوادى فى هذه المسافة يسمى المأزمين أو طريق المأزمين أو المضيق بين مزدلفة وعرفة وسمى بالمأزمين لأن الجبلين اللذين بينهما الوادى يسمى كل منهما مأزما ويقول أهل اللغة . المأزم الطريق الضيق بين جبلين وفى أول المأزمين على يمين الميمم عرفة طريق آخر اليها أخصر من طريق المأزمين يسمى طريق ضب يستحب للحاج أن يسلكه اذا توجه الى عرفة صباح يومها كما يستحب له أن يسلك طريق المأزمين اذا أفاض من عرفة ، وبانتهاء المأزمين ينتهى الحرم من جهته الشرقية ويبتدئ وادى عرنة الذى يتجنب الحاج الوقوف فيه يوم عرفة وهو ضيق فى أوّله وينتهى بوسع كبير وطول هذا الوادى من العلمين المحدين للحرم الى العلمين الآخرين المحدين لعرفة من جهة المزدلفة ١٥٥٣ مترا ، وهذان العلمان بناءان بعيد أحدهما عن الآخر ارتفاع الواحد منهما خمسة أمتار وعرضه ثلاثة ، وفى جنوبى هذين العلمين على بعد ربع ساعة مسجد نمرة الذى قدمنا لك وصفه كما قدمنا لك قياس عرفات والكلام على ما فيها من الآثار فأغنانا عن الإعادة ، وعلى ذلك فبعد المواضع التى بهذا الطريق كما يأتى :

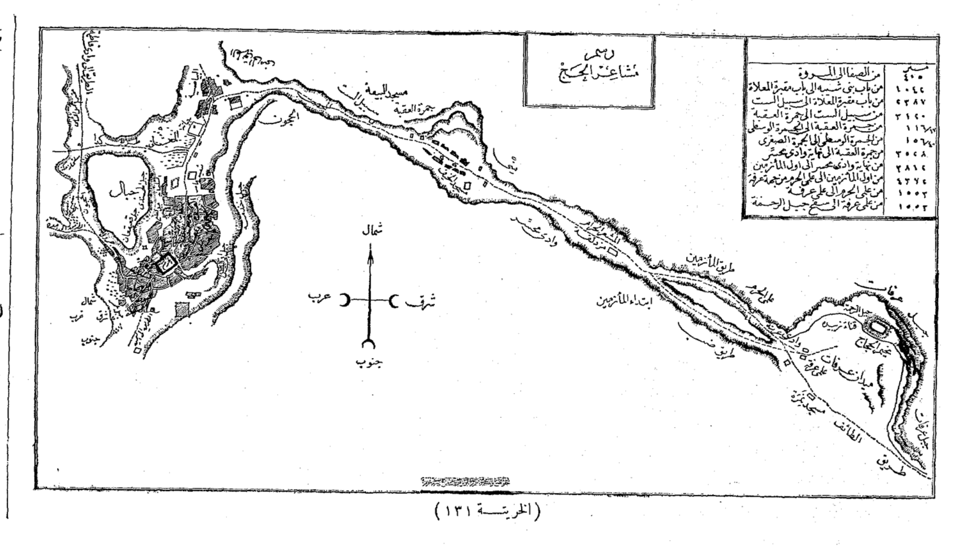
متر	
١٠٤٢	من باب بنى شيبة الى باب مقبرة المعلاة .
٢٣٨٧	« « المعلاة الى سبيل الست : أى طول المحصب .
٣١٢٠	« سبيل الست الى جمرة العقبة .
٣٥٢٨	« جمرة العقبة الى وادى محسر : أى طول منى .
١٠٠٧٧	نقل بعده

متر	
١٠٠٧٧	ما قبله
٣٨١٢	من نهاية وادى محسر الى أول المأزمين : أى طول المزدلفة .
٤٣٧٢	« أول المأزمين الى العلمين المحدين للحرم : أى طول المأزمين .
١٥٥٣	« أول العلمين المحدين للحرم الى العلمين المحدين لأول عرفة من جهة مكة : أى طول وادى عرنة .
١٥٥٣	من أوّل علمى عرفة الى سفح جبل الرحمة وهـذه المسافة الأخيرة ذكرناها بالتقريب بخلاف ما سبقها .
٢١٣٦٧	المسافة بين باب بنى شيبة شرقى المسجد الحرام وجبل الرحمة بعرفة[1] .

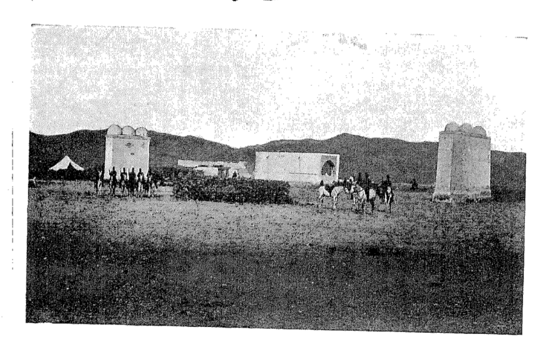
وقد قطعنا هذه المسافة فى ٥ ساعات و ٣٥ دقيقة فيكون ما قطعناه فى الساعة تقريبا أربعة كيلو مترات (انظر رسم المشاعر فى الخريطة ١٣١) .

التنعيم ومساجد عائشة — التنعيم حدّ الحرم من جهة المدينة وهو فى شمال مكة الغربى وقد قدّمنا أن المسافة بينه وبين باب العمرة ٦١٤٨ مترا وقد قطعنا الطريق بين معسكرنا بالشيخ محمود وهذا المكان فى ٤٠ دقيقة بسير الخيل المعتاد (٤ أميال فى الساعة) ويقطعه الماشى فى ساعة ولا يحتاج الى دليل لكثرة المارين به من الحجاج من الفجر إلى ما بعد الغروب ولأن به أعلاما منصوبة أشبه بالأعلام التى بحدود الحرم والطريق سهل رملى تحفه الجبال من الجانبين وبه آبار كثيرة وفيه تباع المأكولات والقهوة والشاى .

(١) اعتمدنا فى ذكر هذه المسافات على ما ذكره التقى الفاسى فى كتابه شفاء الغرام والأزرقى فى كتاب تاريخ مكة والمسافة مذكورة فيهما بذراع اليد وتارة بذراع الحديد المستعمل فى قياس القماش بمصر فى عهد الفاسى بعد القرن الثامن وقد استنتجنا مقدار ذراع الحديد من قياس الفاسى لجدر الكعبة ومقارنته بقياسنا لها ولم يحصل فى جدرها تغيير من عهد الفاسى الى الآن فكان ذراع الحديد $\frac{1}{7}$ ٥٦ سنتيا ورأينا الفاسى قاس بعض الأماكن بالذراعين الحديدى واليدوى فاستنتجنا مقدار ذراع اليد فاذا هو ٤٩ سنتيا تقريبا ولا يخفى عليك أن تقدير المسافات فى هذه الأمكنة محتمل للنقص والزيادة باعتبارما فى الأرض من نشوز وانخفاض واستقامة وانثناء فان رأيت مخالفا فلا تنكر فنشأ الخلاف ماذكرنا .


رسم
مشاعر الحج
متر
من الصفا الى المروة ٤٠٥
من باب بني شيبه الى باب مقبرة المعلاة ١٠٤٢
من باب مقبرة المعلاة الى سبيل الست ٢٣٨٧
من سبيل الست الى جمرة العقبة ٣١٢٠
من جمرة العقبة الى الجمرة الوسطى ١١٦
من الجمرة الوسطى الى الجمرة الصغرى ١٥٦
من جمرة العقبة الى نهاية وادى محسر ٣٠٢٨
من نهاية وادى محسر الى اول المأزمين ٢٨١٢
من اول المأزمين الى علمي الحرم من جهة عرفة ٤٣٧٢
من علمي الحرم الى علمي عرفة ١٠٥٣
من علمي عرفة الى سفح جبل الرحمة ١٠٠٣
شمال
جنوب
شرق
غرب
مسجد البيعة
سبيل الست
جمرة العقبة
الحجون
منى
وادى محسر
مزدلفة
المشعر الحرام
طريق المأزمين
ابتداء المأزمين
علمي الحرم
طريق ضب
عرفات
جبل الرحمة
قناة زبيدة
مخيم الحجاج
ميدان عرفات
علمي عرفة
مسجد نمرة
طريق الطائف
جبل عرفات
الجبال
(الخريطة ١٣١)

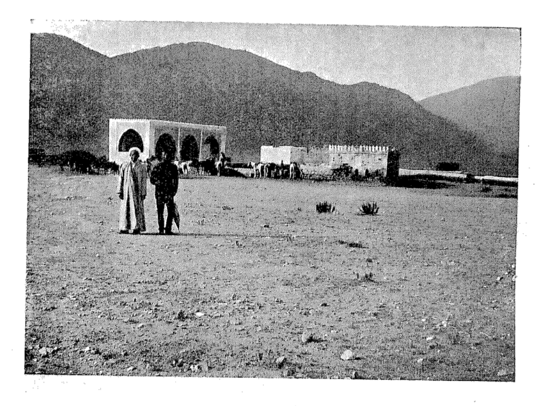
علما العمرة



132. The two posts of Al-Umrah (two columns limiting the sacred Territory

صحيفة ٣٤٣

مسجد السيدة عائشة وعلما العمرة



33. Mosque El-Sayyida Eishah and the two posts of Al-Umrah.



وقد أقيم عند التنعيم علمان يفصلان الحل من الحرم ارتفاع كل منهما ستة أمتار، وعرضه ثلاثة وهما مبنيان بالحجر والملاط الجيد والذى بناهما محمد أو أحمد ابن المقتدر الراضى بالله سنة ٣١٥ هـ . (انظر رسمهما فى الشكل ١٣٢) وبجوار هذين العلمين مسجد عائشة الذى أقيم فى مكان إحرامها بالعمرة بعد أن حجت مع الرسول صلى الله عليه وسلم حجة الوداع وطول هذا المسجد ١٦ مترا فى عرض ١٥ وارتفاعه ٤ أمتار ومكتوب فى محرابه بسم الله الرحمن الرحيم . ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ ٱللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَاةَ وَآتَى ٱلزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَى أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ هذا مسجد السيدة عائشة رضى الله عنها مجدّده السلطان محمود فى أوّل جمادى الثانية سنة ١٠١١ هـ . وممن عمر هذا المسجد عبد الله ابن محمد بن داود العباسى أمير مكة ثم العجوز والدة المقتدر العباسى ثم زوج الملك المنصور صاحب اليمن سنة ٦٤٥ هـ . على ما ذكره التقى الفاسى وكذلك عمره محمود بك والى جدة بصفة تكة مرتفعة وهى باقية الى الآن وذلك سنة ١٠١٢ هـ . كما ذكره السنجارى (انظر غربى الرسم ١٣٣) وخلف مسجد عائشة حوض أعد لخزن المياه طوله ٢٤ مترا، وعرضه ١٩ مترا، وعمقه ثلاثة وسطحه مواز لسطح الأرض بنى بالحجر والملاط الجيد، وفى كل من جهتيه الشمالية والجنوبية سلم يوصل الى قاعه ويتكوّن من سبع درجات وبأعلى الجهة الشرقية من الخزان حجر سطر به تاريخه غير أنه مقلوب الوضع لم أتمكن من قراءته وحول الخزان آثار بناء قديم، وهناك أيضا صهريج كبير كان يمتلئ من السيول ويتوضأ منه المعتمرون وهذا الصهريج قديم، ولما حج سنان باشا الوزير المجاهد فى سنة ٩٧٨ هـ . اعتمر من التنعيم فرأى هذا الصهريج خاويا ورأى ما يعانيه المعتمرون فى حمل الماء من مسافات بعيدة ليشربوا منه ويتوضئوا فحركته الشفقة الى بئر قديمة هنالك تبعد عن الخزان بنحو مائتى متر قد ملأها التراب فأمر بإصلاحها وأقيمت هنالك ساقية ومجرى مرتفع مقدار قامة يجرى الماء فيه من البئر الى هذا الصهريج الذى عمره الوزير المذكور والى الخزان السابق الذى أنشأه وجعل للقائم بنزح المياه أجرا من ريع أوقاف له بمصر وذلك فى سنة ٩٨١ هـ .

ولقد انتفع الناس من حجيج وسابلة بمياه هذا الصهريج وذلك الحوض أحقابا ولكن أغفلتهما يد العناية فنضب منهما الماء وبدأت يد الدهر تضرب فيهما بمعولها .

وفى غربى الخزان مصلى صغير ارتفاع جدره ٨٠ سنتيا وبه محراب وحجران عن يمين المحراب وشماله مكتوب فى أحدهما حفرا بالخط الكوفى تاريخ سنة ٥٣١ ه . وما وقف عليه ، وفى ثانيهما بالحفر أيضا كتابة بالخط المغربى لم أتبين رسمها . ونقلت التاريخ فاذا هو سنة ٣٠١ ه . كما تبينته من حضرة الأثرى يوسف افندى أحمد .

الطائف

كنت أود زيارة الطائف ومشاهدتها وخبرة طرقها حتى أكتب ما أكتب عن مشاهدة ولكن ما تيسر لى ذلك وتيسر للطيب الأثر محمد صادق باشا من ضباط أركان الحرب ومن المهندسين البارعين أن شاهد الطائف وذهب من أحد طريقيه ورجع من الآخر وذكر ذلك بكتابه « دليل الحج للوارد الى مكة والمدينة من كل فج » فأذكر ذلك نقلا عنه مع تغيير تقتضيه صياغة الألفاظ وإضافة مايستدعيه المقام مع بيان ذلك . قال طيب الله ثراه وأكرم مثواه :

فى شهر شعبان سنة ١٣٠٤ ه . حضرت الى مكة لأمر يتعلق بغلال الصدقة فوجدت سعادة الشريف عون الرفيق باشا وسعادة الوالى صفوت باشا عازمين على التوجه الى الطائف فى آخر الشهر لشدة الحر بمكة ودعونى أن أكون برفقتهم فلبيت .

وفى يوم الثلاثاء غرة رمضان الموافق ٢٤ مايو سنة ١٨٨٣ م . قبل الغروب بنصف ساعة خرجنا من مكة ميممين الطائف ومقدار الحرارة ٣٩ درجة (سنتجراد) وبلدة الطائف فى الجنوب الشرقى لمكة ، ولها طريقان يقطع أقصرهما فى ١٨ ساعة فسلكنا الطويلة لسهولتها عن الأخرى فسرنا ٢٠ دقيقة مبحرين مشرقين الى جبل حراء المشهور بجبل النور ونزلنا بجوار ساقية ، وبعد الغروب سرنا وعطفنا يسارا

من بعد جبل النور تاركين منى يمينا سالكين طريق السيل أو « اليمانية » مبحرين مشرقين حتى وصلنا الى « بئر البرود » فاسترحنا فيه قليلا ، ثم سرنا مشرقين ساعتين فى طريق يمثل نصف دائرة ولجنا بعدهما مدخل جبال « السولة » وبعد نصف ساعة استرحنا ببقعة بين الجبال ، وفى الساعة ١٠ والدقيقة ٤٥ من ليلة الأربعاء شرقنا فى صعود قليل وبلغنا أعلى الجبل الساعة ١١ والدقيقة ٣٠ وكان الشريف يركب عربته تارة وتخته أخرى (التخت وعاء تحفظ فيه الثياب ومراده التختروان) وحصانه ثالثة فأمر برجوع العربة الى مكة من هذا المكان لتعذر سيرها فيه من كثرة الحجارة والصخور وعسر الطريق وسرنا فى هبوط مهبط كثرت الأحجار فى منحدره الى مكان فسيح بين جبال ، وفى الساعة ١٢ والدقيقة ٢٠ من يوم الأربعاء وصلنا بقعة فسيحة بها زروع وجنات تحيط بها الأسوار وفيها نخيل وليمون أزواجا شتى وبعض فواكه لما تنضج وينبوع فى الجبل تحدر منه المياه يسمونه نهرا وهذا المكان يسمى « وادى اليمانية » وقد دخل الركب أحد بساتينه وضربنا الخيام فى ظلال أشجاره واسترحنا بياض النهار وتغدينا وأنسانا عناء السفر ووعثاءه تغريد الطيور من قمرى وشحرور وحمام وزرزور وبلغت الحرارة ٣٧° وبعد الغروب سرنا نحو ساعتين ونصف ومررنا « بالسولة » وفى الساعة ١٢ ليلا نزلنا بمحل متسع به مياه جارية واستظللنا بخيامنا ، وفى يوم الخميس ٣ رمضان الساعة ١٠ رحلنا وسرنا بين صخور مرتفعة وعقبات صعبة حتى الساعة الثالثة والنصف من ليلة الجمعة وبتنا بمحل يقال له « نبيه » أو « كوجك دره » وهناك بئر تسمى « بئر عابد » وكانت الحرارة ٣١° وفى الساعة ١٠ من يوم الجمعة تابعنا السير وبعد مضى نصف ساعة صعدنا الى عقبة حجرية أفضت بنا الى مستو فسيح به أشجار وسرنا الى الجنوب ، وفى الساعة الثانية مررنا « بالجديرة » ، وفى الساعة الرابعة « بأم حمص » ، وفى الساعة السادسة بمحل يسمى الجيم ، وفى س ٧ وق ٤٠ وصلنا « الطائف » . وهى فى صحراء متسعة تحيط بها جبال صغيرة غير منتظمة أرضها صالحة للزراعة لأنها تتكون من طين ورمل شديد النعومة ، ويقال للطائف أيضا وادى العباس .

والزمن الذى استغرقناه فى قطع الطريق من مكة الى الطائف ٣٦ ساعة امتطينا فيها متون الإبل . « وبلدة الطائف » يحيط بها سور من اللبن بناه الشريف غالب سنة ١٢١٤ هـ . ليتحصن به مما عساه يجد من غدر سعود بن عبد العزيز الذى حج للمرة الثانية فى سنة ١٢١٥ هـ . وخشيه الشريف على نفسه . وداخل هذا السور ٤٠٠ منزل و ٢٠٠ حانوت وستة جوامع أشهرها جامع عبد الله بن عباس — رضى الله عنهما — حبر الأمة وابن عم الرسول صلى الله عليه وسلم وترجمان القرآن والمتوفى فى سنة ٦٨ هـ . وله إحدى وسبعون سنة وبجواره مقام الطيب والطاهر ولدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبها أيضا سبعة مساجد ودائرة للحكومة ومنزل للمدير ومستشفى للجند ومسلختان وحمام وقلعة لحبس المجرمين حبس بها مدحت باشا الشهير ورفاقه وتوفوا بها ، وعدد سكانها ٢٠٠٠ نفس وبيوتها فى أكثر الأشهر خالية من السكان إلا القليل ولا تعمر إلا فى الصيف حيث يؤمها المكيون فرارا من حرّ مكة وقيظها ؛ وبجوار الطائف جنات مثمرة وعيون جارية وقرى آهلة ويوجد خارجها بعيدا عن سورها نحو ٢٥ منزلا بعيدا بعضها عن بعض ومحاطة بالأشجار داخل الأسوار والمنزل منها يتركب من طبقتين فى كل طبقة حجرات ثلاث نفذ بعضها الى بعض ، وهذه المنازل لأغنياء مكة خصوصا أميرها والشيخ عمر الشيبى .

وهواء الطائف شديد الجفاف منطاق التيار قرب العصر وتارة فى الصبح وتبلغ الحرارة نهارا ٢٩° وعند الغروب ٣٠° وفى الليل ٢٤° وإذا اشتد تيار الهواء لا تنقص درجة الحرارة إلا قليلا ويصعب السير خارج المنازل قبل الظهر الى العصر ولو بمظلة لأنه يهب على المار حرارة جافة كحرارة النار تجعله ضيق الصدر وإنها لشديدة الوقع على الأغراب ؛ أما المكيون فلشدة الحرارة ببلدهم لا يشعرون بالألم الكبير اذا مروا وقت الظهيرة بالطائف لأنهم مرنوا على هواء السموم حتى أورثهم ذلك نحافة فى الجسم وكسلا فى النفس فيجدون فى هواء الطائف رحمة لهم بالنسبة لما تعودوه من جوّهم المحرق ، ويشتكى أهل الطائف أنفسهم من شدّة الحرارة فى هجيرى النهار ؛ أما الذين اكتنوا بالبيوت فلا يصل اليهم ذلك الحرّ اللافح لأن

الأبنية تمنع تياره أن يمر بها ويطيب للناس الجلوس بعد العصر تحت الأشجار وبساتين الطائف قليلة وأشهرها « الهدة » غربى البلد بثلاث ساعات . ولانتظام درجة الجو دائما بالطائف تنضج فواكهها على الهينة حتى تبلغ غايتها فتكون لذيذة جيدة بخلاف بقاع الحجاز الأخرى ولذا شبهوا الطائف ببلاد الروم ، أما فى الفاكهة فنعم ، وأما فى الهواء فلا ؛ ومن فواكهها الطيبة عنبها لا سيما النوع المعروف بعنب الجاووش والخوخ والرمان خصوصا الملليسى والتين العلبى والبرشومى والتوت الشامى والبرقوق والبلح والليمون وأنواع الخضراوات ، وقد دعانى مرارا الشيخ عمر الشيبى للإفطار بمنزله ورأيت منه ما سرنى من جميل خلقه وحسن لقائه وبشاشة وجهه وكرم نفسه ، ومنزله خارج السور تحيط به جنة من أشجار وأزهار وأعناب مختلفة فيها قناة جارية تأتى من جبل هنالك وتنتهى الى حوض كبير نصطف حوله اذا جنحت الشمس للغروب فتنشرح منا الصدور — وقد وافاه القدر فى سنة ١٣٠٦ هـ . فرحمه الله رحمة واسعة . والسواقى هناك عمقها من ستة أبواع الى تسعة بحسب الأرض وبالمياه مواد كبريتية تمنع رغوة الصابون كما ينبغى وهى سريعة البرودة عند مرور الهواء ، وقيل إنها فى الشتاء تجمد ولو لم ينزل ثلج ودرجة الحرارة بالطائف معادلة لدرجتها بجدة لكن هواء الأولى جاف وهواء الثانية رطب ، والطائف مرتفعة عن البحر بنحو ١٥٤٥ مترا وعن مكة بنحو ١٢٦٦ مترا وجميع عربان الطائف مطيعون لسعادة الشريف أمير مكة وللحكومة وأغلبهم مقيم بأرض «سفيان» و «ثقيف» .

ولبعضهم عادات وحشية يعتقدونها دينية منها : أنهم لايختنون صبيانهم إلا بعد البلوغ أعنى بعد سنّ خمس عشرة سنة وصفة الختان عندهم أن يسلخوا جلد المختون من أسفل سرته بعرض بطنه الى ثلثى فخذيه مع جميع جلد ذكره وأكثرهم يموت من ذلك ويكون المختون قد خطب له زوجة من قبل فتحضر وقت سلخه وتزغرد تشجيعا له مع ضرب الطبول وهو واقف ثابت يهز خنجرا بيده ويذكر بأعلى صوته بدون تضجر بل بفرح اسمه وألقابه ونسبه حتى تنتهى عملية الختان وإن تأوه كان ذلك عارا عليه ولا ترضى به خطيبته ، وقد بدؤوا فى محو هذه العادة الشنعاء ؛ أما

إناثهم فلا يختن وصفة عقد النكاح عند هؤلاء أن أحد أقارب الزوجة يقول لها : زوّجتك فلانا فقط بدون أن يحضر فقيه أو يذكر مهر ونساؤهم لا يستترن عن الرجال، وقد بلغنى عن سعادة أحمد فيضى باشا « قومندان » الحجاز عامة وكان قد سبق له الخدمة باليمن أنه يوجد بالعسير قبائل يتركون بناتهم يختلطن بالرجال حتى يحبلن فيزوّجون البنت ممن حبلت منه وإن لم تحبل فتلك المعرة عندهم . وبمسقط يزوّجون الذكور بالذكور ويحجبونهم كالنساء فى بيوتهم ويخضبون أيديهم ويكحلون عيونهم ويحفون وجوههم وأذقانهم (١) .

(١) ذكرتنى هذه العادات بعادات أهل سواكن بالسودان ومريوط وسيوه غربى البلاد المصرية. فان العادة فى سواكن اذا ما رغب الشخص فى الزواج أن تحضر الزوجة ومن فى سنها والزوج وأترابه. ويكشف نصفه الأعلى بطنه وصدره وظهره ويضرب سياطا محدودة على ظهره وبين كتفيه فإن حرك جسمه. من الألم رغبت عنه الزوجة ولو لم يحرك لسانه بكلمة وإن لم يبد ألما قبلته بعلا لها ودعاه أترابها «أخا البنات» وفى ليلة الزفاف يجتمع مع الزوجة سبع من مثيلاتها فى السن يلبسن كلباسها ويسترن وجوههن ويدخل عليهن الزوج فان ميز زوجته من بينهن دخل بها وإن لم يميز أنفق عليهن سبعة أيام ثم يعاد التمييز فان عرفها فبها وإلا أنفق على رفيقاتها سبعة أخرى الى أن تكرر عملية التمييز سبع مرات فان لم يعرف زوجته فى الأخيرة. قدمت اليه والنبهاء من الأزواج يتفقون مع «الماشطة» لتشير الى الزوجة فيعرفها من بين أترابها . ومن عادة. أهل سواكن أن الزوجة اذا أسدلت على باب حجرتها سترا لا يدخلها الزوج إلا أن ترفعه وأن البكر إن. حملت من السفاح لا يعار ذلك عليها بل يقول أهلها «رزق جانا نطرده؟ » وإن لم تحمل قيل لها « يا وحشة. ماحدّ نظر اليك» والعادة عندهم فى ختان المرأة أن يكشطن ما نتأ من الفرج عن باقى الجسم حتى يكون الكل فى مستو واحد وبعد الكشط يضم الفخذان وتربط الرجلان ويوضع فى الفرج عود رفيع كعود القمح تبول. منه البنت فاذا ما تزوّجت فتق بقدر الحاجة فاذا ما أتى الوضع وسع حتى يخرج منه الحمل فتلك ثلاث عمليات جراحية فظيعة .

أما أهل مريوط فالعادة عندهم فى الزواج أن يذهب الخطيب الى الآبار التى ينزح منها المياه بكر النساء. فينتقى منهن من يشاء ويسأل عن أبيها وأين يقيم ويذهب الى خيمته ويخطب اليه ابنته فيدع له الخيمة بعد أن يخليها من أسرته حاشا المخطوبة فيجلس اليها الخطيب بعد أن ينصب بندقيته بالباب ويتحادثان ساعات ثم ينصرف وتعود الأسرة الى بيتها ثم يعاود الخطيب ذلك حتى تتوثق بين الخطيبين روابط الألفة والمحبة. فيتزوّجها ولو بعد حملها منه وإن رغب عنها اغترب عن أهلها سنة كاملة ثم يلتجئ الى عظيم ليقدر عليه دية =

وكان الطائف أوّلا مسكن العمالقة ثم آل ثمود ثم بنى ثقيف وكان به زمن الجاهلية صنم اللات تعبده ثقيف من دون الله وكان على صورة رجل يلت السويق بالسمن ويطعم الحاج، وكان[1] من خبر ثقيف مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه غزاهم فى سنة ثمان وحاصر ديارهم ولما لم يؤذن له بالفتح رحل عنهم وقال: اللهم اهد ثقيفا وائت بهم فآستجاب الله دعوته وأرسلوا فى سنة تسع ستة منهم وفدا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد كان فيما سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدع لهم الطاغية وهى اللات لا يهدمها ثلاث سنين فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم فما برحوا يسألونه سنة سنة ويأبى عليهم حتى سألوه شهرا واحدا بعد قدومه فأبى عليهم أن يدعها شيئا مسمى وإنما يريدون بذلك فيما يظهر أن يسلموا بتركها من سفهائهم ونسائهم وذراريهم ويكرهون أن يروعوا قومهم بهدمها حتى يدخلهم الإسلام، فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أن يبعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة يهدمانها ، وقد كانوا يسألونه مع ترك الطاغية أن يعفيهم من الصلاة وأن لا يكسروا

= فان قبل ماقدّر وإلا قتل ، ويكفى فى عقد الزواج أن تقدم شاة للخطوبة والمهر عندهم من الجمال والغنم والمعز ويتفاوت بحسب اليسر والعسر وهو حق لأهل الزوجة فان أبت إلا أخذه أقصوها عنهم إن أتت غضبى اليهم من بيت زوجها . وابن العم له السيطرة على بنت عمه فلا تتزوّج إلا برضاه أو تقديم رشوة اليه فان أبى تزويجها عاشت عانسا حياتها .

وفى سيوه يتزوّج الرجال الغلمان ويعاشرونهم كما يعاشرون النساء بل غلام الرجل مقدم على زوجه ويلبس الغلمان قلانس (طواقى) مزركشة وعلى قدر ما فيها من الزخرف يكون تقدير المهور لهم ومعرفة درجتهن فى الجمال والحسن .

وكنا نود أن نربأ بقلمنا عن تدوين هذه المخازى وتسطير تلك الفضائح التى يمقتها كل دين ولا يرضاها إلا الجهل والوحشية والبعد عن أسباب المدنية ولكنا ذكرناها ليتنبه الناس الى واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وأنه ما جنى تلك الجنايات على هؤلاء الجهال إلا تقاعسنا عن التعلم والتعليم حتى أصبحنا فى جهالات مظلمة وعادات منكرة .

(١) ملخص من الجزء الأوّل من زاد المعاد ص ٤٥٧

أوثانهم بأيديهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أما كسر أوثانكم بأيديكم فسنعفيكم منه وأما الصلاة « فلا خير فى دين لا صلاة فيه » .

ولما قدم الطائف أبو سفيان والمغيرة علا هذا اللات وأخذ يضربها بالمعول، وخرج نساء ثقيف حسرا يبكين عليها ويقول أبو سفيان والمغيرة يضربها بالفأس : واهالك واهالك، ولما هدمها أخذ ما عليها من الذهب والفضة والجزع .

قال الامام ابن القيم استنباطا من هذه القصة فى كتابه زاد المعاد : لا يجوز إبقاء مواضع الشرك والطواغيت بعد القدرة على هدمها وإبطالها يوما واحدا فإنها شعائر الكفر والشرك وهى أعظم المنكرات فلا يجوز الإقرار عليها مع القدرة ألبتة، وهذا حكم المشاهد التى بنيت على القبور التى اتخذت أوثانا وطواغيت تعبد من دون الله، والأحجار التى تقصد للتعظيم والتبرك والنذر والتقبيل لا يجوز إبقاء شيء منها على وجه الأرض مع القدرة على إزالته وكثير منها بمنزلة اللات والعزى — شجرة سمرة لغطفان كانوا يعبدونها — ومناة الثالثة الأخرى — صخرة كانت تعبدها هذيل وخزاعة — أو أعظم شركا عندها وبها والله المستعان، ولم يكن أحد من أرباب هذه الطواغيت يعتقد أنها تخلق وترزق وتميت وتحيي وإنما كانوا يفعلون عندها وبها ما يفعله إخوانهم من المشركين اليوم عند طواغيتهم فاتبع هؤلاء سنن من كان قبلهم وسلكوا سبيلهم حذو القذة بالقذة — القذة ريش السهم — وأخذوا مأخذهم شبرا بشبر وذراعا بذراع ، وغلب الشرك على أكثر النفوس لظهور الجهل وخفاء العلم فصار المعروف منكرا والمنكر معروفا والسنة بدعة والبدعة سنة ، ونشأ فى ذلك الصغير وهرم عليه الكبير وطمست الأعلام واشتدّت غربة الاسلام وقل العلماء وغلب السفهاء وتفاقم الأمر واشتدّ البأس وظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس، ولكن لا تزال طائفة من العصابة المحمدية بالحق قائمين ولأهل الشرك والبدع مجاهدين الى أن يرث الله سبحانه الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين ومن ثبتوا بالطائف الحجاج بن يوسف الثقفى المعروف .

قال صادق باشا : بعـد اقامتى بالطائف جملة أيام رغبت فى العودة الى مكة وأعددت البغال اللازمة للسفر فى صباح يوم الخميس ١٧ رمضان لأنى عزمت على سلوك طريق الكرا الذى لا يصلح للسير فيه سوى البغال، ونبه الوالى على ثلاثة من العسكر أن يكونوا برفقتى الى مكة ، وبعد الظهر ودعت الشريف والوالى. وفى العصر أحضرت البغال ووضعت عليها الأثقال، وفى الساعة العاشرة رحلنا من الطائف منتهجين سبيل الكرا ما بين الشمال والغرب ، وبعـد ربع ساعة دخلنا بين جبال واجتزنا جملة محاجر فأراضى مرملة تحف بها الجبال ذات اليمين وذات الشمال، وفى الساعة ١٠ والدقيقة ٥٥ صعدنا الى محجر بين جبال حجرية صماء ثم هبطنا الى طريق مستو يسمى "بالجميرات" أوالجبال الحمر، وفى الساعة ١٢ والدقيقة ٥ صعدنا الى محجر آخر ثم هبطنا ثم صعدنا فوق تلال متعدّدة ، وبعـد عشر دقائق غرب الطريق، وبعـد ٧ دقائق هبطنا الى أرض واسـعة نزلنا بها بجوار بئر تسمى "بئر العسكر" عذبة المياه صلينا عندها المغرب وتابعنا المسير الساعة ١٢ ونصفا ، وبعـد ٥ دقائق مررنا بمحجر صعب وجملة أخوار، وبعد ١٠ دقائق مررنا بحدائق وبيوت فى "وادى محرم" وفى الساعة ٢ والدقيقة ١٠ نفذنا من عقبة كأداء صعبة المرتقى لعلوّها وكثرة أحجارها ولهـذا لا يمكن أن يمرّ منها إلا فرد فرد ومرور التختروان من هـذا الطريق متعذر ، وبعد أن علونا صخورا وانثنى الطريق عدّة انثناءات الى الساعة ٣ والدقيقة ١٠ حيث وصلنا "الهده" وهو أعلى الجبل وهناك بيوت وبساتين والفواكه فى هذه الجهة أطيب وألذ من فواكه غيرها لاعتـدال هوائها وارتفاعها عن سطح البحر بنحو ١٧٥٨ متر وبتنا فى مكان متسع مفروش بالأبسـطة ، وفى الساعة ٩ والدقيقة ٣٠ ليلا سرنا راكبين، وبعد ٥ دقائق مررنا بدرب الجمال على اليمين وتركناه لكونه خاصا بسير الإبل، وبعـد ٣ دقائق ابتدأ النزول من الجبل من درب ضيق صناعى غير منتظم كثير الانعطاف ، وفى الساعة ٩ والدقيقة ٤٥ مررنا بعين جارية

من الجبل تصب فى حوض مبنى وتتدفق منــه الى الصخور ويقال ان هــذا المــاء سريع الهضم جدا وكان هبوط البغال من هــذه البقعة اليافعة حاملة أثقالها من الغرائب لشدّة انحدارها ولولا مهارة البغالة وحذقهم فى تحميل الأمتعة وربطها بحيث يستقر عليها الراكب ولا تضطرب به فى صعود أو هبوط — لأصاب الراكب خطر عظيم إذ يخيل الى الراكب أن البهيم نازل به من سلم مرتفع ولولا قبضــه على رباط البرذعة الخلفى لانكب على الأرض فى كل منحدر ، والخيــل والحمير لا تصلح للركوب فى هــذه الطرق لشدّة الصعود والانحدار وكثرة الأحجار والانعطافات التى تمثل مسير الثعبان — وبهذا الطريق سلك الاشارات البرقية بين مكة والطائف — وفى الساعة ١١ مررنا بماء جار عذب ، وفى الساعة ١١ والدقيقة ٢٥ اجتمع الدربان وفى الساعة ١٢ والدقيقة ٤٨ وصلنا "الكر" — آخر صعوبة فى الجبــل — وهناك ماء عذب جار وعرب راعيــة نساؤهم لابسات قمصا سوداء من صوف أو غيره ويغطين رؤوسهن بخمر سوداء تثنى الى الخلف وتظل الأعين تسمى "بيرام" ويسترن الفم مع العنق فقط دون الوجه ، وبعد أن مكثنا قليلا لتصليح الأحمال سرنا وكانت الساعة واحدة وربعــا من يوم الجمعة وكان السير بانحــدار خفيف ، وفى الساعة ١ والدقيقة ٤٨ وصلنا الى آخر الجبل المسمى "بوادى نخريف الرأس" وفى الساعة ٢ والدقيقة ٢٥ نزلنا بقعة مرملة تحيط على الجبال فملنا نحو الجنوب الغربى ، وفى الساعة ٣ والدقيقة ١٠ وصلنا قهوة "شــدّاد" وهذه القهوة إحدى قهاو ثلاث بهذا الوادى ساقنا اليها البغال لينتفع من صاحبها وهى مركبــة من أربعة أخصاص متفرقة قطر الواحد منهــا ثلاثة أمتار ونصف فى ارتفاع متر ونصــف بأحدها أسرة القهوى والباقيات للمسافرين والدواب ، ولمــا لم يمكننا الجلوس بها من شــدّة الحر وتعرّض أبوابها للهب السموم عرض علينا القهوى خصه بعد أن أخلاه من أسرته فوجدنا به بعض الأثاث ودجاجا بعضــه قائم يلتقط الحب وبعضــه مفترش بيضه ففرشنا

السجادات فى الجهـة الخالية ولبثنا ننتظر زوال القيلولة مع سمومها والفراخ تكأكئ وتنبعث منها رائحة بشعة والنصب ململ الأعضاء وساعده القيظ ، وفى الساعة ٩ انتحينا ناحية الجنوب الغربى ، وفى الساعة ١٠ والدقيقة ١٥ وصلنا "وادى النعمان" وعلى اليمين مبدأ بناء مجرى عين زبيده ثم بعد مدة غربنا فى طريق واسع بين جبال وهو صالح لسير العربات من مكة الى ابتداء وادى نحريف الرأس ، وفى الساعة ١١ والدقيقة ٨ وصلنا قهوة عرفات وبجوارها عساكر ضبطية للخفر وبعـد الاستراحة قمنا الساعة ١ من ليلة السبت وبعد ٥٠ دقيقة بلغنا جامع نمرة بعرفات ، وفى الساعة ٢ والدقيقة ١٠ مررنا بين العلمين ، وفى الساعة ٤ ليلا دخلنا مكة المباركة .

فتكون المسافة من الطائف الى مكة خمس عشرة ساعة وربعا بالبغال وبعض الناس يقطعها فى ١٣ ساعة وذلك من أقرب طريق ؛ وهاك بيان ارتفاع الأماكن المشهورة عن سطح البحر الملح بالقـدم الانكليزى وكل عشرة أقدام تساوى ثلاثة أمتار :

	قدم	متر		قدم	متر
مكة مرتفعة عن بحر جدة بمقدار	٩٣٠	٢٧٩	الكرا مرتفع عن بحر جدة بمقدار	٢٧٤٠	٨٢٢
» » » »	١٠٥٠	٣١٥	الهدا » » » »	٥٨٦٠	١٧٥٨
عين زبيدة » » »	١١١٤	٣٣٤	الطائف » » » »	٥١٥٠	١٥٤٥
الوادى أو الجبل مرتفع » »	١٧٦٠	٥٢٨			

وقبل أن نغادر مكة الى المدينة نذكر لك جدولا بأمرائها من الفتح الاسلامى الى يومنا هذا ونشفعه بآخر فى المسافات بين مكة والمدن الاسلامية الهامة .

أمراء مكة

كانت إمارة مكة الى عمال الخلفاء حتى سنة ٣٥٨ هـ . فانتزعها منهم الأشراف الحسنيون وبقيت فيهم الى سنتنا هذه — ١٣٤٣ — حيث انتزعها منهم الوهابيون كما يسميهم الناس أو الإخوان كما يسمون أنفسهم وهؤلاء الأشراف أربع طبقات الموسويون أو بنو موسى والسليمانيون والهواشم وهذه الطبقات الثلاث وليت ٢٤٠ سنة من ٣٥٨ الى ٥٩٨ هـ . والطبقة الرابعة قتادة وبنوه حكموا ٧٤٥ سنة من ٥٩٨ الى ١٣٤٣ هـ . ولا يزالون فى حرب وقتال مع الإخوان والله العليم بمن يستقر له الأمر وأوّل من ملكها من الأشراف جعفر بن محمد بن الحسين بن محمد الثائر بن موسى الثانى بن عبد الله بن موسى الجون بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن على بن أبى طالب .

وسترى من المعلومات التى ذكرناها بالجداول أنه قلما وجد بين الأشراف مصالح وأن الحرب قلما انطفأ سعيرها بينهم من أجل الإمارة حتى بلغ الأمر ببعضهم أن قتل أخاه وطبخ لحمه ودعا إخوته الباقين لوليمة قدّم لهم فيها لحم أخيه وأقام على رأس كل منهم سيافين حتى لا يستفزهم الغضب الى الانتقام وكانوا يجدون من الحكام المجاورين من يساعدهم على قتل بعضهم بعضا حتى تفاقم الشر بينهم فكانوا أسوأ أسرة وجدت بين أفرادها أسوأ العلاقات وكان خليقا بحكام البلد الحرام والمتشرفين بجوار بيت الله أن يكونوا مثالا حسنا للإمارة والولاية ولكن الملك عقيم خصوصا اذا كان بيد الجهلاء الذين يحسبون مجرّد نسبتهم الى الرسول صلى الله عليه وسلم فخرا لهم وشرفا وإن نبذوا أخلاقه وأعماله وآداب دينه ولقد سموا أنفسهم شرفاء ويعلم الله أن أكثرهم من الشرف براء وهاك جدول الأمراء وتاريخ ولايتهم ومدّتها ما وجدنا الى معرفة ذلك سبيلا .

اسم الأمير	تاريخ التولية	معلومات
عتاب بن أُسَيد	أوائل شوّال سنة ٨ هـ	ولاه الرسول صلى الله عليه وسلم وقال له حين بعثه : هل تدرى الى من أبعثك أبعثك الى أهل الله فاستوص بهم خيراً ــ يقولها ثلاثاً
المحرز بن حارثة	سنة ١٤	ولاة مكة فى عهد عمر بن الخطاب من ٢٢ جمادى الآخرة سنة ١٣ هـ الى ٢٦ ذى الحجة سنة ٢٣ هـ .
قنفذ بن عمير التيمى	...	
نافع بن الحارث الخزاعى ...	...	
خالد بن العاص	...	
أحمد بن خالد...	...	
طارق بن المرتفع	...	
الحارث بن نوفل...	...	
على بن عدى...	سنة ٢٤	تولوا فى خلافة عثمان رضى الله عنه الذى قتل سنة ٣٥ هـ .
خالد بن العاص المتقدم ...	...	
الحارث بن نوفل « ...	...	
عبد الله بن خالد بن أسيد...	...	
عبد الله بن عامر الحضرمى...	...	
نافع بن الحارث الخزاعى ...	...	
خالد بن العاص المتقدّم ...	...	
أبو قتادة الأنصارى	سنة ٣٦	توليا مكة فى خلافة على رضى الله عنه الذى استشهد فى سنة ٤٠ هـ.
قثم بن العباس	...	
عتبة بن أبى سفيان	سنة ٣٩	تولوا فى خلافة معاوية الذى توفى سنة ٦٠ هـ .
مروان بن الحكم	...	
سعيد بن العاص	...	
عمرو بن سعيد	...	
خالد بن العاص المتقدّم ...	...	
عبد الله بن خالد بن أسيد...	...	
عمرو بن سعيد	سنة ٦١	بعض ولاة مكة زمن يزيد بن معاوية وعبد الله بن الزبير وقد بايع الناس عبد الله بن الزبير سنة ٦٢ هـ . وتوفى يزيد سنة ٦٤ هـ . واستشهد عبد الله سنة ٧٣ هـ .
الوليد بن عتبة بن أبى سفيان	...	
عثمان بن محمد بن أبى سفيان	...	

اسم الأمير	تاريخ التولية	معلومات
الحارث بن خالد المخزومى ...	سنة ٦١ هـ	باقى ولاة مكة زمن يزيد بن معاوية وعبد الله بن الزبير وقد بايع الناس عبد الله بن الزبير سنة ٦٢ هـ . وتوفى يزيد سنة ٦٤ هـ . واستشهد عبد الله سنة ٧٣ هـ .
عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب	...	
يحيى بن حكيم	...	
الحجاج بن يوسف الثقفى ...	سنة ٧٣	ولاة مكة فى زمن عبد الملك بن مروان المتوفى سنة ٨٦ هـ .
مسلمة بن عبد الملك بن مروان	...	
الحارث بن خالد المخزومى المتقدم	...	
خالد بن عبد الله القسرى ...	...	
نافع بن علقمة الكنانى	...	
يحيى بن الحكم بن أبى العاص	...	
عمر بن عبد العزيز	سنة ٨٦	توليا زمن الوليد بن عبد الملك المتوفى سنة ٩٦ هـ . وبقى خالد مدة فى ملك سليمان .
خالد بن عبد الله القسرى المتقدم	سنة ٨٩	
طلحة بن داود	...	توليا فى زمن سليمان بن عبد الملك سنة ٩٩ هـ . وبقى خالد الى زمن عمر .
عبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أسيد	...	
محمد بن طلحة بن عبد الله ...	...	تولوا فى خلافة عمر بن عبد العزيز الذى توفى سنة ١٠١ هـ . وبقى عثمان مدة فى زمن يزيد .
عروة بن عياض	...	
عبد الله بن قيس بن مخرمة ...	...	
عثمان بن عبيد الله العدوى ...	...	
عبد الرحمن بن الضحاك القرشى	سنة ١٠١	توليا فى زمن يزيد بن عبد الملك الذى توفى سنة ١٠٥ هـ . واستمر عبد الواحد مدة فى خلافة هشام .
عبد الواحد بن عبد الله النصرى	...	
ابراهيم بن هشام المخزومى ...	...	تولى الثلاثة فى زمن هشام بن عبد الملك الذى توفى سنة ١٢٥ هـ .
محمد بن هشام	...	
نافع بن عبد الله الكنانى ...	...	
يوسف بن محمد الثقفى ...	سنة ١٢٥	ولى فى زمن الوليد بن يزيد بن عبد الملك الذى قتل سنة ١٢٦ هـ .
عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز	سنة ١٢٦	ولى فى زمن يزيد بن الوليد الذى توفى بعد خمسة أشهر من ولايته وخلفه أخوه إبراهيم وخلع بعد أربعين يوما وبقى عبد العزيز الى زمن مروان .

اسم الأمير	تاريخ التولية	معلومات
عبدالواحد بن سليان بن عبدالملك	سنة ١٢٦	عينه مروان بن عبد العزيز .
أبو حمزة الخارجى	...	تولى على مكة قهرا .
عبد الملك بن محمد بن عطية...	...	ولاه مروان بعد قتل أبي حمزة و إخراج جيشه منها .
الوليد بن عروة السعدى ...	...	وليا مكة من قبل مروان بن محمد أيضا وقتل مروان سنة ١٣٢هـ
محمد بن عبد الملك بن مروان	...	
داود بن على بن عبدالله بن عباس	سنة ١٣٢	ولياها فى زمن مؤسس الدولة العباسية السفاح عبدالله بن محمد ابن على بن عبد الله بن عباس وتوفى أبو العباس السفاح سنة ١٣٦ هـ .
عمر بن عبد الحميد	...	
العباس بن عبد الله بن معبد	سنة ١٣٦	ولاهم أبو جعفر المنصور .
زياد بن عبد الله الحارثى ...	...	
الهيثم بن معاوية العتكى ...	...	
السرى بن عبد الله بن الحارث	سنة ١٤٣	
محمد بن الحسن بن معاوية ابن عبد الله بن جعفر	سنة ١٤٥	تولى من قبل النفس الزكية محمد بن عبد الله الذى خرج على أبى جعفر بالمدينة و بايعه الأئمة من أهل عصره كمالك وأبى حنيفة ومن فى طبقتهما .
السرى بن عبد الله بن الحارث	سنة ١٤٥	ولاهم أبو جعفر المنصور أيضا وتوفى أبو جعفر سنة ١٥٨ هـ
عبد الصمد بن على بن عبد الله ابن عباس	سنة ١٤٦	
محمد بن ابراهيم الامام ...	سنة ١٤٩	
ابراهيم بن يحيى بن محمد ...	سنة ١٥٨	ولاهم محمد المهدى بن المنصور وتوفى المهدى سنة ١٦٨ هـ. وبقى عبيد الله مدة فى زمن الهادى .
جعفر بن سليمان بن على ...	سنة ١٦١	
عبيد الله بن قثم بن العباس...	سنة ١٦٦	
الحسين بن على بن الحسن بن المثنى	سنة ١٦٩	خرج الحسين هذا على العباسيين واستولى على مكة حتى قتل مع مائة من جنده يوم التروية وكان ذلك فى زمن موسى الهادى الذى توفى سنة ١٧٠ هـ.
أحمد بن اسماعيل	...	ولى هؤلاء أخو الهادى هرون الرشيد الذى توفى سنة ١٩١ هـ
حماد البربرى...	...	
سليمان بن جعفر	...	
العباس بن موسى...	...	

اسم الأمير	تاريخ التولية	معلومات
العباس بن محمد بن إبراهيم	...	
عبد الله بن قثم	سنة ١٦٩	
على بن موسى	»	
الفضل بن العباس	»	ولى هؤلاء أخو الهادى هرون الرشيد الذى توفى سنة ١٩١ هـ .
محمد بن عبيد الله	»	
موسى بن عيسى بن موسى ...	»	
داود بن عيسى بن موسى ...	»	ولاه محمد الأمين بن الرشيد ولما قتل الأمين سنة ١٩٧ هـ . وخلفه أخوه المأمون . بقى داود مدة واليا على مكة .
الحسين بن الحسن المعروف بالأفطس	»	تولى من قبل أبي السرايا السرى بن منصور الشيبانى الذى قام بالعراق يدعو لأهل البيت .
على بن محمد بن جعفر الصادق	سنة ٢٠٠	ولاه الحسين بن الحسن لما بلغه قتل أبي السرايا سنة ٢٠٠ هـ وخاف على نفسه بطش العباسيين وكان الحسين وعلى من أقبح الناس سيرة .
محمد بن عيسى بن يزيد الجلودى	سنة ٢٠٠	توليا من قبل المأمون .
يزيد بن محمد المخزومى ...	...	
إبراهيم بن موسى الكاظم ...	سنة ٢٠٢	جاء من اليمن واستولى على مكة عنوة وقتل يزيد بن محمد .
عبيد الله بن الحسن	...	
صالح بن العباس	...	
سليمان بن عبد الله	...	
محمد بن سليمان	...	تولوا مكة من قبل المأمون العباسى وتوفى المأمون سنة ٢١٨ هـ .
الحسن بن سهل	...	
عبيد الله بن عبد الله بن الحسن	...	
صالح بن العباس	سنة ٢١٨	
أشاش التركى	...	تولوا فى عهد المعتصم بن الرشيد وتوفى المعتصم سنة ٢٢٨ هـ وبقى محمد بن داود فى الولاية مدة الواثق بن المعتصم الذى توفى سنة ٢٣٢ هـ .
محمد بن داود بن عيسى ...	...	
على بن عيسى بن جعفر ...	سنة ٢٣٢	
عبد الله بن محمد بن داود ...	سنة ٢٣٩	تولوا فى زمن المتوكل بن المعتصم الذى قتل سنة ٢٤٧ هـ . وتولى بعده ابنه المنتصر فات بعد سنة أشهر .
عبد الصمد بن موسى	...	

اسم الأمير	تاريخ التولية	معلومات
محمد بن سليمان بن عبد الله ...	سنة ٢٣٩	تولوا فى زمن المتوكل بن المعتصم الذى قتل سنة ٢٤٧ هـ. وتولى بعده ابنه المنتصر فمات بعد ستة أشهر.
محمد المنتصر بن المتوكل ...	...	
ايتاح مولى المعتصم	...	
عبد الصمد بن موسى	سنة ٢٤٧	توليا فى عهد المستعين بن المعتصم.
جعفر بن الفضل	...	
اسماعيل بن يوسف	...	ثاب جعفر بن الفضل على مكة ومات بالجدرى سنة ٢٥٢ هـ.
العباس بن المستعين	سنة ٢٥٢	توليا فى عهد المستعين ولكن لم يباشرا العمل والمستعين توفى سنة ٢٥٢ هـ.
محمد بن طاهر بن الحسين ...	...	
عيسى بن محمد بن إسماعيل ...	...	توليا فى خلافة المعتز بن المتوكل الذى قتل سنة ٢٥٥ هـ.
محمد بن أحمد بن عيسى ...	...	
على بن الحسن الهاشمى ...	سنة ٢٥٥	ولاه المهتدى بن الواثق الذى قتل سنة ٢٥٦ هـ.
الموفق طلحة بن المتوكل ...	...	تولى هؤلاء التسعة فى خلافة المعتمد على الله بن المتوكل وأحمد ابن طولون صاحب مصر ولى عقدا ولم يباشر وتوفى المعتمد سنة ٢٧٩ هـ.
إبراهيم بن محمد بن إسماعيل	...	
أبو المغيرة محمد بن أحمد ...	...	
أبو عيسى محمد بن يحيى ...	...	
الفضل بن العباس	...	
هرون بن محمد	...	
أحمد بن طولون	...	
محمد بن أبى الساج...	...	
يوسف بن أبى الساج... ...	...	
... ...	...	المعتضد المتولى سنة ٢٧٩ هـ
عج	..	المكتفى « « ٢٨٩ هـ — لم يعلم من ولاة مكة فى عهد هؤلاء الخلفاء الا الثمانية الذين ذكرناهم وأبو طاهر من القرامطة دخل مكة وعاث فيها فسادا وابن طغج وولداه تولوا مكة بالعقد لا بالمباشرة.
مؤنس الخادم	...	المقتدر « « ٢٩٥ هـ
ابن ملاحظ...	...	القاهر « « ٣٢٠ هـ
ابن مخلب أو ابن محارب ...	...	الراضى بالله « « ٣٢٢ هـ
أبو طاهر القرمطى	سنة ٣١٧	المتقى بالله « « ٣٢٩ هـ
محمد بن طغج المعروف بالاخشيد وولداه أبو القاسم وعلى	سنة ٣٣١	المستكفى « « ٣٣٢ هـ
أبو جعفر محمد بن الحسن بن عبد العزيز	سنة ٣٣٨	المطيع لله « « ٣٣٤ هـ واستمرت ولايته الى سنة ٣٦٣ هـ

اسم الأمير	تاريخ التولية	معلومات
جعفر بن محمد بن الحسين أول الأشراف	سنة ٣٥٨	خرجت مصر من يد العباسيين الى يد العبيديين أو الفاطميين من سنة ٣٥٨ هـ. ومن ذلك الوقت ابتدأ حكم الأشراف بمكة وأول من وليها منهم جعفر بن محمد من الأشراف الحسنيين .
عيسى بن جعفر	...	
أبو الفتوح الحسن بن جعفر	سنة ٣٨٤	
أبو الطيب داود بن عبد الرحمن	...	تولى مكة لما غاب عنها أبو الفتوح حينما خرج على العبيديين .
تاج المعالى محمد شكر بن أبي الفتوح	سنة ٤٣٠	
عبد تاج المعالى	سنة ٤٥٣	
محمد بن أبي الفاتك	...	من بنى أبي الطيب داود بن عبد الرحمن .
على بن محمد الصليحى	سنة ٤٥٥	قدم الى مكة من اليمن وانتزعها من بنى أبي الطيب واستعمل العدل والاحسان .
محمد بن جعفر بن محمد... ...	«	ولى مكة من قبل الصليحى وهو من الأشراف الحسنيين .
حمزة بن وهاس بن أبي الطيب	...	انتزع حمزة مكة من ابن جعفر ولكن ما لبث أن استرجعها منه .
محمد بن جعفر بن محمد... ...	...	
القاسم بن محمد بن جعفر ...	سنة ٤٨٤	
الأصبهبذ بن سارتكين	«	انتزع مكة من يد القاسم ثم استردها القاسم منه .
القاسم بن محمد بن جعفر ...	سنة ٤٨٨	كان قويا شجاعا .
فليتة بن القاسم	سنة ٥١٨	من الأدباء الشعراء .
هاشم بن فليتة	سنة ٥٢٧	نهب الحج العراقى أثناء طوافه لخلاف بينه وبين أميره .
القاسم بن هاشم	سنة ٥٤٩	صادر أموال أعيان مكة وتجارها والمجاورين بها .
عيسى بن فليتة	سنة ٥٥٣	حصلت فتنة بين القاسم وعمه عيسى انتهت بطرد القاسم من مكة .
القاسم بن هاشم	سنة ٥٥٧	قتل بعد أيام لقتله قائدا من قواده فتغير عليه أصحابه .
عيسى بن فليتة	...	فى سنة ٥٦٧ هـ أثناء ولاية عيسى انقرضت دولة العبيديين بمصر واستولى عليها السلطان صلاح الدين الأيوبى ودعا للعباسيين .
مالك بن فليتة	سنة ٥٦٥	
عيسى بن فليتة...	...	
داود بن عيسى	سنة ٥٧٠	عزله الناصر العباسى فى ١٥ رجب سنة ٥٧١ هـ .

اسم الأمير	تاريخ التولية	معلومات
مكثر بن عيسى	سنة ٥٧١	نحى مكثرا عن مكة طاشتكين أمير الحج العراقى بعد أن جرى بينهما قتال شديد نهبت فيه دور كثيرة وأحرقت وسلب مكثر من الحجاج أموالهم .
طاشتكين	...	
القاسم بن مهنا الحسينى ...	...	
داود بن عيسى	...	ولاه طاشتكين بعد أن أظهر له القاسم عجزه عن حكم مكة .
مكثر بن عيسى	سنة ٥٨٧	فى زمنه أبطل صلاح الدين المكوس التى كانت يتقاضاها أمير مكة من الحجاج عن طريق عيذاب وهى سبعة دنانير مصرية عن كل شخص وعوضه عنها ثمانية آلاف أردب من القمح .
الشريف قتادة بن ادريس الحسنى العلوى	سنة ٥٩٧	انتزع مكة من مكثر وبذلك انقرضت ولاية بنى فليتة المعروفين بالهواشم والشريف قتادة هو جد الأشراف الذين يحكمون مكة الى الان سنة ١٣٤٣ هـ .
الحسن بن قتادة	سنة ٦١٧	قيل انه قتل أباه خنقا وكان أبوه مريضا .
على بن رسول...	سنة ٦١٩	انتزع مكة من الحسن ملك اليمن المسعود ابن الملك الكامل صاحب مصر وولى عليها المسعود على بن رسول نائبه على اليمن .
صارم الدين ياقوت عتيق المسعود	سنة ٦٢٦	ولى مكة من قبل الملك المسعود .
طغتكين التركى	»	» » » الكامل .
راجح بن قتادة	سنة ٦٣٠	ولى مكة بمساعدة على بن رسول صاحب اليمن بعد المسعود. وقد انتزعت منه واستردها ثمانى مرات حتى توفى راجح سنة ٦٥٤ هـ بعد أن نزعت منه مكة لآخر مرة. سنة ٦٥٢ هـ .
الحسن بن على بن قتادة ...	سنة ٦٣٩	
جماز بن الحسن بن قتادة ...	سنة ٦٥١	ولى عليها بمساعدة الملك الناصر صاحب مصر .
غانم بن راجح...	سنة ٦٥٢	انتزع إمارة مكة من أبيه راجح الذى أخرج جمازا من مكة بلا قتال .
إدريس بن قتادة ومحمد أبو نمى الأول	سنة ٦٥٤	انتزعا مكة من غانم فى شوال سنة ٦٥٤ هـ .
محمد أبو نمى الأول	سنة ٦٦٧	تقاتل مع إدريس حتى قتله سنة ٦٦٧ هـ . وانفرد بالولاية .
غانم بن إدريس	...	لما قتل أبوه استنجد بجماز بن شيحة فأخرج أبا نمى ثم استرد أبو نمى مكة .
جماز بن شيحه	سنة ٦٨٨	كان واليا على المدينة وأضاف اليه قلاوون صاحب مصر مكة. فأخذها أياما ولكن لم يلبث أن استرجعها منه أبو نمى .

اسم الأمير	تاريخ التولية	معلومات
رميثة وحميضة ولدا أبي نمي	سنة ٧٠١	تنازل أبوهما عن الملك لهما ولما حج بيبرس أمير الكرك ولى أخويهما عطيفة وأبا الغيث لما شكوا اليه وقبض على رميثة وحميضة وأخذهما معه .
عطيفة وأبو الغيث ولدا أبي نمي	«	
رميثة وحميضة ولدا أبي نمي	سنة ٧٠٣	استعادا مكة سنة ٧٠٣ هـ . ووقعت بينهما فتن وكذا بينهما وبين عطيفة وأبي الغيث وقتل حميضة أخاه أبا الغيث سنة ٧١٤ هـ وقتل حميضة سنة ٧١٨ هـ وبقي التنازع بين رميثة وعطيفة زمنا طويلا هذا يأخذ مكة مرة وذا ينتزعها منه أخرى حتى استقر الملك لرميثة بعد سنة ٧٣٧ هـ .
رميثة منفردا	سنة ٧٣٧	
عجلان بن رميثة	سنة ٧٤٥	اشترك معه في الولاية بعد سنة ٧٤٦ هـ أخوه ثقبة الذي توفي سنة ٧٦٢ هـ فأشرك معه ابنه أحمد حتى توفي سنة ٧٧٧ هـ .
عجلان وثقبة	سنة ٧٤٦	
سند ومغامس ابنا رميثة ...	سنة ٧٤٧	ولاهما صاحب مصر في حين ولاية عجلان وثقبة وقتل مغامس سنة ٧٦١ هـ .
أحمد بن عجلان منفردا ...	سنة ٧٧٧	استقل بالملك بعد وفاة أبيه وأشرك معه في الملك ابنه محمدا سنة ٧٧٨ هـ . وتوفي أحمد سنة ٧٨٨ هـ .
محمد بن أحمد بن عجلان منفردا	سنة ٧٨٨	قتله أمير الحج المصري بعد أن تولى ١٠٠ يوم .
عنان بن مغامس	«	ولاه مكة الظاهر برقوق وأشرك عنان معه أحمد بن ثقبة وعقيل بن مبارك بن رميثة ظانا أن ملكه يدوم بذلك ولكن عزله برقوق وولى علي بن عجلان فأشرك علي معه عنانا ثم استقل علي بالملك سنة ٧٩٤ هـ .
علي بن عجلان	سنة ٧٨٩	
محمد بن عجلان	سنة ٧٩٧	ولي بعد قتل أخيه علي .
حسن بن عجلان	سنة ٧٩٨	ولاه سلطان مصر لما قتل علي لحضر الى مكة فسلم له أخوه محمد .
بركات بن الحسن	سنة ٨٠٩	أشركه أبوه معه في هذه السنة .
أحمد بن الحسن	سنة ٨١٠	أشركه أبوه مع أخيه بركات وتولى الحسن نيابة السلطنة في جميع بلاد الحجاز .
رميثة بن محمد بن عجلان ...	سنة ٨١٨	ولي رميثة سلطان مصر فأرسل الحسن ابنه بركات يستعطف السلطان فأعاد الحسن .
الحسن بن عجلان	سنة ٨١٩	
علي بن عنان بن مغامس ...	سنة ٨٢٧	ولاه برسباي ملك مصر ثم أعاد الحسن .
الحسن بن عجلان	سنة ٨٢٨	توفي بمصر سنة ٨٢٩ هـ . وكان من العلماء الفضلاء .
بركات بن الحسن	سنة ٨٢٩	تولى مرارا وكان من العلماء الأنجاب .

اسم الأمير	تاريخ التولية	معلومات
على بن الحسن	سنة ٨٤٥	عزل أخوه بركات وتولى هو مكانه ولكن ما لبث أن أعيد بركات .
بركات بن الحسن	«	عزل بعد سنة بأخيه أبى القاسم .
أبو القاسم بن الحسن	سنة ٨٤٦	أخرجه بركات سنة ٨٤٩ هـ . ثم عاد الى مكة وبقى عليها الى سنة ٨٥١ هـ حيث ذهب الى مصر ومات بها سنة ٨٥٣ هـ .
بركات بن الحسن	سنة ٨٥١	أعاده الى الولاية بمكة السلطان جقمق وبقى بها حتى توفى سنة ٨٥٩ هـ
محمد بن بركات	سنة ٨٥٩	كان عالما فاضلا حج فى ولايته السلطان قايتباى سنة ٨٨٤ هـ .
بركات بن محمد	سنة ٩٠١	قد أشركه أبوه معه فى الملك من سنة ٨٧٨ هـ . واستقل به بعد وفاته سنة ٩٠١ هـ .
هزاع بن محمد	سنة ٩٠٧	تولى كل من هؤلاء بعض شهور وتغلب عليهم أخوهم بركات حتى صفا له الملك سنة ٩٠٨ هـ . واستمر فيه الى أن توفى سنة ٩٣١ هـ .
أحمد بن محمد	«	
حميضة بن محمد	سنة ٩٠٨	
أبو نمى الثانى محمد بن بركات	سنة ٩٣١	أشركه السلطان الغورى مع أبيه فى ولاية مكة من سنة ٩١٨ هـ ولم تعد سن أبى نمى ٧ سنوات وبعد وفاة أبيه استقل بالولاية وقد أقره مع أبيه السلطان سليم لما فتح مصر سنة ٩٢٢ هـ .
أحمد بن أبى نمى	سنة ٩٤٥	أشركه السلطان سليمان مع أبيه فى ولاية مكة سنة ٩٤٥ هـ . وتوفى فى حياة أبيه سنة ٩٦١ هـ .
حسن بن أبى نمى	سنة ٩٩٢	شارك أباه فى الملك من سنة ٩٦١ هـ . واستقل بعد وفاة أبيه سنة ٩٩٢ هـ .
حسين ومسعود ابنا الحسن	...	ولى كل منهما مكة مع أبيه فى حياته وتوفيا قبل وفاة والدهما .
أبو طالب بن الحسن	سنة ١٠١٠	هو أكبر أولاد الحسن ولى بعد وفاة أبيه ولم يعقب أبو طالب .
ادريس بن الحسن	سنة ١٠١٢	ولى بعد وفاة أبى طالب .
فهيد بن الحسن	«	أشركه الأشراف مع أخيه إدريس ثم خلع سنة ١٠١٩ هـ .
محسن بن الحسين بن الحسن	سنة ١٠٣٢	أشرك مع عميه إدريس وفهيد وبعد نزاع استقرت له الولاية سنة ١٠٣٢ هـ .
أحمد بن عبد المطلب بن الحسن	سنة ١٠٣٧	ولاه أحمد باشا والى اليمن من قبل السلطنة وقد قاتل أخاه محسنا فهزمه .
مسعود بن ادريس بن الحسن	سنة ١٠٣٩	ولاه قانصوه باشا بعد أن قتل أحمد خنقا اقتصاصا منه للشيخ عبد الرحمن المرشدى مفتى مكة الذى قتله أحمد لضغائن بينه وبينه .
عبد الله بن الحسن	سنة ١٠٤٠	

اسم الأمير	تاريخ التولية	معلومات
عبد الله بن الحسن	سنة ١٠٤٠	تنازل عن الإمارة لابنه محمد واستدعى محسن بن زيد من اليمن وأشركه مع ولده أيضا .
محمد بن عبدالله بن الحسن...	سنة ١٠٤١	قتله نامى بن عبد المطلب بن الحسن الذى دخل مكة ونهب بيوتها .
زيد بن محسن	...	بعد أن قتل نامى سنة ١٠٤٢ هـ . خلصت له الولاية الى أن توفى سنة ١٠٧٧ هـ .
نامى بن عبد المطلب	سنة ١٠٤١	قتل فى المحرم سنة ١٠٤٢ هـ بعد أن تولى ١٠٠ يوم .
سعد بن زيد...	سنة ١٠٧٧	ولى بعد وفاة أبيه ثم ولى ثلاث مرات أخرى ومجموع مدة الولاية ٧ أشهر و ١٥ سنة .
أحمد بن زيد...	سنة ١٠٨٠	أشركه معه أخوه سعد ثم هربا سنة ١٠٨٢ هـ .
بركات بن محمد بن إبراهيم بن بركات بن أبى نمى	سنة ١٠٨٢	ولى بعد هروب أحمد وسعد وبقى فى الولاية حتى توفى سنة ١٠٩٤ هـ . وكان حميد السيرة .
سعيد بن بركات	سنة ١٠٩٤	حصلت بينه وبين الأشراف فتن انتهت بخلعه .
أحمد بن زيد	سنة ١٠٩٥	ولاه السلطان بعد خلع سعد وتوفى سنة ١٠٩٩ هـ .
أحمد بن غالب	سنة ١٠٩٩	تنازعا الإمارة بعد وفاة أحمد بن زيد فجاء الأمر السلطانى بتولية أحمد بن غالب فسلم له سعيد فى السنة نفسها .
سعيد بن سعد بن زيد... ...	...	
محسن بن حسين بن زيد ...	سنة ١١٠١	ولاه والى جدة فخرج أحمد من مكة .
مساعد بن سعد	سنة ١١٠٣	نازع سعيد بن سعد محسنا فتنازل عن الملك لمساعد بن سعد . وهذا تنازل عنه لسعيد .
سعيد بن سعد	»	
سعد بن زيد...	»	ولى بأمر سلطانى وكان فى بلاد الروم فأناب عنه ابنه سعيدا .
عبد الله بن هاشم...	سنة ١١٠٥	طالب الولاية له والى جدة ولكن قاتل سعد عبد الله وانتزع مكة منه .
سعد بن زيد...	سنة ١١٠٦	استمر فى هذه الولاية الى سنة ١١١٣ هـ حيث نزل عن الإمارة لابنه سعيد .
سعيد بن سعد	سنة ١١١٣	حصلت بينه وبين الأشراف فتن كثيرة فعزلوه وولوا عبدالمحسن .
عبد المحسن بن أحمد بن زيد	سنة ١١١٦	نزل عن الامارة بعد تسعة أيام لعبد الكريم .
عبد الكريم بن يعلى	»	أخرجه من مكة سعد بن زيد .
سعد بن زيد...	»	طعنه عبد الكريم عدة طعنات مات منها .

اسم الأمـــير	تاريخ التولية	معـــلومات
عبد الكريم بن يعلى	سنة ١١١٦	تقاتلا على ولاية مكة وقد تولاها الأول ثلاث مرات مجموعها ست سنين وعشرة أشهر وتولاها الثانى خمس مرات مجموعها عشر سنين وسبعة أشهر .
سعيد بن سعد	»	
عبد الله بن سعيد...	سنة ١١٢٩	تولى بعد وفاة أبيه سعيد .
على بن سعيد...	سنة ١١٣٠	لما عزل الأشراف عبد الله أرادوا الولاية لعبد المحسن بن أحمد بن زيد فأباها فأرادوها لأخيه مبارك فأباها له واختار على بن سعيد .
يحيي بن بركات	»	
مبارك بن أحمد بن زيد ...	سنة ١١٣٢	
يحيي بن بركات	سنة ١١٣٤	تنازل عن الولاية لوالده .
بركات بن يحيي	سنة ١١٣٦	
مبارك بن أحمد بن زيد ...	»	
عبد الله بن سعيد...	»	
محمد بن عبد الله بن سعيد ...	سنة ١١٤٣	انتزع الامارة منه عمه مسعود مع أنه الذى ساعده عليها .
مسعود بن سعيد	سنة ١١٤٥	» » محمد بن عبد الله .
محمد بن عبد الله بن سعيد ...	»	اصطلح مع عمه سنة ١١٥١ هـ وبقى تحت طاعته الى أن توفى سنة ١١٦٩ هـ .
مسعود بن سعيد	سنة ١١٤٦	بقى فى الولاية الى أن توفى .
مساعد بن سعيد	سنة ١١٦٥	تولى مرتين مدتهما ١٨ ش و ٩ س .
جعفر بن سعيد	سنة ١١٧٢	ولى جعفرا أمير الحج الشامى بعد أن عزل سلفه ولكن دفع اليه مساعد مالا وتنازل له عن الولاية بعد أن مكث بها دون شهر .
مساعد بن سعيد	سنة ١١٧٣	
عبدالله بن سعيد	سنة ١١٨٤	نازعه أخوه أحمد فتنازل له عن الولاية ولم يمض عليه أيام .
أحمد بن سعيد	»	تولى مرتين مدتهما سنتان .
عبد الله بن حسـين بن يحيي ابن بركات	»	انتزع الولاية من أحمد بمساعدة حملة مصرية برياسة عبد الله محمد بك أبى الذهب قاتله ثم قبض عليه ابن أخيه سرور ابن مساعد وأودعه السجن حتى توفى سنة ١١٩٥ هـ .
أحمد بن سعيد	سنة ١١٨٥	
سرور بن مساعد	»	

اسم الأمير	تاريخ التولية	معلومات
غالب بن مساعد	سنة ١٢٠٢	ولى غالب بعد وفاة أخيه وفى أيامه ظهر الوهابية وفى سنة ١٢٢٨هـ أقصاه عن الولاية محمد على باشا وأسكن سلانيك فمات بها سنة ١٢٣٠هـ. وتولى يحيى الى أن نزعت منه الإمارة سنة ١٢٤٢ هـ . لقتله الشريف شنبر المنعمى .
يحيى بن سرور	سنة ١٢٢٨	
عبد المطلب بن غالب بن مساعد	سنة ١٢٤٢	تولى عبد المطلب بعد يحيى ولكن لم توافق الدولة العثمانية على توليه بل ولت محمد بن عون بطلب محمد على باشا وتوجه عبد المطلب الى بلاد الروم وولته الدولة على مكة سنة ١٢٦٧ هـ . وعزلت محمدا فذهب أيضا الى بلاد الروم وفى سنة ١٢٧٢هـ ولى مكة وعزل عبد المطلب فذهب الى بلاد الروم .
محمد بن عبد المعين بن عون	سنة ١٢٤٣	
عبد المطلب بن غالب	سنة ١٢٦٧	
محمد بن عبد المعين بن عون	سنة ١٢٧٢	
عبد الله باشا بن محمد بن عبد المعين	سنة ١٢٧٤	ولى بعد وفاة أبيه محمد بن عون .
حسين باشا الشهيد ابن محمد ابن عبد المعين	سنة ١٢٩٤	قتله أفغانى بجدّه .
عبد المطلب بن غالب	سنة ١٢٩٧	فصل عن الامارة سنة ١٢٩٩ هـ .
عون الرفيق باشا بن محمد بن عبد المعين	سنة ١٢٩٩	تولى فى ٢٤ ذى القعدة وكان بالأستانة فوصل الى مكة فى ١٠ ذى الحجة سنة ١٢٩٩ هـ .
على باشا...	سنة ١٣٢٣	ولى وأعطى رتبة الوزارة فى ١٥ شعبان من السنة نفسها .
حسين بن على	سنة ١٣٢٦	ولى فى ٦ شوّال سنة ١٣٢٦ هـ. ثم أعلن نفسه ملكا على الحجاز ثم خليفة .
خالد بن لؤى	سنة ١٣٤٣	وليها من قبل السلطان عبد العزيز بن السعود أمير نجد بعد أن سقطت مكة فى أيدى جنده وطرد منها الحسين بحاشيته .

جدول المسافات بين مكة وأمهات المدن الاسلامية

أمهات المدن	ميل	الموقع بالنسبة لمكة	أمهات المدن	ميل	الموقع بالنسبة لمكة
المدينة	١١٠٢	فى شمالها	هراة	١٣٤٤	فى الشمال الشرقى
القدس	٨٤٠	فى شمالها الغربى	بلخ	١٥٩٠	»
الفسطاط	٨٥٤	»	غزنة	١٧٣٨	»
دمشق	٧٢٨	فى الشمال	مرو الشاهجان ...	١٣٠٠	»
بغداد	٦٤٢	فى الشمال الشرقى	هرمز	٢٠٧٠	»
ثغر	٤٧٦	فى الجنوب	كابل	١٦٤٢	»
زبيد	٤٧٦	فى الجنوب الغربى	الملتان	١٦٥٢	»
الأحسا	٣٣٣	فى الشرق	رلى	٣٢٢٠	»
مهرة	٥٢٨	فى الجنوب الشرقى	تانة	١٤١١	»
الطائف	٤٠	فى الجنوب الغربى	كنبايت	١٨٠٦	»
البصرة	٦١٠	فى الشمال الشرقى	الكولم	٣٧٨٠	فى الجنوب الشرقى
الكوفة	٥١٠	»	سرنديب	٣٠٥٢	»
عيذاب	١٢٤	فى الغرب	الخنسا	٥٤٣٢	»
الطور	٨٠٠	فى الشمال الغربى	الزيتون	٢٦٣٠	»
البلقاء	٦٨٠	»	خان بالق	٣٩٣٤	فى الشمال الشرقى
الموصل	٧٨٤	فى الشمال	قراقرم	٤٩٩٨	فى الشمال الغربى
أصفهان	٩٤٠	فى الشمال الشرقى	بلاصاعون	١٩٧٤	فى الشمال الشرقى
السلطانية	١٠٦٤	»	كاشغر	١٩٧٤	»
توريز	١٠٨٠	»	اسفيجاب	١٩٠٤	»
نيسابور	١١٠٠	»	فرغانة	١٧٤٠	»

(تابع) جدول المسافات بين مكة وأمهات المدن الاسلامية

أمهات المدن	ميــل	الموقع بالنسبة لمكة	أمهات المدن	ميــل	الموقع بالنسبة لمكة
أطرار	١٣٩٠	فى الشمال الشرقى	روميه	١٩٣٢	فى الشمال الغربى
أسروسنة	١٧٨٠	»	غرناطة...	٣٢٥٠	»
بدخشان	١٧٥٦	»	أشبيليه	٣٣٦٠	»
ترمذ	١٥٩٦	»	قرنيطة	٣٢٦٦	»
بخارى	١٢٨٨	»	أسنى	٣٣٨٨	
سمرقند	١٦٣٨	»	سبتة	٣٢٢٠	»
كركاج	١٣٢٥	»	مراكش	٢٦٣٢	»
السراى	١٢٤٦	»	فاس	٢٤٤٨	»
البلغار	٢٠١٦	»	تلمسان	١٧٧٤	»
القرم	١٥٧٠	فى الشمال الغربى	تونس	٢٠٧٢	»
طرابزون	١٣٥٠	»	غانة	٢٢٤٠	فى الجنوب الغربى
كسطمونية	١٥١٢	»	جيمى	٢٤٤٠	»
قصون	١٤٢٨	»	جزمى	١٠٢٢	»
قيسارية...	١١٩٠	»	أوقات	١٣٣٠	فى الشمال الغربى
قونية	١٢٣٢	»	بيدسوا	١١٤٨	فى الجنوب الشرقى
القسطنطينية	١٦١٠	»	قانة	١٤١١	»

(ملحوظة) هذا الجدول نقلناه عن درر الفرائد المؤلف فى القرن العاشر والذى عنـدنا منه نسخة خطية وبمقارنة ما ذكرنا عن المسافة بين مكة والمدينة بما نذكره بعـد عن المسافة بينهما يمكنك أن تعرف مقدار الميل فى القرن العاشر .

وإذ قد انتهينا من مكة ووصفها وذكر آثارها ومسجدها الحرام وكعبتها التى جعلها الله قياما للناس وعرفناك أخبار ضواحيها ووصفها ورسمها وأمراءها والمسافات بينها وبين المدن الهامة نتابع سيرنا الى المدينة عاصمة الحجاز الثانية ومهد الاسلام الثانى ومثوى خاتم النبيين محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم .

الاحتفال بسفر المحمل من مكة

فى منتصف الساعة الثانية عشرة العربية من صباح يوم الاثنين ٢٥ ذى الحجة سنة ١٣١٨ هـ . سارت قوتنا من معسكرها بالشيخ محمود الى المسجد الحرام فوصلت بعد نصف ساعة وهناك وجدنا فى الجهة الشرقية العساكر الشاهانية مصطفة قبالة باب على رضى الله عنه واصطف حرسنا فى الجهة المقابلة بجوار المسجد بعد أن ألبس محملنا كسوته القصبية وكذلك اصطف موظفو الحكومة الحجازية بمكة بأوسمتهم وملابسهم الرسمية وبعد فترة أقبل دولة الوالى بركنه ووقف بين هذا الجمع المحتشد فتقدّم اليه أمير المحمل الشامى عبد الرحمن باشا يقود زمام جمله وسلمه الزمام فدار بالمحمل خمس دورات ثم سلمه لأميره بعد أن لثم مقوده ولحظتئذ صدحت الموسيق الشاهانية بسلام جلالة السلطان وهتف العسكر والحضور بالدعاء له ثلاثا ثم تقدّم اليه أمير المحمل المصرى بزمام محمله فتسلمه منه ودار به خمس دورات كما فعل بسالفه وسلمه للأمير وصدحت الموسيق بالسلام الملكى ثم ألقى الشيخ السنباطى خطبة دعا فيها لجلالة السلطان ودولتى الشريف والوالى وختمها بالدعاء للجناب الخديوى وعقب ذلك انصرف المحملان يتبع كلا حرسه الى مقرّه بمعسكره .

السفر من مكة الى المدينة

(اليوم الأوّل) فى منتصف الساعة الثانية العربية من يوم الخميس ٢٨ ذى الحجة سنة ١٣١٨ هـ . قام ركبنا من مكة ميمما المدينة فسار نحو الشمال الغربى ٣٠ دقيقة ، ثم نحو الشمال الشرقى مثلها ، ثم أشمل ٤٥ دقيقة ، ثم سار نحو الجنوب الشرقى ساعة

و ١٥ دقيقة، ثم شرق ٣٠ دقيقة ، ثم تابع السير نحو الشمال الشرقى ساعتين ونصفا واذا بنا فى المحطة الأولى (بئر البرود) وكانت الساعة وقت وصولنا تسعا وربعا سرنا منها ٦ ساعات وأضعنا ساعة وثلاثة أرباعها فى إصلاح الأحمال بين لحظة وأخرى؛ وذلك أن مقوم المحمل قدّم لنا كثيرا من الجمال التى لم تمرّن على الحمل ولم تتعوّد رؤية الطرابيش والكسا العسكرية وكانت أقتابها — عددها — منفوشة غير مدمجة فلم تلبث أن هبط علوّها فارتخت أحزمتها فسقط أكثر الأحمال وهرول غير المذلل من الجمال أضف الى ذلك رجوع العربان الى بيوتهم لقضاء لوازم السفر ونوط كل خمسين جملا بواحد منهم فقل من سلم من العثور، ولقينا يوما شديد النصب دائب التعب ولكن فى سبيل الله ما لقينا ، والطريق واد بين جبال تحفه من الجانبين محصب فى أوّله وحجرىّ فى وسطه الى حذاء جبل النور — حراء — ومترب فى آخره حتى بئر البرود اللهم إلا بعض مسافات قليلة فانها حجرية ، والجبال تارة تتدانى حتى لا يكون بينها إلا واد عرضه ٦٠ مترا وتارة تتناءى فتنفرج عن واد سعته من ٣٠٠ متر الى ألف وقد يقل أو يزيد عن ذلك ؛ ولما بلغنا بئر البرود وجدنا المحمل الشامى سبقنا اليه والزحام على البئر شديد فلم نتمكن من أخذ مياه إلا بعد الساعة الخامسة العربية ليلا ولولا ما استصحبناه معنا من مكة من المياه الكافية لأضرّ بنا الظمأ إضرارا بليغا وكان يرافق الركب الشامى ركب الحجاج من أتباع ابن الرشيد وعدده يقارب ١٢٠٠٠ نفس معهم ألوف الحيوان وبالنظر لقلتنا وكثرتهم وسبقهم دائما الى الآبار رأيت ان نتأخر عنهم يوما فوافقنى الأمير والأمين على ما رأيت وذلك لنتمكن من أخذ المياه بسهولة فتأخرنا يوما بعد وادى الليمون .

وبئر البرود بئر عظيمة مطوية بالحجارة المنحوتة قطرها ٦ أمتار، وعمقها ١٢ مترا وماؤها عذب لا يزيد ارتفاعه فى قاعها عن ٥٠ سنتيا، وبالبئر شجرة جميز ضخمة نبتت فى أصل البئر واخترقت جدارها الشرقى وأظلت فروعها البئر وفناءها ، والناس يجلسون على جذوعها لأخذ المياه من البئر بالكيزان اذا ما قلت فان كثرت أخرجوها بالدلاء ولهذه البئر سلم من خارج جدرها ينتهى بفتحة الى قاعها ولكن بابه العلوى

مردوم، وهذا البئر أشبه ببئر البردويل بمريوط مصر . وبجوارها بئر أخرى مردومة، وأسس أبنيـة فى جملة مواضع، عرض الجدار منها ثلاثة أمتار وهى من الحجر الصلب الضخم ذى النقط البيضاء والسوداء ، وإن فى هـذا لآية على أنه كان بهذه الجهة بلدة كبيرة ذات مدنية فى الأزمنة الغابرة، ويدل على ذلك قول كثير :

غشيت لليـلى بالبرود منازلا * تقادمن واستنت بهن الأعاصر (١)

وأوحشن بعد الحىّ إلا معالما * يرين حديثات وهن دواثر

ومن هذه البئر طريق سهل يوصل الى الطائف كما أخبرنى بذلك متعهد الجمال (المقوّم) والذى حفرها خراش بن أمية الخزاعى الكعبى وله يقول الشاعر :

* بين البرود وبين بلدح نلتق *

(اليوم الثـانى) وفى مبتـدأ الساعة الأولى من صباح الجمعة ٢٩ ذى الحجـة سنة ١٣١٨ هـ . رحلنا من بئر البرود واتجهنا نحو الشمال الشرقى حتى وصلنـا « وادى فاطمة » فى الساعة الرابعـة والربع وكان الطريق خورا ذا أشجار كبيرة على شاطئيه والجبال تكتنفه من الجانبين ومن بدء وادى فاطمة تغير اتجاهنا الى الشرق، وهـذا الوادى متسع به أراض زراعية مرتفعة نحو ثلاثة أمتار بها حشيس يسمى العترى ينبته المطر وهو من أجود الأغذية للحيوان وهناك مساكن للأعراب الذين يحافظون على هذا النبت ليبيعوه فى مكة وللسابلة، وقد استمر سيرنا بهذا الوادى حتى الساعة الخامسة والنصف واذ ذاك دخلنا واديا آخر به نخيـل وأشجار وبيوت من الجانبين ومازلنا نسير فى تعاريجه حتى وصلنا «وادى الليمون» فى الساعة السابعة والربع ولم نسـترح فى خلال ذلك إلا ١٥ دقيقة ويحتوى هـذا الوادى على بيوت بنيت فى أحضان الجبال وحدائق ذات بهجة بها النخيل والليمون والبطيخ والخيار والبامية والقطن الذى يرتفع نحو مترين وفتلته كالحرير، ولبعض الحدائق أسوار بنيت من

(١) الأعاصر جمع إعصار وهى ريح تثير الغبار فيرتفع فى السماء كأنه عمود واستنانها مرورها سريعا .

الحجارة الصماء ذات اللون الأزرق والحجم الكبير غير أنها متهدمة وتوجد بها آثار أبنية قديمة تدل على أنه كان لهذه الجهة شأن فى سالف العصور .

وبهذا الوادى قناة بنيت بالحجارة والملاط المتماسك عمقها ثلاثة أرباع المتر ، وعرضها ستة أعشاره وعمق الماء فى قاعها ٥٠ سنتيا وماؤها عذب فرات صاف كأنه مقطر يجرى ليلا ونهارا صيفا وشتاء ولكنه ينتهى فى الآخر الى الصحارى حيث تستشفه ولا تشكر بالانبات ، فلو أنه حول حيث ينبت الزرع والأشجار لأجدى ذلك عظيم الاجداء ، وهذه القناة تسير نحو الشرق فى سفح الجبل على مدى بعيد قطعناه فى نصف ساعة وجزء كبير من أبنيتها متهدم ، وقد سألت شيخا هرما عن أصل هذه القناة فأخبرنى أنها تأتى من عين فى قاع بئر غؤور فى أرض صلبة بلغ عمقها ٢٠ قامة وغطيت بالأحجار فوقها الأتربة ثلاث قامات أخرى ولا تكشف هذه العين إلا اذا أريد إجراء عمارة بها وهى على يمين السالك نحو يثرب .

وبوادى الليمون « سوق » باعته من مكة فيه اللحوم والأرز مطبوخة وغير مطبوخة ، وبه الخيار والقثاء والبطيخ والكراث والعيش والجبن والبصل الأخضر والجاف والإبل والغنم وغير ذلك أزواجا شتى .

(اليوم الثالث) وفى الساعة السابعة من نهار السبت أوّل المحرم سنة ١٣١٩ هـ . سار ركبنا من وادى الليمون نحو الشمال ساعتين و ٢٠ دقيقة ثم الى الشمال الشرقى ساعة ثم شرق أخرى فتلك أربع ساعات وثلث ألقينا بعدها عصا التسيار للبيت وقطعنا فيها واديا سهلا تكثر به الحصباء وتحفه الجبال الشامخة من حاشيتيه وقد وجدنا بعد مسير ثلاث ساعات ونصف بئرا حجرية على يميننا ماؤها العادى به ملوحة وفى فصل المطر يكون عذبا .

(اليوم الرابع) وفى الساعة الحادية عشرة الليلية فى صباح الأحد ثانى المحرم سنة ١٣١٩ هـ . سار ركبنا نحو الشمال الشرقى ٥٥ دقيقة ، وأشمل ساعة ونصفها ، وأبحر مشرقا نصفا ، ومغربا ٣٧ دقيقة ، وأشمل ساعتين ونصفا ثم سار نحو الجنوب

الشرقى ساعة وربعا، والشمال الشرقى ساعة واحدة فتلك ثمان ساعات و ١٧ دقيقة. قطعنا فى أولها عقبة عوجاء استنفدت ساعة ونصفا ولقينا بعد مسير ثلاث ساعات ونصف غابة ذات أشجار كثيرة إلا أنها متفرقة وبعد الغابة بساعتين ونصف سرنا ساعة فى واد فسيح جباله اليمنى دانية واليسرى نائية متقطعة تكوّن تلالا عالية ثم ضاق الوادى كما بدأ، وفى مبدأ العقبة وجدنا حفائر فى أراض رملية بها ماء عذب كماء النيل يخرجه النكت فى الأرض باليد وإنه لماء غزير يكفى الآلاف من الناس والحيوان وهناك النخيل ذات اليمين .

وقد أتممنا نهارنا وبتنا ليلتنا بمحطة يقال لها الحفائر أو الضريبة وصلناها فى منتصف الساعة الثامنة نهارا ، والماء بها عذب غزير فى حفائر عمقها ٥٠ سنتيا وماؤها يكون مرا فى السنين التى يحبس فيها ماء المطر، وكان الهواء فى يومنا هذا شديد الجفاف غاية فى الاعتدال وكان الماء وقت الظهيرة باردا جدا كأنه مثلج أما بالليل فكان الطقس باردا .

وبهذه المحطة لصوص شاهدت منهم رمى الحجيج بالحجارة الصغيرة حتى اذا كانوا يقظين وشعروا بالحجارة أجل اللصوص سطوهم لفرصة أخرى وإن كان حارسهم نامت عينه مشوا على أيديهم وأرجلهم واستلبوا مايصلون اليه وعادوا، وقد شاهدتهم فى الصباح حينما سار المحمل يركبون الهجن ويتربصون من يتخلف عن الركب ليسلبوه ماله ولكن بعناية الله وقوّته لم يصلوا الينا بسوء ولم يسترقوا شيئا إلا ماتركه الحجاج من جلود الأنعام ورءوسها وأرجلها وأكراشها .

وقد كان معنا ثلاثة من العربان استأجرناهم بجنيهات عشرة ليرشدوا ركبنا الى مواطن المياه العذبة وليعرفونا منازل اللصوص وقد أحسنوا القيام بما كلفوا به ذان أحدهم كان يرافق دائما العسس — الداورية — حينما يمرّون على المعسكر ليلا .

(اليوم الخامس) وفى صباح الاثنين ثالث المحرم الساعة ١١ والدقيقة ١٥ الليلية قمنا من الضريبة وسرنا نحو الشمال الشرقى فى خور ذى أشجار كثيفة ترتفع أرضه تارة

وتخفض أخرى قطعناه فى ساعة وثلاثة أرباعها الى واد آخر عظيم الاتساع سرنا فيه ساعة وربعا فى أرض حجرية صعبة المسلك ثم أعقبتها أرض سهلة غابت فيها الجبال عن الأبصار، ولتمام الساعة العاشرة تغير سيرنا الى الشمال وبعد نصف ساعة وصلنا « محطة البركة » فتلك احدى عشرة ساعة وربع استرحنا منها فى أثناء الطريق ساعة واحدة، وبهذه المحطة حوض يسمى بركة زبيدة متقن البناء مربع ضلعه ٥٠ مترا، وعمقه نحو الثلاثة وبجواره جملة برك بها ماء الأمطار يمثل اتصال بعضها ببعض نهرا أحاطت به الأشجار الكثيفة من أجناس شتى كالسنط والنبق والسلم، وبهذه الجهة لصوص من عربان عتيبة ولكن كفانا الله شرهم فلم يسلبونا شيئا وقد اشتد الحرّ بعد الظهر ومات من خيلنا حصان أصابه مغص فقضى عليه .

(اليوم السادس) وفى صباح الثلاثاء رابع المحرم الساعة ١١ ليلا غادرنا البركة متجهين نحو الشمال الغربى فى أرض سهلة لم تصادفنا بها إلا ثلاث عقبات حجرية صلبة قطعنا كلا منها فى ربع الساعة وانتهينا الى محطة « الغدير أو المكر والمكير » فى الساعة ١١ والدقيقة ٢٠ نهارا ولم نسترح من ذلك إلا ساعة وقت الظهر الذى كان الحرّ بعده شديدا، وبهذه المحطة مياه كثيرة متخلفة من الأمطار وفيها تباع الحشائش والتبن والمسلى والأغنام وخشب الحريق متوفر بها وأرضها زراعية وهى قبل المحطة المعتادة محطة « حاذا » بساعة ونصف .

(اليوم السابع) وفى منتصف الساعة الثانية عشرة ليلا صباح الأربعاء خامس المحرم قمنا من « الغدير أو المكر والمكير » فشرقنا ساعتين ونصفا وسرنا الى الشمال الشرقى ساعة ونصفها ونحو الشمال ست ساعات ووصلنا « محطة الهضاب » فى منتصف الساعة الحادية عشرة نهارا وقد استرحنا بالطريق ساعة وقت الظهر فالمسير عشر ساعات قطعنا فى الخمس الأولى منها ملاحة اذا أصابها وابل المطر تعذر عبورها لرخاوة أرضها ، وفى الخمس الثانية أسهلت الأرض وانفرجت عنها الجبال الى مدى واسع «وبمحطة الهضاب» جمال تباع ولا ماء بها وخشب الحريق قليل .

(اليوم الثامن) وفى ليلة الخميس سادس المحرم الساعة ٨ والدقيقة ١٥ قمنا من الهضاب وسرنا نحو الشمال خمس ساعات ونصفا ونحو الشمال الغربى سبعا ونصفا فوصلنا الى « صفينة » فى منتصف الساعة الحادية عشرة نهارا بعد أن استرحنا بالطريق ساعة وربعها ، وبعد قيامنا من الهضاب بساعتين وثلاثة أرباع وجدنا على ميسرتنا ملاحة طويلة ملحها شديد البياض باد على وجه الأرض وقد اجتزناها فى أربع ساعات وقبل أن نصل الى صفينة بساعة صعدنا الى عقبة حجرية قطعناها فى الساعة الباقية وأولها وآخرها صعب المسلك مسيرة خمس دقائق فى مبدئها ومثلها فى منتهاها وما بين ذلك طرق متعددة اختطتها الأرجل الماشية .

وصفينة هذه بلدة أمير مكة الآن الشريف عون الرفيق باشا وهى قرية صغيرة أبنيتها بالطين المكدس بعضه فوق بعض يسكنها نحو ٤٠٠ نسمة وبها حوالى ١٠٠ نخلة صغيرة وكبيرة وقليل من شجر الليمون وشجر الطرفاء وفيها ٣٦ بئرا مبنية بالحجر عمق الواحدة منها ثلاث قامات وماؤها رائق نظيف معين لا ينضب ولكنه لا يروى ، وأراضى هذه القرية صفراء تشبه أراضى مريوط يزرع بها الشعير والقمح وبعض الخضراوات وقد بتنا بها ليلتين فى الأولى منهما سرق حصان لنا كان مريضا باحتقان فى الحنجرة وكانت تنزل من أنفه مواد مخاطية وكان مربوطا خارج المعسكر للاشتباه فى مرضه ولذلك تمكنوا من أخذه وقد بلغنى خبر السرقة فى الساعة الثامنة ليلا من الضابط المنوط بالحراسة (النوبتجى) فأحضرت فى الحال عمدة البلدة المدعو سعدا وأخبرته الخبر وأكدت عليه ضرورة رجوع الحصان فأسرع فى الحال وركب مع بعض أقربائه هجنا واقتفوا أثر اللصوص فوافونا به فى الساعة الرابعة من الليلة التالية وقد أنهكه التعب فسرنى ذلك جد السرور وفرح الركب أيما فرح وقد كافأ العمدة أمير الحج بجنيهين انجليزيين — وكان له مرتب مثلهما — وجبة حمراء وشهادة بأنه « خَوِى » المحمل أى من أمنائه ففرح بذلك فرحا شديدا .

وفى الليلة الأولى أيضا اقترب بعض اللصوص من المعسكر زاحفين على أيديهم وأرجلهم فبادرهم الجندى الخفير (الديده بان) بضرب الرصاص فانثنوا راجعين بعد أن أصيب واحد منهم برصاصة فى فخذه كما وردت بذلك الأخبار الأكيدة فى الصباح، وبلغنى أنهم سيحضرون فى الليلة التالية ليأخذوا بثأرهم فأعددت لذلك العدّة واتخذت الحيطة فعند الغروب أمرت « البروجى » بترمير نوبة[1] كبسة ففى لحظة يسيرة وقف العساكر بشكل مربع محكم داخله الحجاج وجمالهم وترأس كل صفٍّ ضابط ونصب المدفعان فى اتجاه البلدة وأمرهم رئيس المائة (اليوزباشى) أن يتشكلوا بشكل ضرب النار ففعلوا وبعد أن مررت بهم ونبهت عليهم بما يلزم زمّر «البروجى» ترميرة الانفضاض (دستور) . وقد بلغنى أن العربان لما شاهدوا تمرين العسكر والمدافع وجهت أفواهها نحو البلدة جبنوا عن الاقتراب من المعسكر وبتنا ليلتنا الثانية فى أمان واطمئنان ولم يحدث ما يكدر الصفو فحمدنا الله رعايته لنا وردّه المسلوب الينا ولم نسمع قبل ذلك أن العربان استلبوا شيئا وردّوه ولكن رعاية الله فوق كل رعاية .

(اليوم التاسع) وأقمنا يوم الجمعة سابع المحرم بصفينة للاستراحة والاستحمام اذ المياه بها كثيرة .

(اليوم العاشر) وفى منتصف الساعة الثانية عشرة وقد أصبح صباح السبت ثامن المحرم قمنا من صفينة وسرنا الى الشمال الشرقى ثلاث ساعات ونصفا والى الشمال الغربى ستا ونصفا فتلك عشر ساعات سيرا واسترحنا ساعة وقت الظهر فكنا فى منتصف الساعة الحادية عشرة نهارا قبالة « السويرجية » فى ميسرتنا مسيرة ست ساعات وأقمنا حيث انتهى بنا السير ولم نعرج على محطة السويرجية لأنه كان معنا المياه الكافية والطريق من صفينة الى قبالة السويرجية سهل رملى إلا بعض بقاع فيه، وأشجاره كثيرة وحره شديد وبه جملة برك تجمع فيها ماء المطر فسقينا منها

(١) تكون عند هجوم العدو بغتة .

الحيوان وقد وافانا حيث أقمنا الشيخ «بريكة الشويب» شيخ قبيلة مطير وله مرتب سنوى ٦٠ ريالا (بطاقة) يأخذها من صرة المحمل عند مروره بأرضه نظير محافظته عليه ، وقد طلب من الأمير مرتب السنة الماضية أيضا لأن المحمل لم يمر فيها من الطريق الشرقى الذى نحن بصدد وصفه فلم يتقاض مرتبها — والعادة تثبت عند العرب بمرة واحدة — فأبى عليه الأمير فأسرها فى نفسه وتصادف أنه لما حضر الشيخ بريكة كان معه نحو ثلاثين هجانا مسلحين فاناخوا هجنهم قبالة سرادق الأمير فأمر بنقلهم الى جهة أخرى بلهجة شديدة فامتلأت من ذلك نفس الشيخ وصحبه واستبنت ذلك فى وجوههم فتلافيت الأمر وأخذتهم الى خيمتى وذبحت لهم كبشا وصنعت لهم ثريدا يعلوه الأرز فسُرِّى عنهم وأكلوا وشكروا وازداد فرحهم لما قدمت لهم شايا وقهوة وأوقدوا نارا أمام خيمتنا وصنعوا لنا قهوة عربية ودعونى فشربت معهم وكان مما قاله لى الشيخ بريكة ساعة حضر الى خيمتنا هذه الجملة : (يابيه الباشا هذا علومه فاسدة يا راجل) وقال بلا خوف : نحن كلاب يقول لنا امشوا امشوا ، ولكن اكرامنا له وحفاوتنا به أزالت ما علق بنفسه وطلب الىّ أن أتكلم مع الباشا الأمير بشأن مرتب السنة الماضية فكلمته واتفق الأمير مع أمين الصرة والكاتب الأول على أن يصرف له نصف المرتب فرضى الشيخ بذلك ورجا الأمير فى أن يكلم وزير المالية فى صرف النصف الآخر اليه فوعده المساعدة وأعطاه نصف رأس من السكر ونحو رطل من البن وبعض من « البقسماط » وكذلك أعطيته بعض البن والسكر فزاد فرحه وشكره وعاد الى قبيلته بعد أن رافقنا يوما بعد حدوده التى كان يرافق المحمل اليها كل سنة .

(اليوم الحادى عشر) وفى منتصف الساعة العاشرة ليلا قمنا من «السويرجية» وسرنا نحو الشمال الغربى تسع ساعات ونصفا ونحو الغرب ساعتين ونصفا واسترحنا ساعة وقت الظهر فتلك ثلاث عشرة ساعة وصلنا بعدها الى « محطة الجرية » قبل المغرب بساعة ونصف وكان طريقنا خيرانا يشبه بعضها بعضا تنخفض تارة وترتفع أخرى وبه أشجار عتيقة ضخمة والجبال متدانية وقبل أن نصل الى الجرية

بساعتين ونصف بدأنا السير فى عقبة سهلة فى أوّلها متشعبة طرقها لا يسع الواحد منها إلا جملا واحدا وفى وسط هذه العقبة منحدر شديد يمرّ منه الجمل تلو الجمل بعسر ومشقة حيث إن الجمل لا ينزل من المنحدر إلا اذا صاحبه ثلاثة أشخاص يأخذ بمقوده واحد ويسند ميمنة الشقدف ثان وميسرته ثالث، وقد مرّ جميع الركب بهذا النظام ولم يقع منه إلا رجل طاعن فى السن يسمى أبا حلاوة يرافق المحمل سنويا ومعه سوط — فرقلة — يفسح به الطريق للركب، فإنه وقع وأصابته رضوض صاحبته الى مصر، وتنتهى العقبة بمضيق بين جبال شاهقة به أشجار كثيفة ومياه مطر كثيرة .

وبالجرية ست آبار عذبة المياه عمق الواحدة منها سبعة أمتار وبها حشائش للحيوان تباع بأثمان عالية .

وقد وجدنا بالمحطة رجلا مغربيا مصابا بالجدرى لا يستطيع النهوض تركه رفاقه على « شبرية »(1) وسط أشجار سنط كثيفة فأشفقنا عليه واستجدينا له المحسنين وأجرنا له جملا يركبه ورجلا يخدمه وجعلناه فى مؤخرة الركب على بعد ١٠٠ متر منه حذر أن تنتقل الينا جراثيم مرضه وقد أخذت صحته فى التقدّم من ذلك الحين لشدة فرحه برؤية ركبنا ولإشفاقنا عليه وكان من خبر هذا الرجل مع رفقته أنه الذى دفع لهم أجرة الجمال وأنه كان معه ٤٠ جنيها أخذوها وتركوه وسط غابة لا يأوى اليها إلا الوحوش الضارية وقد بلغنى من أهل المدينة أنه تم شفاؤه وأنه عرف رفاقه بالمدينة فأخذ منهم نقوده وتركهم وشأنهم .

(اليوم الثانى عشر) وفى صباح الاثنين عاشر المحرم الساعة ١١ ليلا قمنا من الجرية وسرنا نحو الشمال الغربى ساعة ونصفا والى الشمال الشرقى ساعتين ثم الى الشمال الغربى ثمان ساعات ونصفا وقد استرحنا بالطريق من الساعة الخامسة نهارا

(١) الشبرية عبارة عن مستطيلين من الخشب طول كل منهما نحو ١٥٠ سنتى فى عرض ٧٥ وضع أحدهما فوق الآخر على قوائم أربع فى الزوايا الأربع ووصل بين كل ضلعين متقابلين بأحبال على شكل شبكة ما عدا الجهة العلوية ويوضع على ظهر الجمل ويركب فيه شخصان كل فى ناحية ويسميها بعض العرب سحلية .

لغاية الساعة الحادية عشرة ثم واصلنا السير حتى وصلنا تجاه محطة « غرابة » فعرّسنا هنالك بعد تمام الساعة الخامسة ليلا والطريق سهل واسع جباله متنائية وأرضه مستوية تصلح للزراعة وبعد قيامنا من الجرية بنصف ساعة هبت علينا رياح شديدة ملأت الجو بالأتربة حتى كان الشخص لا يبصر جاره وقد قللت سير الجمال فدعونا الله أن تقلع عنا فبعد الغروب بنصف ساعة أخذ تيارها يخف شيئا فشيئا وصفا الجو من الغبار وسارت الإبل على ضوء القمر ضعف ما كانت تسير بالنهار . وقد بدأنا من الجرية فى غابة كثيفة ساعتين ونصفا وبها طرق متعددة (مدقات) ووجدنا بها بعض حجاج تردهم ركب المحمل الشامى كما وجدنا غيرهم بالمحطات السابقة وكنا نحمل من نجد الى المدينة ولا ماء حيث عرّسنا .

(اليوم الثالث عشر) ورحلنا عن الغرابة صباح الثلاثاء الساعة ١١ ليلا فأشملنا مغربين ثمانى ساعات وسدسا وغربنا ساعة ونصفا فوصلنا محطة «الغدير» الساعه ٨ والدقيقة ٤٠ نهارا والطريق أكثره سهل عظيم الاتساع مستو صالح للزراعة ، وفى منتهاه عقبة ذات صعود وهبوط وتعاريج كثيرة تدانت فيها الجبال وقد قطعناها فى ساعة ونصف وقد وجدنا بالطريق بئرا ملأتها مياه المطر، أما محطة الغدير فبها بركة مبنية طولها ١٠٠ متر فى عرض ١٠ وعمق مترين أو يزيد وهى فى حجر الجبل وبجوارها مياه أخرى وقد أطلق أحد العربان «بندقيته» على خادم من خدم سلطان المكلة والشحر وهو يغترف الماء من البركة ولكن طاش سهمه وقد بحثنا عن هذا الشقى فلم نظفر به .

وبمحطة الغدير المسلى واللبن الحامض والأغنام والحشيش للحيوان وبها لصوص .

(اليوم الرابع عشر) وفى الساعة العاشرة من ليلة الأربعاء ثانى عشر المحرم سرنا من محطة الغدير نحو الشمال الغربى سبع ساعات ونصفا وغربنا ساعة ونصفا وانتحينا ناحية الجنوب الغربى ثلاث ساعات واذا بنا فى « المدينة المنورة » على صاحبها أزكى الصلوات والتسليمات وكان وصولنا اليها فى منتصف الساعة الحادية عشرة نهارا ، وقد استرحنا بالطريق نصف ساعة والطريق من الغدير حجرى صعب

المسلك سرنا فيه فرادى سبع ساعات وكان يعلو بنا تارة وينحدر أخرى وقد وجدنا قبل وصولنا الى المدينـة بقريب من ثلاث ساعات غديرا يمثل جزءا من نهر النيل فى اتساعه وقت الفيضان ويقال له غدير الأغوات ، وكذلك يوجد خارج المدينـة جملة آبار مررنا بها وماؤها مالح لا يصلح للشرب وأكثرها مردوم غير معتنى به .

*
* *

ولا يفوتنا أن نذكر لك أنه عند قيامنا من مكة قام معنا مائتا جمل وجمل محملة أسلاكا ومغازل — ما يلف حوله السلك بالعمود — لخط الاشارات البرقية الذى شرع فى إنشائه بالطريق الشرقى بين مكة والمدينة فسارت معنا آمنة مطمئنة ووزعت تلك الأحمال على المحطات التى اتخبها الشريف لذلك حتى محطة الجحرية قبل المدينة بمحطتين وقد كان بعض العربان يسألنى عن السلك والغرض منه ومن توزيعه فكنت أبين له منافعه العامّة والخاصة من تسهيل المخابرات وتعيين مرتبات لمن يحافظ عليه فكنت أرى فيهم الغيظ والتذمر وكنت أراهم يتحـدث بعضهم الى بعض فى شأنه كأنما يأتمرون عليه وقد تحقق ذلك فانه بعد وصولنا الى المدينة بيومين بلغنا أن العربان قطعوا الأسلاك وحرقوا ١٢٠٠ عمود من الخشب كان يحملها ٣٠٠ جمل من جدة ، فسطا عليها العربان ونهبوها وقتلوا بعض جمالتها ولجأ الباقى الى الجبال والفيافى وبعـد أن بلغنا الخبر بأسبوع قدم الى المدينة الفريق صادق باشا العظم المنوط به إنشاء الخط البرقى ومعه ركنه — أركان حربه — وبعض خدمه فارّين من العربان الذين أرادوا بهـم سوءا لمـا علموا أن صادقا هو القائم بذلك ، وكان حضورهم من طريق الساحل الى ينبع ومنها سلكوا الى المدينـة طريقا غير معتاد يسـمى طريق بويط ينتهى شمالى المدينة بمحطتين ولمـا وصل فى مسيره الى محطة «الملاليح» شمالى المدينة أخبر الدولة برقيا بمـا حصل فعزلته وعينت «فريقا» بدله إرضاء للشريف عون الرفيق باشا وهكذا تعمل مع كل موظف يخلص فى عمله فيتصادم حقه بباطل الشريف وهواه فيشى به الى أولى الأمر بالاستانة فيعزلونه ويولون غيره .

وقد زارنى صادق باشا وزرته مرات فوجدت فيـه عاقلا نابها وعالما متضلعا وشهما مخلصا يقـدّر الأمور حق قدرها ويعمل للدولة كل ما فيه إصلاحها ورقيها ولكن ذلك لا يعجب الشريف بل يريد عاملا اذا أمره أطاع واذا أغرض ساعد وكان من أمره مع صادق باشا أنه لما أتم الخط البرقى بين الشام والمدينـة وشرع فى مدّه الى مكة قابل الشريف فسأله أىّ الطرق يسلكه الخط البرقى فقال: «الطريق السلطانى» فامتعض الشريف وقال: بل الطريق الشرقى وخاطب الباب العالى فى ذلك فأيده فى قوله وجاء الأمر لصادق باشا بأن يذعن لقوله، فلم يسعه إلا التسليم مع أن الطريق السلطانى طريق مأمون عامر البلاد والسكان والآبار ولكن الشريف كبر عليـه أن لا يمرّ الخط ببلدته «صفينة» بالطريق الشرقى فضرب برأى الباشا عرض الحائط مع أنه محض الصواب والمصلحة وعرض الخط لسطو اللصوص وعبثهم به وبالقائمين بمدّه، على أنى أجزم بأن الشريف هو الذى حرضهم على ذلك وكتب الى السلطان بأن العربان قطعوا الأسلاك انتقاما منه لاخلاصه لسدتكم وأنه أرسل اليهم عساكره فأدبوهم وضربوا على أيديهم فأرسل له السلطان مكافأة على ذلك ١٥٠٠ ريال و ٦٠ جبة جوخ ليفرقها على عساكره لحرضهم على التخريب ليتوصل الى هـذه المكافأة ومن جهة أخرى فإنه يكره سهولة المخابرة مع الدولة لأنه لو خالفها استطاعت فى زمن وجيز أن تجلب عليـه من خيلها ورجلها مالا قبل له به، ويؤيد ذلك أنى لما حججت فى سنة ١٣٢٥ هـ. وسلكت الطريق السلطانى سمعت مشايخ العربان يقولون إن الشريف عرفنا أن مد الخط الحديدى الى الحجاز يمكن الألمان من بلادهم وينزل الضرر بهم وبأرزاقهم لأنه سيحرمهم نقل الحجاج وأمتعتهم وذلك مصدر من مصادر عيشهم وأن ذلك ينشر الحرية بين الناس فيقف السيد مع عبده جنبا الى جنب فى المقاضاة ويخاطبـه خطاب الند للند وترى الجارية منزلتها بمنزلة سيدها والأعراب قاطبة من أبغض الناس لهذه الأمور لأن الخدمة الخارجية

على العبيد والمنزلية على الجوارى فكيف ينصاعون لأوامرهم إذ سوّوا بهم، فمن هذا وأمثاله تستنتج خلق الشريف وتصوّب ما ارتأيتــه فى إغرائه العربان على حرق الأعمدة وتقطيع الأسـلاك — نرجع الى سياق السفر، جرت العادة أن المحمل اذا اقترب من المدينة بات عند مثوى سيدنا حمزة بن عبدالمطلب عمّ الرسول صلى الله عليه وسلم وشهيد أحد وهو يبعد عن المدينة بمسير ساعة ولكنا تركنا هذه العادة فى حجتنا هذه ودخلنا المدينة بدون أن نبيت عنده وزرناه فى يوم آخر كما سيأتى إن شاء الله .

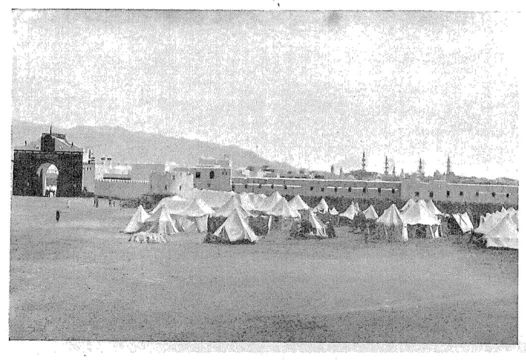
وقد شاهدنا القبة الخضراء المقامة على قبر الرسول صلوات الله وسلامه عليــه قبل أن نصــل الى المدينة بثلاث ساعات وكان الجوّ صافيا واستقبلنا خارج المدينـة بمسيرة ساعة كثير من أغوات المسجد النبوىّ وأخبرونا بأن الاشاعات ذاعت لما أن تأخر محملنا عن المحمل الشامى وحسبوا أن العرب أوقعت بنا حتى لم يفز أحد ولكن كذب ظنهم وحضرنا جميعا بمعونة الله سالمين ومعنا نحو ٨٥ حاجا من تابعى المحمل الشامى الذين خلفهم فى الطريق وقد ساعدنا على حملهم الى المدينـة سلطان المكلة والشحر فانه — وفقه الله — أجر لنا ٢٠ جملا من ماله الخاص . وقد أرسل صاحب الدولة شيخ المسجد النبوى مندوبين من قبله لتحيتنا وتهنئة السلطان وركبه بالقدوم سالمين وقد رافقونا حيث ينزل جنـدنا كل سنة فى غربى المدينــة الجنوبى وذلك بجوار « باب الحميدية » الذى شيده سلطاننا الحالى عبد الحميد الثانى ويسمى باب العنبرية وقد نقش عليه هذان البيتان :

باب لطيبة شاده ملك الورى * خاقاننا الغـازى الحميــد ثناه
يا سعد أرّخ باب سعد ناجح * سلطاننا عبد الحميــد بنــاه

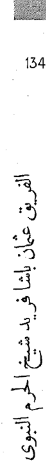
١٣٠٥ هـ

وهما من إنشاء مفتى الشافعيــة السيد جعفر البرزنجى . انظر المعسكر والباب فى (الرسم ١٣٤) .

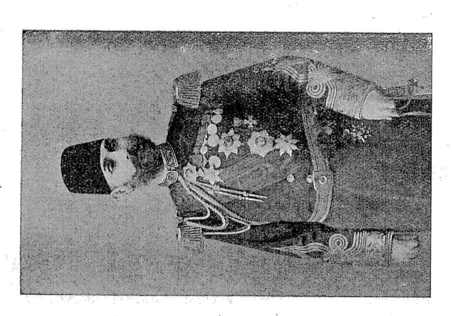
معسكر المحمل المصرى خارج باب العنبرية بالمدينة المنوره سنة ١٣٢٠



134. The Egyptian Mahmal camping outside the Ambarieh gate at Medina



الفريق عثمان باشا فريد شيخ الحرم النبوى



135. A photo of El Farik Osman Pacha Farid the Sheikh of Nabawi Mosque.

دخول المدينة المنوّرة

فى يوم الخميس ١٣ المحرم سنة ١٣١٩ هـ . اغتسلنا ولبسنا ثيابا بيضاء ويممنا المسجد النبوى لزيارة النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبيه فدخلنا المسجد ووقفنا تجاه قبر الرسول صلى الله عليه وسلم وسلمنا عليه ، ثم خطونا خطوة الى اليمين وسلمنا على أبى بكر الصدّيق أوّل الخلفاء الراشدين ، ثم خطونا أخرى وسلمنا على الفاروق عمر بن الخطاب ثانى الخلفاء الراشدين ، ثم زرنا مكانا يقال له « مهبط الوحى » ومكانا آخر يزعم الناس أن سيدفن فيه عيسى عليه السلام ، ومكانا ثالثا يقال أنه مقبرة فاطمة الزهراء ، وكذبوا فان الواقدى قال : قلت لعبد الرحمن بن أبى الموالى إن الناس يقولون إن قبر فاطمة بالبقيع : فقال ما دفنت إلا فى زاوية فى دار عقيل وبين قبرها وبين الطريق سبعة أذرع ، وكل هذه الأماكن شمالى حجرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم خرجنا بعد ذلك من المسجد من باب جبريل وزرنا مقبرة البقيع فبدأنا بزيارة الخليفة الثالث جامع القرآن عثمان بن عفان وثنينا بزوجات الرسول صلى الله عليه وسلم وأولاده وأقربائه وثلثنا بشهداء البقيع ثم زرنا قبر مالك ابن أنس إمام دار الهجرة والفقيه الورع ، وزرنا الامام نافعا أحد القراء المشهورين وكذلك زرنا غيرهم ممن دفن بالبقيع رضى الله عن الجميع ورحمهم رحمة واسعة .

وقد زرنا فى هذا اليوم الفريق عثمان باشا فريد محافظ المدينة وشيخ المسجد النبوى فاذا به رجل كامل متواضع طلق المحيا محمود الخلق وقد أكرمنا وبالغ فى الحفاوة بنا وقد أبلغته تحية الخديوى فشكر له ودعا وقال إنه من مدّة لم تأتنا مكاتبات من جنابه فقلت له إنه عازم على الحج والزيارة ففرح بذلك فرحا شديدا وأشار بأنه يود أن ينعم عليه الخديوى بنقود (فحرّك إصبعيه الإبهام والسبابة) فقلت له إنه اذا حج كثر إنعامه وزاد إحسانه فازداد سرورا الى سروره وقال إنى معجب بظرفك وجميل حديثك وحسن جوابك[1] .

---

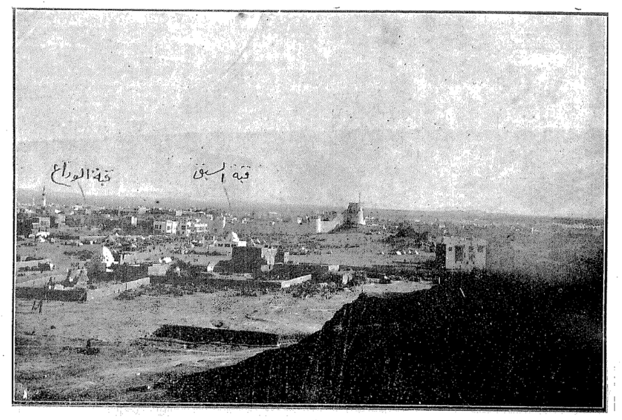
(١) عثمان باشا فريد أصله من الشراكسة وقد مكث فى مشيخة الحرم الى أن أعلن الدستور فى سنة ١٩٠٨ هـ . فعزل وكان رجل عمل وشدّة ودهاء وسياسة ، ومن آثاره فى المدينة باب العنبرية وقلعة فى وادى العقيق على مقربة من مسجد السيد عبد المحسن أسعد وغرس أشجارا بالمناخة تظل النازلين بها . انظاره فى (الرسم ١٣٥) .

وليمة المحافظ — فى يوم الجمعة ١٤ المحرم أقام لنا سعادة المحافظ وليمة فخمة دعا اليها سلطان المكلا والشحر ونجله وحفيده وأمير الحج المصرى وأمين صرته ورئيس حرسه — قومندانه — والضباط والموظفين وأعيان المدينة فكنا نحو الستين تناولنا طعام العشاء دفعة واحدة على ثلاث عشرة مائدة وضعت على النمط التركى فوق كراسى قصيرة وفرشت حولها الفرش الوثيرة على الأبسطة القيمة الجميلة فجلسنا حولها وقدمت لنا أطعمة فاخرة أتقن صنعها وجمل شكلها فذكرتنا بموائد الملوك والأمراء وكانت الموسيقتان الشاهانية والمصرية والمزمار البلدى تطرب الحضور بالأنغام الشجية والأنوار ساطعة من المصابيح الموضوعة على الجدر والنخيل التى بفناء المنزل على شكل منظم فكانت ليلة بديعة وحفلة أنيقة تناولنا فيها الحديث فى مختلف الشؤون وكان المحافظ يتنقل بين الحضور يجلس مع هذا لحظة يحييه و يؤانسه ومع آخر أخرى ومع ثالث ثالثة وهكذا يحيى ضيوفه بما جبل عليه من كمال الشيم .

والذى بعثه لاقامة هذه الوليمة الحفاوة بسلطان المكلا والشحر عوض بن عمر القعيطى ، وفى نهاية الحفلة صدحت الموسيقى بالسلام الملكى وهتف للسلطان ثلاثا وألقيت بعض الخطب بالعربية والتركية وبعض أشعار ارتجالية وانصرفنا شاكرين .

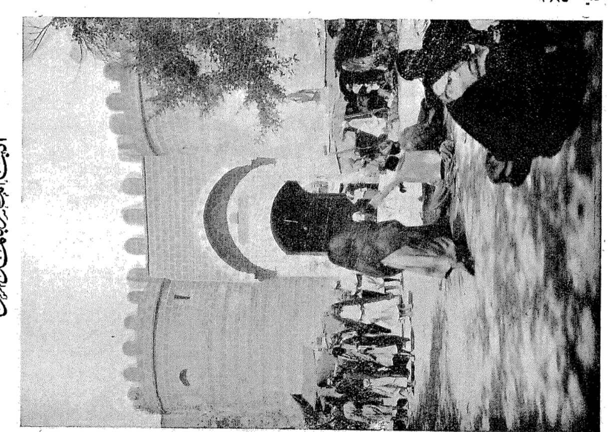
الاحتفال بادخال المحمل المسجد النبوى — فى صباح السبت ١٥ المحرم ألبس المحمل كسوته المقصبة واحتمله جمله وسار من معسكرنا يتقدمه أميره وأمين الصرة ففرقة من العساكر الشاهانية بضباطها وموسيقاها ويحف به من الجانبين الحرس والفرسان ودخل المدينة من باب العنبرية وسار فى شارعها وقطع المناخة ولما وصل الى الباب المصرى (الرسم ١٣٦) وهو أشبه بباب زويلة المعروف — ببوابة المتولى بالقاهرة — ترجل الراكبون أدبا مع الرسول صلى الله عليه وسلم وسلكنا طريقا معوجا عرضه ٤ أمتار الى أن وصلنا الى باب السلام (الرسم ١٩٠) من أبواب المسجد النبوى فى ركنه الجنوبى الغربى وهناك وجدنا محافظ المدينة وشيخ المسجد النبوى الفريق عثمان باشا فريد ينتظرنا فتسلم مقود الجمل الذى يقل

منظر المدينة من الجهة الشمالية اخذ من جهة جبل سلع



137. The Northern-Western view of Medina Mosque in 1325.

الباب المصري بالمدينة المنورة



136. The " Egyptian gate " at Medina.



المحمل من يد الأمير وأناخه وأدخلنا المحمل المسجد ووضعناه بجوار المنبر النبوى كما هو العادة كل سنة ثم جلس المحافظ والأمير والأمين ومن حولهم الموظفون وفككنا كسوة المحمل قطعة قطعة ووضعت فى وسط المحتشدين أو المحتفلين والغرض من هذا التفكيك أن يحمل كل موظف قطعة ويدخل الجميع المقصورة النحاسية لوضع الكسوة بها وزيارة الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد حمل كل منا قطعة واشترك المحافظ مع أمير الحج فى حمل العلم الكبير « البيرق » وسار الجميع يتقدمهم المحافظ والأمين نحو الحجرة وقد ارتدوا الملابس والعمائم البيضاء وتقدم كثيرون واشتركوا معنا فى الحمل فكثر العدد وتنبه « الأغوات » لذلك فأقصوا الدخيل ودخلنا المقصورة ودعونا وقد تيسر لى الدخول مرتين أخريين مع « الأغوات » لإيقاد المصابيح .

وقد أقمنا بالمدينة اثنى عشر يوما كنت أؤدى فيها أكثر الصلوات بالمسجد النبوى استزادة للثواب وكثيرا ما كنت أتلو القرآن فى المصاحف التى أبدع تسطيرها مهرة الخطاطين من الأتراك، وإن جمال روائها وحسن تنسيقها ليستزيدك من القراءة فيها فالبصر متمتع واللسان مرتل والقلب متدبر والمقام كريم والذكرى تهيج فيالها من ساعات لا يحيط الوصف بأثرها فى النفس .

وبالمسجد مكتبة مملوءة بالمصاحف الخطية ودلائل الخيرات ذات الكتابة البديعة، وللمكتبة رئيس وعمال يجمعون المصاحف والدلائل من القارئين عند الصلاة ويوزعونها بعدها على من رغب فى التلاوة فيها .

زيارة شهداء أحد

قبل أن نذكر لك حديث الزيارة ووصف ما شاهدناه ورسومه نتقدم اليك بموجز عن غزوة أحد التى أبلى فيها المسلمون بلاء حسنا واستشهد كثير منهم وكان لهم فيها من العظة والاعتبار ما سلك بهم فى المستقبل نهجا أمما وطريقا رشدا وعمدتنا فى ذلك " زاد المعاد فى هدى خير العباد " للامام الهمام ابن قيم الجوزية .

لما قتل الله أشراف قريش ببدر وأصيبوا بمصيبة لم يرزؤوا بمثلها ورأس فيهم أبو سفيان بن حرب لذهاب أكابرهم أخذ يؤلب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى المسلمين بجمع قريبا من ثلاثة آلاف من قريش وحلفائهم والأحابيش وجاءوا بنسائهم لئلا يفروا ليحاموا عنهن ثم أقبل بهم نحو المدينـة فنزل قريبا من جبل أحد بمكان يقـال له عينين(١) وذلك فى شوّال من السنة الثالثة واستشار رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحـابه أيخرج اليهم أم يمكث فى المدينـة ؟ وكان رأيه أن لا يخرج من المدينة وأن يتحصنوا بهـا فان دخلوها قاتلهم المسلمون على أفواه الأزقة والنساء من فوق البيوت ووافقه على هذا الرأى عبد الله بن أبىّ، فبادر جماعة من فضلاء الصحابة ممن فاتهم الخروج يوم بدر وأشاروا عليه بالخروج فنهض ودخل بيته ولبس لأمته — درعه ولباسه الحربى — وخرج فى ألف من الصحابة واستخلف ابن أم مكتوم على الصلاة بمن بقى فى المدينة فخرج يوم الجمعة . فلما صار بالشوط(٢) بين المدينة وأحد انعزل عبـد الله بن أبىّ بنحو ثلث العسكر وقال : تخالفنى وتسمع من غيرى، فتبعهم عبـد الله ابن عمرو بن حزام يوبخهـم ويحضهم على الرجوع ويقول : تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا قالوا : لو نعلم أنكم تقاتلون لم نرجع فرجع عنهم وسبهم . وسأله قوم من الأنصار أن يستعينوا بحلفائهم من اليهود فأبى وسار رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل الشعب(٣) من أحد فى عدوة الوادى — شاطئه — وجعل ظهره الى أحد ونهى الناس عن القتال حتى يأمرهم فلمـا أصبح يوم السبت تهيأ للقتال وهو فى سبعمائة فيهم خمسون فارسا واستعمل على الرماة وكانوا خمسين عبـد الله بن جبير وأمره وأصحابه أن يلزموا مركزهم وأن لا يفارقوه ولو رأوا الطير تتخطف العسكر وكانوا خلف الجيش وأمرهم أن ينضحوا(٤) المشركين بالنبـل لئلا يأتوا المسلمين من ورائهم وظاهر(٥) رسول الله صلى الله عليه وسلم بين درعين(٦) يومئذ وأعطى اللواء مصعب بن عمير

(١) الجبل المقابل لجبل أحد . (٢) بستان بقرب دباب وهو الجبل الذى عليه مسجد الراية .

(٣) الشعب الطريق فى الجبل أو ما انفرج بين الجبلين . (٤) يرشوا . (٥) جمع وطابق .

(٦) الدرع لبوس من الحديد يتقى به المحارب بأس الحرب .

واستعرض الشبان يومئذ فردّ من استصغره عن القتال وأجاز من رآه مطيقا وتعبت قريش للقتال وهم فى ثلاثة آلاف فيهم مائتا فارس، فجعلوا على ميمنتهم خالد بن الوليد. وعلى الميسرة عكرمة بن أبى جهل ودفع رسول الله صلى الله عليه وسلم سيفه الى أبى دجانة سماك ابن خرشة وكان شجاعا بطلا يختال عند الحرب ثم قاتل المسلمون قتالا شديدا وكان شعار المسلمين يومئذ « أمت أمت » وكانت الدولة أول النهار للمسلمين على الكفار فانهزموا وولوا مدبرين حتى انتهوا الى نسائهم فلما رأى الرماة هزيمتهم تركوا مركزهم الذى أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظه وقالوا : يا قوم، الغنيمة الغنيمة! فذكرهم أميرهم عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يسمعوا فظنوا أن ليس للمشركين رجعة فذهبوا فى طلب الغنيمة وأخلوا الثغر وكر فرسان المشركين فوجدوا الثغر قد خلا من الرماة فجازوا منه وتمكنوا حتى أقبل آخرهم فأحاطوا بالمسلمين فأكرم الله بعضهم بالشهادة وهم سبعون وولى الصحابة وخلص المشركون الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجرحوا وجهه وكسروا رباعيته — إحدى أسنانه التى بعد الثنيتين الأماميتين — اليمنى وكانت السفلى وهشموا البيضة على رأسه ورموه بالحجارة حتى وقع لشقه وسقط فى حفرة من الحفر التى كان أبو عامر الفاسق يكيد بها المسلمين. فأخذ علىّ بيده واحتضنه طلحة بن عبيد الله وقتل مصعب بن عمير بين يديه فدفع اللواء الى علىّ بن أبى طالب ونشبت(١) حلقتان من حلق(٢) المغفر فى وجهه فانتزعهما أبو عبيدة بن الجراح وعض عليهما فسقطت ثنيتاه(٣) من شدة غوصهما فى وجهه. وامتص مالك بن سنان — والد أبى سعيد الخدرىّ — الدم من وجنته وأدركه المشركون يريدون ما الله حائل بينهم وبينه فحال دونه نفر من المسلمين نحو عشرة حتى قتلوا ثم جالدهم طلحة حتى أجهضهم(٤) عنه، وترس أبو دجانة بظهره عليه والنبل يقع فيه وهو لا يتحرك، وصرخ الشيطان بأعلى صوته أن محمدا قد قتل ووقع ذلك فى قلوب كثير من المسلمين وفرّ أكثرهم وكان أمر الله قدرا مقدورا، ومرّ أنس بن

(١) علقت . (٢) زرد ينسج على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة . (٣) الثنايا الأسنان الأربع التى فى مقدّم الفم ثنتان فوق وثنتان تحت . (٤) نحاهم عنه .

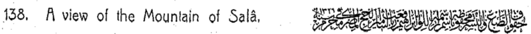
النضر بقوم من المسلمين قد ألقوا بأيديهم فقال ما تنتظرون؟ فقالوا : قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما تصنعون بالحياة بعده ، قوموا فموتوا على مامات عليه ثم استقبل الناس ولقى سعد بن معاذ فقال يا سعد ! إنى لأجد ريح الجنة من دون أحد فقاتل حتى قتل ووجد به سبعون ضربة وجرح حينئذ عبد الرحمن بن عوف نحوا من عشرين جراحة ، وأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم نحو المسلمين وكان أوّل من عرفه تحت المغفر كعب بن مالك فصاح بأعلى صوته يا معشر المسلمين ! أبشروا هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأشار بيده أن اسكت ، واجتمع إليه المسلمون ونهضوا معه الى الشعب الذى نزل فيه فلما امتدوا الى الجبل أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم أبى بن خلف على جواد له يقال له (العَوْد) كان يعلفه بمكة ويقول أقتل عليه محمدا ، فلما اقترب منه تناول رسول الله صلى الله عليه وسلم الحربة من الحرث بن الصمة فطعنه بها فجاءت فى ترقوته فكر منهزما وأيقن أنه مقتول بذلك الجرح فمات منه فى طريق سرف مرجعه الى مكة .

وقد أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعلو صخرة هنالك فلم يستطع لما به فجلس طلحة تحته حتى صعدها وحانت الصلاة فصلى بهم جالسا ، وصار ذلك اليوم تحت لواء الأنصار .

وقتل المسلمون حامل لواء المشركين فرفعته لهم عمرة بنت علقمة الحارثية فاجتمعوا اليه .

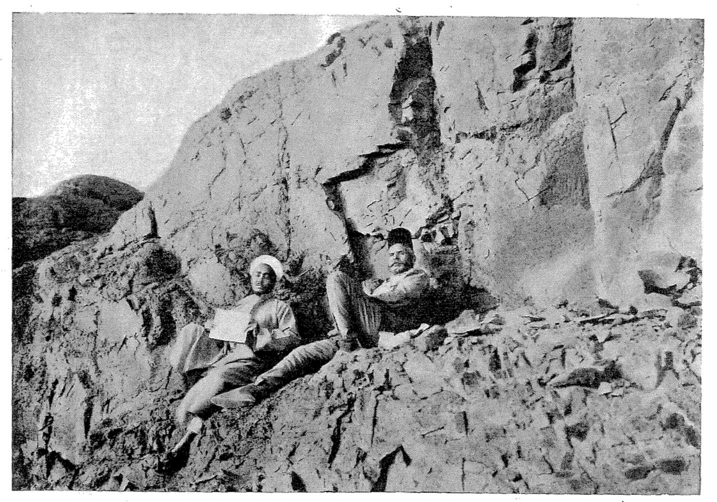
ولما انقضت الحرب أشرف أبو سفيان على الجبل فنادى أفيكم محمد أفيكم ابن أبى قحافة أفيكم عمر بن الخطاب فلم يجيبوه فقال لقومه : أما هؤلاء فقد كفيتموهم ، فلم يملك عمر نفسه وقال : يا عدوّ الله ان الذين ذكرتهم أحياء وقد أبقى الله لك ما يسوءك ، وإنما سأل عن هؤلاء الثلاثة لعلمه وعلم قومه بأن قيام الإسلام بهم ثم قال أبوسفيان : يوم بيوم بدر والحرب سجال ، فأجابه عمر وقال : لا سواء . قتلانا فى الجنة وقتلاكم فى النار وكان يوم أحد يوم بلاء وتمحيص اختبر الله عز وجل به المؤمنين وأظهر به المنافقين ممن كان يظهر الاسلام بلسانه وهو مستخف بالكفر

جبل سلع وبه كتابة بالكوفي



138. A view of the Mountain of Salâ.

اللواء ابراهيم باشا رفعت امير الحج وابراهيم افندي حمدي خربوطلي بجبل سلع بالمدينة المنورة



139. Al-Liwa Ibrahim Pasha Rifaat and Ibrahim Eff. Hamdy El Kharboutly on Sele'i Hills at Medina.

﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ فأكرم الله فيه من أراد كرامته بالشهادة من أهل ولايته، وكان مما نزل من القرآن فى يوم أحد ستون آية أولها ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ الى آخر القصة . ولنعد الى حديث الزيارة .

فى يوم الخميس ٢٠ المحرم سنة ١٣١٩ هـ ، عزمنا على زيارة الشهداء بأحد ورؤية ماهنالك من الأبنية فسلكنا طريقا فى شمالى المدينة الغربى رمليا سهلا، عن يمينه وشماله حدائق ومزارع بها النخيل والليمون وكثير من الخضراوات وفيها العيون والآبار والسواقى ولكن أكثرها مهمل قد ملأته الرياح بالأتربة، ورأينا على يسارنا « قبة السبق » ويقال إنها فى المكان الذى كان الصحابة يتسابقون فيه بخيلهم وتراها فى (الرسم ١٣٧) وعلى الميسرة أيضا مسجد ذو قبتين يزعمون أن النبى صلى الله عليه وسلم لبس فى مكانه الدرع يوم أحد وهذا لا يتفق مع ما أسلفنا لك من أنه لبس لأمته ببيته وأنه ظاهر بين درعين فى الشِّعب من جبل أحد صبيحة القتال، وبالطريق مسجد آخر زعموا أن الرسول صلى الله عليه وسلم استراح بمكانه مرجعه من أحد وبجواره علامة — إدعوا أنها على موضع ظهره صلى الله عليه وسلم :

والدعاوى اذا لم تقيموا عليها * بينات أبناؤها أدعياء

وقد مررنا بجبل سَلع بعد مسير ثلث الساعة، وفى المحرم سنة ١٣٢٦ هـ . زرت هذا الجبل مع الشيخ ابراهيم حمدى خربوطى أمين مكتبة شيخ الاسلام عارف حكمت بك وقد وجدنا فى الجبل كتابة كوفية خطت بالنحت نصها كما أملاه علىّ رفيقى «أمسى وأصبح عمر وأبو بكر يشكوان الى الله من كل ما يكره» وترى فى (الرسم ١٣٨) شكل الكتابة التى تحققنا صحتها من حضرة الأستاذ يوسف افندى أحمد الأثرى بوزارة الأوقاف عند تقديم الرسم اليه فى ١٧ مايو سنة ١٩٢٤ م .

وكذلك مكتوب فى الجبل « يقبل الله عمر — الله يعامل عمر بالمغفرة ». وترى فى (الرسم ١٣٩) صورتى مع صورة رفيقى ونحن جالسون على جبل سلع، وكان

الجبل على يسارنا ثم تركناه وانعطفنا نحو اليمين فكان الجبل وراء ظهورنا وأحد أمام عيوننا وقد بلغناه بعد مسيرة ثلثي ساعة من المدينة أنظر (الرسم ١٤٠) وترى فى وسطه مسجد سيدنا حمزة والبساتين فى شماليه وجنوبيه والطرق الى المدينة ، والحفر التى تراها بالرسم موضع أخذ النورة التى يصنع منها الآجر .

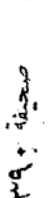
مسجد سيدنا حمزة بن عبد المطلب عمّ النبي
صلى الله عليه وسلم وشهيد أحد

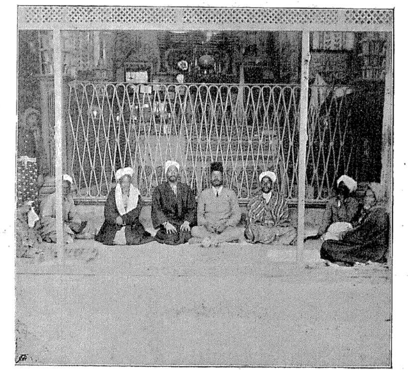
هو مسجد محكم البناء خال من الزخارف به قبة فوق مقصورة حمزة التى أسدل عليها ستر مقصب هو فى الأصل من ستارة باب الكعبة التى تصنعها مصر وقد كتب فى هذا الستر من إحدى نواحيه — بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ﴾ ومن ناحية أخرى — بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ أنظر (الرسم ١٣٤) ، وترى شكل المقصورة فى (الرسم ١٤١) الذى أخذه حضرة محمد افندى على سعودى فى حجته معنا سنة ١٣٢٥ ﻫ . والجالسون من اليمين الى اليسار هم شيخ الضريح فسعودى افندى فأمير الحج فابراهيم افندى حمدى أمين مكتبة شيخ الاسلام عارف حكمت بك ، وترى فى (الرسم ١٤٢) المسجد على الميسرة وأمامه صهريجان متقنا البناء لها بابان من الحديد يملآن من مياه الغدير الذى يبعد عن المدينة بنحو أربع ساعات ، ويصل الماء من الغدير اليهما فى قناة مبنية تشبه مجرى عين زبيدة والذى بناهما على بك كبير حجبة السلطان عبد الحميد ، وتراهما فى الرسم على يمين المسجد فوقهما شبابيك ظاهرة والقسم الأول من البناء الذى بعد النخلة مسكن لخادم المصرع ، والقسم الثانى منه المرتفع المبانى أقيم فوق المكان الذى استشهد به سيدنا حمزة ودفن به الى عام نيف وثلاثمائة ثم أتى سيل جارف من جهة الطائف فكشف عن ساقيه فنقل الى الربوة التى بنى عليها مسجده الذى تراه فى (الرسم ١٤٣) ولكن جاء فى كثير من كتب السير أن حمزة قتل تحت جبل الرماة

من جبل سلع الى جبل احد



140. A view of the road from Gebel Salà to Ohod in Medina.



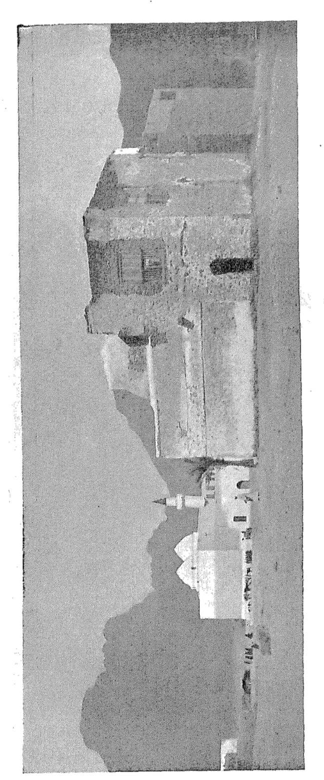


منظر ضريح سيدنا حمزة

141. The Mausoleum of Sayyedna Hamza, the uncle of the Prophet Mohamed in Ohod at Medina.

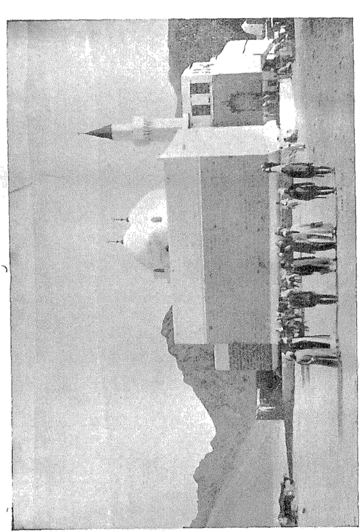
صحيفة ٣٩٠

منظر مسجد ومشهد سيدنا الحمزة عم النبي صلى الله عليه وسلم بأحد بالمدينة المنورة



142. The Mosque and place of Martyrdom of Hamza, the uncle of the Prophet Mohamed, in Ohod at Medina

منظر جبل احد وبه ضريح ومسجد سيدنا حمزة



143. View of Mount Ohod with the mausoleum and Mosque of Hamza

وهو جبل عينين وإن النبي صلى الله عليه وسلم أمر به فنقل عن بطن الوادى الى ربوة هنالك فالمدفن غير المصرع ، والربوة نقل اليها وقت الغزوة وقد تكون الربوة التى نقل اليها بعد القرن الثالث ربوة أخرى هى التى عليها المسجد الآن والله بالحقيقة خبير وتجد فى المصرع ضريحاً[1] كتبت عليه الأبيات الآتية المتضمنة لعمارة زامر باشا .

أعظم بمشهد ليث الله حمزة من * بيوم أُحْد لخير الخلق قد نصرا
وفل فيه جيوش الشرك فانهزمت * وباع لله نفسا والجنات شرى
فيا له مشهد يزهو برونقه * حسنا ويزرى بهاء الشمس والقمرا
قد فاز زامر باشا حين عمره * بأعظم الأجر والمولى له شكرا
وقال يمن له وافى يؤرخه * بجنب أكرم عم قد بنى أثرا

سنة ١٢٨٧ ﻫ

وهناك لوحة أخرى تضمنت تاريخ عمارة سليم بك سنة ١٢٦٥ ﻫ . وهاك نصها :

مسجد حاز كل فخر وسؤدد * وبدا نوره الى العرش يصعد
فيه صلى النبي بالصحب صبحا * وسما إذ غدا لحمزة مشهد
مسجد منه روح خير شهيد * رجعت بالرضا لفوز مؤبد
وبه بقعة حوته ونفس * اطمأنت بجنة وبمقعد
أسد الله عم طه المرجى * من أتاه لا شك بالخير يرفد
سيد الشافعين حمزة ترى * من يكشف الكروب قد صار يقصد
هو ذخر الورى لكل ملم * من به لاذ فى البرية يسعد
هو بحر يفيض برا وجودا * من رجاه أنا له خير مقصد
وهو للملتجى به خير حصن * وهو درع لخائف جاء ملهد
هو منجى الغريق هادى الحيارى * فبه الله كم أغاث وأنجد
مسجد الراية الشريفة هذا * للذى شاده قصور تشيد

(١) الضريح : الشق وسط القبر .

ويوم التمام أرخه البرى * ببيت يفوق درا منضد
يا له مشهد بهى تسامى * قد بناه سليم بك وجدد

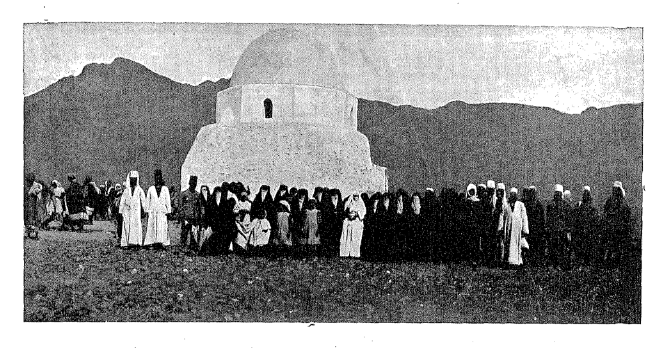
سنة ١٢٦٥ هـ

وإنى لتأخذنى رعدة ساعة أقرأ هذه الأبيات التى تضمنت الشرك الصراح واذا كان حمزة ذخر الورى لكل ملم كما يقول هذا الشاعر الأحمق فما الذى بقى لله تعالى شأنه اللهم إن الجهل قد طبق على قلوب الناس وعموا عن دينه وتغالوا فى تقديس الأشخاص حتى أسندوا لهم ما هو لله وحده، فاللهم لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب، وتجد مكتوبا فى لوحة على القبر الذى بالمسجد هذين البيتين

قف على أبوابنا فى كل ضيق * واطلب الحاجات وابشر بالمنى
فما نا ملجأ للطالبين * وبنا تجلى الكروب والعنا

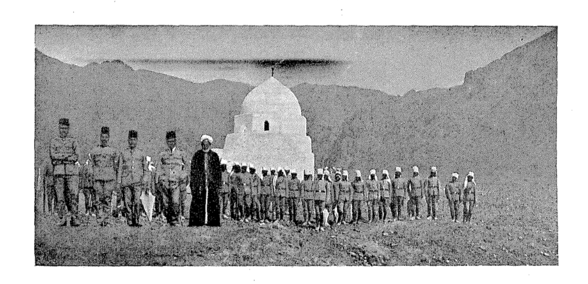
وكذب على حمزة من قال هذا الشعر بلسانه ونسب اليه مالا يليق بإسلامه ولا يتفق مع مقامه وهل حمزة المؤمن الموحد يدعو الناس الى دعائه من دون الله فى المضايق ويزعم أنه يرفع عنهم الضر والكروب وقد سمع قوله تعالى ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ ٱلْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ وهل يرضى أن يكون دون المشركين الذين اعترفوا بأن الله يجير وحده ولا يجار عليه قال تعالى ﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ اللهم إن حمزة براء مما قاله بعض الجاهلين على لسانه ظانا أنه قربة اليه وإن حمزة اذا كان يسره شيء منا فانما هو اتباعنا لكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وأن نلجأ فى السراء والضراء الى الله وحده ﴿ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ وممن بنى مسجد حمزة أم الخليفة الناصر العباسى فى سنة ٥٩٠ هـ . وزاد فيه الأشرف قايتباى زيادة فى جهته الغربية وكان من ضمنها بئر فى غربى المسجد وأقام بيوت خلاء وحفر بئرا هنالك يرتفق بها المارة واتخذ لها درجا وذلك كله فى سنة ٨٩٣ هـ . على يد شاهين الجمالى، وفى شمالى المسجد مقبرة

منظر قبة الثنايا بجبل احد بالمدينة المنورة



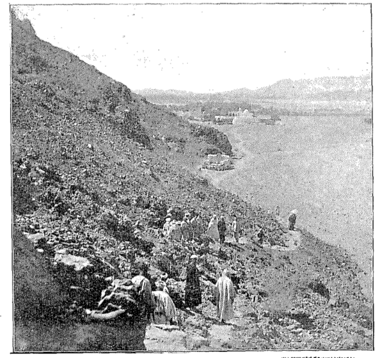
144. The dome of Ef Thanaya in the neighbourhood of Ohod at Medina.

رسم قبة الثنايا بجبل أحد بالمدينة المنورة



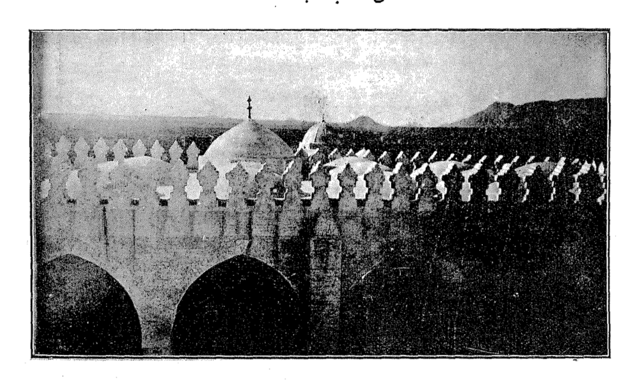
145. A photo of the soldiers and officers near the dome of El Thanaya in Gebel Ohod.

منظر من جبل احد سنه ١٣٢٢



146. A view from Ohod Mountain in 1321.

داخل مسجد قبا سنة ١٣٢٥



147. Holy Mosque of Koba at Medina.

شهد أحد وعلى بابها حجر منقوش عليه تاريخ بنائها فى سنة ٢٧٥ هـ . ويجاور المقبرة عين تسمى عين الثنايا ماؤها عذب وينزل إليها بسلم منتظم، وهنا لك قبة الثنايا التى تراها فى (الرسم ١٤٤) والسيدات المرافقات للمحمل واقفات دونها وفى (الرسم ١٤٥) ترى جندنا مصطفا عندها ومعه الشيخ محمد نخه — المرشد للآثار — واليوزباشى محمود رياض وضابط آخر ويقال إن هـذه القبة فى المكان الذى كسرت فيه ثناياه صـلى الله عليه وسـلم فى غزوة أحد، ولا مستند لمن زعم ذلك وإنما هو إشاعة بين أهل المدينة . وهنالك أيضا مصـلى صغير مقاسه أربعة أمتار فى ثلاثة يقولون إنه فى موضع إصابة حمزة ولكن لم يثبت ذلك فى أثر، وبين هذا المصلى والمصرع قريب من ثمـانين مترا ، وبجوار المصرع الذى قدّمنا لك ذكره بئر مالحة عمقها نحو ١٥ مترا، وعلى بعد ٤٠٠ متر من المصرع جبل أحد وهو أحمر اللون كثير الرءوس أنظر جبل أحد فى (الرسوم ١٤٠ و١٤٢ و١٤٣ و١٤٦) ويقابل أحدا من الجهة الأخرى جبل عينين والوادى بينهما، وقد شاهدت به محلا يقولون إنه الذى جلس فيه النبى صلى الله عليـه وسلم بعـد هزيمة أصحابه فى أحد والله أعلم حيث جلس رسوله . ويلاصق الجبل مسجد الفسح يزعمون أن فى مكانه نزل قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَـا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيـلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِى ٱلْمَجَالِسِ فَٱفْسَحُوا يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ ٱنْشُزُوا فَٱنْشُزُوا يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ قال السيد نور الدين على بن عبد الله فى كتابه « وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى » بعد ذكر أن الآية نزلت فيه : ولم أقف على أصـل لذلك وأقول أن سبب النزول يدل على أنها لم تنزل فى هذا المكان اذ جاء عن مقاتل أنه قال : كان النبىّ صلى الله عليه وسلم فى الصفة وفى المكان ضيق وذلك يوم الجمعة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصـار، فجاء ناس من أهل بدر وقد سـبقوا الى المجلس فقاموا حيال النبى صلى الله عليه وسلم على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم فلم يفسحوا لهم وشق ذلك على رسول الله صـلى الله عليه وسلم فقال لمن حوله من غير أهل بدر : قم يا فلان وأنت يا فلان فأقام من المجلس بقدر النفر الذى قاموا بين يديه.

من أهل بدر فشق ذلك على من أقيم من المجلس وعرف النبي صلى الله عليه وسلم الكراهية فى وجوههم فقال المنافقون للمسلمين : ألستم تزعمون أن صاحبكم يعدل بين الناس فوالله ما عدل على هؤلاء قوم أخذوا مجالسهم وأحبوا القرب من نبيهم أقامهم وأجلس من أبطأ عنهم مقامهم فأنزل الله تعالى الآية السابقة فالرسول صلى الله عليه وسلم وقت الحادثة التى فيها نزلت الآية لم يكن بأحد وإنما كان بالصفة بجوار مسجده صلى الله عليه وسلم فى المدينة ، ولكن المرتزقين من أهل مكة والمدينة مجدّون فى اختلاق آثار نبوية ليستدروا بها أموال العامة والعامة أتباع كل ناعق .

زيارة مسجد قباء

قال تعالى فى سورة التوبة ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا(١) لِمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ(٢) هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوْا رِيبَةً(٣) فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ .

قال الحافظ بن حجر فى كتابه فتح البارى شرح صحيح البخارى : اختلف فى المراد بقوله تعالى : ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ فالجمهور على أن المراد مسجد قباء وهو ظاهر الآية ، وتقدّم فى فضل المسجد النبوى حديث أبى سعيد الخدرى — عند مسلم — أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن المسجد الذى أسس على التقوى فقال : هو مسجدكم هذا ، وفى رواية لاحمد والترمذى عنه اختلف رجلان فى المسجد الذى أسس على التقوى فقال أحدهما هو مسجد المدينة

(١) ترقبا . (٢) شفا كل شيء — حرفه ، والجرف ما تجرفته السيول وأكلته من الأرض ، والهار : الساقط . (٣) شكا ونفاقا .

فسألاه عن ذلك فقال : هو هذا وفى ذلك — يعنى مسجد قباء — خير كثير، وقدّمنا أيضا الجمع بأن كلا من المسجدين أسس على التقوى من أوّل يوم تأسيسه وأنهما المراد من الآية، وان السر فى اقتصاره صلى الله عليه وسلم على ذكر مسجد المدينة دفع توهم اختصاص ذلك بمسجد قباء اهـ .

وروى البيهقى فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا ﴾ هم أناس من الأنصار ابتنوا مسجدا فقال لهم أبو عامر ابنوا مسجدكم واستعدّوا بما استطعتم من قوّة فإنى ذاهب الى قيصر ملك الروم فآتى بجند من الروم فأخرج محمدا وأصحابه، فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا : إنا فرغنا من بناء مسجدنا فنحب أن تصلى فيه وتدعو بالبركة فأنزل الله عز وجل : ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾ — الخ وهذا المسجد لا أثر له الآن بل دثر من زمن بعيد .

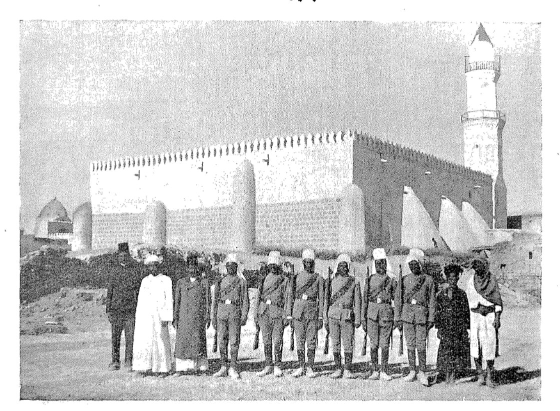
لما سمع المسلمون بالمدينة بمخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة كانوا يخرجون كل يوم الى الحرّة[1] أوّل النهار فينتظرونه فما يردّهم إلا حر الشمس فبعد أن رجعوا يوما أوفى رجل من اليهود على أطم[2] من آطامهم لأمر ينظر اليه فبصر برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه مبيضين[3] فلم يملك اليهودى أن قال بأعلى صوته يا بنى قَيْلة — يعنى الأنصار — هذا جدّكم — حظكم — الذى كنتم تنتظرونه، فثار المسلمون الى السلاح فتلقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بظهر الحرّة فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم فى بنى عمرو بن عوف بقباء على كلثوم بن الهدم بن امرئ القيس وكان له مِربَد — الموضع الذى يبسط فيه التمر لييبس — فأخذه منه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسسه وبناه مسجدا، وكان يعمل فيه بنفسه ولم يزل يزوره صلى الله عليه وسلم ويصلى فيه أهل قباء، وكان يؤمهم فيه معاذ بن جبل، ولما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تزل الصحابة تزوره وتعظمه، وفى صحيح البخارى كان سالم مولى أبى حذيفة رضى الله تعالى عنهما يؤم المهاجرين الأوّلين من أصحاب النبى صلى الله

(١) الحرة : أرض ذات حجارة سود نخرة كأنها أحرقت بالنار. (٢) الأطم بضمة وبضمتين القصر وكل بيت مربع مسطح وكل حصن مبنى بحجارة . (٣) لابسين ثيابا بيضا .

عليه وسلم فى مسجد قباء فيهم أبو بكر وعمر ، ولما تولى عبد الملك بن مروان زاد فيه ، ولما بنى عمر بن عبد العزيز مسجد النبى صلى الله عليه وسلم بنى مسجد قباء ووسعه وبناه بالحجارة والجص وأقام فيه الأساطين من الحجارة فى جوفها عمد الحديد والرصاص ونقشه بالفسيفساء وعمل له مغارة وسقفه بالساج وجعله أروقة — بواكى — وفى وسطه رحبة ، وتهدم على طول الزمان حتى جدّد عمارته جمال الدين الأصفهانى وزير « بنى زنكى » ببلاد الموصل وذلك فى سنة ٥٥٥ هـ . وجدّد أيضا فى سنة ٦٧١ هـ . وعمر بعضه الناصر بن قلاوون سنة ٧٣٣ هـ . وجدّد غالب سقفه الأشرف برسباى سنة ٨٤٠ هـ . وسقطت منارته سنة ٨٧٧ هـ . فجدّدت فى سنة ٨٨١ هـ . وكذلك جدّد بعض جدره وسقفه وأنشئ اذ ذاك سبيل و بركة قبالة المسجد ، وقد عمر عدّة مرات فى زمن الدولة العثمانية وآخرها عمارات كانت فى مدّة السلطان محمود الثانى وابنه السلطان عبد المجيد وتاريخ عمارة الأول مكتوب على حجر فوق باب المسجد .

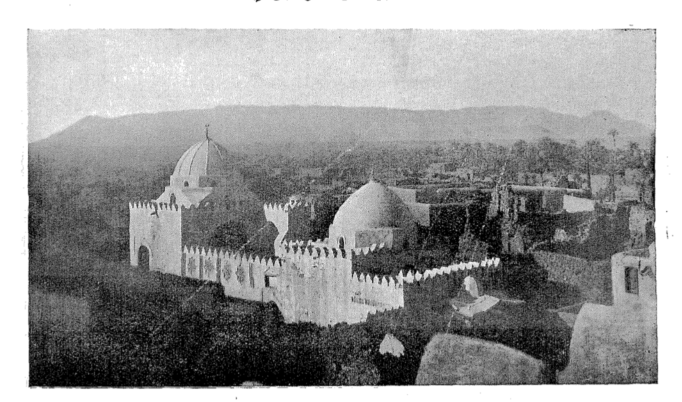
وقد وصفه السيد الشريف على بن عبد الله صاحب كتاب « وفاء الوفا » فى عصره آخر المائة التاسعة فقال : المسجد سبعة أروقة ثلاثة جهة القبلة فى كل رواق سبع أساطين من الشرق الى الغرب ، وفى جهة الشمال رواقان كذلك وفى الشرق رواق وفى الغرب رواق فى كل منهما أسطوانتان ، والرحبة بين الأروقة ، وبين الأسطوانة وجارتها سبعة أذرع وجداره البحرى طوله ثمانية وستون ذراعا ونصف ، والجنوبى أو القبلى يزيد عن ٧٠ ذراعا ، وطوله من الشمال الى الجنوب تسعة وسبعون ذراعا وأما صحنه أو رحبته فطوله من المشرق الى المغرب واحد وخمسون ذراعا ، وعرضه من الشمال الى الجنوب ستة وعشرون ذراعا وربع ، وطول ذرعه فى السماء من أرض المسجد الى سقفه ١٩ ذراعا ، وارتفاعه من الخارج من البلاط الذى فى غربيه الى أعلى شرار يفه أربعة وعشرون ذراعا ، وارتفاع منارته خمسون ذراعا وقاعدتها مربعة تسعة فى تسعة والمسافة بين عتبة باب المسجد النبوى المعروف بباب جبريل وعتبة باب مسجد قباء سبعة آلاف ذراع ومائتا ذراع بذراع اليد أى ٣٥٢٨ متر

مسجد قبا بالمدينة المنوره



148. A view of the Mosque of Koba in Medina in 1321.





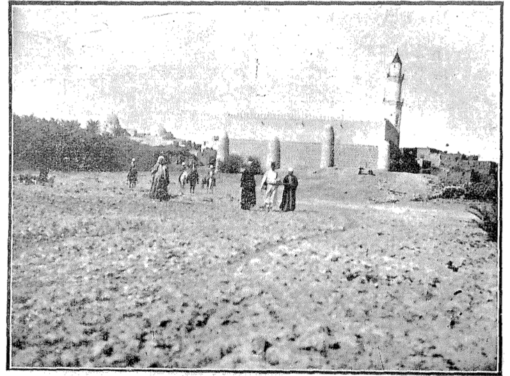
149. The higher parts of Medina as seen from the door of Koba Mosque



إذ ذرَع اليد كما حققناه ٤٩ سنتيا تقريبا أما المسجد الآن — سنة ١٣١٨ ﻫ . — فقد زرناه وهو فى الجنوب الغربى للمدينة وقطعنا المسافة بينه وبين معسكرنا أما باب العنبرية فى ٤٠ دقيقة بسير الخيل المعتاد — الأشكين — وهو مربع الشكل ضلعه ٤٠ مترا وآرتفاعه ستة أمتار (أنظر المسجد من داخله فى الرسم ١٤٧) به ٢٩ عمودا وهو مبنى بالحجر بناء متقناوله دعامات من الخارج لتقوية جدره (أنظر الرسم ١٤٨) والذين بالرسم من اليسار القائم مقام على بك اسماعيل رئيس الحرس (قومندان) فالفاضل ابراهيم بك مصطفى ناظر دار العلوم فمحمد افندى أبو السعود كاتب الصرة الأوّل فبعض العسكر فاثنان من عرب المدينة الذين يعملون فى الأرض ويديرون السواقى وذلك فى حجة سنة ١٣٢١ ﻫ . وله محراب ومئذنة ومنبر رخامى وفيه بئر تنسب لأبى أيوب الأنصارى و بجوار البئر شجرة نبق ونخيل وقطن قليل ، وفيه مصلى النبى صلى الله عليه وسلم ، وبه موضع يقال : إنه مبرك ناقته صلى الله عليه وسلم وآخر يقال إنه نزل فيه على النبى صلى الله عليه وسلم قوله تعالى ﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَى الخ ﴾ وهذا غير صحيح ، فان الطبرى روى عن الزهرى وغيره أن النبى صلى الله عليه وسلم أقبل من غزوة تبوك حتى نزل بذى أوان — بلد بينه بين المدينة ساعة من نهار — وكان أصحاب مسجد الضرار أتوه وهو يتجهز الى تبوك ورجوه الصلاة فيه فقال إنى على جناح سفر ولو قدمنا إن شاء الله أتيناكم فصلينا لكم فيه ، فلما أقفل ونزل بذى وان نزل عليه القرآن فى شأن مسجد الضرار ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم صحابيين وقال لهما : اذهبا الى هذا المسجد الظالم أهله فأهدماه وحرّقاه ففعلا وحرقاه بنار فى سعف — جريد — فأين ذو أوان من هذا المكان بمسجد قباء الذى زعموا نزول الآيات السالفة فيه ، وفى المسجد موضع يقال : إنه طاقة الكشف يزوره الناس ولا أدرى كشف أى شيء . وآخر مدّة تجدد فيها هذا المسجد سنة ١٢٤٥ ﻫ . كما هو مسطور على حجر فوق بابه ، والمسجد مفروش بالحصير وأنظف ما يكون . وفى غربى المسجد مسجد السيدة فاطمة الزهراء عليه قبة تحتها مكان زعموا أنه الموضع الذى كانت تطحن فيه الشعير ، وبجوار مسجد

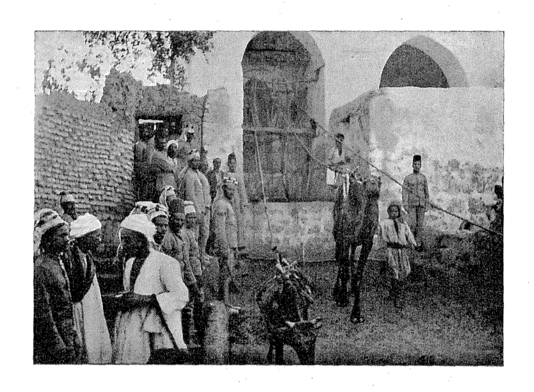
فاطمة مسجد الشمس ، أنظر شكلهما فى (الرسم ١٤٩) وموقعهما من مسجد قباء فى (الرسم ١٥٠) وفى الرسم الأول جبل عير، وفى الشمال الغربى للمسجد على بعد مائتى متر منه بئر اريس وتسمى بئر الخاتم و بئر التفلة وهى داخل حديقة وعمقها ١٢ مترا ، وفى أسفلها فتحتان يجرى منهما الماء الى قاع البئر وفتحة ثالثة تصلها بمجرى العين الزرقاء التى يشرب منها أهل المدينة كما سنبينه إن شاء الله تعالى ، وأريس الذى سميت البئر باسمه رجل من اليهود ومعناه بلغة أهل الشأم الفلاح ، وتسمى بالخاتم لأن بها وقع خاتم النبي صلى الله عليه وسلم ، أخرج البخارى فى صحيحه من حديث أنس ، قال : كان خاتم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى يده وفى يد أبى بكر بعده وفى يد عمر بعد أبى بكر ، قال : فلما كان عثمان جلس على بئر أريس فأخرج الخاتم فجعل يعبث به فسقط قال فاختلفنا ثلاثة أيام مع عثمان ننزح البئر فلم نجده وكان ذلك بعد ست سنين من خلافته ، وثبت عن ابن عمر فى صحيح مسلم أنه سقط من يدى معيقيب وهو دوسى من أصحاب الهجرتين ، وفى صحيح البخارى حديث طويل فيه أنه صلى الله عليه وسلم ذهب الى بئر أريس فتوضأ منها وجلس على قفها (المرتفع منها) وكشف عن ساقيه وأدلى بهما فى البئر وأن أبا هريرة تبعه اليها وثلثهما أبو بكر وأتى بعده عمر ثم عثمان فتوضؤا جميعا منها وجلسوا عليها كما جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وتسمى هذه البئر أيضا بئر التفلة ، ويقولون : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم تفل فيها فعذب ماؤها بعد أن كان أجاجا ، وقد ذكر الغزالى هذا فى إحيائه وقال العراقى مخرج أحاديثه أنه لم يقف على أصل حديث تفله صلى الله عليه وسلم فى بئر أريس . وقد جدّد أبو بكر بن أحمد السلامى درجا لهذه البئر ينزل منه الى قاعها من يريد الوضوء أو الشرب وذلك فى سنة ٧١٤ ﻫ . وماء البئر غزير يسير الى بركة داخل الحديقة وهو عذب فرات شديد النظافة وبمجرد أن يوضع فى الأوانى المصنوعة من طين المدينة يبرد كأنه مثلج . ويسق منها البستان المسمى بستان بئر النبي صلى الله عليه وسلم وقف المرحوم محمد باشا العثمانى الصدر الأعظم ، ويتولى إدارته الآن مدير الخزينة الجليلة النبوية ، وفى هذا البستان أنواع من الفواكه

مسجد قبا من الخارج من الشمال والشرق سنة ١٣٢٥

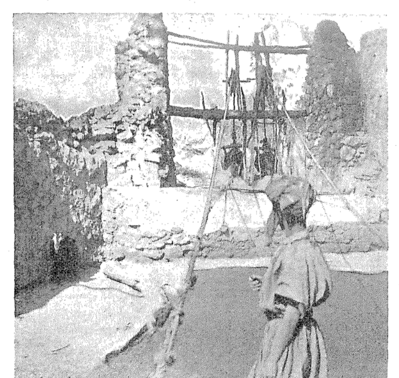


150. Outside view of the Mosque of Koba from the North and East.

منظر اخراج المياه من بير الخاتم بجهة قبا بالمدينة المنورة



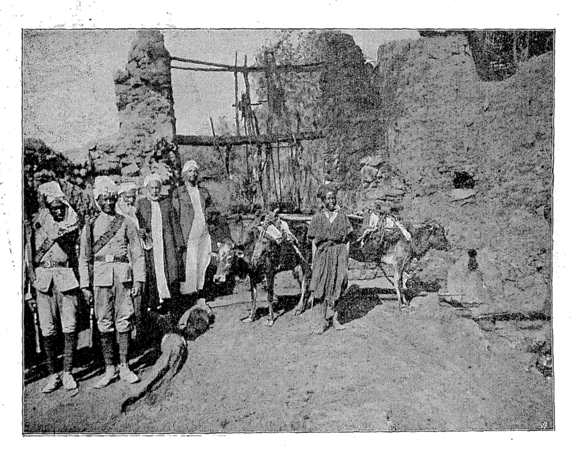
151. Receiving water from El Khatims' well in Koba at Medina.



152. Raising water by means of a Sakia at Medina.

صحيفة ۳۹۹

ساقية بالمدينة بجهة البقيع سنة ۱۳۲۲



153. A sakia at Bakaih in Medina



والأشجار ويقصده أهـل المدينة للقيلولة فيـه والتروض ، وترى فى (الرسم ١٥١) الساقية المقامة على البئر والأبنية التى حواليها والساقية على خلاف المعروف عندنا بل هناك قائمـان على البئر وضعت عليهما عارضـة فيها بكرتان يمر بكل رشا آن يربطان بطرفى الغرب من جهة، ومن جهة أخرى بحيوان يجرهما، فإذا كان الحيوان بجانب البئر كان الغرب قد آمتلأ بالماء فيمشى الحيوان الى جهة واحدة طول الرشاء فيكون الغرب بظاهر البئر فيسكب فى القناة ثم يرجع الحيوان الى حيث بدأ ، والرشاء أثناء ذلك يتدلى حتى يغترف الغرب من البئر ثانية ثم يستأنف الحيوان السير ثانية وهكذا والحيوان متمرن على ذلك فيعرف المبدأ والمنتهى و يتحوّل باشارة خفيفة اذا ماسكب الدلو ويسمى كل بكرتين بحبليهما سانية، وقد يكون على البئر سانيـة وثنتان وثلاث الى ثمـان ، ولكل سانية حيوان يجرها قد يكون بعيرا أو ناقة وقد يكون بقرة أو حمارا ، والغرب قربة هى جلد الشاة كاملا وقد تكون دون هـذه اذا كان يجرها حمار أو عجل صغير أو ماشا كلهما، أنظر الرسمين (١٥٢ و١٥٣) والطريق من المدينة الى قباء مخوف لكثرة النخيل به على الجانبين، فالواجب اتخاذ الرفيق وحمل السلاح اذ هناك أعراب أشقياء يترصدون من ينفرد عن ركبه فيسلبونه ماله وربمـا قتلوه، وقد حدث أن أحد ركب المحمل سار مع صاحب له يودعه فبعد عن المدينة مسيرة ساعة وعنـد أوبته اصطاده اللصوص وضربوه على صفحة عنقه بعصا ذات رأس كبيرة كروية يسمونها «الدبسة» وسلبوه نقوده وتركوه فلما أفاق رجع الينا مشحوب اللون ومكث يعالج نفسه عشرة أيام حتى عاد الى طبيعته الأولى .

إخراج المحمل من المسجد النبوىّ وزيارة محافظ المدينة لنا

فى يوم السبت ٢٢ المحرم سـنة ١٣١٩ هـ . تجمعنا بالمسجد النبوى وأخرجنا الكسوة من المقصورة النحاسية كما أدخلناها ووضعناها على المحمل الذى أقله جمـله ، وكانت العساكر الشاهانية والمصرية مصطفة صفين خارج باب السلام ومعهم الموسيقيان تعزفان بشجى الألحـان وسرنا فى موكب من الطريق الذى قدمنا

منه حتى خرجنا من باب العنبرية ، أنظره فى (الرسم ٢٠٤) فوضعنا المحمل هناك بمعسكرنا قبالة سرادق الأمير وعينا له من يقوم بحراسته وقد تفضل سعادة الفريق عثمان باشا فريد شيخ المسجد ووالى المدينة وزارنا بخيمنا فاستقبلناه استقبالا حسنا فاصطف جنودنا صفين على اليمين وعلى الشمال من باب العنبرية الى سرادق الأمير ، ولما أن حضر حيي التحية العسكرية وأطلق له ٢١ مدفعا ، وكنت مع الأمير والأمين وضباط الحرس وموظفى المحمل فى انتظاره ولبث بحضرتنا ثلث الساعة وحيي فى وداعه بمثل تحيته فى قدومه ، وقد سره حسن اللقاء وكمال النظام ، وكال الثناء للضباط والعسكر لما رأى من انتظامهم البديع وزيهم الجميل ، وكان الوالى راكبا فى قدومه ورجوعه عربة جميلة المنظر يقودها جوادان فرنجيان ويسوقها وطنى وأمامها وخلفها حوالى العشرين من الفرسان غير النظاميين وكان سعادته يرتدى جبة وقباء — قفطانا — من « الصوكبيس » الأبيض وعلى رأسه عمامة ذات طربوش تركى وعلى عينيه نظارة ولحيته سوداء وعليه سيما التقوى والوقار وأهل المدينة يحبونه لحسن عمله وعدم طمعه فانه لا يأخذ عن كل جمل يغادر المدينة سوى ريال واحد و (المدعىّ) يأخذ آخر .

سلطان المكلة والشّحر

قبل أن نتكلم على المدينة المنورة ووصفها وآثارها وعلى مسجدها النبوى وصفا وتاريخا نذكر كلمة عن سلطان المكلة والشحر الذى رافقنا ركبه فى السفر والذى دلنا على علو نفسه وكريم خلقه فعاله الطيبة ، والمكلة والشحر ثغران فى جنوبى بلاد العرب على ساحل المحيط الهندى بينهما وبين عدن مسيرة ٢٤ ساعه فى الباخرة البحرية .

وباسمهما سميت الولاية التى يسيطر عليها هذا السلطان ويبلغ تعداد سكانها مائتى ألف نسمة وفيها ٦٠٠٠ جندى على ما أخبرنى نجله وللأمير ثلاث بواخر كبيرة تجارية فى المحيط الهندى وقد رافقنا (عوض بن عمر القعيطى) سلطان المكلة والشحر

في سفرنا من مكة الى المدينة وكان بصحبته نجله الثانى (عمر بن عوض القعيطى) أما غالب نجله الأكبر فتركه والده بالسلطنة يدير شؤونها مدّة غيابه فى الحج، وكان ابن غالب هذا المسمى محمدا بصحبة جدّه وكذلك كان بصحبته أسرته ووكيله السيد حسين المحضار الشريف وطبيب هندى ونحو ٩٠ جنديا ما بين سودانيين وهنود مسلحين بأسلحة قديمة ذات فتيل وفى بلادهم يحملون البنادق الحديثة من طراز (هنرى مارتينى) التى لا تصرح الدولة بدخولها فى بلاد العرب مع أنى شاهدت مع الأعراب جميع أنواع البنادق الحديثة من سمة (ماركة) مارتينى وفورد ويمتفورد الانكليزية، وسمات أخرى فرنسية وطليانية وغيرها، وشاهدت بندقية رصاص دمدم الخ، وهذه الأسلحة تحضرها اليهم المراكب الشراعية — السنابيك — من الثغور البحرية مثل چيبوتى ومصوع وغيرهما وتباع لهم بأثمان عالية فلا يقل ثمن البندقية عن عشرة جنيهات إنجليزية، وأن أحسن هدية تقدمها للعربى السلاح وذخيرته، وكثيرا ما طلبوا منى الذخائر بواسطة المقوم فلم أجبهم الى ماطلبوا. وجند هذا السلطان يحملون البنادق مشعلة الفتيل دائما ويضعون البارود والرصاص فى أوان بعضها فضى وبعضها نحاسى على شكل قرن الحيوان، وفى وسطهم أحزمة ضخمة وضعوا بها سكاكين صغيرة وكبيرة داخل جرب فضية ذات نقش بديع ومنظر بهيج ويلبسون قميصا واسعا من القطن (بفته) عليه لباس آخر ضيق طويل أبيض يشبه (البنطلون) وعلى رؤسهم العمائم البيضاء ذات الحجم الكبير، وفى أقدامهم النعال أو (المراكيب) وأكثر ما يأكلون الأرز بالخردل والحمص واللحوم ولم أرهم قط يأكلون الخضراوات ومما يأكلون يأكل الأمير وأسرته غير أنهم يزيدون على ذلك الحلو كالهريسة والشعرية الفرنجية، ولباس السلطان كلباس أمراء الهنود وقد أرسل لى نجله وحفيده رسمهما الشمسى مع كتاب يأتى ذكره بعد، فوجدت لباس النجل كلباس الضابط الانجليزى الفارس الا أنه مقصب كلباس التشريفة الكبرى وعلى الرأس طربوش، وزى الحفيد كزىّ أمراء الهند الفرسان وهو متمصب كسابته وتراهم يتقلدون سيوفهم فى الحفلات الرسمية أنظر النجل والحفيد

فى الرسمين (١٥٤ و ١٥٥) أما نساؤهم فلباسهن الظاهرى ثياب ساترة كل البدن من الفرق الى القدم لا تمثل شيئا من الجسم وما من الثوب أزاء العينين منسوج على هيئة « التنتنة » والجوارى الخدم يلبسن فوطا تلف على الجسد من الوسط الى القدم، وفوق ذلك قميص من «الشاش» الأبيض، والرأس والوجه والذراعان مكشوفة .

وفى أثناء سفرنا من مكة الى المدينة كان ركبه يتأخر فى التحميل خصوصا فى الأيام التى كنا نرحل فيها قبل شروق الشمس وكنا نضطر لانتظارهم بما أنهم أصبحوا منا، فرأيت من الجميل أن أعين لهم قسمين من العسكر يساعدونهم وقت الرحيل فكان ركبهم يسايرنا بلا تأخير .

مساعدة الأمير للفقراء — كنا نجد أثناء السير كثيرا من الحجاج الذين رافقوا المحمل الشامى وانقطعوا عنه فى الطريق لضعفهم عن المشى وكنا نجدهم فى أراض موحشة ليس معهم زاد ولا ماء فكنا نحملهم على جمالاتنا عند مانسوق الخيول ونخف الأحمال قياما بواجب الأخوة الإسلامية، ولما بلغ عددهم نحو الأربعين استعطفت الأمير لهم فأمر — أكرمه الله — من فوره بتأجير ٢٠ جملا فاستأجرتها ودفع أجرها فى الحال فوزعنا عليها الفقراء لكل جمل فقيران، وكان من جدهم أن المحمل رافقه مائتا جمل وجمل كانت تحمل الأسلاك البرقية وكانت توزعها تباعا فى الطريق، فلما أردنا الاستئجار وجدنا فيها العدد الكافى، ولما تكاثر عديدهم ركب الضعفاء وتناوب الأقوياء حتى وصلنا المدينة بسلام، وقد بلغ المتخلفون خمسة وثمانين غير من وجدناه بالطريق جثة هامدة فواريناه بالثرى بعد التكفين، وقد كان هذا التخلف نتيجة الإسراع فى السير، فان المحمل الشامى جد فيه حتى عطب منه فى الطريق ما ينيف على مائة جمل رأيناها بأعيننا ولو كانت عنده رحمة بالإنسان والحيوان وسار الهوينا ما تخلف من تخلف ولا عطب ماعطب وفى العجلة الندامة وفى التأنى السلامة .

هدايا الأمير لموظفى المحمل — راى الأمير ما قمنا به نحوه من الخدمات الجليلة التى لم يدفعنا اليها الا شعور نفسى وإيمان يقينى زرع فى قلوبنا شجرة المودة

عمر بن عوض القعيطي نجل سلطان المكلا والشحر



حقوق الطبع والنسخ محفوظة باسم اللواء إبراهيم رفعت باشا أمير الحج المصري في محرم سنة ١٣٢٦

154. The son of the Sultan of El Mekalla & El Shehr Omar ibn Awad.

محمد بن غالب نجل ولي عهد سلطان المكلا والشحر



155. Mohamed ibn Ghaleb the son of the Crown Prince of the Sultan of El Mekalla & El Shehr

والإخاء والمساعدة للغرباء فأبى — أكرمه الله — إلا أن يكافئنا على ما قدمنا بهدايا قيمة .

فأهدى سيفا وخاتما من الماس لأمير الحج اسماعيل باشا صبرى الطوبجى .

وأهدى « « « لرئيس الحرس إبراهيم بك رفعت — صاحب الرحلة — أنظر السيف فى يمين الرسم ٢٤٦

وأهدى ساعة فضية بديعة لرئيس مائة (يوز باشى) الحرس الرجالة عبد الوهاب حبيب أفندى .

وأهدى علبة دخان من الفضة المسكوفى لضابط الخيالة الملازم الأوّل أحمد كامل أفندى .

وأهدى علبة دخان من الفضة المسكوفى لرئيس المائة (يوز باشى) الطبيب سليمان كامل أفندى .

وأهدى علبة دخان من الفضة المسكوفى للملازم الثانى فى المشاة محمد كامل أفندى .

« ساعة فضية صغيرة لضابط المدفعية الملازم الأوّل اسماعيل كامل أفندى .

« « من النيكل أسبوعية للملازم الأوّل فى المشاة ابراهيم أحمد أفندى .

« دبوسا ذهبيا } لكريمات رئيس الحرس ابراهيم بك رفعت.
« سوارين صغيرين من الذهب }

« ٢٥ جنيها «وينتيا» للحرس وزعت عليهم .

وساعة أن ناولنا تلك الهدايا الثمينة أبدى لى سروره السار من المساعدات التى تقدمنا بها اليه والى صحبه فشكرنا له حسن الرعاية .

الأمير وعرب ينبع البحر — عزم الأمير على السفر من المدينة الى ينبع حيث البواخر الكثيرة التى تقله هو وحاشيته الى وطنهم ولكن حال دون نفاذ العزم ما أجمله لك .

لما علم مشايخ ينبع وعربانها وعربان غيرها بوصول الأمير الى المدينة تواردوا عليه وفودا كل وفد يريد الاتفاق معه على القيام بمعدات السفر ورواحله ،وكلما اتفق

مع وفد أتى آخر ليفسد على سابقه اتفاقه تارة بالطعن فيه وتارة بنقص الأجر عنه وتارة بتعهده بتقديم رهينة وكلهم لايبغى من وراء ذلك الا أن يصاحبه الأمير فينتهب أمواله فى الطريق ، وقد تزاحمت هذه الوفود أمام بيت الأمير كأنما هو حاكم المدينة وأخيرا أشار عليه كبير من كبراء الأشراف أن يوزع على مشايخ الطريق ٢٠٠٠ جنيه ان كانت معه ليسير فى أمان واطمئنان وإن لم تكن معه فالأولى به أن يرافق المحمل المصرى كما حضر معه ، فلما سمع تلك الاشارة عض بنان الندم على مابذل من الهدايا النفيسة والمال الوافر لشريف مكة وواليها أملا فى أن يكون مرعى الجانب مشمولا بحياطتهما حتى يصل الى جدة ولكن خاب فأله ، فكلم محافظ المدينة فى أمر سفره ورجاه أن يبعث معه قسما من العسكر الى ينبع أو جدة ويتعهد هو بنفقات السفر ذهابا وإيابا فلم يجبه لأنه محظور عليه أن يبعث العسكر خارج المدينة الى مكان يستغرق السير اليه أكثر من ثلاث ساعات إلا بإذن من الدولة ، ونصح له المحافظ أن يصحب المحمل لأنه خير كفيل بالراحة والأمن فرجع من عنده غير مرتاح النفس مضطرب الرأى فأبرق الى الشريف والوالى أن يأذنا باستصحاب بعض الجند معه من المدينة الى جدة ومكث أسبوعا ينتظر الإجابة فلم تأته فأبرق الى شركة البواخر الخديوية أن تأجره باخرة من الوجه الى جدة ثم عدن ، فلم تفده ويظهر أن الإشارة حجزت فى مكتب البرق لأنها لا توافق مشرب الدولة أو أن العمال قصروا فى تسليمه رد الإشارة كما هو دأبهم ، ويحسن أن نعلم أن الإشارة التى ترسل من المدينة الى مكة ترسل للشام أولا فالسويس فسواكن فجدة فمكة وذلك بواسطة شركة « الايسترن الانكليزية » .

وقد أشرت على الأمير — وكنت أتردّد عليه لأتعرف ألاعيب الأعراب واستكشف من كلامهم ما عقدوا عليه القلوب — بأن يصحب المحمل وأن لا يتخذ لذلك بديلا إذ قرأت آيات السوء فى وجوه أولئك المتسابقين فاتفق رأيه على ذلك وسار معنا بركبه إلا القليل منه .

وكان الأمير استأجر من مكة الجمال لتنقله الى المدينة فجدّة ونقدها الأجرة فلما تحوّل عزمه الى ينبع أو الوجه فتر الجمالة بما أخذوا وكذلك استأجر بالمدينة جمالا

ودفع أجرة بعضها ففرّ أصحابها بما أخذوا ولم يقـدّموا له شيئا مع أن الشيخ محمدا أبا حميدى المقدوم أشار عليه بأن لايدفع الأجرة كلها للجمالة فخالف ، فكان الفرار وضاع عليه مانقد وان كان المقدوم تعهد له بسداد ما أخذوا وقدم له ١٤ جملا الى ما آجره ولم يفر أربابها ولكن ذلك لم يكف ركبه ، ورغب الجمالة عن المشى بطريق الوجه فاضطر لقلة الجمال أن يرسل كثيرا من خدمه وعبيده الى ينبع برا فجدّة بحرا فى المراكب الشراعية ، وقد ذكرتنى معاملة الأعراب لهذا الأمير بأبيات قالها عالم مغربى فى عرب الحجاز لما أن حج فى سنة ١٢٧٠ هـ . قال :

من رام أن يلقى تباريح الكرب * فليأت أجـلاف العـرب
يلقى الجمـال والجلال والخشب * والشّـعر والأوتاد حيثما انقلب
هم أسرق الناس عن أم وأب * وأسمج الناس وأخزى من نهب

ولما سمعت العرب هـذه الأبيات همت بقتله ولكن الله عصمه وقد قلبها الى مدح الشيخ أحمد الجمل من علماء الأزهر فقال :

من رام أن يُلقِى تباريح الكرب * فليأت أحـلاف العـرب
يلقى الجَمال والجَلال والحسب * والشـعر والأوتار حيثما انقلب
هم أشرف الناس عن أم وأب * وأسمح الناس وأجزى من يهب

مرتب الأمير وأمنيته — بلغنى أن الأمير يتقاضى من الانكليز مرتبا سنويا قدره ١٠٥٠٠٠ روبية أى ٧٠٠٠ جنيه انجليزى وذلك نظير موالاته لهم وعدم انتهاكه لحرماتهم . ولما رأى ابن الأمير نظام جندنا وجمـال موسيقانا كلمنى فى أن أرسل اليه جوقة موسيقى وضباطا يعرفون فن المدفعية ليعلموا رجاله ، ولما حضرت مصر وصلنى منه الكتاب الذى ترى صورته الشمسية فى (الرسم ١٥٦) وتعرف منه لغتهم ومبلغ اللغة العربية من ألسنتهم ، واستنجزنى فى هذا الكتاب ما طلبه ورغب فى أن

كتاب نجل سلطان المكلة والشحر لأمير الحج



Message from the Son of the Sultan of El-Makla and Esh-shehr to the Ameer of the Pilgrimage Caravan.

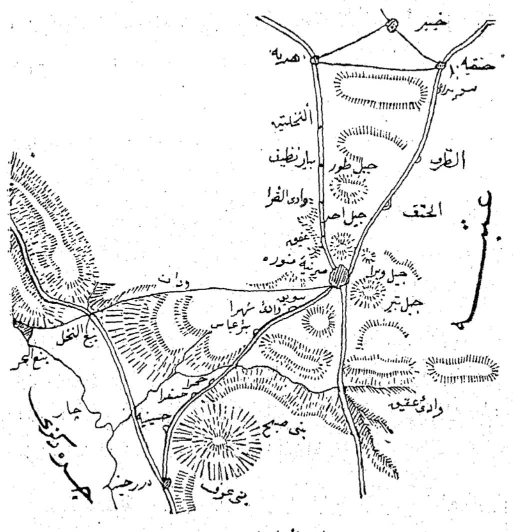
أبين له ما يتقاضونه من المرتب الخ ما جاء بكتابه الذى عبر فيــه عن رجال المدفعية بالطنابشة ، فكتبت اليــه بأنه يحسن تكليم سمو الخديوى فى الجوقة والضباط لأن ارسال بعثات تعلم فنونا حربيــة فى بلد أجنبى يحتاج الى تصريحات رسمية وأرسلت له ولابن أخيــه رسمى الشمسى فلم يجب بعــد أن كاتبتــه ثلاث مرات فقطعت المكاتبـــة .

المدينـــة المنـــوّرة

أسماؤها وموقعها — المدينة العاصمة الثانية لولاية الحجاز وهى فى شمالى مكة تبعـد عنها نحو ٥٠٠ كيلو متر وقـد قطعنا المسافة بينهما من الطريق الشرقى فى ١٢٥ ساعة و ٥٠ دقيقة بسير الجمل فى ركب المحمل وهى واقعة على الدرجة ٣٩ والدقيقة ٥٠ طولا شرقيا، وعلى الدرجة ٢٤ والدقيقة ٣٢ عرضا شماليا وهى فى صحراء مستوية ومتسعة مكشوفة من جهاتها الأربع، وفى شماليها جبل أحد على مسيرة ثلثى ساعة منهـا، وفى جنوبها الغربى جبل عَيْر بالقرب من ذى الحليفة على مسيرة ساعة ونصفها، وهو جبل مستقيم شامخ تراه فى (الرسم ١٤٩) وانظر المدينة وما حولها فى (الرسم ١٥٧) . ولها أسماء كثيرة أوصلها الى نيف وتسعين صاحب كتاب وفاء الوفا، وأشهر هذه الأسمـاء ما نطق به القرآن والسنة فالقرآن سماها المدينة . قال تعـالى ﴿ يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ﴾ وقال ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ﴾ وسمـاها يثرب وهو اسمها القـديم قبل الهجرة . قال تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ﴾ قال الزجاجى يثرب اسم من بناها وهو يثرب بن قانية بن مهلائيل بن ارم بن عبيل ابن عوص بن ارم بن سام بن نوح . وسماها الدار فى قوله تعـالى ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُوا ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ﴾ . وسماها النبى صلى الله عليه وسلم: طيبة وطابة مأخوذ ذلك من الطيب وهو الرائحة الحسنة .

مبانى المدينة — أكثر أبنيتها من الأحجار المجلوبة اليها من المحاجر القريبة وبيوتها ضيقة غير منتظمة أكثرها من غير رحاب مرتفعة البناء ذات طبقتين وثلاث وأكثر، وقل أن تجد فيها بناء ذا طبقة واحدة وأكثر الطبقات الأرضية مشحون

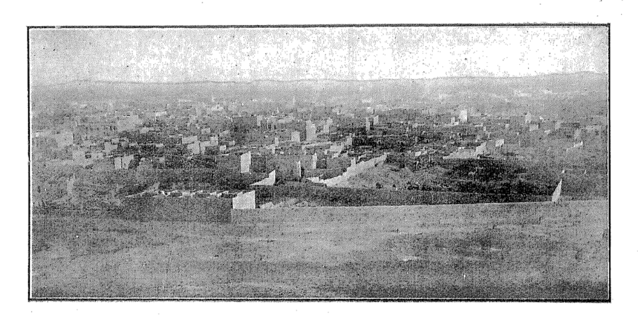
بالبضائع التجارية وحجراتها ضيقة تشبه فى شكلها قيعاننا إلا أنهـا ذات « لوانين ». وحوانيتها مرتفعة الأبواب عن الأرض بنحو متر، وبيوت أكابر الأشراف ضخمة متينة ذات شكل جميل ومنظر بديع ووجهاتها مبنية بالآجر الأسود ولها رواش. « مشربيات » مصنوعة من الخشب الخرط الجميل وأبوابها مرتفعة عن الأرض وترى فى (الرسم ١٥٨) واجهة أكبر فندق فى المدينـة يسمى دار السرور وهو الآن — سنة ١٣٢٦ هـ — لورثة السيد عبد الله المدنى الذى كان عضوا بمجلس إدارة المدينة وترى فى (الرسم ١٥٩).



المدينة المنورة وما حولها

(الرســـم ١٥٧)

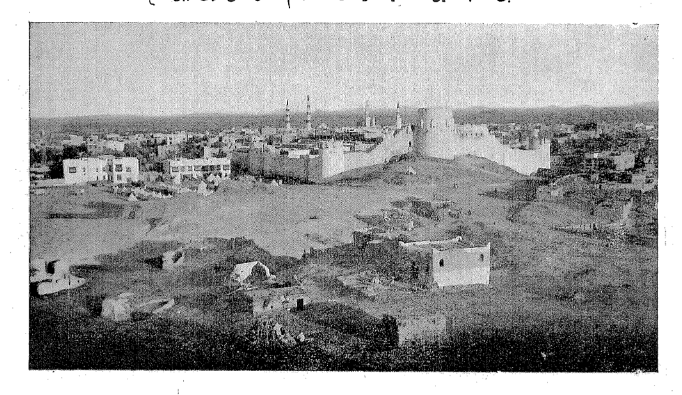
منظر المدينة من الجهة الغربية الجنوبية سنة ١٣٢٥



159. A western and southern view of El Medina.

منظر المدينة المنورة من جهة الباب الشامى

هذا رسم الجهة البحرية من المدينة المنورة وبه القلعة السلطانية منشأ السلطان سليمان العثمانى وبها الخمسة المنارات للحرم النبوى وبها بيوت السادة الاسعدية مع الجنينه المسماة بالسبيل عند العامة والخاصة وهى على شمال الناظر لهذا الرسم والقبه تسمى قبة السبق لمسابقة خيل الضحاية نحوها وهذا الرسم مأخوذ من فوق جبل سلع

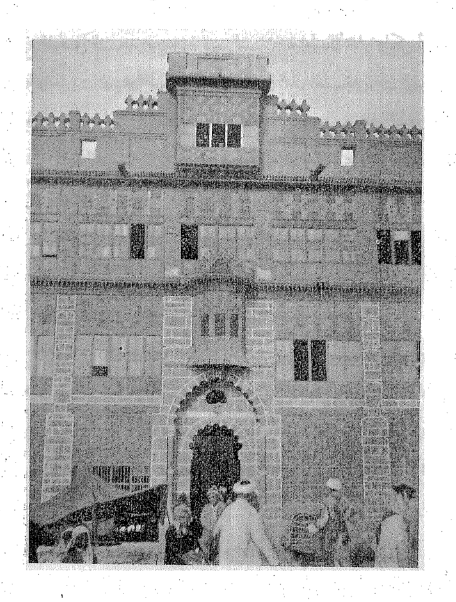


161. Medina as seen from the "Syrian gate".



أكبر فندق بالمدينة المنورة

A view of the largest hotel in medina in the year 1321.



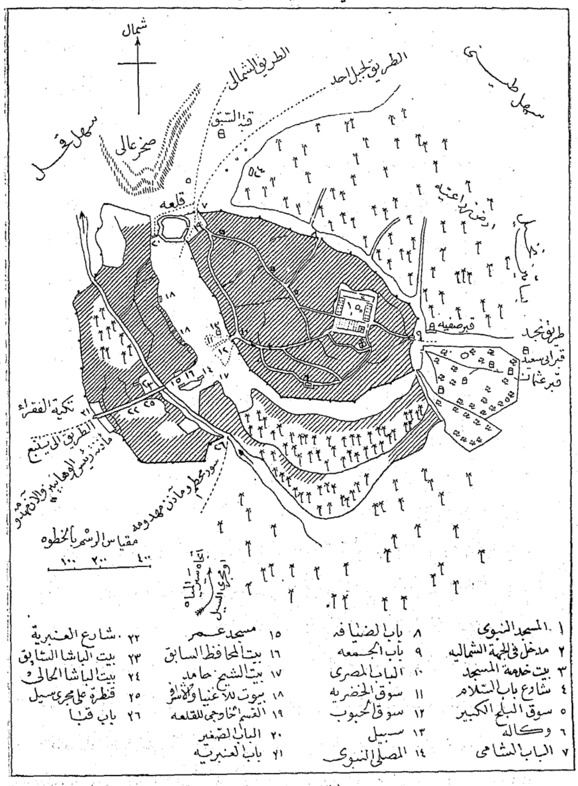
للمرحوم السيد عبد الله مدنى وعدد غرفه ٣٧١

(الرســـم ١٥٨)

منظر المدينة من الجهة الغربية الجنوبية ، وحارات المدينـة ضيقة لا يزيد عرض الواحدة عن المترين ، وشوارعها لا تزيد على أربعة وأحسنها شارع غرب المسجد النبوى يسمونه حارة الساحة وهو أطول الشوارع وفيه أجمل المبانى وبه دار المحافظة ، والشارع الموصل للمسـجد من جهة باب السـلام مبلط بالأحجار ولكن أرضه غير مستوية والحارات لضيقها يسمونها أزقة ، منها فى شمال المسـجد زقاق البقر وزقاق الخياطين وزقاق الحبس وزقاق عنقيني وزقاق السمهيدى وزقاق البدور وزقاق الأغوات وحارة البقيع ، وفى هذه الحارة رباط كتب بالنقر على حجر فيه : (وقف هـذا الرباط المبـارك لوجه الله تعـالى العبـد الفقير ياقوت المظفرى المنصورى والمـاردانى على الفقراء والمساكين الغرباء الرجال خاصة دون النساء تقبل الله منه وأثابه الجنة برحمتـه وكرمه بتاريخ ست وسبعمائة) وفى جنوبى المسجد زقاق باهو وزقاق الكبريت وزقاق القماشين وزقاق حيـدر وزقاق الحجامين وزقاق مالك بن أنس ، وللمدينة سور داخلى وآخر خارجى ، وأوّل من أقام لهـا سورا محمد بن اسحاق الجعـدى بنى لهـا سورا منيعا فى سـنة ٢٣٦ هـ . ليصد عنهـا هجمات الأعراب وغزوات البدو ، وجعل له أربعة أبواب باب فى المشرق يخرج منه الى بقيع الغرقد ، وباب فى المغـرب يخرج منه الى العقيق والى قباء ، وداخل هـذا الباب فى حوزة المصلى الذى كان صلى الله عليه وسلم يصلى فيه العيد ، وباب شمالى غربى ورابع شمالى يخرج منه الى قبور الشهداء بأحد . وفى سنة ٣٧٢ هـ . بنى عضد الدولة بن بويه وزير الطائع لله بن المطيع سورا للمدينة وقد تهدم على طول الزمان ولم يبق إلا آثاره ورسومه ولا يدرى أن كان هـذا السور موضع سور الجعدى أم لا ثم جدّد للمدينة محمد بن أبى منصور المشهور بالجواد الأصبهانى وزير صاحب الموصـل سورا محكما حول المسجد النبوى وذلك فى سنة ٥٤٠ هـ . قال ابن الأثير : رأيت بالمدينة إنسانا يصلى الجمعة فلمـا فرغ ترحم على جمال الدين ودعا له فسألناه عن سبب ذلك فقال :

يجب على كل مسلم بالمدينة أن يدعو له لأننا كنا فى ضر وضيق ونكد عيش مع العرب لا يتركون لأحدنا ما يواريه ويشبع جوعته فبنى علينا سورا احتمينا به ممن يريدنا بسوء فاستغنينا فكيف لاندعو له ، وكان خطيبهم يقول فى خطبته : اللهم صن حريم من صان حريم نبيك بالسور محمد بن على بن أبى منصور، ولما كثر الناس خارج هذا السور ووصل الى المدينة الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى سنة ٥٥٧ هـ . كلموه فى أن يبنى لهم سورا آخر يحفظ أبناءهم وماشيتهم فأمر ببناء السور الخارجى سنة ٥٥٨ هـ . وكتب ذلك على صفحات الحديد التى صفح بها باب البقيع ، وكانت مسافته ما بين الباب الغربى عند المصلى وبين عتبة باب السلام ٦٤٥ ذراع ، وبين باب البقيع وعتبة باب المسجد المعروف بباب جبريل ٤٣٣ ذراع ، وربما كان هذا السور موضع السور الذى بناه عضد الدولة وعفت آثاره لأنه كان بجوار المصلى من الغرب وهذا كذلك ، وقد جدّد هذا السور الملك الصالح بن الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٥٥ هـ . وجدّد بعضه السلطان قايتباى سنة ٨٨١ هـ . وقد درست معالم هذا السور بعد مدة ، أما السور الداخلى فجدّده السلطان سليمان بن السلطان سليم سنة ٩٣٩ هـ . وجعله على أساس السور القديم وقد أتم بناءه سنة ٩٤٦ هـ . وتعطل البناء مدّة فى خلال ذلك وبلغ ما أنفق عليه مائة ألف دينار وأذرع محيطه ٣٠٧٢ ذراع معمارى (٧٥ سنتيا) وله اليوم خمسة أبواب (الرسم ١٦٠) الباب الذى يخرج منه الى البقيع ويعرف بباب البقيع وباب الجمعة ، وعلى هذا الباب الكتابة الآتية : جدّده السلطان سليمان سنة ٩٤٥ هـ . والسلطان محمد خان بن ابراهيم خان سنة ١٠٧٨ هـ . وهذا مكتوب بالنحاس ، وعمره السلطان محمود سنة ١١٦٢ هـ . ويلى هذا الباب من الشمال باب محدث يسمى الباب المجيدى عند دار الضيافة ، وفى الشمال الغربى الباب المقابل لجبل سلع بين منتهى السور من هذه الجهة وبين القلعة ويعرف بالباب الشامى ، ويليه من الغرب الباب الصغير وهو

خريطة المدينة المنورة



(الرسم ١٦٠)

فى جنوب القلعة الغربى (فى الرسم ١٦١ ترى القلعة والجهة الشمالية من المدينة وترى قبة السبق فى وسط الرسم من أسفل) ثم الباب المصرى فى منتصف الجهة الغربية وقد فتح هذا الباب محمد على باشا بعد حربه للوهابية وتعميره للسور الداخلى (انظر الرسم ١٣٦) وقد عمر هذا السور أيضا السلطان عبد العزيز سنة ١٢٨٥ هـ . وجعل ارتفاعه نحو ٢٥ مترا وبنى فيه ٤٠ برجا تشرف على ضواحى المدينة للدفاع عنها، وفى هذا السور كثير من المزاغل وأبراجه مشحونة بالمدافع والذخائر الحربية.

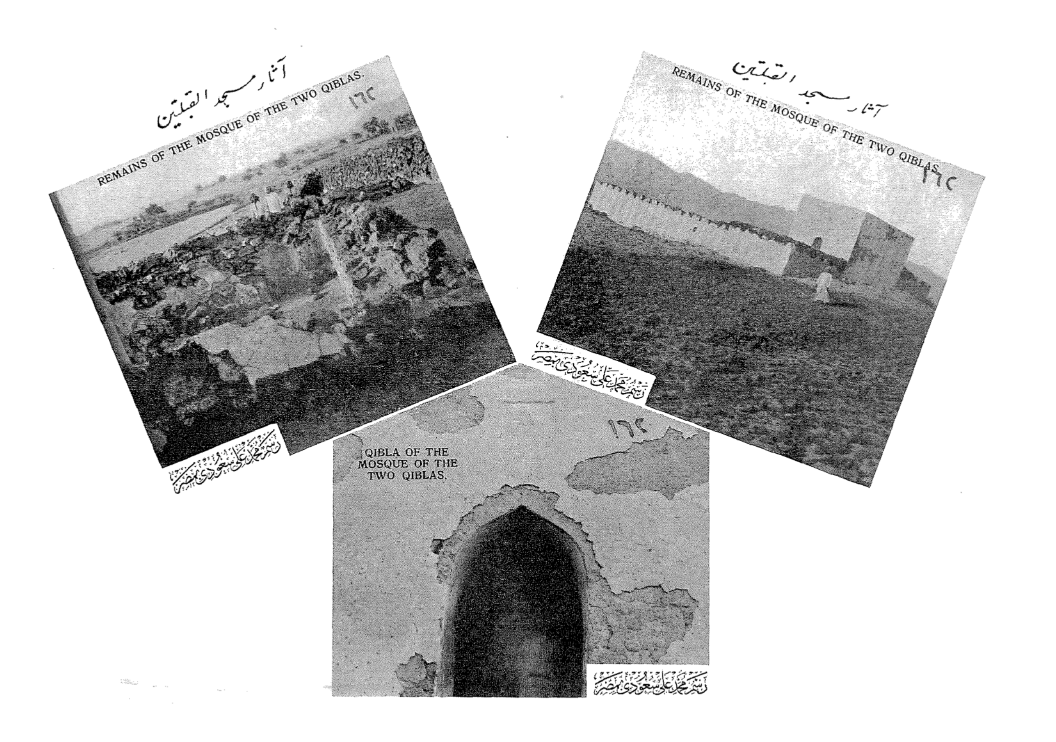
وفى غربى هذا السور سور آخر أوسع منه يحيط بالبيوت التى خارج السور الأول فى غربه وجنوبه ويبتدئ من البقيع فى الجنوب الغربى وينتهى بالقلعة التى أنشأها السلطان سليمان بن السلطان سليم فى سنة ٩٣٩ هـ . وذلك فى الجهة الشمالية، وله خمسة أبواب بابان عند البقيع يعرف أحدهما بباب العوالى لأنه يخرج منه اليها ولعل الثانى باب الكوفة ؟ ويلى هذين البابين من الجنوب باب السد أو باب قباء لأنه يخرج اليها منه، وفى الغرب باب العنبرية يخرج منه الى الحرّة والى وادى العقيق ويسمى أيضا بالباب الحميدى ، لأن السلطان عبد الحميد جدّده وزاد فى السور من ذلك فى سنة ١٣٠٥ هـ . وقد رأيت هذا مكتوبا على الباب (انظر الرسم ١٣٤) وهذا الباب من السور الخارجى والباب المصرى من السور الداخلى عليهما العمل فى دخول القوافل وخروجها ، وفى نهاية السور الخارجى عند القلعة تجد بابا يسمونه اليوم باب الكومه وهو يقابل سلعا، وهذا السور مبنى باللبن والطين ومجصص ويظهر أنه فى موضع السور الذى بناه اسحاق بن محمد الجعدى والمشهور بين أهل المدينة أنهم الذين بنوه زمن سعود الوهابى الذى يأتى ذكر هجومه على المدينة ، وقد تهدّم كثير من هذا السور ، وبين السور الداخل من الغرب والبيوت التى فى غربيه براح متسع يبلغ متوسط عرضه ٤٠٠ متر اشتراه بعض ملوك آل عثمان ووقفه ومنع البناء فيه وجعله محطا للحجاج والقوافل ومناخا لمطيهم فسمى

لذلك بالمناخة ، ثم أطلقت المناخة على ما بين السورين من فضاء وبناء وأصبحت كبلدة مستقلة تقام فيها الجمعة ولا تعاد ، وفى المدينة ١٧ مسجدا و١٨ مكتبة «كتبخانة» و١٧ مدرسة تدرس فيها العلوم الأولية ومكتبا راقيا و١٢ مكتبا للصبيان لكل مكتب فقيه وعريف ، وكان عدد التلامذة بالمكاتب ٣٢٠ وتلامذة المكتب الراقى ٥٥ وذلك فى سنة ١٣٠٩ هـ . وفيها ٨ تكايا و ٢١ مشربا - سبيلا - ومستشفى و١٠٨ رباط للفقراء وقلعة وثكنة للعسكر ودار كبيرة للحكومة وقد زرت محل (البوليس) فوجدت رئيسه (القومندان) والكتبة جالسين على مساطب مرتفعة عن الأرض بنحو ٤٠ سنتيا ومفروشة بالسجادات والحصر ، وفيها ١٠ مخافر (قره قول) وحمامان : أحدهما داخل المدينة بناه السلطان سليمان القانونى ، والثانى بالمناخة وهما أشبه بحمامات مصر وفيها مزولة لمعرفة الأوقات ، و٤٠٠٠ منزل و٩٣٢ حانوت ومخزن و ٤ متاجر كبيرة (وكالات) و١٨ مخبزا و ٣٦ قهوة و ٤ محلات للأصباغ (البويات) و٤٨٥ بستان فيها النخيل والأعناب ومن كل الثمرات .

وإذ سمعت الوصف الإجمالى لمبانى المدينة وما فيها من الآثار فاستمع لما وقفنا عليه من تفصيل لبعض تلك الآثار .

مساجد المدينة — أما مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم فسيأتى الكلام عليه فى باب مسهب ذى فصول جمة وقدّمنا لك وصف مسجد حمزة ومسجد قباء بما فيه الغناء فلنذكر وصف المهم من باقيها .

(١) مسجد القبلتين — قد زرت هذا المسجد فى ٢٤ المحرم سنة ١٣١٨ هـ . وهو فى الشمال الغربى للمدينة فى رابية على شفير وادى العقيق الصغير ، والمسافة بينه وبين بئر رومة — بئر عثمان رضى الله عنه — التى فى شمالى المسجد مسيرة ١٥ دقيقة وقد وجدته متخربا لم يبق منه الا بعض حيطانه (انظر الرسم ١٦٢) وممن عمره وجدّد سقفه الشجاعى شاهين الجمالى شيخ الخدم بالمسجد النبوى وذلك فى سنة ٨٩٣ هـ . وجدّده السلطان سليمان سنة ٩٥٠ هـ . كما رأيت ذلك مكتوبا عليه وسمى بمسجد القبلتين


آثار مسجد القبلتين
REMAINS OF THE MOSQUE OF THE TWO QIBLAS.
رسم محمد علي سعودي بمصر
آثار مسجد القبلتين
REMAINS OF THE MOSQUE OF THE TWO QIBLAS.
رسم محمد علي سعودي بمصر
QIBLA OF THE
MOSQUE OF THE
TWO QIBLAS.
رسم محمد علي سعودي بمصر

لما رواه يحيى عن عثمان بن محمد بن الأخنس ، قال : زار رسول الله صلى الله عليه وسلم أم بشر بن البراء فى بنى سلمة فصنعت له طعاما فأكل هو وصحبه ثم جاءت الظهر فصلاها بأصحابه فى مسجد القبلتين ولما أن صلى ركعتين منها أمر أن يتوجه الى الكعبة فاستدار هو وصحبه اليها — قال الزمخشرى : وحول الرجال مكان النساء والنساء مكان الرجال — واستقبل الميزاب فهى القبلة التى قال الله تعالى ﴿ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ﴾ فسمى من أجل ذلك بمسجد القبلتين ، وروى عن محمد بن جابر ما يخالف ذلك فانه قال : صرفت القبلة ونفر من بنى سلمة يصلون الظهر فى المسجد الذى يقال له : مسجد القبلتين فأتاهم آت فأخبرهم وقد صلوا ركعتين فاستداروا حتى جعلوا وجوههم الى الكعبة ، وفى رواية البراء بن عازب عند البخارى فى ذكر قصة التحويل : فصلى مع النبى صلى الله عليه وسلم رجل ثم خرج بعد ما صلى فمرّ على قوم من الأنصار يصلون فى صلاة العصر نحو بيت المقدس فقال : هو يشهد أنه صلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه توجه نحو الكعبة فتحرّف القوم حتى توجهوا نحو الكعبة . وروى يحيى عن رافع بن خديج أن التحويل كان بمسجد الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يصلى الظهر ، وفى الصحيحين عن ابن عمر قال : بينما نحن فى صلاة الصبح بقباء جاءنا رجل فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أنزل عليه الليلة قرآن وقد أمر أن يستقبل الكعبة ألا فاستقبلوها وكانت قبلة الناس الى الشام ، فاستداروا وتوجهوا الى الكعبة ، قال سعيد بن المسيب : وكانت الصلاة الى بيت المقدس سبعة عشر شهرا ، وهذه الروايات مع تضاربها فى تعيين المسجد الذى كان يصلى فيه الرسول حينما حوّلت القبلة وتضاربها فى الصلاة التى كان التحويل أثناءها تفيد فى مجموعها تعدّد المساجد التى حوّلت القبلة فيها أثناء الصلاة بل كل مسجد صلى فيه نحو البيتين فهو ذو قبلتين فلا معنى لتخصيص مسجد بنى سلمة بهذه التسمية ، اللهم إلا أن نقول ما قاله الحافظ ابن حجر من أن التحقيق أن أول صلاة صلاها فى بنى سلمة الظهر ،

وأول صلاة صلاها بالمسجد النبوى العصر فحينئذ يكون مسجد بنى سلمة أولى بالتسمية لأنه أول مسجد صليت فيه صلاة واحدة الى القبلتين وحصل ذلك بعده فى عدّة مساجد .

(٢) مسجد الفتح — فى شمالى المدينة الغربى جبل يقال له « سلع » على قطعة منه ويسمى أيضا مسجد الأحزاب والمسجد الأعلى ، وهذا المسجد فى المكان الذى قام فيه الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو على الأحزاب فى غزوة الخندق فاستجاب الله دعاءه وأرسل عليهم ريحا كفأت قدورهم وقاعت خيامهم وجنودا لم يروها فانخذلوا ورحلوا .

روى أحمد فى مسنده بسند رجاله ثقات عن جابر بن عبد الله أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا فى مسجد الفتح ثلاثا يوم الاثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء فاستجيب له يوم الأربعاء بين الصلاتين وكان الدعاء الذى دعا به — كما رواه ابن زبالة من طريق عمر بن الحكم : اللهم لك الحمد هديتنى من الضلالة فلا مكرم لمن أهنت ، ولا مهين لمن أكرمت ، ولا معز لمن أذللت ، ولا مذل لمن أعززت ، ولا ناصر لمن خذلت ، ولا خاذل لمن نصرت ، ولا معطى لما منعت ، ولا مانع لما أعطيت ، ولا رازق لمن حرمت ، ولا حارم لمن رزقت ، ولا رافع لمن خفضت ، ولا خافض لمن رفعت ، ولا خارق لمن سترت ، ولا ساتر لمن خرقت ، ولا مقرب لما باعدت ، ولا مباعد لما قربت ؛ ورويت أدعية أخرى أحسنها ما فى الصحيح من حديث ابن عمر : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يدعو عند الكرب لا إله إلا الله العظيم الحليم لا إله إلا الله رب العرش العظيم لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرضين رب العرش الكريم . وهذا المسجد عمره عمر بن عبد العزيز وكان رواقا واحدا ذا أعمدة ثلاث ولكنه تخرب فجدّده فى سنة ٥٧٥ هـ . الأمير سيف الدين الحسين بن أبى الهيجاء أحد وزراء العبيديين ملوك مصر وجعله رواقا واحدا ذا عقود ثلاثة وقباه قبوا محكما ، وطوله من الشمال الى الجنوب عشرون ذراعا تنقص يسيرا ، ومن الشرق الى الغرب سبعة عشر ذراعا ، وأسفل مسجد الفتح من جهة الجنوب

مسجدان آخران يقال للأول منهما : مسجد سلمان وللذى فى جنوبيه مسجد على رضى الله عنهما ، وقد جدّد المسجدين الأمير سيف الدين السالف ذكره فى سنة ٥٧٧ هـ . وجدّد الثانى أمير المدينة زين الدين ضغيم بن حشرم سنة ٨٧٦ هـ . والأوّل طوله من الشرق الى الغرب ١٧ ذراعا فى عرض ١٤ ، وذرع الثانى من الشمال الى الجنوب ١٣ ذراعا فى طول ١٦

(٣) مسجد الاجابة — هـذا المسجد فى شمالى البقيع على يسار السالك الى « العريض » فوق تلال هى آثار قرية بنى معاوية بن مالك بن عوف من الأوس وهو مسجدهم ، وسبب هـذه التسمية ما رواه مسلم فى صحيحه من حديث عامر بن سعد عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبل ذات يوم من العالية حتى اذا مر بمسجد بنى معاوية دخل فركع ركعتين وصلينا معـه ودعا ربه طويلا ثم انصرف الينا فقال : سألت ربى ثلاثا فأعطانى اثنتين ومنعنى واحدة سألته أن لا يهلك أمتى بالسنة — بالجدب — فأعطانى وسألته أن لا يهلك أمتى بالغرق فأعطانيها وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها .

وروى مالك فى موطئه هذه القصة عن عبد الله بن جابر عن عبد الله بن عمر ، وقد ذرع صاحب وفاء الوفاء هـذا المسجد فى القرن التاسع فاذا هو من الشمال الى الجنوب عشرون ذراعا تنقص قليلا ، ومن الشرق الى الغرب ٢٥ ذراعا تنقص يسيرا .

(٤) مسجد الراية — هذا المسجد على يسار الداخل الى المدينة من طريق الشام فوق جبل ذباب ولهذا يسمى مسجد ذباب أيضا ، وقد روى ابن شبة عن عبد الرحمن الأعرج أن النبى صلى الله عليه وسلم صلى على ذباب ، وروى أيضا عن عبد الرحمن بن أبى سعيد الخدرى أن النبى صلى الله عليه وسلم ضرب قبته عليه فى غزوة الخندق ، وسبب تسميته بمسجد الراية مارواه الواقدى أن يزيد بن هرمز كان يقاتل بالموالى على ظهر ذباب وكان رئيسهم يحمل الراية لهم . (أنظر المسجد فى نهاية الرسم ١٤٠ من جهة اليسار فوق القمة) .

(٥) مسجد السقيا — السقيا بئر بحرة المدينة الغربية، وهذا المسجد عندها ومكانه الآن قبة شهيرة تسمى بقبة الروس عند باب العنبرية . روى الترمذى وقال حسن صحيح عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة بدر حتى اذا كنا بحرة السقيا التى كانت لسعد بن أبى وقاص فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ائتونى بوضوء فتوضأ ثم قام فاستقبل القبلة فقال : اللهم إن ابراهيم كان عبدك وخليلك ودعاك لأهل مكة بالبركة وأنا عبدك ورسولك أدعوك لأهل المدينة أن تبارك لهم فى مدّهم وصاعهم مثل ما باركت لأهل مكة مع البركة بركتين . وفى بعض الروايات عند أحمد والطبرانى أنه صلى هنالك فأقيم المسجد حيث صلى وقد ذرع هذا المسجد صاحب وفاء الوفاء فاذا هو سبعة أذرع فى مثلها .

(٦) مسجد الفضيخ — هذا المسجد شرقى مسجد قباء على شفير الوادى فى نشز من الأرض وهو مسجد صغير قال صاحب الوفاء : إنه أحد عشر ذراعا فى مثلها وسبب تسميته بذلك ماروى ابن شبة عن جابر بن عبد الله أن النبى صلى الله عليه وسلم لما حاصر بنى النضير ضرب قبته قريبا من مسجد الفضيخ وصلى فى موضع هذا المسجد ست ليال فلما حرمت الخمر خرج الخبر الى أبى أيوب فى نفر من الأنصار وهم يشربون فيه فضيخا فحلوا وكاء السقاء فهراقوه فيه ، فبذلك سمى مسجد الفضيخ ، والفضيخ عصير العنب وشراب يتخذ من بسر مفضوخ ، ويقال لهذا المسجد : مسجد الشمس وقيل فى تعليل ذلك إنه فى مكان عال شرقى مسجد قباء فأوّل ماتطلع الشمس تطلع عليه .

ولقد ذكرتنى كلمة بسر ببيتين ظريفين رأيتهما فى رحلة العياشى قالهما الشيخ محمد فتح الدين القليوبى وقد أهدى اليه بسر كثير النوى :

أرسلت لى بسرا حقيقته نوى * عار فليس لجسمه جلباب
ولئن تباعدت الجسوم فودنا * باق ونحن على النوى أحباب

(٧) مسجد بنى قريظة — هـذا المسجد شرقى مسجد الفضيخ بعيـد عنـه بالقرب من الحرة الشرقية والظاهر أنه الذى ورد ذكره فى حديث الصحيحين عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: نزل أهل قريظة على حكم سعد بن معاذ فأرسـل رسول الله صلى الله عليه وسلم الى سعد. فأتى على حمار فلما دنا قريبا من المسجد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للأنصار: «قوموا إلى سيدكم أو خيركم ثم قال: إن هؤلاء قد نزلوا على حكمك فقال: نقتل مقاتلتهم وتسبى ذريتهم» الحديث. وقد قاس هذا المسجد صاحب وفاء الوفاء — فى القرن التاسع فاذا هو ١/٢ ٤٤ ذراعا من الشمال الى الجنوب فى عرض ٤٣ وقال إنه يحيط به جدار ارتفاعه نصف القامة وان هذا الجدار جدده الشجاعى شاهين الجمالى شيخ المسجد النبوى سنة ٨٩٣ ﻫ .

(٨) مسجد بنى ظفر — هـذا المسجد يعرف أيضا بمسجد البغلة وهو شرقى البقيع بطرف الحرة الغربيـة . روى الطبرانى بسند رجاله ثقات عن محمد بن فضالة الظفرى وكان ممن صحب النبى صلى الله عليه وسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاهم فى مسجد بنى ظفر فجلس على الصخرة التى فى مسجدهم ومعه عبـد الله ابن مسعود ومعاذ بن جبل وأناس من أصحابه، وأمر النبى صلى الله عليه وسلم قارئا نقرأ حتى أتى على هـذه الآية ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ فبكى رسول الله صلى الله عليـه وسلم حتى اضطرب لحياه فقـال: أى رب شهيد على من أنا بين ظهرانيه فكيف بمن لم أره، وعند هذا المسجد آثار فى الحرة من جهة القبلة يزعمون أن أحدها أثر حافر بغلة النبى صلى الله عليه وسلم، وفى غربى هذا الأثر مرفق غائص فى الحجر زعموا أن النبى صلى الله عليه وسلم اتكأ عليه ووضع مرفقه الشريف عليه فلان له الحجر، وعلى حجر آخر أثر أصابع ينسبوها كذلك للنبى صـلى الله عليـه وسلم ولم يثبت شيء من ذلك وإنما هو محض افتراء زوره المرشـدون للآثار ليستدروا بذلك أموال الدهماء . وقد قاس هـذا المسجد صاحب الوفاء فى القرن التاسع فوجده ٢١ ذراعا فى مثلها، وممن عمر هـذا المسجد المستنصر بالله أبو جعفر المنصور سنة ٦٣٠ ﻫ .

(٩) مسجد أبي بن كعب — ويعرف أيضا بمسجد بنى جديلة ، هذا المسجد غربى مشهد عقيل وأمهات المؤمنين على يمين الخارج من درب البقيع ، روى عمر بن شبة عن يحيى بن سعيد أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يختلف الى مسجد أبىّ وأنه صلى فيه كثيرا ، وقد كان هذا المسجد متخربا ، وكانت توضع فيه آلات الحفارين فجدّدته الدولة العلية مع محرابه وأحكمت بناءه .

(١٠) مسجد المائدة — هذا المسجد شرقى المدينة وقد زرته مع جمع فوصلنا اليه من المدينة فى ثلث ساعة ، ورأيت هنالك دائرة فيها نقر تمثل أوانى الأكل — أطباقا — يقولون أنها أثر المائدة التى نزلت على عيسى عليه السلام والتى ورد ذكرها فى القرآن فى قوله تعالى ﴿ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ﴾ وإن ما قالوا زور وبهتان فإنه لم يثبت ذلك فى أثر ولا عرف أن عيسى عليه السلام أتى يثرب ولم يكن قومه الذين طلبوا منه إنزال المائدة يسكنونها إنما كانوا فى بلاد الشام ، وهكذا يضحك المغرضون على ضعاف العقول فيخترعون وينسبون وأولئك يصدقون ، وفى المدينة مساجد أخرى غير ما ذكرنا منها مسجد عروة الذى تراه فى (الرسم ١٦٣) وقد أخذ صورته خليل افندى القازانى ، ومسجد الجمعة الذى صلى فى مكانه الرسول صلى الله عليه وسلم أوّل جمعة بالمدينة بعد أن أدركته فى بنى سالم ابن عوف أثناء تحوله من قباء الى المدينة ، وهو فى وادى ذى صلب بمكان يقال له الغبيب ، وترى هذا المسجد فى ميمنة (الرسم ١٦٤) .

مصلى العيد — هو المعروف الآن بمسجد الغمامة — وحقيقة مسجد الغمامة ببدر — أوّل عيد صلاه الرسول صلى الله عليه وسلم سنة ثنتين من الهجرة ، وكان يصلى فى الفضاء وكانت تحمل اليه العنزة فيصلى اليها ، والعنزة رميح بين العصا والرمح فيه زُجّ — الحديدة فى أسفل الرمح — وكانت للزبير بن العوام أعطاه إياها النجاشى فوهبها للنبى صلى الله عليه وسلم ، فكان يخرج بها بين يديه يوم العيد ، وقد صلى العيد

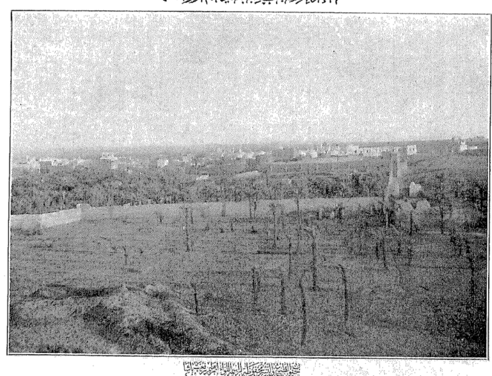
مسجد عروه بالمدينة المنورة



163. The Mosque of Orwa at Medina.

صحيفة ٤٢٠

منظر خارج باب قبا بالمدينة المنورة سنة ١٣٢٦



164. A view in the out of Bab Koba in Medina in 1326.

فى أماكن مختلفة ولكنه فى سنيه الأخيرة داوم على صلاة العيد بمصلاه المعروف الآن بالمناخة غربى المدينة ، وهو فى موضع الرقم ١٤ من خريتة المدينة ، وقد جاء فى الجزء الأوّل من زاد المعاذ فى صفحة ١٢٠ أنه صلى الله عليه وسلم كان يصلى العيدين فى المصلى الذى على باب المدينة الشرقى وهو المصلى الذى يوضع فيه محمل الحاج ، وأظن أن كلمة الشرقى سهو لأن ما بعدها يدل على أنه الغربى لأن المناخة فى الجهة الغربية ، وهذا المصلى بينه وبين مسجد الرسول ١٠٠٠ ذراع أى قريب من نصف كيلو متر ، ولم يكن به بناء فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وإنما كان فضاء وقد ثبت النهى عن تضييقه والبناء فيه ، فعن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج الى المصلى يستسق فبدأ بالخطبة ثم صلى وكبر واحدة افتتح بها الصلاة وقال : « هذا مجمعنا ومستمطرنا ومدعانا لعيدنا ولفطرنا وأضحانا فلا يبنى فيه لبنة على لبنة ولا جهة » وفى بعض الروايات : هذا مستمطرنا ومصلانا لأضحانا وفطرنا لا يضيق ولا ينتقص منه شىء ، وكان صلى الله عليه وسلم بعد أن ينصرف من صلاته يقوم مستقبل الناس فيخطبهم ولم يكن له منبر يقوم عليه كما دل على ذلك حديث أبى سعيد الخدرى فى البخارى ، قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم يخرج يوم الفطر والأضحى الى المصلى فأوّل شىء يبدأ به الصلاة ثم ينصرف فيقوم مقابل الناس والناس جلوس على صفوفهم فيعظهم ويوصيهم ويأمرهم فان كان يريد أن يقطع بعثا قطعه أو يأمر بشىء أمر به ثم ينصرف ، فقال أبو سعيد : فلم يزل الناس على ذلك حتى خرجت مع مروان وهو أمير المدينة فى أضحى أو فطر فلما أتينا المصلى اذا منبر بناه كثير بن الصلت واذا مروان يريد أن يرتقيه قبل أن يصلى فجبذته بثوبى فجبذنى فارتفع فخطب قبل الصلاة فقلت له : غيرتم والله فقال : أبا سعيد قد ذهب ما تعلم ، فقلت : والله ما أعلم خير مما لا أعلم فقال : إن الناس لم يكونوا يجلسون لنا بعد الصلاة فجعلتها قبل الصلاة . ذكر ذلك البخارى فى باب الخروج الى المصلى بغير منبر ، وكان صلى الله عليه وسلم يذهب الى المصلى من الطريق العظمى ويرجع من طريق آخر ليسلم على أهل الطريقين ويقضى حاجة من له

حاجة منها ويشهد البقاع ويظهر شعائر الاسلام ، والطريق العظمى هى المعروفة بدرب السويقة والطريق الأخرى غربى طريق بنى زريق وهى ضعف تلك فى المسافة وسور المدينة الآن يمنع سلوكها .

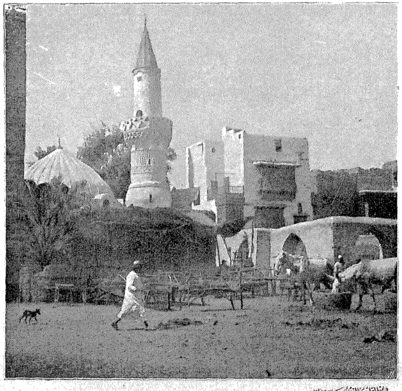
وقد أقيم فى بعض المصلى بناء بمسجد المصلى أو مسجد الغمامة ، وفى شماليه مسجد يعرف بمسجد أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه (الرسم ١٦٥) وفى شمالى المسجد الأخير مسجد يعرف بمسجد علىّ رضى الله عنه (الرسم ١٦٦) عمره أمير المدينة زين الدين ضغيم المنصورى سنة ٨٨١ هـ . ومكتوب على هذا المسجد :

لله مسجد للامام على * أضحى بأحكامه زاهى البنا على
تود أن لو غدت هبا ساحته * زهر النجوم وفرق الفضل فيه جلى
دامت صلاة فيه وافية * تنمو لموقف جرى فى سابق الأزل
خيرات سلطاننا عبد المجيد نمت * طول الزمان بوصل غير منفصل
جلت دعائمه اذ كان راسمه * مدير حكم لطيف الاسم والعمل
فيا له مسجد دار البهاء به * يفوق شمس الضحى فى دارة الحمل
أرختــه سار طول الدهر ناشيه * مليكنا الماجد السامى على الدول

ومسجد المصلى عمّره بعد خرابه السلطان حسن بن السلطان محمد بن قلاوون ولاندرى تاريخ العمارة وانما تولى السلطان حسن من سنة ٧٤٨ هـ الى سنة ٧٦٢ هـ . ورممه الأمير برد بك المعمار سنة ٨٦١ هـ . فى دولة الأشرف إينال وأحدث سقفا خارج المسجد يجلس عليه المبلغون ومدرجا خارجه على ميمنة الداخل من بابه يقوم عليه الخطيب أما المسجد الآن فانه ذو قباب ثمانية ومبنى بناء متقنا بالآجر الأسود . أنظر (الرسم ١٦٧) والذى بجواره مسجد عثمان والمنزل ذو الرواشن الذى باليمين لأمين افندى برى شيخ الفراشين بالحجرة النبوية ولأخيه الشيخ حسين .

مكتبات المدينة (كتبخاناتها) ـــ فى المدينة كثير من الكتب القيمة النادرة المثال وهى مبعثرة فى مدارس متعددة ومكاتب مختلفة ، وبين هذه الكتب

مسجد سيدنا ابو بكر بالمدينة فى محرم ١٣٢٦

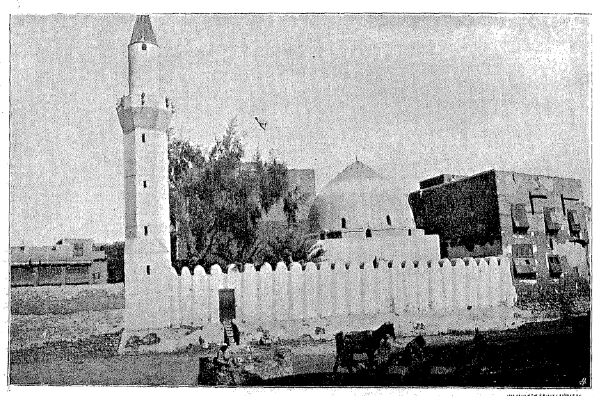


رسم محمد على سعودى افندى

165. A view of Abo Bakr Mosque at Medina in Moharam 1326.

صحيفة ٤٢٢

مسجد سيدنا على فى محرم سنة ١٣٢٦



رسم محمد على سعودى افندى

166. The Mosque of Aly at Medina. 1326 A.H.

صحيفة ٤٢٢

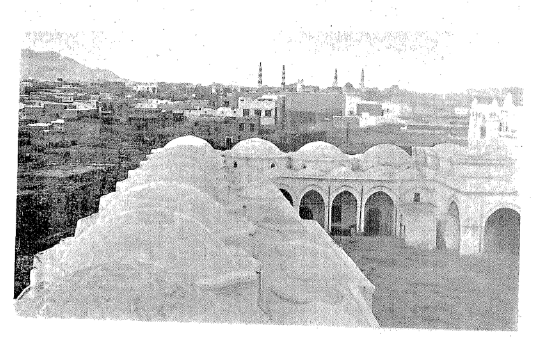
مسجد الغمامة بالمدينة المنورة



167. El Ghemama Mosque at Medina

صحيفة ٤٢٤

منظر المدينة من فوق تكية محمد على باشا



168. Medina as seen from the roof of the Charity house of Mohamed Aly Pasha.

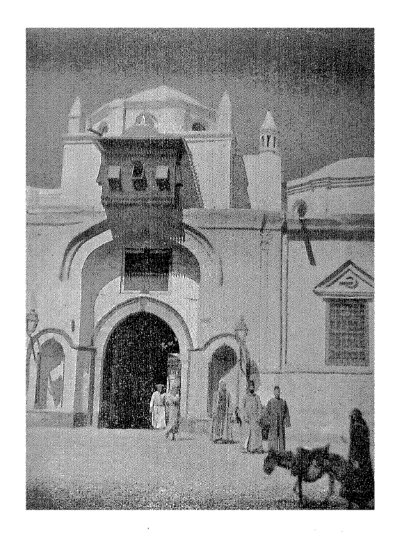
مصاحف مكتوبة بالخط البديع الذى يسحر الطرف جماله ويأخذ بالنفس حسن روائه، وها نحن أولاء نذكر لك تلك الأماكن وتعداد مافيها من الكتب والمصاحف.

عدد	
١٠٨١	مصحف بالروضة التى بين منبر الرسول وقبره صلى الله عليه وسلم.
٤٥٩٦	« وكتاب بمكتبة مدرسة السلطان محمود بباب السلام بالمسجد النبوى
١٦٦٩	الكتب التى بمكتبة مدرسة السلطان عبد الحميد الأول.
٢٠٦٣	« « « « بشير أغا بجوار باب السلام.
١٢٤٦	« « « « الشفاء التى أنشأها شيخ الاسلام فيض الله.
٥٤٠٤	« « « « عارف حكمت شيخ الاسلام وهى قريبة من باب جبريل بالمسجد النبوى وهى أحسن المكاتب وأنظفها وأجملها ترتيبا.
١٢٦٩	الكتب التى بمكتبة مدرسة عمر افندى.
٥٩٣	« « « « مصطفى افندى الساقزى.
١٥٨	« « « « أمين باشا شيخ المسجد النبوى سابقا.
٤٦١	« « « « مصطفى افندى التى تسمى مدرسته بالاحسانية
١٢٩	« « « « الشيخ عبد الغفور البخارى أحد المجاورين.
١١٠٠	« « « "تكية" الشيخ مظهر افندى.
١٠٠	« « « مدرسة حسين أغا ناظر "التكية" المصرية سابقا.
١٠٠	« « « « أمين افندى الفنايرجى.
٢٠٦	« « « محمد افندى ثروت.
١٠٥٠	« « « أحمد افندى البساطى أحد أئمة وخطباء المسجد النبوى.
١٥٧	« « « مدرسة الكيلى الناظر أحد المجاورين..
٥٠٠	« « « سليم بك رئيس التشريفة للحضرة السلطانية.
٢١٨٥٥	جملة ما بهذه المكاتب

تكايا المدينة — بالمدينة ثمان تكايا أشهرها التكية المصرية بالمناخة على يسار الداخل من باب العنبرية ، وطولها ٨٩ مترا فى عرض ٥٠ وهى مبنية بناء متقنا وشكلها بديع كما ترى ذلك فى (الرسم ١٦٩) والذى بناها إبراهيم باشا فى عهد أبيه محمد على باشا جدّ الأسرة العلوية وجعل سقفها قبابا حتى لا يعبث بها الحريق أنظر (الرسم ١٦٨) الذى أخذته للدينة من فوق سطح التكية والذى ترى فيه أربع مآذن من مآذن المسجد النبوى . وفى التكية مخازن وأفران ومطبخ ويأتى لها القمح والأرز وما يلزم لها من ديوان الأوقاف بمصر ، وكذلك ما لناظرها وموظفيها من المرتبات وهم معينون من قبل الحكومة المصرية ، ويرد اليها الفقراء يوميا ليأخذوا الخبز والشربة ، وهاك ما ينفق يوميا لثمانمائة فقير فى أيام الزيادة وفى أيام العادة سنة ١٣٢١ هـ . وأيام الزيادة هى أيام رمضان وأيام الخميس من النصف الثانى من شوّال ومن النصف الأوّل من ذى القعدة وكذلك أيام الخميس من شهر المحرم وشهر رجب .

أيام الزيادة			أيام العادة		
مقدار المنفق	الصنف	ما يخص الفرد	مقدار المنفق	الصنف	ما يخص الفرد
أقة		درهم	أقة		درهم
٨	سمن	٤	٣	سمن	١٫٥
١٠٠	أرز مصرى	٥٠	٤٠	أرز مصرى	٢٠
٩٦	دقيق	٤٨	٩٦	دقيق	٤٨
٤٠	لحم	٢٠	—	—	—
٩٢	حطب	٤٦	٩٢	حطب	—
٣٣٦	—	١٦٦	٢٣١	—	—

واجهة تكية محمد علي باشا بالمدينة المنورة



169. A view of the front part of the Alms-House of Mohamed Aly Pasha in Medina

وناظر التكية رجل تركى يسمى نجيب بك يقوم بواجب عمله خير قيام بل شاهدت جملة إصلاحات بالتكية أقامها من مرتبه الخاص ولا عجب فانه تقى كريم يحبه أهل المدينة وحكامها حبا جما، وكذلك موظفو التكية أخلاقهم حسنة يعاملون الفقراء باللين والرفق .

مقابر المدينة — تكلمنا على أحد ومقابر الشهداء به و بقى الكلام على مقبرة البقيع التى هى مدفن أهل المدينة الى يومنا هذا .

البقيع محل مستطيل شرقى المدينة خارج عن سورها طوله ١٥٠ مترا فى عرض ١٠٠ ويقال له بقيع الغرقد لأن هذا النوع من الشجر كان كثيرا فيه ولكنه قطع ، والبقيع فى أصل اللغة : الموضع الذى به أروم الشجر من ضروب شتى ، والغرقد كبار العوسج ، و بقيع الغرقد هذا هو الذى ورد ذكره فى مرثية عمرو ابن النعمان البياضى لقومه ، وقد دخلوا فى بعض حروبهم حديقة من حدائقهم وأغلقوا بابها عليهم ثم اقتتلوا فلم يفتح الباب إلا بعد أن قتل بعضهم بعضا فقال فى ذلك :

خلت الديار فسدت غير مسود * ومن العناء تفردى بالسؤدد
أين الذين عهدتهم فى غبطة * بين العقيق الى بقيع الغرقد
كانت لهم أنهاب كل قبيلة * وسلاح كل مدرب مستنجد
نفسى الفداء لفتية من عامر * شربوا المنية فى مقام أنكد
قوم هموا سفكوا دماء سراتهم * بعض ببعض فعل من لم يرشد
يا للرجال لفتية من دهرهم * تركت منازلهم كأن لم تعهد

وهذا المكان به مقابر كثير من الصحابة والتابعين وكبار المسلمين وقد دفن به من الصحابة نحو عشرة آلاف وتفرق باقيهم فى البلدان ، ونظرا الى أن السلف الصالح كان يجتنب البناء على القبور وتجصيصها وقد أفضى ذلك الى انطماس معالم كثير

من قبورهم ، فلذلك لا تعرف قبور كثير منهم الا أفرادا معـدودة أقيمت على قبور بعضهم قباب ، ومن أولئك الأفراد ابراهيم ورقية وفاطمة أولاد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفاطمة بنت أسـد أم علىّ بن أبى طالب رضى الله عنهـما وعبد الرحمن ابن عوف وعبـد الله بن مسعود وسـعد بن أبى وقاص وأسعد بن زرارة وخنيس ابن حذافة السهمى والحسن بن على ، ومعه فى قبره ابن أخيه زين العابدين على بن الحسين وأبو جعفر الباقر محمد بن زين العابدين وجعفر الصادق بن الباقر ، وممن علم قبره بالبقيع العباس بن عبدالمطلب وأخته صفية وابن أخيهما أبو سفيان بن الحارث ابن عبد المطلب وأمير المؤمنين عثمان بن عفان ، وسعد بن معاذ الأشهلى وأبو سعيد الخدرى ، وكل زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم دفن بالمدينة إلا خديجة فبمكة وإلا ميمونة فبسرف رضى الله عن الجميع ، والعباس والحسن بن على ومن ذكرناه معه تجمعهم قبـة واحدة هى أعلى القباب التى هنالك كقبة إبراهيم وقبة عثمان التى بنـاها السلطان محمود سـنة ١٢٣٣ هـ . وقبة الزوجات وقبـة إسماعيل بن جعفر الصادق وقبة الامام أبى عبد الله مالك بن أنس الأصبحى إمام دار الهجرة ، وقبة نافع شيخ القراء وهنالك قبة تسمى قبة الحزن يقال إنها فى البيت الذى آوت اليه فاطمة بنت النبى والتزمت الحزن فيه بعد وفاة أبيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان بالبقيع قباب كثيرة هدمها الوهابيون ، وترى فى (الرسم ١٧٠) جملة قباب فالتى على يمين الناظر قبة ابراهيم ، والثانية لعقيل ، والثالثة لزوجات الرسول صلى الله عليه وسلم ، والرابعة لبناته رقية وزينب وأم كلثوم ، والخامسة الكبيرة لآل البيت ، والتى على يمين البرجين لعاتكة وصفية عمتى الرسول صلى الله عليـه وسلم ، وانظر البقيع من الجهة الشرقيـة الجنوبية فى (الرسم ١٧١) .

وقد كان صلى الله عليه وسلم يزور بقيع الغرقد ويدعو لأهله بل أمره ربه بذلك كما يدل عليـه حديث عائشة عنـد مسلم والنسائى فان فيـه أن جبريل قال للنبى

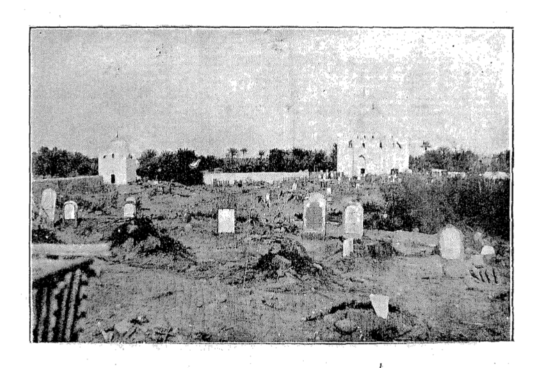
منظر البقيع وبه قبة آل البيت وقبتا سيدنا عثمان بن عفان وسيدنا مالك



170. Baqui'a showing the dome of the Prophet's Family and the two domes of Othman and Malik.

صحيفة ٤٢٦

منظر البقيع من الجهة الشرقية الجنوبية سنة ١٣٢١



171. A south-eastern view of Bakeea El Gharkad at Medina.

صلى الله عليه وسلم : إن ربك يأمرك أن تأتى أهل البقيع فتستغفر لهم . ويزور أهل المدينة البقيع فى كل يوم خميس ويضعون على القبور الريحان وبجانبه بعض الأزهار ولا يدخل شيعى قبة أهل البيت بالبقيع إلا اذا دفع خمسة قروش كما أنه لا يدخل الكعبة إلا من دفع ريالا مالم يكن ذا يسار فيؤخذ منه مبلغ كبير وكذا خصى المسجد النبوى — الأغوات — المنوطون بخدمة الحجرة لا يجيزون لأحد دخولها إلا اذا دفع ريالا فيدخلها قبل الغروب بساعة عند إيقاد الشموع ، ومن الأضرحة التى فى خارج البقيع ضريح لعبد الله بن عبد المطلب والد النبى صلى الله عليه وسلم وهو بداخل المدينة ، وضريح للشيخ على العريضى وهو واقع شرقى المدينة على مسير ساعة منها وضريح للسيدة ملكة بنت السيد أحمد الرفاعى وهو بديار العشرة وبناؤه من آثار السلطان محمود خان وضريح السيد زكى الدين خارج الباب الشامى وضريح أبى شجاع أحد فقهاء الشافعية وضريح نور الدين الشهيد الأصفهانى وهما فى شرق المسجد مما يلى الأحجار المفروشة .

أراضى المدينة وأوديتها وآبارها وزروعها — أرض المدينة قسمان الأول وهو الأكثر مادته رملية بيضاء خالية من الأملاح ملأته أشجار النخيل والكروم وأكثر ذلك شرقى المدينة ، والثانى طينته سوداء يزرع به القمح — بقلة — والشعير والرمان والبرتقال والخوخ والعنب والموز والليم والبطيخ والقاوون والليمون الحلو والملح والأضالى —. نسبة الى أضاليا ببلاد الأناضول — والورد والياسمين والنعناع والفل والكرنب والطماطم والباذنجان الأسود والملوخية والبامية واللوبيا والقرع الكوسى والآستانى — الكبير الحلو— والفجل والخس وجميع أصناف الخضراوات ، وأكثر هذا القسم بقباء والعوالى وقربان جنوبى المدينة وبالعقيق غربيها ، والأرض مقسمة الى بساتين لكل شخص بستان أو أكثر ، ومن أشهر هذه البساتين نزهة للنفس وشرحا للصدر وجلاء للبصر الداودية لمعتوق داود باشا والسبيل ، وبضيعة للسادة الأسعدية

وسواله للشريف شحات وأخيه ناصر، والشدقة معظمها لآل حماد، والحمرة للشريف منصور، والقائم للشريف عون أمير مكة، والقويم لزين العابدين المدنى وبستان بئر النبي صلى الله عليه وسلم وقف الشهيد محمد باشا وكل هذه قبلى المدينة، وبستان أبى السعود المفتى وبستان الأسعدية وبستان محروس وبستان معتق قاشقجى. وبستان الأسعدية. وكل هذه حول مشهد حمزة فى شمال المدينة على العيون التى هنالك وتسقى أراضى المدينة من مياه الآبار التى بعضها حلو وبعضها فيه يسير الملوحة وإخراج الماء من الآبار التى يختلف عمقها بين قامتين واثنتى عشرة قامة بواسطة السوانى (جمع السانية) وتطلق فى اللغة على الدلو وعلى أداته وعلى الناقة التى يستقى عليها، ولكن يطلقها الآن أهل المدينة على الأدوات التى تخرج بها المياه من الآبار وهى بكرتان يمرّ عليهما حبلان ربط كل واحد منهما بطرف من طرفى الغرب أو القربة ويشد الحبلين بهيم واحد الى جهة واحدة وقد يكون على البئر بكرتان وأربع وست الى ١٦ حيث يكون بالبئر ثمان قرب، وقد شرحنا لك فيما سبق طريقة إخراج المياه من الآبار بواسطة السوانى وصورتين لذلك، وأشهر آبار المدينة : (١) بئر أريس، وقد فصلنا الكلام فيها حين وصفنا قباء؛ (٢) بئر الأعواف وهى إحدى صدقات النبي صلى الله عليه وسلم ؛ (٣) بئر انا وهى التى ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم قبته عندها حينما حاصر بنى قريظة وشرب منها، وهذه البئر غير معروفة الآن وربما كانت فى المدينة باسم آخر غير هذا الاسم ؛ (٤) بئر أنس بن مالك بن النضر وتضاف أيضا لأبيه وهى التى ورد ذكرها فى حديث أنس الصحيح قال : أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى دارنا هذه فاستسقى فحلبنا شاة لنا ثم شبته من بئرنا هذه فأعطيته فشرب وعمر بين يديه وأبو بكر عن يساره وأعرابى عن يمينه فأعطى الأعرابى فضله وقال : الأيمن فالأيمن ، وهذه البئر تعرف الآن ببئر الحضارم وهى فى رباط شمالى الحديقة المعروفة بالعينية، وبقرب البئر قبة على قبر يزعمونه قبر عبد الله أبى النبي صلى الله

عليه وسلم؛ (٥) بئر بضاعة فى منتهى عمار المدينة من جهة الشمال وهى التى كان يلقى فيها لحوم الكلاب والمحائض وعذر الناس وسئل صلى الله عليه وسلم عن التوضؤ منها فقال : الماء طهور لا ينجسه شىء — روى ذلك أحمد والنسائى وصححه والترمذى وحسنه والدارقطنى وأبو داود وابن ماجه — وزاد إلا ماغلب على ريحه وطعمه ولونه ، وفى رواية للبيهقى الماء طهور الا إن تغير ريحه أو طعمه أو لونه بنجاسة تحدث فيه ، وفى رواية للنسائى عن أبى سعيد قال : مررت بالنبى صلى الله عليه وسلم وهو يتوضأ من بئر بضاعة فقلت أتتوضأ منها وهى يطرح فيها ما يكره من النتن ؟ فقال : الماء لاينجسه شىء؛ (٦) بئر بيرحاء . هذه البئر شمالى المدينة بعد سورها شرقى بئر بضاعة ولكن يفصل بينهما بئر بصيعة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستعذب ماءها ، وكانت فى بستان لأبى طلحة وقفه على أقاربه و بنى عمه كما دل على ذلك حديث البخارى فى كتاب الأشربة فى (باب استعذاب الماء) روى عن أنس بن مالك أنه قال — كان أبو طلحة أكثر أنصارى بالمدينة مالا من نخل وكان أحب ماله اليه بيرحاء وكانت مستقبلة المسجد — المسجد قبليها — وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب قال أنس : فلما نزلت ﴿لَنْ تَنَالُوا ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ قام أبو طلحة فقال — يارسول الله؟ إن الله يقول — ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ : وأنا أحب مالى الىّ بيرحاء وإنها صدقه لله أرجو برها وذخرها عند الله فضعها يا رسول الله حيث أراك الله فقال رسول الله صلى لله عليه وسلم : بخ ذلك مال رابح أو رايح — شك من الراوى — وقد سمعت ما قلت وإنى أرى أن تجعلها فى الأقربين ، فقال أبو طلحة : أفعل يا رسول الله فقسمها أبو طلحة فى أقاربه وفى بنى عمه؛ (٧) بئر رومة — هذه البئر شمالى المدينة على مسيرة ساعة منها وهى حد العقيق من جهة الشمال ، وقطرها أربعة أمتار وعمقها آثنا عشر مترا أو تزيد وبجوارها حوض وحجرة

للاستراحة ومزارع كثيرة ، وفى شمالى البئر البركة والعيون التى يحف بها النخيل ،
وهذه البئر كانت ليهودى فاشتراها منه عثمان بن عفان بماله وتصدق بها على عهد
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ذكر ابن عبد البر أنها كانت ركية (بئرا) ليهودى يبيع
ماءها للمسلمين ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من يشترى رومة فيجعلها
للمسلمين يضرب بدلوه فى دلائهم وله بها شرب فى الجنة ، فأتى عثمان اليهودى فساومه
بها فأبى أن يبيعها كلها فاشترى عثمان نصفها باثنى عشر ألف درهم فجعله للمسلمين ،
فقال له عثمان : إن شئت جعلت لنصيبى قربين وإن شئت فلى يوم ولك يوم فقال :
بل لك يوم ولى يوم ، فكان إذا كان يوم عثمان استقى المسلمون ما يكفيهم يومين ،
فلما رأى اليهودى ذلك قال أفسدت على ركيتى فاشتر النصف الآخر فاشتراه بثمانية
آلاف درهم ، وهذه البئر فى أسفل وادى العقيق قريبة من مجتمع الأسيال فى براح
واسع من الأرض ؛ (٨) بئر غرس وهى بئر بقباء فى شرقى مسجدها على نصف ميل
من جهة الشمال ، روى ابن حيان فى كتاب الثقات عن أنس رضى الله عنه أنه قال :
ائتونى بماء من بئر غرس فإنى رأيت رسول الله صلى عليه وسلم يشرب منها ويتوضأ ،
وفى المدينة آبار أخرى مثل بئر القويم وهى من أكبر آبار المدينة وبئر العباسية وبئر
الصفية وبئر البويرة وبئر فاطمة ، وكل هذه الآبار جنوبى المدينة وبئر عروة بوادى
العقيق ، وكان أهل المدينة فيما سلف يهدون من مياه البئر الأخيرة لأمراء الشام .

هذه هى الآبار التى عليها معول أهل المدينة فى سقى أراضيهم ومواشيهم أما مياه
الشرب لأنفسهم فيأخذونها من عين الأزرق أو العين الزرقاء على ما هو المشهور
فى عرفهم ، وهذه العين منشؤها بئر بقباء غربى مسجدها وتعرف بالجعفرية ،
اجراها الى المدينة مروان بن الحكم عامل معاوية على المدينة بأمر منه فسار بها
حتى مصلى الأعياد ، وقد أقيم عليها بعد قبة هنالك مفتوحة من جانبيها الشمالى
والجنوبى حيث فى كل جانب منهما مدرج فى الأرض ينزل منه الناس لأخذ المياه

من العين أما العين نفسها فتخرج من شرقي القبة ثم تتجه نحو الشمال، وقد جدد هذه القبة إبراهيم باشا الذى أرسله أبوه لتجديد ما خرّبه الوهابيون وفى حدود الستين وخمس المائة أخذ منها الأمير سيف الدين الحسين بن أبى الهيجاء شعبة من عند مخرجها من القبة فساقها الى باب المدينة المعروف الآن بالباب المصرى ثم أوصلها الى الرحبة التى عند مسجد النبى صلى الله عليه وسلم من جهة باب السلام وبنى لها هنالك منهلا بدرج تحت الدور يستقى منه أهل المدينة، وأخذ أمير من أمراء الشام يسمى أبا شامة من هذا المنهل شعبة صغيرة أدخلها الى صحن المسجد النبوى وجعل لها به منهلا بدرج عليه عقد، وفى هذا المنهل فوارة ماء يتوضأ منها من يريد الوضوء ولكنها بللت الأرض، وكان يستنجى منها بعض الجهلة ويكشف عورته فسدت ولكنها أعيدت الآن (١٣١٨هـ) كما كانت، وقد جعل ابن أبى الهيجاء مصرفا للعين الزرقاء يبتدئ من المنهل الذى دون باب السلام ويسير فى مكان يعرف الآن بسوق الخرازين ثم فى مكان آخر يعرف بالساحة ثم يخرج الى ظاهر المدينة الشمالى من شرقى القلعة التى بالباب الشامى، وقد أنشئ لها فى المدينة مناهل أخر، منها منهلان بالساحة عند القلعة يواجهان بابها، ومنهلان داخلها، ومنهل بحارة «الأغوات» شرقى المسجد النبوى فى مكان يقال له : الحرة وكل المساقى (السبل) الموقوفة بالمدينة تستمد مياهها من هذه العين وكذلك حمام الصدر الأعظم محمد باشا الشهيد بحارة دروان، وحمام أحمد أفندى الترجمان مدير الحرم — بالمناخة — وتسقى منها بساتين عدّة فى داخل المدينة، منها بستان العينية وقف الامام العينى شارح صحيح البخارى وهو فى شارع باب السلام، وبستان آل برى زاده بالمناخة تجاه مصلى الاعياد أو مسجد الغمامة وبستان عبد العال فى التاجورية بالمناخة وبستان السادة الأسعدية داخل الباب الشامى وبستان داود باشا، ولكنه خارج الباب الشامى، وداود هذا هو الذى كان واليا على بغداد وخرج على الدولة وضرب

سكة كتب عليها ﴿ياداودُ إنا جعلناكَ خليفةً فى ٱلأَرْضِ﴾ ثم عفت عنه الدولة وعينته شيخا للمسجد النبوى أو الحرم فى عرف أهل المدينة، وفى بستانه لوح رخام سطرت فيه أبيات شعرية آخرها (تاريخه غرسه ١٢٦٥ هـ) . أنظر البستان وسوره بجوار معسكر المحمل سنة ١٣٢٦ هـ . فى (الرسم ١٧٢) الذى ترى فى وسط أعلاه مسجد العريضى وقبته .

ومن هـذه العين تملأ الدوارق التى بالمسجد والتى لا تحصى كثرة ويشرب منها الناس ويطوف ببعضها طائفون . أنظر الدورق فى (الرسم ٣٣٠) .

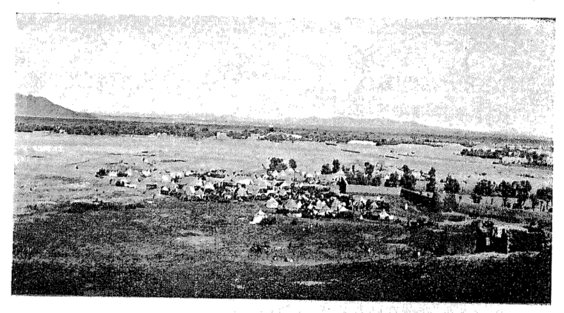
وبعـد أن تخرج العين الى ظاهر المدينة الشمالى تسـير مبحرة فاذا ما كانت بين مسجد السبق وقبر ذى النفس الزكية ابن جعفر الصادق كان لهـا منهل هنالك ومنهـل آخر شرقى المسجد المذكور على يمين السائر نحو ثَنِيَّـة الوداع التى تسير العين اليها ثم تجاوزها مارة شمالى جبـل سَلْع على مقربة من مسجد الراية ، ولهـا هنالك منهل قريب من ظهر الأرض له باب ودرج ثلاث ثم تمر غربى الجبلين اللذين فى شرقهما مساجد الفتح (مسجد الفتح ومسجد على ومسجد سلمان) ثم تسير حتى تصل الى مجمع مائها المسمى « بالبركة » حيث الغابة ذات الأشجار الكثيفة والبساتين النضرة والمزارع الطيبة ، وهذه العين تبـدأ بعيدة المجرى عن ظهر الأرض وكلمـا سارت نحو الشمال اقتربت من ظاهرها حتى تكون على سطح الأرض

(الرسم ٣٣٠ دورق فخار) [1]

عند اقترابها من الغابة التى شرقى مسجد رومة ، والمناهل التى قدمنا ذكرها تسمى بالعيون ، وعين الأزرق أو العين الزرقاء كما يسميها أهـل المدينـة كانت ولا تزال موضع عناية الملوك والأمراء والكبار ، وقد وصـل بمجراها فى أزمنة مختلفة ثلاث آبار بئر تنسب للنبى صلى الله عليه وسلم بقباء وبئر الرباط وبئر

(١) عن مرآة مكة لأيوب صبرى باشا أمير اللواء البحرى العثمانى .

معسكر المحمل بالمدينة المنورة سنة ١٣٢٦ بالداودية



172. A view of the camp of El Mahmal in El Dawadieh in Medina in 1326.

صحيفة ٤٣٩

اجتماع من أهل المدينة المنورة



173. A photo of the people of Medina gathering.

عَذْق ، ولما تخربت فى أوائل حكم العثمانيين بقيت مدّة مهملة حتى لحق المدنيين من قلة الماء جهد شديد ، وقد عمرها السلطان سليمان سنة ٩٢٣ هـ . ثم خربها السيل فعمرها السلطان مراد الثالث سنة ٩٩٩ هـ . وضم الى منابعها بئر الغربال التى اشتراها سنة ٩٩٠ هـ . فزادت مياهها أضعاف ما كانت عليه ،وفى سنة ١١١١ هـ . اشترى السلطان مصطفى بئر العقد وأضافها الى منابعها أيضا ، وفى سنة ١٢١٢ هـ . بنى مجراها السلطان سليم الثالث ولكن ماتمّ أن خربه الوهابيون لما حاصروا المدينة سنة ١٢٢٤ هـ . فأصلحه محمد على باشا ثم جدد البناء السلطان عبد الحميد بعد سنة ١٣٠٠ هـ . واشترى بئر بويرة وأضافها الى منابعها فصار لها منابع متعددة تتصل بمجراها الأصلى بواسطة قنوات فى جوف الأرض وأصبح المجرى كنهر تتدفق فيه المياه فيشرب الناس والأنعام وتسقى الرياض والمزارع .

والمياه يوزعها السقاءون على مساكن المدينة فى قرب يملؤونها من الحنفيات المتينة بجدر الخزانات أو المناهل التى ينزل اليها على درج واسع من الحجر يبلغ نحو الثلاثين لكل منهل .

ولعين الأزرق أوقاف ينفق منها على عمارتها والقائمين بخدمتها ولها أمير يرأس خدمها ويلاحظ شؤونها فيخرج كل سنة ما قد يتجمع فى المجرى من طين وحشائش وغيرها .

وسميت هذه العين بالزرقاء أو بعين الأزرق لأن مروان الذى أجراها بأمر معاوية كان يلقب بالأزرق لزرقة فى عينه .

لئن قيل فى زرق العيون شآمة * فعندىَ أن اليمن فى عينها الزرقا

وفى ضواحى المدينة عدا العين الزرقاء عيون وادى حمزة التى تبلغ أربعين عينا أو تزيد، وحقيقة هذه العيون آبار فتح بعضها الى بعض فتكوّنت منها مجارى ضيقة تارة تكون نصف متر فى مثله وتارة تكون أقل من ذلك أو أكثر، فسموا تلك المجارى عيونا ، ومنشؤها شرقى المدينة حيث الأرض عالية وتسير مغربة نحو حمزة ثم الى غربى المدينة حيث الأرض هنالك واطئة، وكذلك من عيون المدينة

عين السلطان وتجرى بحذاء عين الأزرق فى مجرى دون مجراها وماءها ملح، والغرض منها تطهير مجارى المدينة وسحب القاذورات الى خارج البلد .

وحول المدينة أودية كثيرة كوادى العقيق ووادى بطحان غربى المدينة ، وفى جزء منه بعض مبانيها ، ووادى رانون يأتى من جبل عير قبلى المدينة ويمر بقباء ويختلط بوادى بطحان غربى المدينة ، ووادى مذينيب وهو شعبة من بطحان ، ووادى قناة فى شرق المدينة الشمالى ، وقد فاض هذا الوادى فى سنة ٧٣٤ هـ . فأغرق الجهة الشمالية من المدينة وصعب على الناس أن يصلوا الى مشهد حمزة أربعة أشهر ، ومن وديانها وادى مهزور ويأتى من الحرّة الشرقية وقد سال هذا الوادى فى عهد عثمان سيلانا عظيما خيف على المدينة منه الغرق ، فعمل عثمان الردم الذى عند بئر مدْرَى ليرد به السيل عن المسجد النبوى والمدينة وتحول الى وادى بطحان ، وكذلك سال فى خلافة المنصور سنة بضع وخمسين ومائة حتى بلغ أنصاف النخيل فى بعض الجهات وهدم بيوت بطحان وبنى جشم ، وقد وفق أهل المدينة الى ثقب كبير كشفوا عنه فغاضت فيه المياه وقد دلهم على ذلك رجل عجوز من أهل العالية ، وأشهر هذه الأودية ، أولها فإن به المزارع الفسيحة والرياض الأنيقة والحدائق الشهيرة ، التى من أشهرها حديقة عبد القادر الرشيدى وحديقة السيد عبد المحسن أسعد وحديقة السيد عبد الله أسعد ، وفى هذا الوادى مسجد عروة (الرسم ١٦٣) وبئر عروة التى هى من أطيب آبار المدينة ماء وكان يهدى ماؤها فيما سلف لأمراء الشام والعراق وهى داخل حديقة الرشيدى ، وفيه مسجد للسيد عبد المحسن أسعد طوله ٣٠ مترا فى عرض نصفها وقد بناه فى سنة ١٣١٠ هـ . وبجواره قلعة سلطانية وإن شئت فقل هذا الوادى أطيب جهات المدينة ماء وهواء ، وحسبك فى ذلك حديث البخارى الذى رواه عبد الله بن عمر ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول بوادى العقيق أتانى الليلة آت من ربى فقال : صل فى هذا الوادى المبارك وقل عمرة فى حجة ، وعن عامر بن سعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ركب الى العقيق ثم رجع فقال يا عائشة جئنا من

العقيق فما ألين موطئه وأعذب ماءه قالت فقلت يارسول الله أفلا ننتقل اليه؟ قال :
وكيف وقد ابتنى الناس ؟ ولطيب هذا الوادى آستقطعه بلال بن الحارث من النبى
صلى الله عليه وسلم فأقطعه له كله، ولما كان زمن عمر أخذ منه العقيق الأدنى من
المدينة وترك له الأقصى الذى به ذو الحليفة، قال عبد الله بن أبى بكر لما ولى عمر
قال يا بلال : إنك استقطعت رسول الله صلى الله عليه وسلم أرضا طويلة عريضة
فأقطعها لك و إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يمنع شيئا سئله و إنك لا تطيق
ما فى يدك فقال : أجل قال : فانظر ماقويت عليه منها فأمسكه وما لم تطق فادفعه
إلينا نقسمه ، فأبى فقال عمر : والله لتفعلن فأخذ منه ماعجز عن عمارته فقسمه بين
المسلمين ، وهذا الوادى يطوف بالمدينة من جهة الجنوب والغرب والشمال ولكنه
بعيد عنها فهو من جهة الجنوب بعد قُباء شمالى وادى النقيع الذى حماه رسول الله
صلى عليه وسلم لخيل الجهاد، وكانت فيه الدوحات العظيمة والغابات الكثيفة التى
يستتر فيها الراكب، ومبدؤه من جهة الغرب على ميلين من المدينة عند المدرج
الحجرى القريب من بئر عروة ويصل اليه الآتى من المدينة فى ٤٥ دقيقة ويمتد
غربا الى ما بعد ذى الحليفة عند آبار على، على مسير ساعتين وثلثى ساعة، أما من
الشمال فينتهى عند بئر رومة على مسير ساعة من المدينة، والقسم المقارب للمدينة
من العقيق الغربى يسمى العقيق الكبير أو الأكبر وفيه بئر عروة، والأقصى الذى
فيه ذو الحليفة يطلق عليه العقيق فحسب وهو الذى أبقاه عمر بيد بلال بن الحارث،
والقسم الشمالى يسمى العقيق الصغير أو الأصغر ولديه بئر رومة ، وكل مسيل ماء
شقه السيل فى الأرض فأنهره ووسعه عقيق ، وبالعقيق عرصتان وجماوات
ثلاث، والعرصة فى الأصل الفضاء المتسع ليس فيه بناء، والجماء الهضبة سميت
بذلك لأنها دون الجبل فهى أشبه بالشاة الجماء التى لا قرن لها : وإحدى العرصتين
تلى بئر رومة وهى الكبرى منهما وتسمى عرصة البقل، والأخرى بينها وبين العقيق
الكبير وتسمى عرصة الماء، والعرصتان من أفضل بقاع المدينة وأكرم أصقاعها،
وكان بنو أمية يمنعون البناء فيهما ضنابهما ، ولم يكن لأمير المدينة أن يقطع بهما

قطيعة إلا بأمر الخليفة . كتب سعيد بن العاص الى عبد الأعلى بن عبد الله ومحمد بن صفوان الجمحى وهما ببغداد يذكرهما طيب العقيق والعرصتين فى أيام الربيع فقال :

إلا قـل لعبـد الله اما لقيتـه * وقل لابن صفوان على القرب والبعد
ألم تعلما أن المصلى مكانه * وأن العقيق ذو الأراك وذو المُرْد (١)
وان رياض العرصتين تزينت * بنُوّارها المصفر والأشكل الفرد (٢)
وان بها لو تعلمان أصائلا * وليـلا رقيقا مثـل حاشية البُرْد
فهـل منكما مستأنس فمسـلم * على وطن أو زائر لذى الود

فأجابه عبد الأعلى :

أتانى كتاب من سـعيد فشاقنى * وزاد غرام القلب جُهْدا على جُهْد
وأذرى دموع العين حتى كأنها * بها رمد عنـه المراود لا تُجدى
فان رياض العرصتين تزينت * وأن المصلى والبلاط على العهد
وأن غدير اللابتين ونبته * له أَرَج كالمسك أو عنبر الهند
فكدت بما أضمرت من لاعج الهوى * ووجد بما قد قال أقضى من الوجد
لعل الذى كان التفرق أَمْرَه * يمن علينا بالدنو من البعد
فـما العيش إلا قربكم وحديثكم * اذا كان تقوى الله منا على عمد

ولله ماقاله بعض المدنيين :

و بالعرصة البيضاء اذ زرت أهلها * مَهًا مهملات ما عليهن سائس
خرجن لحب اللهو من غير ريبة * عفائف باغى اللهو منهن آيس
يردن اذا ما الشمس لم يخش حرها * خلال بساتين خلاهن يابس
اذا الحرّ آذاهن لذن بحجرة * كما لاذ بالظل الظّباء الكوانس

فأما الجماوات الثلاث فالأولى منها جماء تُضارع وتنتهى الى بئر عروة وما والاه وفيها يقول أُحَيْحَة بن الجَلَّاح :

(١) المرد : الغض من ثمر الأراك أو نضيجه . (٢) الأشكل : ذو الألوان المختلفة والفرد الذى لا نظير له .

إنى والمشعر الحرام وما * حجت قريش له وما نحروا
لا آخذ الخطة الدنية ما * دام يرى من تضارع حجر

والثانية منها جماء أم خالد وهى فى شمال الأولى، والثالثة جماء العاقر فى شمال الثانية، وفى إحدى هذه الجماوات يقول أبو قطيفة :

القصر فالنخل فالجماء بينهما * أشهى الى القلب من أبواب جيرون (١)
الى البلاط فما حازت قرائنه * دور نزحن عن الفحشاء والهون
قد يكتم الناس أسرارا وأعلمها * وليس يدرون طول الدهر مكنونى

وقد كان بالعقيق فى صدر الاسلام القصور الفاخرة والجنات الناضرة والثمار اليانعة التى تحدثك عنها الأشعار السائرة ، ومن تلك القصور قصر عُرْوة بن الزبير. وبجانبه بئره ويقول فيهما عامر بن صالح :

حبذا القصر ذو الظلال وذو البئـ * ـر ببطن العقيق ذات السقاة
ماء مزن لم يبغ عروة فيها * غير تقوى الإله فى المقطعات
بمكان من العقيق أنيس * بارد الظل طيب الغدوات

ويقول فى البئر السَّرِى بن عبد الرحمن الأنصارى :

كفنونى إن مت فى درع أروى (٢) * واستقوا لى من بئر عروة مائى
سخنة فى الشتاء باردة فى الصـ * ـيف سراج فى الليلة الظلماء

ومنها قصر عاصم بن عمرو، وقصر المغيرة بن أبى العاصى وقصر عنبسة بن عمرو. وقد نزل به جعفر بن سليمان لما كان واليا على المدينة وابتنى اليه أرباضا أسكنها حشمه ثم تحوّل منه الى العرصة فابتنى بها وسكنها حتى عزل وفى ذلك يقول ابن المزكى :

أوحشت الجماء من جعفر * وطالما كانت به تعمر
كم صارخ يدعو وذى كربة * ياجعفر الخيرات ياجعفر
أنت الذى أحييت بذل الندى * وكان قد مات فلا يذكر

(١) دمشق . (٢) أروى بنت أويس .

ومنها قصر المستقر لأبى بكر بن عبد الله بن مصعب وقصر عبد الله بن أبى بكر ابن عمرو وقصر إبراهيم بن هشام وقصر آل طلحة وقصر خارجة وقصر عبد الله بن عامر وقصر مروان بن الحكم وقصر سعيد بن العاص الجواد الشهير .

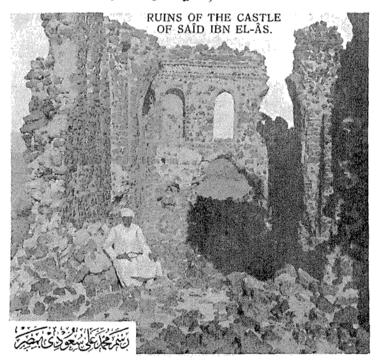
وبالجملة فقد كان العقيق صروحا شماء ورياضا فيحاء ومروجا خضراء ولا تزال معالم تلك القصور قائمة تنبئك عن مدنية واسعة ومجد تليد وعز منيع ، ولله عبدالسلام ابن يوسف إذ يقول شوقا الى العقيق وساكنيه :

على ساكنى بطن العقيق سلام * وإن أسهرونى بالفراق وناموا
حظرتم على النوم وهو محرم * وحللتم التعذيب وهو حرام
اذا بنتموا عن حاجرى[1] وحجرتم * على السمع أن يدنو إليه كلام
فلا ميلت ريح الصَّبا فرع بانة * ولا سجعت فوق الغصون حمام
ولا قهقهت فيه الرعود ولا بكى * على حافتيه بالعشى غمام
فمالى وما للربع قد بان أهله * وقد قُوِّضت من ساكنيه خيام
ألاليت شعرى هل الى الرمل عودة * وهل لى بتلك البانتين لمام[2]
وهل نهلة من بئر عروة عذبة * أداوى بها قلبا براه أُوام[3]
ألا يا حمامات الأراك اليكموا * فمالى فى تغريدكن مرام
فوجدى وشوقى مسعد ومؤانس * ونوحى ودمعى مطرب ومدام

أهالى المدينة — قال تعالى ﴿والَّذينَ تَبَوَّءُوا الدارَ والإيمانَ من قَبْلِهم يُحبون مَنْ هاجَرَ اليهم ولا يجدون فى صدورِهِم حاجةً مما أُوتوا ويُؤْثِرون على أَنْفُسِهم ولو كان بهِم خَصَاصةٌ[4] ومن يُوقَ شُحَّ نَفْسِه فأُولئكَ هُمُ المفلِحونَ﴾ يسكن المدينة

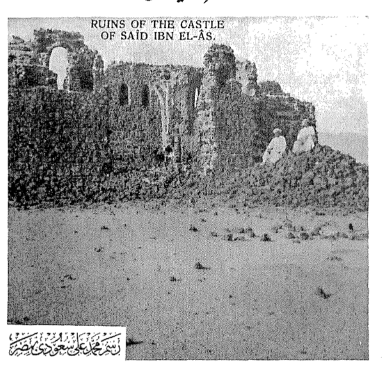
(١) الحاجر : منبت الرمث ومجتمعه .
(٢) البان : ضرب من الشجر واحدته بانة واللمام : الاجتماع فى بعض الأحايين .
(٣) الأوام : حر العطش .
(٤) شدة الفقر .

٥٢٤ آثار قصر سعيد ابن العاص



RUINS OF THE CASTLE OF SAÎD IBN EL-ÂS.

٥٢٤ آثار قصر سعيد ابن العاص



RUINS OF THE CASTLE OF SAÎD IBN EL-ÂS.

حوالى ٥٦ [1] ألفا بينهم من ذرّية الأنصار الذين نزلت فيهم هذه الآية مالا يعدو أصابع اليد وأكثرهم من الشاميين والأتراك والهنود والمصريين والمغاربة الذين رحلوا الى المدينة ليجاوروا رسول الله صلى عليه وسلم وليسكنوا البلد الذى عز فيه الاسلام وانتشر منه نوره فى قارات الدنيا القديمة، وأشهر الأسر العريقة بالمدينة السادة الأسعدية والسادة المدنية وآل حماد وآل برادة وآل البرى وآل الياس وآل الكردى وآل الرفاعى وآل سفر وآل الطيار وآل الأنصارى، وبيت البساطى وبيت الداغستانى، وأشهر البيوت المصرية بيت الدمياطى وبيت الأسكندرانى وبيت حجاج الصعيدى وبيت طَقُّوس الصعيدى، وأشهر البيوت الشامية بيت الخطيب، وأشهر الأسر المغربية أسرة الكتانى وأسرة الجزائرى، وأشهر البيوتات الهندية بيت لمبو وبيت الفَتَّنى وبيت عبد الرسول وبيت السِّندى، ولا تزال الأخلاق الفاضلة التى أشادت بذكرها الآية راسخة فى نفوس المدنيين، فالأخلاق مهذبة والنفوس مكمله والأكناف موطأة يألفون ويؤلفون أنجاب كرماء أقاموا لنا الولائم الفاخرة ودعونا اليها بصدور منشرحة وبشاشة باشة، وما كان ذلك مكافأة لنا على خدمة قدمنا ولا انتظارا لشىء منا، غاية ما فى الأمر أنهم كانوا يأتون الى معسكرنا لسماع الموسيقى — وأنهم لشديدو الولع بها — كل يوم بعد العصر فكنا نفرش لهم السجادات ونجلسهم على الكراسى ونقدّم لهم الشاى والقهوة، وممن دعونا فلبينا دعوتهم سعادة شيخ الحرم والسيد على زين العابدين الحبشى وأخوه وهما من أكابر الأشراف — كانت دعوتهما فى سنة ١٣٢٢ هـ . وترى الذين كانوا معنا فى الوليمة فى (الرسم ١٧٣) — ومحيى الدين الدرابزونى وله مرتب من وقف عباس باشا الأوّل يزيد إيراده سنويا على أربعة الآف ريال، وبكير بك ناظر التكية

(١) قد قل عددهم الآن وربما كانوا اثنى عشر ألفا وسبب ذلك هجرة أهل المدينة الى الشام والأناضول والهند لما أن غادر الاتراك بلاد الحجاز وأصبحت السيطرة للملك حسين فقطعت المرتبات التى كانت ترد من تركيا وكذلك قطعت مرتبات مصر أخيرا وتبرعات كانت تأتى من الهند وبخارى وسبب كل هذا توتر العلاقات بين الحجاز وكثير من الممالك الاسلامية .

المصرية ومحمد افندى التركى، وكانت هـذه الولائم فى بيوت جميلة وحدائق ذات بهجة تجرى من تحتها الأنهـار، وقـد بلغ من كرم أخلاقهم أنهـم يستقبلون خارج المدينة الوافدين عليها من كل فج عرفوهم أو جهلوهم فيتلقونهم ببشاشة وسعة صدر ويدعونهم الى منازلهم فيجدون بها أهلا وسهلا وعيشا رغدا، وما فعلوا ذلك طمعا فى مال أو رغبة فى أجر ولكنه خلق تمكن فيهـم فدفعهم الى إكرام الضيف إرضاء لوازع النفس وإجابة لنداء الضمير. وأكثر أهل المدينة لونهم السمرة الضاربة الى السواد وفيهم ذو السمرة الخالصة أو البياض الناصـع وأجسامهم نحيفة وحواشيهم رقيقة وهم يتعيشون من التجارة والزراعة القليلة والمرتبات التى يتقاضونها من أوقاف أرصدت لهم أو يأخذونها فى نظير عمـل يقومون به فى المسجد النبوى، وكثير منهم يرتزق من الإرشاد الى المسـاجد المأثورة والأماكن والبقع المباركة. والبساتين والحقول يقوم بحراستها والخدمة فيها ورعى مواشيها، بل بالخدمة فى البيوت أيضا جماعة من ذرية الأعجام يسمون النخولة وهؤلاء بالمدينة أشبه بالفلاحين فى مصرنا ولولاهم ماقامت الزراعة وهم رافضـة يبغضون أبا بكر وعمر واحتقارا لهم وعقابا على نزعتهم الباطلة كلفهم رئيس البلدية بأن يقوموا بطرد الكلاب من حول المسجد النبوى ويجتمع بهم الأعجام فى مواسم الحج ويؤجرون منهم الدور بما فيها ! ! !

والتجارة بالمدينة فى أصناف كثيرة فيتجر أهلها وأرباب البادية فى التمر والسمن والجبن — وهو رخيص — وعسل النحل والحبوب من قمح وشعير وفول وحمص وذرة وترمس وعدس وأرز، وأكثر الحبوب يرد من مصر والشام والهند، والسمن والجبن أكثره يأتى به الأعراب من البوادى فيشترون به الحبوب والثياب والنحاس ويتجرون فى الإبل والغنم والخيل الجيدة التى تأتى من نجد والحمير الحساوى، وفى الحرير بأنواعه والثياب القطنية والصوفية وتأتى اليها من تركيا ومصر والهند ويتجرون فى السجادات وتأتى من فارس وبغداد والبصرة، ويأتى من الأخيرتين العباءات التى يختلف ثمن الواحدة من نصف جنيه الى عشرين، وتأتى الأبسطة « الأكلمة » من فارس وتركيا وبغداد، والنحاس يرد من مصر. وأهم صنف يتجرون فيه التمر الذى خصت

المدينة من أصنافه بما لم يخص به غيرها ، وقد بلغت أنواعه ١٧٢ نوعا منها الأنواع الحُرّة وتبلغ نحو ٧٢ صنفا ، وهذه يأكل منها أهل المدينة ويهدون ، ومنها الأنواع التى تسمى «لونا» وتقارب المائة، وهذه يأكل منها عرب الجبال لرخص ثمنها، ومن اللون ما له نوى وما ليس له ، والأبيض والأصفر والأحمر والغايظ والرفيع وذو الحجم الكبير والصغير ، أما الأنواع الحرّة فأهمها «العنبرة» وطول الثمرة منها يقارب ١٠ سنتيمترات فى عرض نصفها، وثمنها أربعة أمثال ثمن غيرها وهذا الصنف قليل ثم «الشلبى» ويهدى لكثير من الأمراء والكبراء ثم «الحلوة» وهو أحب الأنواع الى أهل المدينة بلحه ورطبه وتمره ثم «البَيْض» — طوله كعرضه — ثم «الشُّقْرى» ثم «السُكَّرة» ويتفتت فى الفم بسهولة بلحه ورطبه وتمره كأنما هو سكر ثم «الطَّبَرْجَلِى» ويكون أصفر بلحا ورطبا ثم «البَرْنى» و «العَجْوة» و «الخُضَرِيَّة» ولونه أخضر بلحا ورطبا وتمرا «والرُّباعى» «والمكتومى» ويشبه فنجال القهوة ثم «سكرة الشرق» ثم «الجاوى» وهو أسود اللون بطنا وظهرا رطبا وتمرا و «اللبانة» ولونها أبيض ولا تؤكل إلا تمرا وهى أنواع سبعة «والفند» وهو أحمر اللون ذو أنواع ، والحرّ كله بارد إلا الشلبى والجاوى فانهما حاران إذا أكل منهما المرء شرب من الماء كثيرا ولذلك لا يأكله أهل المدينة إنما يهدونه حيث الأجواء المناسبة لأكله .

وأكثر تجار الحبوب والتمر من المصريين ويليهم الترك والشوام والهنود ثم أهل المدينة، والاردب عند أهل المدينة ينقسم الى ٢٤ مدّا والمدّ خمس أقات — من القمح — والأقة ٤٠٠ درهم كأقتنا والكيلة عندهم ربع المدّ والشطر نصف الكيلة، والرطل المصرى يستعمل عند العطارين فقط والأقة تستعمل فى كل شىء .

والعملة الأصلية فى المدينة الجنيه العثمانى (٨٧,٧٥ قرشا مصريا) والريال العثمانى (١٦,٢٥) وكل النقود الذهبية والفضية فى الدول المختلفة مستعملة بالمدينة .

وأشهر الأسواق بالمدينة سوق باب السلام ويمتدّ من هذا الباب بالمسجد النبوى الى الباب المصرى على مسافة تقارب ٤٠٠ متر فى شارع ضيق لا يعدو عرضه

أربعــة أمتار ، وبهذا السوق الأشــياء الثمينة ويليه سوق البلاط على يسار المتجه الى باب الســلام ثم سوق الساحة بعــده ثم سوق المناخة ، وفيــه الحبوب واللحوم والخضراوات والفواكه والأشياء القديمة فى مكان يقال له « سوق الحَرَاج » .

عادات أهل المدينة — من عاداتهم فى الزواج أنه اذا رغب فتى فى الاقتران بفتاة اتفق أهله مع أهلها ثم تذهب أسرة الزوج الى منزل آل العروس فيقوم خطيب من قبل الأوّلين يخطب خطبا نثرية وشعرية يعدّد فيها مفاخر الزوجة ويلمح فيها باسم العروس ثم يقوم خطيب من قبــل أهل المخطوبة فيعدّد مآثر الزوج ومفاخر أسرته ثم يقبض المهــر بأكمله — وقد يؤخر بعضه فى الأسر الفقيرة — ويســتحضر المهر فى صندوق من فضة به ورقة كتب فيها مقدار المهر وقيمة الجارية التى يشتريها والد الزوج لتخدمها ، والمهر لا يزيد على مائة جنيــه وقيمة الجارية من ٣٠ الى ٥٠ جنيها مجيديا ، ويقدّم مع المهر ملابس حريرية للزوجة مشغولة بالفضة «والتُّل» الكثيرين قيمتها من ٥٠ الى ١٠٠ جنيه ، ويبلغ ثمن « التكة » وحدها حوالى عشرة جنيهات فى المهور الكبيرة ، والزفاف يكون بعد سنة من هذه الحفلة ولا يكون قبل ذلك حتى يتمكن والد الزوجة من إعداد الأثاث لمنزل زوجها وفرشه ، وهم يسرفون فى الجهاز كما يسرف سكان القاهرة والمــدن المصرية ، وتقام وليمة فى منزل الزوج يوم نقل الجهاز يدعى اليها أقارب العروســين والأصحاب ويستكثرون من الأشخاص الذين يحملون الجهاز حتى أن لكل قطعة صغيرة حاملا خاصا ، ويدفع الزوج أجر الحمالين ، وفى حفلة الجهاز يعين يوم الدخول ليلة اثنين أو جمعة ويكون ذلك بعــد نقل الجهاز بأســبوع كما هو عادتنا بمصر ، وتزف العروس وقت الســحر الى منزل زوجها فى عربة وحين تصل تزف مع زوجها داخل المنزل بحضور جمع من النساء سافرات يحملن الشــموع ثم يدخل بها المخدع فاذا ما أشرقت الشمس خرج الزوج الى منزل العروس ليتغدى فيــه ثم يرجع الى زوجه ، ولا يباح للزوجة أن تخرج من المنزل إلا بعد ســنة وربما تساهلوا الى ســتة أشهر ، وتقام ولائم للرجال والنساء ليلة الزفاف وليلتين قبلها وليلة بعــدها يبذر فيها المــال تبــذيرا كما أسرفوا فى الجهاز والهــدية

— والشبكة — وكان خليقا بجيران رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتجنبوا الإسراف والمخيلة وأن يقفوا عند ما رسمه من الحدود فيقتصدوا فى المهور والأجهزة والولائم، ولكن الناس أولعوا بالزخارف والمظاهر عن رعاية المصالح والشرائع الحقة ﴿ وَزَيَّنَ لهم الشيطانُ أعمالَهم فَصَدَّهم عن السَّبيلِ ﴾ .

وإن تكن هذه سيئة منهم فحسنة كبيرة فيهم أن الميت إذا فاضت روحه لا يرفع صوت ولا يشق جيب ولا تنوح نائحة ولكن تبكى العين ويحزن القلب ولا يقولون ما يغضب، الرب ولا تتبع امرأة جنازة، فهم فى ذلك كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد جرت عادتهم أن الميت بعد أن يوارى التراب يقف أهل الميت فيعزيهم الناس ثم يعيدون الكرة إذا رجعوا إلى منزله ويحضرون اليه ليالى ثلاثا ليقرءوا القرآن ويهدوه إلى روح الميت ويستغفروا له، ويقدّم أهل الميت لكل قادم اليهم جزءا يتلو فيه القرآن إن كان يحسن التلاوة، ويسرفون فى المآتم كما يسرفون فى الأفراح، فكل معزية طاعمة، ويزورون المقابر رجالا ونساء ليلة الاثنين وليلة الخميس ويأخذون معهم الرَّيْحان يضعونه على القبور كما شق رسول الله صلى الله عليه وسلم جريدة شقين ووضعها على قبرين، ويقرأ لهم القراء هنالك القرآن ويأخذون نظير ذلك ما تيسر من النقود ، ولا يفرقون أطعمة هنالك كما نفعل ولكن يأخذون الماء ويبيحونه للراغبين . ويقيمون مولدا لسيدنا حمزة عند مشهده كل سنة من أوّل رجب إلى منتصفه بحضرة أهل المدينة رجالا ونساء، وأهل مكة والطائف وجُدّة ورابغ وسكان البوادى الذين يزورون المدينة كل عام فى رجب ، ويحضر أرباب الطرق وتذبح هنالك الذبائح ويطعم الطعام، ولولا ما فى ذلك من اتخاذ القبور أعيادا ودعاء الموتى من دون الله والجلوس على المقابر وسن شرائع لم يأذن بها الله لدخل هذا فى حظيرة الجائز . وكذلك يعملون مولدا لسيدنا على العريضى عند قبره، ومسجده شرقى المدينة على مسيرة ساعة ونصف منها ، والمولد فى الأكثر يكون فى صفر ، وهذا المولد يستمرّ أربعة أيام، والعريضى هذا شقيق ذى النفس الزكية ابن جعفر الصادق .

ومن عادتهم فى رمضان أنهم يتناولون فطورا خفيفا فى المسجد النبوى بعد أذان المغرب لا فرق بين غنيهم وفقيرهم ، وهذا الفطور من الأشياء الحلوة ونحو الزيتون والفطير وما شابه ذلك ثم يصلون المغرب ويذهبون الى بيوتهم ليتناولوا الفطور الكامل ، ويأخذون كل من يجدون فى الطريق ، وبعد الأكل يحضرون الى المسجد لصلاة العشاء وصلاة التراويح ، وهذه تقام بأئمة كثيرين ينيفون على الخمسين ، فكل كبير له ولأتباعه إمام ، والنساء لهن إمام واحد ، والأئمة إما من الشبان الذين حفظوا القرآن أو من علمائهم ، وأمام كل إمام شمعدانان بكلٍّ شمعتان تصرف من خزينة الدولة ، ويتقاضى هؤلاء الأئمة مرتبا من الدولة آخر رمضان أجرا لهم على إمامتهم ، وسراة البلدة يوزعون الثياب البيض على الفقراء والمساكين غب الصيام ، وعيد الفطر عندهم أربعة أيام يتزاورون فيها جميعا لكل جهة يوم مخصوص يزورون فيه أهالى الجهات الباقية ، ويقدّم للزائرين الحلوى فيأكلون وماء الورد فيتطيبون والعود الهندى فيتبخرون . ويقاد فى الحجرة النبوية ليالى رمضان من العشاء الى إكمال صلاة التراويح أربعة عشر شمعدانا ذهبيا زنة الواحد سبع أقات كما حدّثنا بذلك السيد عبد المحسن أسعد من كبار المدنيين .

وفى ٢٧ ذى القعدة من كل سنة تقدّم كل أسرة هدايا الى حجرة الرسول صلى الله عليه وسلم وهى أكياس من « الشاش » بعدد أفراد الأسرة ، فى كل كيس من ٢٠ الى ٥٠ درهما من القمح الطيب النظيف ، ويضعون هذه الأكياس فى الحجرة من الشباك فيأخذها الخصيان — الأغوات — خدم المسجد ويهادون بها الملوك والأمراء والأكابر ، ويبتغى أهل المدينة من وراء ذلك بركة أو يقصدون الصدقة ولكن لا أدرى على من ؟ وليست تعطى لصنف من الأصناف الثمانية الذين تقسم فيهم الصدقات كما نطق بذلك القرآن .

ومواعيد سداد الديون عندهم حضور المحمل الشامى أو المصرى ، والأول أحب الى الدائنين لحضوره أوّلا والثانى أحب الى المدنيين لحضوره آخرا .

ويعملون عقيقة الطفل يوم الولادة وربما كررها الأغنياء فى اليوم السابع الذى يسمون فيه المولود ويضعون عليه من الحلى ما ينوء به الرجل الكبير وبعد التسمية تحرك يد « الهون » داخله حركات متوالية إيذانا بالتسمية فيزغرد النساء اذ ذاك، واذا ما تم للطفل أربعون يوما على الأقل أثقله أهله بالزينة وذهبت به أمه وقريباته ومعهنّ القابلة تحمله الى المسجد النبوى قبيل المغرب، فبعد أن ينتهى النساء من صلاة المغرب بمكانهن الحاضر (التقفيصة) يأتى أحد الخصية — الأغوات — فيأخذه ويدخله الحجرة ويضعه تحت الستر الذى هنا لك عند رأس النبى صلى الله عليه وسلم ويكون بصحبته عيش لت بالسمن يدخل معه الحجرة ثم يوزع بعد ذلك على الأهل والأقارب فيأكلون منه ويتبركون، ويعطى للخصى نظير ذلك بن وسكر ودراهم معدودة .

وأكثر البيوت يقوم بالخدمة فيها الجوارى وعلى ربة المنزل أن تنظم وتشير .

ومن عاداتهم أنه اذا ضرب شخص آخر ضربا يكاد يقضى عليه والتجأ الى أحد الأعيان وقال له : أنا فى وجهك — يعنى حماك وكنفك — فيأخذ هذا من فوره جمعا من أصحابه وأقربائه ويذهبون الى أسرة المضروب فأى شخص صادفوا منها ألحوا عليه حتى يتكفل لهم بتأجيل الأخذ بالثار سنة، ومتى تكفل أجازه قومه وبعد السنة إما صلح على مال يدفعه أهل البلد وقد يتسامح فيه المدنيون حاشا الأعراب وإما قصاص، وذلك قليل لأن الحفيظة يخفف أثرها مضى الزمن وآجتهاد آل الجانى فى آسترضاء أولياء المجنى عليه .

جوّ المدينة — المدينة شديدة الحرّ فى الصيف ولا سيما قبيل الظهر الى ما بعد العصر حيث يشتد هبوب ريح السموم التى تؤدى بحياة كثير من الغرباء الذين لا يحتاطون، وتخف وطأتها من بعد العصر الى منتصف الليل، ومن ذلك الى الضحوة هواء لطيف يشرح الصدر وينعش النفس، وأعلى درجة تصل اليها الحرارة ٢٨° سنتجراد . والناس فى الصيف ينامون على ظهور البيوت يلتحفون السماء

لا فرق فى ذلك بين غنى وفقير، واذا ما هبت ريح السموم أثلجت الماء الساخن فى مدّة لا تعدو ١٠ دقائق ، أما فى زمن الشتاء فالبرد شديد وتنزل درجة الحرارة الى ١٠° فوق الصفر نهارا والى ٥° تحت الصفر ليلا ، وجوّ المدينة فى الجملة أشدّ من جوّ مصر صيفا وشتاء .

قرى المدينة أو توابعها — يتبع المدينة قُباء وقُرْبان والعوالى وكلها جنوبى المدينة ، وتعتبر من ضواحيها، وفى شمالها العيون والبركة عند مسجد حمزة وهما من الضواحى والحَنَاكِيَّه ثم خَيْبَر وهما بعيدان عن المدينة فى شمالها الشرقى، وكانت خيبر فى صدر الاسلام دارا لبنى قُرَيْظة والنَّضِير وبها كان السموءل بن عادِيَا الشاعر المشهور وهى بلدة عامرة آهلة ذات نخيل وحدائق ومياه تجرى ، وعلى مقربة من خيبر فَدَك التى صالح أهلها النبي صلى الله عليه وسلم على النصف من ثمارها سنة أربع من الهجرة ولم يوجف المسلمون عليها بخيل ولا ركاب، فكانت له صلى الله عليه وسلم خالصة ينفق منها فى المصالح العامة ، وكان معاوية بن أبى سفيان قد وهبها لمروان ابن الحكم ثم ارتجعها منه لمَوْجِدة وجدها عليه، فلما ولى عمر بن عبد العزيز الخلافة ردّها الى ما كانت عليه زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت تُغِل فى أيام إمرته ١٠٠٠٠ دينار أى ما يقرب من خمسة آلاف من الجنيهات المصرية وكان يتجافى عنها . وتتبع المدينة الفَقْرة وهى قرية على جبل عال منيع يسكنه الأحامدة أقوى القبائل وأعتاها، و بينه وبين المدينة مسيرة ٢٤ ساعة ومياههم ومزارعهم بالجبل، ولا يعرف مسالكه أحد سواهم، فالحمراء فالصفراء فينبع النخل ، فينبع البحر وكلها غربى المدينة على الطريق منها الى ينبع بساحل البحر الأحمر، والحمراء على مسيرة ٣٣ ساعة و ٣٥ دقيقة من المدينة ومسيرة ٢٥ ساعة و ٢٥ دقيقة من ينبع البحر وبها كثير من النخل وشجر الليمون، وسوق حوانيته مبنية بالجريد ويباع فيه التمر والحناء والموز والطماطم والملوخيا الخ والأجربة الجلد والمراوح المصنوعة من الخوص، والصفراء على مقربة منها وهى فى واد كثير المزارع والحدائق والمياه، وينبع النخل على مسيرة ١٢ ساعة من ينبع البحر وكانت قديما محطا للحمل لما كان يسلك

طريق البر وفيها ستون خَيْفا — الخيف ما انحدر من غلظ الجبل وارتفع عن مسيل الماء — وسنفصل القول فيها عند الكلام على الطريق من ينبع البحر الى المدينة من جهة طريق الطريف أو درب الزجاج .

حرم المدينة — وردت أحاديث كثيرة تدل على أن للمدينة حرما يحرم صيده. وقطع شجره واختلاء خلاه، نذكر من ذلك ما رواه الشيخان عن عبد الله بن زيد. أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن إبراهيم حرم مكة ودعا لأهلها وإنى حرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة، وروى البخارى من حديث أبى هريرة : حرم. ما بين لابتى المدينة على لسانى، ولابتا المدينة : حَرّتاها الشرقية والغربية، وروى مسلم من حديث أبى سعيد الخدرى : اللهم إن إبراهيم حرم مكة فجعلها حراما وإنى حرمت المدينة حراما ما بين مأزميها — جبليها، عير فى جنوبيها وثور خلف جبل أحد. وهو صغير — أن لا يهراق فيها دم ولا يحمل فيها سلاح لقتال ولا تخبط فيها شجرة إلا لعلف، وعند أبى داود : لا يختلى خلاها ولا ينفر صيدها ولا يلتقط لقطتها إلا من أشاد بها، قال النووى : اللابتان حدّ حرمها من المشرق والمغرب، وعير وثور حدّها من الجنوب والشمال وإن تكن للمدينة حرّة جنوبية وأخرى شمالية فإنهما راجعتان الى الشرقية والغربية ومتصلتان بهما .

وبما دلت عليه هذه الأحاديث الصحيحة قال مالك والشافعى وأحمد . ولكن آختلفوا فى التفصيل وقال أبو حنيفة : لا حرم للمدينة وآستدل بحوادث جزئية فيها صيد وقطع للشجر والخلا فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم فراجعها إن شئت. فى وفاء الوفاء أوّل الكتاب. قال الماوردى : إن محل الخلاف فيما كان من النبات والشجر فى موات الحرم فان أنبته شخص فى ملكه جاز قطعه بلا خلاف، كما أنه لا خلاف فى جواز قطع ما يستنبت من غير الشجر كالحنطة والخضراوات مطلقا .

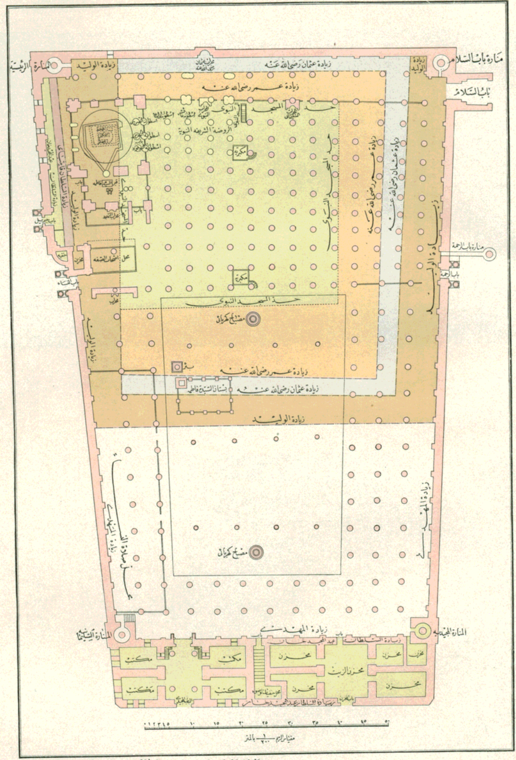
وآختلف القائلون بالتحريم فعن أحمد فى الجزاء روايتان، وعن الشافعى قولان. الجديد عدم الجزاء. وهو قول مالك، والقائلون بالجزاء اختلفوا فقيل : إنه كالجزاء.

فى حرم مكة وقيل : إنه أخذ السلب فيسلب من الصائد والقاطع فرسه وسلاحه وثيابه وقيل : الثياب فقط، ويكون ذلك للسالب على الأصح وقيل لفقراء المدينة ويترك للمسلوب ما يستر به عورته، وقد أكثر الفقهاء القول فى هذه المسألة وتضاربوا وفرعوا وتعمقوا فى البحث مما نجد المصلحة فى تركه، وفيما قدمنا الكفاية فى هذا الموضوع والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم .

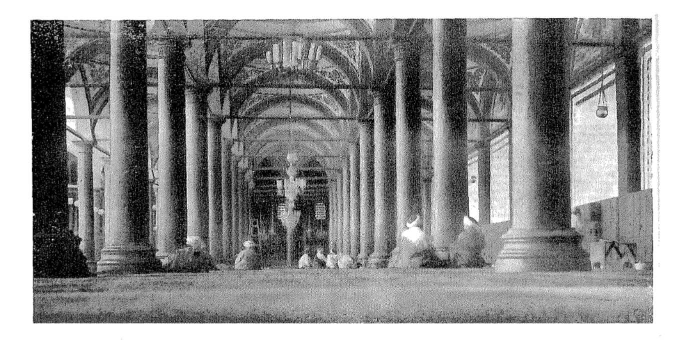
المسجد النبوى

وصف المسجد الآن — (الرسم ١٧٤) المسجد النبوى فى الجهة الشرقية من المدينة شكله شبه مستطيل متوسط طوله من الشمال الى الجنوب ١١٦,٢٥ مترا، وعرضه من الجهة القبلية أو الجنوبية ٨٦,٢٥ مترا، وعرضه من الجهة الشمالية أو الشامية ٦٦ مترا وهو شامخ البناء سقفه قباب أقيمت على عقود تقلها أعمدة متينة بلغ عددها ٣٢٧ عمود بما فى ذلك الملصق منها بالجدر ووسط المسجد الى الشمال صحن غير مسقوف يسمونه الحصوة فى غربه ثلاثة أروقة وفى شرقه رواقان وفى شماله ثلاثة وفى جنوبه آثنا عشر رواقا (باكية) (الرسم ١٧٥) وفى (الرسم ١٧٦) بعض العقود والصحن الذى ترى به الحمام يلتقط الحب الذى يرمى به الناس فى الصحن صدقة عليه، والأعمدة التى بالجهة الغربية من الجدار الجنوبى الى الشمالى ١١٢ والتى بالجهة الشرقية كذلك ٨٦ عدا أربعة أعمدة فى أركان الحجرة الشريفة، والتى فى الجهة القبلية موازية للصحن ١٠٧ والتى فى الجهة الشمالية كذلك ١٨ فالجملة ٣٢٧ عمود من الحجر الصوّانى المتين، كثير منها مغطى بطبقة من المرمر الموشى بماء الذهب وغير الموشى، وبين كل عمودين زجاجات (فنايير) ثلاثة توضع فيها المصابيح، وقد علقت فى عوارض بين الأعمدة بسلاسل فضية، وللمسجد خمسة أبواب اثنان فى الجهة الغربية وهما باب السلام فى أول الجدار الغربى من جهة الجنوب أنظر (الرسم ١٩٠) وباب الرحمة فى ثلث هذا الجدار من هذه الجهة أنظر (الرسم ١٨٩) وواحد فى الجهة الشمالية يقال له باب التوسل أو الباب المجيدى وهو

رسم المسجد النبوي



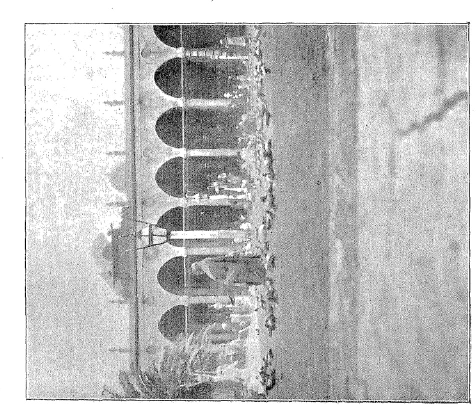
منظر داخل الحرم النبوى الشريف من الجهة البحرية (البواكى)



175. Arcades of the Mosque at Medina.



صحيفة ٤٤٨



176. The pigeons at the Prophet Mosque.

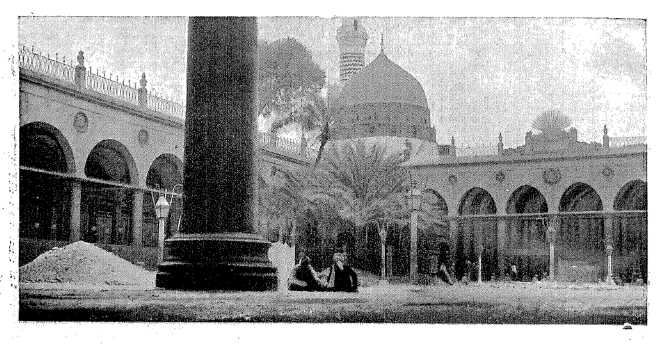
قريب من الزاوية الشمالية الشرقية، وبابان فى الجهة الشرقية أحدهما باب النساء فى مقابلة باب الرحمة، والداخل منه يرى على يمينه محرابا وعلى يساره الصُّفَّة أو دكة الأغوات وهى مستطيلة طولها ١٢ مترا فى عرض ٨ وآرتفاعها ٤٠ سنتيا وفى جنوبه قريبا منه باب جبريل، وبالمسجد خمس مآذن فى كل ركن من أركانه مئذنة وخامسة أمام باب الرحمة تسمى مئذنة باب الرحمة، والتى فى الزاوية الغربية الجنوبية تسمى مئذنة باب السلام والتى فى الزاوية الشرقية الجنوبية تسمى المئذنة الرئيسية التى يؤذن عليها رئيس المؤذنين والتى فى الركن الشمالى الشرقى تسمى المئذنة السليمانية والتى فى الشمال الغربى تسمى المئذنة المجيدية، وفى الرواق الثالث من الجهة القبلية تجد المنبر وعن يساره المحراب النبوى وعن يمينه المحراب السليمانى أنظر (الرسمين ١٨٤ و١٨٥) وأما المحراب العثمانى لثالث الخلفاء فهو فى الجدار القبلى وهو فى نهاية الزيادة التى زادها عثمان رضى الله عنه فى المسجد أنظر (الرسم ١٨٥) وفى شمال المسجد رَدْهتان (صالتان) داخل كل منهما أربع حجرات، ثنتان عن اليمين وثنتان عن الشمال ويفصل البناءين مكان مستطيل به صنابير (حنفيات) للوضوء ومراحيض وحمام وهو فى الطبقة الثانية يصعد اليه بسلم فى مدخل بابه الذى بالمسجد، وتحت هذا المكان ميضأة لها باب خارج المسجد، وتجاه هذا الباب الأخير باب آخر فى الجانب الثانى للشارع يدخل منه إلى ميضأة ثالثة، والمكان الأول خاص بأغوات المسجد وخدمه ومن يرغبون من الأكابر والأعيان .

والرَّدْهة الغربية مكشوفة وحجراتها مخازن للزيت والقناديل والحصر ولها بابان واحد داخل المسجد والآخر خارجه، وبين المئذنة المجيدية وهذه المخازن مخزن آخر له باب مستقل داخل المسجد وكان قبل ميضأة للأغوات والخدم، أما الردهة الثانية وحجراتها ففى الجهة الشرقية وهى مكتب أو مدرسة يعلم فيها الصبيان القرآن ومبادئ العلوم الأولية وهذه الردهة (الصالة) هى طرقة الباب المجيدى، والمكتب ذو طبقتين أرضية وعلوية، وفى شرق الصحن أو الرحبة حديقة صغيرة سورت بسور حديدى بها نبق ونخيل يحيط بنخلة كبيرة يقال إنها : مكان نخلة للسيده فاطمة

بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم والحديقة تنسب اليها ، وفى جنوبى الحديقة بئر حلوة الماء تنسب للنبي صلى الله عليه وسلم ويقال : لها زمزم المدينة ، والأروقة التى شرق الصحن أقيم حول معظمها شبكة من الخشب الرفيع (الشيش) وجعل ما أطافت به مصلى للنساء خاصة فهن فى عزلة عن الرجال ، ويدخلن من باب النساء جنوبى هذه الحظيرة وفى وسط الرحبة عدّة أعمدة أقيمت عليها مصابيح أو ثُرَيَّات (كهربائية)[1]. وترى فى (الرسم ١٧٧) بستان السيده فاطمة وبعض عقود المسجد وبعض أعمدة الاضاءة عليها المصابيح وتقفيصة مصلى النساء وترى كوما من التراب الذى أخرج فى سنة ١٣٢٦ هـ . من المقصورة أثناء تعميرها وكذلك ترى القبة الخضراء و«الطرة» العثمانية فوق العقود وترى الأعمدة التى كسيت قواعدها بالنحاس الأصفر ونحن هنالك ، وترى اثنين من الهنود قد احتبى أحدهما ولبس الآخر عمامة ذات عذبة . وفى زاوية المسجد الجنوبية الشرقية جزء فصل من المسجد بسور من النحاس الأصفر طول كل من ضلعيه الجنوبيـة والشمالية ١٦ مترا ، وكل من الشرقية والغربية ١٥ مترا ويقال له المقصورة الشريفة وداخلها بناء ذو خمسة أضلاع تمثل الشماليتان منها ساقى مثلث ، والثلاث الباقية أضلاع فى مربع ، وارتفاعه نحو ستة أمتار وفيه قبر الرسول صلى الله عليه وسلم فى الجهة القبلية ثم فى شماليه قبر أبى بكر الى الشرق قليلا ثم قبر عمر شرقى قبر سلفه قليلا ، والبناء الخارجى أقامه نور الدين زنكى لما بلغه اعتزام الصليبيين الذين كان يحاربهم على إخراج الجثة الشريفة فبنى ذلك البناء ونزل بأساسه الى منابع الماء ثم أفرغ عليه الرصاص حتى لا يستطيعوا له نقبا ، وفى شمال السور النحاسى متصلة به مقصورة أخرى ضلعها الجنوبيـة ١٤ مترا ، والشمالية كذلك تزيد نصفا والشرقية والغربيـة ٧ أمتار ونصـف وداخلها ضريح زعموا أنه على قبر فاطمة الزهراء بنت

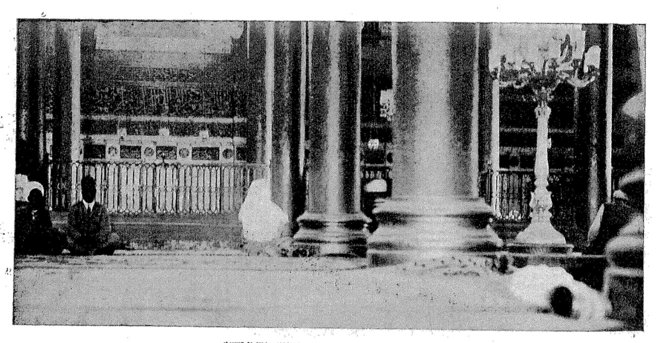
(١) قال السمهودى وبصحن المسجد أربعة مشاعيل اثنان فى جهة القبلة واثنان فى جهة الشام وكل واحد كالأسطوانة وبأعلاه مسرجة عظيمة تشعل ليالى الزيارات المشهورة ولا أدرى ابتداء حدوث ذلك اهـ قال صاحب النزهة وقد أعيد ذلك كما كان فى أربعة أركان الصحن على أعمدة من رخام أبيض على كل واحد (فانوس) كبير من جام (فضة) حوله أربعة قناديل كقناديل المسجد معلقة بسلاسل على معالق أربعة من حديد ، وفى سنة ١٢٩٦ هـ . نقلها شيخ الحرم النبوى الى داخل الصحن اهـ .

قسم من داخل المسجد النبوي رسم من الجهة الشمالية



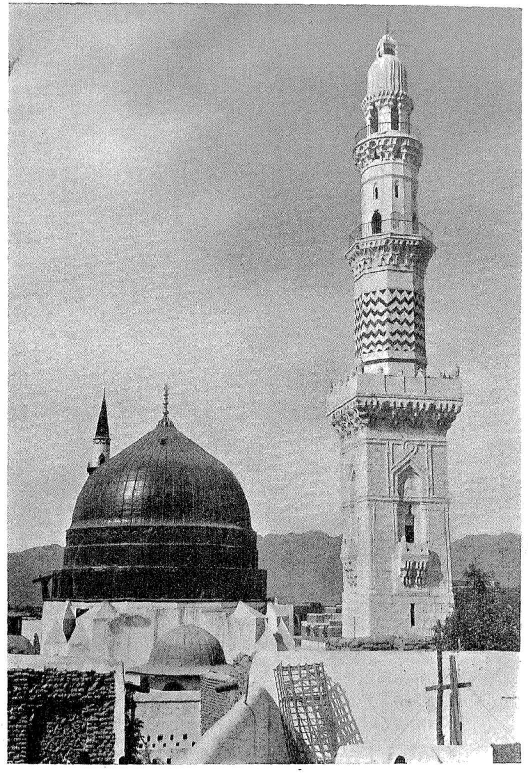
177. Interior of the Mosque at Medina as seen from the North.

منظر داخل الحرم النبوي من الجهة القبلية



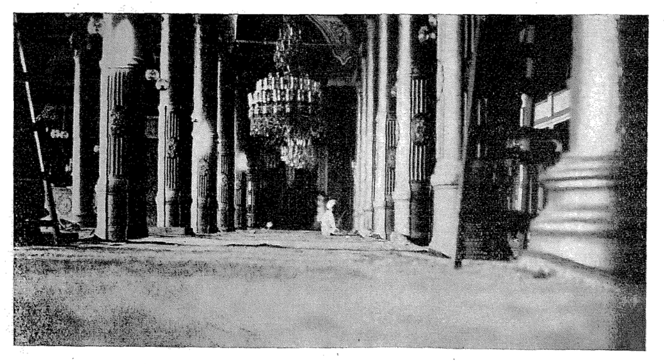
179. The interior of the Mosque of Medina as seen from the South.

قبة النبي عليه الصلاة والسلام وأبي بكر الصديق وعمر رضي الله عنهما بالمسجد النبوي بالمدينة المنورة



178. The view of the domes of Mohamed the Prophet, Abu Bakr and Omar at Nabi Mosque

قسم من الروضة النبوية والحجرة الشريفة من جهة الغرب بالمسجد النبوي بالمدينة المنورة



180. The Northern view of the Sherifa Room.

الاعمـدة المفرغة هى اشارة لحدود المسجد النبوى

رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يثبت، ويرجحون أن قبرها بالبقيع ويوصل هذه المقصورة بالمقصورة الأولى بابان بجدارها الجنوبى، وللمقصورة الكبيرة باب غربى فى الروضة يسمى باب الوفود أو باب الرحمة ، وفى جنوبه شباك التوبة، ولها باب آخر فى الجهة الجنوبية ويدخل اليها من باب فى الجهة الشرقية، ومن باب آخر فيها فى الجهة الشمالية وهو الذى يدخل منه الأغوات لإيقاد الحجرة الشريفة، وبزوايا المقصورة النبوية أربعة أعمدة كبيرة مزوية أقيمت عليها القبة الخضراء التى تراها مع المئذنة الرئيسية فى (الرسم ١٧٨) وفى شمالى مقصورة فاطمة دكة كدكة الأغوات قالوا : انها فى متهجد النبي صلى الله عليه وسلم . وبين المنبر والقبر الروضة وطولها ٢٢ مترا فى عرض ١٥ ويفصلها عن الرواقين القبليين سور نحاسى ارتفاعه حوالى متر، به بابان عن يمين ويسار المحراب النبوى أنظر السور النحاسى فى (الرسم ١٧٩). وترى فيه عبد اللطيف عبد القادر أحد الأغوات والذى بجانبه « البكباشى » مصطفى افندى رفق وانظر فى (الرسم ١٨٠) قسما من الروضة فيه الأعمدة الجميلة المفرغة و« نجفة » كبيرة وشباكا من شبابيك المقصورة، ذاك وصف إجمالى للمسجد النبوى، أما ما فيه من النقوش البديعة والكتابات الجميلة التى بسقف المسجد وجدره وأعمدته ومحاريبه فقل فى وصفها ما شئت، فانه ليس فى الدنيا مسجد عنى به الملوك — خصوصا ملوك العثمانيين — والأمراء والأفراد كالمسجد النبوى الذى به تعاليق نفيسة وهدايا ثمينة أهديت للمسجد والحجرة لا تجد لها مثيلا فى مكان آخر، وحسبك أنها قومت بسبعة ملايين من الجنيهات ولا بأس من أن نجملها لك، يوجد بالمسجد النبوى عدا المقصورة ٦٢٠ قنديل معلقة فى العوارض الحديدية التى بين الأعمدة بسلاسل من فضة فى المسقف القبلى وبسلاسل من صفر فى باقى المسجد وفيه نجفات كثيرة من البلور، ومن ذلك نجفتان كبيرتان على أطرافهما تنانير يوقد فيها الشمع أهداهما إلى المسجد النبوى عباس باشا الأول، والكبيرة منهما معلقة فى المسقف القبلى مما يلى الروضة من جهة الشمال أنظرها فى (الرسم ١٨٠) وكذلك أهدى أربع شجرات على أعمدة من البلور مفرعات بأغصان مائلة عليها تنانير صافية

وضعت بالروضة المطهرة وما يليها من المغرب فى صف واحد بين الأساطين. انظر (الرسم ١٧٩) وبالمقصورة ١٠٦ قنديل حول الحجرة الشريفة منها ٣١ غير البراقات فى الرواق الذى تجاه الوجه الشريف وكلها من الذهب المرصع بالألماس والياقوت والباقى قناديل كقناديل المسجد معلقة بسلاسل الذهب، ومن ضمنها الثريتان المعلقتان على يمين قبر فاطمة ويساره، وبأعلى الدائرة التى حول الحجرة معاليق من الجواهر الثمينة ومكانس من اللؤلؤ الفاخر، وقد أرسل السلطان عبد المجيد سنة ١٢٧٤ هـ. شمعدانين عظيمين من الذهب الخالص المرصع بالألماس الفاخر طول كل منهما نحو قامة، ويقال إن ثمنها ٣٠٠٠٠٠ جنيه مجيدى (الجنيه المجيدى يساوى ٨٧,٧٥ قرشا صحيحا مصريا) وقد وضعا بالمقصورة أحدهما تجاه رأسه الشريف والآخر فى محاذاة رجله الكريمة، وقبل ذلك أهدى شمعدانين كبيرين من الذهب الخالص وأهدى بعد ذلك عدّة مباخر وقماقم من الذهب والفضة.

وقد كان الملوك والأمراء فى الأعصار المختلفة يتسابقون فى الهدايا الى المسجد وكثيرا ما سلبها قوم لينتفعوا بها فى مصالحهم الشخصية، ومن أولئك السالبين جماز ابن هبة الحسينى أمير المدينة لما ورد الأمر سنة ٨١١ هـ. بعزله وتولية ثابت بن نفير والأمير غُرير بن هيازع الحسينى سنة ٨٢٤ هـ. وبرغوث بن بتير بن جريس ودبوس ابن سعد الحسينيان سلبا كثيرا من قناديل المسجد سنة ٨٦٠ هـ. وحسن بن زبير المنصورى سلب فى سنة ٩٠١ هـ. ما فى القبة التى كانت بصحن المسجد من النقود والقناديل والسبائك، وكذلك فعل الوهابيون لما استولوا على القطر الحجازى وتملكوا المدينة سنة ١٢٢١ هـ. وهدموا القباب التى بالبقيع وغيره وقد فرق ما أخذوه على المجاهدين وهودى منه بعض الملوك وردّ كثير منه الى المسجد النبوى.

ويحسن بنا أن نورد لك فى هذا المقام نبذة ذكرها الجبرتى المؤرّخ الناقد عن الوهابيين فى هذا الموضوع لما تضمنته من الفوائد القيمة وحكم تلك الكنوز المحبوسة ولتتبين لك حقيقة الوهابيين (١) الذين وصمهم العامة بما هم منه براء قال:

(١) المتغالين فى الدين (ولن يشاد الدين أحد الأغلبة).

إنه فى عام ١٢٢١ هـ . وصلت الأخبار الى مصر من الديار الحجازية بمسالمة الشريف غالب للوهابيين وذلك لشدّة ما حصل لهم من المضايقة الشديدة وقطع الجالب عنهم من كل ناحية حتى وصل ثمن الأردب المصرى من الأرز ٥٠٠ ريال والقمح ٣٠٠ وغير ذلك، فلم يسع الشريف إلا مسالمتهم والدخول فى طاعتهم وسلوك طريقتهم وأخذ العهد على دعاتهم وكبيرهم بداخل الكعبة وأمر بمنع المنكرات والتجاهر بها وشرب التنباك فى المسعى وبين الصفا والمروة، وبالملازمة على الصلوات فى الجماعة ودفع الزكاة وترك لبس الحرير والمقصبات وإبطال المكوس والمظالم ومصادرات الناس فى أموالهم فيكون الشخص من سائر الناس جالسا فى داره فما يشعر إلا وأعوان الشريف يأمرونه بإخلاء الدار وخروجه منها ويقولون إن سيد الجميع محتاج اليها فما يجد حيلة إلا الطاعة وتصير من أملاك الشريف، فعاهده الشريف على ترك ذلك كله واتباع ما أمر الله به فى كتابه العزيز من إخلاص التوحيد لله وحده واتباع سنة الرسول صلى الله عليه وسلم وما كان عليه الخلفاء الراشدون والصحابة والأئمة الى آخر القرن الثالث وترك ما حدث فى الناس من الالتجاء لغير الله من المخلوقين الأحياء والأموات فى الشدائد وما أحدثوه من بناء القباب على القبور والزخارف وتقبيل الأعتاب والخضوع والتذلل والمناداة والطواف والنذور والقربان وعمل الأعياد والمواسم لها واجتماع أصناف الخلائق واختلاط النساء بالرجال وباقى الأشياء التى فيها شركة المخلوقين مع الخالق فى توحيد الألوهية التى بعثت الرسل لمقاتلة من خالفها ليكون الدين كله لله، فعاهده الشريف على منع ذلك كله وعلى هدم القباب المبنية على القبور والأضرحة فعند ذلك أمنت السبل وسلكت الطرق بين مكة والمدينة وجدة والطائف ورخصت الأسعار حتى بيع الأردب من الحنطة بأربعة ريالات، واستمر الشريف غالب يأخذ العشور من التجار بقوله : إن هؤلاء مشركون وأنا آخذ من المشركين لا من الموحدين، وفى سنة ١٢٢٤ هـ . وصل مسعود الوهابى الى مكة بجيش كثيف وحج مع الناس فى حالة أمن ورخاء سعر، وأحضر أمير الحج المصرى وقال له : ما هذه

العويدات والطبول التى معكم ويقصد بالعويدات المحمل فقال : إشارة وعلامة على اجتماع الناس بحسب عادتهم فقال : لا تأت بذلك بعد هذا العام وإن أتيت به أحرقته وهدم القباب التى بينبع والمدينة وأبطل شرب التنباك فى الأسواق وكذلك البدع . وفى سنة ١٢٢٣ هـ . انقطع الحج الشامى والمصرى معتلين بمنع الوهابى للناس عن الحج ، وليس الأمر كذلك فإنه لم يمنع أحدا يأتى الى الحج على الطريقة المشروعة وإنما منع من يأتى بخلاف ذلك من البدع التى لا يجيزها الشرع مثل المحمل والطبل والزمر، وقد حج طائفة من المغاربة ولم يتعرّض لهم أحد بشىء، ولما امتنعت قوافل الحج المصرى والشامى وامتنع عن أهل المدينة ومكة ما كان يصل اليهم من الصدقات والعلائف والصرر التى كانوا يتعيشون منها خرجوا من أوطانهم بأسرهم ولم يمكث إلا الذى ليس له إيراد من ذلك وأتوا الى مصر والشام، ومنهم من ذهب الى استامبول يتشكون من الوهابى ويستغيثون بالدولة فى خلاص الحرمين لتعود لهم الحالة التى كانوا عليها من إجراء الأرزاق واتصال الصلات والنيابات والخدم فى الوظائف التى بأسماء رجال الدولة كالفراشة والكناسة ونحو ذلك .

ويذكرون أن الوهابى لما استولى على المدينة أخذ ما كان بالحجرة الشريفة من الذخائر والجواهر المحلاة بالألماس والياقوت العظيمة القدر وعبأ أربع « سحاحير » منها، ومن ذلك أربع شمعدانات من الزمرد وبدل الشمعة قطعة ألماس مستطيلة ونحو مائة سيف أقرابها ملبسة بالذهب عليه الماس والياقوت ونصابها من الزمرد واليشم كل سيف منها عظيم القيمة عليه دمغات باسم الملوك والخلفاء السالفين وغير ذلك فيرون أن أخذه لذلك من الكبائر العظام، وهذه الأشياء أرسلها ووضعها من وضعها من الأغنياء والملوك والسلاطين الأعاجم وغيرهم إما حرصا على الدنيا وكراهة أن يأخذها من يأتى بعدهم أو لنوائب الزمان فتكون مدخرة ومحفوظة لوقت الاحتياج إليها فيستعان بها على الجهاد ودفع الأعداء، فلما تقادمت عليها الأزمنة وتوالت عليها السنون والأعوام وهى فى الزيادة ارتصدت معنى لا حقيقة وارتسم فى الأذهان حرمة تناولها وأنها صارت مالا للنبى صلى الله عليه وسلم فلا يجوز لأحد

أخذها ولا إنفاقها ، والنبى صلى الله عليه وسلم منزه عن ذلك لم يدخر شيئا من عرض الدنيا فى حياته ، وثبت فى الصحيحين أنه قال « اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا » وكنز المال بحجرته وحرمان مستحقيه من الفقراء والمساكين مخالف لشريعته ، وإن قال المدخر أكنزها لنوائب الزمان ليستعان بها على مجاهدة الكفار والمشركين عند الحاجة اليها قلنا : قد رأينا شدّة احتياج ملوك زماننا واضطرارهم فى مصالحة المتغلبين عليهم من قرانات الافرنج وخلو خزائنهم من الأموال التى أفنوها بسوء تدبيرهم وتفاخرهم فيصالحون المتغلبين بالمقادير العظيمة بكفالة إحدى الفرق من الافرنج المسالمين لهم واحتالوا على تحصيل المال من رعاياهم بزيادة المكوس والمصادرات والاستيلاء على الأموال بغير حق حتى أفقروا تجارهم ورعاياهم ، ولم يأخذوا من هذه المدخرات شيئا ولم ينتفع بها أحد إلا ما يختلسه أغوات الحرم تبعا ، وأما الفقراء من أولاد الرسول وأهل العلم والمحتاجين وأبناء السبيل فيموتون جوعا .

ولما كثرت شكاوى أهل المدينة إلى الباب العالى أمر مولانا السلطان محمد على باشا والى مصر بمحاربة الوهابية فحاربهم وانتصر عليهم ، وفى ١٨ رجب سنة ١٢٣٣ هـ . حضر باقى الوهابية بحريمهم وأولادهم وهم نحو أربعمائة نسمة وأسكنوهم فى محلات تليق بهم وكان عبد الله بن سعود الوهابى وخواصه من جملتهم وسكنوا بدار عند جامع مسكة من غير حرج عليهم ، وصاروا يذهبون ويجيئون ويترددون على المشايخ وغيرهم ويمشون فى الأسواق ، ولما وصل عبد الله بن سعود إلى مصر عمل له موكب عظيم وضربت له المدافع[1] وسكن فى بيت إسماعيل باشا ابن محمد على باشا ببولاق ، وفى ثانى يوم تقابل مع محمد على باشا بسراى شبرا فآنسه وأجلسه بجانبه وقال له ما هذه المطاولة؟ فقال : الحرب سجال وكان ما قدره الله فقال : إن شاء الله أرجو فيك عند مولانا السلطان فقال : المقدر يكون ، وكان بصحبته صندوق صغير من صفيح فقال له الباشا ما هذا؟ فقال : هذا ما أخذه أبى من الحجرة أصحبه معى إلى السلطان ، وفتحه فوجد به ثلاثة مصاحف مكلفة ونحو

(١) لم يقبل الاحتفال وضرب المدافع مع أنه على السنة كما يقولون .

ثلثمائة[(١)] حبـة لؤلؤ كبيرة وحبة زمرد كبيرة فقال له الباشا : الذى أخـذه من الحجرة أشياء كثيرة فقال : هـذا هو الذى وجدته عنـد أبى فانه لم يسـتأصل كل ما كان فى الحجرة لنفسه بل أخذ كذلك كبار العرب وأهل المدينـة وأغوات الحرم وشريف مكة فقال الباشا : صحيح وجدنا عنـد الشريف أشياء من ذلك ثم ألبسه خلعة[(٢)] وانصرف عنـه الى بيت اسماعيل باشا المعدّ له ، وفى ١٩ المحرم سـنة ١٢٣٤ هـ . سافر عبـد الله بن سعود الى الاسكندرية ومنهـا الى الأستانة ومعه خدم لزومه ، وفى جمادى الاولى وصلت الأخبار عن عبد الله المذكور أنه لمـا وصل الى دار السعادة طافوا به البلدة وقتلوه عند باب همايون وقتلوا أتباعه أيضا فى نواح متفرقة اهـ .

هذا ما يتعلق بالهدايا الثمينة والتعليقات النفيسة وسيأتى وصف الرسوم والنقوش البديعة التى بالمسجد عند الكلام على عمارة السلطان عبد المجيد له ، وأكثر جهات المسجد به سور وآيات وقصائد فى أغراض شتى ، نذكر لك منها ما ينفسح له المجال. إذا دخلت من باب السـلام تجد مكتوبا على الحائط الذى عن يمينك بالخط الثلث الجميـل قول الله جل شأنه بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ — الى قوله — لعلّهم يَرْشُدون ﴾ وبعد ذلك قوله تعالى ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ ثم قوله عز شأنه ﴿ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴾ ثم بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ — الى قوله — إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ثم قوله بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ — الى قوله — وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ صـدق الله العظيم وصدق رسوله الكريم وصـلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبـه وسلم ورضى الله تعالى عن أصحاب سيدنا رسول الله أجمعين . ثم قوله بعـد البسملة ﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا

(١) لِمَ لم يبع الجواهر ليستعين بها على الحرب الشرعى وكيف يهديها للسلطان وهو فى غنى عنها وربمـا كان هو الذى أهداها أولا . (٢) لم يستجيز لنفسه لبس هذه الخلعة ويستنكر المحمل .

مِنْ قَبْلُ وكان أمرُ اللهِ قدَرا مقدورا — الى قوله — وتوكَّلْ على اللهِ وكفى باللهِ وكيلا ﴾ اللهم صلى وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين ثم قوله بعد البسملة ﴿ وما أرسلْنا من رسولٍ إلَّا ليُطَاعَ بإذنِ الله — الى قوله — ويُسَلِّموا تسليما ﴾ صدق الله العظيم . ثم قوله بعد البسملة ﴿ هو الذى أرسلَ رسولَه بالهدى ودينِ الحقِّ — الى قوله — سِيمَاهُمْ فى وجوهِهم من أثرِ السُّجودِ ﴾ صدق الله العظيم . وفوق ذلك مكتوب فى لوحة : قال الله تعالى ﴿ وما آتاكُمُ الرسولُ فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ وهذه الكتابات كلها فى سطر واحد يبتدئ من باب السلام مارا بالحائط القبلى ، وفى سطر تحت هذا مكتوب بالخط العريض قال الله تعالى ﴿ وما تفعلوا من خيرٍ يَعْلَمْه اللهُ وتزوَّدوا فإن خيرَ الزادِ التَّقْوى واتَّقونِ يا أولِى الألباب ﴾ صدق الله العظيم . و بعد ذلك قوله ﴿ أولئك يُسارعون فى الخيراتِ وهُمْ لها سابِقون ﴾ ثم قوله بعد البسملة ﴿ إنما يعمُر مساجدَ اللهِ مَنْ آمن باللهِ واليومِ الآخرِ وأقام الصَّلاةَ وآتى الزكاةَ ولم يخشَ إلا اللهَ — الى قوله — والله لا يهدِى القومَ الفاسقين ﴾ صدق الله العظيم وصدق رسوله الكريم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم و رضى الله تعالى عنهم أجمعين و بعد ذلك البسملة فقوله تعالى ﴿ مَثَلُ الذينَ يُنْفِقون أموالَهمْ فى سبيلِ الله كمثل حَبَّةٍ أنبتت سبعَ سنابلَ فى كلِّ سنبلةٍ مائةُ حبةٍ — الى قوله — واللهُ غنىٌّ حليمٌ ﴾ صدق الله العظيم . بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ إن اللهَ وملائكتَه يُصَلُّون على النبىِّ يا أيُّها الذين آمنوا صَلُّوا عليه وسلِّموا تسليما ﴾ صدق الله العظيم . وفى سطر ثالث تحت هذين قوله تعالى بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ فى بُيوتٍ أذن الله أن تُرْفَعَ ويُذْكَرَ فيها اسْمُه — الى قوله — لِيَجْزِيَهم اللهُ أحسنَ ما عمِلوا ويَزِيدَهم مِنْ فضلِه ﴾ ثم قال الله تبارك وتعالى فى كتابه الكريم . ﴿ فإذا قرأتَ القرآنَ فاستعذْ باللهِ مِن الشيطانِ الرجيم . إنه ليسَ له سلطانٌ على الذين آمنوا وعلى ربِّهِمْ يتوكلون ﴾ ثم بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ إنا فتَحْنا لك فتحا مُبينا ﴾ — الى

آخر السورة — صدق الله العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه الطاهرين أجمعين وهذا الختام تجاه الوجه الشريف ثم

بنور رسول الله شرفت الدُّنَى * ففى نوره كل يجىء ويذهب
براه جلال الحق للخلق رحمة * فكل الورى فى بره يتقلب
بدا مجده قبل آنشاء رمزه * وأسماؤه من قبل فى اللوح تكتب

أنظر نظام السطور وشكلها فى (الرسم ١٨٥) ومكتوب على عضادتى باب السلام من الخارج أربعة أسطر بالخط الثلث الجميل ، فى الأول منها قال الله تعالى: ﴿ومن أصدقُ منَ اللهِ حديثا﴾ . ﴿وقُلْ ربِّ أدخلْنى مُدْخَلَ صدقٍ وأخرِجْنى مُخْرَجَ صدْقٍ — إلى قوله — وإذا مسه الشرُّ كانَ يَؤوسا﴾ وفى السطر الثانى بعد البسملة قوله تعالى ﴿لقَدْ كانَ لكُمْ فى رسولِ الله أُسْوةٌ حسنةٌ لِمَنْ كان يرجو اللهَ واليومَ الآخرَ — إلى قوله — وكان اللهُ قويا عزيزا﴾ .

وفى السطر الثالث :

رسول الله إنى مستجير * بجاهك والزمان له اعتداء
وجاهك يا رسول الله جاه * رفيع ما لرفعته انتهاء
وظنى فيك يا طه جميل * ومنك الجود يعهد والسخاء
وحاشا أن أرى ضيما وذلا * ولى نسب بمدحك وانتماء
رجوتك يا آبن آمنة لأنى * محب والمحب له رجاء
عسى بك تنجلى عنى كروبى * وكم كرب له منك انجلاء
وكم لك يا رسول الله فضل * تضيق الأرض عنه والسماء
وكم لك معجزات ظاهرات * كضوء الشمس ليس له خفاء
وأنت لنا على خلق عظيم * ونحن على العموم لك الفداء

ومكتوب على الباب الذى على يمين المحراب النبوى فى الفاصل النحاسى قال صلى الله عليه وسلم : « شفاعتى يوم القيامة حق فمن لم يؤمن بها لم يكن من أهلها » وفى الباب الذى على يساره « شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى » .

ومكتوب فى المسجد قصيدة البوصيرى المشهورة بالبردة والتى مطلعها :

أمن تذكر جيران بذى سَلَمِ * مزجت دمعا جرى من مقلة بدم

وكذلك أسماء الله الحسنى وأسماء أهل بدر الى غير ذلك وكل هذا مكتوب بالخط الجميل المحلى بماء الذهب .

والمسجد مفروشة أروقته بالسجادات التركية الجميلة المقسم كل منها بالرسم الى سجادات صغيرة الواحدة منها تكفى المصلى وترشده الى القبلة ، أما صحنه فمفروش بالحصباء كما أسلفنا ، وبالمسجد ٥٧ أغا وأكثرهم يقوم بخدمة الحجرة النبوية (المقصورة) وله ٤٦ خطيبا يتناوبون الخطبة و٣٨ إماما و٣١ وكيل إمام و١٨ مدرّسا يدرّسون المذاهب الثلاثة الحنفى والمالكى والشافعى و٥٠ مؤذنا و٢٦ وكيل مؤذن و١٢ محافظا على النظام — مشدا — و٥١ كناسا و١١ بوابا و١٠ سقائين و٤ يجبدون المياه و٧٥٠ يقومون بتنظيف القناديل وملئها وإسراجها ، و٢٦ ما بين صائغ وخائط وسراج وغيرهم ... وأوّل من رتب الأغوات لخدمة المسجد والحجرة نور الدّين الشهيد فى أوّل دولة الأكراد رتب آثنى عشر وشرط حفظهم لكتاب الله تعالى وربع العبادات وأن يكونوا حبوشا فإن لم يوجدوا فأروام فإن لم يوجدوا فتكارنة فان لم يوجدوا فهنودا، وقيل : أوّل من رتبهم السلطان صلاح الدين الأيوبى رتب أربعة وعشرين وجعل عليهم شيخا يقال له بدر الدين الأسدى .

ووقف عليهم قريتى نقادة وقبالة على شاطئ النيل بالصعيد وكذلك وقف ثلث قرية سنديس ووقف ثلثيها الباقيين الملك الصالح عماد الدين وذلك فى سنة بضع وأربعين وسبعمائة . ثم صار سلاطين الغرب والسودان يرسلون أغوات من قبلهم للخدمة ، بل كل من رغب فى ذلك يرسل حتى زادوا على المائتين فى بعض الأحيان، وكثيرا ما كانت تثور بينهم العداوة والبغضاء وكثيرا ما كان فيهم أهل خير وصلاح، ولهم الآن مرتبات من قبل سلاطين آل عثمان وأوقاف بالمدينة وغيرها وترسل اليهم من أهل البر هدايا كثيرة يتسلمها رئيسهم المعروف بالمستسلم ويقسمها

بينهم بالسوية (انظر فى الرسمين ١٨١ و١٨٢) شكل الأغوات ، والذى فى الأول منهما يسمى حسن أغا أهداه الى المسجد أحد أمراء بخارى ، والثانى عبد اللطيف عبد القادر من أغوات سراى السلطان عبد الحميد وكلاهما بواب للحجرة النبوية ، وقد رتب السلطان محمود بالمسجد ٣٩ قارئا يتلون القرآن وصحيح البخارى وشفاء القاضى عياض ودلائل الخيرات والأحزاب والصلوات ولو قصر الأمر على تلاوة القرآن وعين للصحيح والشفاء من يقوم بدراستهما لكان ذلك أجدى ، ورتب السلطان عبد الحميد لمثل هذا ١٥٧ قارئ ورتبت والدته ثمانية فأولئك ٢٠٤ قارئ لو كانوا مفسرين وقائمين بتعليم العامة لحولوا أهل المدينة قاطبة عن الأمية وأوردوهم من العلوم مناهلها العذبة .

وعلى البناء المخمس حول قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ستائر من الحرير وكذلك على كل أبواب المقصورة وعلى المحاريب الثلاثة النبوى والسليمانى والعثمانى ، وللمنبر ستارة ، وللمئذنة الرئيسية ستارة ، وللشبكة التى على الحجرة النبوية ١٨ ستارة ، وعلى شبابيك مقدم الحجرة ٤ ستائر ، وللتهجد ستارة وللمنبر علمان ، وهناك إحدى عشرة ستارة من الأطلس الأخضر مسبلة من رأس قبة الحجرة إلى سطح أرضها ، انظر الستائر ضمن (الرسم ١٨٨) .

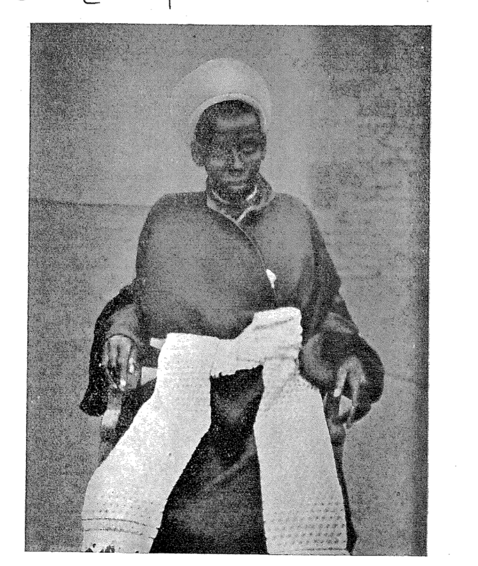
تاريخ المسجد النبوى

لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من هجرته نزل بقُباء وأقام فيها بضع عشرة ليلة أسس فيها مسجد قباء ثم تحول منها الى المدينة فتلقاه أهلها فرحين وخرجت ذوات الخدور تنشد :

أشرق البدر علينا * واختفت منه البدور

مثل حسنك ما رأينا * قط ياوجه السرور

رسم نمـــوذج اثنين من الاغوات بالمسجـــد النبوي



عبد اللطيف اغا عبد القادر بواب الحجرة النبوية الشريفة

181. A photo of one of the unichs of the Mohammedan Mosque.



حسن اغا بخارى قدمه هدية لخدمة المسجد النبوى

احد امراء بخارى

181. A photo of one of the unichs of the Mohammedan Mosque.

وخرجت جوار من بنى النجار أخواله صلى الله عليه وسلم يضربن بالدفوف ويقلن :

نحن جَوَارٍ من بنى النجار * يا حبـذا محمد من جار

فقال صلى الله عليه وسلم أتحببنى ؟ قلن : نعم يا رسول الله ! فقال : الله يعلم أن قلبى يحبكن ، وكان كل جماعة يعرضون عليه النزول بدارهم وهو يقول خلوا سبيل ناقتى فإنها مأمورة فحيث بركت نزلت ، فلما أتت موضع المسجد بركت وهو عليها وفى رواية عند بيته المشهور الآن بالحجرة الشريفة ثم قامت من غير أن تزجر وسارت غير بعيد وبركت تجاه دار أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه فنزل هناك وهى شرقى المسجد فأقام عنده بهذه الدار حوالى سبعة أشهر ولا تزال هذه الدار قائمة للآن ، وفى جدارها القبلى محراب يتبرك الناس به ثم أراد صلى الله عليه وسلم أن يبنى مسجده الشريف عند الموضع الذى بركت فيه ناقته أولا وكان مِرْبَدا — موضعا يجفف فيه التمر — لسهل وسهيل غلامين يتيمين من الأنصار وكانا فى حجر أسعد بن زُرارة فساوم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه فقالا : بل نهبه لك يا رسول الله فأبى حتى ابتاعه منهما بعشرة دنانير ، وكان جدارا ليس له سقف وقبلته إلى بيت المقدس وكان يصلى فيه ويجمع أسعد بن زرارة قبل مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان فيه شجر غرقد ونخل وقبور للمشركين ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقبور فنبشت وبالنخل والشجر فقطعت وصفت فى قبلة المسجد ، وكانت مساحة المسجد ٧٠ ذراعا فى ستين أى نحو ٣٥ مترا من جنوبه لشماليه فى ٣٠ من شرقه لغربه ، وكان أساسه قريبا من ثلاثة أذرع بنى بالحجارة ، وبنيت الجدر باللبن وكان صلى الله عليه وسلم يبنى معهم وينقل اللبن والحجارة وهو يقول : اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة ، وجعل عمده الجذوع وسقفه الجريد وكان به ثلاثة أروقة فى الجهة القبلية وله رحبة وثلاثة أبواب ، باب فى جهته الجنوبية وكانت قبلته إلى بيت المقدس أى فى الجهة الشمالية ، وصلى الى هذه القبلة سبعة عشر شهرا ثم تحول إلى المسجد الحرام

والباب الثانى باب عاتكة أو باب الرحمة الذى به الآن، والثالث باب آل عثمان وهو باب جبريل الآن وقد سدّ الباب الأول لما حوّلت القبلة وجعل بدله باب يقابله فى الجهة الشمالية ، ولما فرغ صلى الله عليه وسلم من بناء المسجد بنى بعائشة فى البيت الذى بناه لها شرقى المسجد وهو مكان حجرته اليوم كما بنى بجانبه بيتا آخر لسودة ، وبنى فى أوقات مختلفة بيوتا لأزواجه الأخريات كانت جنوبى المسجد يفصلها عنه طريق عرضه خمسة أذرع ، وكل هذه البيوت دخلت فى المسجد فى إمرة عمر بن عبد العزيز على المدينة ، ولما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة خيبر مفتتح سنة سبع من الهجرة زاد فى المسجد من جهة الشرق والغرب والشمال حتى صار مربعا طول ضلعه ١٠٠ ذراع أو ٥٠ مترا وهو الذى تراه ملونا باللون الأخضر الفاتح فى (الرسم ١٧٤) الذى أخذناه من رسم كبير عمله مهندسو الأتراك وطبعه بنفقته فى ألمانيا خليل افندى القازانى، واستأذناه فى تصغيره فأذن لنا كتابة . ولما كان زمن عمر بن الخطاب زاد فى المسجد من جهته الجنوبية نحو خمسة أمتار ومن جهته الغربية عشرة ومن الشمالية خمسة عشر مترا ، ولم يزد شيئا من الجهة الشرقية، ودخلت فى الزيادة الجنوبية دار العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعل له ستة أبواب، بابان فى الجهة الغربية حذاء باب الرحمة وباب السلام، وبابان فى الجهة الشرقية الثانى منهما حذاء باب النساء، والأول باب آل عثمان الذى لم يتغير، وبابان فى الجهة الشمالية ، وكان تجديد عمر للمسجد سنة ١٧ هـ . وكان بناؤه باللبن والجريد وعمده من الخشب، وفى سنة ٢٩ هـ . أعاد عثمان بن عفان بناء المسجد وزاد فيه رواقا من جهة الشرق والشمال والغرب والقبلة، واستقرّ الأمر على زيادته القبلية الى يومنا هذا، وبنى جدر المسجد بالحجارة المنقوشة والقَصَّة — الجص — وجعل عمده من حجارة منقورة أدخل فيها عمد الحديد وصب فيها الرصاص وسقفه بالساج، وجعل أبوابه ستة كما كانت فى عهد عمر، وقد سدّ بعدُ البابان الشماليان وما أحدث من الأبواب فى أطراف المسجد، وبقى بأبوابه الأربعة المعروفة حتى زيد الباب الخامس الشمالى فى عمارة السلطان عبد المجيد

وقد اتخذ عثمان مقصورة على مصلاه فى المسجد وكانت صغيرة من لبن وفيها كُوَة ينظر الناس منها الى الإمام ثم جعلها عمر بن عبد العزيز من ساج ثم جدّدها المهدى من ساج أيضا ونزل بأرضها الى أرض المسجد وكانت مرتفعة عن سطحه نحو ذراعين، ثم جدّد الوليد بن عبد الملك المسجد على يد عامله على المدينة الإمام العادل عمر بن عبد العزيز وابتدأ ذلك التجديد فى سنة ٨٨ هـ . وانتهى منه فى سنة ٩١ هـ. وقد زاد فى المسجد من جهة الغرب — ولم يزد بعدُ فى هذه الجهة شىء كبير — والشمال والشرق فأدخل فى المسجد حجر أزواج النبى صلى الله عليه وسلم التى كانت جنوبى المسجد وشماليه بعد أن هدم بناءها وكانت أبوابها شارعة فى المسجد، واقتطع أيضا جزءا من حجرة عائشة أدخله فى المسجد وذلك من جهة الروضة وأقام على الحجرة ذلك البناء الخماسى الذى تسدل عليه الكسوة اليوم ، ولم يجعله مربعا عدولا به سنن الكعبة حتى لا يتخذه الناس قبلة ، وقد بنى المسجد بالحجارة المطابقة والقصة وجعل عمد المسجد من حجارة حشوها عمد الحديد والرصاص، ونقش حيطانه بالفسيفساء والمرمر وعمل سقفه من الساج وحلاه بماء الذهب ونقش رءوس الأساطين والأعتاب بالذهب، ولما حج الوليد وقدم الى المدينة بعد فراغ عمر من عمارة المسجد أخذ ينظر فى جدره وسقفه ونقوشه وجميل شكله حتى اذا تم النظر التفت الى أبان بن عثمان وقال أين بناؤنا من بنائكم ؟ قال أبان : بنيناه بناء المساجد وبنيتموه بناء الكنائس .

ثم زاد المهدى العباسى فى المسجد من جهة الشمال وعلى زيادته استقر المسجد من هذه الجهة وكان بدء البناء سنة ١٦١ هـ . والفراغ منه سنة ١٦٥ هـ . وفى ليلة الجمعة أوّل رمضان سنة ٦٥٤ هـ . احترق المسجد من شعلة تركها موقد المصابيح فالتهمت ما حولها ثم امتدّت الى المسجد جميعه ولم يبق منه إلا قبة كانت بصحن المسجد أقامها الناصر لدين الله سنة ٥٧٦ هـ . لتحفظ بها ذخائر المسجد وكان فيها وقت الحريق المصحف العثمانى وأشياء أخرى، وقد حاول أهل المدينة إطفاء هذا الحريق فغلبهم وكان أمر الله قدرا مقدورا ، وقد كتب الى الخليفة المستعصم بالله عبد الله ابن المنتصر بالله بذلك الحريق فأرسل الصناع والآلات فى موسم الحج وبدأ تجديد

المسجد سنة ٦٥٥ هـ . وأرسل أخشابا ومواد للعمارة الملك المظفر صاحب اليمن وكذلك فعل نور الدين على بن المعز صاحب مصر والظاهر بيبرس البندقدارى وفى أيامه تمت العمارة ، وفى سنة ٧٠٥ هـ . وتاليتها جدّد الملك الناصر محمد بن قلاوون سقف المسجد شرقى رحبته وغربيها ، وفى سنة ٧٢٩ هـ . زاد رواقين فى المسقف القبلى مما يلى صحن المسجد ثم حصل فيهما خلل فجددهما الأشرف برسباى سنة ٨٣١ هـ . وجدّد الظاهر جقمق سنة ٨٥٣ هـ سقف الروضة وبعض سقف أخرى حصل فيها خلل ، وفى سنة ٨٧٩ هـ . أجرى الملك الأشرف قايتباى عمارة هامة بالمسجد شملت بعض سقفه وعمده وجدره ومآذنه . وفى ليلة الثالث عشر من رمضان سنة ٨٨٦ هـ . أبرقت السماء وأرعدت إرعادا شديدا أيقظ النائمين وانقضت صاعقة على هلال المئذنة الرئيسية قضت على رئيس المؤذنين الذى كان يهلل بالمئذنة وانتقلت الى سقف المسجد فالتهمته وانتشرت بالمسجد جميعه وصارت ترمى بشرر كالقصر كان يتساقط على المنازل المجاورة ولا يؤثر فيها ، وقد تهدمت جدر المسجد وتداعى أكثر أساطينه واحترقت المقصورة والمنبر والكتب والمصاحف ولم يسلم من طغيان النار إلا الحجرة الشريفة والقبة التى بالصحن وسلمت فى الحريق الأول ، وقد مات بهذا الحادث بضعة عشر شخصا رحمهم الله برحمته الواسعة ، ولما بلغ الخبر الأشرف قايتباى وجه الأمير سنقر الجمالى الى المدينة لعمارة المسجد ومعه مايزيد على مائة صانع والآلات اللازمة وشرعوا فى العمارة فبدأوا بالمئذنة الرئيسية فبنوها ثم بنوا الجدار القبلى والشرقى الى باب جبريل وزادوا فى عرضه يسيرا ووسعوا المحراب العثمانى وأقاموا عليه قبة على رءوس الأساطين التى حوله بعد أن دعموا كل أسطوانة بأخرى وربما دعموا الواحدة بأربع ، وأقاموا على جدر الحجرة النبوية قبة فوق السقف الذى كان عليها وجعلوا فوق القبة قبة أخرى أقيمت على الأساطين والدعائم التى أحدثوها فضيقت الجهة الشرقية فخرجوا بجدار المسجد ذراعين وربعا ، وأحدثوا أسطوانة فى رأس مثلث الحجرة وأقاموا قبة كبيرة تحيط بها ثلاث صغيرة بين الحجرة النبوية والجدار القبلى وقبتين أخريين أمام باب السلام من الداخل ، وبنوا هذا الباب

بالرخام الأسود والأبيض وزخرفوه كما زخرفوا المحراب العثمانى وأعادوا ترخيم الحجرة الشريفة وما حولها والجدار القبلى وصنعوا منبرا واتخذوا "دكة" للمؤذنين من الرخام وخفضوا أرض مقدم المسجد حتى ساوت أرض المصلى النبوى واتخذوا محرابا مجوفا للرسول صلى الله عليه وسلم فى دعامة أقاموها بين المنبر والقبر على حدّ مسجده الأصلى وزخرفوا هذا المحراب بالرخام الملون وجعلوا المقصورة فى محلها الأول، وبنوا الجدار الغربى من باب الرحمة الى باب السلام، وبنوا مئذنة باب الرحمة وجعلوا الأعمدة قصيرة فوقها عقود من الآجر عليها السقف من الخشب، وبنوا مدرسة بجوار المسجد بين باب السلام وباب الرحمة ولا تزال باقية للآن تعرف بالمحموية، وقد أنفق قايتباى على هذه العمارة ماقيمته ١٢٠٠٠٠ دينار أو ما يقرب من ٦٠٠٠٠ جنيه

ولما انتقلت الخلافة الى آل عثمان وأصبحت لهم السيطرة على الحرمين خلفوا ملوك مصر فى القيام بما يحتاج اليه المسجد النبوى ففى سنة ٩٨٠ هـ . عمره السلطان سليم الثانى وبنى به قبلة جميلة تراها غربى المنبر النبوى على حد المسجد الأصلى من الجهة القبلية وقد وشاها بالفسيفساء المنقوشة بماء الذهب وكتب اسمه على ظهرها بالخط الثلث الجميل، وفى سنة ١٢٣٣ هـ . بنى السلطان محمود القبة الشريفة ثم أمر بترميمها ودهانها باللون الأخضر سنة ١٢٥٥ هـ . ثم كانت العمارة الكبيرة التى قام بها السلطان عبد المجيد وقد بدأت فى سنة ١٢٦٥ هـ . وانتهت فى سنة ١٢٧٧ هـ . وسببها أن شيخ الحرم — المسجد النبوى — داود باشا كتب الى السطان عبد المجيد بأن المسجد النبوى مضى عليه ما يقارب أربعة قرون دون أن تقوم به عمارة هامة حتى آل كثير منه الى التخرب، فأرسل السلطان من قبله من استبان الحقيقة وتعرف حال المسجد ونبأه به فأمر بعمارته ووكل أمر ذلك إلى رجال انتخبهم فاختاروا أن يقتطعوا الأحجار والأعمدة من هضاب بوادى العقيق عند آبار على، ومهدوا الطريق للعربات وفتحوا بابا بالسور مما يلى باب الرحمة لتمر منه العربات ولا تزلزل أبنية المدينة وشرعوا فى هدم المسجد جزء جزء وجهة جهة حتى لا يعطل الناس عن الصلاة بهذا المسجد المبارك وكلما نقضوا جزء قديما أقاموا مكانه جديدا حتى أتموا العمارة

فى ثنتى عشرة سنة ، وقد تناولت المسجد كله خلا المقصورة وما فيهـا وبعض جدر لم ينقضوها لإحكام أساسها وإتقان بنائها فلم ينقضوا الجـدار الشمالى ولا الغـربى إلا الجزء الذى يلى المئذنة المجيدية ولم ينقضوا المحراب العثمانى لإتقانه وحسن صنعه وغيروا الأعمدة القديمة بأعمدة أخرى أكثرها قطعة واحدة يرتكز كل منها على مربع حجرى وفى عاوه مثـله ، وأقاموا عليهـا عقودا من الحجر الأحمر المنحوت وعلى تلك العقود قبابا فى كثير منها طاقات وشبابيك بهـا الشبكات النحاسية التى تشبه الزرد والزجاج الملون ينفذ منـه الضوء إلى جوف المسجد ، وترى فى (الرسم ١٨٣) قباب المسـجد ، والقبة الخضراء من خلفها قبة العشرة والمآذن هى من الشرق الى الغرب الرئيسية ، فمئذنة باب السلام فمئـذنة باب الرحمة ، وترى فى الرسم أسرّة جريد فوق السطوح ينام عليها المدنيون فى الصيف ولم يعيدوا من الأعمدة القـديمة إلا أعمدة كانت بالروضة مرخمة بالرخام الأبيض والأحمر ومذهبة فأعادوها ، واستحدثوا أعمدة ملصقة بالجدر لتقوم عليهـا القباب ووسعوا الأروقة الشمالية والشرقيـة والغربية ، فجعلوا فى الجهـة الشمالية رواقين بدل ثلاثة وكذلك الجهة الشرقية وجعلوا فى الغربية ثلاثة بدل أربعة من المئذنة المجيـدية الى باب الرحمـة ، ولم يوسعوا الأروقة القبلية التى تحاذى الصحن وإنمـا أضافوا اليها رواقين ممـا يلى صحن المسجد حتى غطت الأروقة القبلية التى تسامت الصحن أرض المسجد الأصلى الذى كان به أروقة ثلاثة فى جهته القبلية ، وباقيه رحبة فى الجهة الشمالية وخرجوا بالجدار الشرقى من المئذنة الرئيسية الى باب جبريل خمسة أذرع وربعا فوسع ما بين المقصورة والجدار وكان قبـل ضيقا ، وحدث من ذلك فجوة بين المئذنة الرئيسية والجدار الشرقى الجديد جعلوا بهـا خلوة فوقها أخرى يصعد اليها بسلم من الداخل ويوضع فيها بعض لوازم الحجرة ، وجدّدوا باب هـذه المنارة بالحجر الأحمـر المنحوت وهو باب غربى يجلس أمامه الخطيب ، وبنوا بين باب جبريل وباب النسـاء فى الخارج مكانا به صنابير — حنفيات — للوضوء ، وبنوا باب جبريل بحذاء الباب الأصـلى كما أعادوا بناء باب السـلام بشكل فخم ، وجعلوا أمامه من الداخل قبـة عظيمة ، وكان بشمالى

المسجد مخزن ومخبز ودور، فاشتريت الدور وهدم الكل، وبنى مكانه ساحتان بكل منهما أربع حجرات جعلت الشرقية منهما مكتبا والغربيـة مخزنا ولكل منهما باب داخلى فى المسجد وآخر خارجى، والساحة الشرقية هى طرقة الباب المجيـدى الذى أحدث فى شمالى المسجد أثناء هذه العمارة، وبين هذين البناءين مكان للوضوء، وقد تقدم وصف ذلك فلا داعى لتكراره، وبنوا المئذنة المجيدية على أبدع شكل وأجمل منظر بعد أن حفروا لها أساسا عظيما وهدموا القبة التى كانت بصحن المسجد مخزنا للزيت لأنها كانت تلوثه وآستعاضوا عنها بالمخزن الشمالى الغربى، وبنوا أطراف دكة الأغوات وجعلوا بأركانها قوائم ثبت بها "درابزين" من الصفر وجدّدوا دكة أخرى جنوبى هذه وأخفض منها وجعلوا عليها "درابزين" من الصفر أيضا، وبها محراب التهجد الذى حلوه بماء الذهب، ويفصل هذه الدكة عن دكة الأغوات الطريق الى باب النساء، وبنوا المحراب الذى على يمين الداخل من باب النساء وكذلك بنوا المخزن الذى فى شرقى دكة الأغوات وهو طبقتان وبجانبه ميضأة، وكان أحدث فى شرقى المسجد تجاه الصحن حظيرة صغيرة لحليلة السلطان محمود لما قدمت المدينة بعد سنة ١٢٥٠ هـ . وكانت أرضها مرتفعة عن سطح المسـجد فسويت به ووسعت بطول ثلاثة أعمـدة فى عرض الرواقين ثم وسعها شيخ الحرم محمـد حافظ باشا سنة ١٢٨٠ هـ . الى الشكل الذى تراها به الآن فى (الرسم ١٧٧)، وصارت المكان الخاص بصلاة النساء، وكان على حد المسجد النبوى من جهته القبلية "درابزين" من الخشب فرفعوه وبنوا مكانه حاجزا مسنما من الحجر الأحمر المنحوت عليـه "درابزين" من الصفر المشتبك بعضه ببعض وجعلوا به أربع فتحات أشبه بالأبواب واحدة يمين المحراب السليمانى أو الحنفى وثانية عن يساره وكذلك الأمر بجوار المحراب النبوى الذى لم يغير هو ولا المنبر فى هـذه العمارة، وكانت الجهة الغربيـة والشمالية والشرقية مرتفعة أرضها عن مقدم المسجد فسويت به حتى أصبح الجميع مستويا، وكان صحن المسـجد مسامتا لأرضه فخفض عنها، وفى أثناء التخفيض ظهرت بركة كبيرة مبنيـة بالآجر والجص والخشب لهـا درج فى جوانبها والمـاء ينبع من فوارة

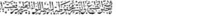
فى وسطها تأتى من العين الزرقاء ، وقد تقدم الكلام على هذه البركة أثناء حديث العين الزرقاء — ولا يكون الماء بهذه البركة إلا أيام الموسم — وبعد أن أتموا البناء رخموا أرض المسجد كلها والنصف الأسفل من الجدار القبلى ونقشوا فى القبب كلها رسوما تمثل أشجارا مختلفة وأزهارا شتى وجداول جارية وإن شئت فقل فى كل قبة حديقة زانت سماء المسجد ، والنقش فى القباب القبلية أجمل منه فى القباب الأخرى ، وصقلوا الأساطين ودهنوها بلون يشابه لون الحجر ونقشوا فى رءوسها أكفا ذهبية وأعادوا تذهيب المحراب النبوى والمنبر وصبغوهما باللازورد وذهبوا المحراب السليمانى أو الحنفى وزخرفوه ، ووصل بعد ذلك من الأستانة عبد الله بك زهدى الخطاط الشهير فكتب فى ثلاث سنين ما تراه بقبب المسجد وجدره وأساطينه من الآيات والقصائد وأسماء النبى صلى الله عليه وسلم .

وقد بلغت نفقات هذه العمارة ثلاثة أرباع مليون من الجنيهات المجيدية جزى الله مسديها جزاء وفاقا .

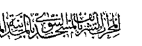
محاريب المسجد النبوى — به الآن ستة محاريب : (١) المحراب النبوى بالروضة على يسار المنبر ولم يكن فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم محراب مجوّف وإنما كان يصلى بهذا المكان أو قريبا منه ، وأول من أحدث المحراب المجوّف عمر ابن عبد العزيز والى المدينة فى خلافة الوليد ، وإنا لنشك فى صحة تلك النسبة اليه فان عمر أرعى الناس لسنة رسول الله صلى الله عايه وسلم وإن تجويف المحراب سنة نصرانية فكيف يُسْتَنّ عمر بسنة النصارى [(١)] ، وكان موضع هذا المحراب صندوق به

(١) قد عثرنا على رسالة فى دار الكتب السلطانية ألفها السيوطى بين فيها بدعة المحاريب المجوفة وأقام الدليل على ذلك من السنة متكلما على أسانيد الأحاديث سندا سندا ، وقد نقلنا هذه الرسالة فى عصر الأحد ٢ ربيع الأوّل سنة ١٣٣٦ هـ (١٦ ديسمبر سنة ١٩١٧ م) وأوّلها الحمد لله وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى « وبعد » فهذا جزء سميته إعلام الأديب بحدوث بدعة المحاريب لأن قوما خفى عليهم كون المحراب فى المساجد بدعة ، وظنوا أنه كان فى مسجد النبى صلى الله عليه وسلم فى زمنه ولم يكن فى زمنه قط محراب ولا فى زمن الخلفاء الأربعة فمن بعدهم الى آخر المائة الأولى وإنما حدث فى أوّل المائة الثانية مع ورود الحديث =

الروضة الشريفة وبها الشيخ محمد سالم طوم والدكتور ابراهيم بك سليمان



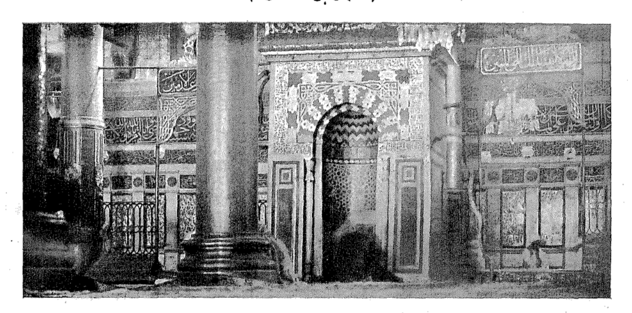
184. The Holy Niche in the Prophet's Mosque at Medina.




المحراب الشريف بالمسجد النبوي بالمدينة المنورة

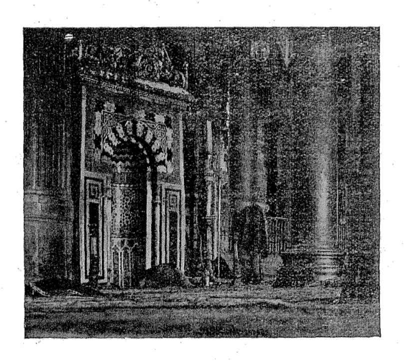
المحراب العثماني بالمسجد النبوي

(عثمان بن عفان)



185. A view of the Kibla of Osman Ibn Affan in the Mosque of Medina.

المحراب السليماني بالمسجد النبوي



186. A view of the Soliman Place of Prayer in the Mohammedan Mosque.

مصحف كبير أرسله الحجاج بن يوسف الى المدينـة المنورة حين أرسل الى أمهات القرى بمصاحف ، أنظر فى (الرسم ١٨٤) شكل المحـراب النبوى و بالرسم الطبيب. ابراهيم سليمان والشـيخ محمد سالم طموم نجل صهرنا وعبد اللطيف أغا خادم الحجرة. والشيخ يوسف المرجاوى إمام المحمل؛ (٢) المحراب العثمانى فى حائط المسجد القبلى وهو محدث فى مصلى عثمان بالناس وكان حول المصلى مقصورة من لبن اتخذها عثمان لمـا طعن عمر يتقى بها الأشرار — وقد ذكرنا ذلك قبلا وترى هذا المحراب فى (الرسم ١٨٥)؛ (٣) المحراب الحنفى و يعرف اليوم بالمحراب السليمانى وهو غربى المنبر على حدّ المسجد القديم من جهة القبلة وقد بناه « طوغان شيخ » بعد سـنة ٨٦٠ هـ . وكان الناس من عهد الرسول يصلون الى إمام واحد يقف بالمحراب النبوى وفى أيام الموسم يقف بالمحـراب العثمانى من الزحام فأراد طوغان أن يصـلى بالحنفية إمام لهم بالمحراب الذى أحدثه ، فقام المصلحون الواقفون عند السنة فى وجهه فمـا كان منه

= بالنهى عن اتخاذه وأنه من شأن الكنائس وأن اتخاذه فى المساجد من أشراط الساعة ، ثم ذكر المؤلف ما أخرجه البيهقى فى سننه الكبرى من أن أوّل من أحدث المحراب المجوّف عمر بن عبـد العزيز وما أخرجه أيضا عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : اتقوا هذه المذابح يعنى المحاريب ، وتكلم على رجال هذا الحديث و بين أنه حديث ثابت ثم ذكر ما رواه البزار فى مسنده عن عبد الله بن مسعود أنه كره الصلاة فى المحراب وقال : إنما كانت للكنائس فلا تشبهوا بأهل الكتاب يعنى أنه كره الصلاة فى الطاق وذكر حديثا مرسلا رواه ابن أبى شيبة فى مصنفه عن موسى الجهنى ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تزال هذه الأمة أو قال أمتى بخير ما لم يتخـذوا فى مساجدهم مذابح كمذابح النصارى ثم ذكر ما رواه ابن أبى شيبة أيضـا عن أبى ذر أنه قال : إن من أشراط الساعة أن تتخذ المذابح فى المساجد ، وروى أيضا عن عبيد ابن أبى الجعد قال : كان أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يقولون : إن من أشراط الساعة أن تتخذ المذابح فى المساجد يعنى الطاقات ، وذكر أيضا ما رواه عبد الرزاق فى مصنفه عن كعب قال : يكون فى آخر الزمان قوم يزينون مساجدهم و يتخذون بها مذابح كمذابح النصارى فاذا فعلوا ذلك صب عليهم البلاء ، وذكر بعد ذلك حديث الطبرانى فى الأوسط عن جابر بن أسامة الجهنى قال لقيت رسول الله صلى الله عليـه وسلم فى أصحابه بالسوق فقلت : أين تريد يارسول الله ؟ قال : نريد أن نخط لقومك مسجدا فأتيت وقد خط لهم مسجدا وغرز فى قبلتـه خشبة فأقامها قبـلة ، وفى آخر الرسالة أنهـا تمت على يد مصطفى جربجى بن أيوب جربجى الشافعى وأن ذلك فى يوم السبت ٣ ذى الحجة سنة ١٢٨١ هـ ، فى الساعة ١١ والدقيقة ٤٥

إلا أن سعى فى الدولة المصرية حتى أجازت له ما رغب فيه، فكان يصلى بالحنفية إمام لهم بالمحراب البدعى بعد صلاة الناس وراء إمام شافعى يقف بالمحراب النبوى وكانا يصليان التراويح معا، واستمر الأمر على ذلك الى سنة ١٢٢٩ هـ . أيام السلطان محمود فسعى محمد على باشا الذى قدم الى المدينة زائرا بعد فتنة الوهابية — لدى الدولة فى تقديم إمام الحنفية على إمام الشافعية فقسم الأمر بينهما وصار كل منهما يصلى يوما وليلة فى المحراب النبوى ويوما وليلة فى محراب الحنفية ولا يتقدم إمام الشافعية إلا فى صلاة الصبح ويصلى إمامهم بالمحراب النبوى فى أيام المواسم بعد انصراف إمام الحنفية من المحراب العثمانى — شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله وفرقوا جماعات المسلمين فى عبادة توحد بين القلوب فاللهم اهدنا صراطك المستقيم . وقد رخم هذا المحراب بالرخام الأبيض والأسود السلطان سليمان سنة ٩٣٨ هـ . ولهذا سمى بالمحراب السليمانى ومكتوب على هذا المحراب بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الحَرَامِ وحيثما كنتم فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ . ﴿ قُلْ صدق الله فاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وما كان مِنَ المشركينَ ﴾ الخ صدق الله العظيم وصدق نبيه الكريم ﴿ التائبونَ العابدونَ الحامدُون السائحونَ الراكعونَ الساجدونَ الآمرونَ بالمعروفِ والناهونَ عنِ المنكَرِ والحافظون لحدودِ اللهِ وبَشِّرِ المؤمنينَ ﴾ صدق الله العظيم اللهم صل على سيدنا محمد وآله، أنظر المحراب فى (الرسم ١٨٦) وتجد به « الملك الحق المبين » وامرأة ساجدة أمامه؛ (٤) محراب التهجد وهو خلف حجرة فاطمة خارج المقصورة الدائرة عليها، وعلى الحجرة الشريفة من جهة الشمال ويقال إنه فى متهجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، والمعروف أن تهجده فى غير قيام رمضان كان ببيته، وقد جدد هذا المحراب فى عمارة السلطان عبد المجيد وكتب فيه ﴿ ومِنَ الليلِ فتهجَّد بهِ نَافلةً لكَ عسَى أن يبْعثَكَ ربُّكَ مَقامًا محمودًا ﴾ ؛ (٥) محراب فاطمة جنوبى محراب التهجد داخل المقصورة مبنى على الأسطوانة الملاصقة للصندوق المقام على قبر فاطمة المزعوم؛

(٦) المحراب الذى شمالى دكة الأغوات أو مسطبتهم وهو محـدث فى العمارة الأخيرة وكان فى موضعه مصلى مشايخ الحرم فى الأعصر الخالية ويصلى به الآن شيخ الحرم صلاة التراويح .

المنـــبر النبوى — كان صلى الله عليه وسلم يخطب غير مستند الى شيء ثم خطب الى جذع يعتمد عليه اذا طال قيامه ثم بدا له أن يتخذ منبرا فاتخذه من الطَّرْفاء (الأثل) ذا درجات ثلاث وكان يقف على الثالثة ، فلما خطب أبو بكر نزل درجة ثم عمر درجة ثم على درجة يكبر كُلٌّ سلفه ، وقام عثمان على الدرجة السفلى ست سنين ثم رقِى حيث كان يرقى رسول الله صلى الله عليه وسلم فانتقده الصحابة وهو أول من كسا المنبر ثيابا قبطية ، ولما قدم معاوية الى المدينـة عام حج حرك المنبر وأراد أن يخرجه الى الشام فكسفت الشمس يومئذ حتى رؤيت النجوم ، فاعتذر معاوية الى الناس وقال : أردت أنظر الى ماتحته وخشيت عليه من الأرضة ، وزاد فيه مروان عامله على المدينة ست درجات من أسفله وقال : إنما زدت فيه لما كثر الناس فصار المنبر تسع درجات بالمجلس ، وكان الخلفاء يقفون على السابعة وهى الأولى من المنبر النبوى ، واستمر المنبر على هـذا حتى احترق المسجد سنة ٦٥٤ هـ . فاحترق ثم جدّد المظفر صاحب اليمن منبرا له رمانتان من الصندل وضع موضع الأول سنة ٦٥٦ هـ . ثم غير بمنبر أرسله الظاهر بيبرس ، ثم غير هذا بمنبر للظاهر برقوق أرسله سنة ٧٩٧ هـ . ثم استبدل الأخير بمنبر أرسله المؤيد سنة ٨٢٠ هـ . وقد احترق سنة ٨٨٦ هـ . فأقام أهل المدينة منبرا من الآجر المطلى بالنورة غير بمنبر من الرخام بعث به الأشرف قايتباى سنة ٨٨٨ هـ . ثم نقل هذا الى مسجد قباء ووضع مكانه منبر من الرخام أرسله السلطان مراد سنة ٩٩٨ هـ . ولا يزال الى يومنا هذا ، ولهذا المنبر اثنتا عشرة درجة ثلاث منها خارج بابه وتسع منها داخله وهو من عجائب الدنيا لا يوجد له مثيل ، هذا وقد روى بضعة عشر رجلا من الصحابة أن الجذع الذى كان يخطب اليه صلى الله عليه وسـلم حن إليه لما فارقه وأن رسول الله صلى الله عليـه وسلم وضع يده عليه فسكن ، والراجح أن ذلك الجذع مدفون بين المنبر ومصلى النبى صلى الله عليه وسلم .

ومكتوب على المنبر بأعلى بابه الأبيات الآتية :

أرسل السلطان مراد بن سليم * مستزيدا خير زاد للعباد
دام فى أوج[1] العلا سلطانه * آمنا فى ظله خير البلاد
نحو روض المصطفى صلى عليه * ربنا الهادى به كل العباد
منبرا قد أسست أركانه * بالهدى واليمن من صدق الفؤاد
منبرا يعلى الهدى إعلاؤه * دام منصوبا لأصحاب الرشاد
قال سعد ملهما تاريخه * عمر منبرا سلطان مراد

سنة ٩٩٨ هـ

انظر شكل الخطيب يوم الجمعة فى (الرسم ٣٢٦) لابسا عمامة تسمى الكودبان[2]

حجرة الرسول صلى الله عليه وسلم والمقصورة — كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم بيت فى الجنوب الشرقى للمسجد يعرف ببيت عائشة وكان جنوبيه بيت حفصة يفصله عنه طريق ضيق وكانت بقية البيوت التى يسكنها أزواجه التسع جنوبى المسجد الى محاذاة محرابه الآن وشرقيه الى ما بعد باب النساء وفى شماليه الى ما يحاذى منبره صلى الله عليه وسلم بين باب الرحمة وباب النساء ولم يكن ملاصقا للمسجد منها إلا بيت عائشة رضى الله عنها ، وكان له بابان : أحدهما غربى داخل المسجد ، والآخر شمالى وقيل غير ذلك ، وكان فى كل بيت من بيوت أزواجه حجرة مبنية بالجريد عليه أكسية الشعر أما البيوت فكانت من اللبن والجريد ولم تكن السقوف مرتفعة بل كانت قصيرة تنال باليد ، ولما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ١٢ ربيع الأول سنة ١١ هـ . دفن بحجرة السيدة عائشة رأسه الى الغرب ووجهه الشريف نحو القبلة ، ولما توفى أبو بكر فى ٢٢ جمادى الأولى سنة ١٣ هـ . دفن الى جانبه من جهة الشمال رأسه خلف منكب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولما طعن عمر استأذن عائشة أن يدفن مع صاحبيه فأذنت له ، فلما توفى فى ٢٧ ذى الحجة سنة ٣٢ هـ . دفن فى جوارهما شمالى أبى بكر رأسه عند منكبه وبذلك

(١) الأوج : ضد الهبوط . (٢) كهيئة عمامة الخلفاء العباسيين وملوك آل عثمان .

كان بيت عائشة قسمين قسم به القبور وقسم كانت تسكنه وبينهما حائط، وكانت تدخل أحيانا حيث القبر سافرة فلما دفن عمر لم تدخله إلا مقنّعة محافظة على الحجاب فى الحياة وفى الممات فلله هذه الآداب وتلك الأخلاق .

وقد أعيد بناء الحجرة باللبن فى عهد عمر رضى الله عنه ولما كانت خلافة الوليد ابن عبد الملك أدخل عامله على المدينة عمر بن عبد العزيز بيوت الأزواج فى المسجد وأقام بناء حول الحجرة التى بها القبور جعله مخمسا ولم يجعله مربعا خشية أن يستقبله الناس كما يستقبلون الكعبة، وقد ذرع السمهودى الحجرة الداخلية فاذا بضلعها الجنوبية من الداخل عشرة أذرع وثلثا ذراع، وضلعها الشمالية أحد عشر ذراعا و $\frac{5}{12}$ من الذراع، وطول كل من الضلعين الشرقية والغربية $7\frac{5}{8}$ أذرع — الذراع ٤٩ سنتيا — وارتفاع الحجرة ١٥ ذراعا ، وطول الضلع الجنوبية من الدائر المخمس ١٥ ذراعا إلا قليلا، وطول الشرقية منه ١٢ ½ ذراعا وطول الغربيــة ١٦ ½ ، وطول الضلعين الشرقية والشمالية ١٢ ½ ، وطول الغربية الشمالية ١٤ ذراعا، وارتفاع الدائر المخمس من أرض المسجد ثلاثة عشر ذراعا وثلث، وبين جدر الحجرة والدائر المخمس فضاء واسع من جهة الشمال ونحو ذراع من جهة الشرق والجنوب ولكنه يضيق الى شبر تجاه وجهه صلى الله عليه وسلم، أما الجداران الغربيان فليس بينهما فضاء ولم يتغير هذا الوضع الى يومنا هذا .

وكانت الحجرة مسقوفة بالخشب سمر بعضه فوق بعض وجعل عليه ثوب مشمع ثم أقام عليها أحمد بن البرهان عبد القوى ناظر قوص وقيــل الملك المنصور قلاوون سنة ٦٧٨ هـ . قبة مربعة من أسفلها مثمنة من أعلاها صنعت من خشب أقيم على رءوس الأساطين المحيطة بالحجرة وسقفت بألواح منه فوقها ألواح الرصاص منعا للمطر أن ينزل داخل الحجرة ، وهــذه القبة مبــدؤها من سقف المسجد وهو مواز لسقف حجــرة الرسول صلى الله عليــه وسلم الذى وصفناه والذى احترق فى حريق المسجد الأوّل ســنة ٦٥٤ هـ . وقد جدّد القبة الملك النــاصر حسن بن محمــد بن قلاوون . وجدّد ألواح الرصاص الأشرف شعبان ســنة ٧٦٥ هـ . وكذلك

الظاهر جقمق ولما احترق المسجد للمرّة الثانية جدّد الأشرف قايتباى سنة ٨٨٦ هـ. القبـة وجعلها على حائط الحجرة وبناها بالحجر الأسود المنحوت وكملها بالحجر الأبيض وكانت قبـل من الخشب ، وبلغ ارتفاعها من أرض الحجرة الى مرتكز هلالها ثمـانية عشر ذراعا وربعا ، وهـذه القبة لا يراها الآن من بأرض المسجد لأن الدائر المخمس الذى تسدل عليه الكسوة يمنع من رؤيتها ، وقد بنى قايتباى فوق هذه القبة قبة أخرى عظيمة اتخذ لها دعائم وأساطين حول الدائر المخمس ، ولم يكد يتم بناؤها حتى تشققت أعاليها فأعيد بناؤها محكما بعـد أن أخذ لها الجبس الأبيض من مصر وكان ذلك سـنة ٨٩٢ هـ . وهـذه القبة مزينة بالنقوش الجميلة وفيها طراز كتب فى جهته الغربيـة : أنشأ هذه القبـة الشريفة العالية المعترف بالتقصـير الراجى عفو ربه القدير قايتباى ، وفيها من الشبابيك والطاقات ست وسبعون ، وقد حدث بها شقوق فى زمن السلطان محمود بن السلطان عبد الحميد فأمر بتجديدها فهدم أعاليها وأعيد بناؤها متقنا وذلك سنة ١٢٣٣ هـ . ثم أمر بصبغها فصبغت باللون الأخضر وكان لونها قبـل أزرق لون الرصاص الذى عليها ثم صارت تصبغ باللون نفسه كلما خف سابقه من تأثير الشمس .

وقد حفر حول الحجرة خنـدق عميق صب فيه الرصاص حتى لا يستطيع أحد أن يصل الى جثة النبى صـلى الله عليه وسـلم كما حاول ذلك بعض النصارى سـنة ٥٥٧ هـ . فى زمن الملك العادل نور الدين الشهيد ولما فطن لذلك أمر بهذا الحاجز الرصاصى .

وكان فى الجدار القبلى من الخارج تجاه رأسه صلى الله عليه وسلم مسمار من فضة وضع علامة على الرأس فعوض ذلك بقطعة من الألماس أقل من بيضة الحمام وتحتها قطعة أخرى أكبر منها وكلتاهما مشدود بالذهب والفضة ويطلق عليهما الكوكب الدرّى وقد أهداهالى الحجرة السلطان أحمد خان بن السلطان محمد خان ، والقطعة الكبيرة تساوى ٨٠٠٠٠ دينار ، وتحت هاتين القطعتين حجر من الألمـاس مرصع بالجواهر الكريمة المشدودة عليه بالذهب والفضة أهداه السلطان مراد بن السلطان أحمد خان

قسم من الروضة النبوية والحجرة الشريفة من جهة الغرب بالمسجد النبوي بالمدينة المنورة



188. Section of the Prophet's Rawdah (Sacred burial place) and the Holy Sepulchre as seen from the West in the Prophet's Mosque at Medina.

سنة ١٠٤٧ هـ . وفى سنة ١١٥٤ هـ . أرسلت جواهر أخرى مما غنمها المسلمون من فتح بلغراد فوضعت تحت الأحجار السابقة، وفى سنة ١٢٩١ هـ . أهدت الملكة العادلة أخت السلطان عبد العزيز بن السلطان محمود صفيحة من الذهب طولها ثلاثة أرباع الذراع فى عرض أربعة أصابع كتب فيها بخط جميل : لا إله إلا الله محمد رسول الله وذلك بأحرف ذهبية مثبتة فى الصفيحة مرصعة بالألماس البرلنتى ولها سلسلة ذهبية علقت بها فوق الكوكب الدرّى ومكتوب على الحجرة فى جهاتها المختلفة شعر ركيك أبى قلمى أن يخط منه إلا هذين البيتين

إنى توسلت بالمختار أشرف من * رقى السماوات به الواحد الأحد

رب الجمال تعالى الله خالقه * فمثله فى جميع الخلق لم أجد

(أنظر الرسم ١٨٠) ففيه الجهة الغربية الشمالية من الحجرة وبه النجفة الكبيرة وشباك حديدى بالحجرة من جهة الغرب وهو مسبوك بالرصاص، وفى (الرسم ١٨٨) الحجرة من الجهة الغربية القبلية وظاهر بوسط الرسم باب الوفود ويسمى باب التوبة وستائر الحرير الخضر، وترى بجوار الباب شباكا فى الحظيرة النحاسية بجواره شخص يقرأ فى كتاب فشخص آخر، وكذلك ترى فى وسطه «كلوبا» للإضاءة كالذى نراه بمصر ولكن بدل بذلك مصابيح كهربائية، وهذه الأعمدة التى تراها فى الروضة بينها عوارض خشبية دقت فيها مسامير لمنع العصافير أن تقف عليها حتى لا يلوث المسجد .

وحول الدائر المخمس وقبر فاطمة المزعوم سور نحاسى مستطيل يطلق على ما بداخله المقصورة، وأوّل من أحدث هذا السور الظاهر بيبرس سنة ٦٦٨ هـ . وكان من خشب وكان ارتفاعه نحو القامتين فزاد فى طوله الملك العادل «كتبغا» حتى وصله بسقف المسجد ثم جعل فى سنة ٨٨٠ هـ . من الشبابك النحاسية وجعل متصلا بالعقود التى حول الحجرة وجعل سور نحاسى مشبك يفصل حجرة فاطمة أو قبرها المزعوم

عن الدائر المخمس وما يليه — وكل هذا فى زمن قايتباى[1] — فصار لفاطمة مقصورة مستقلة ولكنها تتصل بالمقصورة الكبيرة ببابين، والحجرة تطلق فى عرف أهل المدينة على المقصورة وأبوابها تسمى أبواب الحجرة الخ، وللمقصورة ستة أبواب : باب قبلى يسمى باب التوبة، وباب شرقى يسمى باب فاطمة، وباب غربى يطلق عليه باب الوفود، وباب شامى يسمى باب التهجد، وبابان على يمين المثلث ويساره داخل المقصورة، وأوّل من كسا الدائر المخمس الخَيْزُران أم هارون الرشيد كسته من الزنانير وشبائك الحرير ثم ابن أبى الهيجاء وزير ملك مصر كساها الديباج الأبيض عليه الطرز والجامات المرقومة، وجعل عليه زنارا من الحرير الأحمر كتبت فيه سورة يس ثم أرسل المستضىء بعد ذلك بسنتين كسوة من الديباج البنفسجى المطرز عليها اسمه وضعت مكان الأولى، ثم كساه الديباج الأسود الخليفة الناصر ثم صارت ترسل الكسوة من مصر كل ٦ سنين من الديباج الأسود المرقوم بالحرير الأبيض وعليها طراز منسوج بالذهب والفضة ثم ملوك آل عثمان من بعد ذلك، وكلما وردت كسوة جديدة قسمت القديمة، وقد تقدم ذكر الستائر التى للأبواب والمحاريب وغيرها ويقال أن أوّل من جعل الستائر على الأبواب زياد بن عبيد الله الحارثى سنة ١٣٨ هـ . أنظر قطعة من كسوة الدائر المخمس فى (الرسم ١٨٧) .

أبواب المسجد — ذكرنا فيما سلف أثناء الكلام على عمارة المسجد نبذا تتعلق بالأبواب ونقول هنا إن الأبواب التى كانت بالمسجد بعد زيادة المهدى أربعة وعشرون بابا بخوخة أبى بكر رضى الله عنه أربعة فى القبلة خاصة غير عامة وعشرون عامة، ثمانية فى المشرق وثمانية فى المغرب، منها خوخة الصديق وكانت شارعة فى الرحبة وأربعة فى الجهة الشامية، وقد سدت هذه الأبواب أثناء العمارات.

---

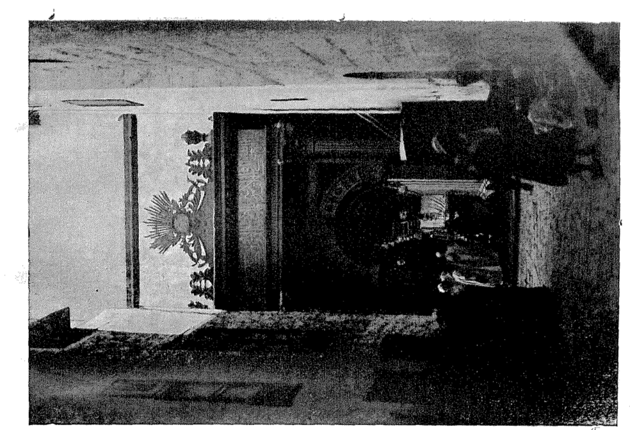
(١) وقد جاء فى الجزء الثانى من تاريخ ابن أياس (ص ٢٢٠ و ٢٣٢) أن قايتباى أرسل هذه الشبابك النحاسية مع المحمل فى شوّال سنة ٨٨٨ هـ . وأن زنتها ٤٠٠ قنطار حملها إلى المدينة ٧٠ جملا وأرسل معها مصحفا كبيرا نادر المثال حمل على جمل بمفرده، وهذا المصحف بخط شاهين النورى الذى مات ولم يتمه فأتمه الشيخ خطاب بأمر السلطان .

منظر كسوة الحجرة النبوية الشريفة من الداخل



187. Cover of the Prophet's Sepulchre as seen from inside.

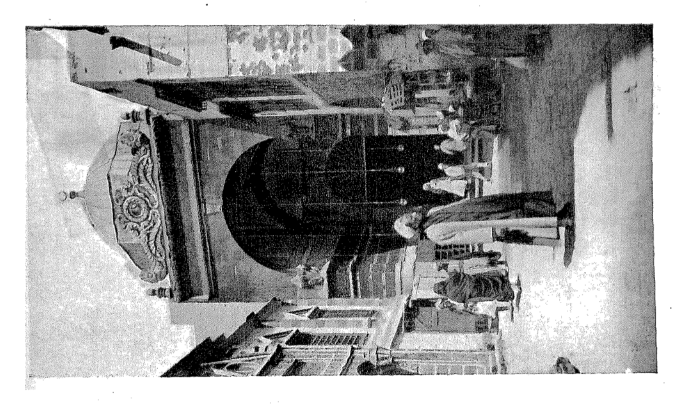
باب الرحمة بالحرم النبوي الشريف بالمدينة المنورة



189. The door of Mercy in the Prophet's Mosque at Medina.

صحيفة ٤٧٧

باب السلام فى المسجد النبوى بالمدينة المنورة



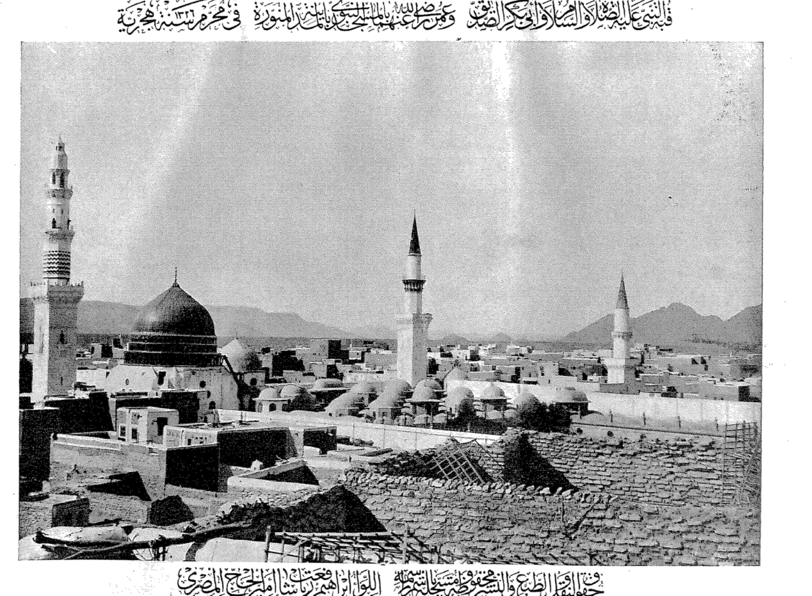
190. The door of El Salam in the Prophet's Mosque at Medina.

المختلفة ولم يبق منها إلا الأربعة التى فى شرق المسجد وغربه، أما الذى فى الشمال فأحدث فى عمارة السلطان عبد المجيد كما قدمنا فجملة الأبواب خمسة. (١) باب السلام فى المغرب وكان يعرف بباب مروان لملاصقته لداره التى كانت فى قبلة المسجد مما يلى الباب المذكور، وفى موضع تلك الدار ميضأة أنشأها المنصور قلاوون سنة ٦٨٦هـ. ثم أبدل بها أخيرا مدرسة السلطان بشير أغا ، ونقلت الميضأة الى غربى المسجد مقابل رأس الزقاق المعروف بزقاق الزرندى على يمينك وأنت ذاهب الى الباب المصرى، والزوّار يدخلون فى الأكثر من هذا الباب لكون طريقه أخصر الطرق من باب المدينة، ومكتوب على هذا الباب ﴿ إن المتقينَ فى جَنَّاتٍ وعُيونٍ أُدخُلوها بسَلامٍ آمِنينَ ﴾ وذلك بالنحاس الأصفر، وعليه من الخارج الكتابة الآتية : فداك أبى وأمى يارسول الله اللهم أيد بالنصر والعز السلطان عبد العزيز خان بن السلطان عبد المجيد خان — الى أن يصل بالنسب الى رأس الأسرة العثمانية السلطان عثمان خان — أيد الله ملكه الى آخر الزمان ونهاية الدوران أنظر (الرسم ١٩٠)؛
(٢) باب الرحمة فى الغرب أيضا وكان يعرف ببيت عاتكة بنت عبدالله بن يزيد بن معاوية لمقابلته لدارها وبباب السوق لأن السوق أوّلا كان فى هذه الجهة أما الآن فجهة باب السلام ويقال أن سبب تسميته بباب الرحمة أن أعرابيا دخل منه يوم جمعة فطلب من النبى صلى الله عليه وسلم أن يستمطر فدعا فمطروا سبعا حتى روى الناس والزرع، ثم دخل منه فى الجمعة التالية فطلب من الرسول أن يدعو برفع المطر خوفا على الأبنية وخشية الغرق فانقشعت السحب عن المدينة ، وهذه القصة فى صحيح البخارى ومكتوب على هذا الباب من الخارج قوله تعالى ﴿ قُلْ يا عِبادىَ الذين أسرفوا على أنفُسِهِم لا تَقْنَطُوا من رحمة الله إن اللهَ يغفر الذنوبَ جميعا إنه هو الغفورُ الرحيمُ ﴾ ومن الداخل قوله ﴿ وإذا جاءَكَ الذينَ يُؤْمنونَ بآياتنا فَقُلْ سَلامٌ عليكم كتبَ ربُّكم عَلَى نفسِهِ الرحمةَ ﴾ أنظر (الرسم ١٨٩) وقد جرت سنة أهل المدينة بإدخال جنائزهم من هذا الباب تفاؤلا بأن الله يرحم موتاهم، وخارج هذا الباب صنابير — حنفيات — للوضوء كتب على بنائها ما يأتى :

أعظم بخير خليفة سلطاننا * عبد المجيد المجد ذى الأمر الرشد
المغدق الحرمين جارى فضله * من فيض عين خزائن دوما يمد
من هذه بعض أوقاف له * تجرى معينا بالظهور لمن ورد
تاريخها بحريم أرفع مسجد * حنفية يبقى بها النفع الأبد
سنة ١٢٦١

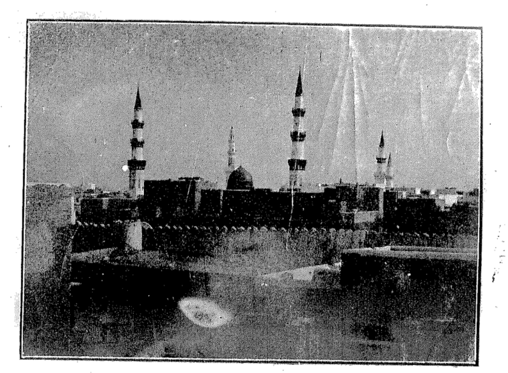
وبين باب الرحمة وباب السلام حجرة يعرف بابها بخوخة أبى بكر رضى الله عنه وهى فى محاذاة خوخة أبى بكر التى كانت بالجدار الغربى بالمسجد الأصلى، وكان بينهما أيضا دار القضاء التى كانت لعمر بن الخطاب وأوصى أن تباع فى دينه فبيعت من معاوية فسميت دار قضاء الدين، وقد هدمها زياد بن عبيد الله الحارثى فى ولايته سنة ١٨٨ هـ . وجعلها رحبة للمسجد ثم بنى فى مكانها الحصن الذى كان ينزله أمراء المدينة ثم صارت رباطا لغياث الدين سلطان بنجاله سنة ٨١٤ هـ . ثم دخلت فى رباط ومدرسة الأشرف قايتباى اللذين بناهما سنة ٨٨٨ هـ . ثم صارت المدرسة محكمة ينزل بها قضاة المدينة، ولما انتقلوا إلى المحكمة التى بالساحة تخربت المدرسة فأقام السلطان عبد المجيد على أنقاضها مدرسته التى بها المكتبة العظيمة وبنى بجوارها دارا لناظر المدرسة سنة ١٢٣٧ هـ . ثم جددهما السلطان عبد العزيز سنة ١٢٨٧ هـ؛ (٣) الباب المجيدى أو باب التوسل فى شمالى المسجد وهو من إنشاء السلطان عبد المجيد سنة ١٢٦٧ هـ . وعلى يسار هذا الباب وتجاهه مكانان للوضوء بالثانى منهما بيوت أدب؛ (٤) باب النساء فى الجهة الشرقية وهو من محدثات عمر رضى الله عنه سمى بذلك لأن عمر قال حين بناه : لو تركناه للنساء، وكان فى مقابلة هذا الباب دار رَيْطَة ابنة السفاح العباسى، وفى شرقيها دار أبى بكر رضى الله عنه التى فى موضعها الآن زاوية الشيخ عبد القادر الجيلانى أو زاوية السمان ومكتوب على هذا الباب (الله ولى التوفيق) قال الله تبارك وتعالى جل وتقدس ﴿ وأَقِمْنَ الصَّلاةَ وآتِينَ الزكاةَ — الآية — ﴾ صدق الله ربنا العظيم وصدق نبيه الكريم ﴿ واذْكُرْنَ ما يُتلى فى بيوتِكنَّ من آياتِ اللهِ والحكمة إن اللهَ كان لطيفا خَبيرا ﴾ ومكتوب على المصراع الأيمن (يا مفتح الأبواب) وعلى الأيسر (أفتح لنا خير باب) ثم عكس ذلك بالكتابة،

قبة النبي عليه الصلاة والسلام وأبي بكر الصديق وعمر رضي الله عنهما بالمسجد النبوي بالمدينة المنورة في محرم سنة ١٣٢٦ هجرية



183. The view of the domes of Mohamed the Prophet, Abu Bakr and Omar at Nabi Mosque

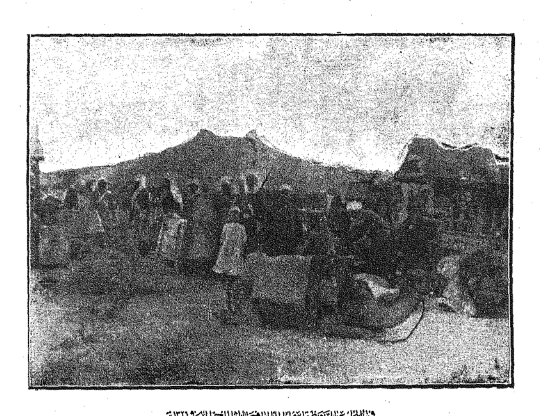
منابر المسجد النبوى وصور المدينة من الجهة الشرقية بالبقيع سنة ١٣٢١



191. The interior of the Mosque of Medina as seen from the North.

صحيفة ٤٨٥

قصر عبله فى طريق الوجه سنة ١٣٢٦



192. The Palace of Abla on the route from Al Wagh.

ومكتوب على هـذا الباب من الداخل فوق العقد ﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وللنساءِ نصيبٌ مما اكْتَسَبْنَ واسألُوا اللهَ من فضلِهِ إن اللهَ كان بكُلِّ شيءٍ عليما ﴾ وتحت العقد فوق العتبة ، قال الله تعالى فى كتابه الكريم ﴿ ومن يَقْنُتْ منكُنَّ لله ورسولِهِ وتَعْمَل صالحًا نؤتِها أجرَهَا مرَّتينِ واعتدنا لها رزقًا كريمًا ﴾ ؛ (٥) باب جبريل فى الشرق جنوبى باب النساء ويعرف قديمًا بباب عثمان لمقابلته دار آل عثمان وسمى بباب جبريل لأنه أتى إلى النبى صلى الله عليه وسلم عند هذا الباب وأمره أن يغزو بنى قريظة بعد انصرافه من غزوة الخندق .

ومكتوب على هـذا الباب البديع الصنع بالخط الثلث الجميل ، قال الله العليم الخبير فى كتابه العزيز ﴿ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلَاهُ وجبريلُ وصالحُ المُؤْمنينَ والملائكةُ بعدَ ذلكَ ظَهيرٌ ﴾ صدق الله خالقنا رب العالمين ومكتوب على مصراعيه ﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لهُمُ الأبْوابُ ﴾ .

مآذن المسجد — لم يكن بالمسجد مآذن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء بعده وإنما كان يؤذن على أسطوانة بدار عبد الله بن عمر التى تعرف الآن بدار العشرة وهى فى قبلة المسجد ، وكان بلال يرقى اليها على سبعة أقتاب — القَتَب الإكاف على قدر سَنَام البعير — فلما كانت زيادة الوليد أحدث عمر بن عبد العزيز عامله على المدينة أربع مآذن فى كل زاوية مئذنة ، وكانت المئذنة التى عند باب السلام مطلة على دار مروان فلما حج سليمان بن عبد الملك أذن المؤذن فأطل عليه فأمر بتلك المئذنة فهدمت إلى أن أعادها فى سنة ٧٠٦ هـ . السلطان محمد بن قلاوون وقيل أعادها شيخ الخدم شبل الدولة كافور المظفرى ؛ والمئذنة التى بباب الرحمة أنشأها قايتباى ، وكل المآذن حصل فيها تجديد وترميم إلا المئذنة المذكورة ، أنظر المآذن فى (الرسم ١٧١) الذى ترى فيه سور المدينة من الجهة الشرقية ، وأنظر الرسمين (١٨٣ و ١٧٨) وقد سبق عد المآذن والكلام على عمارتها وترميمها فلا داعى للتكرار .

تجمير المسجد — أول من جمره عمر بن الخطاب ثم تبعه الخلفاء الى يومنا هذا فيؤتى كل عام بمقدار من العود والعنبر وغيرهما من أنواع الطيب ويجمر به .

المسجد ليلة الجمعة ويومها والجمرة كل ليلة ، وكانت المجمرة فى زمن عمر من فضة وقد أهدى الى المسجد كثير من المجامر الذهبية والفضية المرصعة بالجواهر الثمينة ، وأكثر المهدين من ملوك آل عثمان وقد جعلوا لمن يقوم بالتجمير كل شهر خمسمائة قرش رزقا معلوما كل شهر .

آداب زيارة الرسول صلى الله عليه وسلم — يحسن بنا فى هذا المقام أن نورد لك نبذة مما كتبه فى مناسك الحج شيخ الاسلام ابن تيمية عن الزيارة الشرعية والزيارة البدعية قال : وإذا دخل المدينة قبل الحج أو بعده فإنه يأتى مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ويصلى فيه ، والصلاة فيه خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام ، ولا تشد الرحال إلا إليه وإلى المسجد الحرام وإلى المسجد الأقصى هكذا ثبت فى الصحيحين من حديث أبى هريرة وأبى سعيد وهو مروى من طرق أخر ، ومسجده كان أصغر مما هو اليوم وكذلك المسجد الحرام لكن زاد فيهما الخلفاء الراشدون ومن بعدهم وحكم الزيادة حكم المزيد فى جميع الأحكام ثم يسلم على النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبيه فإنه قال : ما من رجل يسلم علىّ إلا ردّ الله علىّ روحى حتى أرد عليه السلام — رواه أبو داود وغيره — وكان عبد الله بن عمر يقول إذا دخل المسجد : السلام عليك يا رسول الله السلام عليك يا أبا بكر السلام عليك يا أبت ثم ينصرف ، وهكذا كان الصحابة يسلمون عليه ويسلمون عليه مستقبلى الحجرة مستدبرى القبلة عند أكثر العلماء كمالك والشافعى وأحمد . وأبو حنيفة قال : يستقبل القبلة فمن أصحابه من قال يستدبر الحجرة ومنهم من قال يجعلها عن يساره ، واتفقوا على أنه لا يستلم الحجرة ولا يقبلها ولا يطوف بها ولا يصلى إليها وإذا قال فى سلامه : السلام عليك يا رسول الله يا نبى الله يا خيرة الله من خلقه يا أكرم الخلق على ربه يا إمام المتقين فهذا كله من صفاته بأبى هو وأمى صلى الله عليه وسلم ، وكذلك إذا صلى عليه مع السلام فهذا مما أمر الله به ولا يدعو هناك مستقبل الحجرة فإن هذا كله منهى عنه باتفاق الأئمة ومالك من أعظم الأئمة كراهية لذلك ، ولا يقف عند القبر

للدعاء لنفسه فإن هذا بدعة لم يكن يفعلها الصحابة إنما كانوا يستقبلون القبلة ويدعون فى مسجده فإنه صلى الله عليه وسلم قال : اللهم لا تجعل قبرى وثنا يعبد وقال : لا تجعلوا قبرى عيدا ولا تجعلوا بيوتكم قبورا وصلوا علىّ حيثما كنتم فإن صلاتكم تبلغنى وقال : أكثروا علىّ من الصلاة يوم الجمعة وليلة الجمعة فإن صلاتكم معروضة علىّ فقالوا : كيف تعرض صلاتنا عليك وقد أَرِمْتَ أى بليت قال : إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء فأخبر أنه يسمع الصلاة والسلام من القريب وأنه يبلغ ذلك من البعيد وقال : لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد — يحذر ما فعلوا — قالت عائشة : ولولا ذلك لأبرز قبره ولكنه كره أن يتخذ مسجدا — أخرجاه فى الصحيحين — فدفنته الصحابة من موضعه الذى مات فيه من حجرة عائشة ، وكانت هى وسائر الحجر خارج المسجد من قبليه وشرقيه حتى أدخلها عمر بن عبد العزيز فى المسجد ومن ضمنها حجرة عائشة التى بناها منحرفة عن القبلة مسنمة لئلا يصلى أحد اليها فإنه قال صلى الله عليه وسلم : لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها . رواه مسلم عن أبى مرثد الغنوى .

وزيارة القبور على وجهين زيارة شرعية وزيارة بدعية ، فالشرعية المقصود بها السلام على الميت والدعاء له كما يقصد ذلك بالصلاة على جنازته ، فزيارته بعد موته من جنس الصلاة عليه ، فالسنة أن يسلم على الميت ويدعو له سواء كان نبيا أو غير نبى كما كان صلى الله عليه وسلم يأمر أصحابه إذا زاروا القبور أن يقول أحدهم : السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ويرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين نسأل الله لنا ولكم العافية ، اللهم لا تحرمنا أجرهم ولا تفتنا بعدهم واغفر لنا ولهم ، وهكذا يقول إذا زار أهل البقيع ومن به من الصحابة أو غيرهم أو زار شهداء أحد وغيرهم ، وليست الصلاة عند قبورهم أو قبور غيرهم مستحبة عند أحد من أئمة المسلمين بل الصلاة فى المساجد التى ليس فيها قبر أحد من الأنبياء والصالحين وغيرهم أفضل من الصلاة فى المساجد التى فيها ذلك باتفاق أئمة المسلمين بل الصلاة فى المساجد التى على القبور إما محرمة وإما مكروهة .

والزيارة البدعية أن يكون مقصود الزائر أن يطلب حوائجه من ذلك الميت أو بقصد الدعاء عند قبره أو بقصد الدعاء به فهذا ليس من سنة النبي صلى الله عليه وسلم ولا استحبه أحد من سلف الأمة وأئمتها ، وقد كره مالك وغيره أن يقول القائل زرت قبر النبي صلى الله عليه وسلم وهذا اللفظ لم ينقل عن النبي صلى الله عليه وسلم بل الأحاديث المذكورة فى هذا الباب مثل قوله : من زارنى وزار أبى ابراهيم فى عام واحد ضمنت له على الله الجنة ، وقوله : من زارنى بعد مماتى فكأنما زارنى فى حياتى ، ومن زارنى بعد مماتى حلت عليه شفاعتى ونحو ذلك كلها أحاديث ضعيفة بل موضوعة ليست فى شيء من دواوين الاسلام التى يعتمد عليها ولا نقلها إمام من أئمة المسلمين لا الأئمة الأربعة ولا نحوهم ولكن روى بعضها البزار والدار قطنى ونحوهما بأسانيد ضعيفة ، ومن عادة الدار قطنى وأمثاله أن يذكروا هذا فى السنن ليعرف وهو وغيره يبينون ضعف الضعيف من ذلك ، فإذا كانت هذه الأمور البدعية منهيا عنها عند قبره وهو أفضل الخلق فالنهى عن ذلك عند قبر غيره أولى وأحرى .

وإلى هنا تم الكلام على المدينة وحرمها ومسجدها وآثارها وآن أوان الرحيل الى ديارنا فلنسر على بركة الله تعالى .

السفر من المدينة

الاحتفال بالسفر من المدينة — جرت العادة أن يقيم ركب المحمل زينة قبل سفره بليلة وقد أقمنا هذه الزينة مساء يوم الأحد ٢٣ المحرم سنة ١٣١٩ هـ . وقد هرع الأهالى والضباط والعساكر العثمانية لمشاهدتها ، وقد أحيينا هذه الليلة بتلاوة المولد النبوى ، والقائم بتلاوته جندى من الحرس يحسن إلقاءه ويجيد قراءة القرآن بصوت جميل ويعرف القراءات ، وقد اشتد الزحام حتى اضطررت لاستحضار جميع كراسى الأمير والأمين وفرشت جميع ما عندنا من السجادات و "الأكلمة" وشرفنا جمع من الأكابر من بينهم السيد على زين العابدين الحبشى العفيف القانع والتقى الزاهد وقد هاديته من ملبس كنت أحضرته معى من مصر وبزجاجتين

صغيرتين بهما روح النعناع والبرتقال ، وقدّمنا لكل من حضر الشربات والشاى ووزعنا عليهم قراطيس صغيرة فيها الملبس كعادة أهل المدينة والحجاز وآستمرت الحفلة إلى الساعة السادسة بعد الغروب .

ويحسن بنا فى هذا المقام أن نذكر كلمة عن الزينة التى يقيمها ركب المحمل فى الجهات المختلفة فنقول : الزينة تصرف من نظارة الحربية بعد أن تكتب لها نظارة الداخلية وهذه تكاتب أمير الحج بتسلمها ، وهاك نص الكتاب الذى ورد للأمير فى حج سنة ١٣٢٥ هـ . رقم ٢٥٠٥

أمير الحج المصرى « سعادتلو افندم » الأمل أن تأمروا حضرة « قومندان » الحرس بأن يتوجه لنظارة الحربية لمقابلة مدير المهمات لاستلام «الفشيك» (الأسهم النارية) اللازمة للعمل وقد أخطرنا نظارتى المالية والحربية بذلك .

١٩ ديسمبر سنة ١٩٠٧ م و ١٤ ذى القعدة سنة ١٣٢٥ هـ

عن وكيل الداخلية موريس بونيتو
ختم

وهاك ما صرف من كل نوع لكل بلدة من البلاد الآتية :

	كبريس ٩ و ٣	فدبرة	حمامة	بوابة	جملة	فلام للنور	صاروخ هواء	طارة صاروخ
جدة	—	—	—	١	١	١	١٧	١
عرفات	—	١	١	١	٢	١	٢٠	٢
منى	١	١	١	١	٢	٢	٣٥	٢
مكة	١	١	١	١	١	١	١٣	١
ينبع — عمل بها زينة ولم تدرج	—	—	—	—	—	—	—	—
المدينة	٢	١	١	١	٣	٢	٤٥	٢
جبل الطور	—	—	—	—	١	١	٢٠	١
الجملة	٤	٤	٤	٥	١٠	٨	١٥٠	٩

المرحلة الأولى من المدينة إلى بئر سـيدنا عثمان — فى الساعة العاشرة العربيـة من يوم الاثنين ٢٤ المحرم سـنة ١٣١٩ هـ . تحرّك ركبنا من المدينة يبغى الأوبة بعد الجولة وقد وصلنا بئر رومة المعروف ببئر عثمان بعد ساعة ونصف من بدء السير وهى فى شمال المدينـة الغربى مبنية بالآجر والملاط (المونة) بناء متقنا وقطرها أربعة أمتار وعمقها اثنا عشر مترا وماؤها شديد العذوبة .

وبجوارها حجرة وحوض للمياه ومصلى وفى جنوبها بمسيرة ١٥ دقيقة مسجد القبلتين الذى قدّمنا وصفه وقد وجدت فى حجـر بأعلاه (جدّده السلطان سليمان سـنة ٩٥٠ هـ) وهو مسجد صغير حوله مزارع فيها القثاء والخيار والبطيخ وغيرها وقد بتنا عند هـذه البئر والطريق من المدينة إليها سهل به من النبات أزواج شتى وفيـه بعض الجبال . وقد حضر إلى بئر عثمان مودعا رئيس خدم الحجـرة والمودعين والشيخ محمد الأديب وكيل فراشة الجناب العالى ومدرّس بالمسجد النبوى .

المرحلة الثانية من بئر رومة إلى بئر الظعينى — كنا عزمنا على السفر عند تمام الساعة الحادية عشرة من ليـلة الثلاثاء ٢٥ المحرم ولكنا انتظرنا سلطان المكلة والشحر إيرافق المحمل إلى الوجه وأرسلنا قسما من الفرسان ليساعده فى التحميل ويصحبه فى الطريق ، وقد بدأنا السـير فى منتصف الساعة الثالثة نهارا سالكين طريقـا سهلا مدّة ساعة ثم أرضا حجرية مدّة ٤ ساعات ونصف ثم أرضـا سهلة مدّة ٣ ساعات فوصلنا إلى بئر الظعينى وكانت الجبال فى مبدأ السير متقاربة على بعد ٤٠٠ ياردة ثم أخذت تتناءى شيئا فشيئا حتى كنا فى ميدان فسيح عنـد محطنا ببئر الظعينى ، وكان سيرنا نحو الشمال الغربى ٥ ساعات ونصفا ونحو الغرب ساعة ونصفا ثم نحو الشمال الغربى ساعة ونصفا وبالمحطة بئران مالحتان فى حاجر الجبل الغربى تحيط بهما الأشجار عمق الواحدة منهما ٦ أمتار ، ويسمى كل منهما المندسة ــ وخشب الحريق بهذه الجهة كثير جدا .

المرحلة الثالثة من بئر الظعينى إلى الملاليح — سرنا فى منتصف الساعة الحادية عشرة من ليـلة الأربعاء ٢٦ المحرم نحو الشمال الغربى خمس ساعات وربعا

ثم إلى الشمال ساعتين ، والطريق كله ميدان فسيح سهل تتباعد فيه الجبال وتكثر فيه الأشجار والحشائش وخشب الحريق وقد بلغنا آبار الملاليح في الساعة السادسة نهارا بعد أن استرحنا بالطريق ربع ساعة ، وهناك آبار خمس ماؤها من المطر فإذا لم يكن مطر فالماء به بعض الملوحة وعمق الواحدة ٣ أمتار وكان الحرّ شديدا في هذا اليوم سموما قتالا ولكن الله سلم .

المرحلة الرابعة من الملاليح الى قصر عبلة أو الشجوة — سرنا في الساعة ٩ والدقيقة ٤٠ من ليلة الخميس ٢٧ المحرم وبلغنا قصر عبلة (الرسم ١٩٢) بعد المغرب بساعة بعد أن استرحنا بالطريق خمس ساعات فمدّة السير ١٠ ساعات و ٢٠ دقيقة وكان سيرنا إلى الشمال الغربي ساعتين و ٣٠ دقيقة وإلى الغرب ساعة واحدة و ٥٠ دقيقة فالشمال الغربي ٦ ساعات والطريق واد متسع يسمى « وادي الحمض » به حنظل كثير وخشب للحريق وأكثر الأرض صالح للزراعة ، وفي منتهى الطريق أرض حجرية سهلة ذات مسالك — مدقات — قطعناها في ساعتين وكان الحرّ سموما .

المرحلة الخامسة من قصر عبلة إلى آبار الحلو — قمنا من القصر بعد المغرب بساعة من ليلة الجمعة ٢٨ المحرم وسرنا إلى الساعة الخامسة ليلا واسترحنا إلى تمام الساعة الحادية عشرة وتابعنا السير إلى الساعة الرابعة والدقيقة ٤٥ نهارا حيث كنا بآبار الحلو وماؤها مالح ذو نتن زائد لعدم استعماله ولم يشرب منه حاج واستصحبنا بعضه في القرب خشية أن نضطر إلى الشرب منه وسقينا منه الحيوانات فأدرّ بولها إدرارا شديدا حتى أن الفرس الذي كنت أعلوه كان يبول كل ١٠ دقائق بالتقريب ، وبهذه المحطة أثل كثير ورمال وقد رحلنا منها بعد الاستراحة لفقدان الماء الصالح بها وقد ضل عنا جمل عليه خيام لأمير المكلة أثناء سُرَانا فأرسلنا من الأعراب من أحضره فكافأه الأمير على ذلك بجنيهين وبنتيين ، وكان اتجاهنا إلى الشمال الغربي ٤ ساعات والى الشمال الشرقي ٤ ساعات و ٤٥ دقيقة وإلى الشمال الغربي ساعة والطريق رملي سهل تكتنفه الجبال ويكثر به خشب الحريق .

المرحلة السادسة من آبار الحلو الى آبار الحفائر أو النقارات — بدأنا السير وقت الغروب إلى الشمال الغربى وحططنا الرحال بعد الساعة السادسة بربع ساعة ثم تابعنا السير فى الساعة الحادية عشرة ليلا ووصلنا "آبار الحفائر" لتمام الساعة الرابعة من يوم السبت ٢٩ المحرم فمدة السير ١١ ساعة و ١٥ دقيقة ، والطريق سهل تتباعد عنه الجبال من الجانبين وفى آخره مسيرة ساعة نشوز — نبات — كثيرة والأرض حجرية غير مستوية تسع القطارين والثلاثة والآبار فى ميدان رحب أرضه سبخة وعدتها اثنا عشر بئرا مبنية أفواهها بالأحجار ومن تحت محفورة وعمقها ثلاثة أمتار وماؤها به بعض الملوحة والحطب كثير والحر لافح والأرض لا تستقر عليها قدم إذا هطلت عليها الأمطار .

وقد تجمع بهذه المحطة الأعراب على أمير المكلة يزينون له السفر إلى ينبع و يعدونه الراحة والأمن ولما كنت أعلم من مكرهم ما لا يعلم كلمت نجله بأنى لا أرضى بانفصال الأمير عن ركبنا إلا إذا حرّر كتابا بأنه تركنا رغبة واختيارا وأننا غير مسئولين إذا جدّ له حادث ففكر الأمير وارتأى رأينا ومتابعة السير صحبتنا .

المرحلة السابعة من الحفائر الى الفُقَيِّر — فى منتصف الساعة الحادية عشرة من ليلة الأحد مستهل صفر سنة ١٣١٩ هـ . قمنا من الحفائر سائرين نحو الجنوب الغربى فى أرض سبخة متماسكة وبعد مسير ساعة و ٤٥ دقيقة لقينا أشجارا كثيفة سرنا فى خلالها أربع ساعات إلا ربعا وقبل منتهاها بمسيرة ساعة وربع وجدنا كثيرا من شجر «الدوم» به ثمر ناضج أخذ منه كثير من الحجاج ، وقد وصلنا الفقير فى الساعة الخامسة نهارا بعد أن سرنا ٦ ساعات ونصفا ؛ وبالفقير آبار أربع تشبه آبار الحفائر بناء وعمقا وطعما .

المرحلة الثامنة من الفقير إلى العقلة — لتمام الساعة العاشرة من ليلة الاثنين ثانى صفر سرنا من الفقير إلى الشمال الغربى سبع ساعات واسترحنا ستا وتابعنا السير إلى الشمال الغربى ثلاث ساعات وربعا والى الجنوب الغربى أربعا إلا ربعا فوصلنا العقلة فى نهاية الساعة السادسة ليلا فمدّة السير ١٤ ساعة والجبال كانت متجافية عن

الطريق فى بدء السير وبعد مسيرة ٣ ساعات و٥٠ دقيقة تدانت فمررنا بمضيق ذى ارتفاع وانخفاض وبعده بربع ساعة مررنا ببناء قديم على اليسار طوله ٥٠ مترا وارتفاعه متران ويقال له قصر عنترة أو إصطبل عنترة وقد سرنا من الفقير ٦ ساعات فى أرض رملية سهلة بها أشجار قليلة ثم تكاثر الشجر بعد ذلك وهو متفرق فارع ، وعلى مسيرة ثمان ساعات ونصف من الفقير وجدنا أرضا حجرية غير مستوية من تأثير السيول بها فسرنا فيها بين الجبال الشامخة والأشجار العتيقة التى طوحت السيول بكثير منها ، وقد أوقدنا منها لإنارة الطريق الذى صعب مسلكه وتكاثر به الحصى ، الكبير والطريق من قبل العقلة بساعة رملى سهل قد استوت أرضه وكثرت فيه جَحَرةُ الأرانب الجبلية وكانت أقدام الإبل والخيل والبغال تغوص فيه إلى ٢٠ سنتيا ؛ وبالعقلة شوك كثير يسمى لُزِّيق وهو مستدير يشبه ترس الساعة له أسنان حادة كأطراف الإبر إذا دخل فى الجسم أو الملبس لا يخرج منه إلا بصعوبة ، والماء بها مالح لا يشرب وقد دلنا على ماء مطر يبعد عن الطريق مسيرة نصف ساعة أحد الأعراب نظير مكافأة قدّمناها له .

المرحلة التاسعة من العقلة إلى المطر — عند تمام الساعة التاسعة من يوم الثلاثاء ثالث صفر قمنا من العقلة وسرنا إلى الشمال الغربى ست ساعات بتنا بعدها فى الطريق ثم واصلنا السير عند الساعة العاشرة ليلا فوصلنا محطة المطر أو العجلة لتمام الساعة الخامسة من يوم الأربعاء رابع صفر وهنالك استرحنا ، وقد سرنا من العقلة ٧ س و ٣٠ ق فى أرض سهلة رملية متماسكة بها حشائش جيدة وسرنا بعد ذلك ساعة ونصفا فى أرض حجرية صعبة غير منتظمة ملأتها السيول بالأحجار وبعدها بنصف ساعة وجدنا على يميننا خورا كثير الأشجار قطعناه فى ١٧ دقيقة وهو ينتهى إلى جبل ينحدر منه من ارتفاع ١٢ مترا سلسل (سلسول) ماء قدر ما تخرجه الساقية صاف لونه عذب طعمه يشرب منه الأعراب القاطنون هنالك وكذلك دوابهم ولا يسقى منه زرع بل تنشفه الأرض بلا جدوى مع أن نزوله مستمر ليلا ونهارا ، وهذا السلسل يأتى من الأمطار التى تهطل على رءوس الجبال وهو يبعد عن محجة الطريق مسيرة ١٧ دقيقة بسير الخيل المعتاد وقد شاهدت سمكة صغيرة

فى المـاء المتكوّن منـه فى سفح الجبـل ولو بحث الانسان فى أرض الخور قليـلا لنبع ماء عذب أصله من ماء السلسل الذى سلك فى الأرض ينابيع ؛ وعربان هذه الجهـة يسكنون قنن الجبـال ولهم ولأغنامهم سرعة عجيبة فى النزول منها والصعود عليها مع علوّها ووعورة مرتقاها ولكنها العادة تيسر العسير وتذلل الصعب ، والأغنام عندهم رفيعة الثمن وقد ساومت واحدا منهم فى كبش حتى أبلغت ثمنه ٣ ريالات مصرية فلم يقبـل مع أنه يبـاع فى الجهات الأخرى بريال أو يزيد نصفا ، ويظهر أنهم يجهلون قيمة النقود فالشراء منهم شاق ، وقد وجدنا مع آمرأة قربة لبن حامض فأبت إلا أن تبيعها بثمن فاحش فباعتنا الكوز الذى يسع نصف رطل بنصف قرش ومن العجب أنهـا كانت تأخذ الثمن ونفسها راغبة عن إعطاء اللبن ، والطريق بعد الخور رملى سهل تتناءى عنه الجبال وتكثر فيه الأشجار وكان الجو حارا ، وللبن الحامض تأثير فى دفع الظمأ .

وقد سرق الأعراب خمسة جمال من مرافق الركب الذين يسبقونه عادة فى السير فيتركون إبلهم ترعى الحشائش وكانوا على مسيرة ٣٠ دقيقة من ركب المحمل وهـذه الجهة وإن لم تكن تابعة لسليمان باشا بن رفادة فإن له عليها سيطرة فلما نبأناه بالسرقة بعث من قبله من أحضر خمسة الجمال قبل مغادرتنا لمدينة الوجه .

المرحلة العاشرة من المطر إلى الخوتلة — قبل غروب شمس الأربعاء رابع صفر بساعة رحلنا من المطر أو العجلة أو المثر أو الناضوح كما يقولون سالكين نحو الشمال الغربى فوصلنا الخوتلة عند تمام الساعة السادسة ليلا وقد سرنا قبل الخوتلة فى أرض حجرية ساعتين ونصفا منها ساعة ونصفها فى عقبة ذات تعاريج وارتفاع وانخفاض بها مضيق لا يمر منه إلا الجمل تلو الجمل وقد وقفت عنده حتى مر جميع الركب بسلام . وبالخوتلة ثلاث آبار ماؤها حلو وعمق الواحدة منها ثلاث قامات ليست مبنية وبها سوق كبير به أصناف المطعومات أقامه سليمان باشا بن رفادة كبير مشايخ قبيلة ”بِلِي“ لركب المحمـل المصرى وقد قابلنا سعادته بهـذه المحطة وبرفقته نحو خمسين من الأعراب يركبون الهجن ومسلحين ببنادق من نوع «مرتينى هنرى» وقد زار الأمير

والأمين ورئيس الحرس وضباطه فى خيامهم وزاروه وذبح لركب المحمل وموظفيه غنما كثيرة قدم لهم طعامها ودعاه الأمير ورئيس الحرس للغداء فلبي وأعد له الأول سرادقا يبيت فيه ويجلس وأرسل له الموسيقى والمزمار البلدى يشنفان سمعه ؛ وبالحوتلة خشب الحريق كثير وقد أخذنا منه ما يكفينا مدّة الاقامة بمدينة الوجه والسير اليها، لأن الخشب بها نادر يجعل كحزم الفجل وتباع الواحدة بقرش صحيح وقد أقمنا بالحوتلة يوم الخميس والجمعة خامس وسادس صفر سنة ١٣١٩ هـ .

المرحلة الحادية عشرة الختامية من الحوتلة إلى الوجه — فى منتصف الساعة العاشرة من ليلة السبت سابع صفر غادرنا الحوتلة وجدّ بنا السير حتى الساعة الخامسة نهارا حيث استرحنا أربع ساعات ونصفا ثم تابعنا السير بقية اليوم وليل التالى كله ووصلنا إلى مدينة الوجه بعد الساعة الأولى بخمس دقائق من صباح الأحد ثامن صفر فمدة السير ٢٣ ساعة منها ساعة ونصف سرناها إلى الشمال الغربى وساعتان وثلث إلى الغرب وربع ساعة نحو الجنوب الغربى وثمانى عشرة ساعة ونصف نحو الشمال الغربى ونصف ساعة نحو الجنوب الغربى وقد سرنا أربع ساعات و٥ دقائق فى أرض رملية سهلة تكتنفها الجبال المتقاربة وبها شجر "الدوم" ثم سرنا فى سهل اتسعت أرجاؤه وقلت أشجاره واستوت أرضه الرملية المتماسكة ، وبعد مسيرنا ١١ ساعة و٥ دقائق من الحوتلة مررنا بنشوز كثيرة تمثل جسرا يقطع الطريق من الغرب إلى الشرق وبعد ساعتين دخلنا مضيقا قطعناه فى ٣٥ دقيقة به أشجار على جانبيه ثم أخذ الطريق ينفسح شيئا فشيئا مع كثرة التعاريج به وقلة الأشجار ، وقد رأينا على ميمنتنا قبل أن نصل إلى الوجه بنصف ساعة كثيرا من شجر النخيل. وعلى ثلث ساعة من الوجه نزل معسكرنا فى مكان به سوق يباع فيه ما يلزم الانسان والحيوان وما أحسن ما قاله العياشى فى رحلته عند رؤية مدينة الوجه :

وشربنا من مياه عذبة * شربها يجلو عن القلب الحزن
نحمد الله الذى أسعفنا * ورأينا ذلك الوجه الحسن

وقد قَدِم الينا محافظ الوجه وقاضيه الشرعى وكبير تجاره وأكابره وضباط حاميته التى تتألف من نحو ٥٠ جنديا وهنئوا الأمير بوصوله سالما وانصرفوا بعد شرب القهوة ، وقد قابل المحافظ سلطان المكلة وعين له بضعة جنود تقوم بحراسته مدّة إقامته بالوجه ولا أعلم أن الأمير أهدى شيئا للمحافظ أو غيره .

الوجه — الوجه قرية صغيرة على الشاطئ الشرقى للبحر الأحمر إلى الشمال . بها ما يقرب من ١٥٠ بيتا منها ذو الطبقة وذو الطبقتين بنيت بالحجر الخام والملاط ويسكنها حوالى ٥٠٠ نسمة أصلهم من الصعيد والقصير، وبها قلعة ذات مدفعين وثلاثة مساجد وزاويتان وحوانيت على الشاطئ وثمانية صهاريج يحفظ بها ماء المطر ويباع للأهالى ولركب المحمل عند قدومه وتساوى القربة ثلاثة أرباع القرش والسمك فى هذه الجهة كثير جدا ورخيص حتى تباع السمكة التى طولها متر بقرشين صحيحين مع أنها من النوع الجيد والحبوب بها عالية الثمن وعيشها شمسى كالذى يصنعه أهل الصعيد ويتجر أهلها فى المسلى والأرز والشعير والفول والحبوب الأخرى وترد اليها هذه الأشياء من القصير والسويس على مراكب شراعية .

وللبلدة محافظ ملكى وأمين جمرك وأمين حساب وقاض شرعى وكاتب وقسم عسكرى من المشاة والمدفعية وملابسهم ثمينة من الجوخ الأسود الجيد الذى لم نر مثله لجند مكة والمدينة وجدّة ، ولا تمر بالبلدة بواخر البريد أو غيرها إلا مرة فى السنة أو مرتين وليس بها طبيب ويقولون إن مركزه بالعقبة ومركز الصيدلى بالوجه، شتان بين مشرق ومغرب . وقد رأيت طفلا صغيرا لأمين الجمرك بعينه رمد فأعطيته زجاجة قطرة ، وبالبلدة مكتب صغير لم أجد به شيئا من كتب التعليم فأرسلت له مصحفا مجزأ وكثيرا من جزءى عم وتبارك يعلم فيها أولاد الفقراء .

وصول باخرة النجيلة — عند وصولنا إلى الوجه وصلت باخرة النجيلة لتقلنا إلى السويس ولذلك لم نلبث بالوجه إلا يوما وبعض يوم فبعد ظهر الثانى أخذنا ننزل الأمتعة إلى المركب وأتممنا إنزالها فى صباح اليوم الثالث ونزل الركب والحيوان والمحمل فى احتفال ؛ ولما كانت الباخرة معدة لركبنا فقط لم تكن بها أماكن خالية لسلطان المكلة وحاشيته والضرورة قاضية بسفره معنا لندرة البواخر بهذا الثغر أو عدمها فأعددنا له مكانا بظهر الباخرة نصبنا فيه الخيام ليستتر بها الأمير وحشمه .

وقد حضر معنا من المدينة ٤٩ شخصا من فقراء الحجاج الذين أكثرهم من المغاربة الذين تدربوا على تحمل المشاق مهما صعبت ، اختاروا مرافقة المحمل بعد التنبيه عليهم بأن المحمل لايستطيع حملهم ولا يكلف بماء أو زاد لهم والباخرة ترفض إقلالهم . ولما حضروا إلى الوجه كلمت ربان الباخرة فى ترحيلهم فأبى فلما علم المحافظ كرر عليه الرجاء فى قبولهم لأن البلد فقير لايستطيع مساعدتهم بشىء فإن تخلفوا عن الباخرة تعرّضوا للهلاك فقبلهم الربان فضلا منه ومنة وسافروا معنا إلى الطور فالسويس .

من الوجه إلى الطور — أقلعت بنا باخرة النجيلة من ثغر الوجه فى الساعة السابعة العربية من يوم الثلاثاء عاشر صفر سنة ١٣١٩ هـ . ووصلت مرسى الطور فى منتصف الساعة السادسة من يوم الأربعاء الحادى عشر، فمدّة السير اثنتان وعشرون ساعة ونصف كان البحر فى خلالها هادئا غير أن الهواء اشتدّ بعض الاشتداد فى منتصف الليل . وعند رسو الباخرة أقبل طبيب المحجر الصحى وكشف على الحجاج وأمر بنزولهم إلى المحجر ونزول أمتعتهم لتبخيرها ولم يخر من أمتعة الموظفين إلا ما كان منها للخدم ، وقد توجهنا إلى المحجر بقطار السكة الحديدية ومكثنا به ثلاثة أيام واحتفل بنا فى الليلة الأخيرة ناظر المحجر فأقام زينة حضر اليها موظفو المحمل جميعا ونجل سلطان المكلة نيابة عن والده والقسس والرهبان وتلامذتهم وجميع

الموظفين من وطنيين وأجانب، وقد أطرب الحضور موسيقى المحمل ومزماره و بعد تناول المرطبات ألقى خطبة تلميذ من تلامذة الرهبان الفرنسيين وتلاه الشيخ السنباطى بدعوة من الأمير فألقى كلمة ثم صرخت الموسيقى بالنشيد الخديوى وهتف الحاضرون وانتهت الحفلة فى الساعة الخامسة ليلا .

من الطور إلى السويس — بعد أن مكثنا بالمحجر الصحى ثلاثة أيام من ظهر يوم ١١ إلى ظهر يوم ١٤ أذن لنا بالسفر فأبحرت بنا الباخرة فى منتصف الساعة العاشرة من يوم السبت ١٤ صفر ووصلنا السويس فى منتصف الساعة الأولى من صباح الأحد ١٥ صفر فمدّة السير ١٥ ساعة، وقد حضر طبيب المحجر الصحى بعد قدومنا بساعة وكشف على الركاب فلم يجد شيئا فصرح للباخرة بالدخول إلى الرصيف. وقبل نزولنا من الباخرة حضر المحافظ وهنأ الأمير بالقدوم سالما واتفق معه على أن يكون الاحتفال بالمحمل فى الساعة الحادية عشرة العربية من اليوم نفسه وكان الاحتفال شبه الاحتفال الذى وصفناه عند إبحارنا من السويس وعند نزولنا من الباخرة إلى البر كشف علينا طبيب انجليزى فوجدنا مطهرين من الأمراض وقد دعانى مع الأمير والأمين محافظ السويس مصطفى بك ماهر لتناول العشاء على مائدته فلبينا الدعوة وحضرنا إلى منزله الجميل فبالغ فى الحفاوة بنا فشكرنا له صنيعه وكان المحافظ فى الذهاب مصطفى بك عبادى فخلفه مصطفى بك ماهر .

أمير المكلة والشحر — لما كنا بالمحجر الصحى بالطور كتب رئيسه إلى مجلس الصحة البحرى يستأذنه فى سفر الأمير إلى السويس بجدّة فعدن فكانت الإجابة أن يقيم مع حاشيته فى عيون موسى حتى تأتى له باخرة تقله فأبرق إلى اللورد كرومر ليساعده فى مرافقة المحمل إلى السويس فخابر اللورد مجلس الصحة فأذن له ولنجله فقط بالإقامة فى السويس أما باقى الحشم فيبقى بعيون موسى ولكن ساعده الأطباء حتى تمكن هو وجميع صحبه من الإقامة فى السويس بالباخرة حتى أقلته إلى مصوّع باخرة تليانية استأجرها بستمائة جنيه ومن مصوّع تقله باخرة أخرى إلى عدن التى تبعد

عن المكلا مسيرة أربع وعشرين ساعة فى البحر بسير الباخرة وكل موظفى المحجر من كبير وصغير خدم الأمير طمعا فى مكافأته وهداياه ولكن لم ينالوا شيئا ويظهر أن الأمير قل ماله ونفدت هداياه لأنه طلب من مصلحة المحجر الصحى أن يكتب لها صكا — شيكا — بعشرة آلاف روبية وتسلمه بدلها نقدا فاستأذنت من المالية فأذنت على شرط أن تكون الروبية بخمسة قروش ونصف فأبى الأمير شرطها لأنه يخسر فى ذلك مائة جنيه إذ الروبية تساوى ستة ونصفا لاخمسة ونصفا لأن الجنيه الانجليزى ١٥ روبية ، ولما نزل بالسويس أبرق إلى عدن أن حوّلوا لى بالسويس مبلغ عشرة آلاف روبية وكذلك أبرق الى التجار الحضرميين بمصر فحضروا اليه وله عليهم نفوذ وله بهم علاقات تجارية .

من السويس إلى القاهرة — أقلنا القطار فى منتصف الساعة الأولى من صباح الاثنين ١٦ صفر سنة ١٣١٩ هـ . وبلغنا محطة القاهرة فى الساعة الثامنة إلا ربعا من نهار اليوم نفسه وبعد أن نزل الحجاج من القطار سير بالمحمل إلى العباسية فوصلها فى الساعة ٨ والدقيقة ٢٥ وهناك أنزلت الأمتعة وحملتها العربات إلى المعسكر ، وفى الساعة الحادية عشرة العربية أركب المحمل وسار يحف به الحرس والموسيقيون من خمس السرايات إلى شارع العباسية فالمعسكر وكان تزاحم الناس على النظر إليه شديدا ، وفى يوم الخميس ١٩ صفر أقيم له الاحتفال المعتاد بميدان محمد على بالقلعة وفى ختامه سار المحمل بحرسه ومعه قسم من الجيش إلى شارع الصليبة فالسيدة زينب فالناصرية فالمالية وهناك وضع المحمل فى مكانه المعتاد ورجع الحرس إلى العباسية وبقى بها حتى سلم مهماته وانفض المعسكر وصرح لجميع القوة بالأجازة الحرّة حتى الذين لا يستحقونها ليكون الفرح عاما والسرور شاملا فلله الشكر على ما وفق والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

وهاك جدولا بخط السير من بدء السفر الى منتهاه :

جدول خط السير من مصر الى الحجاز ثم الى مصر سنة ١٣١٨ و ١٣١٩ هـ

من	الى	التاريخ	مدة السير دقيقة	مدة السير ساعة	المياه	معلومات عامة
القاهرة	السويس	١٥ ذى القعدة ١٣١٨ هـ ٦ مارس سنة ١٩٠١ م	١٥	٧		السير بالسكة الحديدية المصرية .
السويس	جدّة	١٦ و ١٧ و ١٨ و ١٩ من ذى القعدة	—	٦٧		« فى الباخرة فى البحر الأحمر .
جدّة	مكة	٢٣ و ٢٤ منه	—	٢٣	بالطريق آبار كثيرة يختلف طعم مياهها .	« على الإبل فى طريق سهل بين جبال من الجانبين وبه جملة أماكن للاستراحة وتناول الشاى والقهوة وسبع قلاع بها جند يحافظ على الامن وخشب الحريق به قليل ويحتاج المرء الى دليل .
مكة	منى	٨ ذى الحجة	—	٢		
منى	عرفة	٨ «	٢٠	٣		
عرفة	مزدلفة	ليلة ١٠ «	٥٠	١	المياه عذبة من مجرى عين زبيدة .	الطريق سهل والجبال على شاطئيه لايحتاج فيه الى دليل لكثرة السائرين فيه وبه كثير من الباعة والقهاوى ولا نبات به والشجر نادر والسير من الآن فصاعدا على متون الابل .
مزدلفة	منى	١٠ «	٣٠	١		
منى	مكة	١٠ «	—	٢		
مكة	منى	١٠ «	—	٢		
منى	مكة	١٢ «	—	٢		
مكة	بئر البرود	٢٨ «	—	٦	المياه عذبة من بئر البرود	الطريق كثير الاعوجاج حجرى تارة ورملى أخرى بين جبال تتباعد من ٦٠ الى ٤٠٠ متر والمحطة بميدان فسيح به مرعى ومبتدأ طريق يوصل الى الطائف .
بئر البرود	وادى الليمون	٢٩ «	—	٧	المياه بالوادى شديدة العذوبة تجرى فى مجرى كمجرى عين زبيدة .	الطريق بين جبال يبتدئ بخور كثير الأشجار بعض أرضه زراعى ويكثر اعوجاج الطريق قرب الوادى وبجوانبه البيوت والنخيل والمرعى ولكن بالثمن ويكثر الباعة وخشب الحريق بالوادى .

وادى الليمون	الضريبة أو الحفائر	١و٢ المحرم سنة ١٣١٩ ٢٣ أبريل سنة ١٩٠١	—	١٢	الماء فى حفائر رملية على بعد ٥٠ سنتيا عذب أيام المطر مرّ فى غيرها .	الطريق بين جبال وهو سهل به حصباء وعقبة ذات تعاريج بها مضيق لا يسع إلا جملا واحدا يمر وخشبه متوفر ومرعاه مفقود ولصوصه كثيرون .
الضريبة	البركة	٣ المحرم سنة ١٣١٩	١٥	١٠	بالبركة حوض مربع ٥٠ مترا فى ٥٠ وبها خور كبير والماء فى أيام المطر فقط .	فى أول الطريق خور أرضه غير مستوية بعده أرض حجرية محصبة صعبة السلوك والجبال متباعدة وبالبركة مياه مطر كثيرة وغابة كثيفة ولصوص وخشب حريق .
البركة	حاذا	٤ «	٢٠	١١	الماء من المطر .	بالطريق ثلاث عقبات قطعت الواحدة فى ربع ساعة وهو بين جبال عتيبة أرضه صالحة للزراعة ولا مرعى به .
حاذا	الهضاب	٥ «	—	١٠	لا ماء بالهضاب .	الطريق أرضه خصبة يقل به خشب الحريق به ملاحة مسيرة خمس ساعات يصعب سلوكها اذا نزل المطر ولا ماء بالطريق إلا ما يتخلف من الأمطار .
الهضاب	صفينة	٦و٧ «	—	١٣	بصفينة ٣٦ بئرا فى مائها بعض الملوحة عمق كل منها ١٣ قامة .	بالطريق ملاحة سهلة مسيرة أربع ساعات ثم عقبة ساعة أوّلها وآخرها صعب المسالك والمرعى قليل وصفينة بلدة الشريف وهى صغيرة بها الغنم واللبن والسمن والحشائش والخشب وفيها لصوص سرقوا حصانا مريضا واسترد منهم وأصيب أحدهم برصاصة فى فخذه .
صفينة	السويرجية	٨ «	—	١٠	بالطريق مياه المطر كثيرة	الطريق سهل جدّا كثير الأشجار ليس به مرعى .
السويرجية	الجرية	٩ «	—	١٢	بالجرية ٦ آبار عذبة المياه وماء المطر كثير يتجمع فى بركة .	أكثر الطريق خيران متشابهة ذات أشجار كثيرة عالية فى الجانبين به عقبة مسيرة ساعتين ونصف أولها سهل ووسطها منحدر وآخرها مضيق بين جبال شامخة ولا مرعى بالطريق وبالجرية تباع الحشائش .

(تابع) جدول خط السير من مصر الى الحجاز ثم الى مصر سنة ١٣١٨ و ١٣١٩ هـ

من	الى	التاريخ	مدة السير		المياه	معلومات عامة
			ساعة	دقيقة		
الحجرية	غرابة	١٠ المحرم سنة ١٣١٩ ١٦ مايو سنة ١٩٠١	١٢	—	—	الطريق سهل عظيم الاتساع تناءت عنه الجبال صالح للزراعة خال من المرعى وفى أوّله غابة كثيفة مسيرة ساعتين ونصف .
غرابة	الغدير	١١ المحرم سنة ١٣١٩	٩	—	بالغدير بركة عرضها ١٠ أمتار فى طول ١٠٠ ماؤها عذب وفى سفح الجبل مياه من المطر .	الطريق سهل متسع صالح للزراعة وفى آخره عقبة حجرية ذات ارتفاع وانخفاض واثناء تقاربت فيها الجبال قطعت فى ساعة ونصف والماء بالطريق كثير ولا مرعى ويباع بالغدير الغنم والسمن واللبن «الخض» وحشيش البهائم .
الغدير	المدينة	١٢ «	١٢	—	بالطريق مياه المطر .	أرض الطريق حجرية صعبة ذات مدقات متعدّدة مرتفعة ومنخفضة لا يسع المدق إلا جملا يسير به والمدقات مسيرة ٧ ساعات وخشب الحريق قليل والمرعى معدوم .
المدينة	بئر عثمان	٢٤ «	١	٣٠	بئر عثمان عذب الماء .	الطريق سهل ليس به حشيش للحيوان وبه نشوز حجرية .
بئر عثمان	الطعينى	٢٥ «	٨	٣٠	بالطعينى بئران مالحتان .	الطريق سهل بين جبال به مرعى للجمال وكثير من خشب الحريق وميدان الطعينى فسيح جداً .
الطعينى	الملاليح	٢٦ «	٧	١٥	بالملاليح خمس حفائر عذبة الماء زمن المطر .	يكثر بالطريق خشب الحريق والهواء سموم لا يطاق .
الملاليح	قصر عبلة	٢٧ «	١٠	٢٠	لا ماء .	الطريق واد متسع به أرض حجرية ذات مدقات سهلة مسيرة ساعتين وبه حشائش للحيوان والريح سموم .
قصر عبلة	آبار الحلو	٢٨ «	٩	٤٥	آبار الحلو خمس وماؤها منتن ذو ملوحة وأكثرها مردوم ولو نظفت لحلت	الطريق بين جبال رملى سهل لا مرعى به ويكثر فيه خشب الحريق وبالآبار أثل كثير مسيرة ربع ساعة .

آبار الحلو	الخفائر أو النقارات	٢٩ المحرم سنة ١٣١٩ ١٨ مايو سنة ١٩٠١	١٥	١١	بالنقارات ١٢ بئرا بعضها حلو و بعضها به ملوحة وعمق البئر ٣ أمتار .	الطريق يضيق فى آخره حتى لا يسع إلا القطارين والثلاثة لوجود نشوز كثيرة واعوجاج فى الطريق والخفائر ميدان واسع سبخ بعدت عنه الجبال .
الخفائر	الفقير	أول صفر سنة ١٣١٩	٣	٦	بالفقير خمس آبار بمائها بعض الملوحة .	الطريق سهل سبخ كثير الأشجار به شجر الدوم المثمر .
الفقير	العقلة	٢ »	—	١٤	بالعقلة حفر وبئر مالحة تصلح لشرب الحيوان .	نصف الطريق الأول سهل قليل الشجر ثم يتحجر بين الجبال الشامخة و يكثر فيه الشجر ثم تكثر به حفر الأرانب و يصعب سلوكه و بالعقلة شوك ومرعى جميل يسمى العترى .
العقلة	الناضوح أو المطر	٣ »	—	١٣	قبل المطر بثلاث ساعات ونصف على الميمنة سلسل ماء عذب .	الطريق سهل و بعد منتصفه أرض حجرية صعبة مسيرة ساعة ونصف .
المطر أو العجلة	الخوتلة	٤ »	—	٧	بالخوتلة ثلاث آبار عذبة غير مبنية .	قبل آخر الطريق بساعة عقبة حجرية مسيرة ساعة ونصف لا يمر فيها إلا قطار واحد و بالخوتلة الحشائش والخشب الكثير وسوق به المأكولات وقابلنا فيها سليمان باشا ابن رفادة شيخ مشايخ قبيلة بلى بركب من الهجانة ورافقنا الى الوجه بعد أن أقمنا بالخوتلة يومين .
الخوتلة	أم حرز	٧ »	٣٠	١٤	بالوجه صهاريج ماؤه من المطر .	الطريق مسيرة أربع ساعات رملى سهل بين جبال به أشجار بينها شجر الدوم الصغير ثم يتسع ويستوى وتكثر النشوز المتفرقة غربيه و يقل الشجر فيه وكثيرا ما تقطعه جسور مرتفعة .
أم حرز	الوجه		٣٠	٨		وقبل أم حرز اقتربت الجبال ومررنا بمضيق ذى مصاعد ومهابط و وجد قليل الشجر ثم أخذ الطريق يتسع مع اعوجاج ودوران وقلة شجر الى الوجه وهى ثغر بحرى .
الوجه	الطور	١٠ و ١١ »	٣٠	٢٢	—	السفر بالباخرة بحرا .
الطور	السويس	١٤ »	—	١٥	—	» » »
السويس	القاهرة	١٦ »	١٥	٧	—	» بقطار السكة الحديدية المصرية .

كشف بالمقذوفات « الخرطوشات »

التى أطلقت من مدفع كروب قطر ٦ فى حجة سنة ١٣١٨ هـ — ١٩٠١ م

العـدد	التـاريخ	المكـان	السـبب
٢١	١٦ القعدة — ٧ مارس	السويس	الاحتفال بسير موكب المحمل .
٢١	١٧ » — ٨ »	»	قيام باخرة المحمل من ميناء السويس .
٧	١٩ » — ١٠ »	جـــدّة	الوصول الى جدّة .
٢١	١٩ » — ١٠ »	»	» » » لعدم الاجابة فى الأوّل .
٢١	٢٠ » — ١١ »	»	الاحتفال بسير موكب المحمل .
٧	٢٣ » — ١٤ »	»	سفر ركب المحمل من جدّة .
٢١	٢٥ » — ١٦ »	مكة	وصول ركب المحمل الى مكة .
٢٢	ليالى الاقامة بمكة	»	منع الدخول بالمعسكر .
٦٣	٢٨ القعدة — ١٩ مارس	»	الاحتفال بزيارة الشريف والوالى .
٤٩	٨ الحجة — ٢٨ »	الطريق من مكة لعرفة	الذهاب الى عرفات والوصول اليها .
٧٥	٩ » — ٢٩ »	عرفة ومزدلفة	الافاضة من عرفة والوصول الى مزدلفة .
١٠٥	١٠ » — ٣٠ »	مـــنى	الاعلان بدخول الأوقات الخمسة .
١٠٥	١١ » — ٣١ »	»	» » »
٢١	١١ » — ٣١ »	»	تشريف الوالى .
١١	١١ » — ٣١ »	»	زيارة أمير الحج الشامى .
١٠٥	١٢ » — ١ أبريل	»	الاعلان بدخول الأوقات الخمسة .
٦٣	١٣ » — ٢ »	»	» بدخول الفجر والظهر والعصر .
٤٣	٣٠ » — ١٩ » ١٣ المحرم — ٢ مايو	بين مكة والمدينة	الإعلام بالراحة أو القيام .
٢١	١٣ » — ٢ »	المدينة	الوصول الى المدينة .
٤٢	١٤ » — ٣ »	»	زيارة محافظ المدينة .
٢١	١٥ » — ٤ »	»	إدخال المحمل فى المسجد النبوى .
٢١	٢٧ » — ١٦ »	»	إخراج المحمل من المسجد النبوى .
٦٧	٦ صفر — ٢٥ »	بين المدينة والوجه	الاعلام بالحل والترحال .
٢١	٦ » — ٢٥ »	الوجـــه	الوصول الى الوجه .
٢١	٩ » — ٢٨ »	»	القيام من الوجه .
٢١	١٠ » — ٢٩ »	الطـــور	الوصول الى الطور .
٢١	١٣ » — ١ يونيه	»	القيام من الطور .
٢١	١٤ » — ٢ »	السويس	الوصول الى السويس .
٢١	١٤ » — ٢ »	»	الاحتفال بالمحمل فى السويس .
٢١	١٥ » — ٣ »	القاهرة	وصول المحمل الى الحصوة بالعباسية .
١١٠٠	جملة الطلقات أو المقذوفات وأما «الكبسون» الذى استعمل فبلغ ١٣٢٠ لأن بعضه كان غير جيد .		

ختام الرحلة الأولى

الى هنا بتوفيق الله ومعونته أتممنا رحلة سنة ١٣١٨ ﻫ . وكان تمام نقلها من المذكرات الصغيرة الى الأصل الذى ننقل عنه الآن فى يوم الأحد ١١ رمضان سنة ١٣١٩ ﻫ . ثم كتبناها للمرة الأخيرة تهيئة لطبعها وأضفنا اليها ما وقفنا عليه من المعلومات القيمة عن المسجد الحرام والمسجد النبوى وبلدتى مكة والمدينة وما بالأولى من مشاعر ومناسك ، فوصفنا كل ذلك وصفا دقيقا محيطا وذكرنا عن كل نبذة تاريخية حسب ما وصل اليه علمنا وحققنا كل مسألة حامت حولها الريب والشكوك وفرغنا من تدوين ذلك على الشكل الذى تراه فى صباح الأحد ١٩ ذى القعدة سنة ١٣٤٢ ﻫ و ٢٢ يونيه سنة ١٩٢٤ م . بعد أن مكثنا فى تسطيرها وتأليفها ستة أشهر إلا أياما وبقى علينا أن ندون فى المجلد الثانى رحلات سنى ١٣٢٠ و ١٣٢١ و ١٣٢٥ ﻫ . وسترى فيها ما لم تر فى الرحلة الأولى لاختلاف الطرق التى سلكناها فى كل حجة وسنتبعها بخاتمة فيها مباحث قيمة لن تظفر بها فى أى كتاب . وإنا نسأل الله سبحانه وتعالى أن يمدنا بروح من عنده تسهل لنا اتمامها وطبعها وإخراجها للقارئين فى أكمل حلة وأحسن جلباب والله يهدى الى سواء السبيل ؟

اللــواء

إبراهيم رفعت باشا

ابن سويفى بن عبد الجواد بن مصطفى.

تمت الرحلة الأولى وبتمامها تم المجلد الأول وذلك بمطبعة دار الكتب المصرية

فى عهد حضرة صاحب الجلالة فؤاد الأول ملك مصر

فى شعبان سنة ١٣٤٣ ﻫ — مارس سنة ١٩٢٥ م

الفهرس الهجائى للجزء الأول

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١	٩	وارزقهم	وارزقهم
٣	١٩	مبتعدا	متعبدا
٦٢	١	غارفور	غارثور
٩٤	٢٤	النقل	الثقل
٩٦	٢٤	دنا	دفا
١١٤	٦	بدنة	بُدْنُه
١٢٤	٣	وكدلك	وكذلك
١٥٩	٩	الحج	العمرة
١٥٩	٩	الجمة	العمرة
١٦٣	١١	وابنى	وابتنى
١٧٨	٩	المحكة	المحكمة رسم ٦٠ مكرر
١٨٠	٢٢	حليقا	خليقا
١٨١	٧	المجسد	المسجد
١٨٢	٤	أى	وهى
٢٠١	٤	انسر	انتشر
٢٠٨	١٣	فقط	فقط وبميدان عرفات سبعة أحواض تراها فى الرسم ٧٧
٢٢١	٢٢	بالفنوات	بالقنوات
٢٥٩	٣	أوانى	أوان
٢٦٢	٣	أمه * تدين	أمه تديـ*ـن
٢٧٢	٨	اسودا	أسود
٢٧٣	١٥	وجدرها	ودرجها
٢٨٢	٣	ايمانية	اليمانية
٢٨٩	١٩	والأيود	والأبود
٢٩٨	٥	الكرداسية	الكرداشية
٢٩٩	٢٠	ما يمن	باليمن
٣٠٣	١٥	وبالى	وبلالى
٣٠٩	٢٣	ططام	طعام
٣١٣	٢	ولا بالمزدلفة	ولا بالمزدلفة ولا بمنى
٣١٣	٢٠	عمرة	عُمَرَه
٣٢٢	١٤	ويزيد	وتزيد
٣٢٤	٧	الى عرفة	الى عرفة انظر معسكرنا فى الرسم ١١٩
٣٣٧	١	١٩٢	١٢٩
٣٤٠	١٥	المحادين للحرم	الحادين الحرم
٤١٩	٦	وتسى	ونسى
٤٢١	٣	المعاذ	المعاد
٤٣١	٩	وبكشف	ويكشف
٤٣٦	٩	فشافتى	فشاقنى
٤٣٦	٢٣	المختلقة	المختلفة
٤٣٧	١	جحت	حجت
٤٣٨	٣	الشهير	الشهير انظر قصره فى الرسم ٣٢٥
٤٥٣	٢٣	مسعود	سعود
٤٧٩	٢١	١٧١	١٩١
٤٩٢	٣	صرخت	صدحت

(مطبعة دار الكتب المصرية ١٦٣/١٩٢٤/٣٠٠٠)

